PABLO NERUDA

سيرة سيرة
AUTOBIOGRAPHY

مذكّرات بابلو نيرودا

أعترف بأنّني قد عشت



ترجمة وشرح: د. محمود صبح







مذكّرات بابلو نيرودا

أعترف بأنّني قد عشت

ترجمة وشرح: د. محمود صبح





مذكرات بابلو نيرودا
أعترف بأنني قد عشت

مذكّرات بابلو نيرودا / سيرة - مذكرات
بابلو نيرودا / مؤلّف من تشيلي
ترجمة وشرح: د. محمود صبح / مترجم من فلسطين (مقيم في إسبانيا)
الطبعة الثالثة، 2015



المؤسسة العربيّة للدراسات والنشر
المركز الرئيسي:
المصيطبة - شارع حبيب أبي شهلا - متفرع من جسر سليم سلام
مفرق الجامعة اللبنانية الدولية LIU - بناية النجوم - مقابل أبراج بيروت
ص.ب.: 11/5460 الرمز البريدي 2190-1107
هاتفاكس: 707891/2 1 961 +
بيروت - لبنان
E-mail: mkpublishing@terra.net.lb
موقع الدار الألكترونيّ: www.airpbooks.com

التوزيع في الأردن :
دار الفارس للنشر والتوزيع
عمّان، ص. ب. 9157، هاتف: 5605431/2 6 962+، هاتفاكس: 5685501 6 962+
E-mail : info@airpbooks.com

تصميم الغلاف والإشراف الفنّيّ:
سيب ®، عمّان، الأردن 95297109 7 962+
خطوط الغلاف: زهير أبو شايب / الأردنّ
الصفّ الضوئيّ: المؤسسة العربيّة للدراسات والنشر/ بيروت، لبنان
التنفيذ الطباعيّ : ديمو برس / بيروت، لبنان

ISBN: 978-614-419-504-8

الفهرس

ملاحظات حول هذه المذكرات:

١- إن عنوان المذكرات بالإسبانية هو : بابلو نيرودا ، أعترف بأنني قد عشت مذكرات (Pablo Neruda, CONFIESO QUE HE VIVIDO, Memorias) .

٢- لقد تم طبع هذا الكتاب في برشلونة ، بتاريخ ٢٣ آذار (مارس) من عام ١٩٧٤ ، أي بعد مضي ستة أشهر على وفاة الشاعر ، كما جاء في الصفحة الأخيرة من الكتاب بالنص .

٣- إن عدد صفحات الكتاب في نصه الأصلي هو (٥١٥) صفحة من الحجم المتوسط وبحرف متوسط وبورق عادي .

٤- لقد شرعنا في ترجمة هذه المذكرات في منتصف شهر أيار (مايو) من عام صدور الكتاب ، وقد اقتنينا أول نسخة بيعت في مدريد .

٥- لقد قمنا بتعريبها على مرحلتين ؛ الأولى : ترجمة حرفية استغرقت ثلاثة أشهر ، والثانية : تعريب مع المحافظة على النص الأصلي وذلك بصياغة الترجمة الحرفية صياغة عربية جملة فجملة ومراجعة النص الأصلي في الوقت نفسه ، وقد استغرقت هذه المرحلة أربعة أشهر .

٦- وضعنا بعد ذلك الشروح الضرورية ، وهذه الشروح هي :

أ- عرّفنا بأسماء الأعلام الواردة في الكتاب ، وذلك بالعودة إلى كتب التراجم والموسوعات وغير ذلك .

ب- عرّفنا ببعض أسماء الأماكن .

ج- أشرنا إلى الكلمات التي أصلها عربي ، وهي كثيرة في اللغة الإسبانية .

د- حافظنا على التعابير والأمثال الإسبانية كي نزيد لغتنا العربية غنى على غناها ، ولكننا أشرنا إلى ذلك ، وفي أكثر الأحيان وضعنا ما يقابل أو يماثل كل واحد منها في اللغة العربية .

هـ- شرحنا الكلمات التي لم نجد لها تعريباً ، مثل أسماء بعض الأشجار والأزهار والأطيار والحيوانات وغير ذلك .

و- فسّرنا ما غمض أحياناً أو ما كان تضميناً الخ .

٧- لم نترجم ما ورد في الكتاب من كلمات وعبارات بلغات أخرى غير الإسبانية ، إلا في ما ندر .

٨- لم نشرح الكلمات العربية الصعبة التي اضطررنا أحياناً إلى استعمالها إلا في ما ندر ، وذلك لاعتقادنا أن هذا من عمل القارئ ولفائدته -مع الاعتذار- .

٩- حاولنا أن نحافظ على ما جاء في الكتاب من علامات ونقط وغير ذلك من علامات التعجب والاستفهام والفواصل والأقواس الخ ، كلما أمكن ذلك . (إن جمل (نيرودا) قصيرة ، أحياناً ، وهو يضع كثيراً من النقط) .

١٠- وضعنا أسماء الأعلام بين قوسين ، وبجانب كل اسم يذكر لأول مرة ، رسمه بالحروف اللاتينية ، تجنباً للخطأ في النطق ، فإن تكرر الاسم لم نرسمه باللاتينية ، إلا ما فاتنا . (وهذا يدل القارئ على أن الاسم كان قد ذكر من قبل وعرّف به) .

١١- وضعنا أسماء الأماكن بين فواصل ، ووضعنا كل اسم مكان يذكر لأول مرة ، داخل قوسين بالحروف اللاتينية ، إلا ما اشتهر منها أو فاتنا في الحالتين .

١٢- لقد حاولنا أن ننقل إلى القارئ أسلوب (نيرودا) في هذا الكتاب ، فهو مختلف متباين يتراوح بين الأسلوب النقي العالي وبين الأسلوب المباشر العادي ، (يستعمل ضمير «أنا» مثلاً ، كثيراً جداً) .

١٣- قد يأخذ علينا القارئ أننا أسرفنا في أسلوبنا العربي ، أحياناً ، أو أجحفنا (مثلاً ، ذكرنا ضمير «أنا» بعد الاسم لا قبله ، فلم نقل ، على سبيل المثال : أنا والملك ، بل قلنا : الملك وأنا) فنرجو منه الصفح .

١٤- لم نشأ أن نكتب مقدمة نبيِّن فيها رأينا في هذه المذكرات وندحض بعض أفكار (نيرودا) الخاطئة ، (مثلاً ، رأيه في حرب العصابات ، تحامله على (ماوتسي تونغ) و(فيديل كاسترو) ، وغير ذلك من الآراء السياسية والأدبية التي تستدعي الرد والدحض) ، تجنباً للإطالة ، فالكتاب كبير ضخم .

١٥- لقد وضعنا نصب أعيننا منذ أن بدأنا بترجمة هذه المذكرات إلى أن أنهيناها ، الحديث النبوي الشريف :

«إن الله تعالى يحب إذا عمل أحدكم عملاً أن يتقنه» .

وبيت المتنبي :

ولم أر في عيوب الناس عيباً
كنقص القادرين على التمام

فنرجو من القارئ أن يضع نصب عينيه ، حين يقرأ هذا الكتاب ، بيت أبي تمام :

وعين الرضا عن كل عيب كليلة
ولكن عين السخط تبدي المساويا

د . محمود صبح

مدريد في ١٩٧٥/٢/١٦

الفصل الأول
الشاب القروي

الغابة التشيلية

. . . تحت حمم البراكين ، إزاء القمم الثلجية العاصفة ، بين البحيرات الكبيرة ، الغابة التشيلية المتشابكة الساكنة الشذية . . . تغوص الأقدام في أوراق الشجر الميتة ، لقد خشخش غصن هش ، ها هي أشجار «الراولي»[١] الضخمة تشمخ بقاماتها المتغضنة ، ثمة عصفور يعبر من الدغل البارد ، يرفرف ، يتوقف في غصون الشجر الظليلة ، ثم من مخبئه يصفِّر مثل مزمار صغير . . . يسري عبر أنفي حتى مسارب روحي شذى الغار البري ، شذى شجيرة «البولدو»[٢] الداكن . . . سرو المخافر يعترض خطوي . . . إنه لعالم شاقولي : أمة من العصافير ، حشد من الأوراق . . . أتعثَّر بحجر ، أخدش الوقبة المكشوفة ، عنكبوت هائل ذو شعر أحمر يرمقني بعينين ثابتتين ، بلا حراك ، كبير في حجم سرطان . . . عقرب مذهَّب ينفث نحوي سمه المنبثق ، بينما يختفي قوسه القزحي المشعّ مثل برق خاطف . . . حين أمرّ أجتاز غابة من شجر السرخس أكثر علواً من قامتي : تدع أن يسّاقط عليّ ، فوق وجهي المشرئب ، ستون دمعة تنهمر من عيونها الباردة الخضراء ، ومن خلفي تظل مراوحها ترتعد لمدة طويلة . . . ثمة جذع متآكلة : يا له من كنز! . . . نبات الفطر الأسود والأزرق قد منحها آذاناً ، نباتات طفيلية حمراء قد أفعمتها بالجواهر والحلي ، نباتات كسلى أخرى أعارتها لحاها وينفجر ، سريعاً ، أفعوان يطلع من أحشائها المتآكلة ، كما انبثاق

---

(١) راولي (Rauli) : الكلمة من أصل «أراوكاني» (Araucano) وهي لغة قبيلة هندية كانت تسكن في إحدى مناطق تشيلي ، أما «الراولي» فهو شجر عظيم ، يبلغ ارتفاعه حوالي خمسين متراً ، له ورق شاحب اللون ، متغضن ، تؤخذ الأخشاب من هذا الشجر للبناء وصنع الأبواب والنوافذ .

(٢) بولدو (Boldo) : الكلمة من أصل «أراوكاني» ، وهو شجر ضخم ، أوراقه دائمة الخضرة وأزهاره بيضاء ، تؤكل ثماره ، وتطبخ أوراقه العطرة لتعلك بعد ذلك في سبيل شفاء أمراض المعدة والكبد .

الفجر ، كما لو أن الروح هربت من جذعها الميتة . . . وهناك بعيداً ، كل شجرة انتحت مكاناً قصياً مبتعدة عن نظيراتها . . . تميس فوق بساط الدغل الكتوم ، وكل ورقة سواء أكانت هيفاء أو مكتنزة أو ورفاء أو ملساء لها نمط مختلف وشكل آخر كما لو أن مقصاً ذا حركة متبدلة قد قصها ففصّلها بعضها ليس كبعض . . . ثمة غدير ، الماء الشفّاف من تحت ينزلق فوق الحجر الأعبل واليشب . . . تطير فراشة نقية كنقاوة الليمون ، تتراقص بين الماء والنور . . . تحيِّيني عن قرب الرياحين وهي تنحني لي برؤوسها الصغيرة الصفراء . . . وهناك في الأعالي ، مثل قطرات فُصِدت من الشرايين ، تماوج زهور «الكوبيهوية»[1] الحمراء . . . الأحمر منها هو زهر الدم ، والأبيض منها هو زهر الثلج . . . قد شق السكون ثعلب سريع فاهتزت الأوراق ، بيد أن السكون هو ناموس هذه الأوراق . . . قلّما يسمع صراخ بعيد لحيوان متململ . . . رجع وخّاز لعصفور مختبئ إلا لماما . . . قلّما يوشوش عالم النبات إلا قليلاً قليلاً إلى أن تهبّ زوبعة فتجعل موسيقى الدنيا كلها تتجاوب .

من لا يعرف الغابة التشيلية ، فهو لم يطأ هذا الكوكب الأرضي .

من تلك الأراضي ، من ذاك الطين ، من ذاك السكون ، خرجت أنا لأسير ، لأغني عبر الكون .

طفولة وشعر:

سوف أشرع في الكلام عن أيام طفولتي وأعوامها قائلاً ، إن المطر كان لي الشخصية الوحيدة التي لا أنساها . مطر القطب الجنوبي الغزير الذي يهطل مثل شلاّل من قطب «بولو»(Polo) ينحدر من سماء «كابو دي هورنوس»[2] حتى سماء الثغر . في هذا الثغر ، أو «فار ويست»[3] بالنسبة لوطني ، ولدت للحياة ، للأرض ، للشعر والمطر .

مع أني قد تجولت كثيراً فإنه يبدو لي أنه قد ضاع فن الأمطار هذا الذي كان يمارس وكأنه موهبة متسلطة هائلة بارعة ، في أرضي ، أرض «أراوكانيا»

---

(١) كوبيهويه (Copihue) : الكلمة من أصل «أراوكاني» ، وهو زهر جميل يشبه الليلك ، يستعمل للزينة .

(٢) كابو دي هورنوس : معناها ، رأس الأفران ، وهو على ساحل تشيلي .

(٣) فار وويست : هي منطقة الغرب الأقصى من الولايات المتحدة الأمريكية .

(Araucania) . كانت السماء تمطر خلال أشهر بكاملها ، أعوام بأسرها . كان المطر يتدلى خيطاناً كأنها إبر طويلة من البلور يتكسر على أسطحة المنازل ، أو أنه يستحيل أمواجاً شفّافة تلطم النوافذ ، وكانت كل دار كأنها سفينة لا تبلغ الميناء إلا بشق الأنفس والجهد الجهيد في ذلك المحيط الشتائي .

فليس لمطر جنوب أمريكا البارد هذا هبّات الرياح الهائجة التي تسفّ المطر الساخن لافحاً كأنه السياط ثم يمضي وإذ بالسماء زرقاء صافية . مطر الجنوب على العكس من ذلك له صبر وأناة فهو لا يفتأ يتساقط من السماء الرمادية اللون بلا حد ولا قيد .

تجاه داري ، الشارع أمسى بحراً هائلاً من الوحول . أرى عبر النافذة ومن خلال المطر عربة قد أوحلت في وسط الشارع . وهناك فلاح ملتف بعباءة سوداء يسوّط الثيران التي لم تعد تقوى على المضي بين المطر والوحل .

لقد كنا نتوجه إلى المدرسة عبر الدروب ، ننقل الخطى من حجر إلى حجر ، متعرضين للبرد والمطر . الرياح تتخاطف المظلاّت ، الماطرات (البرشكوتات) كانت غالية جداً ، ولم تكن تستهويني القفّازات ، وكانت الأحذية تبتل بالماء . سوف أذكر دائماً الجرابات المضمخة وهي تجفف قرب الموقد وكثيراً من الأحذية وهي تنفث بخاراً يتقطر ، كأنها قاطرات بخارية صغيرة ، ثم تأتي الفياضانات ، التي كانت تجرف القرى والمساكن حيث كان يعيش أكثر الناس فقراً ، إلى النهر . كذلك كانت الأرض تنهزّ راجفة ، أحياناً أخرى ، كانت تطلّ من سلسلة الجبال قنزعة نور رهيب : البركان «يايما»(Llaima) كان يستيقظ .

إن «تيموكو»(Temuco) هي مدينة رائدة ، من هذه المدن التي لا ماض لها ولا تراث ، غير أن لها دكاكين حدادة ، بما أن الهنود لا يعرفون القراءة ، فإن دكاكين الحدادة تتباهى بشعاراتها البارزة في الشوارع : منشار ضخم ، قدر كبيرة ، قفل فخم ، مغرفة هائلة . هناك بعيداً محلات الاسكافية ، عليها جزمة عظيمة .

إذا كانت «تيموكو» هي السبّاقة الرائدة في الحياة التشيلية بأراضي جنوب تشيلي ، فإن هذا يعني تاريخاً دامياً طويلاً .

أثناء زحف الفاتحين الأسبان ، بعد ثلاثمائة سنة من الكفاح والنضال ، اضطرت قبائل (اراوكانو) إلى التقهقر نحو تلك المناطق الباردة . لكن التشيليين واصلوا ما سمّي بـ«تهدئة أراوكانيا» ، أي ، مواصلة حرب بالدم والنار لانتزاع الأراضي من أبناء

وطننا ، ولقد استخدمت كل أصناف الأسلحة بسخاء ضد الهنود : إطلاق نيران البنادق عليهم ، إحراق أكواخهم ، ومن بعد ، بطريقة أكثر أبوية ، استعمل القانون والخمر ، فالمحامي أصبح اختصاصياً كذلك في إجلائهم عن أراضيهم ، والقاضي أدانهم حين اعترضوا ، والكاهن هددهم بالنار الخالدة الدائمة . أخيراً ، ماء الحياة (العرق) أنجز تصفية جنس عريق عظيم ، من مآثره الشجاعة والجمال ، وهو ما تركه محفوراً في مقاطع شعرية من حديد ويشب ، السيد (الونسو دي ارثيا)[١] في ديوانه «أراوكانا» .

والداي هما من بلدة «باررّال»[٢] ، حيث ولدت أنا ، هناك ، في وسط تشيلي ، تنمو الكرمة ويكثر النبيذ . من غير أن أذكر ، دون أن أعرف إن كنت نظرت إليها مرة بعينيّ ، ماتت أمي السيدة (روسا باسوالتو) . أنا ولدت في الثاني عشر من شهر تموز (يوليو) من عام ١٩٠٤ . بعد شهر ، في آب (أغسطس) ، هلكت أمي بمرض السل ، أمي لم تعد توجد .

الحياة كانت قاسية بالنسبة لصغار المزارعين في وسط البلاد . لقد كان لجدّي السيد (خوسه انخل رييس Jose' Angel Reyes) قليل من الأرض وكثير من البنين . لقد كانت أسماء أعمامي تبدو لي وكأنها أسماء أمراء من ممالك نائية قصيّة . فقد كانوا يسمون (أموس) ، (أوسياس) ، (خويل) ، (أباديس Abadias)[٣] والذي كان اسمه بسيطاً (خوسه ديل كارمن) . هجر أبي ملكيات أبيه وهو شاب صغير ليعمل في سدود ميناء «تالكاهوانو» . ثم أصبح عاملاً في السكك الحديدية بـ«تيموكو» .

كان سائق قطار صابورة . قلائل هم الذين يعرفون ما هو قطار صابورة . في المنطقة الجنوبية ذات الزوابع الهائلة ، تجرف المياه القضبان الحديدية إن لم يكن قد وضعت لها حصوات وحجيرات بين الروافد ، ولذلك فإنه يجب أن تستخرج الصابورة من المقالع في قفف ثم يقلب الحجر الصغير إلى العربات المستوية السطوح في القطار . قبل أربعين سنة كان سائقو قطار من هذا النوع يجب أن يكونوا فطاحل أشداء . أما أجور الشركة فقد كانت بائسة جداً ، وما كان يطلب من الذين كانوا يريدون العمل في

(١) الونسو دي أرثيا : شاعر إسباني (١٥٣٣-١٥٩٤) .

(٢) بارال (Parral) : معناها ، العرائش أو الدوالي .

(٣) يقال إن أسرة (نيرودا) كانت يهودية ثم تنصرت .

القطارات الصابورية أن يبرزوا شهادة بلا سوابق (لا حكم عليه) . والدي كان يسوق القطار ، ليس إلا ، لكنه كان قد تعوّد على الأمر والطاعة فهو أحياناً يأمر وأحياناً يطيع . ولطالما أخذني معه ، كان الرجال هناك يقتلعون الأحجار في منطقة «بوروا» التي هي القلب البري للثغر والتي كانت مسرحاً للمعارك الرهيبة بين الإسبان والأراوكانيين .

كانت الطبيعة هناك تمنحني نوعاً من النشوة وتبعث فيّ شيئاً من الثمالة . لشد ما كانت تجذبني العصافير ، الخنافس ، بيوض الحجل ، وكم كان صعباً العثور عليها خبيئة بين الفجاج والشقوق ، غامقة اللون برّاقة المحيا والبشرة ، لونها كان شبيهاً بلون ماسورة البندقية . ولشد ما كنت أعجب بكمال الحشرات ودقة إبداعها . كنت ألتقط «أمات الحنش» . بهذا الاسم الغريب كان يشار إلى كبرى الحشرات من صنف مغمدات الأجنحة ، سوداء الجبلّة ، صقيلة البدن ، لمّاعة المظهر ، متينة الأضلاع ، قوية الهمة ، عملاقة الحشرات في تشيلي . لقد كانت رؤيتها بغتة تقشعر لها الأبدان ، رابضة في أحضان جذوع شجر «الماكي»(١) والتفاح البري و«الكوبيهوية» ، لكنني كنت أدري أنها جد قوية ومتينة ، فلو دست عليها بأقدامي لن تتهشم . وهي في صلابتها الدفاعية العظيمة ما كانت لتحتاج لسلاح السم .

إن استكشافاتي هذه كانت تثير حب الاستطلاع في نفوس الشغّيلة ، وسرعان ما أخذوا يولون اهتماماً بهذه المكتشفات . فما إن يسهو والدي أو يلتهي حتى ينطلقوا إلى الغابة البكر ، وكانوا يعثرون لي على كنوز غريبة عجيبة ، طبعاً ، بمهارة وذكاء وقوة تفوق ما كان عندي من هذه المواهب . من بين هؤلاء الرجال كان ثمة رجل اسمه (مونخه) ، كان والدي يقول عنه إنه ضارب سكاكين خطير . وكان له في وجهه الأسمر خطان كبيران ، أحدهما كان عبارة عن ندبة شاقولية خددتها على خده حد سكين ، والخط الآخر كان مرسم ابتسامته البيضاء ، أفقية الطيف ، مفعمة باللطافة والمكر معاً . (مونخه) هذا كان يجلب لي زهور شدر «الكوبيهوية» البيضاء ، عناكب كثيفة الشعر ، أفراخ الحمامات المطوقة ، وذات مرة عثر لي على ما هو أكثر خلباً للأبصار ، أحضر لي جعل شجرة «الكوبيهويه» والقمر . لست أدري إن كنتم قد رأيتموه ذات مرة ، فأنا لم أره إلا في تلك المرة . كان برقاً يرتدي قوس قزح . لقد كانت

---

(١) ماكي (Maqui) : الكلمة من أصل «أراوكاني» ، وهو شجر يبلغ علوه ثلاثة أمتار ، له ثمر حلو الطعم .

ألوان ذيله وقشرته تخلب الأبصار بالأحمر والبنفسجي والأخضر والأصفر ، ثم فر من بين يديّ حين لم يكن معي (مونخه) لكي يعود فيلتقطه لي . ما استطعت قط أن أبرأ من تلك المشاهدة الخلاّبة ولا نسيت أبداً ذاك الصديق . لقد قص عليّ أبي حكاية موته ، لقد وقع من القطار وهوى متدحرجاً في بادئ الأمر ، فتوقف القطار ، لكن ، كما كان يروي لي أبي ، ما عثروا إلى على جثة هامدة وكيس من العظام .

إنه لمن الصعوبة بمكان إعطاء فكرة دقيقة عن دار مثل دارنا ، فقد كانت داراً تقليدية كأغلب دور الثغر قبل ستين سنة .

أولاً ، المساكن العائلية كانت تتحاذى ، بعضها كان يتصل ببعض ، هناك في عمق كل فناء كان يسكن آل (ريبس) ، آل (اورتيغا) ، آل (كانديا) ، آل (ماسون) . وكانت هذه العائلات تتبادل الأدوات أو الكتب أو الحلويات في مناسبات أعياد الميلاد ، أو المراهم للدلك ، أو المظلات أو الطاولات والكراسي .

هذه الدور الرائدة كانت تغطي حاجات شعب بكامله وتلبي فعالياته .

كان زعيم آل (ماسون) هو السيد (كارلوس Carlos) وكان ذا شعر أبيض كثيف مسترسل يشبه (أميرسون)[١] ، وقد قدم من أمريكا الشمالية . وقد كان أبناؤه أصليين في انتسابهم إلى طائفة «كريوبوس Carillos[٢]» . وكان له كتابه المقدس وله نواميس يسير عليها ويطبقها ، لم يكن إمبريالياً ، بل كان مؤسساً أصلياً . في هذه الأسرة لم يكن أحد يملك شيئاً من المال ومع ذلك فقد كانت تنمو لها مطابع وفنادق ومحلات بيع اللحوم . بضعة من أبنائه كانوا مديري صحف وآخرون كانوا عمالاً في المطبعة نفسها . كل شيء كان يمضي مع مضي الزمن وكل الناس كانوا يظلون فقراء كما كانوا عليه من قبل . الألمان فقط كانوا يواصلون حديثهم الفائض عن حده ، عن ممتلكاتهم وثرواتهم ، وهذا ما كان يميزهم عن غيرهم من سكان الثغر .

فدورنا كان لها شيء من حقل أو بعض من مرآب ، تعلن عن نفسها ؛ فما إن يدخل المرء حتى يرى براميل وأدوات ومطايا وحاجات صعبة الوصف .

كانت الغرف تمكث دائماً من غير إتمام وانتهاء ، والسلالم أو الأدراج غير مكتملة البناء ، ودائماً كانوا يتحدثون عن ضرورة مواصلة التعمير والبناء ، ثم شرع الآباء

---

(١) اميرسون : شاعر وكاتب من الولايات المتحدة الأمريكية (١٨٠٣-١٨٨٢) .

(٢) كريوبوس : هو من كان أمريكياً من أصل أوروبي ، و(S) هو حرف الجمع في اللغة الإسبانية .

يفكرون في ضرورة إدخال أبنائهم إلى الجامعات .

في دار السيد (كارلوس ماسون) كانت تجري الاحتفالات الكبرى في مناسبات الأعياد .

في كل وليمة كان يدعو إليها ، كان ثمة أوزّ مع كرفس ، خرفان مشوية على السفود وحليب مختر مثلج في نهاية الأكل . منذ كثير من السنوات لم أتذوق طعم الحليب المختر المثلج . رب العائلة ذو الشعر الكثيف المسترسل الأبيض كان يجلس في رأس المائدة غير المتناهية ، وإزاءه زوجته السيدة (مياثيلا كانديا) . خلفه كان يوجد علَم تشيلي كبير وقد ألصق عليه بدبوس راية أمريكا الشمالية ولكن بحجم صغير جداً ، هذا كان أيضاً يمثل نسبة حصة الدم ، فنجمة علَم تشيلي الوحيدة كانت تسود وتطغى .

في دار آل (ماسون) هذه كان ثمة قاعة أخرى كذلك ، لم يكن يسمح لنا نحن الصغار بالدخول إليها ، ما عرفت أبداً لون أثاثها حين كنت ألج إليها لأن هذا الأثاث كان مغطى بأغطية بيضاء تمنع عنها التوسخ والتلف إلى أن هبّت النار يوماً فابتلعت الأثاث وأغطيته . كان في هذه القاعة مجمع (البوم) صور للأسرة . وكانت هذه الصور أكثر رقة وروعة من صور التكبيرات الفظيعة التي اجتاحت الثغر في ما بعد .

في هذه القاعة كان معلقاً رسم أمي داخل إطار ، كانت سيدة ترتدي ثوباً أسود ، نحيلة متأملة . لقد قالوا لي إنها كانت تكتب الأشعار ، غير أني ما شاهدت هذه الأشعار أبداً ، لم أر إلا ذاك الرسم البديع .

تزوج والدي للمرة الثانية بالسيدة (ترينداد كانديا ماربيرده) ، فغدت بهذا خالتي زوجة أبي . يبدو لي شيئاً مستحيلاً قبيحاً أن يطلق هذا الاسم على الملاك الذي كفل طفولتي وحدب عليها . لقد كانت امرأة نشيطة عذبة ، كان له روح الدعابة الريفية وكان لها طيبة حيوية متجددة فياضة .

فما إن كان يدلف والدي إلى الدار حتى تستحيل إلى طيف عذب وظل خفيف ليس إلا ، كجميع نساء ذلك الزمن وذاك المكان .

في بهو دارنا رأيت رقصات «ماثوركا»[1] و«كوادريا»[2] تبعث الفرح والطرب .

---

(١) ماثوركا : الكلمة من أصل بولوني ، وهي رقصة بطيئة الحركات ، تعبر عن الود والمحبة .

(٢) كوادريا : هي رقصة جماعية ، تعبر عن التآلف والانسجام .

كان في دارنا كذلك صندوق يحتوي على أغراض وأشياء ساحرة فاتنة . وفي أسفله كان يلتمع قفص رائع . ذات يوم ، بينما كانت «أمي» تعيد تنظيم تلك السفينة المقدسة ، وقعت على رأسي في جوف الصندوق لأبلغ ذاك القفص . لكن مع نمو عمري وجسمي كنت أفتحه سراً لأنظر ما فيه ، كانت فيه مراوح نسائية ثمينة جداً لم تمس قط .

أحتفظ بذكرى أخرى عن ذاك الصندوق . أول رواية غرامية أثّرت بي وهي عبارة عن بطاقات بريدية مرسلة من شخص ما ، بتوقيع ، لم أعد أذكره ، أهو (انريكه) أم (البرتو) ، وكانت جميعها مرسلة إلى (ماريا ثيلمان) ، وكانت هذه البطاقات رائعة حقاً ، فهي صور لممثلات شهيرات في ذلك الوقت مطلية ببرنيق وكانت ما تزال في رونقها غير متلفة ولا ممحوة وأحياناً كانت ملتصقة عليها خصلات شعر . كذلك كان في هذه البطاقات صور قلاع ومدن ومناظر طبيعية غير مألوفة . خلال عدة سنوات كنت أتمتع برؤية الصور فقط ، غير أني ما إن كبرت قليلاً حتى أخذت أتلذذ بقراءة تلك الرسائل الغرامية المسطرّة بخط جميل متقن . وكنت دائماً أتخيل ذلك العاشق أنه رجل بقبعة سوداء وعكاز ، وبألماس في ربطة عنقه ، بيد أن تلك السطور خطتها يد عاشق ولِه ، ومداد عاطفة جيّاشة أخاذة ، لقد أرسلها مسافر من جميع أنحاء العالم . كانت مدبجة بعبارات ساحرة باهرة أملتها جرأة عشق واندفاع هوى . شعرت أني قد بدأت أعشق أنا كذلك (ماريا ثيلمان) ، لقد كنت أتصورها ممثلة أنوفا متوجة بالدر والجوهر . لكن كيف وصلت هذه الرسائل إلى صندوق أمي؟ ما استطعت أن أعرف ذلك قط .

ها هو ذا عام ١٩١٠ يصل إلى «تيموكو» . في هذا العام الذي أذكره دائماً دخلت إلى المدرسة . كانت عبارة عن دارة كبيرة فسيحة ذات قاعات غير متناسقة وسرادب تحت الأرض معتمة . وهناك من علو المدرسة كان يلمح ، في الربيع ، نهر «كاوتين» المنعطف اللذيذ وهو يصافح ضفافه العامرة بأشجار التفاح البرية .

كنا نهرب من الدروس لكي نغطس أرجلنا في الماء الفرات الذي يترقرق فوق الأحجار الصقيلة البيضاء .

لكن المدرسة كانت حقلاً لمجالات عديدة بالنسبة لأعوامي الستة . فكل شيء كان له احتمال المجهول . مخبر الفيزياء الذي ما تركوني أدخله أبداً ، كان مليئاً بأدوات باهرة ، بأنابيب معوجّة ، بأوان كثيرة . المكتبة كانت بشكل دائم مغلقة أبوابها . ما

كان أبناء الرواد يتذوقون المعرفة والعلم . بيد أن القبو أكثر الأماكن سحراً وروعة . ففيه كان يخيم السكون وتسود العتمة ، وهناك كنا في ضوء الشموع نلعب لعبة العسكر واللصوص ، فكان الغالبون يربطون الأسرى بالاعمدة العتيقة . ما زلت حتى الآن أشتمّ رائحة الرطوبة ، رطوبة مكان محصور ، رطوبة جدث ، رطوبة كانت تفوح من قبو مدرسة «تيموكو» .

كنت آخذ بالنموّ جسماً وعقلاً ، وراحت تثير اهتمامي الكتب وراحت تجول روحي عبر مناطق الحلم في حماسة (بوفالو بيل Buffalo Bill)[١] وفي رحلات (سالغاري Salgari)[٢] . أما أوائل الحب النقية جداً فقد كانت تفيض في رسائل موجهة على (بلانكا ويلسون) . وكانت هذه الفتاة هي ابنة حداد البلدة الشهير ، وبناء على طلب أحد الفتيان التائهين في حبها كنت أكتب باسمه هذه الرسائل الغرامية إليها . لم أعد أذكر كيف كانت هذه الرسائل ، لكن ربما أنها باكورة أعمالي الأدبية ، إذ إنه ، ذات مرة ، سألتني زميلتي الفتاة المعنية عما إذا كنت أنا هو من كان يصوغ لها هذه الرسائل الغرامية التي كان ينتحلها عاشقها حين يحشرها في يدها ، ما كنت لأجرؤ على إنكار أعمالي الأدبية ، وبتلكؤ أجبتها أن أجل . إذّاك ناولتني سفرجلة لم أشأ أن أقضمها فاحتفظت بها وكأنها كنز ثمين ، وهكذا ، وقد أجلت عن قلبها صاحبي ، حللت موضعه فمضيت أدبج لها رسائل غرامية لا تنضب ولا تنتهي ورحت أكنز سفرجلة إثر سفرجلة .

ما كان صبيان المدرسة يعرفون أني شاعر ، وإن عرفوا ما كانوا يقدّرون لي هذه الموهبة . لقد كان للثغر هذا الطابع الرائع طابع «فار ويست» الخالي من الأوهام والهواجس . ألقاب زملائي كانت على النحو التالي : (شناكس) ، (شيلير) ، (هاوسيرس) ، (سميت) ، (تايتوس) ، (سيرانيس) . وكانت ألقاب عائلاتنا متشابهة فهي : (اراثيناس) ، (راميريث) ، (ربيبس) . لم تكن هناك ألقاب «بسكوية» . كان ثمة ألقاب «سيفاردية» : (البالاس) ، (فرانكو) . كانت هذه ألقاب إيرلاندية : (ميك غينتيس) ، بولونية : (يانيشيويكيس) . كانت تشعّ نوراً غامقاً الألقاب الأراوكابية ،

---

(١) بوفالو بيل : هو ممثل من الولايات المتحدة كان «بطلاً» من أبطال الغرب الأمريكي في الأفلام ، يسلي الأطفال ويثير حماستهم (١٨٤٦-١٩١٧) .

(٢) سالغاري : كاتب إيطالي (١٨٦٣-١٩١١) .

وهي تفوح برائحة الخشب والماء : (ميليبيلوس) ، (كاتريوس) .

كنا نتراشق ، أحياناً ، في البهو المغلق ببلوطات[1] . لا أحد ، ما لم يكن قد تلقى ضرباته ، يعرف كم هو موجع البلوط حين يصيب جسم المرء أو رأسه . قبل الوصول إلى المدرسة ، كنا نملأ جيوبنا بالأسلحة والذخائر ، أما أنا فقد كانت لي قدرة ضئيلة ، أقذف من غير حول ولا قوة ، أصوّب بقليل من البراعة والدهاء . بينما كنت أتلّهى بتأمل البلوطة الرائعة الشكل كانت تتوالى عليّ أخواتها فيصيبني منها أسوأ قسط ولكن أكثره وأوجعه . كم هي جميلة البلوطة ، خضراء رشيقة ، بقلنسوتها الخشنة الرمادية ، في أثناء ما كنت أحاول ، بغباوة وقلة دراية ، أن أصنع منها غليوناً من هذه الغليونات التي كان يصنعها رفاقي ، كانوا يتخاطفونها مني ، بعد أن ينصبٌ فوق رأسي طوفان من زخات البلوط ووخزاته .

خطر لي ، حين كنت في السنة الثانية من المدرسة الابتدائية ، أن أضع على رأسي قبعة غير نافذة للماء ، ذات لون أحمر فاقع ، وكانت هذه القبعة لوالدي ، بما أن دثارها القشتالي[2] وسهامها ذات الشارات الخضراء والحمراء كانت تسحرني وتدهشني ، فقد كنت أضعها ، كلما استطعت ذلك ، وأمضي بها إلى المدرسة مختالاً مزهواً . ذات مرة كانت السماء تمطر بلا هوادة ولا رحمة ، إذن ، فليس هناك أفضل من هذه القبعة ذات المشمع الأخضر التي كانت تبدو وكأنها ببغاء ، وما إن ولجت البهو الذي كان يتراكض فيه حوالي ثلاثمائة من اللصوص وقطّاع الطرق ، حتى طارت قبعتي كما يطير ببغاء . وكلما كنت أتبعها وأوشك أن أصطادها ، كانت تعود فتطير من جديد بين النباح والعواء والمواء مما كان يخز في سمعي ويصمّ أذني ، في حياتي كلها ما سمعت قط مثل هذه الجبلة ومثل هذا الضجيج ، أما القبعة فقد طارت إلى الأبد .

لست أرى جيداً في هذه المذكرات تتابع الزمن وتسلسل الحوادث بدقة ونظام ، تتشابك في مخيلتي وتتراكم أحداث كثيرة كانت ذات أهمية بالنسبة لي ، ويبدو لي أن هذه الحادثة الممتزجة في شكل غريب بالتاريخ الطبيعي هي أولى مغامراتي الهزلية . ربما كان الحب والطبيعة منذ مطلع حياتي هما فلزات شعري .

---

(١) بلوطات : هكذا في الأصل Bellotas عن العربية .

(٢) القشتالي : نسبة إلى «قشتالة» Castilla وهي المنطقة الوسطى في أسبانيا .

مقابل دارنا كانت فتاتان تقيمان هناك ، على الدوام وباستمرار كانتا ترمياني بنظرات تبعث في نفسي الحياء والخجل . بقدر ما كنت أنا وجلاً خجلاً ، صامتاً ساكناً ، كانتا هما يافعتين قبل الموسم والأوان ، ماكرتين شيطانتين . في إحدى المرات ، بينما كنت واقفاً على باب دارنا وأنا أحاول ألا أنظر إليهما ، لمحت بين أيديهما شيئاً خبلني فخبلني ، فدنوت منهما بحيطة واحتياط فأرتاني عش عصفور بري ، منسوجاً من الطحلب والريشات ، يكنّ في داخله بُييضات صغيرة رائعة ذات لون فيروزي . حين هممت لأخذه ، قالت لي واحدة منهما إنه بادئ ذي بدء لا بد من أن يجسّاني ويتحسّساني تحت سروالي فارتعدت هلعاً وأقفلت مسرعاً ، تطاردني الفتاتان البكران اللتان كانتا تلوّحان بالكنز المثير ، في أثناء عملية المطاردة دلفت في زقاق باتجاه محل خاو كان مخبزاً يمتلكه والدي ، وهناك أدركتني المعتديتان وطفقتا تنزعان عني سروالي وملبسي ، وما إن همّتا بي حتى سمعت في الممشي خطوات أبي ، اذّاك تهشّم العش وانفقصت بيضاته البديعات الرائعات في ذاك المخبز المهجور ، بينما كنا نحن : المعتدى عليه والمعتديتان ، نكتم أنفاسنا تحت المنضدة .

أذكر كذلك أنه ، ذات مرة بينما كنت أفتش عن حاجات عالمي الصغيرة وحيواناته الضئيلة في فناء دارنا ، عثرت على فجوة في السياج الخشبي ، نظرت من خلال الفجوة فرأيت حوشاً شبيهاً بحوش دارنا ، أرضاً بوراً ودشرة خلاء ، تراجعت بضع خطوات لأنه تولّد لديّ إحساس غامض مبهم بأنني على وشك أن أدوس شيئاً ما ، وبغتة ظهرت يد صغيرة ، إنها يد طفل في سنّي ، لما اقتربت من جديد لم أعثر على يد الطفل بل على حمل صغير أبيض اللون ضئيل الحجم .

كان حملاً ذا صوف قليل باهت اللون ، قد فرت منه العجلات التي كان يتدحرج عليها ، ما رأيت طيلة حياتي حمَلا في رشاقة ذاك الحمل وجماله ، ذهبت إلى بيتنا لأعود له بهدية وضعتها في المكان ذاته! كوزا من الصنوبر ، نصف مفلوق ، ذا شذى ، بلسمياً ، وكنت أنا أعبده وأتعشّقه .

أبدا من بعد ، ما عدت فرأيت يد الطفل ، ما شاهدت قط حملاً مثل ذاك الحمل . لقد فقدت الحمل في حريق اختطفه مني ، وما زلت حتى الآن على كبر عمري ، حينَ أمرَ بحمل للعب الأطفال ، انظر خلسة إلى الواجهات الزجاجية ، علّني أعثر عليه ، لكنني عبثاً أبحث ، فلقد عجزت المصانع أن تأتي بحمل كمثل ذاك الحمل .

الفن والمطر:

مثلما كان يحل البرد والمطر ووحل الدروب ، أي شتاء جنوب أمريكا المستهتر المدمر ، كان كذلك يكتسح هذه المناطق الصيف الأصفر اللافح ، كانت تحيط بنا الجبال البكر ، غير أني كنت في شوق عارم لرؤية البحر والتعرف عليه . لحسن حظي استطاع أبي ذو النية الطيبة أن يحصل على دار أعاره إياها أحد عرّابيه العديدين في السكة الحديدية . في الساعة الرابعة ليلاً (ما استطعت حتى الآن أن أعرف لماذا يقال الساعة الرابعة صباحاً) ، وفي جو يسوده الضباب الكثيف ، أيقظ والدي ، السائق ، جميع من في الدار بصفّارته ، صفّارة سائق . منذ هذه اللحظة ما عاد ثمة سلام وهدوء ، ولا حتى ضوء ، وعلى لهب الشموع الذي كان يترنح ويذبل كلما تسللت من جميع الجهات هبّات الرياح ، كانت تلوب أمي ، أختي (لاورا) ، أخي (ارودولفو) ، الطاهية ، يتراوحون من مكان إلى آخر ، ويطوون الفرش الكبيرة فتغدو مثل كرات ضخمة ، ويلفونها بأقمشة من القنب الهندي ، وكان لا بد من شحن الأسرّة في القطار ، حين انطلقنا إلى المحطة القريبة كانت الفرش لمّا تزل ساخنة دافئة . أما أنا ، المراض والمحموم بطبيعتي ، فكنت أشعر بالغثيان والقشعريرة وقد قفزت من عز نومي ، بينما كانت التحركات في الدار تتتابع من غير هوادة وبلا انتهاء . ما بقي شيء لم يحمل في سبيل هذا الشهر ، شهر عطلة الفقراء ، حتى المجففات المصنوعة من الصفصاف والتي كانت توضع فوق المجامر المتوقدة حتى تسخن ثم تجفف بها الشراشف والملابس التي كانت تغدو بليلة دائماً بسبب رطوبة الطقس ، قد رقعت فحشرت في العربة التي كانت تنتظر الطرود والحزم .

كان القطار يجتاز جزءاً من تلك الناحية الباردة ، من «تيموكو» حتى «كاراهوه» . كان يعبر مساحات واسعة غير آهلة لا بالبشر ولا بالزرع ، كان ينسرب عبر الغابات البكر ، كان يرتجّ كأنه هزّة أرضية وهو يخترق الأنفاق والقناطر . كانت المحطات تبدو منعزلة في وسط الحقول بين الأشجار الشذية وأشجار التفاح المزهرة . كان الهنود «الاراوكانوس» بأزيائهم الطقوسية وبهيبتهم العريقة ينتظرون في المحطات لكي يبيعوا للمسافرين خرافاً ، دجاجاً ، بيضاً ، منسوجات . وكان والدي بعد الكثير من المفاصلة والمماحكة يشتري شيئاً منهم . وكم كان جميلاً أن يُرى وهو يشيل دجاجة حتى مهوى لحيته الصغيرة الشقراء ، في وجه امرأة «أراوكانية» جلفة عنيدة لا تخفض ثمن بضاعتها ولا بنصف فلس .

كان لكل محطة اسم جد بديع ، هذه الأسماء جميعها تقريباً كانت تراثاً ينحدر من منازل «الراوكانوس» القديمة . وهذه المنطقة كانت مجالاً للمعارك الطاحنة بين الغزاة الأسبان وأوائل التشيليين ، أولئك الذين كانوا أبناء هذه الأرض عن أصالة وصدق محتد .

«لابرانثا» كانت أولى هذه المحطات ، ثم تتوالى محطة «بوروا» فمحطة «رانكيلكو» . أسماء ذات شذى كشذى النباتات البرية ، كانت تأسرني بنبرات مقاطعها ، فهذه الأسماء «الأراوكانية» كانت تنبئ دائماً عن شيء لذيذ : شهد خبيء ، بحيرة أو نهر إزاء غابة ، جبل بلقب عصفور . كنا نجتاز «امبريال» الضيعة[1] الصغيرة فذكرت أنه هنا أعدم الحاكم الأسباني الشاعر السيد (الونسو دي ارثيا) . فلقد كانت هنا عاصمة الغزاة الفاتحين خلال القرنين الخامس عشر والسادس عشر ، فاخترع «الأراوكانيون» تكتيك الأرض المحروقة ، فلم يدعوا حجراً على حجر في هذه المدينة التي وصفها (ارثيا) بالجمال والجلال .

لقد آن الوصول إلى المدينة النهرية ، فالقطار كان يطلق أكثر صفاراته فرحاً وكان يغطي الحقول والمحطة بدياجير من خصلات الدخان الفحمي المنسدلة ، فشرعت الأجراس تدق وبدأنا نتنسم عطر المجرى المديد لنهر «أمبريال» السماوي الهادئ عند اقترابه من مصبه في المحيط . إنزال الطرود والحزم العديدة ، ترتيب الأسرة الصغيرة ، أركابها والأحزمة في عربة تجرها الثيران حتى تتوجه نحو المركب الذي سيهبط عبر نهر «امبريال» ، كل ذلك كان عملية يقودها والدي ويوجهها بعينيه الزرقاوين وبصفيره القطاري . انحشرنا نحن والحزم في البويخرة التي كانت ستقلنا إلى البحر . لم يكن ثمة غرف في البويخرة ، ولذا فإني قعدت قرب قيدومها . كانت العجلات تحرك بريش مراوحها التيار النهري ، وكانت آلات السفينة الصغيرة تلهث وتصهل ، وكان أناس الجنوب المطرقون يمكثون بلا حراك منتشرين على ظهر المركب .

كان ثمة أكورديون يرسل نغمات أساه الرومانطيكية ، يبعث شكواه إلى الحبيب . ليس من شيء يجتاح قلباً ذا خمسة عشر عاماً كمثل إبحار عبر نهر عريض مجهول بين ضفاف جبلية باتجاه البحر الطلسم .

---

(١) الضيعة : هكذا في الأصل Aidea عن العربية .

إن «باخو امبريال Bajo Imperial»[1] كان عبارة عن صف من المنازل ذات سقوف ملونة تقوم على جبهة النهر . من الدار التي نزلناها بله من الأرصفة المتشققة حيث رسا المركب ، أخذت أنصت ، من على بعد ، إلى الرعد البحري ، إلى هيجان قصي . لقد كان التموج يتسرب إلى أعماق وجودي .

كانت هذه الدار التي نزلناها ملكاً للسيد (اوراثيو باتشيكو) ، كان مزارعاً جباراً فذاً ، كان خلال هذا الشهر الذي أحتللنا فيه داره ، يمضي عبر التلال والدروب الوعرة الصعبة بعربته وآلته الدارسة ، وكان بآلة أخرى يحصد القمح للهنود الحمر ولبعض الفلاحين النائين عن سكان الساحل . كان رجلاً ضخماً ، على حين غرة ودون سابق إنذار أو إخبار ، كان يقتحم الدار ويفجأ أسرتي السكك حديدية ويتكلم بصوت جهوري وبجسم مغطى بالغبار وتبن الحبوب ، ثم بالجلبة ذاتها وبالسرعة نفسها يعود إلى أعماله في الجبال ، وكان بالنسبة لي أنموذجاً آخر لهذه الحيوات الصعبة القاسية في منطقتي الجنوبية .

كان كل شيء يبدو لي غريباً غامضاً ، الدار نفسها ، الشوارع المتشققة ، الكائنات المجهولة التي تحيط بي ، النغم العميق للبحر المديد البعيد . كانت للدار ، كما بدا لي ، حديقة فسيحة غير منظمة ولا معتنى بها ، وفي وسطها ، فسحة كانت قد أتلفتها الأمطار ، وكانت هذه الفسحة مصنوعة من أخشاب بيضاء تغطيها بعض النباتات . وما من أحد غير شخصيتي التي لا أهمية لها ، كان يأوي إلى هذه الوحدة الظليلة حيث تنمو أشجار اللبلاب وزهور العسل وشعري . على فكرة ، كان في تلك الحديقة الغريبة شيء آخر يخلب الألباب ويثير المشاعر : زورق كبير ، غدا يتيماً بعد أن غرقت أمه السفينة ، كان هناك في الحديقة يرقد بلا أمواج هائلة ، ساكناً بين شقائق النعمان .

ما هو غريب أيضاً في تلك الحديقة هو أنه ، سواء أكان ذلك عن تصميم أو عن غير تصميم ، ما كان يوجد من النبات إلا شقائق النعمان ، أما النباتات الأخرى فقد انسحبت من ذاك المكان الظليل . وكانت شقائق النعمان على أنماط وألوان مختلفة ، منها ما هو كبير أبيض كالحمامة ، منها ما هو قرمزي كقطرات الدماء ، منها ما هو بنفسجي وأسود كالأرملة المنسية . ما كنت شاهدت من قبل مثل هذه الكثرة من

---

(١) باخو : معناها ، تحت ، فالبلدة اسمها إذن : امبريال التحتانية .

زهور شقائق النعمان ، وأبدا من بعد ، ما عدت فرأيت مثلها كثرة وتنوعاً . مع أني كنت أنظر إليها بكثير من الاحترام والإجلال ، وبشيء من الخوف الخرافي الذي لا تبثه إلاّها من بين أصناف الزهور كلها ، فإني من حيث إلى حين كنت أقطف واحدة منها فتترك ساقها المهشمة في يدي حليبا خشن الملمس ، ورشّة من الشذى الدفين ، ثم أداعبها وأدغدغها ثم أحتفظ بها في كتاب بأوراق حريرية فاخرة . لقد كانت هذه الشقائق بالنسبة لي فراشات كبيرة لا تحسن القفز ولا تعرف الطيران .

حين مضيت إلى المحيط لأول مرة وبقيت وحيداً أمامه ، شعرت بالهلع والذهول . ومن هناك ، بين ربوتين كبيرتين ربوة «ألـ هويلكة» وربوة «ال ماوله» ، كان يصطخب غضب البحر ، ليس غضب الأمواج الهائلة الهاوية التي تعلو عدة أمتار فوق رؤوسنا فحسب ، بل كذلك كان دوي قلب جم ، وجيب كون وخفقان يم .

هناك على شاطئ البحر ، عائلتي كانت تفترش أغطيتها وتعدّ أوانيها ، وكان الأكل يبلغ فمي رملي الطعم واللون ، ولكن هذا ما كان يهمني كثيراً بل إن الذي كان يبعث في نفسي الهلع والخوف هو اقتراب اللحظة التي يأمرنا فيها والدنا بالاستحمام البحري الذي كان خبزنا كفاف يومنا ، ومع أننا كنا : أنا وأختي (لاورا) ، بعيدين عن الأمواج العملاقة ، فإن الماء كان يجلدنا بضربات سياطه الباردة اللاذعة . وكنا نظن مرتعدين أن إصبع إحدى الموجات سوف يجرجرنا نحو جبال البحر السامقة الرهيبة ، وعندما نتهيأ للموت وقد أخذنا نتقارب يداً بيد ، وبأسنان مصطكة برداً وخوفاً وبأضلاع دكناء مزرورقة ، ترن الصفارة القطارية ويأتي أمر والدنا لينقذنا من العذاب .

سوف أروي الآن غرائب وعجائب أخرى عن تلك المنطقة ، وسأكتفي بقصتين الأولى عن الخيول والأخرى عن دار النساء الثلاث ، الساحرات الرائعات .

في ربض البلدة كانت تشمخ بيوت كثيرة ، كانت عبارة عن أماكن للدباغة ، في ما أظن . يملكها بعض «البشكنس»[1] الفرنسيين ، كان هؤلاء «البشكنس» دائماً ، يقومون في جنوب تشيلي بصناعة الجلود ودباغتها . الحقيقة هي أنني ما كنت أعرف

---

(١) البشكنس : هو الاسم الذي أطلقه العرب على «البسك» Vascos وهم شعب يسكن في شمال أسبانيا وجنوب غرب فرنسا ، لا يُعرف من أين جاء هذا الشعب ولا مصدر لغته ، فهي ليست من أصل لاتيني ، لم يعتنق «البسك» الديانة المسيحية إلا في وقت متأخر فقد بدأوا باعتناقها في القرن الثالث عشر .

على وجه الدقة عما كان عليه أمرهم وشأنهم ، بل إن ما كان يهمني معرفته هو أن أرى الخيول وهي تخرج من بوابات كبيرة في ساعة معينة عند الغروب لتكتسح القرية وتجتازها ، كانت الخيول مؤلفة من أحصنة ومهور وأفراس ذات أجسام ضخمة قوية ، أعرافها الكبيرة كانت تتدلى وكأنها ضفائر شعر أو خصلات صبية على صهوات الخيل العالية ، أرجلها ضخمة متينة مغطاة كذلك بغصون من الشعر تتماوج لدى القمص كأنها مجموعة من القنابر والقنزعات والخصلات ، حمراء ، بيضاء ، وردية اللون . لو أن البراكين تخب وتقمص لبدت مثل هذه الخيول الجسيمة الهائلة . كانت تمضي عبر الشوارع المغبرة المنقضمة كأنها الزلزال الرجراج المهزاز ، غطاريس صناديد تختال وتنوس ، كانت كالتماثيل والأصنام المتحركة ، لا عد لها ولا حصر ، أبدا ما عدت فرأيت مثلها في حياتي ، اللهم إلا تلك التي شاهدتها في الصين محفورة منحوتة في الحجر الصلد نصباً وشواهد على أجداث سلالة (مينغ Ming) ، لكن مهما كان الحجر قيّماً ومقدساً فإنه لا يمكن له أن يمثل أو يتمثل تلك الحيوانات الرائعة الفياضة بالحركة والحيوية ، تلك الخيول بدت أمام مخيلتي الطفولية وكأنها تنبثق من ظلمات الأحلام لتلجّ في عالمٍ آخر ، عالم العمالقة .

والواقع أن ذلك العالم كان مكتظاً بالخيول ، فعبر الشوارع ، كان الفرسان التشيليون والألمان والهنود الحمر من قبائل «مابوتشيس»[1] بعباءاتهم المغزولة المنسوجة من الصوف الأسود القشتالي ، يمتطون صهوات خيولهم أو ينزلون عنها . وتبقى الخيول الضامرة أو المكتنزة ، النحيلة أو الثخينة ، هنك حيث يتركها فرسانها ، تعلك الكلأ وعشب الدروب ، تقذف الدخان والأنفاس من خياشيمها . لقد ألفت سواعد فرسانها وتعودت على حياة الدشرة الموحشة المنفردة . . . ثم ، إذا جاء المساء ، تؤوب مثقلة بأكياس العلف والعُدد والأدوات ، تمضي نحو الأرباض البعيدة المتشابكة ، تصعد الدروب الوعرة أو تقمص إلى الأبد في الرمال إزاء البحر . من حين إلى حين كان يخرج من إحدى وكالات الشغل أو من إحدى الحانات المعتمة أحد الفرسان «الأراوكانيين» ، يحاول ، بصعوبة ، أن يمتطي حصانه الثابت الراسخ ، ثم يولي وجهه شطر داره بين الجبال ، يترنح من جانب إلى آخر وقد بلغت منه الخندريس غايتها . حين أراه يشرع المسير ثم يواصل الطريق ، كان يخيَّل إليّ أن

---

(١) مابوتشيس : هو اسم آخر للقبائل «الاراوكانية» .

المسخ[1] الشمل سيهوي على الأرض كلما مال به جسده ناحية أو أخرى بشكل خطير، غير أني كنت أخيب في ظني وتحسبي، فقد كان يعود فيستقيم، ثم يميل إلى الجانب الآخر مرة أخرى ثم يعود فيستقيم وهكذا دواليك، وفي كل مرة يستعيد أنفاسه ويلتصق بالسرج، ثم يروح على ظهر حصانه يقطع فرسخاً إثر فرسخ إلى أن ينصهر والطبيعة الغابية البرية كأنه حيوان ساهم متردد، لا يصيبه سهم ولا أذية.

لقد عدنا، دائماً بالاحتفالات والتحركات العائلية عينها، لنقضي عطلة الصيف مرات كثيرة، إلى هذه المنطقة المثيرة الساحرة. وكنت أنا آخذ في النمو، أقرأ، أكتب، مع مضي الزمن، بين فصول الشتاء المرة في «تيموكو» وبين فصول الصيف العجيبة في الساحل.

ألفت ركوب الخيل، وحياتي كانت تصير أكثر علواً وأوسع مدى حين أتهادى عبر الدروب الطينية المزلاجة، عبر الطرقات المنعطفة على حين غرّة تخفّ للترحيب بي النباتات المتشابكة، السكون أو نغم العصافير البرية، حفيف شجرة مزهرة ملتحفة بثبو قرمزي كأنها أسقف جليل لهذه الجبال أو مندوفة بثلوج معركة أزهار مجهولة. أو تبرز من حين إلى حين كذلك زهرة الـ«كوبيهويه»، هكذا فجأة، متوحشة، برية، وحشية، مزمنة الألم والوحدة، متدلية كأنها قطرة دم نضرة... لقد تعودت على ركوب الخيل، وتمرست باللجم والمهاميز القاسية التي كانت تطن تحت عقبيّ وكعبيّ. لقد بدأ اتصال ما بين سواحل لا نهاية لها وجبال كثيفة متشابكة وبين روحي، أي بين هذه الأرض، أكثر الأراضي وحشة في العالم، وبين شعري. هذا جرى قبل سنوات كثيرة، بيد أن هذا الاتصال وهذا الوحي وهذا الحلف المقدس مع الفضاء، ما فتئت جميعها تقيم في وجودي، تستمر في حياتي.

أولى قصائدي:

الآن سأروي لكم حكاية عن العصافير، كانوا في بحيرة «بودي» (Budi) يطاردون البجع بشراسة، كانوا يقتربون منها بزوارقهم في صمت وسكون، ثم في سرعة، في سرعة يجففون البجع، مثل القواديس، شروعها بالطيران صعب، إذ لا

---

(١) المسخ: El Centauro كلمة من أصل أغريقي، وهي في الأساطير اليونانية مسخ نصفه إنسان والنصف الآخر حصان، قد يكون النسناس.

بد لها من أن تجري متزجلة على سطح الماء لترفع في ما بعد بصعوبة فائقة أجنحتها الكبيرة . كانوا يدركونها فيقضون عليها بضربات هراوات ثم يحملونها .

أحضروا لي بجعة نصف ميتة . كانت واحدة من هذه الطيور التي ما عدت فرأيت مثلها في الدنيا ، بجعة ذات عنق أسود . سفينة من ثلج ، بعنق رقيق أهيف ، كأنما أدخل في جراب ضيق من حرير أسود ، المنقار برتقالي اللون والعينان حمراوان .

إن هذا حدث قرب البحر في «بورتو سابيدرا» ، ببلدة «أمبريال ديل سور»(١) .

لقد أعطونيها شبه ميتة ، غسلت جراحها وحشرت لها في حلقها فتات خبز وفتايل سمك . كانت تتقيأ كل شيء ، ثم أخذت تستعيد قواها وتبرأ من أوجاعها ، وبدأت تعي بأني صديق لها . وبدأت أنا أعي أن الحنين يضنيها والشوق إلى الماء ينضيها . فاحتضنت العصفور الثقيل بين ذراعيّ ومضيت عبر الشوارع لآخذها إلى النهر . كانت تعوم قليلاً ، قريبة مني ، كنت أريد لها أن تصطاد شيئاً فأدلها على الحجيرات في القعر وعلى الرمال حيث تنزلق أسماك الجنوب المفضضة . لكنها كانت تنظر البعد فتخشاه بعينين جد حزينتين .

هكذا كل يوم ، أكثر من عشرين يوماً ، كنت آخذها إلى النهر وأحملها إلى بيتنا . كانت البجعة كبيرة ، حجمها حجمي . ذات مساء كانت غارقة في التفكير جداً ، سبحت قربي لكنها ما اهتمت بالزبابات التي أردت بها تعليمها الصيد من جديد . مكثت هادئة فأخذتها إلى حضني من جديد بنيَّة أن أحملها إلى دارنا ، وما إن أوشكت أن ترتاح في صدري حتى شعرت أن شريطاً قد انحلّ ، إن شيئاً كأنه ذراع سوداء ، قد لمس وجهي وكشطه فالتفتّ وإذ بعنقها الطويل الملتوي يتهاوى . آنذاك تعلمت أن البجع حين تموت لا تغني .

إن الصيف لحار لافح في «كاوتين» . يحرق السماء والقمح . إن الأرض تود لو تستفيق من سباتها . والدور لم تتخذ عدتها للصيف ، كما لم تتخذ مؤونتها للشتاء . كنت أمشي عبر الحقول أسير وأمشي . أضيع في تلة «نيلول» (Nielol) . هأنذا وحدي ، جيبي مليء بالخنافس ، في صفت صغير أحمل عنكبوتاً كثيف الشعر حديث الصيد . السماء لا تُرى . الغابة دائمة الرطوبة ، أتزحلق ، فجأة يصرخ

---

(١) امبريال ديل سور : معناها امبريال الجنوب .

عصفور ، إنه الصراخ الشجي لـ «الـ تشوكاو»[1] (El Chucao) . تنمو من أخمص قدميّ قشعريرة نذيرة رهيبة . زهور «الـ كوبيهويس» هي قطرات دم تكاد لا تبين . لست غير مخلوق ضئيل تحت السراخس العملاقة الهائلة . قاب قوسين أو أدنى من فمي تطير حمامة مطوقة ، حفيف أجنحتها جاف خفيف . عصافير أكثر تحليقاً تضحك مني وتستهزئ بي ضحكة جشاء بحيحة . أتلمّس الدرب فأجده وقد لا أجده . ها هو الليل يرخي سدوله .

لما يأت والدي بعد ، سيأتي في الثالثة أو الرابعة صباحاً . أصعد إلى غرفتي ، أقرأ لـ(سالغاري) . المطر ينسكب كأنه شلال . المطر والليل في لحظة يخيفان الكون . هأنذا هنا وحيداً أكتب الأشعار في دفتر الحساب . أنهض في صباح اليوم التالي مبكراً . الخوخ لما يزل أخضر . أقفز فوق الروابي ، أحمل معي علیبة صغيرة فيها ملح . أصعد إلى شجرة ، أتمركز في موضع مريح . أقضم في حذر خوخة فأنال منها فلقة ثم أغمسها في الملح فآكلها . هكذا إلى أن التهمت مائة خوخة . من بعد عرفت أنني أفرطت وأفضت .

بما أن دارنا قد احترقت ، فإن هذه الدار الجديدة تبدو لي غريبة عجيبة . أصعد على سور الحائط وأنظر إلى الجيران ، ما من أحد . أرفع بعض العصى عن السور الخشبي ، لا شيء إلا عناكب بائسة صغيرة . هناك في آخر فناء الدار المرحاض . للأشجار القريبة منه يساريع ، أشجار اللوز تعرض فاكهتها المبطنة في قطيفة بيضاء . أعرف كيف أصيد قمع الذباب بمنديل دون أن أسبب لها أذى . أحتفظ بها سجينة لفترة من الزمن وأدنيها من أذني . يا له من طنين رائع بديع .

يا للوحدة ، وحدة طفل شاعر صغير ، يرتدي السواد ، في الثغر الفسيح المديد الرهيب . كانت الحياة وكانت الكتب تجعلني أرى شيئاً فشيئاً غرائب كثيرة جمة .

لا أستطيع أن أنسى ما قرأته تلك الليلة : فاكهة الخبز أنقذت «ساندكان» وأصحابه في بلد بعيد يسمى «مالاسيا» .

لا يعجبني (بوفالو بيل) لأنه يقتل الهنود ، لكن يا له من عدّاء على الخيل.ماهر سريع! يا للمروج ويا للخميات المخروطية الشكل ذات البشرات الحمراء!

---

(١) التشوكاو : كلمة من أصل «مابوتشي» ، وهو عصفور في حجم الزرزور ، ذو ريش أغبر اللون ، يقطن الغابات الكثيفة جداً .

لقد سئلت مرات عديدة متى كتبت أولى قصائدي ، متى ولد فيّ الشعر .

سأحاول أن أتذكر ذلك ، في مهتبل طفولتي وفي بداية تعلمي الكتابة ، شعرت ذات مرة بعالج عارم يغمري فسطرت بضع كلمات شبه مسجوعة ، عجبت لها ومنها فقد كانت مختلفة متميزة عن الحديث اليومي والكلمات الأليفة . أعدت نسخها في خط أنيق بعد أن شذبتها ، كنت حينذاك أسير جوى عميق ، سجين شعور ما كنت شعرت به من قبل البتة ، شعور مستبطن غير مسبور ، نوع من الكآبة والأسى . كانت قصيدة موجهة إلى أمي ، أي ، إلى المرأة التي كنت أدعوها أمي ، إلى خالتي زوجة أبي الملائكية التي حمى ظلها الخفيف اللطيف طفولتي كلها وحدب عليها ورعاها . ما كنت بقادر على تقييم قصيدتي ، أخذتها إلى والديّ ، كانا في غرفة الطعام غارقين في حديث من أحاديثهما هذه التي كانا يهمسان بها همساً بصوت خفيض جداً ، أحاديث تفصل أكثر من نهر بين عالمين : عالم الصغار وعالم الكبار ، وكان ذاك الحديث على ما يبدو خاصاً بعالم الكبار . مددت لهما الورقة ذات السطور ، وكنت ما زلت أرتعد من هول زيارة الوحي الأولى ، تناولها والدي وهو ساه غافل ، فقرأها وهو ساه غافل ، أعادها لي وهو ساه غافل ، ثم قال :

- من أين استنسختها؟

وتابع حديثه مع أمي في صوت خفيض عن شؤونهما المهمة العاجلة والآجلة .

هكذا ولدت أولى قصائدي وهكذا تلقيت أولى عينات النقد الأدبي الغافل الساهي .

بيد أني كنت أمضي قدماً في عالم المعرفة ، في نهر الكتب على غير هدى أو ترتيب مثل بحّار يمخر في الخضم وحده . ما كان ليرتوي أو يقنع نهمي للقراءة في آناء الليل وأطراف النهار . عثرت ، على الشاطئ بميناء «بورتو سابيدرا» على مكتبة تابعة للبلدية وعلى شاعر أصيل ، هو السيد (اوغوستو وينتر) ، فأكبرني وأكبر فيّ نهمي الأدبي . «أفقرأتها جميعها؟» كان يقول لي ، وهو يناولني كتاباً جديداً لـ(بارغاس بيلا) أو لـ(ايبسن Ibsen)[1] ، او لـ(روكامبول Rocambole) . كنت ألتهم كل شيء دون تمييز كما النعامة .

في ذاك الوقت وصلت إلى «تيموكو» سيدة طويلة القامة ، ترتدي ملابس طويلة

---

(١) ايبسن : هو الروائي والمؤلف المسرحي النرويجي الشهير (١٨٢٨-١٩٠٦) .

فضفاضة ، تنتعل حذاء ذا كعب واطئ قصير . إنها المديرة الجديدة لمدرسة الإناث ، قدمت من مدينتنا الجنوبية ، من ثلوج «ماغايانيس» . تدعى (غابرييلا ميسترال Cabriela Mistral)[١] .

كنت أنظر إليها وهي تجتاز شوارع قريتي بأثوابها السابغة الفضفاضة فكنت أخشاها . غير أنه ، حين قابلتها وجدتها فتاة طيبة . كانت تتألق أسنانها البيضاء في وجهها الملوّح الذي يسوده الدم الهندي كما يسود في دن «أراوكاني» جميل ، حين تبتسم ابتسامة عريضة سخية تضيء المكان .

ما كنت لأكون خليلاً لها لأنني كنت بعد صبياً هيّاباً مغرقاً في التفكير والتأمل . رأيتها من بعد مرات قليلة ، وفي كل مرة أراها ، كنت أخرج وأنا أحمل كتباً تهديها إليّ ، مجموعة من الروايات الروسية تعتبرها هي أفضل وأجمل ما في الأدب العالمي . أستطيع القول إن (غابريلا) قد أربكتني في هذه الرؤية الجدية الرهيبة الفظيعة ، رؤية الروائيين الروس ، وأن (تولستوي) و(ديستويفسكي) و(تشيخوف) كانوا الأثيرين عندي وما زالوا يرافقونني .

دار الأرامل الثلاث:

دُعيت ذات يوم لمشاهدة درس الحنطة بالأفراس ، كان البيدر في مكان عال بالجبال بعيد جداً عن القرية . استهوتني مغامرة أن أمضي وحيداً أستجلي الدروب وأتبينها بين سلسلة الجبال تلك . وإن تهت فلا ريب في أني سأجد من يغيثني ويعينني . ابتعدنا : أنا ومطيتي ، عن «باخو امبريال» واخترقنا حاجز النهر . كان المحيط الهادي هناك يفك عقاله فيلطم في تواتر وكرّ وفر الصخور وأحراج ربوة «ماوله» . آخر تلة على الشاطئ ، شاهقة سامقة جداً . ثم انحرفت عبر ضفاف بحيرة «بودي» . تلاطم الأمواج كان يقذف قواعد التلة بضربات هائلة عنيفة . كان علينا أن ننتهز تلك الفرصة ، حين تتفتت إحدى الموجات وتتقهقر لتستعيد أنفاسها ، لنعبر بضيق شديد المضيق بين الربوة والماء ، قبل أن تأتي موجة جديدة تهرسني ومطيتي بمهراس التلة المسننة الحادة .

---

(١) غابريلا ميسترال : شاعرة من تشيلي مشهورة جداً حازت على جائزة نوبل للآداب (١٨٨٩-١٩٥٧) .

عند الغروب وقد انقضى الخطر ومضى الحذر ، بدت تتجلى صفيحة البحيرة الزرقاء الساكنة . كانت الرمال تنجرف بعيدة عن الشاطئ حتى مصب بحيرة «تولتين» (Tolte'n) . إن هذه الشواطئ التشيلية هي صخرية ناتئة ولكنها سرعان ما تستحيل أشرطة رفيعة مديدة تسمح للعابر أن يطأها لمدة نهارين وليلتين تحته الرمال وإزاءه زبد البحر .

إنها سواحل تبدو أبدية غير منتهية ، كأنها تشكل على امتداد تشيلي خاتماً لكوكب ، خاتماً محدقاً تضغط عليه بحار الجنوب الصخابة ، مدرجاً يبدو كأنه يدور عبر سواحل تشيلي إلى ما هو أبعد من القطب الجنوبي .

على جوانب الطرقات كانت تحييني أشجار البندق ذات الأغصان المورقة الخضراء الغامقة البراقة بجميع أصنافها ، ما كان منها مرصعاً بعناقيد فاكهة وما لم يكن ، أشجار بندق تبدو كأنها قد طليت وزيّنت بزنجفر فبرزت حمراء فاتنة في هذه الفترة من السنة . سراخس جنوب تشيلي الضخمة سامقة جداً إلى درجة أننا ، أنا وحصاني ، كنا نسير تحت أغصانها دون أن نستطيع لمسها . وإن دنت أحياناً فجسّت رأسي ، فإنها ترش علينا من نداها . على جانبي الأيمن ، تمتد بحيرة «بودي» : صفيحة مثابرة زرقاء تتجاور والغابات النائية .

ما رأيت أحداً إلا في آخر الشوط ، صيادين غريبين ، في ذلك المدى حيث يلتصق المحيط والبحيرة يتعانقان أو يتشاحنان ، كان ثمة بعض أسماك بحرية ، تجرفها الأمواج الشديد العنيفة . أكثرها جشعاً وطمعاً هي الأسماك الملساء العريضة المفضضة التي كانت تتشاحن في هذه المنخفضات البحرية متخبطة تائهة . كان الصيادون ؛ واحداً ، اثنين ، ثلاثة ، أربعة ، خمسة ، وهم في وضع شاقولي وفي حالة تمعن وانتظار ، يترصدون حالة السوق ومعرض الأسماك التائهة ، ثم على حين غرة ، يقذفون خطافاً طويلاً إلى الماء ، من بعد يشيلون نحو الأعلى وقد غنموا تلك الألباب الكروية الشكل ، الفضية اللون التي ترتعد وتلتمع في شعاع الشمس قبل أن تلفظ أنفاسها في أسفاط السمّاكة . لقد دنا الغروب . كنت قد خلّفت ورائي ضفاف البحرية وكنت قد مارست البحث عن السبيل عنر منحدرات الجبال المعقدة الوعرة . كان الظلام يمضي شبراً فشبراً ، فجأة اخترق الفضاء أنين عصفور وحشي مجهول كأنه همس أجش . صقر أو عقاب بدا من علوّه الشفقي وكأنه يوقف أجنحته السوداء عن الطيران ليشير إلى حضوري ووجودي ، يواكبني من عل في طيران ثقيل بطيء . تعوي

أو تنبح أو تخترق ثعالب سريعة عجولة ذات ذيول حمراء ، أو وحوش ضارية مجهولة من هذه الغابات السرية .

أدركت أني قد تهت . الليل والغابة ، اللذن كانا لي البهجة والسرور ، ها هما يتهددداني ويتوعداني ، يملأني رعباً وهلعاً ، طارق وحيد ، فجأة ، تقاطع وإياي في وحدة الطريق المدلهمة . حين تقاربنا توقفت فرأيته فلاحاً من هؤلاء الفلاحين الحفاة العراة ، ليس له إلا عباءة بالية وحصان ضامر ، واحداً من هؤلاء الرعاة الذين يطلعون من السكون .

قصصت عليه ما جرى لي .

أجابني بأني لن أبلغ البيدر تلك الليلة . هو كان يعرف المكان كله موضعاً موضعاً وزاوية زاوية ، يعلم علم اليقين أين يدرسون القمح . قلت له إني لا أريد أن أقضي الليلة في الخلاء ، وطلبت منه أن يرشدني إلى موضع آوي فيه إلى أن يبزغ الفجر ، فأشار لي في إيجاز بأن أمضي في درب متفرع عن الطريق مسافة فرسخين . «سوف ترى من بعيد بيتاً خشبياً كبيراً ذا طابقين» ، قال لي :

- أهو فندق؟ سألته .

- كلا ، أيها الفتى ، لكنك سوف تلقى الترحاب والرحابة . إنهن ثلاث فرنسيات يعملن في تجارة الأخشاب ويقمن هناك منذ ثلاثين سنة . إنهن طيبات المعشر مع الناس جميعاً . ولسوف يؤوينك ويرحبن بك .

شكرت الفلاح على نصائحه الشحيحة المختزلة . هو ابتعد يخب به حصانه المقوَّض وأنا سلكت الدرب الضيق كأني نفس في جوى وأسى . هلال بكر أبيض معقوف كقلامة ظفر حديثة القص كان يشرع الصعود عبر السماء .

لمحت عند التاسعة ليلاً أنواراً ، لا مندوحة في أنها منبعثة من منزل ، أجهدت حصاني قبل أن تحرمني الأقفال والمفاتيح من دخول ذاك المعبد ذي الأعاجيب . . . اجتزت حواجز الحمى ، متجنباً جذوعاً مقطوعة وجبالاً من نشارة ، وصلت إلى الباب بله على رواق أبيض لتلك الدار الضائعة في تلك الأنحاء المنفردة المتوحدة . ناديت من وراء الحجرات . . . قرعت الباب ، بادئاً في رفق ثم في قوة ثم في عنف . حين يئست وقدْ مرت دقائق رهيبة ، وظننت أن ما في الربع من أحد ، أطلت سيدة ذات شعر أبيض ، نحيلة ، في ثياب حداد ، تتفحصني بعيون صارمة ، ثم فتحت الباب بَينَ بَينَ ، كي تستقصي الطارق القادم في غير وقت .

من أنت وماذا تريد؟ قال صوت لطيف ناعم ، صوت شبح .

لقد تهت في الغابة . أنا طالب في مدرسة . دعاني لحضور درس الحنطة على البيدر آل (ايرنانديث) لقد أنهكني المسير ، لقد قيل لي إنك وأختيك فعّالات للخير ، لست أبغي إلا أن أنام في أي ركن وأن أواصل حين يطلع الفجر نحو حصاد آل (ايرنانديث) .

تفضّل -أجابتني- لأنت في بيتك .

قادتني إلى بهو معتم وهي بنفسها أشعلت قنديلين أو ثلاثة من زيت القطران . لاحظت أن القناديل جميلة Art-nouveau[1] ، من البرونز المذهّب . البهو يفوح برائحة الرطوبة ، ستائر كبيرة تنسدل على النوافذ العالية ، مقاعد مغطاة بأغطية تحفظها وتصونها . ممّ؟

كان ذاك البهو من عهد آخر ، صعب التحديد ومغلق كالحلم . السيدة الساهمة الحالمة ذات الشعر الأبيض كانت تتحرك دون أن أتبين لها قدماً أو أن أسمع لها خطواً ، يداها تلمسان شيئاً أو آخر ، مجمع صور ، مروحة ، هنا و هناك داخل السكون .

تخيلت أني قد هويت إلى قعر بحيرة وفي أعماقها أحيا ، مرهقاً منهوكاً . فجأة دخلت سيدتان طبق الأصل من التي استقبلتني . كان الوقت متأخراً وكان ثمة برد شديد . جلستا من حولي ، إحداهما في ابتسامة خفيفة ذات غنج عتيق ، والأخرى تنظر إليّ بعينين كئيبتين ، كعيني التي فتحت لي الباب .

ابتعد الحديث كثيراً عن تلك الحقول النائية ، عن تلك الليلة المثقوبة بآلاف الحشرات ، المخترقة بنقيق الضفادع وغناء العصافير الليلية . سألتني عن دروسي . فاجأتهن حين لفظت من غير توقع منهم اسم (بودلير)[2] واستغربن حين قلت لهن بأني قد بدأت بترجمة أشعاره .

كان ذاك كشرارة كهربائية ، السيدات الثلاث المنطفئات اشتعلن . تغيرت عيونهن المكروبة ووجوههن الصارمة ، كما لو أن ثلاثة براقع نزعت عن وجوههن ذوات الملامح العتيقة .

---

(١) Art-nouveau : التعبير فرنسي ، معناه : فن حديث .

(٢) (شارل بودلير) : الشاعر والناقد الفرنسي المعروف (١٨٢١-١٨٦٧) .

-(بودلير)- هتفن . لعل هذه هي المرة الأولى التي فيها يُتلفظ باسمه في هذه الأماكن المنعزلة منذ أن وجد الكون . لدينا هنا كتابه Fleurs du mal[1] . ليس من أحد غيرنا يستطيع قراءة صفحاته الرائعة في هذه الأماكن على مسافة دائرة قطرها ٥٠٠ كيلومتر . لا أحد يعرف الفرنسية في هذه الجبال .

اثنتان من الأخوات الثلاث ولدتا في «أفينيون» (Avinon) ، الصغرى تشيلية المولد لكنها كذلك فرنسية الدماء طبعاً . جدودهن ، آباؤهن ، أقرباؤهن جميعاً ، ماتوا منذ زمن بعيد . هن الثلاث كنّ قد تعودن على المطر ، على الريح ، على نشارة الأخشاب ، على التعامل مع عدد قليل من الفلاحين البدائيين والخدم الأجلاف المتأخرين . قررن البقاء هنا في هذه الدار الوحيدة الموحشة وسط تلك الجبال المسننة الوعرة .

دخلت خادمة فهمست بشيء إلى السيدة الكبرى . حينذاك خرجنا بإشارة منها عبر دهاليز باردة جداً إلى غرفة الطعام . اندهشت وذهلت . في وسط القاعة ، مائدة مستديرة بسماطين بيضاوين طويلين ، مضاءة بشمعدانين من فضة مليئين بشموع مشتعلة ، كان الزجاج والفضة يلتمعان معاً على تلك المائدة المفاجئة .

اجتاجني حياء عارم ، كما لو أن الملكة (فيكتوريا) كانت قد دعتني على وليمة في قصرها . فقد جئتهن أشعث الشعر ، مغبر الثياب ، مرهق الجسد ، وهذه المائدة تبدو وكأنها تتوقع زيارة أمير ، وأنا على حالتي أبعد الناس عن أن أكون أميراً ، بالأحرى كنت أبدو وكأني راعي بغال برائحة كريهة ، ترك عند الباب قطيع ماشيته ودوابه .

مرات قليلة جداً أكلت كمثل هذه المرة ، مضيفاتي كنّ معلمات في الطهي ، ورثن عن جداتهن وصفات فرنسا العذبة في فن الطهي والتطييب .

على الرغم من أن التعب كان يغمض لي العينين على حين غرة ، فإني كنت أسمعهن يتحدثن عن أشياء غريبة . كان فخر الأخوات الأعظم الأكبر هو التفنن في الطهي ، المائدة بالنسبة لهن هي ممارسة إرث مقدس ، ممارسة ثقافة لن يعدن إليها أبداً وقد عزلهن عن وطنهن الزمن العتي والبحار الهائلة ، أرينني كأنهن يستهزئن من أنفسهن ، سجلاً غريباً .

---

(١) Fleurs du mal : بالفرنسية ، أزهار الشر .

-نحن عجائز معتوهات- قالت لي الصغرى .

خلال ثلاثين سنة زارهن ٢٧ عابراً قصدوا هذه الدار النائية ، بعضهم بغرض التجارة وبعضهم بهدف الاستطلاع وبعضهم كحالي بمحض الصدفة . ما لم ير من قبل مثله البتة ، كان احتفاظهن ببطاقة عن كل واحد من زوّارهن ، تاريخ الزيارة ، وجبة الأكل التي أعددنها في كل مناسبة .

- نسجل وجبة الأكل حتى لا نقدم ولا طبقاً واحداً في ما إذا عاد فزارنا من كان قد تذوق هذه الأطباق من قبل .

رحت لأنام فهويت على الفراش مثل كيس بصل في سوق . عند انبثاق الفجر ، في العتمة ، أشعلت شمعة ، فاغتسلت ، ولبست ملابسي . عندما أسرج لي الحصان أحد الخدم كان النهار يأخذ بالطلوع والوضوح .

ما تجرأت على توديع السيدات الكريمات السخيات اللابسات ثياب الحداد . في أعماقي شيء كان يقول لي إن ذلك كله كان حلماً غريباً لذيذاً ، وإنه ما كان لي أن أصحو منه حتى لا يتلاشى السحر وتضيع الرقية .

لقد انقضى على هذا الحدث أربعون سنة ، كان ذاك في مستهل فترة مراهقتي . فماذا جرى لتلك السيدات المنفيات وكتابهن (أزهار الشر) في وسط تلك الغابة البكر؟ ماذا حصل لزجاجات نبيذهن المعتق ، لمائدتهن البراقة المضاءة بعشرين شمعة؟ ماذا كان مصير المناشر والدار البيضاء الضائعة بين الأشجار؟

لا بد أنه طرأ ما هو أبسط شيء! الموت والفناء . ربما أن الغابة التهمت تلك الحيوات وتلك القاعات التي احتضنتني ذات ليلة غير منسية . لكنهن ما زلن يحيين في ذاكرتي كما لو كنّ في عمق بحيرة الأحلام الشفّاف . مجداً وطيباً لهاته النساء الثلاث الحزانى اللواتي صارعن بلا جدوى في وحدتهن القاسية لكي يصنّ لياقة عريقة . كنّ يدافعن عما أتقنت صنعه أيدي أسلافهن ، أي : أواخر قطرات ثقافة عذبة لذيذة ، هناك بعيداً ، في أقصى حدود جبال هي أكثر الجبال صلابة ووحدة في هذا العالم .

الحب إزاء القمح:

وصلت إلى مرابع آل (ايرنانديث) قبل الظهيرة ، منتعشاً جذلاً ، موكبي المنفرد عبر الدروب الخالية ، استجمامي من الإرهاق والوسن ، كل ذلك كان يتألق في

شبابي الصموت ويبدو على محيّاي النضر .

في ذلك العهد كان درس الحنطة والشوبان والشعير تقوم به دابة تلف وتدور . ليس من شيء في العالم أروع وأبدع من رؤية دوران الأفراس وهي تخب حول أكداس الحبوب المكومة ، تحت صراخ الفرسان المزعج لها كي لا تحزن أو تراوح أو تماطل . الشمس تشرق رائعة باهرة ، النسيم كأنه ألماسة برية غابية تجعل الجبال تلتمع تحت أشعة الهجير . إن الدرس لهو مهرجان ذهبي . التبن الأصفر يتكوم في جبال مذهَّبة ، كل شيء كان نشاطاً وفعالية وبهجة ، أكياس تجري فتملأ ، نساء تطهو ، أحصنة تملك الشكيمة ، كلاب تنبح ، أطفال لا بد من إنقاذهم في كل لحظة يبدون وهم يلعبون كأنهم أوراق التبن أو أرجل الخيول .

إن آل (ايرناندث) هم قبيلة فريدة في نوعها ، كان رجالها شعث الشعر ما تطيبوا ولا حفوا ذقونهم يوماً ، يمضون ، دائماً ، بلا سترة مكتفين بأكمام قمصانهم ، مسدساتهم في أحزمتهم ، مدسمين بالزيت ، أو معفرين بغبار الحبوب ، أو موحلين بالطين ، أو مبتلين حتى العظام بالأمطار . كانوا جميعاً ، آباء ، أبناء ، أحفاداً ، أعماماً ، أخوالاً ، أبناء عمومة ، أبناء خؤولة ، أنساباً ، أصهاراً ، يبدون في مظهر من البداوة والجلافة ينم عنهم ويدل عليهم . يمكثون ساعات بكاملها منهمكين في إصلاح محرك ، أو مجففين سلائقهم على أسطحة منازلهم ، أو متسلقين آلة حاصدة أو دارسة . أبداً ما كانوا يتحدثون أو يثرثرون . ما كان كلامهم إلا مزاجاً في كل أمر اللهم إلا حين يتشاحنون ويتخاصمون ، فهم في العراك والنزال أعاصير بحرية ، يقوضون كل من أو ما يقف في وجوههم . أما في الشواء ، وبخاصة شوي رؤوس الغنم ، في النبيذ الأحمر ، في القيثارة النوّاحة فقد كانوا جهابذة أوائل . كانوا رجالاً من الثغر ، أي القوم الذين أعجب بهم ويطيبون لي . كنت أحس أنا الطالب الشاحب بضآلتي وصغري إزاء أولئك البرابرة النشيطين الفعالين ، وهم ، لست أدري ، كانوا يعاملونني بلطافة لم تكن لأحد غيري .

بعد الشواء والقيثارة والتعب المُعمي من شمس ومن قمح ، كان لا بد من ترتيب الأمور لقضاء الليل ، المتزوجون مع زوجاتهم ، والنساء الوحيدات ، جميعاً رقدوا في الخيمة المنصوبة على عمد حديثة القطع . أما نحن الفتيان فقد خصص لنا البيدر لننام عليه . إن البيدر بجبله التبني يمكن لقرية بأسرها أن تترصع في طراوته الصفراء .

كان ذاك الموضع بالنسبة لي مزعجاً مقلقاً ، لم أكن أعرف كيف أتصرف ، كيف

أتمدد ، وضعت في حذر حذائي تحت طبقة من التبن لتكون لي مخدة أو وسادة ، نزعت ثيابي ، التحفت بعباءتي وغطست في جبل التبن . كنت بعيداً عن الآخرين جميعاً ، لكنهم سرعان ما أخذوا بالشخير في عزف جماعي .

مكثت هكذا فترة طويلة ، مستلقياً على ظهري ، عيناي محدقتان في السماء ، وجهي وذراعي مغطاة بالتبن . كان الليل جلياً بارداً لاسعاً ، ما كان القمر قد طلع في السماء لكن النجوم تبدو حديثة الابتلال بالمطر ، وفوق نوم الآخرين الأعمى كانت تتلألأ في حضن السماء لي ، ليس غير .

ثم غفوت قليلاً فصحوت لأن شيئاً ما كان يدنو مني ، جسم شيء كان يتحرك من تحت التبن ويقترب شيئاً فشيئاً من جسدي ، شعرت بالخوف ، هذا الشيء كان يقترب أكثر فأكثر ولكن في تؤدة ، شعرت أن أقذاء التبن كانت تتكسر من حولي تتهشم كلما تماست والجسد الزاحف ، كان جسدي جميعه في حالة طوارئ ، أترقب مرتعداً ، كدت أنهض ، كدت أصرخ ، كلني بقيت جماداً بلا حراك ، أسمع أنفاساً قرب رأسي..

على حين غرة تحسستني يد ، يد كبيرة ، خشنة الملمس كيد عاملة ، بيد أنها يد أنثى ، لمست جبيني ، جفني ، وجهي ، كل وجهي ، بعذوبة ، ثم إن ثغراً نهماً التصق بفمي فأحسست على طول جسدي حتى أخمص قدميّ ، بجسد امرأة كانت تشدني وأشدها شداً .

لذة عارمة كانت تهزم دياجير خوفي شيئاً فشيئاً ، أجلت يديّ في خصلات شعر منسدل ، فوق جبين أملس ناعم ، على عينين بجفنين مطبقين ناعمين لزجين كشقائق النعمان ، يداي راحتا تبحثان عن كنوز ، لقفت نهدين راسخين عظيمين ، جسست أردافاً عريضة ، لمست ساقين التفّتا بساقيّ ، أغرقت أصابعي في عانة غضّة بضّة مثل طحالب الجبال ، ولا بكلمة واحدة نبس ذلك الثغر المجهول .

كم هي صعبة ممارسة المضاجعة دون إثارة ضجيج ولا حتى حفيف في جبل من تبن مجوف بسبعة أو ثمانية من الفتيان الغارقين في النوم الذين إن أوقظوا غضبوا وأثاروا التبن والفضيحة . غير أن الفتى لقادر على إنجاز كل شيء مهما كلفه من جهد وحذر . وما إن مضى هزيع من الليل أو بعضه حتى همدت تلك المجهولة نائمة قربي ، وأنا محموم من تلك الحالة ، بدأت بإثارة الفزع في نفسي . عما قريب سينبثق الفجر ، كنت أفكر ، أوائل العاملين في البيدر سيجدون هذه المرأة عارية ، مستلقية

قربي . لكنني أنا كذلك أخلدت للنوم ، وحينما صحوت مددت يدي فزعاً فما لمست غير فجوة باردة وما وجدت إلا غيابها وارتحالها . ها هو عصفور يزقزق ثم ضجت الغابة وامتلأ الجبل أغاريد وأناشيد . رن مزمار آلة وإذ بهم جميعاً رجالاً ونساء ينطلقون نحو البيدر يكدون ويعملون . بدأ يوم للدرس جديد .

عند الظهيرة بينما كنا متحلقين حول طاولات كبيرة ، وبينما كنت أنظر وأنا آكل ، نظرات خاطفة ، باحثاً عن زائرتي في الظلام ، بين النساء ، أهذه هي؟ لا ، فهذه عجوز شمطاء ، أتلك؟ كلا فهذه نحيفة ضامرة . أنا أبحث عن امرأة مكتنزة رداح بنهدين طيبين وبذوائب مسترسلة طويلة ، وإذ بامرأة تتقدم ومعها شريحة من اللحم المشوي ناولتها لزوجها من آل (أيرنانديث) أهذه؟ ، أجل ، قد تكون هي . حين رمقتها من طرف المائدة وهي في الطرف الآخر ، لاحظت أن تلك السيدة الجميلة ذات الذوائب المسترسلة لحظتني بنظرة سريعة وابتسمت لي ابتسامة صغيرة جداً . غير أن هذه الابتسامة كانت تكبر في عينيّ ، تتعمق في قلبي ، تتفتح في جسدي .

الفصل الثاني
... ضائعاً في المدينة

غرف للإيجار:

بعد عدة سنوات قضيتها في المدرسة حيث كنت دائماً أتعثر في شهر كانون الأول بامتحان الرياضيات ، أصبحت مهيأ ، خارجياً ، لمواجهة الجامعة في «سانتياغو» بتشيلي[١] . أقول ، «خارجياً» ، لأنه «داخلياً» كان رأسي مليئاً بالكتب والأحلام والقصائد التي كانت تئز كالنحل .

مجهزاً بصندوق من صفيح ، بالبدلة التي لا غنى عنها ، بدلة الشاعر السوداء ، نحيلاً جداً ومبرياً كشفار ، صعدت في الدرجة الثالثة للقطار الليلي الذي كانت رحلته تستغرق يوماً بليله ونهاره في الوصول إلى «سانتياغو» .

ما زلت أذكر لهذا القطار حتى الساعة سحره الغريب ، فلطالما سافرت فيه وهو يجتاز مسافات مختلفة ومناطق عديدة وأجواء متباينة . كانت تجري في عربات الدرجة الثالثة حياة بكاملها ، فلاحون بعباءات تتقطر ماء وبسلال مكتظة بالدجاج ونساء من قبائل «مابوتشه» (Mapuche) عابسات متجهمات . الكثيرون كانوا يسافرون مجاناً دون أن يدفعوا شيئاً . على ما يبدو المفتش كان يمسخ الأرواح والأجساد ، بعضهم يختفي ، بعضهم يختنق تحت عباءة يجلس فوقها حالاً اثنان ويتظاهران بأنهما يلعبان الورق ، فيمر المفتش دون أن تلفت نظره هذه الطاولة التي نصبت فجأة .

كان يمر القطار من حقول البلوط والصنوبر والبيوت ذات الخشب البليل ، إلى حور

---

(١) سانتياغوSantiago : هي عاصمة تشيلي ، وتذكر معها ، عادة ، كلمة «تشيلي» تمييزاً لها عن مدينة أخرى بهذا الاسم تقع في شمال غرب إسبانيا وهي (Santiago de compostela) ، وكان العرب يدعونها ، «شانت (قديس) يعقوب» .

أواسط تشيلي ، إلى الأبنية المعمولة من الطوب المغبر ، مرات كثيرة قمت بهذه الرحلات ذهاباً وإياباً بين العاصمة والناحية لكنني دائماً كنت أشعر بالاختناق حين أخرج من الغابات الكبيرة ، من جوف أمي ، من الخشب . بيوت الطوب واللبن ، المدن ذات الماضي العريق ، جميعها كانت تبدو لي مليئة بالهلل والسكون والعناكب والدخان . ما زلت حتى الآن شاعر الزوابع والأعاصير ، شاعر الغابة الباردة التي فقدتها منذ ذلك الحين .

لقد نصحت قبل المجيء من قريتي باستئجار غرفة في بيت يقع في شارع «ماروري»(Maruri) رقم البيت هو ٥١٣ . لا أنسى هذا الرقم أبداً ، قد أنسى التواريخ كلها والسنين جميعها ، لكن هذا الرقم ٥١٣ سوف يبقى حياً في دماغي ما حييت ، إذ إني حشرته فيه منذ كثير من السنين خوفاً من أن لا أبلغ هذا البيت وأن أتيه في العاصمة المجهولة الكبيرة . في الشارع المذكور أعلاه وفي البيت المذكور في دماغي وعلى شرفة غرفتني كنت أجلس أرقب حشرجة المساء ، أجلي النظر في السماء المزدانة بالرايات بألوانه البديعة من أخضر وأزرق وأحمر قان ، ألمح كآبة أسطحة منازل ضواحي المدينة المهددة بحريق السماء .

حياة الطلبة في غرف الإيجار هذه خلال تلك السنين العجاف كانت جوعاً على جوع . كتبت شعراً أكثر مما كنت كتبت من قبل لكنني كنت آكل أقل بكثير . لقد هلك الكثير من الشعراء الذين عرفتهم في تلك الأيام بسبب صوم الجوع الصارم . من بين هؤلاء أذكر شاعراً كان في عمري لكنه أكثر طولاً وأسوأ رفلة مني . شعره الغنائي القشيب مفعم بالهيولى والشفافية . كان حيث ينشد تنتشي الأجواء وتطرب الأسماع . يدعى (روميو مورغا) .

ذهبنا : هو وأنا ، ذات مرة لننشد أشعارنا في مدينة «سان برناردو» القريبة من العاصمة . قبل أن نصعد المنصة لإنشاد شعرنا كانوا قد احتفلوا باختيار ملكة الزهور ، فهناك كانت الملكة بثيابها البيضاء وشعرها الأشقر ، كان وجهاء المدينة قد ألقوا خطباً رنانة ، والفرق الموسيقية قد عزفت ألحاناً نشازاً ، عندما صعدت وبدأت بإنشاد أشعاري في صوت متأوه ، لم يكن في العالم كله صوت أكثر منه تأوها ، تبدل كل شيء ، الجمهور يعطس ، يُنكِّت ، يتلهى بشعري الكئيب الحزين . حين رأيت هذه الاستجابة المخزية من قبل هؤلاء البرابرة الهمج أسرعت في القراءة وأوجزت فنزلت تاركاً المنصة لزميلي (روميو مورغا) . إن ما حدث عند ذلك لجدير بالتخليد والذكر .

فما إن صعد (دون كيخوته)[1] هذا الفارع الطول بثيابه الغامقة الرثة المضحكة وأخذ ينشد بصوت أكثر من صوتي أنيناً وتأوهاً ، حتى بدا الجمهور وقد فقد قدرته على ضبط النفس وكظم الغيظ ، بالصراخ والهتاف : «يا شعراء الجوع ، لا تفسدوا لنا الاحتفال» .

من تلك الغرفة بشارع «ماروري» انسحبت مثلما ينسلّ رخوي من صدفه . ودعت ذيل السلحفاة ذاك لكي أتعرف على البحر ، أي ، على العالم . البحر المجهول هو : شوارع «سانتياغو» التي ما كنت شاهدتها من قبل حين كنت أمضي غادياً أو رائحاً ، ذهاباً أو إياباً بين الجامعة العتيقة والغرفة الخاوية في دار تلك العائلة بشارع «ماروري» رقم ٥١٣ .

كنت أدري أن مجاعاتي المتراكمة سوف تزداد في هذه المغامرة . أكثر من مرة ، سيدات تلك الدار اللواتي لهن علاقة بعيدة بمنطقتي ، كنّ ينقذنني بحبة بطاطا أو برأس بصل ، تنزل عليّ كرحمة من السماء . لكنما ، لم يكن من ذلك بد ؛ الحياة ، الحب ، المجد ، التحرر ، كل هذه المغريات كانت تدعوني لألبيها أو هكذا خيِّل إليّ .

إن أول تحفة مستقلة ملكتها كانت غرفة استأجرتها في شارع «ارغوييس»[2] قريبة من المعهد التربوي . في إحدى نوافذ هذا الشارع الرمادي كانت تطل لافتة مكتوب عليها : «للإيجار» ، صاحب الدار كان يشغل الغرف المطلة على الشارع ، كان أشعث الشعر شائبه ، له مظهر نبيل ، ذا عينين كانتا تبدوان لي غريبتين . كان ثرثاراً متحذلقاً ، يكسب عيشه بمقصه ومشطه فقد كان حلاقاً للسيدات ، لكنه لم يكن يولي أهمية لهذا الفن ، إذ إن اهتماماته قد انحصرت واقتصرت ، حسب ما شرح لي ، على العالم اللامرئي ، على عالم ما هناك ، عالم ما وراء الطبيعة .

أخرجت كتبي وملابس الزهيدة القليلة جداً من الحقيبة والصندوق اللذين جاءا

---

(١) دون كيخوته (Don Qijote) : هو بطل رواية (سيرفانتس) الخالدة المعروفة بهذا الاسم ، والنطق هو كما رسمناه ، وليس (دون كيشوت) الذي أخذنا نطقه عن النطق الإنجليزي أو الفرنسي ، حيث لا تنطق الخاء كما هو في الإسبانية والعربية معاً .

(٢) ارغوييس : سوف يسكن (نيرودا) في شارع أو بالأحرى حي بهذا الاسم نفسه حين يسافر إلى مدريد .

معي من «تيموكو» واضطجعت على الفراش لأقرأ ، لأنام ، معتزاً باستقلالي مزهواً بكسلي .

لم يكن للدار فناء بل دهليز تطل عليه غرف مغلقة لا حصر لها ولا عد . حين سبرت أغوار الدار المتوحدة الخالية في صباح اليوم التالي ، لاحظت أن على الجدران وفي المرحاض لوحات معلقة مكتوباً عليها كلها العبارة التالية : «اقنعي ، لا تستطيعين الاتصال بنا ، إنك لميتة» . في كل موضع عُلِّقت لافتة كأنها إشارات تحذير وخطر ، في غرف النوم ، في غرفة الأكل ، في الدهاليز ، في القاعات ، لها تقول : «اقنعي ، لا تستطيعين الاتصال بنا ، إنك لميتة» .

كان الفصل شتاء ، من هذه الفصول الشتوية القارصة الصقيعية ، في «سانتياغو» تشيلي . لقد ورث بلدي عن الاستعمار الإسباني ازدراء الطبيعة الصارمة وعدم الارتياح إليها (بعد خمسين سنة على حدوث ما أرويه الآن ، قال لي (ايليا ايهريمبورغ) إنه ما أحس ببرد أشد مما أحس به في تشيلي ، في أي مكان من العالم ألبتة ، وهو كان يعيش في موسكو المثلجة دائماً) . كان ذلك الشتاء لغزارته قد طلى الزجاج بمادة مانعة للتأكسد ، أشجار الشوارع ترتعد برداً ، خيول العربات القديمة تقذف غيوماً دخانية من خياشيمها ومخاطمها . لقد كانت تلك الفترة أسوأ فترة يحياها المرء في تلك الدار ، بين إيماءات الجن وتحذيرات ما وراء الطبيعة .

شرح لي صاحب الدار حلاق السيدات الألمعي وطبيب العيون اللوذعي في جدية ، بينما كان يغرز عينيه في أعماق عينيَّ ، كأنه مجنون بعينين لا تهدآن ولا تستقران ، فقال :

- لقد ماتت زوجتي (لا تشاريتو)[١] منذ أربعة أشهر . إن حالة الموت حالة صعبة بالنسبة للأموات . هم يرتادون دائماً الأماكن نفسها حيث كانوا يحيون . نحن لا نراهم ، لكنهم هم لا يعرفون بأننا لا نراهم . لا بد من إشعارهم بأننا لا نراهم حتى لا يظنوا بأننا غير مبالين بهم وكيلا يتعذبوا من أننا لا نراهم . لذلك وضعت هذه اللافتات وكتبت عليها هذه العبارة حتى تدرك (لا تشاريتو) حالتها الآنية المؤقتة في أنها متوفاة .

---

(١) لا تشاريتو : هو تصغير تحبب لمن تسمى (Charo) ، وأداة التعريف ، المؤنثة هنا :(La) ، لا تدخل على اسم العلم إلا للتحبب أو التحقير .

لكن الرجل ذا الشعر الرمادي قد يكون حسبني حياً بإفراط وزيادة فقد بدا يراقب دخولي وخروجي ، يقيد عدد من يزورني من الإناث ، يتجسس على رسائلي وكتبي . كنت ألج إلى حجرتي في غير الوقت المعتاد أحياناً فأجد طبيب العيون يتفحص أثاثي الضئيل ، يجس حوائجي الفقيرة .

كان لا بد لي من أن أبحث في عز الشتاء ، متخبطاً في الشوارع العدائية ، عن مأوى جديد حيث أحفظ استقلالي المهدد . عثرت عليه في مكان قريب من ذاك ، على بعد بضعة أمتار من هناك ، في مغسلة من هذه المغاسل الكبيرة . بدا للعيان وللعين أن صاحبة هذه المغسلة ليست لها علاقة بما وراء الطبيعة . بعد اجتياز فناءات باردة وباحات كأنها البحيرات وينابيع ماء راكد لا دافق حيث الطحالب المائية تغطي سجاجيد متينة خضراء ، وعلى الجانبين تمتد حدائق مهملة مهجورة ، وصلت إلى غرفة ذات سماء وجدران ملساء جرداء ، ذات نوافذ متسلقة مثقوبة فوق ساكف الأبواب العالية الفسيحة . وهذا ما جعل المسافة بين الأرضية والسقف تكبر في عينيّ وتعظم في تقديري ، في هذه الدار وفي هذه الغرفة مكثت .

لقد كنا نحن الشعراء الطلبة نحيا حياة غريبة عجيبة ، أنا دافعت عن عاداتي الريفية ، كنت أشتغل في غرفتي ، أكتب عدة قصائد في اليوم ، أتناول طاسات من الشاي لا تنتهي . كنت أطيِّب الشاي وأعدّه أنا بنفسي ، لكن ، خارج غرفتي وبعيداً عن شارعي ، أنطلق كما أهوى فقد كان لفوضى تلك الفترة واضطرابها جاذبيتها الخاصة . زملائي ما كانوا ليرتادوا المقاهي بل الخمارات والحانات . كانت الأحاديث والأشعار تروح وتجيء حتى مطلع الفجر ، ودراستي تروح وتجيء لاعنة شاتمة .

كانت شركة السكك الحديدية تهب والدي بردة ذات نسيج سميك رمادي اللون ، تقيه البرد والصقيع ، لكن والدي ما استعملها أبداً فوهبها للشعر . بدأ ثلاثة من زملائي الشعراء أو أربعة منهم يشتملون ببرود شبيهة ببردتي التي كنت أعيرها كذلك لآخرين . هذا الطراز من الثياب كان يثير حفيظة الناس : الطيب منهم والسيء . كانت تلك الفترة هي فترة رقصة «التانغو» التي قدمت إلى تشيلي ليس بأنغامها و«مقصها» العازف ، بآلات «الأكورديون» ووقع ألحانه ، فحسب ، بل كذلك بجوقة من الصعاليك الأوغاد الذين اكتسحوا الحياة الليلية والزوايا التي كنا فيها نجتمع .

إن هذه الطغمة من الأوباش ، برقصهم وعربدتهم ، كانوا يشنون المعارك ضد برودنا

ووجونا ، فكنا نحن الشعراء نكيل لهم الصاع صاعين ونقاومهم ببسالة وصلابة .

في تلكم الأيام اقتنيت صداقة غير متوقعة ، صداقة أرملة ما نسيتها قط ، ذات عينين زرقاوين واسعتين تعبران في حنان ورقة عن ذكرى زوجها الحديث الوفاة . كان زوجها روائياً شاباً ، شهيراً برشاقته البديعة ، كانا قد كونا معاً ثنائياً جديراً بالذكر والذكرى ، هي بشعرها القمحي وجسدها المتقن الصنع وعينيها المحيطتين وهو بقامته الفارعة وعضلاته المفتولة . الروائي هلك من بعد مرض السل ، من هذا النوع الذي ينعتونه بالسل المستعجل . من بعد فكرت في أن رفيقة حياته الشقراء لا بد أنها ساهمت بنصيبها من السل المستعجل في القضاء عليه فهي «فينوس» السل والشبق ؛ فالسل المستعجل ، قبل اكتشاف البنسلين ، وهذه الشقراء الملتهبة ، نقلا من هذا العالم ذاك الزوج المتين كالصنم في أشهر معدودة .

لم تكن تلك الأرملة الجميلة قد نزعت عنها بعد ، لي ، ثيابها الغامقة المنسوجة من حرير أسود وبنفسجي ، التي كانت تجعلها تبدو وكأنها ثمرة يانعة رطبة محفوفة بلحاء من سواد . هذا اللحاء انزلق ذات مساء في غرفتي ، هناك في عمق المغسلة ، فلمست وقطفت تلك الفاكهة الخالدة من ذوات الثلج المحرق والرونق المتوهج . حين أوشكت الغيبوبة الطبيعية على الاستنفاد ، لمحت تحت عينيَّ عينيها وهما تطبقان تغيبان وهي تصرخ متنهدة أو جاهشة : «آه ، إيه ، آي» (روبرتو ، روبرتو) . (بدا لي ذلك كأنه مشهد من الأعمال الطقوسية . العذراء في المعبد الروماني تنادي الإله المختفي قبل أن تستغرق في طقس جديد) .

على الرغم من شبابي المتدفق الظمئ فإن هذه الأنثى بدت لي مفرطة في سغبها وغليلها . كانت تهيجاتها وتهييجاتها تزداد استعجالاً في كل مرة ، وقلبها المتقد الحار يقودني شيئاً فشيئاً إلى هلاك عاجل : وما كانت الغلمة لتتوافق مع الفاقة وعدم التغذية . وفاقتي كانت في كل يوم تغدو أكثر مأساوية .

الخجل:

إن الحقيقة هي أنني عشت خلال كثر من سنواتي الأولى ، قد تكون سنوات العقد الأول والثاني من حياتي ، كأنني أصمّ أبكم .

كنت أرتدي رداء أسود منذ صباي ، أقلد بذلك شعراء القرن الماضي الأصيلين ، فقد كان لي انطباع غامض بأني لست قبيح المظهر . لكنني بدل من أن أقترب من

الفتيات كنت أفضل أن أمرّ بهن جانباً وأبتعد عنهن مظهراً لا مبالاة بهن . الحق يقال أني كنت في داخلي أهتم بهن وأبالي غيـر أني كنت أخـشى إن دنوت منهن وكلّمتهن أن أتلعثم أو أحمر خجلاً أمامهن . لقد كن بالنسبة لي طلسماً وسراً عميقاً لا تسبر أعماقه . وددت لو أني أموت احتراقاً في هذه الجمرة السحرية ، اختناقاً في هذه البئر ذات القاع اللغز بيد أني ما كنت لأجرؤ أن أقذف بنفسي إلى النار أو إلى اللجة . ربما كان سبب ذلك هو أني ما عثرت على من يدفعني فأنقذف . كنت أحاذي ضفاف السحر دون أن ألتفت ولو بنظرة أو ابتسامة .

الشيء نفسه كان يقع لي مع الكبار أيضاً ، مع أناس فقراء ، مع مستخدمين في السكك الحديدية أو في البريد ، مع «سيداتهم حرمهم» ، فهكذا كانوا يدعونهن إذ إن البورجوازية الصغيرة كانت تشعر بالفضيحة والعار إن لفظت كلمة «امرأتي ، امرأتك ، امرأته» . كنت أنصت للأحاديث في مجالس والدي ، لكن ، إذا ما صادفت في اليوم التالي ، أحداً من الذين كانوا قد تعشوا في بيتنا الليلة البارحة ، ما كنت أجرؤ على تحيته أو رد السلام عليه ، بل إنني كنت أغيِّر سبيلي كي أتفادى اللحظة الحرجة .

إن الخجل لهو طبع غريب ، إنه لمرتبة ، إنه لمدى يطل على الوحدة والشعور بالانفراد والعزلة . وهو كذلك معاناة لا تنفصم عن المعايشة فكأنما للمرء بشرتان اثنتان : الباطنية منهما تشمئز وتتشنج تجاه الحياة ، إن هذه الميزة وهذه الأذية بين بني الإنسان ، لهما جزء من السبيكة التي تدعم ، في ظرف مديد ، تأبيد الوجود وتخليد الإنسان .

لقد استغرق تثاقلي في المسير ، إغراقي في التفكير المستديم فترة أكثر مما يجب . عندما قدمت إلى العاصمة تباطأت في كسب الصديقات والأصدقاء . كلما أولاني أحدهم أهمية أقل أوليته صداقتي بسهولة أقل . ما كان عندي إذّاك فضولية في التعرف على النوع البشري . لا أستطيع أن أتعرف على أناس هذ العالم كلهم ، كنت أقول في نفسي . وهكذا نشأت في بعض الأوساط فضولية شاحبة حول هذا الشاعر الجديد ذي ١٦ سنة من العمر أو أكثر قليلاً ، فتى منطو منعزل يُرى في مجيئه وذهابه وهو صامت ساهم لا يلقي السلام ولا يرد التحية ، لا يودع ولا يستودع . بالإضافة إلى أنني كنت أرتدي بردة طويلة من الطراز الإسباني تجعلني أشبه شيء بفزّاعة عصافير . ما كان أحد يظن أن ردائي الفضفاض هذا كان نتاجاً مباشراً لفقري وعوزي .

من بين الذين استقصوا عني واهتموا بي اثنان كانا من أبرز طليعة تلك الفترة

في التأنق وحب البروز : (بيلو يانيث) وزوجته (مينا) . كانا يمثلان الأنموذج الكامل في البطالة الرائعة التي وددت أن أحياها ، غير أنها بعيدة المنال بالنسبة لي ، أبعد من حلم جميل . لأول مرة في حياتي تلك دخلت إلى دار ذات تدفئة وثريات بديعة هادئة ومقاعد لطيفة مريحة وجدران طافحة بكتب أكعابها مختلفة الألوان والأشكال كأنها ربيع دائم . آل (يانيث) كانوا يدعونني مرات كثيرة لزيارتهم فقد كانوا كرماء رصينين لا يعيرون اهتماماً لبذاءة بردتي الغريبة ، بردة الرهبنة والتأمل والانكباب . أغدو من بينهم راضياً فيلاحظون ذلك فيدعونني من جديد فألبي راضياً .

في تلك الدار رأيت لأول مرة لوحات تكعيبية ومن بينها لوحة (خوان غريس Juan Cris)[١] . أخبروني أن (خوان غريس) كان صديقاً لعائلتهم في باريس . لكن أكثر شيء لفت انتباهي هو البيجاما التي كان يرتديها صديقي (بيلو) . كنت أستغل كل فرصة سانحة لأنظر إلى هذه البيجاما الجميلة شزراً بطرف عيني وفي إعجاب شديد . لقد كان الوقت شتاء وتلك كانت بيجاما من قماش سميك كأنها قطيفة طاولة «البلياردو» ، لكنها في زرقة لجة البحر . آنذاك ما كنت أعرف صنفاً آخر لبيجاما اللهم إلا تلك الخطوط التي تبدو كأنها زيّ سجين في حبس معتم . إن بيجاما (بيلو يانيث) هذه فاقت البيجامات جميعها وخرجت عن الأطر كلها ، نسيجها المتين السميك وزرقتها المشعة كانا يثيران حسد شاعر فقير يعيش في ضواحي سانتياغو . لكنني ، في الحقيقة ، ما رأت عيناي خلال خمسين سنة بيجاما مثل تلك .

لم أعد أرى آل (يانيث) لسنين طويلة . هي هجرت زوجها وفارقت كذلك الدراري والأروقة الفاخرة ومضت مع بهلوان سيرك روسي مر يوماً بسانتياغو . في ما بعد صارت تبيع التذاكر في العالم من أستراليا حتى الجزر البريطانية ، مساهمة في استعراضات البهلوان الذي بهتها وخلب قلبها . ثم تسمت بـ(روسا كروث) أو شيئاً من هذا القبيل ، وعاشت في مجمع متاع مختلط الجنسين بجنوب فرنسا .

أما (بيلو يانيث) زوجها ، فقد غيّر اسمه واستبدل به اسم (خوان إيمار) ، وتحوّل مع مرور الزمن إلى كاتب قدير ولكن باسمه المستعار هذا . كنت له صديقاً طيلة حياته . صامتاً وأنيقاً وفقيراً عاش ومات هكذا . إن مؤلفاته الكثيرة ما زالت حتى الآن دون نشر ، بيد ان إبداعه لا بد أن يظهر ذات يوم .

---

(١) خوان غريس : رسام إسباني عاش في فرنسا (١٨٨٧-١٩٢٧) .

سأنهي الحديث عن (بيلو يانيث) أو (خوان إيمار) (ولسوف أعود من بعد لموضوع خجلي) ذاكراً أنه خلال عهدي الجامعي ، أصر صديقي (بيلو) هذا على تقديمي إلى والده . «سيؤمِّن لك السفر إلى أوروبا بكل تأكيد» قال لي . في تلك الأوقات شعراء أمريكا اللاتينية ورساموها جميعهم كانت عيونهم مسمَّرة في باريس . والد (بيلو) كان شخصية مهمة جداً ، عضواً في مجلس الشيوخ . كان يعيش في دار من هذه الدور الضخمة القبيحة ، في شارع قريب من ساحة «ارماس» ومن القصر الجمهوري ، الذي كان يفضل هو من غير ما شك ، أن يعيش فيه لو سنحت له الظروف .

صديقي (بيلو) وزوجته -لما تكن قد هجرته- بقيا في الرواق بعد أن نزعا عني بردتي لكي أبدو شخصاً عادياً . فُتح باب قاعة الشيخ لي ثم أغلق خلف ظهري . قاعة واسعة جداً ، ربما من قبل كانت قاعة للاستقبالات الحافلة ، غير أنها كانت خاوية خالية . ميزت من بعيد ، في الطرف الآخر من القاعة ، تحت مصباح مرتكز على سارية ، مقعداً عظيماً والشيخ عليه . صفحات الجريدة التي كان يقرأها كانت تخفي عني طلعته كأنما الجريدة حجاب يحجبه .

حين خطوت أول خطوة فوق الأرضية الخشبية المصقولة والمشمعة بشكل إجرامي ، تزحلقت كأني متزلج ماهر . سرعة هرولتي كانت تتزايد في عجلة هائلة ، دعست على المكبح كي أتوقف وإذ بي أنخض وأهتز وأرتض عدة مرات كانت آخرها عند أقدام الشيخ الذي خزرني بعينين باردتين مواصلاً قراءة الجريدة .

توصلت إلى أن أجلس نفسي على مقيعد بجانبه . الرجل العظيم تفحّص فيّ بنظرة عالم حشرات تعب قد أحضر له نموذج من الحشرات عرفه بالذاكرة ، عنكبوت مسالمة . سألني في تكاسل عن مشاريعي ، أنا ، بعد الرضرضة والتدحرج ، كنت أكثر خجلاً وأقل فصاحة مما أنا عليه عادة .

لا أدري ماذا قلت له . بعد عشرين دقيقة ناولني بعضاً من يده كعلامة للانصراف . كأني سمعته يقول بصوت ناعم خفيف بأنه سيتصل بي ويخبرني بشيء . ثم عاد ليواصل قراءة جريدته وأنا شرعت بالإياب ، عبر تلك الأرضية الخشبية الخطيرة ، مسرفاً في اتخاذ الاحتياطات اللازمة التي كان عليّ أن أتخذها من قبل حين انطلقت لأجتازها . طبعاً ما وصلني من الشيخ والد صديقي أية بشرى ولا خبر ، أبداً . انتفاضة عسكرية ، على فكرة ، غبية ورجعية ، أطاحت به من على مقعده هو وصحيفته التي لا تنتهي . أعترف بأني سررت لذلك وفرحت .

اتحاد الطلبة:

في «تيموكو» كنت مراسلاً لمجلة «كلاريداد Claridad»[1] الناطقة باسم اتحاد الطلبة، وكنت أبيع منها من عشرين إلى ثلاثين نسخة بين زملائي في المدرسة. إن الأخبار التي وصلت إلينا ونحن في «تيموكو» عام ١٩٢٠، قد طبعت أبناء جيلي بندوب دموية . . . منظمة «الشبيبة الذهبية»، لدى طبقة الأقلية الحاكمة، كان قد هاجم أفرادها مقر اتحاد الطلبة فحطموه تحطيماً. العدالة التي منذ الاستعمار حتى الوقت الحالي كانت في خدمة الأغنياء، لم تسجن المعتدين الآثمين بل الأبرياء المعتدى عليهم. (دومينغو غومث روخاس) الشاب الذي كان أمل الشعر التشيلي إذاك، جن من وطأة العذاب وقضى نحبه في معتقله. كان صدى هذه الجريمة، ضمن الأوضاع المحلية لبلد صغير، شديداً وعميقاً، كما لو كان اغتيال (فيديريكو غارثيا لوركا) بغرناطة.

حين وصلت إلى «سانتياغو» في آذار من عام ١٩٢١، لكي ألتحق بالجامعة، لم يكن عدد من سكان العاصمة يبلغ خمسمائة ألف نسمة. كانت تفوح برائحة الغاز والبن. آلاف الدور كانت مسكونة بأناس غرباء وبالبق. تقوم بالمواصلات بين الشوارع والأحياء حافلات «ترام» صغيرة غير منظمة، تضطرب في مسيرها وتئز بحدائد كانت لها وأجراس صغيرة. السفر بين نهج «ايندبيندنثيا» وبين الطرف الآخر من العاصمة، حيث كان معهدي الجامعي قرب المحطة المركزية، كان لا ينتهي لطول المسافة وتباطؤ الحافلة.

كان يدخل ويخرج من مقر اتحاد الطلبة زعماء التمرد الطلابي المشهورون حينذاك، وهم عقائدياً كانوا مرتبطين بالحركة الفوضوية القديرة الكاسحة في تلك الفترة. كان أكثر هؤلاء القادة والزعماء تاريخياً في النضال، الرباعي العنيف: (الفريدو ديماريا)، (دانييل سشيويتزبر)، (سانتياغو لاباركا)، (خوان غاندولفو)، وكان (خوان غاندولفو)، من غير ما شك، أعظمهم وأروعهم، كان يُهاب لوعيه السياسي العميق الجريء ولشجاعته المجربة في كل معترك. كان يعاملني كما لو كنت طفلاً صغيراً وفي الحقيقة كنت لما أزل طفلاً. ذات مرة وصلت متأخراً عن الموعد إلى عيادته من أجل استشارة طبية، نظر إليّ مقطب الجبين وقال: «لماذا لم تأت في الساعة المحددة؟ هناك مرضى آخرون ينتظرون». «ما كنت أعرف كم كانت الساعة»، أجبته. «خذ من أجل أن تعرف الوقت في المرة القادمة»، قال لي وأخرج

---

(١) كلاريداد: معناها، الوضوح.

ساعة من جيب صدريته فأعطانيها هدية ، شكرته عليها .

(خوان غاندولفو) كان صغير القامة ، مكور الوجه مدوره ، أصلع قبل الأوان . غير أن هيبته كانت دائماً تفرش نفسها . تحداه للمبارزة ذات مرة أحد العسكريين الذين قاموا بالانقلاب في ذلك الحين ، وكان هذا مشهوراً بأنه عربيد وقح ، فقبل (غاندولفو) التحدي ، ثم تعلم فن المبارزة في خمسة عشر يوماً ، وفي يوم النزال جندل خصمه وعفره . وفي هذه الأيام ذاتها حفر على الخشب غلاف أول ديوان لي «شفقيات» Crepusculario ومشاهده المرسومة فيه . فأتت حفريات مدهشة قام بها رجل لا أحد يقارنه في الخلق الفني والإبداع .

إن أكثر الشخصيات أهمية ، في الحياة الأدبية الثورية ، كان هو (روبيرتو ماثا فوينتيس) ، مدير مجلة «خوبينتود»[١] ، التي كانت أيضاً تابعة لاتحاد الطلبة ، كانت أحسن انتقاء وأكثر إتقاناً من مجلة «كلاريداد» . وعلى صفحاتها كان يبرز (غونثاليث بيرا) و(مانويل روخاس)[٢] ، وهما من جيل أقدم من جيلي . (مانويل روخاس) جاءنا من الأرجنتين ، وله من العمر سنون كثيرة ، فأدهشنا بقامته الهيابة وبكلماته التي يسقطها من فمه بشيء من الازدراء أو من الزهو والإعجاب . كان يعمل صافّاً للحروف في المجلة . أما (غونثاليث بيرا) فقد كنت أعرفه منذ أن جاءني إلى «تيموكو» هارباً إثر هجوم الشرطة على مقر اتحاد الطلبة ، جاء مباشرة من محطة القطار التي تبعد بضعة أمتار عن بيتنا ليراني . كان مظهره جديراً بأن أذكره دائماً وقد كان لي إذاك ١٦ سنة ، في بداية مسيرتي الشعرية . أبداً ما رأيت من قبل وجهاً أكثر شحوباً من شحوب وجهه الضئيل جداً كأنه قدّ من عاج وجمع من عظام ، كان يتشح برداء أسود قد انفرط خيطه في الأكمام والأطراف ، دون أن يفقده أناقته . كلامه رن لي منذ اللحظة الأولى حاد النبر هازلاً ، أثارني حضوره في تلك الليلة الممطرة التي قادته إلى بيتنا ، دون أن أدري من قبل عن وجوده شيئاً ، كان وصوله كوصول ذاك العدمي الثائر إلى بيت (ساتشا يغوليف) ، بطل (أندرييف Andreiev)[٣] ، تلك الشخصية التي كان شباب أمريكا اللاتينية المتمرد يتخذها أنموذجاً وأمثولة .

---

(١) خوبينتود : معناها ، الشباب .

(٢) مانويل روخاس : روائي ولد عام ١٨٩٦ .

(٣) أندرييف : روائي ومسرحي روسي (١٨٧١-١٩١٩) .

ألبيرتو روخاس خيمينيث:

في مجلة «كلاريداد» التي انتميت إليها عضواً سياسياً وأدبياً، كل شيء تقريباً كان يدار ويوجه من قبل (ألبرتو روخاس خيمينيث)، الذي غدا في ما بعد من أكثر زملائي الذين في سني ومن جيلي حباً في نفسي وتعظيماً. كان يتجلل بقبعة قرطبية ويضع شارات طويلة كأنه شريف من الشرفاء. أنيقاً رشيقاً يخطر ويتخايل ويتمخطر كأنه عصفور مذهب مزدان على رغم بؤسه وعوزه. كانت تتمثل فيه صفات الفتوة الجديدة كلها. سلوك متعفف أبي، إدراك كامل للنزاعات العديدة وإلمام بها، معرفة جذلى (وشهية طيبة) بكل الأشياء الحيوية. كتب وفتيات، زجاجات وسفن، مسالك وأرخبيلات، كل هذا كان يعرفه ويستعمله حتى الثمالة وفي تفاصيله ودقائقه، غادياً أو رائحاً. كان يتنقل في الوسط الأدبي بنسيم منعش وطلعة تنمّ عن فاسق ولفتات تدل عن حاذق ومبادهات تنبئ عن نابغ وإشارات تخبر عن ساحر. ربطات عنقه كانت دائماً عينات غنى ومساطر ثروة، في إطار الفقر العام، كان يبدل دوراً ومدناً وبلداناً دائماً أبداً لا يقر له قرار ولا يستقر على حال، وهو بهذا التنقل وبسروره الفرح الجذل وببوهيميته الفطرية كان يسرّ لبضعة أيام أو أسابيع السكان المباغتين المفاجئين حيث يحل أو يمر بـ«رانكاغوا»، بـ«كوريكو»، بـ«بالديبيا»، بـ«كونثيبثيون»، بـ«بالبارائيسو». كان يرحل كما قدم؛ حيث ينزل، يدع أشعاراً، رسومات، ربطات عنق، عاشقات، صداقات. بما أنه كان من جبلّة أمير حكايات شرقية ومن محتد كريم خيالي لا يصدق، فقد كان يهدي كل شيء ويجود بكل ما عنده: قبعته، قميصه، سترته، صرافيته، وحتى بحذائه. حين لا يبقى معه شيء مادي يمنحه ويهديه فإنه كان يرسم شيئاً على الورق، أو يكتب جملة أو بيت شعر أو أية أملوحة لطيفة، وبإيماءة كريمة منه يعطيكه فترضى كما لو أنه ترك في يديك جوهرة لا تقدر، ثم ينطلق.

كان ينظم أشعاره على الطراز الأخير، متابعاً في ذلك تعاليم (أبوللينير)[١] والعصبة التطرفية[٢] في أسبانيا. لقد أسس مدرسة شعرية جديدة باسم «أغو» Agu

---

(١) أبوللينير: شاعر فرنسي (١٨٨٠-١٩١٨).

(٢) العصبة التطرفية: هي عصبة شعرية انتشرت مبادئها في إسبانيا عام ١٩١٨ ثم عمت أمريكا اللاتينية كلها، كانت تدعو إلى ضرورة الإسراع في إجراء تغييرات جذرية في الشعر وفي الحياة.

هذه الكلمة ، كما كان يقول ، هي صرخة الإنسان الأولى ، أول بيت شعر ينطق به الوليد .

إن (روخاس خيمينيث) فرض علينا أنماطاً من اللبس ، في طريقة التدخين ، في الخط والكتابة . مستهزئاً بي ولكن في لباقة لا حد لها ، ساعدني على أن أنزع مني نغمتي الكئيبة . لم يعدني أبداً بتشككه الظاهري وارتيابه في كل شيء ولا بسكره العاصفي ، فقد خرجت من ذلك سليماً . بيد أني ما زلت أذكر حتى الآن بحنين شديد شكله الذي كان يضيء كل شيء ، يجعل الجمال يطير من كل الأنحاء كما لو كان يبعث الحركة في فراشة مختبئة .

لقد تعلم من السيد (ميغيل دي أونا مونو)[1] صنع عصافير من ورق . كان يشيد عصفوراً ذا عنق طويل وأجنحة مديدة فينفخ فيه ليطير . كان يدعو هذا النفث ، إعطاء العصافير «الدافع الحيوي» ، كان يكتشف شعراء من فرنسا ، قوارير خمر في الأقبية ، كان يوجه رسائل غرامية إلى بطلات (فرانثيس جيمس)[2] .

إن أبياته الجميلة كانت تنعوج وتلتف في جيوبه ، وهي حتى الآن لم تُنشر .

إن شخصيته المفرطة في غرابتها كانت كثيراً ما تلفت الأنظار إلى درجة أنه في أحد الأيام ، بينما كان جالساً في مقهى ، اقترب منه رجل مجهول وقال له : أيها السيد ، لقد كنت أستمع إليك فأعجبتني فاستلطفتك ، أتسمح لي أن أقول لك شيئاً؟ ، «وما هو هذا الشيء»؟ أجابه (روخاس خيمينيث) في جفاء ، «أن تسمح لي أن أقفز فوقك» قال الرجل المجهول ، «لكن ، كيف؟» قال الشاعر «هل أنت جد قدير ونشيط إلى درجة أنك تقدر على أن تقفز من فوقي ، وأنا جالس في هذه الطاولة؟» «كلا ، أيها السيد» استدرك الرجل المجهول في صوت خفيض ، «أنا أريد أن أقفز من فوقك في وقت آجل ، حين تستريح حضرتك في التابوت ، إن هذا هو الشكل الذي أكرم فيه الشخصيات المهمة التي أتعرف عليهم في حياتي ألا وهو القفز من فوقهم ،

---

(١) ميغيل دي أونامونو : هو المفكر والشاعر الأسباني المشهور جداً (١٨٦٤-١٩٣٦) ، لقد ترجمنا له وعنه في كتابنا «دون كيخوته في القرن العشرين» منشورات المعهد الأسباني العربي للثقافة في مدريد عام ١٩٦٨ ، وفي كتابنا الآخر «مختارات من الشعر الأسباني المعاصر» منشورات وزارة الإعلام العراقية عام ١٩٧٣ .

(٢) فرانثيس جيمس : شاعر وروائي فرنسي (١٨٦٨-١٩٣٨) .

أن يسمحوا لي بذلك ، حين يكونون جثثاً في التوابيت ، أنا رجل وحيد متوحد وهوايتي الوحيدة هي هذه» ، ثم أخرج مفكرة من جيبه وقال له : «هنا في هذه المفكرة لديّ قائمة بأسماء الشخصيات الذين قفزت من فوق جثثهم» . فقبل (روخاس خيمينيث) وقد جن فرحاً ، هذا الاقتراح الغريب . بضع سنوات من بعد ، في فصل من فصول الشتاء الأكثر أمطاراً وبرداً مما أذكر أنه مر علينا في تشيلي ، مات (روخاس خيمينيث) كان قد ترك سترته كعادته في إحدى حانات مركز مدينة «سانتياغو» . وليس على جسده غير قميص خفيف عبر المدينة في ذلك الشتاء القارص القاسي متوجهاً إلى منزل أخته (روسيتا) بدار المعلمات الخامسة . لم يمض يومان حتى اختطفت من هذا العالم ، ذات الرئة ، واحداً من أكثر الأشخاص الذين عرفتهم سحراً وروعة ، ذهب الشاعر بعصافيره الورقية طائراً عبر السماء وتحت المطر .

لكن ، في الليلة التي كان يسهر أصدقاؤه حول نعشه ، جاءهم زائر غريب . كان المطر يتساقط مدراراً على أسطحة المنازل ، والرياح والرعود والبروق كانت تضيء وتهز أشجار اللوز في باحة دار المعلمات ، حين فُتح الباب فدخل رجل متشح بالسواد وعليه علامات الحزن والحداد ومبتلاً بالأمطار ، لا أحد منهم كان يعرفه ، أمام استغراب هؤلاء الذين كانوا يسهرون حول النعش ، تراجع المجهول قليلاً ثم قفز من فوق التابوت ، دون أن ينبس ببنت شفة غادر المكان فجأة مثلما جاء ، ثم اختفى تحت أجنحة الليل وزخّات المطر . وهكذا ختمت حياة (البرتو روخاس) المفاجئة ، بمفاجأة طقس لغز لا أحد حتى الآن استطاع له تفسيراً وتبياناً .

كنت على وشك الوصول إلى إسبانيا ، حين نعي إليّ . مرات قليلة في حياتي شعرت بألم شديد وحزن ممضّ كالذي شعرت به وأنا في برشلونة ، على فقد هذا الصديق ، حالاً شرعت بكتابة مرثاتي (ألبرتو دوخاس خيمينيث) «يجيء وهو يطير» (Alberto Rojas Giminez Veine Volando) ثم نشرتها من بعد في مجلة «أوكثيدينته»[1] .

لكن ، كان عليّ أن أؤدي طقساً من الطقوس لتوديعه . لقد مات بعيداً عني ، في

---

(١) أوكثيدنته : معناها ، الغرب وهي مجلة أسسها في مدريد الفيلسوف الإسباني (أورتيغا أي غاسيت) ، وقد ترجمنا له وعنه في كتابنا المذكور «دون كيخوته في القرن العشرين» ، وما زالت هذه المجلة تصدر حتى الآن .

تشيلي ، في أيام ذات أمطار مخيفة أغرقت المقبرة بأسرها . لا بد أن أجري للاحتفال بذكراه شيئاً ، فأنا لم أمكث عند رفاته نادباً ولم أمش في جنازته نائحاً ، ذهبت إلى صديقي الرسام (أسائياس كابيثون) ، فرافقني في التوجه إلى الكنيسة الكبيرة الرائعة ، كنيسة «سانتا ماريا ديل المار»[1] . اشترينا شموعاً كبيرة ، طويلة جداً تقريباً بقدر طول هيكل إنسان ، ودخلنا بها إلى ظلال ذلك المعبد الغريب . بما أن «سانتا ماريا ديل المار» كانت كاتدرائية البحارة فقد بناها حجراً على حجر منذ عدة قرون صيادون وبحارة . من بعد زيِّنت بآلاف النذور ، بقوارب من جميع الأشكال والحجوم تمخر عبر الخلود ، كانت تُفرش بها جدران الكنيسة الجميلة وسقفها البديع . تصورت أن هذا المكان هو مشهد ومسرح جديران بالشاعر الفقيد ، فلو كان حياً وعرف هذه الكنيسة لاتخذها مراحاً له ومسرحاً ولكان مكانه المفضل . أشعلنا الشموع في صحن الكنيسة العظيمة تحت قبابها العديدة ، ونحن جالسان في الكنيسة الخاوية ، وزجاجة نبيذ أخضر إزائي وأخرى إزاء صديقي الرسام ، فكّرنا في أن هذا الاحتفال الصامت ، على الرغم من اعتقادنا بمذهب اللاإرادية ، يقربنا من صديقنا في عالمه السحري بشكل من الأشكال السحرية الغامضة . الشموع المشتعلة في وسط هذه الكنيسة الكبيرة الخاوية كانت تبدو وكأنها شيء حي يلتمع حياة وبريقاً ، كما لو أن عيني ذاك الشاعر المجنون الذي أخمد قلبه إلى الأبد كانتا تنظران إلينا من بين الظل والنور في تلك النذور .

مجانين في الشتاء:

على ذكر (روخاس خيمينيث) أقول إن الجنون ، نوعاً من الجنون ، يمضي أحياناً كثيرة في أحضان الشعر . فكما أن ذوي الحكمة والعقل يكلفهم جهداً كبيراً أن يصبحوا شعراء ، كذلك فإن الشعراء يكلفهم طاقة عظيمة من العناء أن يغدوا عقلانيين ، بيد أن العقل دائماً يربح الجولة ويكسب الشوط ، فالعقل أساس العدل الذي يجب أن يسود في العالم ويسوده . (ميغيل دي أونامونو) ، الذي كان يحب تشيلي كثيراً ، قال ذات مرة : «ما هذا القول ، بالحجة أو بالقوة؟ بالحجة ودائماً بالحجة» .

(١) سانتا ماريا ديل مار : معناها ، القديس مريم البحر ، وكذلك فإن اسم مريم معناه قديسة اليم .

من بين الشعراء المجانين الذين عرفتهم في فترة أخرى سأخص بالحديث الآن (ألبرتو بالديبيا Alberto Valdivia) ، كان واحداً من أكثر الخلق نحافة ، شاحب الوجه أصفر اللون ، كما لو أنه خلق من عظم بلا لحم ولا شحم ولا دم ، ذا لبدة كثيفة جداً ، رمادية اللون ، وزوجاً من النظارات تحجب عينيه المبليتين بقصر النظر ولكنهما ترسلان نظرات بعيدة . كنا نسميه «الجثة بالديبيا» .

كان يدخل ويخرج في سكون من الحانات والندوات والمقاهي وحفلات عزف الموسيقى ، دون أن يثير ضجيجاً ولا غباراً وتحت إبطه حزمة من الصحف ، غريبة عجيبة . «أيتها الجثة العزيزة» كنا نقول له نحن أصدقاءه ، ونحن نحضن جسده اللاجسدي فنحس كأننا نعانق مجرى هوائياً .

لقد نظم أشعاراً قيِّمة رائعة مفعمة بشعور رقيق وعذوبة آسرة ، إليكم بعض هذه الأبيات :

«كل شيء سوف يمضي ، السماء ، الشعاع ، الحياة :
انتصار الشر يقوى والردى الحتميّ يطغى
ليس يبقى غير عينيك إزائي في مصيري
يا ابنة النور ويا أخت حياتي في الغروب» .

شاعراً حقيقياً كان ذلك الذي كنا ندعوه في محبة وود «بالديبيا الجثة» . مرات كثيرة قلنا له : «أيتها الجثة ، ابق للأكل معنا» .لم يكن ينزعج أبداً من هذه التسمية ، أحياناً في شفتيه الرفيعتين الرقيقتين كانت تطل ابتسامة . جملة كانت موجزة مقتضبة لكن مشحونة بالتلميح والفحوى . لقد أصبح طقساً من الطقوس المقدسة آخذه كل سنة إلى المقبرة . في الليلة السابقة لفاتح تشرين الثاني كنا نقدم له عشاء فاخراً جداً بقدر ما كانت تسمح به جيوبنا الضامرة ، جيوب طلاب وأدباء شبان . «جثتنا» هذا كان يشغل مكان الصدارة ويجلس على حجر الشرف ، في الساعة الثانية عشرة تماماً من منتصف الليل طبعاً كانت المائدة تُرفع فنذهب في مسيرة طروب نحو المقبرة . في سكون الليل كانت تُلقى بعض الخطب احتفالاً وتكريماً وتأبينا للشاعر «المرحوم» . من بعد ، كل واحد منا يودعه في حزن وخشوع ووقار ثم ننطلق راجعين تاركينه وحده عند بوابة الجبّانة . «الجثة بالديبيا» كان يقبل هذا التقليد الذي لم يكن فيه قساوة أو احتقار ، برحابة صدر ، إذ إنه كان يشارك في هذه المسرحية الهزلية حتى آخر لحظة يؤدي دوره على أحسن وجه . قبل أن نتركه كنا نعطيه عادة

«بيسوس» Pesos ؛ قروشاً حتى يستطيع أن يأكل ما طاب له من «سندويش» ، في حفرته بالمقبرة .

لم يكن يفاجأ أحد منا حين يدخل هو بعد يومين أو ثلاثة من جديد في صمت وسكون إلى حلقات التنكيت والتبكيت ، أو المقاهي ، طمأنينته مضمونة حتى فاتح تشرين الثاني من العام التالي .

في «بونوس ايريس» تعرفت على كاتب أرجنتيني غريب الأطوار جداً ، يدعى (عمر بيغنوله Omar Vignole) . لا أدري إن كان ما يزال حياً حتى الآن . كان رجلاً ضخم الجثة عظيم الهيئة ، يحمل في يده عكازاً ثخيناً غليظاً . ذات مرة ، في أحد مطاعم مركز المدينة حيث دعاني إلى العشاء ، بينما كنا قرب المائدة أشار لي بيده المبسوطة وقال بصوت جهوري سمع في قاعة المطعم الغاصة بالزبائن : «تفضل اجلس ، يا سيد (عمر بيغنوله)» ، فجلست وعلائم الانزعاج بادية على وجهي وسألته حالاً : لماذا تناديني باسم (عمر بيغنوله) علماً أنك أنت هو وأنا (بابلو نيرودا)؟ ، «أجل ، -أجابني- لكنما في هذا المطعم ثمة أناس لا يعرفونني إلا باسمي فحسب ، وبما أن هناك عدداً ليس بالقليل يرغب أن يعرفني شخصياً فينهال عليّ ضرباً ، فإني أفضل أن تكون من نصيبك هذه الضربات بدلاً مني» .

إن (بيغنوله) هذا كان مهندساً زراعياً في محافظة أرجنتينة ومنها احضر معه إلى العاصمة بقرة كان بها يعقد صداقات متينة حميمة . كان يتنزه وينزه بقرته عبر شوارع «بونوس أيريس» قاطبة ، وهو يجر بقرته بحبل ورسن . في ذلك الحين نشر عدة كتب يعنونها دائماً بعناوين تلميحية : ما يدور في خلد البقرة ، أنا وبقرتي[1] الخ .

حين انعقد في بونوس أيريس لأول مرة مؤتمر «نادي القلم» العالمي Pen Club[2] ، كان الكتاب المؤتمرون برئاسة (فيكتوريا أوكامبو)[3] يرتجفون فزعاً بعد أن

---

(١) أنا وبقرتي : وهو تقليد لكتاب الشاعر الإسباني (خوان رامون خيمينيث Juan Ramon Jime'nez (١٨٨١-١٩٥٨) المعروف باسم أنا وحماري ، وقلد هذا الكتاب كذلك أديبنا (توفيق الحكيم) ، وقد ترجمنا لهذا الشاعر وعنه في كتابنا المذكور مختارات من الشعر الإسباني المعاصر .

(٢) نادي القلم : هو جمعية أدبية لها طابع امبريالي وصهيوني ، هناك قصة حدثت مع (نيرودا) مع هذا النادي سيرويها في ما بعد .

(٣) فيكتوريا اوكامبو : هي كاتبة أرجنتينية معاصرة .

بلغهم أن (بيغنولة) وبقرته سوف يأتيان للمشاركة في جلسات المؤتمر ومداولاته . أبلغوا السلطات المسؤولة عن الخطر الذي سوف يداهمهم ويهددهم فجاء رجال الأمن وطوقوا الشوارع المؤدية إلى فندق «بلاثا» كي يمنعوا أن يصل إلى المقر الفخم حيث كان ينعقد المؤتمر ، موكب صديقي الغريب الشاذ وبقرته المجترّة ، عبثاً كان ما حاولوه واتخذوه من إجراءات واحتياطات ، إذ إنه بينما كانوا يتدراسون العلاقات بين عالم الإغريق الكلاسيكي ومجرى التاريخ الحديث ، اقتحم قاعة المحاضرة ببقرته التي لا تفارقه أبداً ، وثالثة الأثفي أن هذه البقرة حين اتخذت لها موضعاً في القاعة أخذت تخور كما لو أنها كانت تريد المشاركة في الجدال والبحث . كان قد أحضرها إلى مركز المدينة حيث الفندق داخل عربة شحن مغلقة كبيرة ، فهزئت بحراسة الشرطة وبالمؤتمرين .

عن هذا (بيغنولة) نفسه سأروي الآن حكاية أخرى ، حُكي أنه ذات مرة ، تحدى (بيغنولة) بطلاً في المصارعة اليابانية الحرة ، بعد موافقة البطل المحترف وتحديد المكان والزمان ، وحين حانت ساعة التواجه وليلة التقابل وهيئت حلبة النزال وامتلأت الساحة وغص المكان ، برز (بيغنوله) وبقرته في الموعد المحدد ، فقيدها بركن من أركان الحلبة المربعة ، ثم نزع عنه طيلسانه الأنيق ودثاره ذا البريق وصعد الحلبة لمنازلة البطل الشهير باسم (مارد كالكوتا) .

لكنه لسوء حظه وأفول نجمه ما أفادته بقرته في النزال ولا نفعته زينته في السجال ولا أعانه شعره في القتال ، فقد خرّ عليه «مارد كالكوتا» وما هي إلا لحظات حتى جعله منطرحاً مرمياً كأنه كتلة هامدة بلا حول ولا طول ، ثم وضع المارد رجله على حلقه إذلالاً له وإرغاماً ، فيا للثور الأديب المعفر ويا للحنجرة الشاعرة المهروسة المدعوسة بين استهزاء الجمهور الشرس واستخفاف المتفرجين الذين كانوا يطالبون باستمرار الصراع ومواصلة القتال ولكنه كان في حال من الأحوال .

بعد بضعة شهور نشر كتاباً جديداً بعنوان «أحاديث مع البقرة» ، أبداً لن أنسى الإهداء الذي لم يُسبق إليه ، والذي استهل به كتابه ، هذا نصه ، إن لم تخنّي الذاكرة : «أهدي هذا الكتاب الفلسفي إلى الأربعين ألف ابن قحبة الذين كانوا يصفّرون لي ويستهزئون بي ويطالبون بموتي في حلبة الصراع ليلة ٢٤ من شباط» .

في باريس ، قبل الحرب العالمية الأخيرة ، تعرفت على الرسام (البارو غويفارا)

وكانوا دائماً ينادونه في أوروبا باسم (تشيلي غيفارا) . ذات يوم اتصل بي هاتفياً وقال لي : «إنه موضوع مستعجل وفي غاية الأهمية» .

كنت قد قدمت من إسبانيا وكان صراعنا في تلك الفترة ضد (نيكسون) ذلك الزمان المدعو (هتلر) . كانوا في مدريد قد أغاروا على منزلي بغارات جوية ورأيت هناك رجالاً ونساء وأطفالاً وقد مزقت أجسادهم قنابل المغيرين وتناثرت جثثهم في كل مكان . الحرب العالمية كانت على وشك الانفجار فعقدنا العزم نحن فئة من الكتاب ، على محاربة الفاشية بسلاحنا الخاص ألا وهو كتبنا التي كانت تعرّف الناس بالخطر الداهم وتحضهم على الاستعجال في درء شروره .

ابن بلدي هذا كان على هامش هذا الصراع ؛ كان رجلاً هادئاً صموتاً ، رساماً يشتغل كثيراً ، مكباً على أعماله وأشغاله . لكن الجو اذاك كان من بارود . عندما تمنع القوى الكبرى وصول الأسلحة إلى الجمهوريين الإسبان ليدافعوا عن انفسهم ، ومن بعد ، في «مونيخ» يقررون فتح الأبواب أمام الجيش الهتلري ، فإن هذا يعني أن الحرب لابد واقعة .

أسرعت في التوجه لمقابلة من يسمى بـ«تشيلي غيفارا» ، فقد كان شيئاً مهماً وعاجلاً ما كان يريد أن يبلغني به .

- بم يتعلق الأمر؟- قلت له .

- ليس هنا وقت لإضاعته -أجابني- . ليس لك أن تعادي الفاشية ، وليس على المرء أن يكون ضد أي شيء . يجب الذهاب مباشرة إلى لب الموضوع ، وهذا اللب قد عثرت عليه أنا . أريد إخبارك به كي تترك المشاركة في المؤتمرات المعادية للنازية فتنصرف بكليتِّك إلى العمل الأدبي ، ليس ثمة من وقت تضيعه .

- حسناً ، قل لي بم يتعلق الأمر ، فالحقيقة يا (البارو) أن وقت الفراغ عندي لقليل جداً .

- الحقيقة يا (بابلو) هي أن أفكاري شرحتها في عمل مسرحي من ثلاثة فصول ؛ أحضرته معي كي أقرأه عليك .

وبوجهه ذي الحاجبين الوارفين وملامح مصارع قديم ، كان ينظر إليّ في ثبات وإمعان وهو يخرج من جيبه مخطوطاً ذا حجم كبير جداً .

من فزعي احتججت له بقلة الوقت وأقنعته أن يشرح لي شفهياً أفكاره التي يعتقد في أنها ستنقذ العالم والإنسانية .

- إنه بيضة (كولمبوس)[١] -قال لي- ، سأشرح لك ذلك . كم حبة بطاطا تخرج من حبة بطاطا تُغرس؟

- حسناً ، يمكن أن تخرج أربعاً أو خمساً - قلت له على سبيل المجاملة .

- أكثر بكثير -أجاب- . أحياناً أربعون ، أحياناً أكثر من مائة . تصور لو أن كل شخص يغرس حبة بطاطا في الحديقة ، في الشرفة ، في أي مكان . كم نسمة عدد سكان تشيلي؟ ثمانية ملايين ، فإذن ، ثمانية ملايين حبة بطاطا مغروسة ، اضرب ، يا (بابلو) ، بأربعة ، بمائة ، إذن الحرب انتهت إلى الأبد بانتهاء الجوع . كم نسمة في الصين؟ خمسمائة مليون نسمة ، أليس كذلك؟ إن غرس كل صيني حبة بطاطا واحدة ، فإنه ستخرج من كل حبة بطاطا مغروسة أربعون حبة بطاطا فالنتيجة هي حاصل ضرب خمسمائة مليون نسمة بأربعين حبة بطاطا ، وبهذا تنقذ الإنسانية نفسها .

حين دخل النازيون باريس لم يهتموا بهذه الفكرة المنقذة : بيضة (كولمبوس) أو بالأحرى حبة بطاطا (كولمبوس) . اعتقلوا (البارو غيفارا) في ليلة باردة ذات ضباب ببيته في باريس . أخذوه إلى معتقل ، وهناك احتفظوا به وعلى ذراعه وصمة إلى أن انتهت الحرب . خرج من جهنم وقد غدا هيكلاً عظمياً . لكنه ما استطاع أن يستعيد عافيته وقواه ، فعاد في نهاية الأمر إلى تشيلي كما لو أنه أحب أن يودع أرضه ويطبع عليها القبلة الأخيرة ، قبلة رجل مروبص ، ثم عاد إلى فرنسا حيث انتهى من موته في الحياة .

أيها الرسام العظيم ، يا صديقي العزيز ، أيا «تشيلي غيفارا» أريد أن أقول لك شيئاً : أنا أدري أنك ميت ، وأنه لم تجدك نفعاً كونك لا سياسياً وأنه لم تكن لك من سياسة غير سياسة البطاطا . أدري أن النازيين قد قتلوك . بيد أني ، في شهر حزيران من العام الماضي ، دخلت إلى «صالة العرض الوطنية» ما كنت أنوي أن أشاهد غير لوحات (تورنير) فقط ، لكنني قبل أن أصل إلى القاعة الكبرى لمحت لوحة رائعة مؤثرة : لوحة بدت لي جد بديعة مثل لوحات (تورنير) إتقاناً وإبداعاً ، لوحة مدهشة باهرة . كانت صورة لسيدة مشهورة ، تدعى (إديث سيتويل Edith Sitwell)[٢] . رأيت

---

(١) بيضة كولمبوس : هو تعبير إسباني يشبه في معناه ما نقوله بالعربية ، العصا السحرية .

(٢) إديث سيتويل : شاعرة إنجليزية (١٨٨٧-١٩٦٤) .

توقيعك عليها فكبرتك وعظمتك ، كانت اللوحة الوحيدة لرسام من أمريكا اللاتينية بلغ من العبقرية والمهارة درجة بوّأته مكاناً بين تلك النماذج الفريدة في ذلك المتحف العظيم بلندن .

ليس المكان ما يهمني ولا القيمة ما يثيرني ولا حتى تلك اللوحة ما يبعث في نفسي الإعجاب ، بل إن ما يحز في نفسي هو أننا ما تعارفنا كثيراً ، ما تفاهمنا كثيراً ، ما توافقنا كثيراً ، إن ما يهمني ويؤلمني هو أننا قد تقابلنا وما تفاهمنا وما كان الذنب عليّ أو عليك يا صاح ، بل على حبة البطاطا .

أنا كنت رجلاً بسطياً جداً : هذا شرف لي وعار عليّ . لقد رافقت فرقة تمثيلية متجولة كان يجوب بها الأصدقاء لي في هذه الحياة ، فحسدت فيهم يراعهم اللامع وسلوكهم الشيطاني ، عصافيرهم الورقية وحتى هذه البقرات التي قد يكون لها علاقة ما في شكل غامض سحري مع الأدب . على كل حال يبدو لي إني ما ولدت كي أتهم وأدين بل كي أحب وأعشق . أما هؤلاء الهمازون اللمازون المفسدون المثبطون الذين يهاجمونني ، الذين يتجمعون ويتألبون يريدون إطفاء نور عينيّ ، فقء بصيرتي بعدما تغذوا من شعري وغرفوا من بحري . هؤلاء جميعاً لا يستحقون مني إلا الصمت والسكوت فأنا قط ما خشيت أن أنعدي بسمومهم أو أن أغدو من طينتهم وليس لي من أعداء إلا أعداء الشعب .

لقد قال (أبولينير) : «الرحمة لنا نحن الذين نستنبط حدود اللاواقع» . أروي من الذاكرة ، وأنا أفكر في هذه الحكايات التي رويتها ، حكايا أناس ، ليس لكونهم غريبي الأطوار يستحقون محبة أقل وليس لأنهم شاذون ، هم أقل قيمة .

صفقات كبيرة:

نحن الشعراء نفكر دائماً بأن لدينا أفكاراً عظيمة لكي نثري ونغني ، وأننا عباقرة في التخطيط لصفقات تجارية مع أن الآخرين لا يدركون عبقريتنا . أذكر أنني ، مدفوعاً بفكرة من هذه التشكيلة المزدهرة في حديقة الأفكار ، بعت على ناشر في تشيلي عام ١٩٢٤ حقوق نشر كتابي «شفقيات» وملكيته لا لطبعة واحدة بل إلى الأبد ، ظاناً بأني سوف أثري بهذه الصفقة ، فوقعت العقد أمام كاتب بالعدل ودفع لي هذا المخلوق مبلغاً قدره خمسمائة «بيسو» عداً ونقداً ، وهي تساوي في تلكم الأيام أقل من خمسة دولارات . (روخاس خيمينيث) و(البارو هينوخوسا) و(هوميرو ارثه) ، كانوا ينتظرونني

عند باب كتابة العدل لكي نحتفل بهذا النجاح التجاري . فعلاً رحنا فأكلنا في أحسن مطعم كان يوجد في ذلك الحين وهو «لا باهيّا»[1] ، وشربنا نبيذاً فاخراً ودخنا تبغاً ممتازاً وختمنا ذلك بتناول بعض المشروبات ، وكنا قبل هذا قد لمّعنا أحذيتنا فغدت تضيء كأنها مرايا ، وما استفاد من تلك الصفقة إلا صاحب المطعم وأربعة مساحي أحذية وناشر ، أما الشاعر فلم تدن الرفاهية منه ولا صافحه الرخاء واليسر .

إن من كان يقول إن له عينَي باز في الأعمال التجارية هو (البارو هينوخوسا) . كان يدهشنا بخططه العظيمة جداً التي لو أنها توضع موضع التنفيذ لجعلت السماء تمطر دنانير فوق رؤوسنا . وكنا نحن ، بوهيميين محرومين تعسين ، لا نشك في أن إتقانه اللغة الإنجليزية ، لفافاته ذات التبغ الأشقر ، سنواته الجامعية في نيويورك سوف تضمن نجاح الفلسفة العملية لدماغه التجاري العظيم .

ذات يوم دعاني إلى التباحث في سرية مطلقة وقال لي إنه يريد أن يجعلني عضواً مشاركاً في محاولة رائعة بغية اكتساح ثروة سريعة واكتساب غنى داني القطوف ، أنا سأكون شريكه في ربح الخمسين بالمائة على أن أساهم ببضعة «بيسوس» قد استلمها من جهة ما وهو سيدفع المبلغ الباقي . ذلك اليوم سنشعر أننا رأسماليون حقيقيون من غير رب ولا دين ولا قانون ، عازمين على كل شيء ومصممين على المغامرات الرابحة الأخرى .

- وما هي هذه التجارة؟ سألت في خوف ملك التمويلات العجيب .

(البارو) أغمض عينيه ، قذف بنفحة من دخان استحالت إلى دوائر صغيرة ، ثم أجاب في صوت خفيض :

- جلود .

- جلود؟ أعدتُ مندهشاً مستغرباً .

- أجل ، جلود ذئب البحر ، لكي أكون دقيقاً ، جلود ذئب البحر ذي الشعر الوحيد الواحد .

ما تجرأت على أن أستقصي عن دقائق وتفصيلات أكثر . كنت أجهل أن عجول البحر أو الذئاب البحرية لها شعر واحد وحيد . حين أمعنت نظري فيها وهي على صخرة في سواحل الجنوب بتشيلي ، رأيت لها شعراً براقاً يلتمع تحت شعاع الشمس

---

(١) لا باهيّا La Bahia : معناها ، الرصيف ، رصيف الميناء .

دون أن ألحظ لها أي شعر فوق كروشها الكسلى .

قبضت ما وردني من دخل ، في سرعة البرق ، ومن غير أن أسدد ما كان عليّ من إيجار ، ومن قسط للخياط ومن وصل للإسكافي ، وضعت مساهمتي المالية في يدَي شريكي المموّل .

ذهبنا لنرى الجلود . كان (البارو) قد ابتاعها من عمة (خالة) له ، من أهل الجنوب ، مالكة لعديد من الجزر غير المنتجة . فوق الجزر الصغيرة ذات المجالات غير المموجة كانت الذئاب البحرية قد اعتادت على ممارسة احتفالاتها الغرامية واتصالاتها الجنسية . ها هي الآن أمام عينيّ ، وقد غدت حزماً كبيرة من الجلود الصفراء بعد أن ثقبها بطلقات البنادق خدم العمة الماكرة فخرّت صريعة . كانت أسفاط الجلود تبلغ سقف ذلك القبو الذي استأجره (البارو) كي يبهر بها أنظار المشترين المزعومين .

- وماذا سنفعل بهذا الحشد ، بهذا الجبل من الجلود؟ سألته في خطف من الكلام .

- إن الناس كل الناس في حاجة ماسة إلى جلود من هذا الصنف الجيد ولسوف ترى . فخرجنا من القبو ، (البارو) مودعاً شرراً من الطاقة يطلقه من لفافته وأنا مطرق الرأس صامتاً .

(البارو) كان يروح من هنا إلى هناك وهو يحمل سجلاً فيه عينة من جلودنا الأصلية الأصيلة ، جلود «ذئب بحري ذي شعر واحد وحيد» وكان قد ملأ السجل بأوراق بيضاء في بياض لكي يعطيه مظهراً تجارياً . قروشنا الأخيرة ذهبت في إعلانات بالصحافة عسى أن شخصية مهتمة ومتفهمة تقرؤها فتكفينا وكفى . وسنصبح إن بعناها ، أغنياء أثرياء . (البارو) ، وهو ما هو من رجل متأنق أنيق ، كان يحلم بشراء نصف اثنتي عشرة بدلة من الجوخ الإنجليزي ، أما أنا ، أكثر تواضعاً منه ، فكنت أداعب أحلامي لترضى بأنني سوف أقتني مرشّة ماء أو فرشاة حلاقة أحسّن بها ذقني ، إذ إن الفرشاة الحالية كانت توشك على أن تغدو صلعاء جرداء .

أخيراً حضر المشتري ، كان سرّاج خيل ، ذا جسيم ضليع متين ، قصير القامة ، ذا عينين رابطتي الجأش ثابتتي الجنان ، قليل الكلام ، وفي عرض[1] من الصراحة هي

---

(١) عرض : هكذا في الأصل مع «ال» التعريف Alarde ، والكلمة من أصل عربي واضح ، ومن معانيها كذلك في اللغة الإسبانية ، مفاخرة ، استعراض ، تبجح .

في حكمي بعض من السفاهة . استقبل (البارو) في جفاء وفتور واقيين حتى لا يعرف مدى اهتمامه به وحدد له موعداً بعد ثلاثة أيام لكي نريه بضاعتنا الممتازة .

في مجرى هذه الأيام الثلاثة ، اقتنى (البارو) لفائف من الدخان الإنجليزي وبعضاً من السيجار الكوبي من صنف «روميو وجولييت» وضعها بشكل مرئي في الجيب الخارجي من سترته . حين حانت ساعة انتظار وصول المغني ، بعثرنا على أرض القبو الجلود التي تنمّ عن حالة أحسن ووضع أفضل ومنظر أجمل .

الرجل خف على الموعد المحدد بالضبط ، لم ينزع عنه قبعته ، وحيًّانا بهمهمة تكاد لا تسمع ، ثم نظر إلى الجلود الممدودة على الأرض نظرة سريعة مزدرية ، من بعد أجال عينيه الصارمتين الخبيثتين في الرفوف المكتظة . رفع يداً غليظة سميكة وسنّ إظفراً كي يحزّ به حزمة من الجلود فيختبرها ، في المكان ذاته حيث حشرت أنا أكثر الجلود حقارة وأقلها قيمة .

(البارو) استغل تلك اللحظة الحرجة ليقدم له واحداً من السجاير الأصيلة الكوبية ، فالتقطه المشتري بسرعة خاطفة وعضه من طرفه ثم تف ثم أدخله في حلقة بين شدقيه وهو ثابت الجأش والنظر ، مشيراً إلى الحزمة التي كان يريد أن يجتزها ويقيِّمها .

لم يكن بد من عرضها عليه وإظهارها له ، شريكي صعد السلم وهو مبتسم ابتسامة المحكوم عليه بالموت شنقاً ، ثم نزل وأنزل الحزمة الثخينة . المشتري استعرض جلود الحزمة واحداً إثر واحد ومن حين إلى حين كان يسحب من سيجار (البارو) الذي أهداه إليه دخاناً ثم يقذف به جواً .

كان الرجل يرفع جلداً من الجلود ، يدلكه ، يدعكه ، يكشطه ، يطويه ، يبصق عليه ، يرميه ، يتناول آخر وهكذا دواليك . بعد أن انتهى من تفحصه وتفتيشه أجال من جديد نظره البازي عبر الرفوف المكومة المرصوصة بجلودنا الذئبية البحرية ذات الشعر الوحيد ، آخر الأمر ركز عينيه في جبين شريكي الخبير بالتمويلات والصفقات . كانت اللحظة مؤثرة جداً .

وقتذاك قال بصوت حازم جاف جملة خالدة ، على الأقل بالنسبة لنا .

- يا سادتي ، أنا لا أتزوج بهذه الجلود . ورحل إلى الأبد ، وقبّعته على رأسه كما دخل ، وهو يدخن سيجار (البارو) الهائل ، دون أن يودّع أو يستأذن بالانصراف ، فقضى من غير رحمة ولا شفقة على أحلامنا المليونيرية .

أوائل كتبي:

التجأت إلى الشعر في سرعة الخائف الوجل . كانت ترفرف فوق «سانتياغو» المدارس الأدبية الجديدة . في شارع «ماروري» ، رقم ٥١٣ ، انتهيت من كتابة ديواني الأول . كنت أكتب قصيدتين ، ثلاثاً ، أربعاً ، خمساً ، في اليوم الواحد . في الأماسي عند أفول الشمس ، أمام الشرفة كان يجري يومياً مهرجان ما كنت لأستبدل به أي شيء في العالم . كان غروب الشمس يختال في حشد من الألوان عظيم ، توزيعات نور متقنة ، مراوح هائلة من لون برتقالي وآخر قرمزي . الفصل الرئيسي في ديواني أسميته «شفق ماروري» ، لا أحد سألني أبداً ، ما هو هذا «ماروري» ، لعل القليلين هم الذين يعرفون أني أشير بهذا إلى شارع متواضع يزوره أروع شفق وأبدعه .

في عام ١٩٢٣ ، نُشر ديواني الأول هذا «شفقيات» . كي أدفع تكاليف الطباعة كنت أواجه كل يوم صعوبات جمة وأحقق انتصارات عظيمة ، أثاثي القليل بيع ، إلى دار الرهائن على عجل مضت ساعتي التي كان والدي قد أهداني إياها في وقار وجلال ، إذ إنها كانت ساعته الخاصة به وكان قد نقش عليها بيرقين صغيرين مُتصالبين . ولحقت بالساعة بدلة الشاعر السوداء . لقد كان صاحب المطبعة رجلاً لا يرحم ولا يشفق إذ إنه بعد أن أصبحت الطبعة جاهزة والأغلفة ملصقة ، قال لي في نفس الخاسر : «لن تأخذ منه ولا نسخة واحدة حتى تدفع لي قبل كل شيء التكاليف كلها» . ساهم الناقد الأدبي (الونه Alone) في سخاء بدفع ما تبقى عليّ من «بيسوس» فابتلعتها حلاقيم صاحب المطبعة ، وخرجت إلى الشارع وكتبي على منكبيّ بحذاء مهترئ ممزق ، مجنوناً من الغبطة والطرب .

يا لديواني الأول! كان رأيي دائماً هو أن عمل الكاتب ليس لغزاً ولا هو بالمأساوي ، بل إنه ، على الأقل بالنسبة للشاعر ، عمل شخصي ، ذو منفعة عامة . إن ما هو أكثر شبهاً بالشعر ، هو رغيف خبز أو وعاء خزفي أو حفر على الخشب مشغول في طراوة وحنان ، ولو أن الأيدي التي تصنع هذه التحف كانت بليدة غير متقنة . بيد أني أعتقد أنه ليس ثمة من صانع واحد يشعر ، كما يشعر الشاعر ، لمرة واحدة خلال حياته كلها ، هذا الشعور الثمل نحو أول خلق ابتدعته يداه وجناه تيه أحلامه الذي لما يزل خافقاً دافقاً لحظة الإبداع . إنها لحظة أبداً لن تعود مرة أخرى ، أعني لحظة الإبداع الأولى والفرح الأول بأول كتاب . قد يُنشر في طبعات أخرى كثيرة أكثر إتقاناً وأجمل مظهراً من طبعته الأولى ، قد تنتقل كلماته وأشعاره لتسكب في كأس لغات

أخرى مثل نبيذ يغني ويفوح في أماكن أخرى من الأرض بعيداً عن موطنه ، غير أن هذه اللحظة التي يولد فيها أول ديوان طازج المداد طري الورق ، إن هذه اللحظة الفاتنة الساحرة المسكرة ذات الأنغام كأنها حفيف أجنحة عصفور يرفرف لأول مرة ، ذات الألوان كأنها تفتق برعم يتبدّى في أعلى قمة لأول مرة ، لهي الحضور الوحيد في حياة الشاعر .

إن إحدى قصائدي بدت وكأنها حادت عن ذاك الديوان الطفولي واتخذت لها طريقاً خاصة بها ، ألا وهي قصيدة «فيريويل Farrwell»[١] ، التي يحفظها كثير من الناس حتى الآن عن ظهر قلب . حيثما ذهبت وفي الأماكن التي لا أتوقع أن أسمعها ، ينشدونها لي من الذاكرة أو أنهم يطلبون مني أن أنشدها عليهم . ما إن أحضر في مكان للمشاركة في ندوة أو اجتماع أو جلسة حتى تنطلق فتاة من الفتيات الحاضرات في صوت مرتفع بترديد تلك الأبيات المسيطرة على الذهن ، وإن كان ذلك يزعجني كثيراً . وأحياناً كان وزراء يستقبلونني وقد اتخذوا وضعاً عسكرياً احتراماً وإجلالاً فيباغتوني بإنشادهم المقطع الأول من القصيدة .

بعد عدة أعوام ، حكى لي (فيديريكو غارثيا لوركا) ، بإسبانيا ، أن الشيء نفسه كان يحدث له بالنسبة لقصيدته «المتزوجة غير الوفية»[٢] . فقد كان كل واحد من الناس يطالبه بأن ينشد له قصيدته الجميلة الشهيرة هذه برهاناً منه على ما يكنه من صداقة نحو هذا الشخص أو ذاك . ثمة حساسية إيجابية عند الناس نحو النجاح الاستاتيكي الساكن الدائم لعمل ما من أعمالنا الأدبية . إن هذا لهو شعور صحي وحتى إنه إحساس بيولوجي ، إن هذا التكليف من لدن القارئين يحاول تجميد الشاعر في لحظة واحدة ، بينما الخلق في حقيقة الأمر هو عجلة دائمة تدور على الدوام نحو الأمام بمهارة أكثر وبوعي أعمق وأشمل ولو أنها برونق أقل وعفوية أصغر .

كنت أمضي مخلفاً ورائي ديواني «شفقيات» . كان ثمة قلق يدفع شعري ويحركه . كنت أجدد قواي في رحلات سريعة وأسفار عابرة نحو جنوب تشيلي . في عام ١٩٢٣ اقتنيت تجربة غريبة . كنت قد عدت إلى بيتنا في «تيموكو» . بعد

---

(١) فيريويل : الكلمة إنجليزية ، معناها ، رحلة ممتعة .

(٢) المتزوجة غير الوفية : لقد ترجمنا هذه القصيدة في كتابنا «مختارات من الشعر الإسباني المعاصر» (ص٩١-٩٣) .

منتصف الليل وقبل أن أضطجع فتحت نوافذ غرفتي، خلبتني السماء وبهرتني. كانت عامرة بجمهرة من النجوم المتلألئة المتكاثرة. الليل حديث التضمخ بالرذاذ غب المطر والنجمات القطبية تتناثر على رأسي.

شملتني نشوة، أخذتني سكرة، تعتعتني خمرة سماوية كونية. أسرعت إلى قرطاسي فكتبت في هذيان كما لو أنه كان يُوحى إليّ ويُملى عليّ، القصيدة الأولى لديوان أسميته بأسماء عديدة إلى أن استقر في النهاية على اسم «حامل المقلاع المتحمس». كنت أعوم في يم صيغ سلسلة أغرف منها ما أغرف وكأني أسبح في مياهي الحقيقية.

في اليوم التالي قرأت مفعماً بالمتعة قصيدتي الليلية. من بعد، حين وصلت إلى «سانتياغو»، قرأتها على الناقد السارح (اليريو اويارثون)، الذي ياستمع إليها بإنصات وأعجب بها، ثم سألني بصوته العميق:

- أأنت متأكد من أن هذه الأبيات ليت متأثرة بـ(سابات ارسكاتي)[1]؟.

- أعتقد أني متأكد. لقد كتبتها في نوبة هيجان.

خطر لي آنذاك أن أبعث بقصيدتي إلى (سابات أرسكاتي) نفسه، ذلك الشاعر العظيم، شاعر «أورغواي» الكبير، الذي تنوسي في هذه الأيام ظلماً وإجحافاً. كنت قد رأيت في هذا الشاعر أنه قد تحقق فيه تطلعي وطموحي لشعر لا يحتوي على الإنسان فحسب بل على الطبيعة أيضاً، على القوى الخبيثة، شعر ملحمي يواجه سر الكون في الوقت الذي أعمل فيه جهداً على إنضاج شعري وتطويره، أمعن ملياً في رسائل (سابت أرسكاتي) التي كان يهديها إلى شاعر شاب غير معروف فأستزيده شاكراً.

أرسلت إليه في «مونتيفيدو» هذه القصيدة تلك الليلة ذاتها متسائلاً عما إذا كان يرى فيها تأثراً بشعره، أجابني على جناح السرعة في رسالة كريمة نبيلة: «مرات قليلة في حياتي قرأت قصيدة في غاية الإتقان وفي أوج الروعة كما هي عليه قصيدتك هذه، لكنني أجد أنه لا بد لي من أن أقول لك شيئاً: أجل، ثمة في أبيات قصيدتك هذه بعض من التأثير بشعر (سابات ارسكاتي)».

كان ما قاله لي مثل نور برق في ليل داج، ما زلت حتى الآن أشكره عليه،

---

(١) سابات أرسكاتي: (كارلوس Carlos): شاعر من أورغواي ولد عام ١٨٨٧.

بقيت الرسالة في جيبي خلال عدة أيام ، تنطوي وتتجمد إلى أن اهترأت . لقد كان كل شيء بعدها قيد الرهان محك الاختبار .كنت أهجس بالهذيان العاقر لتلك الليلة حتى لا يفتنني هذيان ليلة أخرى فأهذي أو ألغو أو أقلد . عبثاً غطست في لجة تلك النجوم ، عبثاً غمرت حواشي تلك العاصفة الجنوبية . لقد كنت في ضلال . عليّ ألا أثق بالوحي والإلهام . يجب أن يقودني الوعي عبر السبل الصغيرة خطوة إلى خطوة . عليّ أن أتعلم أن أكون متواضعاً . مزقت قصائد كثيرة ، أضعت أخرى . بعد عشر سنين من ذلك الحين ، يُعثر على هذه القصائد فتُنشر .

انتهى برسالة (سابات أرسكاتي) طموحي في الإحاطة بشعر فسيح . أغلقت الباب على فصاحة كان محالاً أن أستمر على سننها . اختصرت متعمداً أسلوبي وعبارتي . وأنا أبحث عن ملامحي الأكثر بساطة ، عن عالمي المتناسق الخاص بي ، شرعت بكتابة ديوان غزلي آخر . فكان حصيلة ذلك كتاب «عشرون قصيدة» .

إن ديوان «عشرون قصيدة حب وأغنية يائسة» ، هو كتاب أليم ورعوي يتضمن عواطف مراهقتي العاصفة جداً ، ممتزجة بالطبيعة المستبيحة الجارفة في جنوب وطني . هو كتاب أحبه كثيراً لأنه على الرغم من كآبته الحادة ، فيه متعة الوجود حاضرة . ساعدني في كتابته نهر ومصبه : نهر «امبريال» . إن قصائد «عشرون قصيدة» لهي «رومانث»[1] سانتياغو ، بشوارعها الطلابية ، لهي الجامعة ، وهي فوح الزيزفون للحب المتبادل .

إن المقاطع المتعلقة بـ«سانتياغو» نظمت بين شارع «ايتشورين» و«نهج إسبانيا» وفي داخل المبنى القديم للمعهد التربوي ، لكن المنظر العام مستوحى من مياه الجنوب وأشجاره . أما أرصفة قصيدة «أغنية يائسة» فهي الأرصفة العتيقة لـ«كارهويه» و«باخو امبريال» . إن الألواح الغليظة الثخينة المتكسرة والأخشاب كأنها جدعات يلطمها النهر الفسيح ورفرفة النوارس كنت أحس بها وما أزال ، كأنها تسري في مسام الجسد عند ذاك المصب .

في زورق مهجور طويل نحيل ، لباخرة غريقة ، قرأت كتاب (خوان كريستوبال) بكامله وكتبت قصيدة «أغنية يائسة» . كان للسماء من فوق رأسي زرقة عنيفة جداً لم أر مثلها قط . أنا كنت أنظم في القارب المختبئ في الأرض . أعتقد أني ما عدت

---

(١) رومانث Romance : هي نوع من القصائد نشأت في إسبانيا في العصور الوسطى .

شعرت بأني جد شامخ إلى السماء وجد عميق في باطن الأرض ، كما كنت أشعر إذاك . من فوقي السماء الزرقاء العميقة ، في يدي كتاب (خوان كريستوبال) أو الأبيات الوليدة في قصيدتي ، إزائي كل ما وجد وما يزال يوجد في شعري : صراخ العصافير البرية والبحر المتوقد دائماً ليس يخمد أو ينفد كأنه العوسج الذي لا يموت .

لقد سئلت دائماً من هي ملهمة «عشرون قصيدة» ، إنه لسؤال صعب الإجابة . الاثنتان أو الثلاث اللواتي تداخلن في هذا الشعر الكئيب المتوقد فلنقل إنهن «ماريسول»[1] و«ماريسومبرا»[2] . إن (ماريسول) هي «عتابا»[3] منطقة رائعة ساحرة ، ذات نجوم ليلية هائلة وعينين غامقتين كسماء «تيموكو» البليلة المضمَّخة . تتجسد بفرحها وجمالها الحي في صفحات الديوان كلها ، محاطة بمياه الميناء ومكللة بالهلال الذي يطل من فوق الجبال . أما (ماريسومبرا) فهي الطالبة الجامعية ، قبَّعة رمادية ، عينان رقيقتان ناعمتان ، شذى الحب الطلابي المتنقل المتجول الذي فوح كعطر الزيزفون ، خمود جسدي إثر التقاءات عاصفية مثيرة في مخابيء المدينة .

أثناء ذلك كانت الحياة تتبدل في تشيلي .

مدوياً كان يعلو نداء الحركة الشعبية التشيلية وهي تبحث بين الطلبة والكتاب عن دعم أصلب وتأييد أمتن . من جهة أخرى ، كان الزعيم الكبير للبرجوازية الصغيرة ، (أرتورو اليسَّاندري بالما) الديناميكي الديماغوجي ، قد توصل إلى أن يصبح رئيساً للجمهورية بعد أن هز البلد قاطبة بفصاحته الساطعة المخيفة . على الرغم من شخصيته الفائقة فإنه سرعان ما تحول وهو على كرسي الحكم إلى حاكم تقليدي شبيه بمن سبقه من حكام أمريكا الجنوبية . إن الفئة المسيطرة من البورجوازية الكبيرة التي كان من قبل يجاريها ، فتحت بلاعيمها وابتلعت خطبه الثورية واحتوته واستحوذت عليه فغدا يأتمر بأمرها . واستمر بلدنا يتخاصم في نزاعات رهيبة عنيفة .

في الوقت نفسه ، كان الزعيم العمالي (لويس اميليو ريكاباريّن) بفعاليته المدهشة ، ينظم صفوف البروليتاريا ، يشكل نقابات مركزية ، يؤسس حوالي عشر صحف عمالية في طول البلاد وعرضها . كانت البطالة وقلة الأعمال تهز مؤسسات

---

(١) ماريسول : معناها ، مريم الشمس .

(٢) ماريسومبرا : معناها ، مريم الظل .

(٣) عتابا : في الأصل Idilio ، وهي مقاطع شعرية شعبية تتغنى بالرعي والرعاة .

النظام الرأسمالي . أنا كنت في تلك الأوقات أكتب في مجلة «وضوح» أسبوعياً . كنا نحن الطلبة ندعم المطالب الشعبية ونداقع عنها وكثيراً ما كنا نصطدم بالشرطة أثناء مظاهراتنا في شوارع «سانتياغو» فينهال رجال الأمن علينا ضرباً وتشتيتاً . كان يصل إلى العاصمة آلاف العمال المطرودين من أعمالهم في مناجم ملح البارود والنحاس . لقد كانت المظاهرات وما يتبعها من حملات الاعتقال والاضطهاد تصبغ الحياة القومية للبلاد بطابع مأساوي .

منذ تلك الفترة وعلى تناوب امتزجت السياسة في شعري وفي حياتي . لم يكن ممكناً أن أغلق الباب عن الشارع وأقبع داخل قصائدي ، كما لم يكن ممكناً إغلاق الباب عن الحياة ، عن الفرح ، أو عن الحزن في قلبي ؛ قلب شاعر شاب .

(الكلمة)

. . . كل ما شئت ، أيها السيد ، أجل كل ما شئت ، بيد أن الكلمة ترنم ، تحلّق وتهبط . . . فأركع لها وأسجد . . . أهيم بها ، أذعن لها ، أتابعها ، ألثمها ، أتلمّظها ، أذيبها . . . أنا مغرم بالكلمة . . . كل كلمة مباغتة . . . أنتظرها في نهم ، أترصدها في شغف ، إلى أن تحط على حين غرة . . . لفظة حبيبة . . . تلتمع كالدرة ، تقفز كالسمكة الفضية ، إنها لزبد ، لخيط ، لمعدن ، لندى . . . ألاحق كلمة أطارد أخرى ، أريد لحسنها أن ألتقطها جميعها ، أن أحضنها في شعري . . . أوشك أن ألتقط هنا وهناك ، تطير ، تئز ، أقتنص إحداها ، أنظفها ، أنتف شعرها ، أهيء نفسي أمام الصحن ، أجسها فأحس بها شفافة ، رجراجة ، عاجيّة ، لزجة ، دبقة ، كالثمرة ، كالطحلب ، كمصقل العقيق ، كحبة الزيتون . . . أقلبها ، أخضها ، أهزها ، أترشفها ، ألتهمها ، أتمثلها ، أزخرفها ، أعتقها . . . تتدلى من القصيدة كما تتدلى عناقيد الرواسب من سقف مغارة ، صقيلة كرصائع خشب ثقيف ، كالماس تترسب في شعري كما تترسب بقايا سفين غريق في قاع اليمّ ، مجلية كهدايا الموج كالدر . . . كل شيء يكمن في الكلمة . . . تتبدل الفكرة إن كلمة حُرّفت عن موضعها أو إن أخرى تربعت مثل مليكة على عرش جملة ، عنوة ، فخضعت لجبروتها . . . إن للكلمة لظلالاً ، لرونقاً ، لوزناً ، لزغباً ، إن لدنها كل ما اقتنته في تسيارها عبر مساري الأنهار ، كل ما اكتنزته في ترحالها عبر مسالك الأوطان ، كل ما ادخرته في تجوابها عبر نسغ الجذور . . . إنها لتليدة جداً وجديدة جداً . . . تكتنّ في عش خبيء ، تجتنّ

في برعم زهرة . . . لكم هي طيِّبة لساني ، لكم هي رائعة هذه اللغة التي ورثناها عن أولئك الغزاة القساة . . . أولئك كانوا يمضون قدماً يجتازون سلاسل الجبال الهائلة ، يخترقون غابات أمريكا الشائكة بحثاً عن البطاطا ، عن شرائح اللحم ، عن الفاصولياء ، عن التبغ الأسود ، عن الذهب ، عن الذرة ، عن بيض مقلي ، في شهيّة نهمة شرهة ما شوهد لها في العالم مثيل من بعد البتّة . . . كانوا يلتهمون كل شيء : الأديان ، الأهرام ، القبائل ، الأصنام الشبيهة بالصلبان والأنصاب التي أحضروها معهم في أكياسهم الكبيرة . . . أينما مروا هدموا ، حيثما حلوا أفسدوا فالأرض منهم موات يباب خراب . . . غير أنه كانت تتساقط من هؤلاء البرابرة ، من نعالهم ، من لحاهم ، من خوَذهم ، من حدواتهم ، عدد الحصى ، كلمات مضيئة بقين هنا يلتمعن يتوهجن . . . مكثت اللغة . أجل لقد خسرنا . . . بلى لقد غنمنا . . . أخذوا منا الذهب ، تركوا لنا الذهب . . . أخذوا كل شيء ، تركوا كل شيء . . . لقد تركوا لنا الكلمة .

الفصل الثالث
دروب العالم

صعلوك «بالباراثيسو» (Valparaiso)

إن «بالباراثيسو» لقريبة جداً من «سانتياغو» . لا يفصل بينهما إلا الجبال الهلباء المزبئرة المسننة التي في قممها ترتفع ، كأنها المسلاّت ، أشجار «كاكتوس»[1] Cactus الضخمة العدائية المؤذية المزهرة ، غير أنه ثمة شيء صعب التحديد يبعد بينهما . «سانتياغو» هي مدينة سجينة تحيط بها أسوارها الثلجية ، بينما «بالباراثيسو» هي على العكس من ذلك تشرع أبوابها على البحر اللامحدود ، على ضجيج الشارع ، على عيون الأطفال .

في لحظات شبابنا الأكثر فوضوية كنا نحشر أنفسنا في عربة قطار الدرجة الثالثة دائماً دون أن نكون قد ثمنا بعد ، ودون أي فلس في جيوبنا ، كنا شعراء ورسامين في العقد الثاني من عمرنا مزودين بشحنة قيّمة من الجنون العنيد تريد أن تفرغ ، أن تمتد ، أن تنفجر . كانت نجمة «بالباراثيسو» تنادينا بنبضها الساحر .

ما شعرت بمثل هذا النداء إلا بعد عدة سنوات وذلك في مدينة أخرى . وخلال سنوات إقامتي في مدريد فقد كنت وأصدقائي ، كلما دخلنا إلى حانة أو خرجنا من مسرح في السحر ، أو تجولنا في شارع أو آخر ، نسمع صوت طليطلة ينادينا ، صوت أشباحها الأبكم ، لحن سكونها . في هذه الأوقات المتأخرة كنا نمضي مجموعة من الأصدقاء المجانين كجنون رفاق شبابي في تشيلي ، نحو هذه المدينة العريقة ذات البيوت الكلسية والأزقة الضيقة المعوجة كي ننام فوق ضفاف نهر «التاخو»[2] تحت القناطر الحجرية .

لست أدري ما سبب أنه من بين رحلاتي الرائعة الساحرة إلى «بالباراثيسو»

---

(١) كاكتوس : هي أشجار كثيرة الأضلاع ، مخددة ، ذات أزهار كبيرة صفراء ، تكثر في المكسيك .

(٢) التاخو : هو نهر يمر بطليطلة ، كان العرب يدعونه : التاجه ، والقناطر الموجودة عليه هي من العرب .

بقيت رحلة واحدة عالقة بذاكرتي ومحفورة في ذهني ، مضمّخة بشذى أعشاب اقتلعتُها على فزع من الحقول . كنا نروح لتوديع صديقين لنا أحدهما شاعر والآخر رسام يعزمان السفر إلى فرنسا ، طبعاً ، بالدرجة الثالثة . بما أننا جميعاً لم نكن نملك ما ندفع به أجرة مبيتنا في فندق من الفنادق ولو كان أكثرها فيرانا ، فقد فتشنا عن (نوبوا Novoa) وهو أحد مجانيننا المفضّلين ومن سكان مدينة «بالبارائيسو» العظيمة . لم يكن الوصول إلى بيته بالأمر السهل . صعدنا وتزحلقنا فوق تلال وتلال لا تنتهي ، لا نرى في العتمة غير طيف (نوبوا) الذي كان يقودنا ويرشدنا .

كان (نوبوا) رجلاً مهيباً ، ذا لحية عامرة ، وشوارب ثخينة ، كانت أطراف ردائه الغامق يخفق بعضها بعضاً كأنها أجنحة طيور في قمم تلك الجبال العجيبة التي كنا نصعد فيها على عماوة وفي ضيق شديد . ما كان يسكت أو ينصت . كان قديساً مجنوناً ، معروفاً جيداً لدينا نحن الشعراء . وكان ، طبعاً ، طبيعياً من المؤمنين بالطبيعة ، نباتياً من آكلي النبات حتى منبت الأصالة .كان يشيد علاقات سرية ، لا يعرفها غيره ، بين الصحة الجسدية وهبات الأرض الطبيعية . كان يعظنا بينما كنا نطلع على التلال ، يوجه نحو الخلف صوته المنغم ، كما لو كنا تلاميذ له .كان شكله الضخم يزحف كأنه قامة القديس (كريستوبال Cristobal) لكن هذا القديس ولد في الليالي المعتمة وفي الضواحي المنعزلة .

بعد المشقة والعناء ألقينا عصا الترحال في بيته وإذ به مجرد كوخ صغير أو خص حقير من غرفتين ليس غير ، الواحدة منهما يشغلها سرير صاحبنا القديس (كريستوبال) والأخرى يملأ جزءاً كبيراً منها كرسي عظيم مصنوع من شجر الصفصاف ، متشابك في وفرة بتزيينات هشّة من القش وبجوارير غريبة عجيبة مضافة إلى أرجله وأذرعته ، إنه لتحفة فنية من عهد الملكة (فيكتوريا) . المقعد الكبير خُصّص لي كي أنام عليه تلك الليلة . أما أصدقائي فقد مدوا على الأرض صحفاً مسائية وتمددوا في وقار وقناعة فوق الأخبار والافتتاحيات .

بعد قليل من الوقت عرفت بفضل الزفير والشخير أنهم قد ناموا جميعاً . لقد كان صعباً بالنسبة لتعبي أن يصالح النوم ويصاحبه طالما أنه لا يستريح فوق ذلك المقعد التذكاري . ما كان يسمع إلا سكون مرتفعات وصمت قمم متوحدة أو نباح كلاب فلكية كانت تخترق الليل أو صفير سفينة بعيدة جداً تدخل إلى الميناء أو تخرج منه . كل هذا كان يؤكد لي أنني في «بالبارائيسو» .

شعرت فجأة بنشوة غريبة فاتنة تسري في جسدي . نشوة شذى جبلي ، فوح سفوح المروج ، عطر كعطر نباتات كانت قد نمت ونمو طفولتي ثم نسيتها في ضوضاء حياتي بالمدينة . شعرت أني قد تصالحت والنوم فعفوت عنه وغفرت له أني يقظ مسهّد تلك الليلة ، أحسست أني ملفوف بهديل الأم الأرض وترنيمها . من أين يجيء خفق الأرض البرّي هذا؟ ، بكارة الأشذاء الطاهرة النقية هذه من أين تأتي؟ وأنا أدخل أصابعي من خلال الوعور الصفصافية لذلك المقعد الضخم اكتشف جُويريرات لا حصر لها وفي داخلها جسست نباتات جافة ملساء ، أغصاناً خشنة مدوّرة ، أوراقاً رمحية الشكل ، طرية أو صلبة . عثرت إذن على دار الصناعة الصحية التي يخبئها واعظنا النباتي ، عن صورة طبق الأصل لحياة هذا القديس العاكف على التقاط الأعشاب بيديه الكبيرتين كيدي القديس (كريستوبال) ، وهو أبداً خصب الجنى ، جوّاب الحقول .

بعد أن كشفت عن اللغز وعرفت السير نمت في طمأنينة ، في رعاية شذى تلك الأعشاب الساهرة الحارسة .

لقد سكنت خلال بضعة أسابيع ، في بيت يواجه بيت السيد (ثويلو ايسكوبار) بشارع ضيق في شوارع «بالبارائيسو» . شرفات غرفنا كانت تقريباً تتلامس ، كان جاري يخرج مبكراً إلى الشرفة ليجري تمارين رياضية في جسم ناسك زاهد متقشف تنمّ عنه أوتار قيثار أضلاعه . يرتدي دائماً بدلة شغل (فارول) فقيرة أو سترة خالقة بالية . كان نصفه ملاكاً والنصف الآخر بحّاراً . وكان قد انسحب منذ زمن بعيد من إبحارته ، من الجمارك ، من الموانئ والبواخر . كل يوم يمسح وينفض ويسحج بدلته ، بدلة الزينة الوحيدة في إتقان وكمال دقيقين . كانت بدلة من الجوخ الفاخر الأسود ما رأيته أبداً يلبسها ولا مرة واحدة خلال عدة سنين ، فلقد كان يحفظه في الخزانة بين كنوزه الكثيرة .

لكن كنزه الأكثر حدة والأكثر تمزيقاً للقلب كان آلة كمان من نوع «ستراديفاريوس» احتفظ به وصانه في حيطة واعتناء طيلة حياته كلها ، دون أن يلمسه أو يعزف عليه ودون أن يسمح لأحد أن يلمسه أو يعزف عليه . كان السيد (ثويلو) يفكر في أنه سوف يبيع هذا الكمان في مدينة نيويورك ، فهناك سوف يدفعون له مبلغاً محترماً ثمناً لهذه الآلة الموسيقية الشهيرة . يخرجه أحياناً من الخزانة الفقيرة ويسمح لنا أن نتأمله في خشوع ديني وعاطفة مؤثرة . كان يحلم في أنه سيسافر إلى

الشمال ذات يوم وسيعود بلا كمان لكن سيعود محملاً بالخواتم الفاخرة والأسنان الذهبية التي ستحل في فمه بدل التجاويف التي حتّها ونخرها مجرى السنين وعبور الدهر الطويل .

صباح ذات يوم لم يخرج السيد (ثويلو) إلى الشرفة لإجراء التمارين الرياضية . دفناه هناك في أعلى المدينة ، في مقبرة الربوة ، مكفّناً ببدلته السوداء التي لأول مرة غطت هيكله العظمي الصغير ، هيكل ناسك زاهد متقشف ، أوتار كمانه ما بكت على رحيله ، لا أحد كان يعرف أن يعزف عليه إلاّه . حين عدنا ففتحنا الخزانة لم نعثر على ذلك الكمان اليتيم لعله طار إلى البحر أو إلى نيويورك ، كي يحقق أحلام السيد (ثويلو) .

إن مدينة «بالبارائيسو» هي كتوم ، ملتوية ، متدرجة . تنسح الفاقة على سفوح روابيها كأنها شلاّل عارم . نعرف عن سكان هذه الروابي المكتظة بهم ما يأكلون وما يلبسون (ونعرف كذلك ما لا يأكلون وما لا يلبسون) . الملابس المنشورة للتجفيف ترفرف كالبيارق فوق كل دار ، والأقدام الحافية المعرضة للشمس بلا توقف علها تطهرها من أوساخها ، تنمّ عن حبها الذي لا يخمد نحو هذا الحبيب الذي ليس يخمد .

لكنما ، قرب البحر ، في السهل ، ثمة بيوت لا تفتح نوافذها ولا تشرع شرفاتها ، لا تدخل إليها أقدام كثيرة ولا تحمل إليها الغبار قط . من بين هذه الدور كانت دار الرائد . قرعت الباب بمطرقة برونزية كبيرة ، عدة مرات متتالية كي يسمع طرقي . أخيراً سمعت خطوات خفيفة تقترب وإذ بالباب يفتح نصف مصراع ويطل منه وجه متفحص لا تبدو عليه علائم الثقة بي وكأنه يرغب أن يطردني ، كان وجه الخادم العجوز العتيقة في تلك الدار ، عليها منديل كبير وعلى خصرها مئزر طويل يكاد لا يسمح لخطوها أن يهمس .

كان الرائد أيضاً رجلاً عجوزاً ، يسكن وخادمه وحيدين منعزلين هذه الدار الفسيحة ذات النوافذ المغلقة . قصدته كي يريني تشكيلة مجموعته من الأصنام . كانت تملأ الدهاليز والجدران مخلوقات عجيبة شقراء اللون ، مساخر[١] مخدّدة ، باللون الأبيض وباللون الرمادي ، تماثيل تمثل جثثاً بائدة لآلهة هائلة ، خصلات شعر

---

(١) مساخر : هكذا في الأصل Mascaras ، وهي جمع إسباني للكلمة العربية مسخرة ، بمعنى قناع أو برقع .

مجففة ، دروع رهيبة فوق أطر خشبية ملبسة بجلود نمور رقطاء ، أطواق من أسنان مفترسة ، مجاديف قوارب لعلها كانت قد قطعت زبد المياه السعيدة المحظوظة[1] . مُدى ونصال وسكاكين عنيفة كانت تبعث الذعر في الجدران التي تتدلى منها أوراق فضية اللون كأنها أفاع تتلوى في الظلال .

لاحظت أن التماثيل الخشبية للآلهة الذكور كانت مصغرة جداً ، العضو الذكري منها كان مغطى في اعتناء بستر من قماش هو نفسه القماش الذي استفيد منه لصنع منديل الخادم ومئزرها ، كان التأكد من هذا في غاية السهولة .

الرائد العجوز كان يتنقل في خفوت بين تلك الأنصاب التذكارية . يشرح لي قاعة إثر قاعة بين جد وهزل عن هذه المخلوقات العجيبة شرح من عاش كثيراً وما يزال يعيش على قبس تماثيله . ذُقينه الأبيض يبدو كلحية وثن في «ساموا» . أراني البنادق ذات المواسير الطويلة والمسدسات التي بها طارد العدو وعفّر الرئم والنمر . كان يحكي لي عن مغامراته دون أن يماوج في لحن همسه الوتير . كان ذلك كما لو أن الشمس تسربت على الرغم من النوافذ المغلقة وتركت هنا شعاعاً صغيراً واحداً لا غير ، فراشة حية ضئيلة ترفرف بين التماثيل والأصنام .

عند التوديع قلت له بأن لديّ مشروعاً للقيام برحلة نحو الجزر ، وأن لديّ رغبات شديدة للتوجه شطر الرمال المذهبة في أقرب وقت ممكن ، آنذاك ، بعد أن التفت إلى الجانبين ، قرب من أذني شاربيه البيضاوين المتآكلين وهمس لي راجفاً : «حتى لا تسمع هي ، حتى لا تعرف ، أنا كذلك أنوي أن أقوم برحلة وقد أعددت لها العدة» . بقي هكذا ساهماً ، لحظة ، وإصبعه بين شفتيه ، كأنه يصغي لوطء نمر في الغابة . ثم أغلق الباب فجأة ، على الظلام ، كما يهبط الليل على أفريقيا .

سألت الجيران :

– هل ثمة رجل آخر غريب الأطوار هنا؟ هل ثمة شيء يحرز همّ مجيئي إلى «بالبارائيسو» .

أجابوني :

– ليس لدينا تقريباً أي شيء مما يمتع بغرابته أو أي شخص مما يستحق المشاهدة

---

(١) قد يعني بهذا جزر «كناريس» Canarias ، التي كان العرب يدعونها «الجزر السعيدة» ، وكذلك تدعى بالإسبانية Las Islas Afortunadas .

لشذوذه ، لكن ، إن مضيت في هذا الطريق سوف تتعثر بالسيد (بارتولوميه) .

وكيف سأميزه من بين الآخرين وأتعرف عليه؟

– ليس ثمة مجال للخطأ ، آيته أنه يرحل دائماً في عربة يجرها حصان .

بعد ساعات قليلة ، بينما كنت أشتري تفاحاً من دكان بهذا الشارع نفسه ، توقفت عند بابها ، عربة يجرها حصان ، ونزل منها رجل طويل ، أرفل عديم الرشاقة والهندام ليس له إلا ثوب أسود مهلهل .

جاء ليشتري تفاحاً كذلك . على منكبه ببغاء أخضر سرعان ما طار نحوي وحط على رأسي دون تقدير أو احترام .

– هل حضرتك هو السيد (بارتولوميه)؟ – سألت ذلك الفارس .

– أجل ، إنها الحقيقة ، أنا أدعى(بارتولوميه) – وأشهر سيفه الذي كان يتمنطق به تحت ثوبه أعطانيه كي ينحني ويملأ سلته بالتفاح والعنب . كان سيفاً عتيقاً ، طويلاً حاداً ، ذا مقبض بديع صنعته أيدي صناع ماهرين ، مقبض كأنه الوردة المتفتحة .

أنا ما كنت أعرفه من قبل ولا عدت فرأيته من بعد ، لكنني رافقته في إجلال واحترام ، ثم فتحت له باب العربة فصعد ودخل ودخلت سلته ، وضعت بين يديه ، في وقار وكياسة ، الببغاء والسيف .

إن عوالم «بالبارائيسو» لهي مهجورة متروكة ، بلا معنى ولا زمن ، كأنها صناديق رست ذات مرة إلى قعر قبو سفينة ليس يُدرى من أين جاءت ولا أحد سأل عنها أو ادعاها لنفسه ، فهي أبداً حبيسة ذلك القبو المعتم لن تستطيع البتة الانطلاق من حدودها ودياجيرها . ربما مكثت في أسرار «بالبارائيسو» المسيطرة وفي أرواحها الطاغية ، إلى الأبد ، سلطة موجة ضائعة ، عاصفة ، ملح ، بحر يهوج ويموج ، بحر كل نسمة من سكان «بالبارائيسو» ، يرغي ويزبد ، يثور ويهدد ، لكنه حبيس سجين فغدا هديراً لا تستجاب شكواه ، حركة وحيدة أليمة تتفتت طحيناً وتمج زبداً إذ تخيب أحلامها وترتد على صخر الوقع الصلد .

في هذه الحيوات الغريبة الأطوار التي عثرت عليها أو بها ، كانت دائماً تفجؤني وحدتهم المطلقة والميناء المؤثر ، انصهارهم الكامل في مياه البحر ، فهناك في الأعالي ، عبر الروابي ، يزهر البؤس وينبثق في فوران محموم من القطران[1] والفرح . إن أرصفة

---

(١) القطران : هكذا في الأصل Alqutra'n ، عن العربية .

الميناء والرافعات والعربات وأشغال العمال تغطي خصر الساحل ببرقع صبغته السعادة الهاربة من بؤس الروابي . غير أن ثمة آخرين ما استطاعوا أن يبلغوا الأعالي ليسكنوا التلال ولا الأسافل ليعملوا في الميناء بل مكثوا في صناديقهم محتفظين بنصيبهم من عالم اللانهاية عالم البحر .

لقد صانوا كل ذلك بأسلحتهم الخاصة ، بينما الفناء يقترب منهم كما الضباب .

إن «بالبارائيسو» لتهتز أحياناً مثل حوت جريح . ترتج ، تحتضر ، تموت وتبعث .

إن كل مواطن هنا يحمل في ذاكرته زلزالاً . إنه لهول ملتصق بقلب المدينة . إن كل مواطن هنا لهو بطل من قبل أن يولد . إذ إن في ذكرة الميناء انطبعت رعشة الأرض التي ترتعد من إخفاقها وتثور على فشلها وتطلق صرخة من الندم تبلغ أعماقها ، كما لو أن مدينة ترسو تحت البحر وتستقر تحت الأرض ، فجأة ، شرعت أبراجها وأشرعتها الدفينة لتقول للإنسان إن كل شيء قد انتهى وإنها ستقلع باحثة عن مغامرة أخرى قد تكون رابحة ظافرة .

أحايين ، حين تكون الأسوار والجدران والسقوف قد تدحرجت بين الغبار وألسنة النيران ، بين الضجيج والسكون ، بعد أن يخمد كل شيء إلى الأبد في أحضان الموت ، تخرج من البحر ، كأنها آخر هول ، الموجة الكبيرة ، اليد الخضراء الهائلة ، طائلة ملوّحة بالخطر ، تعلو كأنها برج حاقد ثم تهوي لتسحق وتجرف حيثما وقعت أو صفعت ، كل ما تبقى من حياة .

كل شيء كان يبدأ بحركة كسلى فيستيقظ من كان قد نام من سكان «بالبارائيسو» . تأخذ الروح وهي بين الأحلام تتصل بجذور عميقة ، بعمقها الأرضي . لقد أحبت الروح دائماً أن تعرف عمقها وها هي تعرفه . ثم تنقضّ حركة الارتجاف الأخير ، ليس ثمة من يغيث أو يعين فالآلهة رحلوا والكنائس المزهوة غدت كتلا مطحونة مهروسة .

إن هذا الرعب ليس كرعب من يعدو هارباً من ثور هائج غضوب ، ليس كذعر من يهدده خنجر ، ليس كخوف من أوشك على الغرق ، إنه لهول كوني ، إنه لخطر مفاجئ . الكون ينهار يتهدم يتقوض بينما الأرض تدوّي في رعد أصم ، بصوت ، ما من أحد سمعه قبل ولا عرف له مثيلا .

يترسب الغبار الذي أثارته البيوت عند انهيارها شيئاً فشيئاً وكل شيء يهدأ ، يخمد . نظل وحدنا مع أمواتنا دون أن ندري أننا أموات نحن أم أحياء .

تنطلق المدارج من تحت ومن فوق وتتلوى درجة درجة بعضها فوق بعض دون تماسّ بين الواحدة والأخرى . تغدو نحيلة رفيعة كأنها شعر أو خيط ، تستريح قليلاً ، تطلع شاقولية الظهر ، تراوح ، تسرع الخطو ، تمتد . تتقهقر . لا تنتهي أبداً .

كم من مدراج؟ كم من درجة مدراج؟ كم قدم على الدرجات؟ كم قرن من الخطى ، من النزول والصعود مع الكتاب ، مع الطماطم ، مع السمك ، مع الزجاجات ، مع الخبز؟ كم ألف من الساعات دارت على هذه الدرجات فأبلتها وجعلتها قنوات تجري فيها الأمطار لاعبة أو باكية؟

يا لها من مدارج!

ما من مدينة سفحت المدارج ، عرّتها في تاريخها ، في وجهها ، ذرتها ثم جمعتها ، كما مدينة «بالبارائيسو» . ما من وجه له مثل هذه الأثلام والأخاديد حيث تروح وتجيء الحيوات كما لو أنها دائماً وأبداً تصعد إلى السماء ، كما لو أنها دائماً أبداً تهبط إلى البحر مصدر الخلق .

يا لها من مدارج أنبتت في منتصف الدرب حراشف من الزهور الأرجوانية! يا لها من مدارج أخذت بيد بحّار آب من سفره إلى آسيا ليجد في بيته ضحكة جديدة أو غياباً رهيبا! يا لها من مدارج هوى من عليها مثل نيزك أسود ، سكّير فتدحرج فوقها! يا لها من مدارج تصعد الشمس عليها لتمنح حبها الخالد إلى التلال!

إن مشينا مدارج «بالبارائيسو» كلها فإننا نكون قد درنا حول العالم كله .

يا «بالبارائيسو» يا مدينة آلامي . . . ماذا جرى لك في وحدة المحيط الهادي الجنوبي؟ أأنت نجمة تائهة أم معركة ديدان نجا تألقها من المصيبة!

يا له من ليل ، ليلك! نقطة من الكوكب الأرضي وقد أضيء ، ضئيلاً في الكون الفارغ الخاوي . حباحب خفقت ، حدوة من ذهب توهجت بين الجبال .

إن ليلك الهائل نشر من بعد أشكالاً عظيمة ضاعفت من نورك . فنجمة الدبران[1] سطعت بنبضها القصيّ البعيد ، الثريا نشرت ملابسها البرّاقة عند أبواب السماء ، بينما كانت تدور عربة القطب الجنوبي الصامتة في المدى الليلي لنهر المجرّة .

إذّاك برج القوس الشامخ الكثيف الشعر ألقى الماسة من أقدامه الضائعة ، برغوثاً من جلده القصي البعيد .

---

(١) الدبران : هكذا في الأصل Aldebara'n ، عن العربية .

لقد وعدت «بالبارائيسو» ، متوهجة وثرثارة فاضحة ، مزبدة وبغيا .

امتلأ ليل أزقتها بحور البحور السمراوات السوداوات ، تترصدك في الظالم الأبواب ، تتخاطفك الأيدي في العتمة ، شراشف الجنوب تيّهت البحارة ، أسرّتها ضيعت الرحالة والجوالة والعابر والمسافر . إن البغايا : (بوليانتا) ، (كارميلا) ، (فلور دي ديوس) ، (مولتيكولا) ، (بيرينيثه) وغيرهن كثيرات ، أنشأن الحانات والملاهي ، صنّ الغرقى من الهذيان بالهذين ، حفظن السكارى من التعتعة بالتعتعة ، تبدّلن ، تجددن ، رقصن ، بلا خلاعة ، ولكن بكآبة أصيلة ممطرة وحزن جنسي دام .

لقد خرجت من الميناء لصيد الحيتان أكثر السفن صلابة وجلداً ، وسفن أخرى انطلقت نحو جزر الذهب . هذه الأخيرة عبرت البحار السبعة لتأخذ فيما بعد من الصحراء التشيلية فلزات «الأزوت» التي ترقد هناك كأنها غبار لا يحصى لتمثال محق وسحق تحت أكثر منطقة في العالم جفافاً .

لقد كانت هذه هي المغامرات الكبرى .

لقد تلألأت «بالبارائيسو» عبر ليل الكون ، لقد بدت بواخر تمخر من عالم إلى عالم ، سفن موشاة كأنها حمائم سحرية ، سفن شذية عطرة ، أشرعة جائعة أرساها «كابو دي أورنوس» في مراسيه ردحاً من الزمن . . . أحايين كثيرة كان الرجال حديثو العهد في الإقلاع والإبحار يستعجلون اليابسة ويستوحشون الكلأ . . . كانت أياماً ضارية ساحرة حين لم تكن المحيطات تتصل في ما بينها إلا عن طريق مسافات المضيق «الباتاغوني» ، حين كانت «بالبارائيسو» تدفع بعملة جيدة أجرة البحارة الذين كانوا يتفّون عليها ويعشقونها .

في إحدى السفن وصلت آلة موسيقية من الطراز القديم ، في أخرى عبرت السيدة (فلورا تريستان) وهي الجدة «البيروانية»[1] لـ(غاوغين Cauguin)[2] ، وفي «واجير» (Wager) وصل (روبينسون كروزو) ، الآلة الموسيقية شحنت بقدها وقديدها[3] من ميناء «خوان فيرنانديث» ؛ سفن أخرى جلبت ثمر الأناناس ، بنّا ،

---

(١) البيروانية : نسبة إلى «البيرو» ، إحدى جمهوريات أمريكا الجنوبية .

(٢) غاوغين : رسام فرنسي (١٨٤٨-١٩٠٣) .

(٣) بقدها وقديدها : في الأصل بلحمها وعظمها .

فلفلاً من «صوماطرا» ، موزا من «غواياكيل» Cuayaquil ، شاياً مع الياسمين[١] من «أسّام» Assam ، مشروب «الـ أنيس»[٢] من أسبانيا . . . امتلأ الرصيف البعيد وحدوة «سنتورو» Centauro المؤكسدة بالأشذاء والعطور : في هذا الشارع تفعمك عذوبة الفرقة ، إذ ذاك تخترق روحك مثل سهم أبيض رائحة فاكهة «تشيريمويا» Chirimoyas[٣] من هذا الزقاق أو ذاك تطل لتقاتلك فتات طحالب البحر : طحالب البحر التشيلي كله .

كانت «بالبارائيسو» آنذاك ، تتشح وتتقلد بالذهب الأسود ، تستحيل إلى شجرة برتقال بحرية ، كان لها أغصان وأوراق ، كان لها نضارة وظل ، كان لها تلألؤ الثمر وألق البحر .

لقد قررت قمم «بالبارائيسو» إلقاء رجالها . الإطاحة بالمنازل من الأعلى كي تحور هذه المنازل في المستنقعات التي يصبغها الصلصال باللون الأحمر ، المتاهات الذهبية باللون المذهب ، الطبيعة النفور باللون الأخضر . لكن الرجال أبوا والمنزل جفخت فتشبث الرجال والمنازل بالقمم ، التفوا عليها ، تسمّروا فيها ، تعذبوا منها ، تعوّدوا على كل ما هو شاقولي بها ، تعلقوا بأسنانهم في كل مغارة ، غرزوا أظافرهم في كل هاوية . وما ميناء «بالبارائيسو» إلا الحرب السجال بين البحر وطبيعة الجبال المراوغة ، بيد أن الإنسان في هذا الصراع ربح الجولة فتصالحت القمم والأمواج وتعاونت الرابية والشاطئ على تكوين المدينة وخلقها فألبساها زياً واحداً ليس كما هو الحال عليه في الثكنات بل في تنوّع الربيع ، في تلوّن ألوانه ، في تشكل رسومه ، في تناغم ألحانه ، في نشاطه ، في حركته . فغدت المنازل ألحاناً وألواناً : من أزرق وأصفر ومن أسود وأحمر ومن أرجواني وأخضر . هكذا أنجزت «بالبارائيسو» مهمتها فغدت ميناء حقيقياً ، سفينة راسية لكنها حية تعجّ نشاطاً ، أشرعة راياتها مشرعة على الرياح فلقد كان المحيط العظيم بأمواجه ورياحه يستحق مدينة ذات بيارق ورايات .

---

(١) الياسمين : هكذا في الأصل (Jazmin) ، عن العربية .

(٢) الـ أنيس Anis : مشروب يشبه العرق ، منه الحلو ومنه الحاد .

(٣) تشيريمويا : هي كلمة من أصل أمريكي ، وهي شجرة تكثر في أمريكا الوسطى ، يبلغ علوها حوالي ثمانية أمتار ، على جذعها أغصان كثيرة ، وقمتها كثيفة ، أزهارها عطرة ، أوراقها مستطيلة خضراء ، تؤكل فاكهتها .

لقد عشت بين هذه الربا الشذية الجريحة ، هي ربا مفعمة لذيذة فيها الحياة تلطم بأمواج تتجاوز الأسوار ، تقذف بأصداف لا تُسبر ، تعزف بأبواق معوجة . في المدرج ينتظرك ، مهرجان برتقالي ، راهب يهبط ، طفلة حافية غارقة في بطيختها التي تأكلها ، زحمة من بحارة ونساء ، بيعة من حدائد متأكسدة ، سيرك صغير جداً لا يسع شبوطه إلا شاربي المروّض المهرّج ، مدرج يصعد إلى الغيوم ، مصعد يرتفع وقد حمِّل بالبصل ، سبعة حمير تحمل ماء ، سيارة إطفاء تعود من حريق ، واجهة محل فيها من الزجاجات ما يحيي أو يميت .

لكن هذه الروابي لها أسماء عريقة عميقة . إن الحفر بين هذه الأسماء ليس ينتهي أو ينقضي لأن رحلة «بالبارائيسو» لا تنتهي لا في الأرض ولا في الكلمة . إليكم هذه الأسماء أو بعضاً منها[١] : الربوة الفرحة ، الربوة الفراشة ، الربوة القطبية ، ربوة المستشفى ، ربوة المسيح ، ربوة الركن ، ربوة الذئاب ، ربوة المراسي ، ربوة أواني الفخار[٢] ، ربوة السنديان ، ربوة البطم ، ربوة الطاحونة ، ربوة القصب ، ربوة السيد (البيرا) ، ربوة القديس (اسطفان) ، ربوة الزمردة ، ربوة اللوزة ، ربوة (رودريغيث) ، ربوة المدفعية ، ربوة الحلاّبين ، ربوة مريم العذراء ، ربوة المقبرة ، ربوة شوك الدراج ، ربوة الشجرة المطوقة ، ربوة المستشفى الإنجليزي ، ربوة سعف الجريد ، ربوة الملكة (فيكتوريا) ، ربوة القديس (خوان دي ديوس) ، ربوة الفرضة ، ربوة «فيثكايا» ، ربوة السيد (إلياس) ، ربوة الرأس ، ربوة قصب السكر ، ربوة السفرجل ، ربوة الثور ، ربوة «فلوريدا» .

لم أعد أقدر على المسير بعد في أماكن أخرى كثيرة . إن «بالبارائيسو» تحتاج إلى نسناس يجري جديد أو إلى أخطبوط[٣] حتى يستطيع أن يتعرف عليها ويطوف بها . أما أنا فإني أستغل شيئاً ما من مداها الفسيح ، مداها الذاتي الودود ولكنني لا أبلغ أن أضمها من يمينها ذات الألوان العديدة ، من يسارها ذات الخصوبة والعطاء ورأسها أو من هاويتها .

أنا فقط أتبعها في أجراسها ، في تموجاتها ، في أسمائها .

---

(١) نحاول هنا أن نترجم هذه الأسماء ، علماً بأنها أسماء أعلام وأماكن .

(٢) أواني الفخار . هكذا في الأصل Alfareras ، عن العربية .

(٣) أُخطبوط (Octopierna) : كلمة من أصل اغريقي ومعناها ، ذو الثماني أرجل ، تقرأ بضم الهمزة .

لا سيما أسماءها ، إذ إن للأسماء جذوراً وأصولاً ، إن لها لهواء وزيتاً ، إن لها تاريخاً ، لدنها دم في مقاطعها وحروفها .

قنصل لتشيلي في جُحر:

جائزة أدبية طلابية ، بعض من الشهرة لكتبي الجديدة ، بردتي الشهيرة ، كل هذا منحني هالة من الوقار والاحترام ، وذلك خارج أطر الدوائر الفنية والأدبية . لكن الحياة الثقافية لبلداننا في عام ٢٠ كانت تتوقف كلية على أوروبا ، ما عدا استثناءات بطولية معدودة . في كل جمهورية من جمهوريات أمريكا اللاتينية كان هناك محفل كوني لا يهتم إلا في الثقافة الأوروبية وبخاصة الفرنسية منها ، وأما بالنسبة لكتاب الفئة الحاكمة فقد كانوا يعيشون في باريس . لم يكن شاعرنا الكبير (بيثينته هويدوبرو)[1] يكتب باللغة الفرنسية ، فحسب ، بل إنه غيّر اسمه لينطق كما هو بالفرنسية ، استبدل به اسم «فينسنت» .

والحقيقة هو أنه ، ما إن حزت على شيء من الشهرة في مستهل شبابي ، حتى بدأ الناس ، يسألونني إن رأوني في أحد الشوارع أو أحد الأماكن : «لكن ، ماذا تفعل هنا؟ عليك أن تذهب إلى باريس» .

لقد توسط لي صديق من أصدقائي لدى رئيس دائرة في وزارة الشؤون الخارجية ، فاستقبلني هذا الرئيس حالاً أحسن استقبال ، إذ إنه كان قد قرأ شعري .

– بالإضافة إلى شعرك فإني أعرف كذلك تطلعاتك . اجلس في هذا المقعد المريح ، فمنه تستطيع أن ترى الساحة ومهرجان الساحة . تأمل في هذه السيارات ، إن كل شيء لباطل وعبث . إنك لسعيد كونك شاعراً شاباً . أفترى ذاك القصر؟ لقد كان ملكاً لعائلتي . وها أنت تراني هنا ، في هذه الحظيرة ، مكبلاً وقد غدوت بيروقراطياً . ليس من شيء ذي قيمة سوى الروح . هل يعجبك (تشايكوفسكي)[2]؟

بعد ساعة من الحديث الأدبي والفني . عندما مد لي يده لتوديعي ، قال لي بألا أقلق حول هذا الموضوع إذ إن الأمر في أيد أمينة ، كيف لا وهو مدير الخدمات

---

(١) بيثينته هويدوبرو : شاعر من تشيلي (١٨٩٣-١٩٤٨) .

(٢) تشايكوفيسكي (Pioty Ilich) : الموسيقي الروسي الشهير (١٨٤٠-١٨٩٣) .

القنصلية وصاحب الأمر والنهي في هذا الموضوع .
- اعتبر نفسك من الآن معيّناً لمنصب في الخارجية .
كنت أتردد خلال سنتين كاملتين إلى دائرة هذا الرئيس الديبلوماسي الكيّس ، وهو في كل مرة أكثر كرماً وترحيباً . ما إن يراني أطل من الباب حتى ينادي في فتور على أحد من مساعديه ويقول له وهو يفتل شاربيه : اسمع ، لست اليوم مستعداً لاستقبال أحد مهما كان ، دعني أنسى النثر اليومي ، إن ما هو روحي في هذه الوزارة هي زيارة الشاعر ، ليس إلا ، ليته لا يغادرنا أبداً .
كان يكلمني في صراحة وصدق ، أنا متأكد من هذا ، من بعد يأتي الفصل التالي ، يحدثني عن الكلاب الأصيلة «من لا يحب الكلاب ، لا يحب الأطفال» . ثم يستعرض الروايات الإنجليزية ، ثم يعرّج على علم طبائع الإنسان ثم يحلّق إلى الروحانيات لينتهي متحدثاً عن مسائل تتعلق بعلم الأنساب وبخاصة أشعرة الأشراف . لدى توديعي يعيد على مسمعي هامساً ، كما لو كان الأمر سراً بين اثنين لا يجوز البوح به ، أن لا أحزن أو أقلق وأن منصبي في الخارج أكيد . مع أني كنت في عوز وأحتاج إلى المال لكي آكل على الأقل ، فقد كنت أخرج من عنده راضياً ، أستنشق الهواء كأني وزير أو مستشار . وحين كان يسألني أصدقائي «ماذا كنت تعمل هذا اليوم؟» أجبت بأني أعدّ نفسي للسفر إلى أوروبا .
لقد دام هذا الأمر إلى أن التقيت صدفة بصديقي (بيانتشي Bianchi) . إن آل (بيانتشي) في تشيلي هم فخذ من قبيلة نبيلة . منهم رسامون وموسيقيون مشهورون وقضاة وكتاب ورواد مكتشفون ومتسلقون لجبال «الأنديس» Andis ، تنفذ الحكومة لهم ما يشاؤون وتلبي مطاليبهم أو وساطاتهم في أسرع وقت . سألني صديقي هذا الذي كان سفيراً يعرف الأسرار الوزارية والديبلوماسية :
- ألم يصدر تعيينك حتى الآن؟
- سوف أحصل عليه بين لحظة وأخرى ، كما أكد لي ذلك أحد حماة الفنون والآداب ممن يعملون في الوزارة .
ابتسم لي ثم قال :
- هيا بنا إلى الوزارة .
تأبطني من ذراعي إلى أن وصلنا الوزارة فصعدنا الدرجات المرمرية ، فكان يخلي لنا الدرب الصاعد فراشون ومستخدمون ونازلون وطالعون . لقد كنت مندهشاً جداً إلى

درجة أني ما استطعت أن أنطق ببنت شفة حين استقبلنا وزير الخارجية فهذه هي أول مرة ألتقي فيها بوزير للخارجية ، كان قصير القامة جداً ولكي يخفي قصره ، جلس على مقعد عال وراء مكتبه . شرح لي صديقي الأمر وكلّمه عن رغباتي الشديدة بالخروج من تشيلي ، فوضع الوزير إبهامه على زر من أزرار أجراسه الكثيرة وإذ بحامي الأدب وحامي حماي الروحي وشفيعي يطلّ بطلعته البهية فجأة مما ضاعف من بلبلتي وزاد من ارتباكي .

- ما هي المناصب الخالية في دائرتكم؟ قال له الوزير .

لم يكن ليستطيع هذا الموظف الموبخ أن يتكلم الآن عن (تشايكوفيسكي) ، بل اقتصر على تعداد أسماء مدن مبعثرة في العالم ، ما التقطت منها سوى اسم واحد لا غير بدا لي أني كنت قد سمعت به أو قرأته من قبل . . . «رانغون» .

- إلى أين تريد الذهاب يا (بابلو)؟ قال لي الوزير .

- إلى رانغون - أجبت بلا تردد .

- أصدر تعيينه حالاً - أمر الوزير ظهيري وشفيعي الذي جرى ثم عاد بقرار التسمية .

كان هناك في القاعة الوزارية كرة للكرة الأرضية . صديقي (بيانتشي) وأنا أخذنا نبحث فيها عن مدينة «رانغون» المجهولة . كان للخارطة الكروية العتيقة جداً انبعاج عميق كأنه جُحر ، بناحية من آسيا وفي هذا التجويف اكتشفناها .

رانغون . ها هي هنا رانغون .

لكن حين التقيت من بعد بأصدقائي الشعراء ، وأرادوا الاحتفال بتعييني ، حصل أنه نسيت كليا اسم المدينة ، ما استطعت إلا أن أقول لهم بأنني عيِّنت قنصلاً في الشرق الخرافي وأن المكان الذي عينت فيه يوجد في جُحر من الخارطة .

«مونتبارناسّه» (Montparnasse)»

انطلقنا ذات يوم من أيام حزيران لعام ١٩٢٧ نحو المناطق القصية البعيدة . استبدلنا ببطاقتي من الدرجة الأولى اثنتين من الدرجة الثالثة وأقلعنا في سفينة «الـ بادين» Baden . كانت باخرة ألمانية ، قيل بأنها وحيدة في نوعها ، لكن كان يجب أن يقال بدلاً من هذه «وحيدة» ، خامسة أو سادسة الخ . كانت الوجبات في هذه الباخرة تقوم على مرحلتين متتابعتين إن انتُهي من الأولى شُرع بالثانية : واحدة

منهما سريعة إلى المغتربين البرتغاليين والجليقيين[١] ، والأخرى إلى المسافرين الآخرين على اختلاف أجناسهم وبخاصة الألمان الذين كانوا يعودون من عملهم في المناجم أو المعامل بأمريكا اللاتينية . صاحبي (البارو Alvaro) صنّف المسافرات حالاً . كما مغازلاً فعالاً ، فقد قسمهن إلى مجموعتين ، اللواتي يهاجمن الرجل ، واللائي يخضعن للسوط ، لم تكن هذه الصيغ في التصنيف والتقسيم دقيقة دائماً . كان يستعمل أنواع الحيل جميعها ليوقع الفتيات في حبائله ويصيدهن في شباكه . حين كان يطل عند جسر الباخرة مثنى من المسافرات المهمات ، يأخذ يدي بسرعة ويتظاهر بأنه يفسر لي معاني خطوط كف يدي ، بإشارات غريبة ، حين ترجع المتنزهتان من جولتهما الأولى ، تتوقفان فترجوانه أن يقرأ لهما البخت . فوراً يأخذ يد هذه أو تلك فيداعبها ويدغدها أكثر مما يجب ، وكان يتوقع لهما المستقبل السعيد ألا وهو زيارة غرفتنا في السفينة .

بالنسبة لي تحوّلت رحلتي إلى شيء آخر فلم أعد أنظر إلى المسافرين الذين كانوا دائماً يحتجون صارخين على وجبة الطعام الخالدة من «كارتوفيل»[٢] ، لم أعد أتأمل في الكون أو في المحيط الأطلسي الرتيب ، فقد قصرت نظري على التمعن في عينين سوداوين واسعتين لفتاة برازيلية ، برازيلية في كل شيء ، برازيلية إلى حد ما لا حد له ، منذ أن صعدت إلى الباخرة بصحبة أبويها وأخويها في ميناء «ريو دي جينيرو» .

إن مدينة «ليشبونة» البهجة الفرحة في تلكم الأعوام بصياديها الذين يملأون أرصفة مينائها وشوارعها ، ومن غير أن يكون بعد في العرش (سالازار)[٣] ، أدهشتني وفتنتني ، الأكل في الفندق الصغير كان لذيذاً ، صوان كبيرة من الفواكه كانت تتوّج المائدة ، الدور الكثيرة الألوان ، القصور القديمة ذات الأقواس فوق الأبواب ، الكنائس الهائلة المخيفة كأنها بقبابها قشور بيض الرخّ والتي كان الله قد غادرها منذ قرون ليعيش في أماكن أخرى ، دور الميسر داخل القصور العتيقة ، الجمهور المتطفل بشكل

---

(١) الجليقيون (Gallegos) : هم سكان منطقة «غاليثيا» Calicia أو «جليقيا» كما كان يدعوها العرب ، وهي المنطقة الشمالية الغربية من إسبانيا .

(٢) كارتوفيل : هو نوع من الأكل الألماني .

(٣) سالازار (Antonio de Olivera) : الديكتاتور البرتغالي المعروف (١٨٨٩-١٩٧٠) .

طفولي في الشوارع الطويلة ، (الدوقة براغانثا)[١] ، وقد فقدت عقلها ، تمضي عبر شارع مرصوف بالأحجار ، في وقار وجلال ، وهي تُتبع بمائة من الشبان الصعاليك الذاهلين ، هكذا كان دخولي إلى أوروبا .

ومن بعد ، مدريد بمقاهيها المكتظة بالناس ، في تلك الأيام كان (بريمو دي ريبيرا)[٢] الدمث يلقي الدرس الأول في الديكتاتورية على بلد سيتلقى من بعد الدرس الأكمل . إن قصائدي الأولية في ديواني «مقام في الأرض» قد تأخر الأسبان في فهمها ، وهم ما فهموها واستوعبوها إلا حين نشأ جيل (البرتي)[٣] و(لوركا) و(اليكاسندروه) و(دييغو) . وأسبانيا كانت بالنسبة لي كذلك القطار اللامنتهي والعربة من الدرجة الثالثة ، أكثر العربات قساوة ورداءة في العالم ، التي أقلتني إلى باريس .

لقد اختفينا ؛ أنا وصاحبي ، بين جمهرة مقهى «مونتبارناس» الدخانية ، بين أرجنتنيين وبرازيليين وتشيليين . أما الفانزويليون فلم يكونوا قد حلموا بعد بأن يبينوا ويظهروا ، فقد كانوا مقبورين إذاك تحت نير حكم (غومث Comez)[٤] . وهناك في زاوية من زوايا المقهى جلس أوائل الهنود الحمر من الذين أتوا إلى باريس بملابسهم السابغة . وقربي على طاولة مجاورة جارتي تتناول في تؤدة قهوة بالحليب وحول عنقها التفّت أفعى . كانت جاليتنا الأمريكية الجنوبية تشرب «كونياك» ، ترقص «التانغو» وهي تنتظر سانحة كي تبدأ بمشاجرة كبيرة والتعارك مع أكثر الناس هناك .

لقد كانت باريس وفرنسا وأوروبا بالنسبة إلينا نحن القرويين البوهيميين القادمين من أمريكا الجنوبية لا تعدو أن تكون مئتي متر ليس إلا ، وزاويتين : «مونتبارناس» ،

---

(١) الدوقة براغانثا : من الأسرة الملكية البرتغالية التي أقصيت عن الملكية والحكم .

(٢) بريمو دي ريبيرا (Miguel) : كان جنرالاً في الجيش ثم حكم إسبانيا حكماً ديكتاتورياً (١٨٧٠-١٩٣٠) .

(٣) البرتي : لقد ترجمنا له وعنه وكذلك لشعراء جيله المعروف بجيل عام ٢٧ في كتابنا المذكور «مختارات من الشعر الإسباني المعاصر» ، وهو شاعر ولد في قرية من قرى «قاديش» عام ١٩٠٢ ويعيش منذ نهاية الحرب الأهلية الإسبانية في إيطاليا ، وله كذلك مسرحيات رائعة . لقد عاد إلى إسبانيا في عام ١٩٧٧ .

(٤) غومث (Juan Vicente) : ديكتاتور فينزويلي (١٨٥٧-١٩٣٥) .

والـ«روتوند» والـ«روم» والـ«كوبول» ، وثلاثة مقاه أو أربعة أخرى ليس أكثر . لقد أصبحت عادة عند الأمريكيين الجنوبيين و بخاصة الأرجنتينيين منهم الذين كانوا أكثر عدداً وأكثر عربدة وأكثر غنى ، مسامرة الملاهي المليئة بالسود . في كل لحظة كانوا يثيرون الشغب في هذا المقهى أو ذاك ويُشاهد دائماً منظر أحد الأرجنتيين وهو يحملُ بين أربعة من النوادل ويمر بين الطاولات بلا توقف ليوضع على ناصية الشارع في صخب واحتجاج إذ لم تكن تعجب أبناء عمنا أبناء «بونوس ايرس» ، هذه التصرفات العنيفة -علماً بأنهم كانوا هم الذين يبدؤون بها- التي تفسد لهم سراويلهم الأنيقة . وما هو أكثر خطورة أنها كانت تخربط تسريحات شعرهم ، فلقد كانت الأناقة واللياقة جزءاً أساسياً في الثقافة الأرجنتينية تلك الفترة من الزمن .

إن الحقيقة هي أنني ، في هذه الأيام الأولى لي بباريس التي كانت تطير ساعاتها دون أن أدري ، لم أتعرف على أي فرنسي ولا على أي أوروبي ولا على أي آسيوي بله على أي مواطن من أفريقيا أو من المحيط الهادي . كان الأمريكيون الناطقون باللغة الإسبانية جميعاً ، من المكسكيين حتى البانتاغونيين ، يقضون أوقاتهم في مجالس للتنكيت والتبكيت يضخمون العيوب ، يصغّر بعضهم بعضاً ويحقره . دون أن يستطيعوا أن يعيشوا مفترقين لحظة واحدة فقد كان رجل من غواتيمالا ، مثلاً ، يفضل لقضاء الوقت في شكل لذيذ ، مصاحبة صعلوك من باراغواي على مصاحبة (باستور)[١] .

في هذه الأيام تعرفت على (ثيسار باييجو)[٢] ، الذي هو «تِشولو»[٣] عظيم وشاعر شِعر متغضّن صعب الملمس خشن الجسّ كأنه جلد الغابة ، لكنه شعر عظيم جداً ذو أبعاد إنسانية .

لقد وقعت لي معه حادثة حين قدموني إليه في مقهى الـ«روتوند» فقد قال لي وهو يصافحني في لهجته البيروية المهذبة :

أنت أعظم شعرائنا كلهم ، لا يقارن بك إلا (روبين داريو)[٤] .

---

(١) باستور Louis : كيميائي فرنسي (١٨٢٢-١٨٩٥) .

(٢) ثيسار بابيجو : شاعر من البيرو (١٨٩٣-١٩٣٨) .

(٣) تشولو Cholo : هو الهجين المختلط الدماء من دماء الهنود الحمر ومن دماء الأوروبيين .

(٤) روبين داريو : شاعر مشهور جداً من «نيكراغوا» (١٨٦٧-١٩١٦) .

- يا (بايبخو) -قلت له- إذا أردت أن نكون أصدقاء دائماً فأرجوك ألا تعود فتقول لي شيئاً من هذا القبيل ، فلست أدري إن بدأنا علاقتنا على هذا النحو من المدح والمجاملة وعلى هذا الشكل في التخاطب بأننا أديبان كبيران ، أين سنقف في ما بعد وإلى أين سنصل .

بدا لي أن كلماتي هذه قد أزعجته جداً . تربيتي المعادية للأدب كانت تجعلني أصير سيء الأدب ، بينما هو ، على العكس من ذلك ، ينتمي إلى جنس أكثر عراقة من جنسي ذي مجد وكياسة ولباقة . لقد شعرت حين لاحظت أنه تضايق من كلامي ، كأني ريفي جلف فظ .

لكن ذلك مر كسحابة صيف ومنذ تلك اللحظة غدونا صديقين حميمين . بعد عدة سنوات ، حين عرجت على باريس مرة أخرى لقضاء بعض من وقت ، كنا نتقابل يومياً . حينذاك عرفته في عالمه الذاتي وأحببته أكثر فأكثر .

كان (بايبخو) أقصر قامة مني ، أكثر عظماً ، كان كذلك أكثر «مهنداً»[1] مني بعينيه الغامقتين وبجبهته الشامخة المعقودة قناطر وقباباً وبميسمه الـ «إينكي»[2] الجميل الحزين في شيء من الجلالة والمهابة . كان مزهواً معجباً متباهياً كجميع الشعراء قاطبة فلقد كان يسره ويرضيه أن يطنب الناس في الحديث عن سجاياه البدوية وملامحه الهندية ، كان يشمخ برأسه كي ألحظ في وجهه هذه المزايا فأكبرها وأطريها ويقول لي :

- أفليس حقاً أن في وجهي لنضارة البدوي؟ ثم يضحك من نفسه في ابتسامة صامتة .

إن افتخاره لمختلف جداً عن فخر (بيثينته هويدوبرو) ، هذا الفخر الذي كان يبديه أحايين كثيرة هذا الشاعر المتقاطر و(بايبخو) في أشياء كثيرة ، فلقد كان (هويدوبرو) يترك على جبينه عقيصة من الشعر تتدلى ويحشر أصابعه في صدريته ويشرئب رأساً وصدراً ثم يتساءل :

- أفما تلحظون شبهي من (نابليون بونابرت)؟

- بلى ، كانوا يجيبونه مستهزئين أحياناً .

---

(١) مهنّد : لم نجد أصلح من هذه الكلمة لترجمة ما معناه أنه كان أكثر هندياً أحمر .

(٢) الـ«اينكي» : نسبة إلى (inca) وهو ملك أو أمير أو نبيل من قبائل «البيرو» القديمة .

كان (بابيخو) متجهماً عبوساً كئيباً ، بيد أن ذلك لم يكن إلا في المظهر فكأنه رجل يقف في شبه ظل نصفه نور ونصفه الآخر عتمة ، خلال ردح طويل من الزمن ، فلا النور يبلغ الظلام ولا الظلام يبلغ النور ، وكل في مكانه لا يبرحه . كان في طبعه جليلاً وقوراً ، ووجهه كأنه قناع صلب لا يرق ولا يلين ، رصين يحسبه الناس تكلفاً وما هو بذلك . لقد رأيته عدة مرات (وبخاصة حين كنا نقدر على اجتثاثه من سيطرة زوجته ، كانت امرأة فرنسية طاغية مدعية وهي ابنة بواب) . لقد شاهدته حين يخرج معنا ، وهو يقفز قفزات التلامذة فرحاً وغبطة ، ثم يعود إلى وقاره وجلاله إلى خضوعه وانقياده .

على حين غرة طلع من ظلال باريس نصير الأدب هذا الذي كنا ننتظره ولا يأتي أبداً ، نصيراً يؤوينا ويعطينا . كان حامي الأدب هذا كاتباً تشيلياً ، صديقاً لـ(رافائيل البرتي) وللفرنسيين ولنصف العالم . وكذلك كان ، وهذه ميزة أكثر أهمية من غيرها ، ابن صاحب أكبر شركة تشيلية للسفريات البحرية . وكان شهيراً بتبذيره وإطلاق يده .

كان ذلك المسيح الحديث السقوط من السماء يريد أن يحتفل بي ويكرمني فقادنا جميعاً إلى ملهى للروس البيض يدعى «الحانة القفقاسية» ، كانت جدران هذه الحانة مزينة بأزياء ومناظر من جبال القفقاس ، ما إن جلسنا حتى أحاط بنا عدد كبير من الروسيات أو المدعيات بأنهن روسيات ، متزينات كما تتزين فلاّحات تلك الجبال .

إن (كوندون) ، هذا هو اسم مضيفنا راعي الفنون ، يبدو وكأنه آخر روسي من عصر الانحطاط ، هشّاً أشقر ، كان يطلب بلا هوادة أو انقطاع زجاجة «شمبانيا» إثر زجاجة ، يقفز قفزات جنونية ، مقلداً رقصات «القوزاق»[1] التي ما رآها أو رآهم قط .

– «شمبانيا ، شمبانيا» ثم خرّ ساقطاً مضيفنا المليونير الشاحب الوجه والبدن . ظل مخزوناً تحت الطاولة ، نائماً نوماً سباتاً كأنه جثة هامدة لقفقاسي أهلكه الدب الأبيض .

سرت بنا رعشة ثلجية وهزة جليدية ، لا الرجل يستفيق فيدفع –لقد حاولنا بعثه

---

(١) القوزاق (Cosacos) : هم سكان بعض مناطق روسيا ، وكذلك هم العساكر الخيالة في روسيا القيصرية .

بأضمدة من ثلج بزجاجات من نشادر مفتوحة موضوعة قيد أنفه- ولا نحن نملك أن ندفع . الراقصات ما عدا واحدة منهن ، هجرننا وقد رأيننا في حيرة وتشتت . بحثنا في جيوب مضيفنا فما عثرنا إلا على دفتر «شيكات» مزخرف ، ما كان صاحبنا في شروطه الجثثية تلك بقادر على التوقيع .

لقد ألح صاحب الحانة القفقاسي الأعظم على أن يكون الدفع عدّاً ونقداً وحالاً ، فأغلق باب الخروج تحسباً كيلا نولي الأدبار ، فما استطعنا أن ننجو من السجان إلا بترك جواز سفري الديبلوماسي الجديد القشيب هناك حبيساً لديه مرهوناً بدلاً منا .

خرجنا وقد حملنا مضيفنا المليونير المنهك فكلفنا جهداً كبيراً نقله إلى سيارة «تكسي» ، تكفيتُه فيها ، إنزاله منها عند باب فندق فاخر فتركناه بين أذرعة بوّابين ضخمين لابسين أزياء حمراء فحملاه كما لو أنهما يرفعان أمير بحر[1] سقط على جسر سفينته .

كانت تنتظرنا في سيارة «التاكسي» فتاة الحانة ، الفتاة الوحيدة التي ما هجرتنا في وقت الضيق والتعاسة . دعوناها ، أنا و(البارو) ، إلى مطعم «ليس هالليس»Les Halles لتتذوق حساء البصل عند الفجر ، اشترينا لها ورودا من السوق وقبلناها قبلات شكر وامتنان على سلوكها السامري فشعرنا أن لها جاذبية ما . لم تكن لا بالجميلة ولا القبيحة ، بل إن أنفها الباريسية المتجعدة المتغضّنة كانت تمنحها شيئاً من الاعتبار . آنذاك دعوناها إلى فندقنا البائس التعس ، لم يكن هناك من جانبها أي مانع أو تعقيد في الذهاب معنا .

دخلت مع (البارو) إلى غرفته ، وأنا هويت في فراشي مستسلماً للنوم ، لكن ما إن غفوت قليلاً حتى أحسست أن أحداً يهزني ، يخضني ، كان (البارو) ، وجهه بدا لي غريباً كوجه مجنون وديع .

- هناك شيء يجري -قال لي- إن لهذه المرأة لشيئاً متميزاً غريباً غير مألوف ، شيئاً ما أنا بقادر على أن أشرحه لك ، عليك أن تجربها بنفسك الآن حالاً .

بعد دقائق معدودات جاءت هذه المرأة فحشرت نفسها بلطافة وهي كأنها حالمة ساهمة ، في فراشي . حين ضاجعتها خبرت فيها هذه الميزة الغريبة ، هذه الهبة السحرية ، كان شيئاً لا يوصف ، شيئاً ينبع من أعماقها يتفجر ، ثم يرجع أدراجه إلى

---

(١) أمير بحر : أو أمير البحر ، هكذا في الأصل Almirante ، عن العربية .

أصل الشهوة ، نبع اللذة ، مولد الموجة ، إلى سر «فينوس» الخصب ، ثم يعود يقذف ثم ينخطف . إن (البارو) لعلى حق وفي يقين .

في اليوم التالي ، أثناء الفطور ، حذرني (البارو) قائلاً باللغة الإسبانية :

- إن لم ندع هذه المرأة الآن ، فإن سفرنا سيبوء بالفشل والإحباط إذ إننا ، يا عزيزي ، لن نركب البحر بل سر الجنس المقدس ولغز هذه المرأة الذي لا يسبر .

قررنا أن نفعمها هدايا : وروداً ، شوكولاتا ، نصف ما تبقى معنا من «فرنكات» . اعترفت لنا بأنها ما كانت تعمل في ذلك الملهى القفقاسي ، بل إنها زارته لأول مرة تلك الليلة . ثم من بعد أخذنا لها سيارة تاكسي وركبنا معها . كان سائق التاكسي يجتاز حياً مجهولاً ، حين أمرناه بالتوقف فودعناها وتودعنا منها بقبل كثيرة كبيرة ، تركناها هناك ، تائهة لكن مبتسمة .

أبداً لم نرها من بعد ، قط .

سفر إلى الشرق:

كذلك لن أنسى القطار الذي أقلّنا إلى مرسيليا ، محملاً مثل سلة فواكه غريبة ، بأناس شتى ، بفلاحين وبحارة ، بآلات «أكورديون» وأغان كانت تتسق وتتجاوب في عربات القطار كلها . كنا نمضي نحو البحر الأبيض المتوسط ، نحو أبواب النور . . . عام ١٩٢٧ . لقد سحرتني مرسيليا برومنطيكيتها التجارية وميناء «بيوكس» ، الجنح بأشرعته الفوارة في كدرها القاتم . لكنما الباخرة التي كانت تابعة إلى شركة «ميساجريس» البحرية والتي قطعنا تذكرتين للركوب بها حتى «سينغابور» ، كانت قطعة من فرنسا في البحر ، ببرجوازيتها الصغيرة التي كانت تهاجر لتشغل مناصبها في المستعمرات النائية . حين لاحظ بحارة السفينة أن لدينا آلة كاتبة وأنه يبدو علينا من كتبنا وأوراقنا أننا من الكتّاب ، وذلك خلال الرحلة ، طلبوا منا أن نكتب لهم على الآلة الكاتبة رسائلهم . كنا نكتب ما يملونه علينا من رسائل غرامية بحّارية غريبة عجيبة ، إلى خطيباتهم في مرسيليا ، في «بوردو» في الريف . ما كان يهمهم كثيراً أن نحسن الأسلوب وندبّج الجمل الجميلة ، بل إن ما كان يهمهم هي الآلة الكاتبة ، لكن ما كان يقولونه في هذه الرسائل كان يشبه قصائد (تريستان كوربيير) ، رسائل كلها فظاظة وطراوة معاً . راح البحر الأبيض المتوسط ينفتح أمام قيدوم سفينتنا بموانئه ، بسجاجيده ، ببضائعه ، بأسواقه . في البحر الأحمر أدهشني ميناء

«جيبوتي» Djibuti ، الرمال المحترقة المخددة من كثرة ذهاب (ارثور رامبو Arthur Rimbaud)[1] ، تلك الفتيات السوداوات كأنهن تحف بسلالهن المليئة بالفاكهة ، تلك الأكواخ البائسة لأولئك السكان البدائيين ، وهواء غير متناسب ونسيم تلك الأنحاء في مقاه منارة بضوء شاقولي ذي أطياف . . . هناك كانوا يتناولون الشاي المبرّد بالليمون .

إن المهم هو رؤية ما يجري في «شانغهاي» ، ليلاً . إن المدن ذات السمعة السيئة والصيت «الحسن» تجذب المرء إليها كمثل نساء سامّات . كانت «شانغهاي» تفتح شدقها الليلي لتبتلعنا نحن الاثنين . فنحن اثنان من ريفيي العالم ، مسافران من الدرجة الثالثة ، ليس لهما إلا قليل من المال وكثير من الفضولية الحزينة .

دخلنا إلى هذا الملهى وذاك ، إلى القريب والبعيد . كانت ليلة في منتصف الأسبوع ، لذلك فإن الملاهي كانت خاوية . لقد كان محزناً ومحبطاً أن ترى تلك المدارج ؛ مدارج الرقص الهائلة ، كأنما بُنيت لكي يرقص فوقها مئات الفيلة ، وهي خاوية على مدارجها ، لا يرقص فيها أحد . في الزوايا الكئيبة كانت تطلع منها فجأة روسيات ضامرات من عهد القيصر يتثاءبن وهنّ يطلبن منا أن ندعوهن على زجاجة «شمبانيا» . هكذا تجولنا في ستة أو سبعة من محلات إضاعة الوقت حيث لم يكن يضيع منا إلا وقتنا .

كان الوقت متأخراً كي نعود على أرجلنا إلى الباخرة التي خلفناها بعيدة جداً ، خلف أزقة الميناء المتصالبة فلذلك استأجرنا لكل واحد منا «ريكتشا» . لم نكن متعودين على هذا النوع من النقليات بأحصنة بشرية . لقد كان صينيو عام ١٩٢٨ يخبّون وهم يجرون العربة بلا هوادة ولا راحة عبر مسافات طويلة بعيدة .

«يا للصينيين من عرق جدّ ناعم وجدّ ماهر ، ليس عبثاً أن لهذا الجنس ألفي عام من الحضارة» كنا نفكر في هذا : (البارو) وأنا ، كل في مقعده المتدرّج الجاري .

غير أن شيئاً بدأ يوسوس في صدري ويقلقني . لم أكن أرى شيئاً ، وأنا سجين تحت حصار اتخذت فيه الاحتياطات كافة كيلا أرى شيئاً ، لكن ، بلى ، كنت أسمع على الرغم من القماش المشمع ، صوت حصاني وهو يهمهم ويدمدم وصوت حوافره وهي تخبّ وتدبّ . على نغم حوافره أضيفت من بعد أصوات أخرى متناغمة لأقدام

---

(١) ارثور رامبو (أرثور Jean) : الشاعر الفرنسي الشهير (١٨٥٤-١٨٩١) .

حافية كانت تخب عبر الإسفلت البليل . أخيراً همدت الأصوات والضجّات ، علامة بأن الأسفلت قد انتهى . لقد أصبح مؤكداً أننا نسير فوق أراضي حقول بور ، خارج المدينة .

توقفت فجأة ، عربتي . فك الحوذي في مهارة القماش الذي كان يحميني من المطر . لم يكن ثمة أية ظل لأية باخرة في تلك الضاحية غير الآهلة . والعربة الأخرى كانت واقفة إزائي ، ثم نزل منها (البارو) تائهاً مخبولاً .

- «موني ، موني» Money Money (الفلوس ، الفلوس) كانوا يرددون بالإنجليزية في صوت هادئ ، ونظرنا وإذ بهم سبعة أو ثمانية يحيطون بنا .

أبدى صديقي حركة بيده وكأنه يبحث عن سلاحه في جيب السروال فكان هذا كافياً لكي يضربونا كلينا بضربة في القفا لكل منا . أنا هويت نحو الخلف ، لكن الصينيين في خفة وسرعة تلقفوا رأسي وهو في الهواء كي يحيلوا بينه والصدمة العنيفة على الأرض ، وفي رقة ونعومة فرشوني على الأرض البليلة مستلقياً . قلبوا جيوبي ، بحثوا في قميصي ، خلعوا عني قبّعتي ، نزعوا مني حذائي ، سلخوا مني جرابي ، فكوا عن عنقي ربطتي ، في سرعة عجيبة وفي حذاقة بالغة كما البهلوان . لم يدعوا سانتيمترا واحداً من الملابس إلا حركوه وقلبوه ولا «سانتيما» واحداً مما كان معنا وهو قليل وحيد ، إلا وأخذوه وسرقوه . لكن لصوص شانغهاي بما لهم من لباقة تقليدية وعفة نفس أبية احترموا لنا في حرص وقداسة ، أوراقنا ، وجوازي سفرنا .

بعد أن مضوا وبقينا وحدنا ، تحركنا باتجاه الأنوار التي كانت تُرى من على بعد ، فوجدنا مئات من الصينيين الليليين لكنهم شرفاء محترمون ، لم يكن بينهم من يعرف الفرنسية أو الإنجليزية أو الإسبانية ، غير أنهم أبدوا استعدادهم لمساعدتنا في الخروج من وطننا وانقطاعنا عن الباخرة فأرشدونا إلى أن وصلنا إلى غرفتنا من الدرجة الثالثة ، غرفة فردوسية تنفسنا فيها واسترحنا .

وصلنا إلى اليابان . لا بد أن المال الذي كنا ننتظر أن يصل من تشيلي ، قد وصل إلى القنصلية . اضطررنا أن نأوي تلك الليلة إلى ملجأ بحارة في «يوكوهاما» . فقضينا فيه عدة أيام ، كنا ننام فوق نضائد من الحلفاء ، انكسر زجاج النافذة ، أثلجت السماء ، كان البرد يلدغ ويلذع حتى روحنا ، وما من أحد يهتم بنا أو يرثي لحالنا . ذات سحر انشقت سفينة بترول إلى قسمين أمام الساحل الياباني فامتلأ الملجأ بالناجين من الغرق . من بينهم بحّار بشكانسي لم يكن يعرف من اللغات إلا لغته

واللغة الإسبانية فحكى لنا مغامرته : خلال أربعة أيام بلياليها بقي عائماً على قطعة من الباخرة ، وهو محاط بأمواج النفط الملتهبة . هؤلاء الناجون من الغرق كانوا يتلقون مساعدات ومؤناً ، وكان هذا الشاب البسكوي الكريم يعطينا من كل شيء وكأنه حامينا وراعينا .

نقيضه كان القنصل العام لتشيلي -يبدو لي أنه يدعى (دي لا مارينا) أو (دي لا ريبيرا)- استقبلنا من مقامه العالي الرفيع وهو يحاول أن يشعرنا بضآلتنا ، بضآلة من نجا من الغرق ويطلب العون والمساعدة . فهو وقته قصير جداً ، وهذه الليلة سيتعشى مع «الكونديسه» (يوفو سان) ، الحاشية الإمبراطورية ، دعته لتناول الشاي في القصر ، هو عاكف على دراسة عميقة عن السلالة الملكية .

- يا له من إنسان رقيق جداً جلالة الامبراطور ، الخ .

كلا ، ليس عنده هاتف ، فما هي حاجة الهاتف في «يوكوهاما» بالنسبة له؟ إن كلموه فإنهم سيكلمونه باللغة اليابانية أما بالنسبة لأخبار أموالنا ، فإن مدير المصرف ، وهو صديق حميم له ، لم يكن قد تفضَّل فأخبره بشيء حول هذا الأمر . إنه ليأسف أن يودعنا ، إذ إنهم ينتظرونه في حفلة استقبال ، إلى الغد ، إن شاء الله ، إلى الغد .

وهكذا كل يوم ، كنا نغادر القنصلية ونحن نرتعد من البرد لأن ملابسنا كانت قد تضاءلت نظراً للسطو والهجوم الذي شن علينا ، لم نكن نلبس إلا ما يُعطى لنا من ملابس الناجين من الغرقى . علمنا في آخر لحظة أن أرصدتنا قد وصلت إلى «يوكوهاما» قبل أن نصل نحن إليها . وكان المصرف قد أرسل ثلاث رسائل يخبر فيها السيد القنصل بوصول المبلغ ، لكن تلك الدمية ذات القلائد ، أعني ذلك الموظف العالي السامي جداً لم يكن قد درى بهذا الشيء الضئيل الذي هو أقل كثيراً من أن يصل إلى عالي مقامه ورفيع شأنه . (حين أقرأ في الصحف أن قنصلاً أو آخر قد اغتيل من قبل أحد مواطنيه الغاضبين ، أفكر بحنين في ذاك المقلّد المبجّل) . تلك الليلة ذهبنا إلى أحسن مقهى في طوكيو وهو مقهى الـ«كورونكو» Koroncko بـ«غينثا» Ghinza . لقد كان يؤكل جيداً في تلكم الأوقات بطوكيو ، بفضل أسبوع الجوع الذي كان يملأ الأطعمة توابل . شربنا بمصاحبة فتيات يابانيات لذيذات ، عدة مرات ، نخب المسافرين التعساء كلهم ، نخب أولئك المسافرين الذي لا يعتني بهم القناصل الفاسدون التافهون الموزعون في أنحاء العالم .

إنها «سينغابور» . كنا نظن أنفسنا قرب «رانغون» . يا له من فشل مرير! إن ما

كان في الخارطة وهو لا يعدو أن يكون بضعة ميليمترات قد استحال إلى هاوية مرعبة . ما زالت تنتظرنا عدة أيام على ظهر الباخرة ، ولكن أية باخرة! فالباخرة الوحيدة التي تقوم عادة برحلة بين المدينتين كانت قد أقلعت في اليوم السابق إلى «رانغون» . لم يكن معنا ما ندفع به أجرة الفندق ولا ثمن التذكرتين . فأرصدتنا الجديدة تنتظرنا في «رانغون» .

لقد وجدتها! فلأمر ما ثمة هنا في «سينغابور» قنصل تشيلي ، إنه زميلي ، السيد (مانسيّا) . اتصلنا به فخفّ سريعاً إلى فندقنا ، لكن ابتسامته أخذت تتلاشى شيئاً فشيئاً ، تخفّ إلى أن اختفت كلياً لتترك مكانها تكشيرة غضب وانزعاج .

- لا أستطيع مساعدتكما في شيء ، اتصلا بوزارة الخارجية في تشيلي .

حرّضت فيه النخوة وتضامن القناصل الأخوي . عبثا ، فلقد كان للرجل وجه كوجه سجّان لا يرحم ولا يشفق ، أخذ قبّعته وخرج مهرولاً ، وما كاد أن يختفي حتى خطرت لي فكرة رائعة :

- يا سيد (مانسيّا) ، إني لأجد نفسي مضطراً أن أقوم بإلقاء عدة محاضرات عن بلدنا على أن يدفعوا لي مقابلها مبالغ مسبقة ، وبهذا أستطيع أن أجمع ما يكفي لشراء البطاقتين والمصاريف الأخرى ، فلهذا إني أرجوك أن تؤمّن لي المكان والمترجم والاذن اللازم .

أصبح الرجل عند ذلك شاحب الوجه مضطرباً . ثم أردف قائلاً :

- ماذا ، أمحاضرة عن تشيلي في «سينغابور»؟ لا أسمح بهذا ، هذه هي منطقة اختصاصي ومجال نشاطي ، ما من أحد يستطيع الكلام عن تشيلي هنا سواي .

- هدّئ من روعك ، يا سيد (مانسيّا)- أجبته . كلما كان عدد المحاضرين عن وطننا النائي أكثر ، كان أفضل ، لا أرى بهذا ما يدعوك للغضب .

أخيراً عقدنا صفقة في هذه التجارة الغريبة من التلميح بالتهديد في أنه يعادي الوطنية . جعلنا نوقع له على عشرة وصول ، وهو يرتعد من غضب ، ثم ناولنا النقود التي حين أحصيناها وعددناها وجدنا أن الوصول كانت تتضمن مبلغاً أكثر مما دفعه لنا .

(بعد عشرة أيام أرسلت له أنا «شيكاً» لإيفائه الدّين من «رانغون» ، لكن بدون تضمين الفوائد ، طبعاً) .

من على ظهر السفينة التي كانت تتهادى مقتربة من «رانغون» ، رأيت ، مطلّ القمع الذهبي الهائل للمعبد الرائع ، معبد «سوي داغون» Swei Dagon . كانت

جمهرة من الأزياء الغريبة تتزاحم على رصيف الميناء في حشد من الألوان عنيف . نهر عريض وسخ يصب هناك في خليج «مارتابان» . إن لهذا النهر اسماً هو أجمل اسم نهر من أنهار العالم جميعها «ايراوادهي» .

إزاء مياهه ، على ضفافه بدأت حياتي الجديدة .

«البارو» Alvaro

. . . إنه لعفريت (البارو دي سيلبا)[1] . . . يعيش في نيويورك . . . أتخيله وهو يأكل برتقالة في لحظات غاضبة شاتمة . . . يحرق بالكبريت ورق لفائفه من التبغ ، يوجه أسئلة مزعجة مغيظة إلى نصف العالم . . . لقد كان دائماً معلماً فوضوياً ، ذا ذكاء لامع ، ذكاء يستقصي لكنه لا يؤدي إلى أية جهة ، إلا إلى نيويورك ، كان ذهابه إلى هذه المدينة في عام ١٩٢٥ . . . كان يحيا بين شقائق النعمان التي كانت تفرّ من بين يديه وهو يعدو مسرعاً ليقطفها فيعطيها إلى مسافرة مجهولة يريد مضاجعتها دون أن يعرف لها اسماً ولا جهة ، ولا يدري من أين جاءت وإلى أين تمضي وبين قراءاته التي لا تنتهي لـ(جويس Joyce)[2] ، كان يدلي إليّ وإلى آخرين كثيرين ، بآراء يُشكّ في مدى صحتها ، وجهات نظر في كل شيء كأنه مواطن يعيش في كهفه بالمدينة ويخرج من حين إلى آخر ليتمتع بالموسيقى ، بالرسم ، بالكتب ، بالرقص . . . دائماً يأكل برتقالاً ، يقشر تفاحاً ، حمية غذاء لا تحتمل ، يتدخل في كل شيء ، لقد رأيت فيه مجسماً نقيض الريفي الذي طالما حلمت في أن أكونه ، بله نحن الريفيين جميعاً نحلم دائماً أن نكونه ، لا يرحل بعناوين ملصقة على الحقائب ، بل يمضي يدور حول نفسه وفي نفسه مزيج من البلدان والألحان والحفلات والمقاهي حتى مطلع الفجر ، والجامعات ذات الثلوج على الأسطحة . . . لقد بلغ في أحلامه المفرطة حداً جعل لي العيش مستحيلاً . . . أنا حيث أصل أحاول أن أحلم حلم النبات في أن يكون له موضع لا يتزحزح منه ، أن أحدد لي مكاناً لا أبرحه ، أن أغرز جذراً كي أفكر ، كي أوجد . . . بينما (البارو) كان يمضي من كهربة إلى أخرى ، من فكرة إلى أختها ، مسحوراً بالأفلام التي يمكن أن نمثل فيها ، لبسنا ذات مرة ملابس جعلتنا

---

(١) سيلبا : معناها ، غابة .

(٢) جويس (جيمس James) : كاتب إيرلاندي (١٨٨٢-١٩٤١) .

نبدو كمسلمين كي نذهب إلى الاستوديوات فيتعاقدوا معنا للتمثيل . . . ثم توجهنا إلى هذه الاستوديوهات (في الطريق حين دخلنا إلى حانوت لنشتري تبغاً وأنا أرتدي زياً بنغالياً ، وذلك في «كلكوتا» ، الناس ظنوا أني من عائلة (طاغور)) . وصلنا إلى استوديوهات «دوم-دوم» Dum-Dum وسرعان ما خرجنا منها مطرودين -ما زلت أحتفظ بصور لي في تلك الأزياء- ووشيكاً خرجنا راكضين من فندق «ي م ك أ» YMCA لأننا ما دفعنا أجرة إقامتنا فيه . . . أما عن الممرضات اللواتي كنّ يعشقننا فحديثهن يطول . . . (البارو) حشر نفسه في أعمال تجارية هائلة . . . كان يريد أن يبيع شاي «أسّام» Assam أقمشة من «كشمير» ، ساعات ، كنوزاً قديمة . . . كل شيء كان يعطي ثماره عما قريب . . . كان يترك عينات من الحرير الكشميري ، مساطر من الشاي فوق الطاولات ، فوق الأسرّة . . . كل ذلك وقد هيأ حقيبته للسفر أو أنه قد أصبح في مكان آخر من العالم . . . في ميونيخ . . . . في نيويورك . . .

إن كنت أنا قد تعرفت على كتاب مثابرين ، مثمرين ، متقنين ، خصبين فإني أجزم قائلاً بأن (البارو) هو أعظمهم جميعاً وأفضلهم على الإطلاق . . . قلّما ينشر ما يكتب . . . لا أفهم لماذا . . . كان في كل صباح ، وهو في السرير ، ونظارته طالعة من حديبة[1] أنفه ، (هزّي ، هزّي)[2] على الآلة الكاتبة ، مستهلكاً مواعين وحزماً من أنواع الورق كله ، والأوراق جميعها . . . لكنه لا يستنفد حركاته ، كهرباءه ، انتقاداته ، برتقالاته ، تحولاته الزوبعية ، كهفه في نيويورك ، باقاته من شقائق النعمان ، غموضه الذي يبدو واضحاً ، وضوحه الذي يبدو غامضاً . . . وما يبدعه ويؤلفه يقبع ولا يخرج . . . قد يكون لأنه لا يرغب . . . ربما لأنه لا يستطيع نشره . . . قد يكون لأنه جد مشغول . . . ربما لأنه جد غير مشغول . . . بيد أنه يعرف كل شيء ، يعلم بكل شي ، يرى كل شيء ، عبر القارات بهاتين العينين الزرقاوين الجريئتين ، بهذا اللمس الحاذق الذي يدع رمل الزمن يتسلل بين أصابعه .

---

(١) حديبة : في الأصل Jorobilla ، وهو تصغير إسباني للكلمة العربية حدبة .

(٢) هزّي : في الأصل Dale que Dale ، بمعنى أعطيه ، أعطيه ، وهذا يقال للراقصة أو الراقص كي يتحمس ويعيد ويزيد .

الفصل الرابع
الوحدة المضيئة

أطياف من الغابة:

لقد غرقت في هذه الذكريات ، عليّ أن أستيقظ تواً . إنه لصخب البحر . أكتب الآن ، في «ايسلا نيغرا Isla Nigra»[1] على الساحل ، قرب «بالبارائيسو» . لقد هدأت زوابع عظيمة كانت تسوّط[2] الشاطئ . إن المحيط -ينظر إليّ بألف عين من زبد أكثر مما أنظر إليه أنا عبر نافذتي- ما يزال يحقن في تموجه إصرار العاصفة الرهيب .

يا لها من سنين بعيدة نائية! إن تشييدها من جديد لهو كما لو أن أنغام الأمواج هذه التي أصغي إليها الآن تتسرب في داخلي مترادفة متتابعة متذبذبة ، أحياناً تتماوج كي تنيمني ، وأحياناً أخرى تلتمع كبريق سيف مباغت . سألتقط هذه الأطياف بلا سرد تاريخي متصل ، مثل هذه الأمواج التي تروح وتجيء .

عام ١٩٢٩ ، ليلاً . أرى جمهرة من الناس وقد اجتمعوا في الشارع ، إنه احتفال إسلامي . لقد حفروا خندقاً كبيراً في الشارع وملؤوه جمراً . اقترب . تلهب وجهي حدّة الجمر المكوم ، تحت طبقة خفيفة من الرماد ، فوق شريط قرمزي من نار حية متوهجة . تظهر فجأة شخصية غريبة ، بوجه مصبوغ بالأبيض والأحمر ، محمولة على أكتاف أربعة رجال يلبسون كذلك ثياباً حمراء . ينزلونه ، يبدأ يمشي متمايلاً عبر الجمر أو فوقه ؛ ويصيح بينما هو يمضي سائراً :

- الله ، الله[3] .

كان الحشد الهائل من الناس يبلع هذا المنظر مذهولاً مندهشاً . لقد عبر الساحر سليماً هذا الشريط الطويل من الجمر . حينذاك ينطلق رجل من بين صفوف الحشد ،

---

(١) ايسلا نيغرا : معناها ، جزيرة سوداء .

(٢) تسوّط : هكذا في الأصل ، والفعل مشتق من الكلمة العربية السوط .

(٣) الله ، الله : هكذا في الأصل (!Ala'! Ala') .

يخلع خفيّه ويقوم حافي القدمين بالمسير على الجمر . ثم ينطلق متطوع آخر فآخر وهكذا دواليك . بعضهم يتوقف في الخندق لكي يراوح فوق النار على صياح «الله ، الله» يؤدي حركات وإشارات فظيعة ، يرفع النظر إلى السماء . آخرون يعبرون حاملين أطفالهم في أحضانهم . لا أحد منهم يُصلى بهذه النار الحامية أو لعلهم يُصلون فيصبرون ونحن لا نعرف .

إزاء النهر المقدس يرتفع معبد «كهالي» إلاهة الموت عندهم . دخلنا مع مئات الداخلين من الحجّاج الذين أتوا من أقاصي البلاد كي يتبركوا بها ويحصلوا على نعمتها . حفاة عراة ، أو بأثياب رثة وأسمال بالية ، خائفين فزعين ، يدخلون فيجبرهم البراهمة على أن يدفعوا مالاً في كل خطوة يخطونها مقابل أي شيء يرونه أو يتبركون به . كان البراهمة يرفعون مسحاً من المسوح السبعة للآلهة الكريمة ، وحين يرفعونه ترن ضربة قارعة كأنها قُرعت كي تقوض الكون كله ، وما إن يرى الحجاج ذلك حتى يخرّوا سجّداً ثم يكبرون وأيديهم مرفوعة كأنهم يحيون معاً ، ولكن بكلتيهما معاً ، ثم يسجدون ويضعون جباههم على الأرض ويمضون هكذا إلى أن يرفع المسح الثاني فالثالث . . . الخ . يأخذ الكهنة بتجميع الحجاج في فناء واسع حيث يضحُون التيوس ويقطعون رؤوسها بضربة واحدة تذبحها وتدميها فيقبضون منهم أتاوات جديدة . ثغاء الحيوانات الجريحة لا يُسمع إذ تخنقها الضربات الطارقة القارعة وتخفيها . تُرشّ الحيطان الكلسية الوسخة بالدم حتى السقف . وما هذه الإلهة إلا صنم ذو وجه غامق اللون وعينين بيضاوين ولسان قرمزي طوله متران ينزل من فمها حتى يبلغ الأرض . في أذنيها وفي عنقها عُلِّقت أطواق من جماجم وشعارات ترمز للموت . يدفع الحجاج نقودهم الأخيرة قبل أن يُدفعوا إلى الشارع .

لقد كان الشعراء الذين تحلقوا من حولي لينشدوا لي أغانيهم وأشعارهم مختلفين جداً عن أولئك الحجاج المذعنين الخاضعين . فلقد جاء هؤلاء الشعراء ومعهم طنيبيرات[1] ، وهم يرتدون ملابسهم البيضاء السابغة الفضفاضة ، فجلسوا القرفصاء على السندس الأخضر ، كل واحد منهم كان يطلق بحة وصرخة بين بين تكاد لا تبلغ أن تكون صرخة ، فتصعد من شفتيه أغنية نظمها هو بنفسه وأجراها على بحر من بحور الأغاني القديمة الألفية ، غير أن المعنى جديد والمحتوى قد تغير . لم تكن هذه

---

(١) طنيبيرات : في الأصل صيغة تصغير إسبانية ، وبالجمع للكلمة العربية طنبور .

الأغاني أغاني حسية شهوانية لمتعة أو لذة ، بل هي أغاني احتجاج على الجوع ، أغان مكتوبة في السجون . إن كثيراً من هؤلاء الشعراء الشبان الذين التقيت بهم في كل مكان على طول الهند و عرضها ، والذين لن أنسى نظراتهم الظليلة الكئيبة ، كانوا قد خرجوا من السجن أمس أو أول أمس وربما يعودون إليه غداً أو بعد غد . لأنهم كانوا يحاولون التمرد على البؤس والثورة على الآلهة . إن هذا لهو الزمن الذي قدّر لنا أن نعيش فيه ، وهو العصر الذهبي للشعر العالمي . بينمنا تُطارد الأغاني الجديدة والأناشيد الجديدة ، فإن مليوناً من البشر يفترشون الدروب ليلة بعد ليلة ، ينامون في العراء في ضواحي «بومباي» . ينامون ، يولدون ، يموتون . لا دار ولا خبز ولا دواء . في هذه الشروط القاسية ، تركت إنجلترا المتمدنة المتبجحة مستعمراتها : مستعمرات إمبراطوريتها العظمى . لقد ودعت مواطنيها القدماء دون أن تترك لهم شيئاً ؛ لا مدارس ولا مصانع ولا مساكن ، اللهم إلا سجوناً وجبالاً من زجاجات ويسكي فارغة .

إن ذكرى إنسان الغاب «رانغو» لهي طيف آخر غض طري يأتي خياله مع الأمواج . في «ميدان» بسومطرا لمست ، أحايين ، باب تلك الحديقة النباتية الخراب . كان هو بنفسه يأتي ليفتح لي الباب فأدهش وأعجب ، كنا نتجول معاً وقد أخذني من يدي إلى أن نجلس حول طاولة كان هو يضربها بيديه وبرجليه ، عند ذلك يظهر نادل ويأتي لنا بزقّ من خمرة الجعة (بيرة) ، لا هو بالصغير ولا بالكبير ولكنه كاف لإنسان الغاب وللشاعر .

كنا نرى في حديقة الحيوانات بـ«سينغابور» الهدهد داخل قفص متألقاً وهائجاً ، رائع الجمال كأنه طير قد جاء لتوّه من جنة عدن ، وهناك كان يتنزه في قفصه نمر أرقط أبيض وأسود كان ما يزال يفوح برائحة الغابة ، لقد كان مقطعاً غريباً من الليل المنجم ، شريطاً مغناطيسياً يهتز بلا هوادة ، بركاناً أسود مطاطياً يريد إحراق العالم ، محرك قوة نقية تتلوى تتموج ، له عينيان صفراوان مسددتان كما الخنجر ، تتساءلان بنارهما عما لم يكن يفهمه لا السجن ولا البشر .

وصلنا إلى المعبد الغريب معبد «لا سيربيينته La Serpiente»[1] في ضواحي مدينة «بينانغ» ، في المنطقة التي كانت تسمى من قبل ، الهند الصينية .

إن هذا المعبد معروف موصوف من قبل رحالة وصحفيين ، لست أدري ، بعد

---

(١) لا سيربيينته : معناها ، الأفعى .

العديد من الحروب والتهديم وبعد عتو الدهر ومضيّ الزمن وتساقط الأمطار، إن كان ما يزال صامداً حياً. تحت سقف من قرميد ثمة بناء واطىء ومسود، متآكل بأسنان الأمطار المدارية وحتّها، تحفّ به غابة كثيفة من أوراق الموز الكبيرة الحجم، وله رائحة كرائحة الرطوبة، شذى كشذى الخبز العفن. لما دخلنا إلى المعبد لم نر شيئاً في الظليل (تصغير ظل). أريج قوي شديد كرائحة البخور، وثمة شيء يتحرك. إنها لأفعى تتثاءب تتجبّد. شيئاً فشيئاً لمحنا أخرى فأخرى ثم أخرى، وإذ هي بالعشرات. من بعد عرفنا أن هناك بالمئات وبالآلاف؛ منها صغيرات ملتفات معقوفات على شمعدانات، منها غامقات، منها معدنيات، منها نحيلات رفيعات، كلها غافية متخمة. ففي كل الجهات، فعلاً، ثمة أطباق رقيقة من الزجاج الفرفوري (بورسلان)، بعضها طافح بالحليب وبعضها مليء بالبيض، لم تكن الأفاعي تنظر إلينا أو تلحظنا. مررنا محاذين لها عبر متاهات ضيقة في المعبد، ها هي فوق رؤوسنا، معلّقة بالفن المعماري المزخرف، ها هي تنام في المحراب الحجري، ها هي في المذابح، وها هي ذي أفعى «روسيل»[1] المهابة، تبتلع بيضة قرب اثنتي عشرة حية قاتلة كأنها جوقة من الراقصات اللواتي لهن خواتم تفصح عن سمهن السريع الفتك. ميزت من بينها حية «فير دي لانس»، عدداً كبيراً من تنّينات البر (ذا القرون)، حية «ديروسي»، حية «نويا»، كانت تملأ البهو الأفاعي الخضراء، الرمادية، الزرقاء، السوداء. كل شيء في سكون. من حين إلى حين كان يعبر الظل كاهن برداء زعفراني[2]. كان بريق لون بردته يجعله يبدو وكأنه حية أخرى، تتحرك، تتثاءب، تتجبد بحثاً عن بيضة أو عن طبق من حليب.

أأتيتم بهذه الأفاعي إلى هنا؟ كيف تآلفت وتعودت؟ على أسئلتنا كانوا يجيبون بابتسامة، قائلين لنا إنها أتت وحدها وإنها ستذهب وحدها حين يخطر لها ذلك. ما هو أكيد أن الأبواب كانت دائماً مفتوحة وليس عليها مشبكات من حديد أو خشب وليس فيها زجاج، ولا شيء من هذا القبيل مما يجبرها على البقاء في المعبد.

خرجت سيارة الركاب من «بينانغ» وكان عليها أن تجتاز أدغال الهند الصينية وضيعها كي تصل إلى «سايغون». لا أحد في هذه السيارة يعرف لغتي ولا أنا أعرف

---

(١) روسيل: هذه الأسماء كلها بالفرنسية.

(٢) زعفراني: هكذا في الأصل Azafran، عن العربية.

لغة أحد منهم . كنا نتوقف في منعطفات الغابة البكر ، على مدى الطريق الذي لا ينتهي ، فينزل المسافرون ، فلاّحون بملابس غريبة ، وبكرامة صامتة مطرقة ، وعيون زائغة ، لم يبق إلا ثلاثة مسافرين أو أربعة في السيارة التي تشق طريقها وهي تصرصر وتهدد كي تنطلق تحت الليلة الحارة .

شعرت فجأة برعب متدفق طاغ ، أين أنا؟ وإلى أين أمضي؟ لماذا أقضي هذه الليلة الطويلة بين أناس لا أعرفهم؟ كنا نجتاز «لاووس» و«كامبوديا» . تمعنت في وجوه آخر مرافقيّ في هذه الرحلة الغريبة ، كانت وجوهاً صلبة متجهمة . وعيونهم مستيقظة ، ملامحهم وتقاسيم وجوههم بدت لي مريعة مخيفة ، لا شك في أنني بين عصابات قطاعي طرق أصيلين من هؤلاء الذين تحكي عنهم الحكايات الشرقية .

كانوا يتبادلون نظرات من ذكاء حاد ويلحظونني عرضاً وخطفاً ، في هذه اللحظة توقفت السيارة في سكون وسط الغابة . لقد اخترت موضعاً لي كي أموت هنا غريباً وحيداً . لا ، لن أسمح لهم أن يأخذوني فيصلبوني تحت ظل تلك الأشجار التي لم أرها من قبل ، والتي تخفي عني السماء بظلها الغامق الشاحب . سأموت هنا في هذه السيارة الحانية ، على مقعدها ، بين سلال الثمار وأقفاص الدجاج ، فهذه الدجاجات هي الشيء الوحيد الأليف في هذه اللحظة الرهيبة . نظرت في ما حولي ، مقرراً أن أواجه غيظ جلاديّ إن همُّوا بقتلي ، فتنبّهت إلى أنهم قد اختفوا .

انتظرت زمناً بدا لي دهراً وحيداً ، بقلب واجف خائف ، مغموراً مطموراً بظلام هذه الليلة الأجنبية الشديد الكثيف . أنا سأموت ، هأنذا أموت دون أن يدري بموتي أحد ، بعيداً عن بلدي الصغير الحبيب ، نائياً عن أهلي وحيي وكتبي . على حين غرة ، بزغ نور ، طلع نور آخر ، امتلأت الطريق بالأنوار والأضواء ، قرع طنبور ، تفجرت أنغام تصرّ الأذن من ألحان موسيقى «كامبويا» ، صدحت النايات تجاوبت الطنبيرات ، تلألأت المشاعل ، فملأت الطريق أنغاماً وأنواراً . صعد رجل فقال لي باللغة الانجليزية :

لقد حصل عطل في السيارة ، بما أن الانتظار سيكون طويلاً ، ربما حتى شروق الشمس ، وليس هنا من مكان صالح للنوم فإن المسافرين قد ذهبوا إلى الضيعة للبحث عن فرقة موسيقية وراقصين حتى تسامروا الليل وتقضوا وقتاً ممتعاً جميعاً ، وها هم قد عادوا والفرقة الموسيقية .

خلال ساعات عديدة ، تحت تلك الأشجار التي لم تعد تتهددني وتتوعدني ،

شاهدت الرقصات الطقوسية الرائعة البديعة لشعب ذي ثقافة نبيلة وحضارة عريقة ، واستمعت إلى أن أشرقت الشمس ، الموسيقى اللذيذة التي كانت تكتسح الطريق .

ليس للشاعر أن يخشى الشعب ، بدا لي أن الحياة كانت تحذرني وتعلمني إلى الأبد درساً : درس الشرف المكتنز ، درس الأخوّة التي لا نعرفها ، درس الجمال الذي يزدهر في الدياجير .

مؤتمر في الهند:

إن هذا اليوم لهو يوم مشرق ، ها نحن في مؤتمر الهند . أمة في أوج كفاحها في سبيل تحررها . آلاف المندوبين يملأون الأروقة . أعرف (غاندي) شخصياً وكذلك أعرف (البانديت موتيلال نهرو) الذي هو أيضاً زعيم الحركة التحررية وأعرف ابنه الشاب الأنيق (جواهر لال نهرو) الذي وصل حديثاً من انجلترا . (نهرو) كان من مؤيدي الاستقلال الكامل بينما (غاندي) كان يدعو إلى نوع من الحكم الذاتي البسيط كخطوة أولى لازمة . (غاندي) : وجه ناعم لثعلب ذكي جداً ، رجل عملي ، سياسي شبيه بزعمائنا المتأمركين[1] القدماء ، معلم ماهر في اللجان والمؤتمرات ، عالم خبير بالتكتيك والمراوغة ، لا يتعب ولا يمل . بينما كانت الجماهير مثل تيار جارف لا ينتهي ، تلمس بشكل طقوسي ديني ، طرف بردته البيضاء وتصيح (غاندي! غاندي!) ، هو كان يحييهم تحية هادئة ويبتسم لهم دون أن يرفع عن عينيه النظارة ، يستلم رسائل ويقرأها ، يجيب على البرقيات ، يؤدي أعماله كاملة دون أن يبذل جهداً كبيراً حتى لا يتعب ، إن (غاندي) لقديس لا ينفد . وأما (نهرو) فهو أستاذ ذكي للثورة الهندية .

كانت الشخصية الكبيرة في ذلك المؤتمر هو (سوبحاس شاندرا بوسه Subhas Chandra Bose) هو ديماغوجي مندفع ، عدو للامبريالية عنيف ، شخصية سياسية تسحر أبناء وطنه . انضم في حرب عام ١٩١٤ إلى اليابانيين الذين غزوا بلده ، وذلك لكي يقاوم الامبراطورية البريطانية ، بعد عدة سنوات ، في الهند نفسها ، حكى لي أحد رفاقه كيف سقط رجل «سينغابور» القوي :

– كانت أسلحتنا موجهة نحو اليابانيين المحاصرين . ثم تساءلنا . . . ولماذا؟ أمرنا

---

(١) المتأمركون : وجدنا أنها أصلح كلمة لترجمة Criollos وهم الأمريكيون ذوو الأصول الأوروبية .

جنودنا : «وراء ، در» وصوبناها ضد القوات الإنجليزية . القضية كانت واضحة . كان اليابانيون غزاة عابرين ، بينما الإنجليز كانوا غزاة خالدين .

لقد اعتقل (سويحاس شاندرا بوسه) ، حوكم ، أدين بالموت من قبل الحاكم البريطانية في الهند نظراً لأنها اعتبرته قد اقترف الخيانة العظمى . توالت الاحتجاجات وتضاعفت من طرف الجناح الاستقلالي . أخيراً ، بعد معركة قانونية حامية ، توصل محاميه -(نهرو) على وجه الدقة- إلى الحصول على العفو عنه . منذ تلك اللحظة استحال إلى بطل شعبي .

(الآلهة المتكئة)

. . . في كل جهة تماثيل (بوذا) ، «اللورد» (بوذا) . . . تماثيل صارمة ، شاقولية ، متآكلة ، بمذهّب من الزينة كأنه ألق ذو حياة وبمسحة من الإحباط كأنما هذه التماثيل تخشى أن يستنفدها الهواء . . . ومما يزيد في إبراز المذهّب وهذه المسحة من الإحباط بها أن عليها في خدودها ، في ثناياها ، في مرافقها ، في سررها في أفواهها وابتساماتها لطخات صغيرة ، فطر ، نباتات مسامية ، روث ، براز ، غائط ، من حيوانات الغابة . . . أو بالأحرى ثمة رواقد كبيرة ، نصب حجرية بأربعين متراً ، من الغرانيت المرمّل ، شاحبة ، ممددة بين الأدغال الهامسة ، على حين غرة ، تطلع من هذه الزاوية بالغابة أو من تلك ، تبرز من على منصة محدقة بالأشجار أو من على مرتفع من الأرض مكتنف بالأيك . . . أراقدة هي أم غير راقدة في أحلامها العميقة؟ لست أدري ، بيد أنها هناك هي منذ مائة سنة ، ألف سنة ، ألف ألف سنة . . . لكنها تنتظر ناعمة هادئة وهي بهذا الحشر الأرضي الغامض المعروف لا تدري أفستمكث أم ستمضي . . . عجباً هذه الابتسامة الحجرية الناعمة ، هذه الجلالة المهيبة المصنوعة من حجر صلد خالد ، لمن تبتسم ، لمن ، فوق هذه الأرض الدامية؟ . . . لقد مرت بها الفلاحات الهاربات ، رجال الحرائق ، المحاربون المتقنعون ، الكهنة ، السواح الشرهون . . . فما برحت مكانها هذه النصب ، هذه الأحجار الهائلة ذات الركب ، ذات الانحناءة في العباءة الحجرية ، ذات النظرة الضائعة لكنها موجودة باقية ، لقد مكثت هذه النُصب اللاإنسانية إلى الأبد ، سرمدية خالدة ولكنها كذلك إنسانية ، بشكل ما ، أو في تضاد من النحت متناقض ، فسواء أكانت آلهة أم لم تكن ، وسواء أكانت أحجاراً أم لم تكن ، لقد مكثت تحت نعيب الطيور السوداء ، بين رفرفة الطيور

الحمراء : طيور الغابة . . . نحن كذلك نفكر بشكل أو بآخر في تماثيل المسيح الإسبانية الرهيبة التي ورثناها نحن بدماملها وبكل شيء ، ببثورها وكل شيء ، بندوبها وكل شيء ، بهذه الرائحة كرائحة الشمع ، كرائحة الرطوبة ، كرائحة قطعة لدى الكنائس حبيسة . . . تماثيل المسيح هذه كذلك شكّت في أن تكون بشراً أو أن تكون آلهة . . . كي تصبح بشراً ، لكي تقترب أكثر ممن يعانون ويتعذبون ، من النساء الحوائض ومن المضروبة أعناقهم ، من المفلوجين والبخلاء ، من أصحاب الكنائس ومن الناس الذين يحيطون بالكنائس ، كي تصبح هذه التماثيل إنسانية فإن المثّالين النحّات وهبوها قروحاً تقشعر لها الأبدان فاستحال كل ذلك العذاب إلى دين : «اذنب تتعذب ، لا تذنب تتعذب ، عش وتعذب ليس لك من منجى يحررك ولا من مهرب . . .» . . . هنا ، كلا ، هنا السلام بلغ الحجر . . . فلقد تمرد المثّالون النحّات على نواميس الألم فتماثيل بوذا هذه الهائلة الجسيمة ذات أقدام آلهة عملاقة ، لديها في الوجه ابتسامة حجرية إنسانية تبعث في النفوس الطمأنينة ، تحررها من المعاناة والألم . ينبع منها أريج ، ليس كرائحة غرفة ميتة ، ليس كرائحة خزانة أشياء الكنيسة المقدسة ورائحة بيوت العنكبوت ، بل كشذى فضاء من نبات ، كعطر زخات إعصارية تتساقط مشحونة بطلع من الغابة الفسيحة اللامحدودة ، بريش طيورها بأوراق أشجارها .

أسرة إنسانية تعيسة:

لقد قرأت في بعض المقالات حول شعري أن إقامتي في الشرق الأقصى أثّرت في جوانب معينة من شعري ، وأنها انطبعت بشكل خاص في ديواني «مقام في الأرض» . في الحقيقة أن أشعاري الوحيدة لتلك الفترة هي القصائد التي يحتويها «مقام في الأرض» ، لكن ، دون أن أجرؤ على دعم هذا الرأي الذي سأبديه في شكل صارم ، أقول إنه يبدو لي مخطئاً هذا الكلام عن التأثر والتأثير .

إن كل هذه الباطنية الفلسفية للحياة في الأقطار الشرقية ، حين واجهت الحياة الواقعية تكشفت عن قلق ، عن عصاب ، عن ضياع ، عن انتهاز غربي ، أي عن أزمة المبادئ الرأسمالية . لم يكن في الهند خلال تلك السنوات مجال واسع للتأملات الباطنية العميقة ، حياة ذات متطلبات مادية قاسية ، شروط استعمارية مستندة إلى أكثر الدناءات نقاوة في الخسة ، آلاف الموتى كل يوم بالكوليرا ، بالجدري ، بالحمّى ،

بالجوع ، قطاعات إقطاعية غير متوازنة بسبب الغنى المفرط في السكان والفقر المدقع بالصناعة ، كل هذه الأمور كانت تضغط على الحياة وتطبعها بشراسة ؛ ففيها تنعدم التأملات الصوفية وتختفي الانعكاسات الروحية .

لقد كانت الخلايا الصوفية توجّه ، تقريباً دائماً ، من قبل مغامرين غربيين ، من بينهم الأمريكيون سواء من الشمال أو الجنوب . ليس هناك مجال للشك في أن من بين هؤلاء وأولئك ثمة أناساً ذوي نيات حسنة ، لكن الأكثرية كانت تستغل سوقاً رائجة رخيصة حيث كانت تباع ، في كميات هائلة وبالجملة ، تمائم ، تعاويذ ، أوثان غريبة ، محفوفة ملفوفة بالماورائيات التافهة المتهافتة . هؤلاء كانوا يُتخمون بفضل الـ«دهارما» والـ«يوغا» ؛ فلقد كانوا يستطيبون جداً الرياضة الدينية المضمّخة بالفراغ والسفسطة .

لهذه الأسباب ، فإن الشرق أثّر في نفسي كونه أسرة إنسانية كبيرة تعيسة ، دون أن أفرغ في ضميري أي مكان لطقوسه أو آلهته . لا أعتقد ، إذن ، أن شعري في ذلك الحين ، قد عكس شيئاً آخر غير الشعور بالوحدة ؛ وحدة غريب نقل من منبت غرسه إلى عالم عنيف غريب .

أذكر واحداً من أولئك السوّاح ؛ سوّاح الباطنية ، كان نباتياً ومحاضراً فذا . كان طرازاً صغيراً في حجمه ، قصير القامة ، في منتصف العمر ، ذا صلعة لّماعة كاملة شاملة ، وعينين زرقاوين صافيتين واضحتين ونظرة خارقة مستهترة ، لقبه هو (بوبيرس) ، قدم من الولايات المتحدة ، من كاليفورنيا ، كان يؤمن بالديانة البوذية ومحاضراته كانت تنتهي دائماً بهذه الوصفة النافعة في الحمية : «كما كان يقول (روكيفلر Rockefller)[١] : تغذ ببرتقالة كل يوم» .

(بوبيرس) هذا ، استلطفتُه لقلة أدبه ووقاحته الحلوة المفرحة ، وكان يعرف اللغة الإسبانية . بعد محاضراته كنا نروح معاً لنلتهم وجبات كبيرة مُتخِمة من الخروف المشوي (كباب)[٢] ، مع البصل . كان بوذياً لاهوتياً ، لست أدري إن كان بشكل شرعي أو غير شرعي ، ذا شراهة أكثر أصالة من مضمون محاضراته .

لقد افتتن ، أولاً ، بفتاة خلاسية هجينة ، هامت بملابسه (سموكين) وبنظرياته ،

---

(١) روكيفلر John Danjon : هو الرأسمالي اليهودي الأمريكي (١٨٣٩-١٩٣٧) ، وابنه كذلك كان له الاسم نفسه (١٨٧٤-١٩٦٠) ، وهو والد نائب رئيس الولايات المتحدة السابق .

(٢) (كباب) : هكذا في الأصل Khebab ، والقوسان من المؤلف .

كانت آنسة ضامرة هزيلة ، ذات نظرة أليمة وهي كانت تعتقد أنه إله ، أنه بوذا حيّاً ، هكذا تبدأ الديانات .

بعد مضي عدة أشهر على هذا الحب ، جاء ذات يوم يبحث عني كي أحضر زواجاً جديداً له . تركنا خلفنا ، ونحن على درّاجته النارية التي كانت تضعها تحت تصرفه شركة تجارية يخدم فيها بائع مبردات كهربائية ومراوح هوائية ، غابات ، منازل ، مزارع رز ، إلى أن وصلنا أخيراً إلى ضيعة صغيرة بأبنية من الطراز الصيني وسكان صينيين . استقبلوه بأسهم نارية وموسيقى بينما الخطيبة الصغيرة ظلت جالسة في مكانها وهي متزينة بالبدلة البيضاء كأنها صنم ، على كرسي أعلى من كراسي الأخريات ، على وقع الموسيقى تناولنا المشروبات المرطبة من كل نوع . (بويرس) وعروسه ما تبادلا كلمة واحدة .

عدنا إلى المدينة ، شرح لي (بويرس) أنه في هذه الملة ، حسب شرعها ، الخطيبة هي وحدها من يتزوج . وأن الاحتفالات ستستمر دون حاجة إلى أن يكون العريس موجوداً ، وأنه في وقت لاحق سيعود ليعيشا معاً .

- أفتدري أنك بهذا تمارس تعدد الزوجات؟ سألته .

- إن زوجتي الأخرى تعرف هذا وستكون سعيدة جداً وراضية؟ - أجاب .

كان في تأكيده هذا كثير من الحقيقة مثلما هو الأمر عليه . في برتقالة كل يوم . حين وصلنا إلى بيته ، بيت زوجه الأولى ، وجدناها ، أعني الخلاسية الأليمة ، تحشرج وكأسها من السم موضوعة على المائدة الصغيرة قرب سريرها ، وقرب الكأس رسالة وداع . كان جسدها الأسمر ، عارياً تماماً ، هامداً تحت كلّتها . دام احتضارها عدة ساعات .

لقد صاحبت (بويرس) على الرغم من أني شعرت بالأسف لهذا الأمر مشمئزاً ، لأنه كان يتألم بشكل واضح . لقد حطمه الاستهتار الذي كان يحمله في داخله . ذهبت معه إلى الاحتفال الجنائزي . على ضفة نهر وضعنا التابوت[1] الرخيص فوق تل عال من الحطب . أشعل (بويرس) النار في العيدان بعود ثقاب ، وهو يتمتم بالسانسكريتي جملاً طقوسية .

كان بضعة من العازفين وهم يرتدون بروداً بلون مائل إلى البرتقالي ، يرتلون أو

---

(١) التابوت : هكذا في الأصل El ataud ، عن العربية .

ينفثون في آلات جد حزينة . انطفأت النار في الحطب وهي في منتصف استنفادها للعيدان ، فكان لا بد من تجديد الجذوة بعود ثقاب ، كان النهر يجري داخل مجراه غير مبال ولا مهتم . كانت السماء الزرقاء الخالدة ؛ سماء الشرق ، تبدي جموداً مطلقاً ، سكوناً سرمدياً نحو تلك الجنازة الحزينة الموحشة ، جنازة مهجورة مسكينة .

لم تكن حياتي الرسمية تشتغل إلا مرة واحدة كل ثلاثة أشهر . فلقد كان عليّ حين يصل مركب إلى «كالكوتا» وهو ينقل زيت القطران (برفين) الصلب وأسفاطاً كبيرة من الشاي إلى تشيلي ، أن اختم وأوقع وثائق وأوراقاً بسرعة محمومة . من بعد تمر ثلاثة أشهر أخرى من البطالة والعطالة ، من التأمل الصوفي في أسواق ومعابد . هذه هي أكثر فترة أليمة في شعري .

لقد كان الشارع هو ديني ومعبودي . الشارع البيرماني ، المدينة الصينية بمسارحها في الهواء الطلق وتنانينها المصنوعة (جمع تنِّين) من الورق ، وفوانيسها الرائعة . الشارع الهندي ، هو أكثرها تواضعاً ، بمعابده التي كانت أماكن تجارة لهذه الطائفة أو لتلك ، والناس المساكين الفقراء الساجدين على الوحل وخارجها . إن الأسواق حيث أوراق الـ«بيتيل»[1] ترتفع في أهرامات خضراء مثل جبال من دهنج . حوانيت الطيور ، أماكن لبيع الوحوش والطيور المتوحشة . الشوارع الملتفة المتجعدة حيث تعبر النساء البيرمانيات الرجراجات وفي ثغورهن لفافة تبغ طويلة . كان كل هذا يستولي عليّ ، يمتصني ثم يروح يغرقني في رقية الحياة الواقعية .

إن الطوائف جعلت سكان الهند يُصنَّفون كما لو كانوا في مدرج أروقة يعلو بعضها بعضاً وهذا المدرج متوازي السطوح ، في أعلاه تجلس الآلهة ، كان الإنجليز من جهتهم لهم مدرجهم من الأجناس يبدأ من المستخدمين الصغار في الحوانيت ، يمر بأصحاب المهن والمثقفين ، يأتي إلى المستوردين ويتوج بسطح هذا المركب الذي يجلس فيه براحة تامة أرستوقراطيو الخدمة المدنية وأصحاب بنوك الإمبراطورية .

ما كان لهذين العالمين أن يتماسّا . فلم يكن أبناء البلاد الأصليون يستطيعون الدخول إلى الأماكن المخصصة للإنجليز . وكان الإنجليز يعيشون بعيدين عن نبض البلاد . لقد جلبت لي هذه الوضعية صعوبات ومشاكل ، ذات مرة شاهدني أصدقائي البريطانيون وأنا أركب عربة تسمى «غاهري» Gharry وهي عربة مختصة بمواعيد

---

(١) بيتيل : هو نبات يشبه ثمرة الفليفلة ، ولأوراقه طعم كطعم النعناع .

الغرام المؤقتة المتدحرجة حيث يمارس الحب على عجل . لفتوا نظري بشكل لطيف قائلين إن قنصلاً مثلي أنا يجب عليه ألا يستعمل هذه العربات مهما كان السبب ، كذلك أسرّوا لي أشياء وقالوا إنه يجب عليّ ألا أجلس في مطعم فارسي ، وهو مكان مليء بالحياة ، كنت فيه أتناول أحسن شاي بالعالم في طاسات[1] صغيرة شفافة . كانت هاتان النصيحتان آخر ما قالوه لي من عتاب ونصيحة ، من بعد لم يعودوا يسلمون عليّ أبداً ولا يردون لي تحية ألبتة .

شعرت أني سعيد بهذه المقاطعة . لم يكن أولئك الأوروبيون ذوو الأفكار المسبقة والعقد النفسية يهمونني في شيء إذ إنهم لم يكونوا مهمين حتى نقول . . . وفي نهاية الأمر ، أنا ما جئت إلى الشرق كي أتعايش ومستعمرين عابرين ، بل جئت كي أحيا مع روح ذاك العالم القديمة ، مع تلك الأسرة الإنسانية الكبيرة التعيسة . لقد تغلغلت في روح هؤلاء الناس وحياتهم جداً إلى درجة أني عشقت هناك واحدة من بنات البلد . كانت تلبس مثل إنجليزية واسمها الفني الشارعي كان هو (خوسيه بليس) ، لكن في العلاقات الحميمة ببيتها الذي شاركتها السكن فيه ما إن تعرفت عليها وعشقتها ، حتى كانت تنزع عنها تلك الملابس وذلك الاسم وتستعمل ثوبها الباهر «سارونغ» واسمها البيرماني العميق الخفي .

«تانغو[2] الأرامل»:

لقد كانت لي صعوبات في حياتي العاطفية الخاصة . إذ إن هذه الفتاة الحلوة (خوسه بليس) راحت تكثف حبها لي وتتأجج عاطفة إلى أن أصيبت بداء الغيرة . ولربما ، لولا هذا السبب ، كنت قضيت حياتي معها إلى الأبد . كنت أهيم بأقدامها العارية ، كنت أغرم بالزهور البيضاء التي كانت تتألق في شعرها الغامق . لكن مزاجها الحاد كان يقودها إلى حالة من النوبة الهمجية . كانت تغار وتنفر من الرسائل التي تصلني من بعيد ، تخبيء البرقيات التي تصلني دون أن تفتحها ، كانت تنظر في حقد إلى الهواء الذي أستنشقه .

أحايين كان يوقظني شبح يتحرك خلف الكِلّة ، وإذ بها هي ، بثوبها الأبيض ،

---

(١) طاسات : هكذا في الأصل Tazas ، عن العربية .

(٢) تانغو : اسم رقصة .

تسن لي سكينها الطويلة الحادة ، أو تتنزه حول سريري حائرة تهمّ بقتلي ولا يطاوعها قلبها . «حين تموت ستنتهي مخاوفي» كانت تقول لي . في اليوم التالي كانت تؤدي طقوساً غريبة كي تهبها الجن ضماناً عن وفائي .

لا بد أنها قاتلتي يوماً ما . لحسن حظي ، تلقيت رسالة رسمية بانتقالي إلى «سيلان» . لقد حضّرت سفري سراً ثم خرجت من البيت صباح ذات يوم كما هي عادتي ، طبعاً تركت ملابسي وكتبي ، وصعدت إلى الباخرة التي ستقلني إلى مكان بعيد .

لقد هجرتها ، هجرت هذا النمر الأرقط المدعو (خوسه بليس) ، والألم يمضني والحزن يضنيني . ما إن شرعت الباخرة بالاهتزاز في أمواج خليج «بينغالا» حتى جلست أكتب قصيدة «تانغو الأرمل» ، وهي قطعة مأساوية من شعري ، موجهة إلى المرأة التي فقدتها وفقدتني لأن في دمها بركان الكوليرا يزفر ، يفرقع ، يقرقر من غير هوادة ولا استراحة . فيا لها من ليلة جد كبيرة ويا لها من أرض جد وحيدة .

(الأفيون)

. . . كانت ثمة شوارع برمتها عاكفة على الأفيون . . . جالسين على منصات وعتبات يمتد المكيفون المدخنون فوقها . . . إنها لمعابد الهند الحقيقية . . . فلا سجاجيد ولا وسائد من حرير ولا بذخ ولا أبهة . . . بل ألواح خشبية بلا لون ، غلايين من خيزران ، وسائد من فخّار صيني . . . تطفو في الأجواء سكينة ورصانة وصرامة ما عهدتها المعابد . . . الرجال صرعى خاشعون بلا حراك ولا صراخ ولا عياط . . . تناولت غليوناً فنشقته . . . ليس بشيء . . . ما هو إلا دخان قاتم بارد فاتر لزج لزوجة اللبن . . . دخنت أربعة غلايين ، مكثت خمسة أيام مريضاً ، غثيان إثر غثيان ، يأتيني من البصلة النخاعية ، من الشوكة الظهرية ، ينزل عليّ من المخ من النخاع من الدماغ . . . كراهية للشمس ، حقد على الوجود . . . عقاب الأفيون . . . ما كان لهذا أن يكون خاتمة المطاف . . . فلطالما كُتب عن هذا السم المقدس الشهير ، ولشد ما قيل عنه ، وكثيراً ما قلبت الحقائب ونفضت المحافظ في مخافر الحدود الجمركية وفي المطارات بحثاً عنه علّ هذا السم يُقتنص أو يمسك به قبل أن يطير . . . كان لا بد لي من أن أهزم القرف ، أغلب التقزز ، أقهر الاشمئزاز . . . كان لا بد لي من معرفة الأفيون معرفة حقاً ، من أن أسبر غوره ، أكشف سره ، أعرف أمره ، أفضح لغزه ، كي

أعطي شهادتي وأدلي بحكمي . . . عكفت عليه ، دخنت غلايين كثيرة ، حتى خبرت كنهه . . . ليس فيه من حلم ، ليس فيه من خيال ، ليس فيه من نوبة ، ليس فيه من حدّة . . . كل ما فيه وهن ، كل ما فيه ضعف ، كل ما فيه ارتخاء رخيم مطرب كما لو أن معزوفة موسيقية ناعمة أبدية امتدت في الزمن ، في الفضاء . . . يحس المرء أن إغماء بداخله ، إن دغلا بعروقه . . . فأية حركة مرفق أو قفا ، أي صوت مركبة بعيد ، أي تزمير ، أية جلبة شارع ، تأتي فتشكل قسماً من كل ، من لذة مريحة . . . أدركت لماذا كان بياذق الزراعة والمستخدمون المياومون والحوذيون الذين يجرجرون عربات الـ«ريشكا» كل يوم ، يخرون توّا هناك غافلين هامدين ساكنين . . . لم يكن الأفيون جنة الشاذين أو فردوس هواة اللذة والغرابة ، كما قيل لي كذباً وبهتاناً ، بل منجى المستغلين الوحيد ، مناص الفقراء الوحيد . . . لقد كان أولئك العاكفون على الأفيون جميعهم أناساً فقراء مساكين . . . لا أريكة مطرزة عندهم ولا وسادة حريرية لديهم ، لا علامة على غنى ولا إشارة عن ثروة . . . لا شيء يلمع في ذاك المكان حيث يقبع المكيفون المدخنون ولا حتى عيونهم الساهمة شبه المغمضة . . . أتراهم يستريحون ، أم تراهم يغفلون؟ . . . أبداً ما عرفت ، قط ما دريت . . . لا أحد ينطق . . . لا أحد ينبس . . . لا أحد يهمس . . . ليس ثمة من أثاث ، ليس هناك من فرش ولا أرائك . . . لا شيء غير مخدات خشبية صغيرة . . . لا شيء إلا السكون ورائحة الأفيون جباراً عتياً ، مسيطراً سائداً يبعث الاشمئزاز والنفور . . . لا شك في أن هناك طريق الإبادة ، درب الفناء . . . إن أفيون الشرفاء والأعيان والمستعمرين كان يخصص للفقراء المستعمرين . . . فلقد كان لأولئك المدخنين لافتة علقت على الباب ، تبين الترخيص بالبيع والترويج ، رقم المحل ، تاريخ الامتياز . . . وفي الداخل كان يسود سكون رهيب كئيب ، جمود خافت هامد ، عطالة تخفف التعاسة تحلي التعب . . . سكينة مظلمة ، رواسب أحلام مبتورة وجدت غديرها وماءها . . . أولئك الذين كانوا يحلمون بعيون ساهمة مغمضة بين بين ، كانوا يحيون ساعة مغمورين في لجّة البحر ، ليلة كاملة على ظهر ربوة متلذذين باستجمام رقيق ممتع . . .

بعد ذلك ما عدت إليهم . . . فلقد عرفت . . . ولقد خبرت . . . ولقد لمست . . . ولقد جسست شيئاً لا يمسك . . . لا يُحتوى . . . شيئاً خفياً قصيّاً يتلاشى في الهواء . . .

«سيلان»:

لقد كان لسيلان، أجمل جزر العالم الكبيرة، عام ١٩٢٩ الوضع الاستعماري نفسه الذي كان يسيطر في بيرمانيا والهند. كان الإنجليز يتحصنون في أحيائهم وفي نواديهم، محاطين بجمهرة غفيرة من موسيقيين، من صانعي أوان فخارية، من خياطين، من أقنان، من رهبان يرتدون الملابس الصفراء، من آلهة هائلة مصنوعة في الجبال الحجرية.

ما كنت أنا لأستطيع أن أختار بين الإنجليز الذين يرتدون «سموكين» كل ليلة، وبين الهنود الذين كانوا في أكثريتهم الغفيرة منعزلين لا أطالهم، إلا أن أعيش وحيداً. لقد كانت هذه الفترة من حياتي أكثرها وحدة ووحشة، لكنني أذكرها على أنها أكثر فترات حياتي إضاءة وبريقاً، كما لو أن إشعاعاً خارقاً حط على نافذتي كي يضيء مصيري، نوراً ينبعث من داخلي، ومن خارجي.

ذهبت لأعيش في بيت صغير، حديث البناء بضاحية «ويلويذا» إزاء البحر. كانت منطقة غير آهلة. كانت الأمواج تتكسر على الأرصفة، في الليل تنمو الموسيقى البحرية.

كانت تأسرني في كل صباح أعجوبة تلك الطبيعة المجلية الحديثة الاغتسال. منذ مطلع الشمس وأنا مع الصيادين. كانت القوارب المجهزة بعوّامات طويلة جداً تبدو كأنها عناكب بحرية. يجلب الرجال أسماكاً ذات ألوان عنيفة من قاع البحر، أسماكاً مثل عصافير الغابة الفسيحة اللامحدودة، بعضها بزرقة غامقة فصفورية لماعة مثل مخمل فاقع اللون ينبض بالحياة، بعضها على شكل كرة واخزة ناخسة، يفرغ هواؤها في الفضاء حتى يستحيل إلى كيس صغير مسكين من الشوك.

كنت أتأمل في رعب اغتيال جواهر البحر وتحفه وحليه. كانت الأسماك تُقطع فتباع إلى السكان الفقراء قطعاً قطعاً. لقد كانت مدى الذابحين تقطع هذه الأضاحي، تفتت مادة اللجّة الربانية كي تحيلها تجارة دامية.

كنت أمشي عبر الشاطئ حتى أبلغ حمّام الفيلة. ما كنت أضيع أو أخطئ دربي وقد اتخذت لي رفيقاً كلبي. كان يطلع من الماء الهادئ فطر رمادي جماد، من بعد يغدو أفاعي، من بعد يصير رؤوساً هائلة مكومة، من بعد يصبح جبالاً ذات أنياب. لا فطر في العالم له مثل هذا الفطر، لا بلد له مثل هذه الفيلة التي تعمل في الطرق. لو أراها الآن -ليس في السيرك أو في الحديقة الحيوانية تحت الدوالي- كما كنت

أراها مندهشاً وهي تعبر بحمولتها الخشبية من جانب إلى آخر، كأنها عمال مستخدمون ضخام عظام مجدّون مجتهدون.

ما كان لي من رفيق أو صديق غير كلبي ونمستي. كانت هذه النمسة الحديثة الخروج من الغابة تنام في سريري، تأكل من زادي على مائدتي، لا أحد يستطيع أن يتصور مدى حنان النمسة وحنوها. كانت حيوانتي الصغيرة تعرف كل لحظة من وجودي، كل شيء عن حياتي. تتنزه عبر أوراقي تجري خلفي كل يوم، تحشر نفسها بين كتفي ورأسي ساعة القيلولة، تنام في هذا الحلم الفزع الكهربائي الذي تتصف به الحيوانات البرية.

صارت نمستي الأليفة شهيرة في الضاحية. إن للأنماس في المعارك التي تخوضها ضد الأفاعي الأصلال لقيمة وسمعة حسنة إلى درجة تكاد تبلغ أن تكون شيئاً خرافياً. أنا أعتقد بعد أن رأيتها تتصارع كثيراً من المرات ضد الحيّات أن الدله تهزم الحية بسبب ما للدله من خفة وسرعة حركة وبسبب جلدها السميك ذي الشعر الملون بلون ملحي ولون فلفلي مختلطين وهذا يحير الزحافة. من هنا جاء الاعتقاد بأن الدله بعد خوضها المعارك ضد أعدائها السامة تخرج تبحث عن عشيبات الترياق.

إن هذا الصيت الشائع الذي اكتسبته نمستي -كانت دائماً تصحبني في تجولاتي الطويلة عبر الشاطئ- جعل أطفال الربض[1] يتوجهون ذات مساء نحو بيتي في مسيرة مهيبة. فلقد ظهرت في الشارع أفعى فظيعة فجاؤوا يستنجدون بـ«كيريا» Kiria، نمستي المشهورة، لأن انتصارها الأكيد جعلهم يستعدون لإجراء احتفال عظيم سيقومون به حال القضاء على العدو الداهم. فحملت نمستي بين ذراعيّ وتقدمت العرض العسكري ومن خلفي أتبع بالمعجبين -عصابات بأسرها من الأولاد السيلانيين، لا يلبسون إلا خرقاً بالية تغطي عوراتهم-.

الأفعى كانت نوعاً أسود مما يسمى الأفعوان المخيف أو حية «روسيل»، ذات قدرة مميتة. كانت تتشمس بين أعشاب خضراء وهي على أنبوب أبيض تبدو واضحة متميزة كأنها سوط فوق الثلوج.

توقف الأولاد بعيداً وهم، هادئون، ينتظرون، يرقبون، أنا تقدمت على الأنبوب الغليظ الكبير إلى بعد مترين من الأفعى التي كانت قبالتي، أطلقت نمستي،

---

(١) الربض: هكذا في الأصل Arrabal، عن العربية.

اشتمت الخطر من الهواء ، توجهت بخطى بطيئة نحو الأفعى ، أنا وأصحابي الصغار كتمنا أنفاسنا ، فالمعركة العظيمة على وشك البدء ، التفتت الأفعى ، رفعت رأسها ، فتحت شدقها ، صوّبت نظرتها المخدرة إلى الحييوان ، الدله استمرت تتقدم ، لكن ، ما إن أصبحت على بعد قليل من السنتميمترات من فم المسخ حتى انتبهت انتباهاً دقيقاً وتنبهت لما سيجري وإذ بها تقفز قفزة هائلة وتشرع بمسابقة سريعة جداً باتجاه عكسي تاركة خلفها الأفعى والمتفرجين الذين فوجئوا بجبن النمسة ، لم تتوقف عن جريها حتى وصلت غرفة نومي وهناك ارتاحت واطمأنت .

هكذا أضعت سمعتي الحسنة وصيتي العظيم في ضاحية «ويلواذا» منذ أكثر من ثلاثين سنة .

في هذه الأيام أحضرت لي شقيقتي دفتراً يحتوي على أشعاري الأولى ، نظمتها بين عام ١٩١٨ وعام ١٩١٩ . حين تصفحتها ابتسمت لذلك الألم الطفولي والعذاب المراهقي ، ضحكت من ذلك الشعور الذهني بالوحدة الذي يطبع كل تآليف الشبان . إن الكاتب الشاب لا يستطيع أن يكتب شيئاً دون هذه الرهبة من الوحدة ولو كان كل ذلك وهمياً ذهنياً فرضياً ، كما أن الكاتب الكهل الناضج لا يستطيع أن يعمل شيئاً من غير طعم المصاحبة الإنسانية ، طعم المجتمع .

الوحدة الحقيقية عرفتها في تلكم الأيام والأعوام بـ«ويلواذا» ، لقد نمت خلال ذلك الزمن كله على سرير مثل هذه الأسرّة التي يستعملها الجنود أو متسلقو الجبال . ما كان يصحبني في بيتي غير طاولة وكرسيين وعملي وكلبي ونمستي والغلام الذي كان يخدمني ويعود إلى ضيعته في الليل . هذا الرجل لم يكن ليبلغ ما نسميه مصاحبة لأن شرطه كخادم شرقي كان يفرض عليه أن يكون أكثر صمتاً من ظل ، كان يسمى أو أنه ما زال يسمى (برامبي) Brampy لم أكن أضطر إلى أن أطلب منه أي شيء أو آمره بأي شيء ، إذ إن كل شيء كان معداً جاهزاً ، دائماً ، طعامي على المائدة ، ملابسه نظيفة مكوية ، زجاجة الويسكي على الشرفة ، كان يبدو وكأنه قد نسي الكلام ، ما كان يعرف إلا أن يبتسم بأسنان كبيرة .

لم تكن الوحدة في هذه الوضعية موضوعاً لابتهال أدبي وروحي شعري فحسب بل كانت كالجدار ؛ كجدار سجين ، تستطيع أن تضرب رأسك به وتكسره دون أن يخف لنجدتك أحد ، تصيح وتبكي وما من مجير .

لقد كنت أدرك أنه كان هناك عبر الهواء الأزرق ، في الرمل المذهب ، أبعد من

الغابة التي كنت أتردد عليها ، أبعد من الأفاعي والفيلة التي كنت أشاهدها ، مئات الآلاف من البشر الذين يغنون ويعملون إزاء الماء وفي البحر ، يصنعون ناراً ، يصوغون جراراً ، وأن هناك نساء كذلك ملتهبات ينمن عاريات فوق الحصر وعلى الأرض تحت ضوء النجمعات الرائعات . لكن ، كيف أقترب من هذا العالم الخافق دون أن يعتبروني عدواً يتجسسهم ويتجسس عليهم؟

رحت أتعرّف خطوة فخطوة على الجزيرة العظيمة . ذات ليلة عبرت كل أحياء «كولمبو» المعتمة المظلمة كي أحضر وليمة عشاء . كان ينطلق من دار معتمة صوت طفل أو امرأة تغني . أمرت الحوذي أن يقف . فاكتسحتني حين اقتربت من الباب الفقير ، هبّة أريج عطر ، أريج «سيلان» الذي لا يخطئه الإنسان ، مزيج من الياسمين[1] والعرق وزيت الجوز الهندي ، والمغنوليا . فدعاني أصحاب البيت أن أدخل على الرحب والسعة ، كانت وجوههم غامقة اللون مصهورة بالحر وشذى الليل ، قعدت هادئاً ساكناً على الحصيرة المفروشة ، بينما كان يرنم في العتمة من إحدى الزوايا المظلمة ذلك الصوت الإنساني الساحر الذي جعلني أتوقف فأطرق باباً لا أعرف أصحابه ، صوت طفل أو امرأة ، مرتعش باك ، صوت يصعد ، يصعد إلى ما لست أدري ، يخفت فجأة ، يتطامن ، يهبط حتى يغدو معتماً كالدياجير ، صوت يتّحد والعنبر ، يلتف في توريقات رسوم عربية (أرابيسكو) ، يسقط على حين غرة بكل ثقله الشفاف كما لو أن فوّارة من ماء لمست السماء كي تنعتق لتوها فتنهار بين أزهار الياسمين .

لقد أمضيت هناك وقتاً طويلاً ، ساكناً جماداً تحت رقية الطنبور وسحر ذلك الصوت ، من بعد تابعت طريقي ، ثملا من لغز شعور لا يفسر ، من نغم سره كان يخرج من كل الأرض ، أرض رنانة منغمة ، ملفوفة بالظل ، محفوفة بالشذى .

كان الإنجليز قد جلسوا على المائدة ، لابسين أسود وأبيض .

-سامحوني ، فلقد توقفت في الطريق كي أستمع إلى موسيقى- قلت لهم .

هم ، وقد عاشوا خمسة وعشرين عاماً في «سيلان» ، تفاجأوا بشكل أنيق ، موسيقى؟ أفلأبناء هذا البلد موسيقى؟

ما كانوا يدرون بهذا ، كان بالنسبة لهم ، الخبر الأول حول هذا الموضوع .

لم يكن لهذا الانفصام الرهيب بين المستعمرين الإنجليز والعالم الآسيوي الفسيح

---

(١) الياسمين : هكذا في الأصل Jazmin ، عن العربية .

الرحب حد ولا نهاية . وكان يعني دائماً انعزالاً لا إنسانياً ، جهلاً كاملاً بقيم أولئك الناس وحياتهم .

كانت هناك بعض الاستثناءات في الاستعمار ، تحققت من ذلك في وقت لاحق . لقد عشق أحد الإنجليز عشقاً جنونياً فتاة هندية أصيلة ، كان هذا الإنجليزي يعمل في «نادي الخدمات» فعزل من منصبه ، حالاً وعزل عن أبناء وطنه وكأنه أجذم . حدث كذلك في ذلك الوقت أن المستعمرين أمروا بحرق كوخ فلاح سيلاني بقصد إخلائه والاستيلاء على ملكية الأرض ، كان الإنجليزي الذي يجب عليه تنفيذ الأوامر بإحراق الكوخ موظفاً بسيطاً يسمى (لونرد وولف) ، لكنه رفض أن يطيع فخلع من منصبه وعاد إلى إنجلترا . كتب هناك كتاباً من أحس ما كُتب حول الشرق (Avillage in The Jungle) هو مؤلَّف أنموذجي في الحياة الحقيقية ، في الأدب الواقعي . لكن هذا المؤلَّف أفحم كثيراً أو قليلاً بشهرة زوجة (وولف) التي هي (فيرجينيا وولف)[١] ، كاتبة عظيمة وأصيلة ذات شهرة عالمية كبيرة فغطت بشهرتها على شهرة زوجها ، فما لاقى هذا الكتاب الشهرة التي يستحقها .

شيئاً فشيئاً أخذت تتحطم القشرة الصلبة وبدأت باكتساب أصدقاء قليلين ولكنهم جيدون . اكتشفت في الوقت نفسه الشبان الغاطسين في الثقافة الاستعمارية الذين ما كانوا يتكلمون إلا عن آخر كتاب ظهر في بريطانيا . وجدت أن عازف البيانو المصور السينمائي الناقد (ليونيل وينديت) هو مركز الحياة الثقافية التي كانت تعج بالمناقشة والمجادلة بين كتاب الامبراطورية مع ميل لعكس قيم «سيلان» البكر .

إن (ليونيل وينديت) هذا الذي كان يملك مكتبة كبيرة ويستلم أواخر الكتب الصادرة في إنجلترا ، كانت له عادة غريبة وجيدة في الوقت نفسه ، ألا وهي أنه كان يرسل لي إلى داري البعيدة عن المدينة رجلاً يركب درّاجة ومعه كيس مليء بالكتب والمجلات كل أسبوع . وهكذا خلال تلك الأوقات كنت أقرأ الكثير من الكيلومترات من الروايات الإنجليزية ، من بينها «ليدي تشارلي» في طبعتها الأولى الخاصة المنشورة في «فلورنسا» . إن مؤلفات (لورانس Lawrance)[٢] أدهشتني بسبب أسلوبها الشعري وبسبب ما له من مغناطيسية حيوية أكيدة موجهة إلى العلاقات الخبيئة بين أبناء

---

(١) فيرجينيا وولف : الكاتبة الإنجليزية الشهيرة (١٨٨٢-١٩٤١) .

(٢) لورانس (D.H.) : روائي إنجليزي (١٨٨٥-١٩٣٠) .

الوجود . لكن بعد مدة وجيزة انتبهت إلى أنه ، على الرغم من عبقريته ، كان خائباً فاسداً كما هم عليه الكثير من الكتاب الإنجليز الكبار ، بسبب رغبته التربوية ونزعته التعليمية . إن السيد (د .هـ . لورانس) يجلس على كرسي الأستذة في التربية الجنسية التي ليس لها إلا ما ندر من العلاقة مع تعلمنا الفطري الطبيعي للحياة وللحب وللجنس . انتهيت منه مالاً بشكل نهائي ، سئما تماماً دون أن يقلّ إعجابي ببحثه الصوفي - الجنسي المعذب الذي كان أكثر ألماً كلما كان أكثر عديم جدوى وغير مفيد .

أذكر من بين أشياء «سيلان» ، عملية صيد الفيلة الضخمة .

كانت الفيلة قد تكاثرت بإفراط في ناحية معينة من تلك المنطقة وكانت تغير على المنازل والمزارع فتؤذيها ، فراح الفلاحون -بالنيران والجامر وأنغام «تام - تام» - يجمعون القطعان الوحشية من هذه الفيلة ويدفعونها نحو ركن من الغابة ، واستمروا على هذا المنوال أكثر من شهر على طول نهر كبير يخترق الغابة ، ليل نهار والجامر في أيديهم وهم يرددون «تام - تام» وهذا على ما يبدو كان يخيف الفيلة ويقلقها فأخذت هذه الوحوش الكبيرة تتحرك مثل نهر بطيء نحو الشمال الغربي من الجزيرة .

ذات يوم وقد هُيِّئ الـ«كرال» El Kraal والحواجز كانت تسد قسماً من الغابة ، رأيت في ممر ضيق ، أول فيل دخل ، وما إن دخل حتى شعر بأنه محاط فلم يعد يستطيع التراجع . ثم تقدمت المئات وعبرت في هذا الممر الضيق المسدود . لم يستطع هذا القطيع المؤلف من حوالي خمسمائة فيل لا أن يتقدم ولا أن يتقهقر .

توجهت فحول الفيلة الأكثر قدرة وهمة نحو الحواجز لتحطمها ، لكن خلف هذه الحواجز كان الفلاحون يكمنون فرشقوها بسهام عديدة أوقفتها عن زحفها . عند ذلك قررت الفيلة التراجع إلى مركز ذلك المكان المسور بالحواجز والرجال لحماية الإناث والصغار . لقد كان دفاعهم وتنظيمهم مؤثرين في نفسي جداً . كانت الفيلة تطلق نداء مقلقاً ، نوعاً من الصهيل أو الحنين ، وهي من يأسها كانت تجتث الأشجار من جذرها الأكثر وهناً وضعفاً .

ثم ، دخل مروّضان يمتطيان صهوتي فيلين أليفين كبيرين . كان هذ الزوج الأليف من الفيلة يعمل وكأنه شرطة رخيصة سخيفة . كان هذان الشرطيان يتمركزان على جانبي الحيوان السجين ثم يضربانه بخرطوميهما حتى تهن قواه إلى درجة لا يقدر بعدها على التحرك ، إذّاك يأتي الصيادون فيربطون رجلاً من رجليه الخلفيتين بحبال سميكة متينة إلى جذع شجرة متينة قوية . وهكذا فقد أخضع الفيلة واحداً فواحداً .

يرفض الفيل السجين الغذاء لعدة أيام . لكن الصيادين يعرفون نقطة الضعف فيه . يتركونه يصوم زمناً ما ، ثم يحضرون له براعم ونوى من شجيراته المفضلة ، من هذه الأشجار التي كان يبحث عنها ، حين كان حراً طليقاً ، في رحلات طويلة عبر الغابة . وفي النهاية يقرر الفيل أكل هذه المغريات وإذ به يغدو حيواناً أليفاً ويبدأ بتعلم أعماله المرهقة وحمل أثقاله المضنية .

الحياة في «كولومبو»:

لم يكن يبدو في «كولمبو» أي إرهاص لثورة أو تمرد . كان الجو السياسي مختلفاً عما هو عليه في الهند . فلقد كان كل شيء غارقاً في سكينة جائرة مزعجة . كان هذا البلد يعطي للإنجليز أفضل أنواع الشاي الناعم الرفيع في العالم .

كان هذا البلد مقسماً إلى نواح أو مقاصير يعلو بعضها بعضاً . تأتي ، بعد الإنجليز الذين كانوا يشغلون قمة الهرم ويعيشون في منازل كبيرة ذات حدائق واسعة فسيحة ، طبقة متوسطة شبيهة بالطبقة المتوسطة في أمريكا الجنوبية . كان أفراد هذه الطبقة يدعون أو ما زالوا يسمون «البورجوازيين» ، وهم ينحدرون من «البوير» القدماء ، أولئك المستعمرين الهولانديين في أفريقيا الجنوبية الذين نفوا إلى «سيلان» خلال الحرب الاستعمارية التي جرت في القرن الماضي .

تحت هذه الطبقة تأتي طبقة السكان البوذيين والمحمديين[1] من السيلانيين وهذه الطبقة مؤلفة من ملايين كثيرة ، وتحت هذه الطبقة تأتي طبقة أخرى في أسوأ شروط عمل وأقل أجرة وهي كذلك كانت تعد ملايين من المهاجرين الهنود جاؤوا من جنوب الهند وهم يتكلمون «تاميل» وديانتهم هي «الهندوسية» .

كان في ما يسمى «بالعالم الاجتماعي» الذي كان يقيم احتفالاته في نوادي «كولمبو» الجميلة ، زعيمان يتنازعان الميدان ، أحدهما نبيل فرنسي مزيّف اسمه (الكونت ماوني) الذي كان له مريدوه وأتباعه ، والآخر بولوني أنيق مستهتر ، صديقي (وينزر) الذي كان يبدي آراءه في مجالس محدودة . هذا الرجل كان عبقرياً بشكل ظاهر واضح ، مستهتراً بشكل مبالغ ، عالماً بكل ما في الكون ، مهنته كانت غريبة عجيبة : «محافظ الكنز الثقافي والأثري» ، وما كنت أدري بهذا إلى أن اصطحبته مرة

---

(١) المحمديون : هكذا في الأصل Mahometanos ، يعني بهم المسلمين .

في جولة من جولاته الرسمية .

ما كان صديقي (وينزر) يؤدي مهنته بشكل سيء ، بل كان يذهب إلى الأديرة النائية ، وبرضى من الرهبان البوذيين كان ينقل إلى سيارة شحن صغيرة رسمية أعمال النحت الرائعة من حجر ألفي ، ثم ينتهي مصير هذه التحف النحتية في متاحف إنجلترا . كان هؤلاء الرهبان المرتدون برودا بلون زعفراني ، حين يترك لهم (وينزر) كتعويض عن تحفهم القديمة ، دمى سيئة الصنع من «سليوليود» ياباني تمثل (بوذا) ، يفرحون جداً وينظرون إلى هذه التماثيل الصغيرة التافهة بإجلال وتقديس ويضعونها في المذابح نفسها ، حيث كانت تبتسم خلال قرون وقرون تلك التماثيل اليصيبة والغرانيتية التي تنقل إلى انجلترا .

لقد كان صديقي (وينزر) نتاجاً ممتازاً للامبراطورية ، أي ، كان رجلاً وغداً أنيقاً .

جاء شيء ليعكر لي تلك الأيام التي كانت تستهلكها الشمس وتستنفدها . حبيبتي البيرمانية العاصفة (خوسه بليس) تمركزت تجاه بيتي . جاءت من بلدها البعيد تحمل معها كيساً من الرز -كما لو أنه لا رز إلا في «رانغون»- أسطواناتها المفضلة لـ(باول روبيسون) سجادة طويلة مطوية . عكفت على مراقبتي من الباب المواجه لبابي ، من بعد شنت السب والشتم ضد كل من كان يزورني ، بدافع من غيرتها الشرهة ومن توجسها المسيطر عليها ، وكانت تهدد بإحراق بيتي دائماً . أذكر أنها أغارت وسلاحها سكين ، على فتاة حلوة أورو آسيوية جاءت لتزورني .

اعتبرت الشرطة الاستعمارية أن وجودها يشكل بؤرة فوضى في هدوء ذلك الشارع ، وقالوا لي بأنهم سوف يطردونها من البلاد إن لم أتول شأنها أنا وآخذها إلى بيتي . عانيت عدة أيام ، حائراً متذبذباً بين الحنان الذي يوحي لي به حبها التعيس ، وبين الرهبة التي كنت أشعر بها إذ إنني لم أكن أدعها تضع رجلاً في بيتي خوفاً منها وحذراً ، فقد كانت إرهابية غرامية قادرة على كل شيء .

أخيراً قررت ذات يوم الرحيل ، رجتني أن أصطحبها حتى الباخرة . عندما كانت الباخرة على وشك الإقلاع وكان عليّ أن أغادرها ، انطلقت هي من بين مرافقيها في السفر فانكبّت عليّ تملأ وجهي بالدموع وهي تقبلني في رباط[1] من الحب والألم .

---

(١) رباط : هكذا في الأصل Arrebato ، وكانت تعني باللهجة الأندلسية العربية ، إغارة وهي تعني بالإسبانية ، هيجان ، اعتداد ، نوبة ، الخ .

كما في طقس من الطقوس كانت تقبل لي ذراعيّ، يديّ، بدلتي، ثم هوت على حذائي تقبله دون أن أستطيع أن أتجنب ذلك، حين نهضت من جديد كان وجهها مغبراً ملطخاً بحوّار حذائي الأبيض. لم أستطع أن أقول لها أن تدع السفر وأن تغادر معي الباخرة التي كانت ستبعدها عني إلى الأبد. لقد كان العقل يمنعني من ذلك، لكن قلبي تفطر لها وما زال فيه ندب ما التأم ولم يبرأ منه حتى الآن. لم تزل في ذاكرتي ذكريات ذلك الألم المضطرب العنيف الحاد وتلك الدموع الرهيبة المنحدرة على الوجه المغبر الحزين.

كنت قد انتهيت تقريباً من كتابة الجزء الأول من ديواني «إقامة في الأرض»، غير أني كنت أكتب في بطء. لقد كنت منفصلاً عن عالمي بسبب البعد والسكون وكنت عاجزاً عن الدخول في العالم الغريب الذي يحيط بي.

كان ديواني يلتقط كفصول طبيعية نتائج حياتي الراسبة في الفراغ: «أقرب إلى الدم منها إلى المداد»[1] لكن أسلوبي أصبح أكثر صرفاً وأشد نقاوة وأعطيت نفسي أجنحة في تكرار كآبة محتدمة. أصررت على الحقيقة والبلاغة (لأن طحين الحقيقة والبلاغة يصنع خبز الشعر) في أسلوب مر ألحّ بشكل إصراري نظامي على تهديمي الذاتي، ليس الأسلوب هو الإنسان فحسب بل هو أيضاً ما يحيط به، فإذا الجو لم ينفذ إلى داخل القصيدة فإن القصيدة تكون ميتة، ميتة لأنها لم تستطع التنفس.

أبداً ما قرأت في عذوبة ولذة ونهم وكثرة كما في تلك الضاحية من «كولومبو» التي عشت فيها زمناً طويلاً. من حين إلى حين كنت أرجع إلى (رامبو)، إلى (كيبيدو)[2]، إلى (بروست)[3]. إن مقطوعة «عبر طريق سوان» أعادتني إلى الحياة، جعلتني أعيش من جديد عواصف مراهقتي وحبها وغيرتها. وأدركت أنه في تلك المقطوعة لقطعة «فينتويل» الموسيقية، مقطوعة موسيقية نعتها (بروست) بأنها «نسيمية وأليمة»، ليس يذاق الوصف الأكثر لذة للأنغام المؤثرة فحسب، بل كذلك مدى العاطفة اليائس.

لقد كانت مشكلتي في تلك الوحدة الممضة هي إيجاد هذه الموسيقى والعثور

---

(١) بيت شعر من قصيدة في الديوان.

(٢) كيبيدو: كاتب وشاعر إسباني مشهور (١٥٨٠-١٦٤٥).

(٣) بروست (مارسيل): الروائي الفرنسي المعروف، مؤلف الزمن الضائع (١٨٧١-١٩٢٢).

عليها ، لاستماعها . بحثت بمساعدة صديقي الموسيقي والعالم بالموسيقى إلى أن عرفت أن «فينتويل (بروست)» ألّفها ، ربما ، (شوبرت)[١] و(فاغنر Wagner)[٢] ، و(سينت-سينس)[٣] ، و(فوري Faure)[٤] ، و(ثيسار فرانك Cessar Frank)[٥] ، و(سيندي Cindy)[٦] . لقد بقيت تربيتي الموسيقية السيئة الشنيعة جاهلة بكل هؤلاء الموسيقيين تقريباً ، وظلت أعمالهم العظيمة مثل صناديق غائبة أو مغلقة . لم يستطع سمعي أن يميز حتى أكثر الألحان وضوحاً ، وإن ميز ذلك فبصعوبة بالغة وبمساعدة أحد أصدقائي .

توصلت أخيراً وأنا أستقصي استقصاء أكثر أدبياً منه موسيقياً إلى الحصول على مجمع (البوم) بثلاث اسطوانات من عزف موسيقي على البيانو والكمال لـ(ثيسار فرانك) . لم يكن ثمة مجال للشك بأن في هذه الاسطوانات كانت مقطوعة (فينتويل) ، ليس في هذا شك ألبتّة .

إن شغفي ما كان إلا أدبياً . لقد توقف (بروست) ، وهو في رأيي أعظم أديب واقعي شعري ، في تأريخه النقدي لمجتمع يحتضر كان يحبه ويمقته في الوقت نفسه ، في مسرة عاطفية ، عند أعمال كثيرة من الفن ، من اللوحات ، من الكاتدرائيات ، من الفنانات الممثلات ، من الكتب . لكنه أعاد ، مع أنه كان يضيء كل ما كان يلمسه ، سحر هذه القطعة الموسيقية وعبارتها المنبعثة من جديد في حدة ما أظنه وهبها لقطع وصفية أخرى . لقد قادتني كلماته إلى أن أعيش من جديد حياتي الذاتية ، مشاعري البعيدة الضائعة في داخل نفسي ذاتها ، في غيبوبتي نفسها . أحببت أن أرى في المقطوعة الموسيقية مقال (بروست) الأدبي الساحر أخذت محمولاً على أجنحة الموسيقى .

إن المقطوعة تختبئ في خطورة الظل ، تنطلق ، تبلغ باحتضارها درجة الخطر ثم

---

(١) شوبرت (فرانز) : الموسيقي النمساوي الشهير (١٧٩٧-١٨٢٨) .

(٢) فاغنر (ريتشارد) : الموسيقي الألماني المعروف (١٨١٣-١٨٨٣) .

(٣) سينت-سينس (كميل) : موسيقي فرنسي (١٨٣٥-١٩٢١) .

(٤) فاوري (غابربيل) : موسيقي فرنسي (١٨٤٥-١٩٢٤) .

(٥) ثيسار فرانك : موسيقي فرنسي (١٨٢٢-١٨٩٠) .

(٦) سيندي (Vicente) : موسيقي فرنسي (١٨٥١-١٩٣١) .

تطيل هذا الاحتضار . تبدو وكأنها تبني احتباس أنفاسها مثل العمارة «القوطية» التي تكرر الحلى المعمارية فيها ، مدفوعة بالنغم الذي يعلو بلا هوادة ، المربعات نفسها .

إن المادة المولودة من الألم تبحث عن مخرج لها منتصر ، لا ينكر وهو في القمة أصل هذه المادة التي أمضّها الألم وعنّفها الحزن . يبدو هذا المخرج وكأنه يتلوى وينعقف في شكل حلزوني مؤثر ، بينما البيانو الشاحب الغامق يصحب مرة بعد أخرى الموت وانبعاث اللحن . إن أحشاء البيانو الظليلة تلد طلقاً إثر طلق هذا الوليد الحلزوني الأفعواني إلى أن يندغم الحب والألم في الانتصار المحتضر .

لم يكن ثمة شك ، بالنسبة لي ، في أن هذه هي القطعة الموسيقية المنشودة .

كان هذا الظل المباغت يسقط مثل قبضة اليد فوق داري الضائعة بين أشجار الجوز الهندي في «فيلا واذا» ، لكن هذه القطعة الموسيقية كانت كل ليلة تعيش معي ، تقودني ، تلفني ، تهبني حزنها الدائم الخالد ، كآبتها المنتصرة .

لما ير النقاد الذين طالما نكلوا بمؤلفاتي حتى الآن هذا التأثير السحري الذي أعترف به هنا . لأني هناك في «فيلا واذا» كتبت قسماً كبيراً من ديواني «مقام في الأرض» . مع أن شعري ليس هو «شذياً ولا نسيمياً» بل هو أرضي في شكل حزين ، فإنه يبدو لي أن مواضيع قصائدي التي ترتدي لباس الحداد في هذا الديوان لها علاقة وشيجة بالذاتية الباطنية البلاغية لتلك الموسيقى التي تعايشت وإياي هناك .

حين عدت إلى تشيلي بعد عدة أعوام تلاقيت في ندوة أدبية مع ثلاثة من الموسيقيين الشبان كانوا أعظم موسيقيي تشيلي ، جرى ذلك ، في ما أظن عام ١٩٣٢ ، في بيت (مارتا برونيت) . كان (كلاوديو أرّاو Claudio Arrau)[(١)] يتحدث على حدة مع (دومينغو سانتا كروث) و(أرماندو كارباخال) ، فاقتربت منهم ، فما أعاروني انتباهاً أو التفاتاً ، بل مضوا في حديثهم الصافي الهادىء عن الموسيقى والموسيقيين ، حاولت أن ألمح بالتكلم عن تلك القطعة الموسيقية الوحيدة التي كنت أعرفها .

نظروا إليّ بشكل ذاهل ثم قالوا لي في تكبر :

- (ثيسار فرانك) ، لماذا (ثيسار فرانك)؟ إن الذي عليك أن تعرفه هو (فيردي) .

ثم تابعوا حديثهم بعد أن قبروني في جهلي الذي لما أخرج منه حتى الآن .

---

(١) كلاوديو اراو : عازف بيانو تشيلي ولد عام ١٩٠٣ .

سينغابور:

الحقيقة هي أن الوحدة التي كنت أشعر بها في «كولمبو» لم تكن ثقيلة خانقة فحسب بل كانت كذلك كابوساً سباتياً. لم يكن لي إلا القليل من الأصدقاء في ذلك الشويرع الذي كنت أسكن فيه. كانت تمر بسريري ذي الطراز العسكري صديقات من مختلف الألوان دون أن يدعن فيه ذكرى البرق الجسدي. لقد كان جسدي مجمرة متوقدة متوحدة ليل نهار في ذلك الشاطئ المداري. كانت تجيء صديقتي (باستي)، على الدوام، بمجموعة من صديقاتها: صبايا سمراوات ومذهبات، ذوات دماء مختلفة؛ دم «بويري»، دم إنجليزي، ومن مشتقات الله وأصنافه، كنّ جميعهن يضطجعن معي بشكل رياضي وغير مصلحي.

لقد باحت لي إحداهن بزيارة قامت بها إلى «شوميرييس» Chummeries وهو اسم المنازل التي كان يعيش فيها مجموعات من الشبان الإنجليز، من مستخدمي المحلات والشركات، يعيشون معاً كي يقتصدوا في الملابس والأغذية على شكل مشاعة صغيرة. حكت لي هذه الفتاة بشكل طبيعي ودون شعور بالابتذال أو بالبذاءة أنه في إحدى المناسبات ضاجعها أربعة عشر رجلاً منهم.

- وكيف فعلت ذلك؟ سألتها.

- كنت المرأة الوحيدة بينهم تلك الليلة، وكانوا يحتفلون بشيء ما. وضعوا الحاكي وأنا أخذت أرقص مع كل واحد منهم بضع خطوات ثم أثناء الرقص كنا نضيع في غرفة النوم، هكذا أرضيتهم جميعاً واحداً إثر واحد.

لم تكن هذه الفتاة بغياً محترفة بل كانت بالأحرى نتاجاً استعمارياً، فاكهة ساذجة ومعطاء، حكايتها هذه أثرت بي جداً ولكنها ما أثّرت على علاقاتي بها فقد ظللت أكن لها المحبة والاستلطاف.

لقد كان منزلي المتوحد المنعزل بعيداً عن المساكن الأخرى كلها. حين استأجرته حاولت أن أعرف أين يقع المرحاض منه، إذ إنه ما كان يُرى ولا في أية ناحية من هذا المنزل، من بعد اكتشفت أنه في عمق المكان وراء الحمّام.

بدافع من حب الاستطلاع تفحصته وإذ به صندوق من الخشب وفي وسطه فتحة، كان لهذا المرحاض شبه غريب بذاك الذي عرفته في طفولتي الفلاحية، في بلدي، غير أن مراحيضنا تلك كانت تتركز فوق بئر عميقة أو فوق مجرى مائي، بينما مرحاضي هذا ليس له من مستودع إلا سطل معدني بسيط يقع تحت تلك الفتحة المدورة.

كان السطل هذا يصحو مع الشروق نظيفاً كل يوم دون أن أدري كيف كان يتخلص من مضمونه وأين يختفي هذا المضمون. صباح ذات يوم نهضت من فراشي في وقت أبكر مما كانت عليه عادتي في النهوض، فدهشت حين رأيت ما كان يجري.

كانت هناك امرأة تسير نحو هذا المرحاض كأنها تمثال غريب يمشي، امرأة ما رأيت مثلها في الحسن بسيلان من قبل قط، من جنس «تاميل» ومن طائفة «باريا» Paria[1]، كانت ترتدي «ساري» Sari أحمر ومذهب من قماش خشن جداً، وفي قدميها الحافيتين كانت تضع خلاخيل[2]، على كل جانب من أنفها كانت هناك خرزتان صغيرتان حمراوان تلتمعان، قد تكونان بلورتين عاديتين، لكن عليها كانتا تبدوان وكأنهما جوهرتان.

توجهت بخطى جليلة وقورة نحو المرحاض، دون أن تلتفت إليّ أو تعيرني انتباهاً وكأنها لا تشعر بوجودي ثم اختفت والإناء القذر فوق رأسها مبتعدة بخطوها الربّاني.

لقد كانت جد جميلة إلى درجة أنني بقيت مشغول البال مضطرباً. كأنها غزال نفور أتى من الأدغال وهو ينتمي إلى عالم آخر، إلى وجود آخر، إلى عالم منفصل لا يمت بصلة إلى عالمي. ناديتها فلم تجب، ذات مرة تركت لها في طريقها هدية: حريراً، مرة أخرى فاكهة، مرة أخرى عطراً، كانت تمر ولا تدري بي ولا تنظر إلى هداياي. لقد تحول طريق مسيرها وعملها البائس إلى احتفال إجباري بملكة غير مبالية، كنت أنا المحتفل وهي الملكة الأنوف بما لها من جمال وحسن.

ذات صباح وقد قررت ما قررت وعزمت أن أغامر، أخذتها بقوة من معصمها وجذبتها إليّ ونظرت إليها وجهاً لوجه وما وجدت لغة أكلمها بها، فانصاعت وتأودت فَقدتها، دون أن تبدو على شفتيها أية ابتسامة، وعرّيتها دون أن تبدي حراكاً، أملتها على السرير فمالت، أنمتها فنامت، كان خصرها النحيل جداً، الضامر جداً، كانت أردافها المكتنزة جداً، الممتلئة جداً، كان نهداها الطافحان جداً، الواثبان جداً، تجعلها تبدو وكأنها تحفة ألفية من تحف جنوب الهند وتماثيلها. وكان اللقاء لقاء رجل بصنمه. مكثت الوقت كله وعيناها ساهمتان مفتوحتان، كانت جماداً بلا حراك.

---

(١) باريا: هي طائفة من البراهمة، محرومة من الحقوق الإنسانية والمدنية.

(٢) خلاخيل: في الأصل Ajorcas، وهي مأخوذة من الكلمة العربية الشركة.

لقد أحسنت صنعاً باحتقاري وازدرائي ، والتجربة ما تكررت من بعد .

لقد كلفني جهداً أن أقرأ البرقية التي وصلتني ، وزارة الخارجية تعلمني بنقلي إلى مكان جديد . فقد نقلت من قنصل في «كولمبو» إلى قنصل في «سينغابور» و«باتافيا» أي المهمة ذاتها والعمل نفسه ، ولكن هذا المنصب الجديد يرفعني من دائرة الفقر الأولى إلى دائرة الفقر الثانية . كان لي الحق بكولمبو في أن أحجز لنفسي من المبالغ التي تكسبها القنصلية ، مرتّبي (إن توفر في هذه المبالغ) وقدره مائة وستة وستون دولاراً وستة وستون سنتيما . الآن بعد أن أصبحت قنصلاً في مستعمرتين معاً فإني سوف أستطيع أن آخذ مبلغاً قدره ثلاثمائة وثلاثة وثلاثون دولاراً واثنان وثلاثون سنتيما (إن توفر في صندوق القنصلية) وهذا يعني أنني ، عما قريب ، سوف أدع النوم على السرير العسكري ، طموحي المادي ما كان مفرطاً وما كنت أطمع بأكثر من هذا .

لكن ، ماذا سأفعل بـ(كرينا) نمستي؟ أأهديها إلى أولاد الحي الذين لم يعودوا يكنون لها الاحترام اللازم بعد أن فقدوا إيمانهم بقدرتها على مقارعة الأفاعي؟ لا ، لا أبداً ، فإنهم لن يعتنوا بها ولن يدعوها تأكل معهم على المائدة كما كنت قد عوّدتها على ذلك ، بل إنهم سيفلتونها في الغابة لترجع إلى وضعها البدائي الحيواني ، فهي من غير شك فقدت غرائزها الدفاعية وأصبحت أليفة وهناك في الغابة ستلتهمها الطيور الجارحة أو الزاحفة دون سابق إنذار أو أعذار . من جهة أخرى ، كيف أحملها معي؟ إنهم في الباخرة لن يقبلوا بمثل هذا المسافر الغريب من نوعه .

قررت حينذاك أن أصطحب معي في السفر (برامبيBrampy) خادمي السيلاني ، كان ذلك مصروفاً باهظاً لا يتحمله إلا مليونير وكذلك كان جنوناً ، لأننا سنذهب إلى قطرين وهما ماليزيا وأندونيسيا ، يجهل خادمي (برامبي) لغتيهما . لكن النمسة تستطيع السفر خفية في داخل سفط نضعه على ظهر الباخرة تحت جسرها وهناك يرقد خادمي قربها فهي تعرفه وتطمئن إليه فتظل خبيئة دون أن يراها أحد ، لكن المشكلة كانت الجمارك فلعلهم ينقبون في السفط ويرونها ، لكن خادمي (برامبي) الماكر تكفّل بخداع رجال الجمارك .

وهكذا ، بحزن ، بفرح ، بنمسة ، تركنا جزيرة سيلان قاصدين عالماً آخر لا نعرفه .

قد يكون من الصعب على الآخرين أن يفهموا لماذا كان لتشيلي هذا العدد

الكثير من القناصل المبعثرة في أنحاء العالم كله . إنه فعلاً لغريب أن جمهورية صغيرة منزوية قرب القطب الجنوبي ترسل ممثلين رسميين إلى أرخبيلات ، سواحل ، أرصفة[1] في الجانب الآخر من الكرة الأرضية .

في عمق الأمر -أشرح أنا وهذا رأيي الخاص- أن هذه القناصل كانت نتاج الوهم وإعطاء الأهمية للذات والتركيز عليها ، وهذا ما نتميز به نحن الأمريكيين الجنوبيين عادة . من ناحية أخرى كنت قد قلت في مجال آخر إنه من هذه الأماكن النائية جداً كانت تشحن إلى تشيلي ، قنب هندي ، زيت القطران الصلب (بارفينا) لصنع الشموع وبخاصة شاي ، شاي كثير جداً ، إذ إننا نحن التشيليين نتناول الشاي أربع مرات في اليوم ، ولا نستطيع زرعه في بلادنا . لقد أضرب مرة عمال ملح البارود إضراباً هائلاً محتجين على نقص هذه المادة الغذائية الغريبة جداً . أذكر أن أحد المصدرين الإنجليز سألني في إحدى المناسبات بعد أن سقاني ما سقاني من الويسكي ، عما نفعل نحن التشيليين بمثل هذه الكميات الهائلة من الشاي .

-نتناولها- قلت له .

(لقد كان يظن أنه سأبوح له بسر استغلاله صناعياً ليعرف هذه الصناعة وينقلها إلى بلده ، تأسفت لتخييبي آماله) .

لقد كان للقنصلية التشيلية في سينغابور عشر سنوات من الوجود . نزلت من الباخرة بالثقة التي كانت تعطينها الثلاث والعشرون سنة من العمر ، دوماً بصحبة خادمي (برمبي) وغستي (كرينا) . توجهنا مباشرة إلى فندق «رافليس» . هناك أمرت بغسل ملابسي التي لم تكن بالقليلة ، ومن بعد جلست على شرفة الغرفة ، تمددت في كسل على كرسي مريح هزاز وطلبت كأساً ، كأسين ، ثلاث كؤوس من «الجن» .

كل شيء كان Sommerst Maufham[2] جداً ، إلى أن خطر لي البحث في دليل الهاتف عن مقر قنصليتي ، فلم تكن مسجلة هذه القنصلية في الدليل ، يا للشياطين! طلبت أن يصلوني حالاً بمركز الحكومة الإنجليزية هنا ، أجابوني بعد طول استشارة وبحث أنه ليس ثمة قنصلية تشيلية . سألتهم عما إذا كانوا يعرفون أي شيء

---

(١) أرصفة : هكذا في الأصل Arrecifes ، وهي في الإسبانية تعني الهوادي أو الصخور تحت الماء أو الحيود البحرية . عن العربية .

(٢) لا نحاول ترجمة التعابير الواردة بلغة غير اللغة الإسبانية .

عن القنصل السيد (مانسيا) فأجابوني بالنفي المطلق .

شعرت بالانزعاج والضيق إذ لم يكن معي من المال ما يكفي لدفع أجرة تلك الليلة في الفندق وتكاليف غسل ملابسي . فكرت في أن مقر القنصلية لا بد أن يكون في «باتافيا» ، ولذلك فإني قررت المضي في السفر على ظهر الباخرة نفسها التي أحضرتني إلى هنا وكانت ما تزال راسية في المرفأ على وشك الإقلاع نحو «باتافيا» . أمرت بإخراج ملابسي من الغلاية حيث كانت تنتقع ، صنع (برامبي) منها حزمة بليلة وانطلقنا مسرعين نحو رصيف الميناء .

كانوا قد رفعوا سلم الصعود إلى ظهر السفينة . صعدت درجات السلم لاهثا . نظر إليّ رفاق سفري السابقون المستمرون في رحلتهم وضباط الباخرة مستغربين مندهشين . حشرت نفسي في الغرفة نفسها التي كنت قد تركتها صباحاً ثم تمددت على ظهري في السرير وأغمضت عينيّ فيما كانت الباخرة تبتعد عن الميناء المشؤوم .

لقد تعرفت في الباخرة على فتاة يهودية ، تدعى (كروزي) شقراء ، سمينة شيئاً ما ، ذات عينين طافحتين بالفرح ولونهما برتقالي . قالت لي إن لها منصباً جيداً في «باتافيا» ، اقتربت منها في الحفلة الأخيرة للرحلة البحرية . بين كأس وكأس كانت تجرني إلى الرقص وأنا كنت أتبعها بشكل غبي في تلك الالتواءات البطيئة التي كان الرقص عليها في تلكم الأوقات . في هذه الليلة الأخيرة قررنا أن نمارس الحب في غرفتي بشكل ودّي ، عارفين بأن مصيرينا التقيا صدفة ولمرة واحدة . حكيت لها عن خيبة آمالي وفشلي فأشفقت عليّ ورقت لي في نعومة بالغة فوصل حنانها إلى قلبي وتغلغل في روحي .

اعترفت لي (كروزي) من جهتها بالعمل الحقيقي الذي كان ينتظرها في «باتافيا» . كان ثمة منظمة فلنَدعها دوليّة ، كانت مهمتها هي أن تشبك فتيات أوروبيات في أسرّة آسيويين معتبرين ذوي مناصب أو ألقاب مهمة . بالنسبة لها فقد كانوا أعطوها الحق في الاختيار بين «مهراجا» أو أمير من سيام أو تاجر صيني غني فقررت اختيار هذا الأخير ، لكونه شاباً وديعاً .

حين هبطنا إلى اليابسة ، في اليوم التالي ، لمحت سيارة «رويل رويز» وجانباً من وجه صاحبها الصيني ، العين الغني الذي كان يجلس في الخلف وذلك من خلال ستائر حريرية مزهرة على نوافذ السيارة . ثم اختفت (كروزي) بين الناس والعفش والبضائع .

أنا نزلت في فندق «دير نيديرلاند» ، كنت أستعد للغداء حين رأيت (كروزي) تدخل ثم ارتمت بين ذراعيّ مختنقة بالبكاء .

– إنهم يطردونني من هنا ، يجب علي أن أرحل غدا .

– لكن ، من هم هؤلاء الذين يطردونك ، ولماذا يطردونك؟ .

حكت لي بشكل متقطع عن خيبتها وعن الضرر الذي لحق بها ، قالت إنها كانت على وشك الصعود إلى السيارة الفخمة حين جاء رجال شرطة الهجرة فاعتقلوها كي يخضعوها إلى تحقيق قاس ، لم تجد بدا من الاعتراف بكل شيء . اعتبر المسؤولون الهولانديون أن نيتها في العيش مع رجل صيني على شكل تسرّ هي جناية خطيرة . أطلقوا في النهاية سراحها شريطة ألا تزور عشيقها هذا وشريطة أن تركب ، لترحل في اليوم التالي ، الباخرة نفسها التي وصلت بها والتي كانت ستقلع لتعود إلى الغرب .

إن ما كان يحزّ في نفسها هو أنها خيبت آمال ذاك الرجل الذي كان ينتظرها ، لم يكن بعيداً عن التأثير في شعورها هذا إغراء تلك السيارة الفخمة . لكن (كروزي) في أعماقها كانت عاطفية جداً . كان في دموعها شيء أكثر من مصلحة خابت ، أكبر من إغراء مادي : كانت تشعر بأنها أهينت وأنها جُرحت في كرامتها .

– هل تعرفين عنوانه ، أليس عندك رقم هاتفه؟ سألتها .

– بلى –أجابتني– لكنني أخاف أن يعتقلوني فلقد هددوني بالسجن في زنزانة .

– لن تخسري شيئاً ، اذهبي كي تري هذا الرجل الذي قد فكر فيك دون أن يعرفك ، فأنت تدينين له على الأقل ببضع كلمات تشرحين بها له الأمر . ماذا يهمك بعد من رجال الشرطة؟ دعيهم وشأنهم . اذهبي وانظري صينيّك ، خذي احتياطاتك واهزئي ممن أهانوك وستشعرين أنك انتقمت وبهذا تخرجين من البلد وأنت أكثر رضى وأحسن حالاً .

لقد عادت تلك الليلة صديقتي في وقت متأخر . فقد ذهبت ورأت المعجب بها عن طريق المراسلة ، فقصت عليّ تفاصيل المقابلة التي جرت بينهما . الرجل هو شرقي متفرنس ومثقف ، يتلكم الفرنسية بشكل طبيعي ، متزوج على طريقة الشرفاء الصينيين وهو يملّ من زوجه وحياته كثيراً .

كان هذا الخطيب الأصفر قد جهز لخطيبته البيضاء التي جاءته من الغرب منزلاً بحديقة فسيحة ، تشبيكات على النوافذ ضد الذباب والناموس ، أثاثاً من طراز لويس

الرابع عشر ، سريراً كبيراً ذا كلّة حريرية وضع تحت التجربة تلك الليلة . أخذ صاحب الدار هذا يُريها التحف الصغيرة التي أعدها وهيأها : الشوَك ، السكاكين الفضية (هو لا يأكل إلا بالعيدان) ، المشروبات الأوروبية ، الثلاجة المكومة بالفواكه وأشياء أخرى .

من بعد توقف إزاء صندوق كبير مغلق بشكل محكم ، أخرج مفتاحاً صغيراً من جيب سرواله ، فتح ذلك الصندوق وأرى عيني (كروزي) أعجب كنز في الكنوز ، مئات من الكلاسين النسائية ، سراويل قصيرة ناعمة الملمس ، كلسات ضئيلة الحجم . مشدات خاصة بالحريم بالمئات بل بالآلاف كانت تتوج ذلك الكنز المطهّر بالشذى والمعطر بأريج الصندل . هناك اجتمعت أنواع الحرير كلها ، الألوان جميعها ، فالسلسلة كانت تندرج من البنفسجي إلى الأصفر ، من الألوان الوردية المختلفة إلى الألوان الخضراء السحرية ، من الألوان الحمراء العنيفة إلى الألوان السوداء البهية ، من الألوان السماوية الكهربائية إلى الألوان البيضاء الشفافة الرفرافة . جمع هذا الوثني قوس قزح الشهوة الذكرية كله في سبيل إرضاء لذته الشهوانية الغريبة .

- لقد بهرت وسحرت - قالت لي (كروزي) ثم غرقت بالبكاء والنحيب - تناولت أنا هكذا على غير قبضة من هذه المشدات وها هي الآن معي - أردفت قائلة .

لقد شعرت أنا كذلك بالتأثر واستهواني هذا السر الإنساني . هذا الصيني التاجر الجدّي الحازم المستورد أو المصدر يصنف ويجمع كلاسين ومشدات نسائية كما لو كان هاوي فراشات يتابعها ويصطادها ، كيف هذا ومن يفكر في مثل هذا؟

- دعي لي واحداً من هذه الكلاسين - قلت لصديقتي .

هي اختارت واحداً أبيض أخضر وداعبته بنعومة وحنان قبل أن تعطينيه .

أهديه لي واكتبي لي عليه شيئاً ، يا (كروزي) ، من فضلك .

إذّاك هي مطته بعناية تامة وكتبت اسمي واسمها على سطح الحرير الذي بلّلته كذلك بالدموع .

في اليوم التالي انطلقت راحلة دون أن أراها وما عدت فرأيتها من بعد أبداً . كلسونها الخفيف الرقيق الشفاف وإهداؤها عليه ودموعها فيه مشت مع حقائبي ، مختلطة بملابسي وكتبي خلال سنين كثيرة . لا أعرف متى وكيف إحدى زائراتي المستغلات خرجت من داري وقد لبسته فطار معها .

«باتافيا»:

في تلكم الأزمان، حين لم تكن توجد بعد الفنادق الضخمة كان نزل «نيديرلاند» شيئاً خارقاً للعادة. كان له بهو مركزي كبير مخصص لقاعة الطعام وللمكاتب، وشقة لكل مقيم نازل تفصلها عن الأخرى حديقة صغيرة وأشجار قديرة عظيمة، وفي قمم هذه الأشجار كانت تستوطن عصافير لا حصر لها، سناجب غشائية تطير من غصن إلى آخر، حشرات تصر وتصرف كما في الغابة. كان خادمي (برامبي) منصرفاً إلى عمله في الاعتناء بالنمسة التي كانت كل يوم أكثر قلقاً وأشد حزناً في منزلها الجديد هذا.

هنا، نعم، كان ثمة ما يسمى بقنصلية تشيلي، على الأقل كانت مذكورة في دليل الهواتف. في اليوم التالي بعد أن غدوت أحسن حالاً وأنق ملبساً توجهت شطر مكاتبها. كان الشعار القنصلي لتشيلي معلقاً في صدر بناء كبير، وعلى واجهة محل كتب عليه كذلك ما يدل على أنه مقر شركة للسفريات البحرية. قادني أحد الأشخاص العديدين الذين كانوا هناك إلى مكتب المدير، وهو رجل هولاندي ضخم الهيئة عظيم الجثة ملون الوجه والبشرة، لا تبدو عليه علائم مدير شركة بل له ملامح عتال ميناء.

- أنا القنصل الجديد لتشيلي هنا -قدمت نفسي- إني لأبدأ بإجزال الشكر إليكم على خدماتكم الجليلة العظيمة، راجياً أن تطلعوني على مجريات الأمور المهمة في القنصلية، إذ إنني أرغب بتولي مهام منصبي تواً.

- ليس من قنصل هنا سواي- أجاب حانقاً هائجاً.

- وكيف ذا؟

- ابدأوا بأن تدفعوا لي ما أنتم مدينون به- صرخ.

قد يعرف هذا الرجل عن الإبحار الشيء الكثير، لكن اللياقة لم يكن يعرفها ولا في أية لغة. كان يهرس الجمل يدعسها ويقضم بعضّات غاضبة السيجار الثقيل الذي كان يذعف الهواء في ما حوله.

لم يدع لي هذا الممسوس المتخبط فرصة كي أقاطعه في أثناء كلامه المتدفق. إن شعوره بالإهانة والسيجار كانا يسببان له هجومات من السعال مدوية صخابة حين لا تسببان له تفاً ونفاً وغرغرة. أخيراً استطعت أن أحشر جملة في محاولة للدفاع عن نفسي:

- أيها السيد، أنا لا أدين لك بشيء وليس عليّ أن أدفع لك شيئاً، إني لأعرف أن حضرتك قنصل Ad Honorem أي فخري، فإن كان هذا أمراً قابلاً للنقاش في رأيك فإنني لا أجد ما يمكن إصلاحه بهذا الصراخ الذي لست على استعداد للقبول به مطلقاً.

في وقت لاحق تأكدت من أن هذا الثخين الهولاندي كان لديه بعض من الحق. فلقد كان هذا الرجل ضحية لنصب واحتيال حقيقيين ما كنت أنا، طبعاً ولا حكومة تشيلي بمسؤولين عما لحقه من إجحاف وظلم. لقد كان (مانسيا) هذه الشخصية الماكرة الملتوية، هو من كان يهيج حنق الهولاندي وغضبه. فلقد بدأت أعرف أن (مانسيا) هذا لم يقم على رأس عمله في «باتافيا» أبداً، بل كان يعيش في باري منذ زمن طويل، وكان قد اتفق مع هذا الهولاندي كي يقوم بمهامه القنصلية بدلاً منه، وأن يرسل إليه الأوراق والعوائد المالية لقاء مرتب شهري، غير أنه لم يدفع له هذا المبلغ قط. ومن هنا شعور الهولاندي بالإهانة والظلم، ومن هنا غضب الهولاندي الأرضي[1] الذي تداعى فوق رأسي كتداعي طنف الحائط.

في اليوم التالي شعرت بأني مريض جداً؛ حمّى خبيثة، زكام، ضنك، وحدة ونزيف، حر وعرق. كانت الأنف تنزف مني دماً مثلما في طفولتي بتيموكو، تحت برد تيموكو.

توجهت بعد أن بذلت جهداً قوياً، جهد من يريد أن يحيا، إلى قصر الحكومة حيث كان يقع في منطقة «بويتنزور» Buitenzor داخل حديقة أشجار رائعة فسيحة. أبعد البيروقراطيون بصعوبة عيونهم الزرق عن أوراقهم البيض وزووا ما بين عيونهم ثم أخرجوا أقلاماً كانت كذلك تترشح مثلي وكتبوا اسمي ببعض قطرات من عرق.

خرجت أكثر مرضاً مما دخلت. مشيت عبر النهج إلى أن جلست تحت فيء شجرة هائلة. كل شيء هنا كان منعشاً صحياً طازجاً حياً، الحياة تتنفس هادئة قديرة. تكشف الأشجار السامقة الهيفاء عن سيقانها الصقيلة الملساء لجُينيّة البدن، كثيفة الفرع، إزائي، أمامي، ورائي، كان يبلغ علوها مائة متر أو أكثر. قرأت الصفائح المطلية بالميناء حيث تصنف الأشجار فصائل فصائل من أشجار الكافور، لم أكن أعرفها من قبل. تنزلت من العلو الهائل موجة من الشذى الرطب فتنسمت ملء

---

(١) الهولاندي الأرضي: إشارة وتمييزاً للهولاندي البحري وأسطورته المعروفة.

رئتيّ ، تساقطت عليّ موجة من الأريج الزكي فأفعمت قلبي . تلك الشجرة الامبراطورة بين الأشجار رقّت لحالي فأرسلت إليّ من روحها نفحة عطر أعادت إليّ روحي وشفتني .

أو لربما كانت شفائي جلالة الحديقة الخضراء ، تناغم الأوراق ، تلون الثمار ، تصالب الخطوط ، السحليات التي كانت تنفجر مثل نجمات بحر بين أوراق النبات ، العمق البحري لذلك الحرش الغابي ، صراخ الببّغاوات ، عياط القرود . كل هذا أعاد لي الثقة في مصيري ، أرجع لي الفرح بالحياة التي كانت تُطفأ فيّ مثل شمعة استهلكت فنفذت .

عدت إلى النزل وقد استعدت أنفاسي . جلست في شرفة شقتي ومعي أوراق للكتابة ونمستي فوق الطاولة الصغيرة جالسة ، وقررت إرسال برقية إلى حكومة تشيلي . كان ينقصني المداد . ناديت على نادل في النزل وطلبت منه بالإنجليزية حبراً Ink كي يحضر لي محبرة . لم يبد عليه أنه فهمني بل اقتصر على النداء إلى نادل آخر كان يرتدي بدلة بيضاء مثله وكان حافياً جداً مثله كي يساعده على تفسير رغباتي المبهمة اللغز . لم يكن هناك ما يمكن عمله إذ إنني حين كنت أقول :Ink وأحرك قلمي وأنا أغمسه في محبرة خيالية وهمية كي يفهموا قصدي كان الغلمان السبعة أو الثمانية الذي خفّوا لمساعدة الأول على حل هذا المعضل ، يكررون إيقاع مناورتي بأقلام يخرجونها من جيوبهم وينادون في حدة واندفاع(ink, ink) ميّتين ضحكاً . كان هذا الذي أقوم به من حركات يبدو لهم على أنه طقس من الطقوس الجديدة يريدون تعلمه وإتقانه . بعد أن يئست انطلقت إلى الشقة المجاورة وأنا أتبع بسلسلة طويلة من الخدم المرتدين البياض ، الحفاة الأقدام ، وتناولت من على طاولة وحيدة منزوية محبرة كانت هناك بأعجوبة فأشهرتها أمام عيونهم المندهشة وصرخت بهم :

– هذا ، هذا This This .

عند ذلك ابتسموا وقالوا في إيقاع واحد :

حبر ، حبر Tinta! Tinta! .

وهكذا عرفت أن الحبر كما هو في الإسبانية يقال له بلغة «ملايو» (Tinta) .

لقد حانت اللحظة التي أعيد فيها إليّ الحق بأن أتمركز قنصلياً . كانت ثروتي المتنازع عليها هي : خاتم مع ممحاة متآكلة منقرضة منقضمة ، قطعة قماش مغموسة

بالمداد كي أحبر الخاتم ، بعض ملفات ووثائق تحتوي على الجمل والباقي . كان الباقي قد راح ليتوقف في جيوب ذاك القنصل الغشاش الذي كان يعمل من باريس في هذه القنصلية . سلمني الهولاندي الذي استهزىء به أعواماً كثيرة الحزمة التافهة ، دون أن يدع علك سيجاره ، في ابتسامة باردة ، ابتسامة «مستدون»[1] خائب الأمل .

من حين إلى حين كنت أوقِّع على وصولات قنصلية وأضع عليها الخاتم الرسمي المتضعضع . وهكذا أخذت تردني الدولارات التي كانت تحوّل إلى العملة الوطنية «غولديرس» Gulders فتكفي بشكل مضغوط لدعم وجودي : المبيت والتغذية لي ، راتب خادمي ، العناية بنمستي (كيريا) التي كانت تنمو بشكل واضح جلي وتأكل ثلاث بيضات وأحياناً أربع بيضات في اليوم ، بالإضافة إلى هذا فقد كان عليّ أن أشتري سموكين Smoking أبيض و«فراك» Frac والتزمت أن أدفع الثمن على أقساط شهرية . كنت أجلس أحياناً ، وحيداً دوماً ، في المقاهي الغاصة بالناس في الهواء الطلق ، إزاء القنوات العريضة كي أشرب بيرة أو «جن» فعدت من جديد لأحيا حياة هادئة يائسة .

إن وجبة مطعم الفندق كانت جليلة . كانت تدخل إلى قاعة الطعام مسيرة مؤلفة من عشرة خدام إلى خمسة عشر خادماً أحياناً ، ثم يروحون يستعرضون أنفسهم أمام كل واحد من نزلاء الفندق وقصعاتهم مرفوعة على أكفّهم التي تعلو وتهبط ، وكل قصعة مقسمة إلى أوعية ، وفي كل وعاء يلمع طعام لذيذ غريب . فوق قاعدة من الرز كانت تلك المأكولات اللانهائية تشيد دعائمها . كنت أنا ، وأنا رجل أكول ولزمن طويل غير مغذّى ، أختار شيئاً من كل قصعة من هذه القصعات ، من كل خادم من الخمسة عشر خادماً أو الثمانية عشر ، حتى يصبح طبقي جبلاً حيث الأسماك الغريبة ، حيث البيضات المعماة ، حيث الخضراوات غير المتوقعة ، حيث الفراخ غير المفسرة ، حيث اللحوم غير المألوفة ، كانت كل هذه اللذائذ تتوج قمة غدائي كما راية على قمة جبل قاعدته من رز . يقول الصينيون إن الأكل يجب أن يحتوي على ثلاث خصائص لذيذة : طعم ورائحة ولون . كانت وجبة نزلي تجمع هذه الخصال الثلاث ورابعة أخرى وهي : الوفرة .

في تلك الأيام فقدت (كيريا) : نمستي . كانت لها العادة المجازفة الخطرة وهي

---

(١) مستدون Mastodonte : فيل أثري منقرض .

متابعتي حيث أمضي بخطيواتها السريعة القصيرة . إن الذهاب خلفي كان يعني اجتياز الشوارع التي تخترقها السيارات الصغيرة والكبيرة والشاحنات وعربات «ريكيشا» التي يجرها البشر والمارة الهولانديون والصينيون والملايويون . إنه لعالم مضطرب مزدحم بالنسبة لنمسة لا تعرف في الدنيا إلا شخصين اثنين : أنا وخادمي .

لقد جرى ما لا يمكن تفاديه وكان ما خفت أن يكون . حين عدت إلى الفندق ونظرت إلى خادمي فهمت المأساة ، لم أسأله شيئاً . لكن حين جلست في الشرفة ، هي لم تقفز إلى حضني ولا أمرت ذيلها الكثيف الشعر عبر رأسي .

وضعت إعلاناً في الصحف : «نمسة ضائعة ، تستجيب لنداء (كيريا)» . ما من أحد أجاب ولا من جار رآها فدل عنها ، ربما ماتت ، لقد اختفت إلى الأبد .

شعر حارسها (برامبي) بذنب كبير إلى درجة أنه اختفى عن نظري خلال زمن طويل . كان شبحاً كان من يغسل ملابس وينظف أحذيتي . كان يخيل إلي أحياناً وكأني أسمع صراخ (كيريا) يناديني من على غصن شجرة في الليل ، أشعل النور ، أفتح النوافذ والأبواب علّها تأتيني . أتحرّى شجر الجوز الهندي ، أستقصي كل مكان ، وإذ هي ليست إياها . إن العالم الذي كانت (كيريا) تعرفه وتألفه قد استحال إلى احتيال ، انهارت ثقتها في غابة المدينة المهددة المتوعدة . لقد شعرت لزمن طويل أني مثقوب بالكآبة ، منخول بالهمّ .

قرر (برامبي) من خجله العودة إلى بلده . تأسفت لهذا كثيراً ، لكن ، في الحقيقة ، تلك النمسة كانت الشيء الوحيد الذي يجمعنا . جاء ذات مساء بغرض أن يريني البدلة الجديدة التي اشتراها كي يصل إلى قريته الأم ، حسن الهندام بهي المنظر . ظهر فجأة وهو يرتدي الأبيض ومزرزر حتى العنق . ما كان أكثر مفاجأة هي قلنسوته الهائلة كأنه رئيس الطهاة فقد كان قد ألبسها رأسه الغامق جداً ، حين بدا هكذا انفجرت في قهقهة عارمة . لم يشعر (برامبي) بالإهانة بل على العكس ابتسم لي في عذوبة شديدة بابتسامة تصفح لي جهلي وتتفهمه .

إن اسم شارع داري الجديد في «باتافيا» هو «بروبولينغو» . هذه الدار هي عبارة عن قاعة ، وغرفة نوم ومطبخ وحمّام . أبداً ما امتلكت سيارة ولكن في هذه الدار كان يوجد كراج ظل دائماً فارغاً . كان في هذه الدار الجديدة متسع يزيد على حاجتي . اتخذت طاهية من جزيرة «جاوا» ، فلاحة عجوزاً تشعر بالمساواة وتؤمن أن الناس

سواسية وكانت كذلك لطيفة جداً ، واتخذت كذلك خادماً صغيراً جاوياً أيضاً كان يخدمني في المائدة وينظف ملابسي ويمسح أحذيتي . هناك أنهيت ديواني «مقام في الأرض» .

لقد تضاعف شعوري بالوحدة ففكرت بالزواج . كنت قد تعرفت على فتاة «كريويا» ، وبالأحرى هولاندية مع قطرات دم من ملايو . كانت تعجبني جداً ، كانت امرأة طويلة وناعمة لطيفة ، غريبة كلياً عن عالم الفنون والآداب (بعد عشرين سنة ستكتب كاتبة تاريخ حياتي وصديقتي (مارغاريتا أغيرّه) عن زواجي هذا ما يلي : «لقد عاد (نيرودا) إلى تشيلي في عام ١٩٣٢ . قبل هذا بعامين تزوج في «باتافيا» بـ(ماريا انطونيته اجينار Maria Antonieta Agenar) وهي شابة هولاندية مستقرة في «جاوا» . تفتخر جداً لكونها زوجة قنصل ، ولها عن أمريكا الجنوبية فكرة غريبة جداً ، هي لا تعرف الإسبانية فتبدأ بتعلمها . لكن ليس ثمة شك في أن ما لم تتعلمه ليس اللغة فحسب . ومع كل هذا فإن انسجامها العاطفي مع (نيرودا) هو قوي جداً فدائماً يُريان معاً . إن (ماروكا) وبهذا الاسم يدعوها (بابلو) ، هي طويلة جداً ، بطيئة ، متكلفة الرصانة» .

كانت حياتي بسيطة جداً . تعرفت من بعد على أشخاص آخرين لطفاء جداً . القنصل الكوبي وزوجته كانا صديقيّ الإجباريين إذ كنا متحدين باللغة . كان هذا القنصل يتكلم بلا انقطاع ولا هوادة كأنه آلة متحركة دائماً . كان رسمياً يمثل (ماتشادو Machado)[١] طاغية كوبا ، غير أنه ، كان يحكي لي أن ثياب السجناء السياسيين ، ساعاتهم ، خواتمهم ، وأحياناً أسنانهم الذهبية كانت تظهر في بطون الأسماك الكبيرة الشرهة بخليج «هافانا» .

كان القنصل الألماني (هرتث) يعجب بالتشكيلية الحديثة La plastica ، بالخيول الزرق لـ (فرانث مارك) بالأشكال المستطيلة لـ(ويلهيلم ليهمبروك) . كان شخصاً حساساً ورومانطيكياً ، وهو يهودي ذو قرون من التراث الثقافي ، سألته ذات مرة :

– و(هتلر) هذا الذي يظهر اسمه من حين إلى حين في الصحف ، هذا الزعيم المعادي للسامية وللشيوعية ، ألا تعتقد أنه قد يصل يوماً إلى سلطة الحكم؟

– مستحيل – قال لي .

---

(١) ماتشادو Morales, Cerardo : كان رئيساً للدولة الكوبية (١٨٧١–١٩٣٩) .

- كيف تجزم بأنه مستحيل ، بينما نشاهد في التاريخ كل ما هو محال وغير معقول؟

- أنت لا تعرف ألمانيا -أدلى برأيه- ثم أردف قائلاً :

- أجل ، هناك في ألمانيا هو أمر مستحيل ، إن محرضاً مجنوناً مثل هذا (هتلر) لا يمكن له أن يحكم ، ولا حتى في ضيعة .

يا صديقي المسكين ، يا للقنصل المسكين (هيرث) ، لقد كان ينقص القليل كي يحكم ذاك المحرّض المجنون العالم كل العالم . لا بد أن (هيرث) الساذج قد انتهى في غرفة غاز مجهولة ورهيبة مع كل ثقافته وورومانطيكيته النبيلة .

الفصل الخامس
إسبانيا في القلب

كيف كان (فيديريكو Federico)[1]:

سفر طويل عبر البحر دام شهرين أعادني إلى تشيلي عام ١٩٣٢ . هناك في تشيلي نشرت ديواني «حامل المقلاع المتحمس» الذي كان مبعثراً بين أوراقي ، ونشرت كذلك ديواني «مقام في الأرض» الذي نظمته في الشرق . في عام ١٩٣٣ عينت قنصلاً لتشيلي في «بونيس أيرس» حيث وصلت في شهر آب .

لقد وصل إلى هذه المدينة في الوقت نفسه تقريباً (فيديريكو غارثيا لوركا) كي يدشن مسرحيته ، مأساة «أعراس الدم» ، ويشرف على تمثيلها الذي قامت به فرقة (لولا ميمبريبيس Lola Membrives) . لم نكن قد تعارفنا بعد فتم تعارفنا في «بونيس أيريس» . وكثيراً ما كان الأدباء والأصدقاء هناك يحتلفون بنا معاً ويكرموننا . على فكرة ، لم تنقصنا بعض الحوادث . كان لفيديركو خصوم . وكذلك كان لي أيضاً خصوم وما زال هناك لي خصوم كثيرون . هؤلاء الخصوم يشعرون بأنهم مدفوعون غريزياً كي يطفئوا النور حتى لا يُرى . وهذا ما حصل في تلك المرة . بما أنه كان هناك اهتمام عند الناس لحضور حفلة التكريم التي كان يريد إقامتها على شرفنا «نادي القلم» في فندق «بلاثا» ، فإن أحد هؤلاء الخصوم أخذ يتصل بالناس هاتفياً كل يوم ليخبرهم بأن التكريم الذي كان سيقام على شرف (لوركا) و(نيرودا) قد أُلغي . وقد بلغ بهذا الخصم أو الخصوم الحد من الصفاقة أنهم اتصلوا بمدير الفندق وعاملة الهاتف ورئيس الطهاة كي لا يشاركوا في الاحتفال ولا يعدّوا الوليمة . لكن هذه المناورة فشلت وانعقد شملنا أخيراً وحضر الاحتفال بنا مائة من الكتّاب الأرجنتينيين .

---

(١) فيديريكو غارثيا لوركا : هو الشاعر الأسباني المشهور جداً (١٨٩٨-١٩٣٦) ، ترجمنا له وعنه في كتابنا المذكور ، مختارات من الشعر الأسباني المعاصر . ونحن في صدد إعداد كتاب عن المواضيع والألفاظ العربية في أعماله .

لقد بادرنا الحضور بمفاجأة أدهشتهم . كنا حضّرنا خطاباً على التناوب «أل أليمون»[١] . أعتقد أن كثيراً من القراء لا يعرفون معنى هذه الكلمة وأنا كذلك لم أكن أعرفها ، لكن (فيديريكو) الذي كان دائماً مليئاً بالإبداعات والأملوحات والنوادر والخواطر شرح لي ذلك فقال :

«اثنان من مصارعي الثيران يصارعان في الوقت نفسه وبمعطف واحد وحيد . إن هذه الطريقة في المصارعة هي أخطر تجربة في فن مصارعة الثيران ، ولذا فقلّما تُرى في حلبات المصارعة . لا تُرى إلا مرة أو مرتين كل قرن ، ولا يمكن أن يؤديها إلا مصارعان أخَوان أو أن لهما دماً مشتركاً ، وهذا ما يسمى عندنا في أسبانيا بالمصارعة على «أليمون» . وهذا ما سنقوم به ، أنت وأنا ، في خطاب نلقيه على المحتفلين بنا» .

وهذا ما صنعناه ، وما من أحد من الحضور كان يعرف هذا الأسلوب في المصارعة أو المخاطبة . حين وقفنا لكي نشكر مدير النادي على هذا التكريم ، وقفنا معاً في الوقت نفسه كأننا مصارعا خطاب واحد . بما أن الوليمة قد قدمت على موائد صغيرة منفصلة ، بعضها يبعد عن بعض ، فإن (فيديريكو) كان في طرف وأنا في الطرف الآخر ، ولهذا فإن الناس الجالسين قربي كانوا يشدّونني من طرف سترتي معتقدين أنني على خطأ وأن المتكلم الآن هو (فيديريكو) ، والشيء ذاته جرى لفيديريكو في الطرف الآخر من القاعة . شرعنا في الوقت نفسه بالخطاب ، فقلت أنا «سيداتي» وتابع (فيديريكو) و«سادتي» وهكذا . أخذنا نتناوب وتتشابك جملنا إلى درجة أن هذه الجمل بدت وكأنها نص وحيد متناسق مترابط إلى أن ختمنا كلامنا . ذات الخطاب كان مخصصاً ومهدياً على (روبين داريّو Ruben Dario)[٢] لأننا ، (فيديريكو) وأنا ، كنا نبجل (روبين داريو) باعتباره واحداً من عظماء مبدعي اللغة الشعرية في اللغة الإسبانية ، دون أن نتهم في أننا «محدثون Modernistas»[٣] . وإليكم نص الخطاب :

---

(١) ليمون : أصل الكلمة عربي ، الليمون ، والـ«اليمون» أي على الليمون ، هو نوع من اللعب يقوم به الأطفال وهم يغنون ويرددون هذه الكلمة بالتناوب ، وهو كذلك ما يشرحه (نيرودا) والمصارعة أخذته من لعبة الأطفال هذه .

(٢) روبين داريو : هو شاعر من «نيكراغوا» بأمريكا الوسطى (١٨٦٧-١٩١٦) .

(٣) محدثون : من ينتمون إلى مذهب أدبي عرف باسم «الحداثة» Modernismo وقد انتشر هذا المذهب في إسبانيا وأمريكا اللاتينية في مطلع هذا القرن ، وكان (داريو) زعيماً لهذا المذهب .

نيرودا : سيداتي . . .
لوركا : . . . وسادتي : ثمة في فن مصارعة الثيران طريقة تدعى :
«المصارعة على «أليمون»» ، في هذه الطريقة يصارع اثنان معاً مختلساً أحدهما جسد الآخر ، آخذين بالدثار ذاته .
نيرودا : (فيديريكو) وأنا ، مربوطين بسلك كهربائي ، سوف نتناوب كي نجيبكم على هذا الاستقبال الحار .
لوركا : إنها لعادة نبيلة في مثل هذه الندوات أن الشعراء يعرضون كلمتهم الحية ، سواء أفضية كانت أم خشبية ، ويحيُّون بصوتهم الخاصِ زملاءهم وأصدقاءهم .
نيرودا : لكننا الآن سنبعث في ما بيننا رجلاً ميتاً ، نديماً أرمل ، داكناً في دياجير ميتة هي أكبر ميتة ، إنه أرمل الحياة ، ذاك الذي كان في إبانه وزمانه بعلاً ماهراً ، سنختبىء تحت ظله المتوقد ، سنكرر اسمه حتى تقفز قدرته من الفناء والنسيان .
لوركا : إننا سنروح ، بعد أن نرسل تحياتنا في حنان طائر البطريق إلى الشاعر الرقيق (أمادو بيّار Amado Villar) ، سنروح نقذف فوق هذا السماط باسم عظيم ، متأكدين أنه لا بد من أن تتكسر الأقداح ولا بد من أن تتناثر في الفضاء الشوك والسكاكين بحثاً عن العين التي طالما اشتاقت إليها وحنّت ، وأنه لا بد أن تلطخ هذا السماط ضربة من بحر . نحن سنذكر اسم شاعر أمريكا وأسبانيا : (روبين) . . .
نيرودا : (داريو) . لأنه سيداتي . . .
لوركا : وسادتي . . .
نيرودا : أين هي ، في بوينس ايريس ، ساحة (روبين داريو)؟
لوركا : أين هو تمثال (روبين داريو)؟
نيرودا : لقد كان يعشق الحدائق ، فأين هي حديقة (روبين داريو)؟
لوركا : أين هو حانوت الزهور والورود باسم (روبين داريو)؟
نيرودا : أين هي شجرة التفاح وتفاحات (روبين داريو)؟
لوركا : أين هي اليد القطعاء يد (روبين داريو)؟
نيرودا : أين؟
لوركا : إن (روبين داريو) ينام في مسقط رأسه : «نيكاراغوا» تحت أسده المرمري الفظيع مثل هذه الأسود التي يضعها الأغنياء عند أبواب منازلهم .

نيرودا : أسد مطمور في مخزن لمن أسس الأسود ، أسد بلا نجوم لمن كان يمنح النجوم!

لوركا : لقد صوّر حفيف الغابة بكلمة نعت واحدة وكان مثل (فراي لويس الغرناطي Fray Luis de Cranada)[١] رئيس لغات ، لقد صنع إشارات نجمية بالليمون ورِجل الأيل ، والرخويات المليئة بالرعب والأبدِ ؛ ووضعنا على البحر بزوارق والظلال فيَ بأبىء عيوننا ، وشاد منتزهاً هائلاً من جن[٢] فوق أكثر مساء رمادي امتلكته السماء ، وحيَّى نداً لندّ ريح الجنوب الداكنة ملء رئتيه ومدى صدره كأنه شاعر رومانطيكي ، ووضع يداً فوق تاج العمود «الكورنتي»[٣] في شك تهكمي حزين من العهود كلها .

نيرودا : إن اسمه لجدير بالذكر في اتجاهاته الجوهرية ؛ بآلام قلبه الرهيبة ، بارتيابه المتوهج ، بهبوطه إلى متاهات جهنم ، بصعوده إلى قلاع الشهرة ، بنعوته ؛ نعوت شاعر كبير ، منذ أن كان وإلى الأزل ، ولا بد من ذكره .

لوركا : لقد علّم ، كونه شاعراً إسبانياً ، قدماء المعلمين وعلّم الأطفال ، بشعور من العالمية والكرم لا نجدهما في الشعراء الحاليين ، لقد علّم (بايه-انكلان Valle Incla'n)[٤] و(خوان رامون خيمينيث) والأخوين (ماتشادو Machado)[٥] ، وكان صوته ماء وملح بارود ، في أخدود اللغة الموقرة . لم يكن للغة

---

(١) فراي لويس الغرناطي : كاتب وشاعر إسباني ولد في غرناطة (١٥٠٤-١٥٨٨) .

(٢) جن : هكذا في الأصل Gin وهي كلمة لا توجد في قاموس المجمع الملكي للغة الإسبانية ، قد تكون ما قيدناه أو خمر «الجن» المعروف أو شيئاً آخر ، وقد سألنا عنها المختصين فلم يهتدوا إلى معناها في هذا النص .

(٣) الكورنتي : نسبة إلى جزيرة «كورينتو» Corinto باليونان .

(٤) بايه-انكلان Ramon del : كاتب إسباني معروف (١٨٦٩-١٩٣٥) .

(٥) الأخوان ماتشادو : هما الشاعران الإسبانيان (مانويل Manuel) (١٨٧٤-١٩٤٧) ، و(أنطونيو An-tonio) (١٨٧٥-١٩٣٩) ، وقد ترجمنا لهما وعنهما في كتابنا المذكور ، ونحن الآن في صدد إعداد كتاب عن (أنطونيو) بتكليف من وزارة الإعلام العراقية . -قيد الطبع- .

الإسبانية منذ زمن (رودريغو كارو) إلى زمن الأخوين (أرخينسولا)[1] أو السيد (خوان ارغويخو)[2] ، أعياد كلمات ، اصطدامات حروف ، أضواء وصيغ مثلما كان لها في (روبين داريو) . لقد تنزه (داريو) من منظر (بيلاثكيث Vilazquez)[3] ، ومجمرة (غويا)[4] وكآبة (كيبيدو) حتى لون الفلاحات «المايوركيات»[5] التفاحي الخفي ، في أرض إسبانيا كما في أرضه نفسها .

نيرودا : لقد أتت به إلى تشيلي دوّامة بحر الشمال الساخن فتركه هناك البحر ، مهجوراً على الشاطىء القاسي المسنن وكان المحيط يلطمه بأزباد وأجراس ، وكانت ريح «بالبارائيسو» السوداء تملأه بملح ذي جرس ورنين ، فلنصنع هذه الليلة تمثاله بالهواء يخترقه الدخان والصوت والظروف والحياة على منوال شاعريته المخترقة بالأحلام والألحان .

لوركا : لكنني أريد أن أضع فوق هذا التمثال الهوائي دمه مثل غصن مرجان يهزه التموج ، أعصابه على نمط مطابق لباقة أشعة ، رأسه الكوكبي حيث الثلج «الغونغوري»[6] اللجيني النقي يلونه ويدبجه طيران الطيور الصداحة ، عينيه الداكنتين الساهمتين الرقراقتين بمليون دمعة ، وكذلك عيوبه . إن الرفوف قد أكلها اللفت البري ، حيث يرن القصب فارغاً من الناي ، زجاجات الكونياك فارغة من الثمالة المأساوية ، حيث ذوقه السيء اللذيذ وفضلاته المتهتكة التي تملأ بالإنسانية جمهرة أشعاره . إن المادة الخصبة لشعره العظيم تظل منتصبة صامدة خارج الأشكال والصيغ والمهاميز .

نيرودا : إننا : (فيديريكو غارثيا لوركا) ، إسبانيا ، وإيّاي ، تشيليّا ، نوجه أنظار المسؤولية في هذه الليلة الرفاقية نحو هذا الظل العظيم الذي غنى أعلى مما غنّينا

---

(١) الاخوان أرخينسولا : هما الكاتبان الإسبانيان (بارتولوميه ليوناردو) (١٥٦٢-١٦٣١) شاعر ومؤرخ ، و(لوبيرثيو ليوناردو) (١٥٥٩-١٦١٣) شاعر وكاتب مسرحي .

(٢) خوان ارغويخو : شاعر إسباني (١٥٦٧-١٦٢٣) .

(٣) بيلاثكيث : رسام إسباني شهير (١٥٩٩-١٦٦٠) .

(٤) غويا Francisco رسام إسباني معروف (١٧٤٦-١٨٢٨) .

(٥) المايوركيات : نسبة إلى جزيرة «مايوركا» وهي جزيرة إسبانية في البحر الأبيض المتوسط .

(٦) الغونغوري : نسبة إلى (غونغورا) وهو شاعر إسباني (١٥٦١-١٦٢٧) .

وحيًّى بصوته العبقري هذه الأرض الأرجنتينية التي نطأها .

لوركا : إننا ؛ (بابلو نيرودا) ، تشيليّا ، وإيّاي ، إسبانيّا ، قد توافقنا في اللغة وفي الشاعر النيكراغوي الأرجنتيني التشيلي الإسباني العظيم : (روبين دارو) .

نيرودا ولوركا : تكريماً له وتمجيداً نرفع كؤوسنا لنشرب نخبه .

أذكر أني ذات مرة ، تلقيت من (فيديريكو) دعماً مفاجئاً في مغامرة هزلية - فلكية - لقد دعانا إلى عشاء وقضاء ليلة صاحبة مليونير من هؤلاء الذين لا يمكن أن تنتج أمثالهم إلا الأرجنتين أو الولايات المتحدة . كان هذا المليونير رجلاً متمرداً عصامياً استطاع أن يجمع حظاً من المال عن طريق صحيفته الواسعة الانتشار ذات التأثير المهم في الأوساط جميعها ، كانت داره الفسيحة المحاطة بحديقة واسعة تجسد أحلام غني جديد يحب التطبيل والتزمير . المكتبة ليس فيها إلا الكتب القديمة التي كان يشتريها برقياً من المزادات التي كان يقيمها من حين إلى حين أصحاب مكتبات أوروبيون ، وهذه المكتبة بالإضافة إلى سعتها كانت طافحة عامرة . لكن ما هو أكثر فخفخة وفخامة كان سطح قاعة القراءة العظيمة هذه فقد كانت مفروشة كلها بجلود نمور رقطاء ، مخاط بعضها إلى بعض حتى تبدو وكأنها سجادة واحدة ضخمة مديدة . عرفت أن لهذا الرجل في أفريقيا وفي آسيا وفي الأمازون أشخاصاً مهمتهم هي حصد جلود النمور الأراقط والأيائل والوعول والقطط الرائعة الخلابة التي كانت تلتمع بقع من بعضها تحت قدمي في هذه المكتبة الفاخرة .

هكذا كانت الأشياء عليها في دار الشهير بـ(ناتاليو بوتانا) رأسمالي قدير مسيطر على الرأي العام في بونوس أيريس . (فيديريكو) وأنا جلسنا حول المائدة على جانبي صاحب الدار المليونير ، وجلست مقابلنا شاعرة طويلة شقراء خفيفة الظل والدم صوبت عينيها الخضراوين خلال الأكل إليّ أكثر مما صوبتهما إلى (فيديريكو) . كان هذا الأكل مؤلفاً من عجل ضخم حُمل بكامله إلى الجمر والرماد على نعش هائل ، وكان المشيعون الذين حملوه على أكتافهم هم أربعة عشر راعياً من رعاة البقر . كانت الليلة زرقاء مليئة بالنجوم بشكل غاضب نزق ، وعطر المشوي بجلده ، اختراع رفيع للأرجنتينيين ، يمتزج بنسيم السهوب ، بأشذاء البرسيم والنعناع على وشوشة آلاف الجداجد والاشراغ .

وقفنا بعد الأكل واقتربنا ، أنا و(فيديريكو) الذي كان يبتهج لكل شيء ويبتسم لكل شيء ، من الشاعرة ، ثم ابتعدنا سوية نحن الثلاثة باتجاه المسبح المضاء هناك ،

(فيديريكو) كان يسير أمامنا ولم يكن يدع الضحك والكلام ، فقد كان سعيداً وهذا طبعه وهذه عادته فلقد كانت السعادة جلده ، بشرته .

كان هناك برج عال يطل على المسبح ، وكان بياضه المتلألئ يلتمع تحت الأنوار الليلية .

صعدنا حتى أعلى مرأى في البرج .

هناك بقينا نحن الشعراء الثلاثة ذوي الأساليب المختلفة ، منفصلين عن العالم ، عين المسبح الزرقاء تبرق من تحت ، من بعيد تُسمع أنغام القيثار وأغاني الحفلة ، من فوق يكاد يمسك الليل ذو النجوم القريب الداني برؤوسنا ليغرقنا في أعماقه .

حضنتُ الفتاة الشاعرة الطويلة الذهبية فعرفت حين قبّلتها أنها امرأة مغتلمة ناضجة ومجربة . أمام دهشة (فيديريكو) انبطحنا أرضاً في ذلك المرأى ، وما إن بدأت بتعريتها من ملابسها قطعة قطعة حتى لحت فوقنا عيني (فيديريكو) مختلتين مضطربتين تنظران وهما لا تصدقان أن ما يجري ، يجري .

- ابعد عنا ، امشن اذهب من هنا ، خذ بالك من أن يصعد على الدرج أحد من الناس ، صرخت به .

بينما كانت الأضحية إلى السماء ذات النجوم وإلى (افروديت) الليلية تستهلك ، تستنقد ، هناك في أعلى البرج ، ركض (فيديريكو) فرحاً لتأدية مهمته ؛ مهمة قواد وناطور ، لكنه هرول كثيراً وكان حظه سيئاً في هذه المهمة ، فتدحرج عبر درج البرج المعتم فكان علينا أن نخف : أنا وصديقتي ، لمساعدته ولم يكن الأمر سهلاً . وظل (فيديريكو) يعرج خلال خمسة عشر يوماً .

(ميغيل ايرنانديث Miguel Hernandez)[1]:

لقد مكثت زمناً طويلاً في قنصلية تشيلي ببونس أيريس . ثم نقلت في بداية عام ١٩٣٤ إلى قنصليتنا في برشلونة بأسبانيا . كان السيد (توليو ماكييرا) هو رئيسي في عملي الجديد ، إذ إنه كان قنصلاً عاماً لتشيلي في أسبانيا . كان هذا الرجل أحسن موظف ممن عرفتهم ، تأدية لواجبه ، كان صارماً حازماً مشهوراً بأنه نفور غضوب ولكنه كان يعاملني بشكل ممتاز في طيبة وتفهم وود .

---

(١) ميغيل ايرنانديث : هو شاعر إسباني مشهور (١٩١٠-١٩٤٢) ترجمنا له وعنه في كتابنا المذكور .

لقد اكتشف السيد (توليو) بسرعة أني كنت أضرب وأطرح في صعوبات كثيرة وتعثرات جمة ، وأني ما كنت أحسن التقسيم (أبداً ما استطعت أن أتعلم هذا التقسيم اللعين) ، عند ذلك قال لي :

- (بابلو) ، يجب أن تعيش في مدريد ، هناك الشعر ، هنا في برشلونة ثمة هذه الضربات والطرحات والتقسيمات الرهيبة التي لا تحبك ، وأنا أستطيع أن أكتفي بنفسي في هذا الأمر .

حين وصلت إلى مدريد وقد غدوت في ليلة وضحاها وبفن الخفة قنصلاً لتشيلي في عاصمة إسبانيا ، تعرفت فيها على أصدقاء (فيديريكو غارثيا لوركا) و(رفائيل البرتي) جميعهم . كانوا كثيرين ، خلال بضعة أيام وإذ بي أصبح شاعراً أسبانياً آخر بين الشعراء الأسبان . طبعاً نحن الأمريكان مختلفون عن الأسبان ، اختلافاً يبرز دائماً في افتخار أو خطأ من قبل هذا الفريق أو ذاك .

كان إسبانيّو جيلي أكثر مودة وأكثر تضامناً وأكثر بهجة مما هم عليه زملائي في أمريكا اللاتينية . تأكدت في الوقت نفسه أننا نحن كنا أكثر عالمية ، أكثر تمثلاً ومعرفة للغات أخرى وثقافات أخرى . فلقد كان عدد الذين يعرفون اللغات الأجنبية من بينهم جد قليل وما كانوا يتكلمون إلا اللغة القشتالية . حين جاء (ديسنوس) و(كريفيل) إلى مدريد ، كان عليّ أن أقوم بالترجمة بينهما وبين الكتاب الأسبان .

كان أحد أصدقاء (فيديريكو) و(رفائيل) هو الشاعر الشاب (ميغيل ايرنانديث) . لقد عرفته حين جاء وهو ينتعل نعلاً مصنوعاً من خيوط القنب ويلبس سروالاً فلاحياً محاكاً من نسيج صفيق ، من أراضي بلده «أوريولية» Orihuela حيث كان فيها راعي عنز . أنا نشرت له في مجلتي «كابايو فيرده» Caballo Verde[1] أشعاره فكانت تبهرني بوميضها وبريقها وغزارتها .

كان (ميغيل) فلاحاً جداً إلى درجة أنه كانت تُشتمّ منه رائحة التراب ، له وجه من قطعة سكّر ، من كعك ، ومن بطاطا ، يُستخرج في شروشه ويقتلع مع جذوره ويظل محتفظاً بنضارته ورونق ما تحت التراب .

كان يعيش ويكتب في منزلي . لقد أثر به شعري ذو الآفاق الأمريكية والأبعاد الأخرى فراح هذا الشعر يبدله ويغيره .

---

(١) كابايو فيرده : معناها ، الحصان الأخضر .

كان يروي لي حكايا أرضية عن حيوانات وعصافير . كان هذا الكاتب الطالع من الطبيعة مثل حجر لم يُمسّ من قبل في عذرية غابية وقوة حيوية جارفة . كان يحكي لي عن مدى الروعة والتأثير والدهشة حين يضع المرء سمعه فوق بطن العنزة النائمة فيسمع جلبة الحليب الذي يصل إلى الضروع ، الحفيف السري الذي ما استطاع أحد سماعه إلا ذاك الشاعر ؛ شاعر العنز .

كان ، مرات أخرى ، يكلمني عن شدو العنادل . كان الشرق الأسباني ، موطنه ، مليئاً ببيارات البرتقال المزهرة وبالعنادل . بما أنه في بلدي لا يوجد هذا العصفور ، هذا المغني الرفيع فإن المجنون (ميجيل) أحب أن يعطيني أكثر صورة تعبيرية تشكيلية عن حيوية هذا الطائر ، فتسلق شجرة في الشارع حتى بلغ الغصن الأخير ثم أخذ يصفر ويزغرد ويغرد مثل عصافير بلده مسقط رأسه ، مثل العنادل الحبيبة إليه .

لم يكن عنده ما يعتاش به ولذلك بحثت له عن عمل . لقد كان صعباً في تلك الأوقات إيجاد عمل لشاعر في أسبانيا . في النهاية اهتم بالموضوع رجل «فيكونت» كان موظفاً عالياً في وزارة الخارجية وأجابني بأنه موافق على تعيين (ميجيل) في منصب من المناصب ، وأنه أعجب بأشعاره التي قرأها ملياً ، وأن الأمر الآن يتوقف على (ميغيل) إذ إن عليه أن يقول ما هو المنصب الذي يرغب به كي يصدروا قرار التعيين توّا . طرباً[1] قلت للشاعر :

- (ميغيل) ، ها إن لك مصيراً وحظاً . إن «الفيكونت» سيوظفك . ستصبح موظفاً عالياً . قل لي ما هو العمل الذي ترغب ان تشغله حتى يصدروا قرار تعيينك .

ميغيل أطرق مفكراً . تغطى وجهه ذو التجعيدات الكثيرة المبكرة عن موسمها ، بغشاء من الترويات والتأملات . مرت الساعات ولم يجبني إلا في المساء فقال لي وعيناه تومضان كمن وجد حلاً لمشاكل حياته :

- ألا يستطيع الـ«فيكونت» هذا أن يتوسط فيجد لي قطيعاً من العنز أرعاه هنا قرب مدريد؟

إن ذكرى (ميجيل ايرنانديث) لا يمكن أن تفلت من جذور قلبي . شدو العنادل

(١) طربا : في الأصل Alborozado ، وهي مشتقة من الكلمة العربية ، البروز al borozo ، ومن معانيها بالإسبانية ما قيدناه .

الشرقية (شرق أسبانيا) وأبراجها النغمية المنصوبة بين العتمة والأزهار[1] كانت بالنسبة له حضوراً متسلطاً على عقله وجزءاً من مواد دمه، من شعره الأرضي الغابي الذي اندغمت فيه رائعات الشرق الأسباني؛ لونه، شذاه، صوته بغزارة الفتوة الرجولية القديرة وأريجها.

لقد كان وجهه وجه إسبانيا، مصقولاً بالنور، متجعداً مثل أرض مفلوحة مزروعة بشيء حاسم من قمح ومن تراب. كانت عيناه المتوهجتان في هذا الميسم المحروق المتصلب على الريح[2]، شعاعين من قوة ومن حنان.

لقد رأيت مواد الشعر نفسها تخرج من كلماته لكنها الآن تنبثق من ضخامة جديدة، من بريق غابي، من أعجوبة الدم التليد الذي تمثل في ابن[3]. إني لأستطيع الجزم في أنني خلال حياتي كلها؛ حياة شاعر رحالة، ما رأيت ولم تعطني الحياة فرصة كي أرى ظاهرة شبيهة، من نبوغ ومعرفة كهربائية شفهية، بظاهرة (ميغيل ايرنانديث).

«كابايوفيرده» (حصان أخضر):

كنا نتقابل يومياً في منازل ومقاه على شكل مجموعة واحدة أو مجموعات صغيرة مؤلفة من (فيديريكو) و(ألبرتي) الذي كان يسكن في بيت قريب من بيتي، في ملحق يطل على دغل من الأشجار، ندعوه الغيل الضائع، والرسام (البرتو) وهو خباز من طليطلة كان إذّاك معلماً في النحت التجريدي، و(التولاغيررة)[4]، و(بيرغامين)[5]، والشاعر العظيم (لويس ثيرنودا)[6] و(بيثينته اليكساندره)[7] شاعر

---

(١) الأزهار: هكذا في الأصل Azhares، وهي في الأسبانية زهر البرتقال المنتشر في شرق إسبانيا.

(٢) الريح: إشارة إلى ديوان الشاعر «رياح الشعب».

(٣) ابن: إشارة إلى ابن الشاعر الوحيد، وقد أهدى إليه أبوه قصيدة وهو في سجنه، ترجمناها في كتابنا المذكور (ص١٤٨-١٥١).

(٤) التولاغيره (مانويلManuel): شاعر إسباني (١٩٠٦-١٩٥٩).

(٥) بيرغامين (خوسيه 'Jose): كاتب إسباني ولد عام ١٨٩٧.

(٦) لويس تيرنودا: شاعر إسباني (١٩٠٢-١٩٦٣) ترجمنا له وعنه في كتابنا المذكور.

(٧) بيثينتة اليكساندره: شاعر إسباني ولد عام ١٨٩٨ في اشبيلية، ترجمنا له وعنه في كتابنا المذكور ونحن في صدد إعداد كتاب عنه. حاز على جائزة نوبل للآداب لعام ٧٧. ونلت أنا جائزته عام ٧٨.

ذي مدى غير محدود ، والمهندس المعماري (لويس لاكاسا) . كنا نرحل من شارع «لا كاستيّانا» أو من محلات البيرة عند «البريد» حتى نصل قرب بيتي ، الذي كنا ندعوه بيت الزهور ، في حي «ارغواييس» . كنا نهبط من الطابق الثاني لحافلة كبيرة كان يدعوها مواطني وابن بلدي العظيم (كوتابوس) سيارة إطفاء ، مجموعات صاخبة للأكل والشرب والغناء . أذكر من بين الشبان الزملاء في الشعر والسرور (ارتورو سرّانو بلاخا)(١) ، وهو شاعر ، و(خوسه كاباييرو) وهو رسام ، ذو حذق وبراعة ولطافة ، و(انطونيو اباريثيو)(٢) ، الذي وصل من الأندلس(٣) مباشرة إلى بيتي ، وآخرين كثيرين لم يعودوا موجودين في المكان أو لم يعودوا موجودين في الحياة بيد أن أخوّتهم تنقصني الآن بشكل حي كجزء من جسدي ومادة من روحي .

يا لمدريد تلك! كنت أغدو مع (ماروخا مايّو) الرسامة الجليقية عبر الأحياء السفلى لمدريد باحثين عن محلات بيع الحصر والحلفاء ، باحثين عن أزقة صانعي البراميل ودكاكين بائعي الحبال ، ونبحث ثم نبحث عن مواد إسبانيا الصلبة كلها ، مواد تجدل قلبها ، تفتل قلبها وتشدّه . إن إسبانيا لصلبة وقديرة تلوّحها الشمس الشاقولية وتُخرج من سهولها وسهوبها الشرر وتبني قلاع نور وسط العجاج . إن أنهار إسبانيا الحقيقية الوحيدة لهم شعراؤها ، (كيبيدو) بمياهه الخضراء العميقة ذات الأزياد السوداء ، (كالديرون)(٤) بغدرانه التي تغني ومقاطع حروفه التي تنشد ، الأخَوان (ارخينسولا) الشفّافان الفراتان ، (غونغورا) نهر جواهر وحلى .

لقد شاهدت (بايّه-انكلان) مرة واحدة فقط ، كان جد نحيل ، بلحيته البيضاء اللامنتهية ، بدا لي وكأنه يخرج من بين صفحاته وأوراق كتبه نفسه وقد طُبع بها فجاء بلون صفحة صفراء .

لقد تعرفت على (رامون غوميث دي لا سيرنا)(٥) في سردابه بـ«بومبو» ومن بعد رأيته في بيته . لا أستطيع أبداً أن أنسى صوت (رامون) الجهوري وهو يوجه ويقود ،

---

(١) ارتورو سرانو بلاخا : شاعر وناقد إسباني ، ولد عام ١٩٠٩ .

(٢) انطونيو اباريثيو : شاعر إسباني هاجر إلى أمريكا عام ١٩٣٦ .

(٣) الأندلس : هو الإقليم الجنوبي من إسبانيا .

(٤) كالديرون de la Barca : كاتب إسباني معروف (١٦٠٠-١٦٨١) .

(٥) رامون غوميث دي لا سيرنا : كاتب إسباني (١٨٨٨-١٩٦٣) .

من مكانه في المقهى ، الحديث والضحك ، الأفكار والدخان . إن (رامون غومث دي لاسيرنا) هو في رأيي أحد عظماء كتّاب لغتنا ، وعبقريته لها من العظمة الملونة المتنوعة ما لـ(كيبيدو) و(بيكاسو)[١] . إن كل صفحة من صفحات (رامون غوميث دي لا سيرنا) تتمعن مثل ابن مقرض في ما هو فيزيائي وفي ما هو ما ورائي ، في الحقيقة وفي الطيف ، وما يعرفه وما كتبه عن إسبانيا لم يقله أحد سواه . لقد كان مجمع عالم سرّي ، قد غير نحو اللغة بيديه الذاتيتين الأصيلتين ، بعد أن ضمخ اللغة بآثار أنامله التي لا أحد يجرؤ بعد على محوها .

لقد رأيت السيد (أنطونيو ماتشادو) عدة مرات وهو جالس في مقهاه ببدلته السوداء كبدلة كاتب عدل ، صامتاً جداً ورصيناً جداً ، عذباً متجهماً كشجرة عتيقة في إسبانيا . كان يقول عنه الهمزة اللمزة (خوان رامون خيمينيث) ، الطفل الشيطاني القديم للشعر ؛ إن السيد (انطونيو) يغدو دائماً وهو مليء بالرماد ، وأنه ما كان يحمل في جيوبه إلا أعقاب سجاير .

كان (خوان رامون خيمينيث) وهو شاعر ذو لمعان كبير ، هو الذي تكلف بإخباري عن الحسد[٢] الإسباني الخرافي مجسداً فيه . لم يكن هذا الشاعر العظيم بحاجة أن يحسد أحداً من الناس أو يغبطه في نعمة ، نظراً لأن إبداعه الشعري كان بريقاً كبيراً بدأ مع غموض القرن العشرين ، كان يعيش مثل ناسك مزيف ، يجرح وهو في مخبئه كل من يظن أنه يغطيه بظلاله أو يقلل من شأنه وشهرته .

كان الشعراء الشبان - (غارثا لوركا) ، (البرتي) ، (خورخه غَيين)[٣] ، (بيدرو ساليناس)[٤] ، مطارَدين مضطهَدين من قبل هذا (خوان رامون) الشيطان الملتحي الذي كان كل يوم يرسل سهمه وسمه ضد هذا أو ذاك من الشعراء . كان يكتب أسبوعياً ضدي في تعليقات ملتوية حلزونية ينشرها كل يوم أحد في صحيفة (الـ سول) El Sol[٥] . لكنني آثرت أن أحيا وأن أدعه يحيا ، فما رددت عليه بشيء

---

(١) بيكاسو Picasso, Pablo : الرسام الإسباني الخالد (١٨٨١-١٩٧٣) .

(٢) الحسد : هو من عيوب الإسبان ، وقد تكلم في ذلك كثير من كتّابهم ، وبخاصة (اونا مونو) .

(٣) خورخه غَيين : شاعر إسباني ، ولد عام ١٨٩٣ ، ترجمنا له وعنه في كتابنا المذكور .

(٤) بيدرو ساليناس : شاعر إسباني هاجر إلى أمريكا بعد الحرب الأهلية ومات هناك .

(٥) السول : معناها ، الشمس .

ألبتة . لم أحب -ولا أجيب- على التهجمات الأدبية .

وصل ذات يوم إلى بيتي الشاعر (مانويل التولاغيره) الذي كان يمتلك مطبعة وكان عنده ميل لأن يكون طابعاً فيها هو بنفسه ، وحكى لي أنه ينوي إصدار مجلة شعرية بديعة تمثل أحسن ما في إسبانيا من شعر وأفضله .

- ليس ثمة إلا شخص واحد يمكن له أن يدير هذه المجلة -قال لي- وهذا الشخص هو أنت .

أنا كنت مخترعاً ملحمياً لمجلات سرعان ما تركتها أو تركتني . في عام ١٩٢٥ أسست مجلة دعوتها «حصان ذو رحال» ، كان ذاك الزمن هو الزمن الذي كنا نكتب فيه بلا علامات وقف ولا فواصل ولا تنقيط . في ذلك الزمن كان (هوميرتو دياث كاسانوفا) يستعمل «سويتر» بعنق سلحفاة ، جرأة كبيرة بالنسبة لشاعر في تلك الفترة ، شعره كان جميلاً ناصعاً وسيبقى هكذا جميلاً ناصعاً إلى الأبد ، (روساميل ديل بايه) كان يرتدي ثوباً أسود وبشكل أسود من القبعة حتى الحذاء كما كان فرضاً على الشعراء إذّاك ، أذكر هذين الزميلين بصفتهما مشاركين فعّالين . أعرف أني أنسى آخرين . لكن عدو حصاننا ذاك هز الفترة والعصر هزّاً .

- أجل ، يا (مانوليتو)[١]! إني أقبل بإدراة المجلة .

كان (مانويل التولاغيره) طابعاً مجيداً ، يداه كانتا تغنيان صناديق الحروف بخصائص فياضة رائعة . (مانوليتو) كان يشرّف الشعر بشعره وبأيديه الملائكيتين العاملتين . لقد ترجم وطبع في جمال فريد «أدونيس» لـ(شيلي)[٢] ، مرثاة لـ(جون كيتس)[٣] ، طبع أيضاً «حكاية خينيل La Febula del Ceni» لـ(بيدرو اسبينوسا Pedro Espinosa)[٤] ، كم من بريق كانت تودَع مقاطع القصيدة المذهبة المطلية بالميناء في تلك المطبعة ذات الطراز الواحد ، الجليلة التي كانت تبرز الكلمات منصهرة من جديد في البوتقة .

أخرجت من مجلتي «حصان أخضر» خمسة أعداد متقنة في جمال لا يشك

---

(١) مانوليتوManolito : هو تصغير تحبب لمن يسمى Manolo .

(٢) شيلي : الشاعر الإنجليزي المعروف (١٧٩٥-١٨٢١) .

(٣) جون كيتس : الشاعر الإنجليزي المعروف (١٧٩٥-١٨٢١) .

(٤) بيدرو اسبينوسا : شاعر إسباني (١٥٧٨-١٦٥٠) .

فيه ، كان يعجبني أن أرى (مانوليتو) وهو دائم الضحك مفعم الابتسامة وهو يصفّ الحروف ، يرتبها وهو من بعد يدفع بالقدم الآلة الصغيرة الورقية . أحياناً كان يحمل نسخ الطبعة في عربة طفلته (بالوما)[1] . كان المارة يطرونه ويثنون عليه معتقدين أن في العربة الطفلة الصغيرة :

- يا للأب الجدير بالتقدير والاعتبار! كيف يعبر وسط حركة المرور الشيطانية بهذه المخلوقة حانياً على ابنته حادبا!

لقد كانت المخلوقة هي الشعر الذي يمضي في رحلة على ظهر «حصانه الأخضر» . نشرت ا لمجلة أول قصيدة جديدة لـ(ميغيل ايرنانديث) وطبعاً ، قصائد (فيديريكو) و(ثيرنودا) و(اليكساندره) و(غيين) (الطيِّب : الإسباني)[2] . كان (خوان رامون خيمينيث) المريض باختلال عصابي لاذع ، يستمر في توجيه النبال الأحادية (كل يوم أحد) .

العنوان لم يعجب (رفائيل البرتي):

لماذا يجب أن يكون الحصان أخضر؟ «حصان أحمر» يجب أن تسمى المجلة .

لم أغير لون الحصان ، لكن (رفائيل) وأنا أبداً ما تخصامنا ، لهذا السبب ولا لأي سبب آخر ، ثمة في العالم أماكن للأحصنة جميعها وثمة شعراء من ألوان قوس القزح كلها .

لقد مكث العدد السادس من «حصان أخضر» في شارع «بيرياتو» دون تصفيف ولا تخييط ولا ترتيب . كان هذا العدد مخصصاً لـ(خوليو ايريرا أي ريسيغ Julio Herrera y Reissig)[3] . وكان قد كتب هذه النصوص تكريماً له وتعظيماً الشعراء الإسبان ، فقبعت هناك هذه النصوص بجمالها دون أن تحبل ولا أن تلد . كانت المجلة ستظهر إلى النور يوم التاسع عشر من تموز عام ١٩٣٦ ، لكن في ذلك اليوم امتلأ

---

(١) بالوما : معناها ، حمامة ، وهي الآن صديقة لي وزميلة في جامعة مدريد وفي جمعية الأدب المقارن التي أسست حديثاً .

(٢) (الطيِّب : الإسباني) : القوسان من المؤلف ، وهو هنا يميز (خورخه غيين) عن الشاعر الكوبي (نيكولاس غيِّين Nicolas Cuillen) الذي لم تكن علاقته به حسنة .

(٣) خوليو ايريرا أي ريسيغ : شاعر من الأورغواي (١٨٧٥-١٩١٠) .

الشارع باروداً ودخاناً . جنرال غير معروف يدعى (فرانثيسكو فرانكو)[١] قد تمرد على الحكم الجمهوري في محميته بأفريقيا . .

الجريمة حدثت في غرناطة:

وأنا أكتب هذه السطور الآن ، تحتفل إسبانيا الرسمية بأعوام كثيرة -جداً- من التمرد والعصيان . يستعرض القائد وهو يرتدي الملابس الذهبية والزرقاء ، محاطاً بالحرس المغربي[٢] وعلى جانبيه سفير الولايات المتحدة وسفيرا إنجلترا وآخرون كثيرون ، في هذه اللحظة بشوارع مدريد ، القوات المسلحة ؛ قوات مسلحة مؤلفة في أغلبيتها من شبان فتيان ما عرفوا تلك الحرب ولا شهدوها .

أما أنا فلقد عرفتها ؛ مليوناً من الضحايا الإسبان! مليوناً من المنفيين الإسبان! كان يبدو لي أن هذه الشوكة الدامية لن تمحى أبداً من ضمير الإنسانية . لكن هؤلاء الفتيان الذين يسيرون الآن في العرض العسكري أمام الحرس المغربي قد يجهلون حقيقة ذاك التاريخ الفظيع .

كل شيء بدأ بالنسبة لي ليلة التاسع عشر من تموز عام ١٩٣٦ . كان يعمل شاب تشيلي لطيف ومغامر يدعى (بوبّي ديغلانه) متعهداً في السيرك الكبير «بريثه دي مدريد» . صرحت له بتحفظاتي حول جدية هذه الألعاب «الرياضية» فأقنعني أن أذهب إلى السيرك وأن أصطحب (غارثيا لوركا) معي لنتأكد من أصالة هذا الاستعراض الجميل . أقنعت (لوركا) واتفقنا أن نتلاقى هناك في ساعة محددة مناسبة . كنا سنقضي فترة ممتعة بالتفرج على تهريجات «ساكن الكهوف المبرقع» و«المارد الحبشي» و«إنسان الغاب الشرير» .

تخلف (فيديريكو) عن الموعد ، كان قد راح ليلقى حتفه ، لم أ ره من بعد هذا أبداً . موعده كان مع مردة وسفاحين آخرين . هكذا بدأت حرب إسبانيا التي غيرت شعري ، لقد بدأت بالنسبة لي باختفاء شاعر .

---

(١) فرانثيسكو فرانكو : كان رئيساً للدولة الإسبانية ولد عام ١٨٩٢ وتوفي عام ١٩٧٥ .

(٢) المغربيMoro : هي كلمة أطلقها الرومان على سكان شمال أفريقيا ، وهي تطلق الآن على العرب جميعاً ، ومن المعروف أن فرقة من الجنود المغاربة قد ساعدت (فرانكو) أثناء الحرب الأهلية ، ثم اتخذ منهم حرسه الخاص حتى عام ١٩٥٨ حين نشب النزاع بين إسبانيا والمغرب على «افني» .

وأي شاعر! أبداً لم أر شاعراً مثله اجتمعت فيه اللطافة والعبقرية، القلب المجنح والشلاّل الشفاف. لقد كان (فيديريكو غارثيا لوركا) العبقري المسرف في وحيه وإلهامه، بؤرة الفرح التي تشيع كالكوكب بسعادة الحياة. كان نابغة وفكِها، كونياً وريفياً، موسيقياً فذاً، ممثلاً رائعاً، فزعاً ومعتقداً بالخرافات، لامعاً ونبيلاً، كان خلاصة أعمار إسبانيا وعهودها، صفوة الازدهار الشعبي، نتاجاً عربياً-أندلسياً ينير ويفوح مثل أيكة ياسمين على مسرح إسبانيا، كان كل هذا، يا ويلتي لقد اختفى ذلك المسرح فأوّاه وآه.

لقد كان يفتنني (غاريثا لوركا) بقدرته العظيمة على الاستعارات والمجازت، وكان يهمني أن أقرأ كل ما كان يكتبه، وهو كان يطلب مني أن أقرأ له آخر ما كتبته من قصائد، وحين أكون في منتصف القراءة يقاطعني صارخاً: «لا تستمر، لا تستمر، إذ إنني أتأثر بك».

لقد كان (لوركا) في المسرح وفي السكون، وسط الجمهرة وفي الانزواء، يضيف الجمال ويزيد الروعة. أبداً ما رأيت مثله أنموذجاً له هذا السحر العظيم في يديه، قط ما كان لي أخ أكثر منه بهجة. كان يضحك، يغني، يموسق، ينغم، يقفز، يبدع، يخترع، يطلق شرراً. يا له من مسيكين، فلقد كانت له هبات العالم كلها وكما كان صائغ ذهب، خلية نحل من الشعر العظيم، كان يسرف في نبوغه، يستنفد قريحته.

- اصغ -كان يقول لي، وقد أخذني من ذراعي- أفترى هذه النافذة؟ أفلا تجدها «شورباتيلية» Chorpate'lico؟

- وماذا تعني كلمة «شورباتيلية»؟

وأنا كذلك لست أدري، لكن علينا أن نميز بين ما هو «شورباتيلي» وبين ما ليس هو «شورباتيلياً» وبدون هذا يكون المرء ضائعاً. انظر إلى هذا الكلب، يا له من «شورباتيلي»!

أو أنه كان يحكي لي أنه ذات مرة دُعي إلى مدرسة للأطفال الصغار في غرناطة كانت تحتفل بإحياء ذكرى «الكيخوتة»[1]، وحين وصل إلى قاعة الاحتفال، غنى الأطفال جميعهم تحت إدارة المديرة:

دائماً دائماً سيحتفل

---

(١) الكيخوتة Quijote: هو كتاب (ثيرفانتيس Cervantes) الخالد.

من الأبد إلى الأجل
بهذا الكتاب المفسر المتين
من لدن (ف . رودريغيث مارين)[1] .

ألقيت ذات مرة محاضرة عن (غارثيا لوركا) ، وذلك بعد عدة سنوات من موته ، فسألني أحد الحاضرين :

- لماذا تقول في قصيدة «نشيد إلى (فيديريكو) إنه من أجله «تدهن المشافي باللون الأزرق»[2]؟

- انظر ، أيها الرفيق -أجبته- ، إن توجيه مثل هذه الأسئلة إلى شاعر هو كمن يسأل النساء عن أعمارهن .

ليس الشعر بمادة ساكنة (استاتيكية) بل هو تيار متدفق إلى حد أنه أحياناً يفلت من يدي خالق هذا الشعر ذاته . إن مادة الشعر الخام هي مصنوعة من عناصر هي هي وفي الوقت نفسه ليست إياها ، من أشياء موجودة وغير موجودة . على كل حال سأحاول أن أجيبك في صراحة وصدق : إن اللون الأزرق بالنسبة لي هو أكثر الألوان جمالاً . إن للون الأزرق انحناءة الفضاء الإنساني ، مثل القبة السماوية ، نحو الحرية والفرح . إن حضور (فيديريكو) ، سحره الشخصي ، كانا يفرضان جواً من البهجة حوله . يريد أن يقول بيت شعري هذا إنه حتى المشافي ، حتى حزن المشافي ، يمكن لها أن تستحيل بتأثير من رقيته وفتنته ، بغتة ، إلى أبنية جميلة زرقاء .

لقد كان لفيديريكو إدراك مسبق بموته . حين عاد ذات مرة من جولة مسرحية قام بها ، ناداني كي يقص عليّ حادثة غريبة جداً . كان قد وصل مع فناني فرقته «لا برّاكا»[3] إلى قرية نائية جداً في «قشتالة» ، فنزلوا في جوار القرية وهناك خيموا . ما استطاع (فيديريكو) أن ينام تلك الليلة وقد أضناه المسير وكان مرهقاً مشغول البال بالرحلة وهموم الفرقة ومشاكل السفر . حين تفتّق الفجر قليلاً نهض من فراشه وخرج

---

(١) ف . رودريغيث مارين : هو كاتب وعلاّمة إسباني (١٨٥٥-١٩٤٣) ، وحرف الروي في الأصل على النحو التالي : ا .ب ا .ب .

(٢) هذه القصيدة تشغل الصفحات (٧٧-٨٣) من كتابنا ، بابلو نيرودا ، مختارات شعرية ، منشورات وزارة الإعلام العراقية عام ١٩٧٤ .

(٣) لا برّاكا : معناها ، الكوخ .

كي يقوم بجولة وحده عبر الحقول المترامية هناك ، كان ثمة برد لاذع كحد السكين من هذا البرد الذي تُعدّه «قشتالة» للمسافر والعابر والدخيل . كان الضباب ينطلق سحائب سحائب بيضاء تحيل كل شيء إلى مداه الشبحي الرهيب .

ما كان ثمة إلا حاجز شعر كبير من حديد متأكسد ، تماثيل مهشمة ، أعمدة مكسرة فلاقاً فلاقاً بين أوراق الأشجار اليباس الهشّة الموشوشة . توقف عند باب نطاق عتيق ، كان المدخل إلى مزرعة فسيحة لدارة إقطاعية . كان الخلاء والخواء والوقت والبرد تجعل الوحشة أكثر تغلغلاً وأشد وهرة . شعر (فيديريكو) على حين غرة أنه جزء هلع فزع مشدود بما سيطلع من ذاك الشروق ، مشدود إلى شيء غامض لا بد أن يحدث ، أن يقع في ذاك القفر . هناك جلس على تاج عمود ساقط .

جاء خروف حوليّ صغير ليقضم أطراف الأعشاب بين الأطلال والخرائب . كان ظهوره ظهور ملاك صغير من ضباب يؤنس الوحشة ، يسمر عشباً عند انشقاق عمود الصبح ، كان وقوعه وقوع زهرة حنان فوق وحدة الربع اليتيم ، فشعر الشاعر أن هذا السامر يؤنسه ويصحبه .

فجأة وإذ بقطيع من الخنازير يجتاح الحظيرة . اقتربت أربع أو خمس بهائم داكنة اللون ، خنازير شبه متوحشة ذات جوع جموح وأظلاف صلدة .

(فيديريكو) حضر إذّاك مشهداً مفزعاً مرعباً ، فلقد انقضّت الخنازير على الخروف تعمل فيه أنيابها فقطعته إرباً إرباً والتقمته والشاعر يرتعد خوفاً ، يرفضّ منه صليده .

هذا المشهد الدموي الوحشي جعل (فيديريكو) يأمر فرقة مسرحه المتجول أن تواصل المسير توّا وأن تقلع راحلة عن ذاك المكان .

كان يقص عليّ (فيديريكو) هذه الحكاية الرهيبة وهو ما يزال ينتفض رعباً ، وذلك قبل ثلاثة أشهر من الحرب الأهلية . أنا أدركت من بعد في وضوح جلي أو غير جلي أن هذه الحادثة ما كانت إلا عرضاً مسبقاً لتمثيلية مصرعه ، إرهاصاً لمأساته التي لا تصدّق .

إن (فيديريكو غارثيا لوركا) لم يعدم رمياً بالرصاص ، بل اغتيل . بديهياً ما كان يخطر على باب أحد أنهم سيقلتونه ذات يوم ، ما كان أحد يفكر في ذلك . كان هو من بين الشعراء الأسبان الأكثر محبوباً الأكثر معشوقاً الأكثر شبهاً بطفل لما له من بهجة رائعة . من كان يمكن له أن يظن أن ثمة فوق هذه الأرض ، وبخاصة فوق أرضه ، مردة مسوخاً قادرة على اقتراف جريمة غير مفسرة مثل هذه؟

إن حدوث تلك الجريمة بالنسبة لي كانت أكثر حوادث ذلك الصراع الطويل ألماً .
لقد كانت إسبانيا دائماً مسرحاً لمصارعين مجالدين ، أرضاً ذات دماء كثيرة . إن ساحة مصارعة الثيران بقربانها وأناقتها القاسية تعيد وقد وشّيت وزخرفت بفرقة تمثيل متجولة ، ذاك الصراع القديم بين النور والظل .

إن (فراي لويس دي ليون)[1] تسجنه محاكم التفتيش ، (كيبيدو) يموت في زنزانته ، (كولمبوس)[2] يمشي والسلاسل في قدميه ، وكان المشهد الأكبر هو مستودع العظم في «الأسكوريال El Escorial»[3] كما هو عليه الآن «النصب التذكاري للشهداء»[4] ، والصليب يعلو فوق مليون من الأموات[5] وفوق ذكريات مظلمة لا حصر لها .

كتابي عن إسبانيا:

لقد مر الزمن ، بدأنا نخسر الحرب ، لقد صاحب الشعراء الشعب الإسباني في نضاله . (فيديريكو) كان قد اغتيل في غرناطة ، (ميغيل ايرنانديث) تحوّل من راعي عنز إلى مناضل فعلي ، كان ينشد أشعاره وهو في الزي العسكري في الخط الأول من المعركة النازية ، (مانويل التولاغيره) استمر في مطابعه . نصب مطبعة في حمأة المعركة بالجبهة الشرقية ، قرب «خيرونا» في دير قديم . هناك طبع في شكل فريد من نوعه كتابي «إسبانيا في القلب» . أظن أن كتباً قليلة في تاريخ الكتب الغريب ،

---

(١) فراي لويس دي ليون : شاعر وكاتب إسباني ولد بمدينة «ليون» Le'on (١٥٢٧-١٥٩١) .

(٢) كولمبوس Colon Cristobal : مكتشف أمريكا (١٤٥١-١٥٠٦) .

(٣) الأسكوريال : هو دير في بلدة بهذا الاسم تقع على بعد أربعين كيلومتراً من مدريد ، وفيه مكتبة مشهورة .

(٤) النصب التذكاري للشهداء : أقيم هذا النصب تخليداً لشهداء الحرب الأهلية ، وهو قريب من «الأسكوريال» .

(٥) يقتبس (نيرودا) هذا من بيت شعر للوركا ، وقد اقتبسه كذلك الشاعر المصري (عبدالرحمن الأبنودي) في قصيدة يهديها إلى (لوركا) فقمنا بترجمتها إلى الإسبانية ونشرناها في العدد الثاني من مجلة Mundo Arabe في بحث عن الأدب المصري ما بين حرب حزيران ٦٧ وتشرين الأول ٧٣ . وفوق النصب التذكاري هذا صليب كبير كذلك .

كانت لها مثل ما كان لهذا الديوان من مخاض عجيب ومن مصير غريب .

فلقد تعلم الجنود في الجبهة صف حروف المطبعة ، لكن كان ينقصهم الورق . وجدوا طاحونة قديمة فقرروا صنعه هناك . لقد كان خليطاً غريباً ما صنعوه ، بين القنابل المتساقطة ، في أجيج المعركة . كانوا يقذفون بكل شيء إلى الطاحونة من راية للعدو إلى عباءة مدماة لجندي مغربي . على الرغم من هذه المواد غير المتآلفة في ما بينها ومع قلة خبرة الأيدي الصانعة فقد خرج الورق بديعاً جداً . إن ما يحفظ حتى الآن من نسخ قليلة لهذا الكتاب تُدهش بما فيها من وضوح الحروف والطباعة ذات الصناعة السرية . رأيت بعد عدة سنوات نسخة من هذه الطبعة في «واشنطون» بمكتبة «الكونغرس» موضوعة في واجهة زجاجية تعرض أكثر الكتب غرابة في زمننا .

ما إن طُبع ديواني وجُلد حتى أخذت تتسارع هزيمة الجمهورية . لقد امتلأت الدروب التي تؤدي إلى خارج إسبانيا بمئات الآلاف من الرجال الهاربين . لقد كان هذا النزوح أشد الحوادث إيلاماً في تاريخ إسبانيا .

مع هذه الحشود الراحلة إلى المنفى كان الجنود الذين نجوا من فرقة الجبهة الشرقية يمضون مهزومين ، وكان من بينهم (مانويل التولاغيره) وكذلك الجنود الذين صنعوا الورق وطبعوا «إسبانيا في القلب» . إن كتابي هذا كان مفخرة هؤلاء الرجال الذين طبعوا شعري في تحدٍّ للموت . عرفت أن كثيرين منهم آثروا شحن الأكياس بالنُسخ المطبوعة على شحنها بأغذيتهم وملابسهم . والأكياس على أكتافهم شرعوا بالمسيرة الطويلة باتجاه فرنسا .

لقد هوجم هذا الطابور الهائل من الهاربين إلى المنفى بالقنابل التي كانت تُساقطها الطائرات مئات من المرات . وهناك وراء الحدود ، في فرنسا ، لاقى من نجا من هؤلاء الإسبان معاملة سيئة في المنفى . لقد قدمت النسخ الأخيرة من هذا الكتاب أضاحي في إحدى المجامر ، وهكذا فإن هذا الديوان المتوهج ولد ومات في وطيس المعركة .

لقد بحث (ميغيل ايرنانديث) عن ملجأ في السفارة التشيلية التي كانت خلال الحرب قد آوت عدداً هائلاً لا يقل عن أربعة آلاف من أنصار (فرانكو) ، لكن السفير في ذلك الوقت وهو (كارلوس مورلا لينش) رفض أن يؤوي الشاعر الكبير في سفارته ، مع أنه كان يزعم أنه صديق حميم له . بعد أيام قليلة اعتقل (ميغيل) وسُجن ، ثم مات بالسل في زنزانته بعد ثلاث سنين من الأسر إذ إن العندليب لم يطق أصفاده وما قدر على تحمل وطأة أسره .

كان عملي القنصلي قد انتهى ؛ إذ إن الحكومة التشيلية قررت خلعي من منصبي بسبب مشاركتي في الدفاع عن الجمهورية الإسبانية .

الحرب وباريس:

وصلنا إلى باريس . استأجرت بمشاركة (رافائيل البرتي) وزوجته (ماريا تيريسا ليون) شقة في حي «كواي دي لـ هورلوغ» وهو حي هادئ ورائع . كنت أرى قبالي «البونت نوف» وتمثال (هنري الرابع) وصيادي الأسماك الذين كانوا منتشرين على ضفتي نهر «السين» . خلف بيتنا كانت ساحة «دوفين» الكثيرة العروق تفوح برائحة كرائحة أوراق الشجر والمطاعم . هناك كان يسكن الكاتب الفرنسي (اليجو كاربينتير)[1] ، وهو واحد من أكثر الرجال الذين عرفتهم حباً بالحياد ، فلم يكن يجرؤ على إبداء الرأي حول أي شأن من الشؤون ، ولا حتى حول النازيين الذين كانوا يُغيرون على باريس مثل الذئاب الجائعة .

من على شرفتي ، من جانبها الأيمن ، كنت ألمح ، منحنياً قليلاً إلى خارج الشرفة ، أبراج «كونسيرجير» الكبيرة ، كانت ساعتها بالنسبة لي هي حد الحي الأخير .

لقد حزت لحسن الحظ صداقة اثنين من أعظم أدباء فرنسا ، فكانا لي صديقين حميمين خلال سنين عديدة ألا وهما (بول إيلوار)[2] و(أراغون)[3] . لقد كانا وما زالا كلاسيكيين غريبين في الملاحة الظرافة ذوي أصالة حيوية تضعهما الموضع الأكثر رنيناً في غابة فرنسا . وهما في الوقت نفسه مساهمان حقيقيان راسخان في الأخلاق التاريخية . ثمة قليلون من الأشخاص مختلفون متباينون في ما بينهم كتباين هذين الاثنين واختلافهما . لقد تمتعت باللذة الشعرية في إضاعة الوقت كثيراً من الأحايين مع (بول إيلوار) . أن يُجب الشعراء على الروائز فإنهم سيطلقون السر ويبوحون به ، ليس هناك أجمل ولا أروع من إضاعة الوقت عبثاً . وكل واحد له أسلوبه الخاص به لممارسة هذا الميل القديم . لم أكن أحس مع (بول) لا بالليل ولا بنهار ، كيف يمضيان

---

(١) اليجو كاربينتور : ولد في كوبا عام ١٩٠٤ .

(٢) بول إيلوار : الشاعر الفرنسي المعروف (١٨٩٥-١٩٥٢) .

(٣) اراغون Louis : شاعر المقاومة الفرنسية والروائي المعروف ولد عام ١٨٩٧ .

وينقضان وأبدا ما عرفت إن كان لما كنا نتحدث به أهمية أم ليس له من أهمية البتة . . . (أراغون) هو آلة إليكترونية من الذكاء ، من المعرفة ، من العبقرية اللوذعية ، من السرعة البلاغية والفصاحة وسرعة الخاطر . من بيت (إيلوار) كنت دائماً أخرج وأنا أبتسم دون أن أعرف مما أبتسم ، بينما بعد قضاء بضع ساعات مع (أراغون) كنت أخرج منهكاً لأن هذا الإبليس كان يجبرني على التفكير . لقد كان هذان الاثنان صديقين من خلص أصدقائي وكنت مشدوداً إليهما جداً ، ولعل ما كان يعجبني فيهما أكثر من الخصال الحميدة ، هو عظمتهما المتنافرة المتناقضة .

نانكي كونارد Nancy Cunard:

قررنا ، أنا و(نانكي كونارد) ، إصدار نشرة شعرية عنونتها أنا «شعراء العالم يدافعون عن الشعب الإسباني» .

كان لـ(نانكي) مطبعة صغيرة في دارها الريفية بالريف الفرنسي . لست أذكر الآن اسم هذه الناحية ، لكن كانت بعيدة عن باريس . حين وصلنا إلى دارها كان الوقت ليلاً وكان في السماء قمر منير . كان الثلج والقمر يرتجفان مثل ستارة تحيط بالمزرعة . أنا ، متحمساً ، خرجت للتنزه . حين أردت الرجوع كان ندف الثلج يدوّم فوق رأسي في عناد وإصرار ، ولذلك أضعت دربي ومشيت نصف ساعة أخبط خبط عشواء في بياض الليل .

كان لـ(نانكي) تجربة في الطبع والطباعة ، عندما كانت صديقة (أراغون) نشرت ترجمة قصيدة Hunting of The Snark وكانت قد ترجمتها هي بالاشتراك مع (أراغون) . في الحقيقة ، هذه القصيدة لـ(لويس كارول)(١) هي غير قابلة للترجمة وأعتقد أننا لا يمكن لنا أن نجد عملاً شبيهاً من فسيفساء مجنون إلا في أعمال (غونغورا) .

بدأت أهيء أنماطاً من الحروف وأظن أنه ليس هناك صاف حروف أسوأ مني على الإطلاق . بما أني كنت أضع أنماط حرف (p) على العكس فإنها كانت تستحيل إلى حرف (d) بسبب غبائي المطبعي . في بيت شعر ظهرت مرتين كلمة Parpados(٢)

---

(١) لويس كارول : هو عالم بالرياضيات وكاتب قصص إنجليزي (١٨٣٢-١٨٩٨) .

(٢) معناها : جفون .

فأصبحت مرتين مكررتين كلمة Dardapos[1] . لقد عاقبتني على ذلك (نانكي) فقد كانت تناديني خلال عدة سنين ، دائماً على هذا النحو dardapos وكانت تبدأ رسائلها إليّ من لندن بعبارة My dear dardapo . لكن النشرة خرجت لائقة جداً واستطعنا أن نطبع ستة أو سبعة أعداد . بالإضافة إلى الشعراء الملتزمين مثل (غونثاليث تونيون) أو (البرتي) أو بعض الشعراء الفرنسيين ، فإننا نشرنا قصائد ملتهبة حماسة وعاطفة لـ(و .هـ. أودين W.H. Auden)[2] ، و(سبيندير) الخ . هؤلاء السادة الإنجليز لن يعرفوا أبداً ما عانته أصابعي الكسلى وهي تصفّ حروف أشعارهم .

من حين إلى حين كان يصل من إنجلترا شعراء أصدقاء لـ(نانكي) وكل واحد منهم كان يضع زهرة بيضاء في العروة ، وكان هؤلاء كذلك يكتبون قصائد ضد (فرانكو) .

أبدا ما وجد في التاريخ الفكري الثقافي مادة خصبة للشعر والشعراء كما توفرت هذه المادة في الحرب الإسبانية . إن الدم الإسباني كان بمثابة مغناطيس جعل الشعر يهتز خلال فترة عظيمة ولمدة طويلة .

لست أدري إن كانت تلك النشرة قد لاقت نجاحاً أم لم تلق ؛ لأنه في تلك الحقبة انتهت بشكل سيء الحرب الإسبانية لتبدأ بشكل سيء حرب عالمية جديدة ، هذه الأخيرة على الرغم من ضخامتها ، على الرغم من قساوتها التي لا عد لها و لا حصر ، على الرغم من بطولاتها المسفوكة المسفوحة ، لم تستطع أبداً أن تأسر قلب الشعر الجماعي كما أسرته الحرب الأهلية الإسبانية .

كان عليّ أن أعود من أوروبا إلى بلدي ، (نانكي) كذلك سافرت إلى تشيلي يصحبها مصارع ثيران ترك في «سانتياغو» الثيران و(نانكي كونارد) لكي يفتح محلاً لبيع النقانق والسجق والحاشي الأخرى . لكن صديقتي العزيزة جداً لا تقبل الهزيمة ؛ لأنها من النوع الرفيع جداً فاتخذت لها في تشيلي عشيقاً : شاعراً صعلوكاً ، متشرداً قذر الهندام سيء المظهر ، تشيلياً من أصل «باسكوي» . لم يكن ينقصه النبوغ بل حرم من الأسنان . أضف إلى هذا وذاك أن هذا العاشق المفضل الجديد كان سكّيراً

---

(١) كلمة لا معنى لها .

(٢) أودين : مؤلف مسرحي وشاعر إنجليزي ولد عام ١٩٠٧ .

عربيداً ، وكان يبخشش هذه الامرأة الارستوقراطية الإنجليزية بصفعات ليلية معادة مكررة ، مماكان يجبرها على الظهور في المجتمع بنظّارة غامقة الحدقتين كبيرة الحجم .

في الحقيقة كانت هي شخصية من الشخصيات «الكيخوتية» المزمنة الشجاعة المثيرة للشجون ، وهي كانت أكثر من عرفت منهم غرابة . وهي الوريثة الوحيدة لـ(كونارد لينه) وابنة السيدة ..... قامت بفضيحة اهتزت لها لندن وذلك في عام ١٩٣٠ ، فقد هربت مع رجل أسود ، كان مُوَيسقياً (صيغة تحقير) في أول عصبة «جاز» استوردها فندق Savoy ، حين وجدت Lady Cunard السرير خالياً من ابنتها ورسالة منها تخبرها فيها ، مفتخرة مزدهية ، بمصيرها الأسود ، توجهت هذه السيدة النبيلة إلى محاميها وقررت حرمانها من الوراثة . هكذا ، إذن من عرفتها أنا ، متشردة عبر العالم كانت محرومة من إرث العظمة البريطانية . كان يحضر مجالس السمر التي كانت تقيمها والدة (نانكي) ، (جورج مور)[1] ، (كان يشاع بأنه هو الوالد الحقيقي لـ(نانكي) و(السير توماس بيشام)[2] ، والشاب (الدوس هوكسلي)[3] ، وأمير «غاليس» الذي أصبح من بعد دوق «ويندسور»[4] .

(نانكي كونارد) أعادت الصفعة صفعتين ، ففي شهر كانون الأول الذي حرمتها فيه أمها من الوراثة ، تلقت الارستوقراطية الإنجليزية جميعها كهدية في عيد الميلاد كتيِّبا ذا غلاف أحمر معنوناً على النحو التالي :

(Negro man and white Lady Ship) لم أر أكثر من هذا الكتيِّب تقريعاً ، يبلغ أحياناً وبالة (سويفت Swift)[5] .

كانت حججها في الدفاع عن السود تنزل كضربات هراوة على رأس Lady Cunard وعلى المجتمع الإنجليزي . أذكر أنها كانت تقول لهم ، وأورد من الذاكرة لأن كلماتها وعباراتها كانت أكثر بلاغة :

«إذا حضرتك ، أيتها السيدة البيضاء ، أو بالأحرى جماعتك ، خطفتهم قبيلة

---

(١) جورج مور : روائي إيرلاندي (١٨٥٢-١٩٣٣) .

(٢) السير توماس بيشام : ضابط إيقاع فرقة موسيقية ، إنجليزي (١٨٧٩-١٩٦١) .

(٣) الدوس هوكسلي : كاتب إنجليزي (١٨٩٤-١٩٦٣) .

(٤) دوق ويندسور : كان ملكاً لإنجلترا باسم (إدوارد الثامن) تنازل عن العرش عام ١٩٣٦ .

(٥) سويفت (جوناثان Jonathan) : كاتب إنجليزي (١٦٦٧-١٧٤٥) .

أكثر قدرة وقوة منهم ثم ضربتهم وقيّدتهم بالأصفاد ، ثم نقلتهم بعيداً عن إنجلترا كي يباعوا في سوق النخاسة ، معروضين كنماذج رخيصة للوفاء الإنساني ، مجبرين على الأعمال الشاقة تحت لذع السياط ، وبتغذية لا تكاد تسد الرمق ، فماذا سيبقى من أبناء جنسك؟ لقد عانى السود من هذا ومن غيره من التعنيف والقساوة . فغدوا بعد قرون عديدة من المعاناة والعذاب أفضل الرياضيين وأقواهم ، وكذلك فقد خلقوا موسيقى أكثر عالمية من غيرها . أفكنتم تستطيعون أيها البيض أن تخرجوا منتصرين من مثل هذا الجور الكثير؟ إذن ، من هم أكبر قيمة ومن هم أجدر؟» .

وهكذا في ثلاثين صفحة .

لم تستطع (نانكي) أن تعود لتقيم في إنجلترا ، ومنذ هذه اللحظة احتضنت قضية الجنس الأسود الملاحق المضطهَد . لقد ذهبت إلى «أديس أبابا» خلال غزو الحبشة . من بعد وصلت إلى الولايات المتحدة كي تتضامن وتدعم الفتيان السود من «سكوتسبورو» الذين اتهموا بفضائح لم يرتكبوها . لقد أدانت العدالة العنصرية في أمريكا الشمالية هؤلاء الفتيان السود وطردت الشرطة الديموقراطية في الولايات المتحدة (نانكي كونارد) خارج الحدود .

في عام ١٩٦٩ ماتت صديقتي (نانكي كونارد) في باريس . في أزمة احتضارها نزلت شبه عارية في مصعد (أسانسور) الفندق ، وهناك خرّت وأغلقت للأبد عينيها السماويتين الجميلتين .

حين ماتت كانت تزن خمسة وثلاثين كيلوغراماً ، ما كانت إلا هيكلاً عظمياً ، كان جسدها قد استهلك ونفد في معارك خاضتها ضد الظلم في العالم . ما كان ثوابها إلا حياة كانت تغدو في كل يوم أكثر وحدة ووحشة ، وإلا ميتة مهجورة مخذولة .

مؤتمر في مدريد:

كانت الحرب الأهلية في إسبانيا تمضي من سيء إلى أسوأ ، لكن روح المقاومة لدى الشعب الإسباني كانت قد عدت العالم قاطبة بصمودها وثباتها . كانت تحارب في إسبانيا فرق المتطوعين الأمميين . أنا رأيتهم يأتون إلى مدريد عام ١٩٣٦ موحدي الصفوف . كانوا مجموعة كبيرة من أجناس وأعمار وأشكال وألوان مختلفة .

نحن في باريس عام ١٩٣٧ ، والأمر الرئيسي كان هو الإعداد لمؤتمر ضد الفاشية

يحضره الكتاب من أنحاء العالم قاطبة . مؤتمر يُعقد في مدريد . آنذاك بدأت بمعرفة (أراغون) معرفة عميقة . أول ما فاجأني منه كانت قدرته العجيبة على العمل والتنظيم ، يملي الرسائل جميعها ، يصححها ، يذكرها عن ظهر قلب ، لا تفر منه صغيرة ولا كبيرة ، يقضي ساعات متواصلة عاكفاً على العمل في مكتبنا الصغير ، ثم ، كما هو معروف عنه ، يكتب كتباً ضخمة في النثر ، وأما شعره فهو أحسن ما كتب في اللغة الفرنسية . لقد رأيته ينقح تجارب ترجمة كتب قام بترجمتها عن الروسية والإنجليزية ، ورأيته يعيد صياغة بعض التعابير على الورق نفسه ، ورق الملازم المطبوعة ثم يدفع بها ثانية إلى المطبعة . إنه ، في حقيقة الأمر ، لرجل عجيب وقد انتبهت إلى عظمته منذ ذلك الحين .

كنت قد نُحيت عن عملي القنصلي وهذا معناه أني بقيت بلا سينتيم واحد . فعملتُ بأجرة قدرها أربعمائة فرنك فرنسي قديم في جمعية الدفاع عن الثقافة التي كان يديرها (أراغون) . كان لزوجتي (ديليا ديل كاريّل Delia del Carril) في ذلك الحين ، ولسنين طويلة ، شهرة بأنها غنية ، مالكة ، مخولة ، لكن ما هو أكيد أنها كانت أكثر فقراً مني . كنا نعيش في فندق صغير مشبوه حيث كان الطابق الأول منه مخصصاً للأزواج العابرين العرضيين ، يدخلون مثنى ويخرجون مثنى بعد ساعة من الزمن . لقد كنا لا نأكل إلا القليل الزهيد ، وإن أكلنا فأكل سيء وذلك خلال بضعة أشهر . لكن مؤتمر الكتّاب المعادين للفاشيستية كان واقعاً وحقيقة . كانت تصل من الجهات جميعها جوابات قيّمة جريئة . وصل جواب إيجابي من (ييتس Yeats)[١] ، شاعر وطني من إيرلاندا . جواب آخر من (سيلما لاغيرلوف Selma Lagerlof)[٢] ، كاتبة سويدية كبيرة . لقد كان هذان الكاتبان كبيرين في السن فما كانا يستطيعان السفر إلى مدينة محاصَرة مقنبلة كما كانت عليه مدريد إذّاك ، لكنهما كانا متضامنين في الدفاع عن الجمهورية الإسبانية .

لقد اعتبرت نفسي دوماً شخصية ذات أهمية ضئيلة ، وبخاصة في ما يتعلق بالقضايا العملية والمهام العالية ، لذلك فقد بقيت مشدوهاً ، بفم مفتوح ، حين وصلني أمر مصرفي جاء من الحكومة الإسبانية بمبلغ كبير من المال لتغطية مصاريف

---

(١) ييتس (ويليم بطلر Williams Butler) : شاعر إيرلاندي (١٨٦٥-١٩٣٩) .

(٢) سيلما لاغيرلوف : كاتبة سويدية (١٨٥٨-١٩٤٠) .

المؤتمر، بما فيها ثمن تذاكر سفر المؤتمرين والمندوبين القادمين من أقطار أخرى، وفعلاً فقد بدأ الكتّاب يفدون بالعشرات إلى باريس.

لقد حرت، ماذا أستطيع أن أعمل بهذا المبلغ من المال؟ آثرت أن أحوله إلى المنظمة التي كانت تعدّ لهذا المؤتمر.

- حتى إني ما رأيت هذا المبلغ من المال، ولو قبضته لما كنت قادراً على التصرف به- قلت ذلك لـ(رفائيل البرتي) الذي كان يمر بباريس في تلك الأيام.

- أنت غبي جداً -أجابني (رافائيل)- تخسر منصبك القنصلي في سبيل إسبانيا، وتمشي بأحذية مفتقة ولا تخصص لنفسك من هذا المبلغ بضعة آلاف من الفرنكات لمصاريفك الضرورية لقاء عملك.

نظرت إلى حذائي فرأيت أنه فعلاً كان مفتوقاً، فأهدى إليّ (البرتي) زوجاً من الأحذية الجديدة.

خلال بضع ساعات سننطلق باتجاه مدريد مع بقية المندوبين جميعهم. وجدنا أنفسنا، أنا وزوجتي (ديليا) و(أمبارو غونثاليث تونيون Amparo Conzalez Tunon)، أننا مثقلون برسائل الكتّاب التي كانت تصلنا من أطراف المعمورة بأسرها، كانت تأشيرات الخروج من لدن السلطات الفرنسية تسبب لنا مشاكل كثيرة. عملياً سيطرنا على مكتب الشرطة المسؤول عن إعطاء التأشيرات في باريس، حيث كانت تمتد هناك هذه اللوازم الضرورية التي كانت تسمى بشكل تهكمي Recipisson أحياناً كنا نحن بأنفسنا نطبع على جوازات السفر بهذه الآلة الفرنسية الرفيعة المدعوة Tampon.

- بين نارويجيين وإيطاليين وأرجنتينيين، وصل من المكسيك الشاعر (أوكتابيو باث)[١]، بعد أن قام بألف مغامرة سفرية هنا وهناك. لقد كنت أشعر بالافتخار لأني أحضرته للمشاركة في المؤتمر. كان قد نشر ديواناً واحداً، كنت قد استلمته قبل شهرين من مجيئه، فبدا لي أنه يحتوي على نواة حقيقية من الشعر. لم يكن يعرفه في ذلك الوقت أحد غيري.

جاء ليراني صديقي القديم (ثيسار باييخو) بوجه مكفهر، كان غاضباً لأن زوجته ما أعطيت بطاقة سفر، وكانت هذه الزوجة ثقيلة لا يتحملها أحد. حصلت بسرعة

---

(١) اوكتابيو باث: شاعر مكسيكي ولد عام ١٩١٤.

على بطاقة لها فأخذ البطاقة (باييخو) وخرج شاحب الوجه كما جاء . كان يجري له شيء تأخرت بضعة أشهر في اكتشافه .

«أم الخروف»[1] كانت ما يلي : كان قد وصل إلى باريس لحضور المؤتمر ابن بلدي ومواطني (بيثينته هويدوبر)[2] . كنا ، أنا و(هويدوبرو) متعادين متخاصمين لا يحيِّي أحدنا الآخر ، فيما كان هو صديقاً حميماً لـ(باييخو) واستغل هذه الأيام في باريس كي يملأ رأس صاحبي الساذج بمفتريات عني . ثم توضح كل شيء بعد حديث صاخب أليم جرى بيني وبين (باييخو) .

لم يكن قد خرج من قبل قطار مكتظ بالكتاب من محطات باريس كما كان عليه ذلك القطار الذي أقلنا إلى مدريد . عبر ممرات القطار كنا نتعارف أو نحلّ التعارف وننتهي إلى خصام . ذهب بعضهم إلى النوم ، آخرون كانوا يدخنون تباعاً بشكل لا ينتهي . لقد كانت إسبانيا بالنسبة للكثيرين منهم لغزاً وكانت وحي تلك الفترة من التاريخ .

لقد تنحى (باييخو) و(هويدوبرو) ناحية من القطار . توقف (اندريه مالرو)[3] لحظة للحديث معي في تشنجات وجهه ومشمعه على كتفه . كان هذه المرة يسافر وحده إذ إنني قبل كنت أراه دائماً مع الطيار (كورتون-موغلينيير) الذي كان المنفذ الرئيسي لمغامراته عبر سماوات إسبانيا : مدن ضائعة يكشفها ويغير عليها بطائراته أو يزود الجمهورية بالطائرات .

أذكر أن القطار توقف لزمن طويل في الحدود . يبدو أن (هويدوبرو) أضاع حقيبته . بما أن الناس جميعهم كانوا مشغولين أو منشغلين بسبب تأخر القطار فما كان أحد منهم ليهتم به وبحقيبته . فجاء هذا الشاعر التشيلي بأسوأ اللحظات يبحث عن حقيبته ، وتوجه نحو رئيس الحملة (مالرو) الذي كان عصبياً بطبعه ، وكان قد وصل إلى الحد الأقصى من الإرهاق بسبب كومة المشاكل الملقاة على عاتقه ، ربما لم يكن يعرف (هويدوبرو) من قبل لا اسماً ولا شكلاً ، وحين اقترب منه وهو على الرصيف لإخباره بفقدان حقيبته ، فقد (مالرو) ما تبقى له من الصبر وضاق ذرعاً به ، فصاح -

---

(١) أم الخروف : تعبير إسباني بمعنى مفتاح السر .

(٢) بيثينته هويدوبرو : شاعر من تشيلي (١٨٩٣-١٩٤٨) .

(٣) أندريه مالرو : شاعر وسياسي فرنسي ولد عام ١٩٠١ .

هذا ما سمعته- . «حتام تزعج حضرتك الناس كلهم؟ اذهب» je vous emmerde[(١)] .

شاهدت صدفة هذا الحادث الذي أذلّ غرور الشاعر التشيلي وزهوه . كنت أفضل لو أني كنت على بعد ألف كيلومتر من هناك في تلك اللحظة ، لكن الحياة غريبة الأطوار تأتي بالمفارقات والصدف العجيبة . لقد كنت أنا الشخص الوحيد الذي كان يكرهه ويمقته (هويدوبرو) ممن كانوا يسافرون في القطار وكان من نصيبي أنا ، وثالثة الأثافي أنني تشيلي مثله ، أن أكون الشاهد الوحيد على الإهانة التي لحقته في تلك الحادثة .

حين تابع القطار السفر وقد حل الليل وبدأنا نتدحرج على أرض إسبانيا ، فكرت في (هويدوبرو) ، في حقيبته ، وباللحظة الحرجة التي عانى منها ، عند ذلك التفتُّ إلى بعض الكتاب الشبان من جمهوريات منتصف أمريكا الذين وفدوا إلى غرفتي في القطار وقلت لهم :

- رجاء ، اذهبوا لتروا (هويدوبرو) فقد يكون وحيداً حزيناً خائباً . ذهبوا ليعودوا بعد عشرين دقيقة وهم فكهون يستهزئون منه إذ إنه قال لهم : «لا تكلموني عن الحقيبة الضائعة ، فليس لهذا أهمية ، بل ما هو خطير جداً أنه بينما جامعات «تشيكاغو» و«برلين» و«كوبنهاغين» و«براغ» تمنحني ألقاباً تشريفية ، أجد أن جامعات بلادكم الصغيرة القليلة الأهمية هي الوحيدة التي تصرّ على تجاهلي وحتى إنها لم تدعني لإلقاء محاضرات حول مذهب الخلق الإبداعي» .

أخيراً وصلنا إلى مدريد ، فيما كان المؤتمرون الزوار يتلقون الترحاب ويوزعون على الفنادق ، أردت أن أرى من جديد داري التي كنت قد تركتها مغلقة منذ حوالي عام ، كتبي وأشيائي ، فقد تركت فيها كل حاجاتي . وكانت هذه الدار عبارة عن شقة في بناية مسماة «دار الزهور» عند مدخل المدينة الجامعية . كانت الفرق المتقدمة من قوات (فرانكو) تتاخم هذه المنطقة ، وكانت تتقدم أحياناً فتستولي عليها إلى درجة أن المنازل الكائنة هنا غيرت عدة مرات أصحابها ما بين الجمهوريين والفرانكويين .

توصل (ميغيل ايرنانديث) وكان يرتدي زي المحاربين المتطوعين (ميليشياً) ويتنكب بندقيته ، إلى الحصول على عربة لشحن كتبي وما كان يهمني أخذه من أثاث بيتي .

---

(١) الكلام بالفرنسية : معناه «كل خراء» .

صعدنا إلى الطابق الخامس وفتحنا في شغف باب الشقة . كانت طلقات الرشاشات قد كسرت النوافذ وخرّقت أجزاء من الحيطان ، والكتب كانت قد انهارت من على الرفوف ، وكان من المستحيل أن نرشد بين الأنقاض إلى ما كنا نريد حمله . على كل حال بحثت عن بعض الأغراض في تخبط . والغريب في الأمر أن الأثواب والملابس والحاجات التافهة أو غير المفيدة كانت قد اختفت ، فقد اختطفها الجنود الغزاة أو المدافعون ، فيما كانت الحلل والقدور وآلة الخياطة والصحون والأواني غارقة هناك في الفوضى ولكنها ناجية بنفسها سليمة ، لم يبق أثر لبدلتي القنصلية الرسمية ولا أقنعتي «البولونيزية» ولا سكاكيني الشرقية .

- إن الحرب لهي كثيرة الأهواء غريبة الأطوار كالأحلام ، يا (ميغيل) .

وجد (ميغيل) هناك بين الأوراق المبعثرة على الأرض بعض النسخ الأصلية من مؤلفاتي . إن تلك الفوضى كانت باباً نهائياً يغلق في حياتي . قلت لـ(ميغيل) :

- لا أريد أن آخذ شيئاً .

- لا شيء؟ ، ولوكان كتاباً؟

- ولو كان كتاباً - أجبته .

وعدنا بالعربة فارغة .

(الأقنعة والحرب)

. . . منزلي أمسى بين حجري الرحى . . . من هناك يتقدم المغاربة والإيطاليون . . . من هنا يتقدم أو يتقهقر أو يصمد المدافعون عن مدريد . . . المدفعية بقنابلها اخترقت الجدران . . . النوافذ تهشمت دقاقاً فتاتاً . . . عثرت على بقايا الرصاص بين كتبي الطريحة الأرض . . . لكن أقنعتي ، أين أقنعتي؟ ، لقد ولّت . . . أقنعتي التي التقطتها في «سيام» في «بالي» في «سوماطرا» ، في أرخبيل «الملايو» ، في «باندونغ» . . . مذهبّة ، رمادية اللون ، بلون الطماطم ، بحواجب فضية ، زرقاء ، جهنمية ، متجهمة ، مقطبة . أقنعتي كانت الذكرى الوحيدة لذلك الشرق الأول الذي وصلت إليه متوحداً فاستقبلني بمسكه : أريج الشاي ، رائحة الروث ، شميم الأفيون ، فوح العرق ، شذى الياسمين ، عبير النعناع ، عطر الفاكهة العفنة في الشارع . . . إن تلك الأقنعة لهي ذكرى الرقصات النقية جداً ، ذكرى التجليات أمام المعابد . . . إنها لقطرات خشبية ملونة بالأساطير ، لبقايا معتقدات مزدهرة ترسم في

الهواء أحلاماً ، عادات ، شياطين ، غرائب لم تعرفها من قبل طبيعتي الأمريكية . . . وإذن . . . ربما أن المحاربين وضعوها على وجوههم وأطلُّوا من نوافذ منزلي كي يرعبوا بها المغاربة[1] ، بين طلقة وطلقة . . . كثير منها غدا مزقاً أرباً مدماة ، هناك عند النوافذ . . . بعضها تدحرج من طابقي السابع[2] وقد اقتلعته طلقة من الطلقات . . . هناك قبالتها تمركزت قوات (فرانكو) المتقدمة . . . تجاهها كانت تزعق شرذمة المرتزقة الأميين . . . من بيتي ثلاثون قناعاً لآلهة من آسيا شرعت بالرقصة الأخيرة ، رقصة المنية . . . كانت لحظة هدنة . . . كانت المواقع قد تبدلت . . . جلست أنظر إلى النفايات ، إلى لطخات الدم في الحصيرة . . . ثم سرحت بنظري من خلال النوافذ الجديدة ، أي من خلال الفجوات التي أحدثها الرشاش ، نحو البعد ، نحو المدى ، إلى ما وراء المدينة الجامعية ، نحو السهول ، نحو القلاع القديمة . . . بدت لي فارغة ، إسبانيا . . . بدا لي أن أواخر ضيوفي قد رحلوا إلى الأبد . . . بأقنعة أو بلا أقنعة ، بين الطلقات والأناشيد الحماسية ، بين الفرح المجنون ، بين الدفاع غير المصدق . . . بين المنية أو الحياة ، ذاك كان قد انتهى بالنسبة لي . . . لقد كان السكون الكبير غب الوليمة . . . بعد الحفلة الأخيرة . . . بشكل من الأشكال ، مع الأقنعة التي رحلت ، مع الأقنعة التي سقطت ، مع الجنود الذين ما دعوتهم أبداً إلى بيتي ، رحلت عني كذلك إسبانيا . . .

---

(١) كان على شاعر عظيم مثل (نيرودا) أن يميز بين فرقة من المرتزقة وبين شعب بكامله ، وكان عليه ألا يتمادى في هذه الكراهية تجاه المغاربة .

(٢) كان من قبل قد ذكر أنه الخامس ولعله هنا يقول السابع على سبيل المبالغة والمجاز .

الفصل السادس
خرجت أبحث عن شهداء

اخترت طريقاً:

مع أني استلمت هوية الانتساب في وقت متأخر بتشيلي، حين انخرطت رسمياً في الحزب، فإني أعتقد أني حددت نفسي أمام نفسي شيوعياً خلال الحرب الأهلية في إسبانيا. إن أشياء كثيرة ساهمت في قناعتي العميقة.

كان زميلي المتناقض، الشاعر «النيتشي»[١] (ليون فيليب Le'on Filipe)[٢] رجلاً رائعاً حقاً. أحسن ما فيه من جاذبية كان حسه الفوضوي[٣] بالعصيان وبالتمرد التهكمي. ففي أوج الحرب الأهلية تبنّى بسهولة المذهب الفوضوي ذا الجاذبية الذي كان يتمثل في «اتحاد الفوضويين الأيبريين»[٤]. كان يخفّ دوماً إلى الجبهات الفوضوية حيث يعرض أفكاره وينشد قصائده المعادية للدين. كانت هذه القصائد تعكس عقيدة تدعو على إلغاء السلطة بشكل غامض، وتعادي الكنيسة ورجالها بتحريض وكفر وإلحاد. كلماته كانت تأسر المجموعات الفوضوية التي كان يتضاعف عدد أفرادها بشكل هائل يوماً بعد يوم في مدريد، بينما سكان المدينة كانوا ينطلقون إلى جبهة المعركة التي كانت تقترب أكثر فأكثر منها. كان الفوضويون قد دهنوا الحافلات والسيارات نصفها أحمر والنصف الآخر أصفر. كانوا يبهرجون بلبد شعرهم ولحاهم، وأطواقهم وأساورهم من الرصاصات، مهرجان إسبانيا المحتضر. لقد رأيت العديد منهم وهم ينتعلون أحذية رمزية نصفها من جلد أحمر والنصف الآخر من جلد أسود، ولا بد أن صنعها قد كلف الإسكافية جهداً جهيداً. ولا يظنن أحد أنهم

---

(١) النيتشي: نسبة إلى (نيتشه) الفيلسوف الألماني المشهور.

(٢) ليون فيليب: شاعر إسباني مات في المكسيك (١٨٨٤-١٩٦٨) ترجمنا له وعنه في كتابنا المذكور.

(٣) الفوضوي: نسبة إلى المذهب الفوضوي وليس إلى الفوضى.

(٤) اتحاد الفوضويين الأيبيريين Federaction Anarquista Ibe'rica ويعرف بحروفه الأولى.

كانوا عبارة عن فرقة تمثيلية متجولة غير قادرة على الدفاع ؛ إذ إن كل واحد منهم كان يحمل سكاكين ، مسدسات ضخمة ، بنادق سريعة الطلقات وبنادق خفيفة الخ . كانوا يتربعون عند مداخل أبواب الأبنية الرئيسية ، فرقاً فرقاً ، بعضهم كان يدخل ، الآخر يبصق ، وهم يستعرضون بنادقهم ويهددون بأسلحتهم . كان همهم الرئيسي هو قبض إيرادات من المستأجرين الفزعين أو بالأحرى جعل هؤلاء الناس يتركون لهم بمحض إرادتهم حليهم ، خواتمهم وساعاتهم .

كان (ليون فيليبه) يعود من إحدى محاضراته الفوضوية وقد حل الليل حين التقينا في مقهى يقع بزاوية العمارة التي كنت أسكن فيها . كان الشاعر يرتدي بردة إسبانية تليق به في لحيته الناصرية[1] . حين خرجنا من المقهى لمس بأحد هدّاب بردته الرومانطيكية الأنيقة أحد رفاقه الحساسين . لا أعرف في ما إذا كانت الوجاهة ومظهر النبيل العريق الذي كان يبدو على (ليون فيليبه) هما ما أزعج ذاك «البطل» من الطليعة المناضلة ، لكن ما هو أكيد أننا اعتقلنا على بعد بضعة خطوات من مكان ذلك الحادث ، من لدن مجموعة من الفوضويين يترأسهم ذاك الذي أهين عند مدخل المقهى . أرادوا التحقق من أوراقنا وبعد أن ألقوا عليها نظرة قادوا الشاعر «الليوني»[2] وهو محاط من جانبيه برجلين مسلحين .

بينما كانوا يأخذونه إلى ساحة الرمي القريبة من داري ، والتي كانت فرقعتها الليلية لا تدعني أنام وذلك في مناسبات عديدة ، رأيت اثنين من المليشيا المسلحة وهما يعودان من الجبهة ، شرحت لهما الأمر وعرّفتهما من هو (ليون فيليبه) وأنبأتهما بالخطر الذي ينتظره ، فاستطعت بفضلهما أن أعتق صديقي .

إن هذا الجو من البلبلة العقائدية ومن التهديم الرخيص ، جعلني أفكر كثيراً . لقد عرفت مأثر رجل فوضوي غساوي عجوز حسير البصر ، وبلبدة طويلة شقراء تخصص في القيام بـ«تنزّهات» ، وكوّن فرقة أسماها «شروق» لأنها كانت تفعل ما تفعل عند شروق الشمس .

- ألم تشعر حضرتك مرة بألم في الرأس؟ كان يسأل الضحية .
- بلى ، طبعاً ، بعض المرات .

---

(١) الناصرية : نسبة إلى مدينة الناصرة بفلسطين ، أي أنها تشبه لحية المسيح الناصري .

(٢) الليوني : نسبة إلى مدينة الشاعر Le'on ، وهي مدينة بشمال إسبانيا ، ومعنى الاسم : أسد .

- إذن سأعطيك مسكناً للآلام - كان يقول لهذه الضحية ذلك الفوضوي النمساوي ، فيصوب المسدس إلى جبين الضحية ويطلق النار .

فيما كانت هذه العصابات تتكاثر في ليل مدريد الأعشى ، كان الشيوعيون هم القوة الوحيدة المنظمة التي خلقت جيشاً لمجابهة الألمان والإيطاليين والمغاربة ورجال الكتائب[١] «الفلانج» (Falangistas) وكانوا في الوقت نفسه القوة المعنوية التي تنمي المقاومة والنضال ضد الفاشية .

ببساطة : كان عليّ أن أختار طريقاً . وهذا ما فعلته أنا في تلكم الأيام ولم أندم أبداً على قرار اتخذته بين دياجير تلك الفترة المأساوية وأملها .

(رافائيل البرتي):

إن الشعر لهو دوماً فعل سلم . إن الشاعر يولد من السلام كما يولد الخبز من الدقيق .

إن المُشعلين ، والحربيين ، والذئاب ، يبحثون عن الشاعر ، لحرقه ، لقتله ، لعضّه ، عربيد يجيد الضرب بالسيف ترك (بوشكين)[٢] جريحاً جرح موت بين أشجار غابة مظلمة . أحصنة عدت محمومة فوق جثة (بيتوفي)[٣] ، مصارعاً ضد الحرب مات (بايرون)[٤] في اليونان ، الفاشيون الأسبان بدأوا الحرب في أسبانيا باغتيال أحسن شعرائها .

إن (رفائيل البرتي) يمكن أن ندعوه الناجي من الموت . ألف ميتة كانت قد أعدّت له ، واحدة في غرناطة كذلك ، ميتة أخرى كانت تنتظره في «باداخوث»[٥] ، كانوا يبحثون عنه في «اشبيلية» المفعمة بالشمس أو في وطنه الصغير «كاديث»[٦] أو

---

(١) الكتائب Falange : هو حزب أسسه (خوسه أنطونيوبريمو دي ريبيرا) (١٩٠٣-١٩٣٦) .

(٢) بوشكين Aleksandr : الشاعر والروائي الروسي الشهير جداً (١٧٩٩-١٨٣٧) .

(٣) بيتوفي Sandor : شاعر من هونغاريا (١٨٢٢-١٨٤٩) .

(٤) بايرون : شاعر إنجليزي معروف (١٧٨٨-١٨٢٤) .

(٥) باداخوث : هي مدينة تقع في جنوب غرب مدريد ، كان العرب يدعونها ، بطليوس .

(٦) كاديث : هي مدينة أسسها الفينيقيون على الساحل الجنوبي من إسبانيا ، وكان العرب يسمونها قادش .

في «بورتو دي سانتا ماريا»[1] ، يبحثون عنه في كل مكان لطعنه بالخناجر ، كي يقتلوا فيه الشعر ، مرة أخرى .

لكن الشعر لم يمت ، إن للشعر لأرواح القطة السبع . قد يزعجونه ، قد يجرجرونه ، قد ينفونه ، قد يحبسونه ، قد يفرغون فيه أربع طلقات ، لكن الشعر يخرج من هذه الحوادث العرضية بوجه نقي وبابتسامة من أرز .

لقد عرفت (البرتي) في شوارع مدريد بقميص أزرق وربطة عنق ملونة ، عرفته مناضلاً في صفوف الشعب حين لم يكن هناك شعراء كثر يؤدون هذه المهمة الصعبة ويقومون بهذا المصير الخطير . لم تكن قد قرعت الأجراس[2] في أسبانيا ولم يكن قد دق ناقوس الخطر بعد ، لكنه كان يعرف ما يمكن أن يأتي به الغد . إنه لرجل من الجنوب ، ولد إزاء البحر المدوي ، قرب خوابي النبيذ الأصفر[3] كالزبرجد . لقد جبل قلبه من نار الأعناب من هدير الموج . لقد كان شاعراً منذ قلامة أظفاره مع أنه ما كان يدري بهذه الموهبة المختزنة آنذاك[4] ، ثم عرف هو ، ثم عرفته إسبانيا ، ثم عرفه العالم كل العالم شاعراً كبيراً .

إن (رفائيل البرتي) يعني بالنسبة لنا نحن الذين كان لنا الحظ في التكلم بالإسبانية وفي معرفة هذه اللغة القشتالية ، بريق الشعر في هذه اللغة . ليس هو بشاعر فطري مطبوع فحسب ، بل هو كذلك عالم بالصيغ الشعرية . إن لشعره ، كما الوردة الحمراء المزدهرة في الشتاء بأعجوبة ، ندفة ثلج من (غونغورا) ، جذراً من (خورخه مانريكه)[5] ، تويجا من (غارثيلاسو) [6] ، شذى متشحاً بالحداد من

---

(١) بورتو دي سانتا ماريا : هي قرية على الساحل قرب «قادش» حيث ولد (البرتي) .

(٢) إشارة إلى رواية (همنغواي) المشهورة ، لمن تقرع الأجراس؟

(٣) تشتهر «قادش» وضواحيها بهذا النوع من النبيذ المسمى «خيريث» باسم البلدة التي كان العرب يدعونها ، شريش ، ولهذا فإن هذا النبيذ يعرف عالمياً ، وبخاصة في إنجلترا باسم «شريش» (Cherry) .

(٤) إشارة إلى أن (البرتي) بدأ رساماً إلى أن شرع في كتابة الشعر فربح الجائزة القومية للآداب عام ١٩٢٥ عن ديوانه «بحار في البر» .

(٥) خورخه مانريكه : شاعر إسباني (١٤٤٠-١٤٩٧) .

(٦) غارثيلاسو : شاعر إسباني (١٥٠١-١٥٣٦) .

(غوستافو أدولفو بيكر)[1] أي أنه في كأسه الشفافة ، تنصهر أغاني إسبانيا الجوهرية .

لقد أضاءت هذه الوردة الحمراء في إسبانيا درب من حاولوا منع الفاشية والوقوف في وجهها . إن العالم كله ليعرف هذا التاريخ البطولي المأساوي . لم يكن (البرتي) يكتب القصائد الملحمية فحسب ، بل كان ينشدها في الثكنات وفي الجبهات ، وهو الذي ابتدع حرب العصابات الشعرية ، اخترع الحرب الشعرية ضد الحرب ، خلق الأغاني التي راشت ورفرفت تحت قصف المدافع ، ثم راحت من بعد تحلّق في كل سماء وفوق كل أرض .

إن هذا الشاعر ذا النسب العريق النقي الأصيل علّم العالم كيف يكون الشعر نفعاً عاماً وخدمة اجتماعية في لحظة حاسمة حرجة من تاريخ العالم . وهو في هذا يشبه (ماياكوفيسكي Maiakovski) . إن هذا الانتفاع الشعبي بالشعر يعتمد على القوة ، على الحنان ، على الفرح ، على الجوهر الحقيقي . إن الشعر من غير هذه المزية يرن ولكنه لا يغنّي .

نازيون في تشيلي:

لقد عدت مرة أخرى في الدرجة الثالثة بالباخرة إلى تشيلي . مع أنه ليس لنا في أمريكا اللاتينية ظاهرة أن يغدو كتّاب بارزون مثل (ثيلينه Ce'lie)[2] ، (دريو لا روشيل) ، (عزرا باوند) خائنين ، في خدمة الفاشية ، فقد كان لدينا تيار قوي منتعش بشكل طبيعي أو اصطناعي بالتيار الهتلري . ففي الجهات جميعها كانت تتألف مجموعات صغيرة تقف لترفع الذراع بالتحية الفاشية ، متنكرة بأنها حرس وطني . ولم يكن الأمر مقتصراً على هذه المجموعات الصغيرة فحسب ، بل إن الطبقة الحاكمة الإقطاعية في هذه القارة كانت تتعاطف (وما زالت) مع كل من يعمل ضد الشيوعية ، سواء أكان ألمانياً أو من اليسار المتطرف في صفوف (كريويا) ، أضف إلى هذا ، أن مجموعات كبيرة من سلالات ألمانية الأصل كانت تستوطن مناطق معينة في تشيلي والبرازيل والمكسيك وتشكل فيها الأكثرية من السكان . ولقد أسرت هذه

---

(١) غوستافو أدولفو بيكر : شاعر إسباني رومانطيكي (١٨٣٦-١٨٧٠) .

(٢) ثيلينه Louis Ferdinand : طبيب وكاتب فرنسي (١٨٩٤-١٩٦١) .

الفئات جميعها وحلبت بطلوع (هتلر) النيزكي وحكايا العظمة الألمانية الخرافية الألفية وعودتها إلى الدنيا .

في تلكم الأيام من المجد المدوّي والنصر الصاخب للهتلرية ، كان عليّ أن أعبر أكثر من مرة شارعاً في قرية أو مدينة بجنوب تشيلي تحت غابات حقيقية من رايات ذات صلبان معقوفة . في إحدى المناسبات ، بإحدى القرى الصغيرة الجنوبية ، رأيتني مضطراً لاستعمال الهاتف الوحيد في ذلك المكان ، فكان عليّ أن أحني رأسي على غير إرادتي إجلالاً للفوهرر ، إذ إن صاحب ذلك المحل الألماني كان قد «تعبقر» فوضع آلة الهاتف في هيئة تجبر المرء على أن يبقى في حالة استعداد وذراعه مرفوعة نحو الأعلى باتجاه صورة لهتلر كانت هناك معلقة .

لقد كنت مديراً لمجلة «أورورا دي تشيلي»[1] : المدفعية الأدبية قاطبة (لم يكن لدينا من مدفعية غير هذه المدفعية) أخذت تشن طلقاتها ضد النازيين الذين كانوا يستولون على البلدان بلداً إثر بلد فيبتلعون ما كانوا يكتسحون . في تلك الأوقات أهدى السفير الهتلري بتشيلي كتباً مما يدعى بالثقافة الألمانية الحديثة ، إلى المكتبة الوطنية ، فأجبنا على هذا بتوجيه نداء إلى قرائنا نطلب منهم أن يرسلوا لنا الكتب الحقيقية الألمانية لألمانيا الحقيقية التي كان (هتلر) قد منع تداولها بين الناس ، فكان هذا تجربة عظيمة ، إذ إننا استلمنا أسفاطاً كثيرة محزومة ومرتّبة بشكل صحيح جيّد لم تكن تحتوي إلا على نجاسات وأقذار . تلقيت أنا تهديدات بأني لا بد مقتول ، استلمنا كذلك مجموعات كاملة من صحيفة «ستورنير» وكانت صحيفة مختصة بوصف العهارة والبغاء ، سادية وضد السامية ، كان يرأس تحريرها (جوليوس ستريشار)[2] الذي أعدم من بعد في «نوريمبورغ» فلاقى قصاصه المستحق . لكن ، شيئاً فشيئاً ، وعلى حذر ، بدأت تصلنا منشورات باللغة الألمانية منها كتب (هينريش هاينه)[3] و(توماس مان)[4] و(أنا سيغيرس) و(أرنولد زويغ)[5] . حين حزنا على

---

(١) أورورا دي تشيلي : معناها ، فجر تشيلي .

(٢) جوليوس ستريشار : سياسي ألماني (١٨٨٥-١٩٤٦) .

(٣) هينريش هاينه : شاعر ألماني (١٧٩٧-١٨٥٦) .

(٤) توماس مان : روائي ألماني (١٨٧٥-١٩٥٥) .

(٥) أرنولد زيغ : كاتب ألماني يهودي ، ولد عام ١٨٨٧ .

خمسمائة مجلد من الكتب توجهنا إلى المكتبة الوطنية لنودعها هناك .
يا للمفاجأة! كانت الأبواب قد أغلقت في وجهنا بأقفال متينة .
إذّاك نظمنا مسيرة وتسللنا إلى مدرج الجامعة هناك ونحن نحمل صور الأب (نوميير)[1] و(كارل فون اوسيتيسكي)[2] ، ولست أدري بأية مناسبة كان يجري احتفال برعاية السيد (ميغيل كروتشاغا توكورنال) وزير الشؤون الخارجية حينذاك . وضعنا الكتب واللوحة في سدة الرئاسة حيث كان الوزير ، وربحنا المعركة إذ إن الكتب قد قبلت منا وظلت هناك .

ايسلا نيغرا[3] Isla Negra:

فكرت في أن أنصرف إلى عملي بإخلاص أكثر وقوة أشد . لقد كان تماسي بأسبانيا قد عززني وأنضجني ، فلقد حان أن تنتهي ساعات شعري المرّة وآن لي أن أبدأ شيئاً جديداً ، وكانت الذاتية والكآبة اللتان صبغتا قصائد ديواني «عشرون قصيدة حب» والحالة الأليمة المؤثرة التي طبعت «مقام في الأرض» تقترب من نهايتها . بدا لي أني عثرت على عرق معدن دفين ، ليس تحت الصخور في باطن الأرض ، بل تحت أوراق الكتب . أفي مكنة الشعر أن يخدم أشباهنا من بني البشر؟ أفيستطيع أن يصاحب الإنسان في صراعه ونضاله؟ لقد كنت أفرطت في المسير في درب اللامعقول ، وفي مجال ما هو سلبي ، فكان لا بد لي من أن أوقف نفسي عن هذا وذاك وأن أبحث عن طريق ما هو إنساني ، مبتعداً عن الأدب المعاصر ولكن بجذور عميقة تمتد إلى تطلعات الكائن البشري .
لقد شرعت بالعمل في كتابي «نشيد عام» .
ولهذا فإني كنت أحتاج إلى مكان للعمل ، وجدت بيتاً حجرياً يواجه المحيط ، في موضع غير معروف ، يدعى «ايسلا نيغرا» . كان صاحب هذا البيت قبطاناً إسبانياً ، اشتراكياً قديماً اسمه (ايلاديو سوبرينو) ، كان هذا السيد يبنيه ليسكن فيه

---

(١) نيوميير Martin : هو عالم باللاهوت وراهب بروتستانتي ألماني ، ولد عام ١٨٩٢ .
(٢) كارول فون اوسيتسكي : كاتب ألماني وداعية للسلم (١٨٨٩-١٩٣٨) .
(٣) ايسلانيغرا : معناها ، جزيرة سوداء ، وهي قرية صغيرة على الساحل بتشيلي ، كان للشاعر هناك منزل فيها .

وعائلته لكنه شاء أن يبيعه لي ، فكيف ابتعته؟ عرضت مشروع كتابي «نشيد عام» على دار النشر «ايرثيا» التي كانت تنشر مؤلفاتي لكنها رفضت ذلك . فاستطعت بمعاونة ناشرين آخرين دفعوا مقدماً ، ومباشرة إلى صاحب البيت ، أن أشتري في عام ١٩٣٩ بيتاً للعمل في «جزيرة سوداء» .

إن فكرة قصيدة رئيسية تجمع الأحداث التاريخية والشروط الجغرافية والحياة وصراعات شعوبنا ، كانت تلح وتبدو على أنها عمل عاجل لا بد لي من تأديته . فسمحت «جزيرة سوداء» بما لها من شاطئ بكر وحركة المحيط الصاخبة ، أن أنصرف في شغف وعاطفة لتشييد هذا النشيد الجديد .

احضر لي إسباناً:

غير أن الحياة أخرجتني من هناك توّا .

كانت تصل إلى تشيلي أخبار الهجرة الإسبانية المرعبة ؛ كان قد عبر الحدود الأفرنسية أكثر من خمسمائة ألف رجل وامرأة ، من المحاربين والمدنيين . فحشدتهم حكومة (ليون بلوم)[١] الفرنسية أسيرة القوى الرجعية ، في معسكرات ووزعتهم على حصون وسجون وأبعدتهم إلى المناطق الفرنسية المحاذية للصحراء الإسبانية[٢] .

كانت حكومة تشيلي قد تبدلت إذ إن أرواح الشعب الإسباني وطدت القوى الشعبية التشيلية فكان لنا حكومة تقدمية .

قررت حكومة تشيلي ، حكومة الجبهة الشعبية ، هذه إرسالي إلى فرنسا للقيام بمهمة من أنبل المهمات التي نفذتها في حياتي ، ألا وهي مهمة إخراج عدد كبير من الإسبان المنفيين هناك في سجون فرنسا ومعتقلاتها وترحيلهم إلى وطني تشيلي . . . وهكذا سيستطيع شعري أن ينتشر مثل نور متوقد يجيء من أمريكا اللاتينية بين هؤلاء الرجال المكومين الذين عانوا ما لم ينطقه أحد غيرهم من جلَد وألم وبطولة ، هكذا شعري سينصهر في المساعدة المادية التي تقدمها أمريكا اللاتينية حين تؤوي الإسبان وتساعدهم وبذلك تقوم بإيفاء دين قديم علينا لهم .

---

(١) ليون بلوم : سياسي فرنسي (١٨٧٢-١٩٥٠) .

(٢) الصحراء : هكذا في الأصل Sahara ، وهي ما ندعوه بالساقية الحمراء ، جنوب المغرب ، والمناطق الفرنسية هي أقطار المغرب العربي المستقلة .

خرجت من خلوتي وعزلتي وأنا غير قادر على الحركة ، مجصص الساق بعد إجراء عملية فيها -هكذا كانت عليه شروطي الفيزيولوجية في تلك اللحظة- فقدمت نفسي إلى السيد رئيس الجمهورية ، (بيدرو أغيره ثيردا) الذي استقبلني في مودة ومحبة .

أجل ، احضر لي آلافاً من الإسبان ، فنحن لدينا متسع من العمل للجميع ، أحضر لي صيادين ، أحضر لي باسكاويين ، قشتاليين ، أكستريمادويين[1] .

بعد أيام قليلة وأنا ما زلت مجصص الساق ، خرجت أبحث عن إسبان في فرنسا من أجل تشيلي . كانت لي مهمة محددة ، كنت قنصلاً مكلفاً بالهجرة الإسبانية إلى تشيلي . هذا ما كان ينص عليه قرار التعيين فذهبت وأنا مفتخر بلقبي هذا إلى السفارة التشيلية بباريس .

لم تكن الحكومة والوضع السياسي في وطني منسجمين ؛ فمثلاً ، السفارة في باريس ما تغير فيها موظف واحد فظلت على حالها ، وقد كان يغضب رجالها من الديبلوماسيين المصمغين فيها الأنيقين الرشيقين ، مجرد الاحتمال بأن أستطيع أن أرسل ببعض الأسبان إلى تشيلي . وضعوني في مكتب قرب المطبخ بالسفارة . ضيّفوني إلى درجة أنهم منعوا عليّ استعمال أوراق الكتابة الموجودة في السفارة . أخذ يفد إلى أبواب السفارة حشد غير المرغوب بهم من الأسبان : من محاربين جرحى ، قضاة ، محامين ، كتاب وأطباء كانوا قد فقدوا مشافيهم ، عمال من الاختصاصات جميعها .

بما أنهم كانوا يشقُّون طريقاً في معاكسة الريح ؛ هو وجوه الموظفين المقيتة ، كي يصلوا إلى مكتبي ، وبما أن مكتبي كان في الطابق الرابع من البناية ، فإن هؤلاء الموظفين فكروا بشيء شيطاني ، ألا وهو إيقاف المصعد وتعطيله . كان الكثير من الإسبان جرحى جاؤوا من معسكرات الاعتقال في أفريقيا ، فكان يحزّ في نفسي أن أراهم يصعدون الدرج في مشقة وعناء حتى طابقي الرابع ، بينما الموظفون الشرسون كانوا يتسلُّون بهذه الصعوبات ويستهزئون بي .

---

(١) أكستريمادويين : نسبة إلى منطقة في جنوب غرب إسبانيا .

شخصية شيطانية:

كي تزيد حياتي تعقيداً أخبرتني حكومة الجبهة الشعبية لتشيلي بوصول قائم بالأعمال، ففرحت كثيراً جداً نظراً لأن رئيساً جديداً في السفارة قد يلغي العراقيل التي كان الديبلوماسيون في السفارة قد أسرفوا في وضعها أمام حركة الهجرة الإسبانية. هبط من محطة Saint-Lazare شاب هزيل يضع نظارة بلا إطار Pince nez كانت تجعله يبدو وكأنه فأر عجوز، ورّاق يفحص كل شيء في تجارته، كان يبلغ من العمر حوالي أربع وعشرين سنة أو خمس وعشرين، له صوت أنثوي رفيع حاد جداً، فقال لي في صوته هذا المتقطع إنه سيعترف بي رئيساً له وإنه ما جاء إلا لمساعدتي وسيعمل تحت إمرتي مساعداً في هذا العمل العظيم من إرسال «مهزومي الحرب الأمجاد الأكارم» إلى تشيلي. وعلى الرغم من فرحي بالحصول على مساعد جديد فإن هذه الشخصية ما استراحت في روحي وما ارتحت لها، ولا راقت في عيني، وعلى الرغم من التملق والمبالغة اللذين كان يفرط فيهما فقد بدا لي أني رأيت شيئاً مزيفاً في شخصيته اللطيفة. عرفت في ما بعد أنه مع انتصار الجبهة الشعبية لتشيلي ووصولها إلى الحكم، غيَّر على حين غرة موقعه من «فارس كولمبوس» وهي منظمة يسوعية إلى عضو في الشبيبة الشيوعية، فسرّت هذه الشبيبة في أوج عهد الانخراط فيها بمواهبه الفكرية وفرحت بعضوية السيد (أريانو مارين) الذي كان يكتب مسرحيات هزلية ومقالات، وكان محاضراً لامعاً، باختصار، كان يعرف كل شيء، كما بدا لهم.

كانت الحرب العالمية الثانية على وشك الاندلاع، وكانت باريس تتوقع كل ليلة الغارات الألمانية وكانت في كل دار تعليمات نظرية وعملية كي يلجأ الأهالي في حالة غارة من الغارات إلى الملاجئ والمخابئ، كنت أروح كل ليلة إلى بيت صغير في Villiers-sur-Seine مقابل النهر كي أعود كل صباح مكدراً إلى السفارة.

توصل (أريانو مارين) هذا الحديث الوصول، في بضعة أيام قلائل، إلى أن تكون له أهمية ما حصلت عليها أنا أبداً. كنت قد قدمته إلى (نيغرين)[1] إلى (الباريث ديل بايو) وإلى بعض قادة الأحزاب الإسبانية. بعد مضي أسبوع فقط كان

---

(١) نيغرين Juan: سياسي وطبيب إسباني (١٨٨٧-١٩٥٦).

هذا الموظف الجديد يخاطبهم بـ«أنت»[١] . كان يدخل أو يخرج من مكاتب زعماء إسبان ما كنت أعرفهم أنا بنفسي ، وكانت محادثاته الطويلة معهم ، بالنسبة لي ، سراً . من حين إلى حين كان يناديني كي يريني قطعة الماس أو زمردة كان قد اشتراها لأمه أو يحكي لي عن شقراء ذات دله وغنج كانت تجبره على إنفاق مبالغ كثيرة جداً في الملاهي والحانات الباريسية . أصبح (اريبانو مارين) هذا صديقاً سريع الود لـ(أراغون) وبخاصة لـ(إلسا Elsa) اللذين ألجأناهما في السفارة لحمايتهما من حركة القمع التي أخذت تلاحق الشيوعيين ، فكان يتحفهما بملاطفات وهدايا صغيرة ، لا بد أن طبيعة هذا الشخص قد ألهمت (إلسا تريولي Elsa Triolet) إذ إنها تتكلم عنه في واحدة أو اثنتين من رواياتها .

كان عليّ أن أنتقل إلى «بروكسل» كي أحلّ هناك مشكلة مأساوية للمهاجرين ، حين كنت أخرج من الفندق المتواضع جداً حيث كنت أسكن ، وجدت نفسي على بعد فم الجرة[٢] من مساعدي اللامع الأنيق (اريبانو مارين) فأخذني في أحضانه وهو يرحب ويهلل ثم دعاني إلى الأكل في اليوم نفسه .

اجتمعنا على مائدة هناك في فندقه ، وهو أكثر الفنادق غلاء في «بروكسل» . كان قد أمر بأن توضع فوق المائدة أصص زهور ، طلب طبعاً «كافيار» و«شمبانيا» . كنت أنا خلال الأكل محافظاً على الصمت المنشغل المهموم ، فيما كنت أسمع خطط مضيفي اللذيذة ومشاريعه الشيقة وأسفاره القريبة للراحة والاستجمام ، وكان يحكي لي عن مجوهراته وتحفه ، كنت كأني أستمع إلى غني حرب جديد ولكن مع بعض علائم الخبل والعته والجنون ، وكان في حدة نظراته وفي تأكيداته الحازمة يسبب لي نوعاً من الدوار ، فقررت أن أقطع بما هو صحي[٣] وأن أكلمه بصراحة عن مشاغلي وضيق وقتي ، فطلبت منه أن نتناول القهوة في غرفته لأن عندي ما أبوح به إليه .

عند منحدر الدرج الكبير ، بينما كنا نصعد لنتحادث على حدة ، اقترب منه رجلان

---

(١) أنتِ : ضمير المخاطب يستعمل بين الأقارب والأصدقاء بينما الآخرون يتخاطبون usted ، ويقابلها بالعربية «حضرتك» .

(٢) الجرّة : هكذا في الأصل jarra ، والتعبير هنا إسباني يقابله بالعربية ، قاب قوسين أو أدنى .

(٣) بما هو صحي : تعبير إسباني ، يقابله بالعربية ، بالتي هي أحسن .

ما كنت أعرفهما من قبل فقال لهما بالإسبانية أن ينتظراه حتى ينزل بعد دقائق قليلة .

ما إن ولجت إلى غرفته حتى تركت جانباً القهوة وبدأت بالقول المعنف الطاغي :

- يبدو لي - قلت له - أنك تسير في طريق وخم قذر ، إنك تحولت إلى معتوه بالمال . قد تكون ما زلت صغيراً جداً كي تفهم ما أقوله لك ، إن واجباتنا السياسية هي جدية جداً فمصير آلاف المهاجرين في أيدينا ، ولا يمكن أن نلعب بهذا المصير ، أنا لا أريد أن أعرف شيئاً عن شؤونك وقضاياك ، لكنني أريد أن أحذرّك ، ثمة أناس يقولون بعد أن يقضوا حياة تعيسة بائسة أنه «لا أحد قدّم إليهم النصيحة الجميلة وإنه لا أحد حذّرهم من مغبة ما كانوا يفعلون» ولكن هذا لا ينطبق عليك فهأنذا أحذرك مما تفعل والعاقبة عليك وهذا ما أقوله ، ليس إلا ، والآن فإني سأنصرف .

نظرت إليه حين مددت يدي لأودّعه فرأيت الدموع تنحدر من عينيه إلى فمه ، فشعرت بشيء من الندم ، ألم أذهب بعيداً في تقريعي وتعنيفي؟

- لا تبك .

- إني لأبكي من غضب - أجابني .

ابتعدت دون أن أقول له كلمة أخرى ثم عدت إلى باريس ولم أره بعد البتة .حين نزلت رأيت هناك عند الدرج الرجلين المجهولين ينتظران ثم رأيتهما يصعدان بسرعة إلى غرفته .

إن خاتمة هذه الحكاية جرت بعد زمن طويل في المكسيك ، حيث كنت أنا هناك قنصلاً لتشيلي آنذاك . ذات يوم كنت مدعواً إلى الغداء من بين لاجئين إسبان يقيمون في المكسيك ، وكان من بينهم اثنان تذكراني .

- من أين تعرفاني؟ - سألتهما .

- نحن من كنا في «بروكسل» وصعدنا للتكلم مع زميلك (اريبانو مارين) حين رأيناك تهبط من غرفته .

قصا عليّ فصلاً غريباً للغاية . كانا قد وجداه في غرفته مغتسلاً بالدموع ، متأثراً بأزمة عصبية وقال لهما وهو في نشيج ونحيب : «لقد عانيت الآن قبل قليل ، أمراً ما عانيت مثله أبداً في حياتي كلها ، فلقد خرج (نيرودا) من هنا وهو على نية أن يخبر عنكما الـ«جيستابو»[1] في أنكما شيوعيان خطيران من إسبانيا ، فلم أستطع إقناعه

---

(١) الجستابو Gestapo : الشرطة العسكرية الألمانية .

بالعدول عن هذا الأمر الذي أزمع عليه ، ولا قدرت أن أجعله ينتظر بضعة ساعات ريثما تستطيعان الهرب ، فليس لكما إلا دقائق معدودات كي تفرا بجلديكما ، واتركا عندي حقائبكما فسأحفظها ثم أوصلها لكما حيث تكونان أو تقيمان» .

- يا له من فدم ، أبله -قلت لهما- على كل حال من حسن حظكما أنكما استطعتما أن تفلتا من الألمان .

- لكن الحقائب كانت تحتوي على تسعين ألف دولار ، وهي ملك النقابات الإسبانية فلم نستطع أن نستعيد هذا المبلغ لنعيده إلى العمال ، ولم نعد نرى المال ولا الحقائب .

من بعد عرفت أن هذه الشخصية الشيطانية قد قامت بجولة ممتعة طويلة في بلدان الشرق الأدنى ، متمتعاً بصحبة حبيبته الباريسية . على فكرة تبين كذلك أن تلك الشقراء المتدللة المتطلبة ما هي إلا طالب أشقر من جامعة السوربون .

ثم بعد مضي زمن قليل نشر في الصحف انسحابه من الحزب الشيوعي قائلاً : «إن اختلافات عقائدية عميقة تجبرني على اتخاذ هذا القرار» .

جنرال وشاعر:

إن كل رجل وصل من الهزيمة أو من الأسر كان رواية ذات فصول ، ذات نحيب ، ذات ضحك ، ذات شعور بالوحدة ، ذات غرام . بعض هذه الروايات والحكايات كان يذهلني ويأسرني .

لقد عرفت جنرالاً في الطيران ، طويل القامة ، زاهداً في الدنيا ، رجل كلية عسكرية وخبرة ودراية ، له من الأوسمة ما له ، ومن الألقاب أحسنها . هناك كان يسير عبر شوارع باريس ، ظلاً «دونكيخوتيا» للأرض الإسبانية ، عجوزاً منتصباً كحور قشتالة .

حين استطاع الجيش الفرانكي[١] شطر المنطقة الجمهورية إلى قسمين ، كان على هذا الجنرال (هيريرا) أن يعيش في الظلام المطبق المطلق ، أن يفتش خطوط الدفاع ، أن يعطي الأوامر في هذه الجبهة أو تلك ، في هذا القسم أو ذاك وهو في طائرته يحلق في الليالي المعتمة ، وفي الدياجير المظلمة فوق أراضي جيش العدو ، من حين إلى حين

---

(١) الفرانكي : نسبة إلى (فرانكو) رئيس الدولة الإسبانية .

طلقة فرانكية كانت تمر فتكاد تلمس مركبته ، ولكن هذا الجنرال لكثرة ما كان عليه أن يتحول ويحلّق ، كان يملّ ويسأم فتعلّم كي يستطيع أن يقرأ في العتمة ، طريقة «برايل» Braille . حين أتقن كتابة العميان كان دائماً يسافر لتأدية مهماته الخطيرة وهو يقرأ بالأصابع ، بينما تحته كانت تتوهج النيران وآلام الحرب الأهلية الإسبانية . لقد حكى لي هذا الجنرال أنه استطاع أن يقرأ خلال جولاته الليلية كتاب «الكونت مونت كريستو» وأنه حين أخذ بقراءة «الثلاثة المسلحون بالبنادق»قوطعت قراءته بالهزيمة ثم اضطر إلى الالتجاء إلى فرنسا .

أذكر حكاية أخرى ذات تأثير كبير في نفس كل إنسان يسمعها ، وهي قصة الشاعر الأندلسي (بيدرو غارفياس) . استقر به المنفى في قلعة للورد بـ«اسكوتلاندا» . كان هذا الحصن منعزلاً وحيداً بعيداً فكان (غارفياس) لطبيعته الأندلسية القلقة الأنيسة يروح كل يوم إلى حانة هناك في المنطقة ويجلس في صمت وسكون ، إذ إنه لم يكن يتكلم الإنجليزية بل إنه يكاد لا يتكلم الإسبانية اللهم إلا لغة أندلسية غجرية ما كنت أنها أفهمها ، يشرب كؤوس بيرته في كآبة ووحدة . لفت هذا الزبون الأخرس الأبكم نظر صاحب الحانة . ذات ليلة وقد غادر الحانة السمّار والسكارى ، التفت إليه صاحب الحانة ورجاه أن يظل عنده ليستمرا في مقارعة كؤوس الخمر حتى مطلع الفجر ، قرب نار المدفأة المتوقدة التي تقذف الشرر فتبوح بما لا يستطيعان البوح به .

لقد أصبحت هذه الدعوة طقساً وعادة . ففي كل ليلة يستقبله صاحب الحانة الوحيد مثله ، فلا امرأة تؤويه ولا أسرة تشغله أو تسليه . شيئاً فشيئاً أخذت تنفك عقد من لسانيهما فكان (غارفياس) يحكي له قصص الحرب الإسبانية كلها عن طريق صيحات وإيماءات ولعنات وتأوهات أندلسية جداً . كان صاحب الحانة يصغي إليه في سكون مهيب دون أن يفهم ، طبعاً ، ولا كلمة واحدة مما يقول مسامره .

لقد بدأ الاسكوتلاندي من جانبه ، يقص على الشاعر حكاية فشله في حياته -هذا ما كان يخيل للشاعر- حكاية هرب زوجته التي هجرته ، مآثر أبنائه الذين كانت صورهم بالأزياء العسكرية تزين الجدران حول المدخنة ، كل هذا طبعاً قد يكون هو ما كان يحكيه لصديقه ، أقول قد . . . لأن (غارفياس) كذلك ما فهم ولا كلمة واحدة مما كان يقوله الآخر ، وذلك خلال الأشهور الطويلة التي استغرقتها هذه الأحاديث الشيقة الغريبة .

غير أن صداقة هذين الرجلين الوحيدين المهجورين اللذين كانا يتحدثان في ود وعاطفة ، كل عن همومه وشؤونه بلغته التي لا يفهمها الآخر ، راحت تزداد وتنمو وتتعمق كل ليلة حتى الشروق ، وأصبحت صداقتهما ضرورية لكل منهما .

حين كان على (غارفياس) أن يرحل مضطراً إلى المكسيك ، تودّعا شاربين ، متحدثين ، متعانقين ، باكين ، حزينين . إن ما كان يحزّ في نفسيهما هو أنهما سيعودان من جديد ، كل إلى عزلته ووحدته .

- (بيدرو) - قلت له مرات كثيرة - ماذا تظن أنه كان يقص عليك!

- (بابلو) ، الحقيقة أنني ما فهمت منه كلمة ، لكن حين كنت أنصت إليه كان لديّ الشعور الأكيد أني أفهم كل ما يقول ، وحين كنت أتكلم أنا ، كنت متأكداً أنه كان يفهم كل ما أقول ، وهذا هو المهم .

الـ«وينيبيغ» Winipeg:

لقد سلمني موظفو السفارة صباح ذات يوم برقية طويلة وهم يبتسمون ، فبدا لي غريباً أنهم يبتسمون لي ؛ إذ إنهم ما كانوا يردون لي تحية ولا يبادروني بتحية ، فكيف هذا؟ لا بد أن الرسالة تحتوي على شيء بعث في نفوسهم الغبطة والفرح .

فضضتها وإذ بها برقية من تشيلي ، موقعة من لدن السيد الرئيس (بيدرو اغيره ثيردا) ، أي الشخص نفسه الذي كنت قد استلمت منه التعليمات القاطعة الحاسمة لترحيل الإسبان المنفيين من فرنسا إلى تشيلي .

قرأت في ذهول ودهشة أن السيد (بيدرو) رئيسنا الطيِّب ، علم هذا الصباح أني أقوم بمحاولة لإدخال المهاجرين الإسبان إلى تشيلي ، ففوجئ وهو يطلب مني أن أنفي هذا الخبر الغريب في أسرع وقت .

استغربت من أمر هذه البرقية التي أرسلها لي السيد الرئيس ، لقد كان عملي في التنظيم والاختيار والتسفير عملاً شاقاً وكنت أقوم به وحدي . لحسن حظي أن الحكومة الإسبانية التي تأسست في المهجر أدركت أهمية المهمة التي ألقيت على عاتقي ، لكن مع ذلك فإن مصاعب جمة كانت تنشأ كل يوم ، مصاعب غير متوقعة تعرقل أعمالي وأشغالي . أثناء ذلك كان يتهيأ من معسكرات فرنسا أو أفريقيا آلاف اللاجئين كي يرحلوا إلى تشيلي .

كانت الحكومة الجمهورية في المهجر قد استأجرت باخرة «وينيبيغ» لترحيل

اللاجئين، وهذه الباخرة ضاعفت من قدرتها عن طريق بعض التحويلات التي أجريت في آلاتها، وكانت تنتظر راسية برصيف «ترومبيلوب»، وهو ميناء صغير قرب «بوردس».

ما العمل؟ إن ذلك العمل المأساوي المكثف المضاعف، إذ إننا كنا على حافة الحرب العالمية الثانية، كان بالنسبة لي قمة وجودي ومحك قدرتي، إن رمز يديّ الممدودتين نحو أولئك المقاتلين الشجعان المطاردين، كان يعني بالنسبة لهم الإنقاذ من الفناء، وكان دليلاً على أن وطني تشيلي هو وطن مناضل كريم يحضن المناضلين الكرماء. لقد خابت آمالي وفشلت أحلامي حين استلمت برقية الرئيس.

قررت استشارة (نيغرين) في هذا الأمر. فلقد كنت محظوظاً بتعرّفي وصداقتي بالرئيس الإسباني (خوان نيغرين) وبالوزير (الباريث ديل بايو) وبآخرين من المسؤولين الإسبان الجمهوريين. كان (نيغرين) أكثرهم أهمية. لقد بدت لي دوماً السياسة الإسبانية أنها سياسة محصورة ليس لها آفاق واسعة، كأنها سياسة تخطط على مستوى محافظة أو ناحية وليس على مستوى قطر أو عالم.

كان (نيغرين) عالمياً أو على الأقل كان أوروبياً. أتم دراساته في «ليبزيغ». كانت له قيمة أكاديمية وكان يحافظ في باريس بجدارة وكرامة على هذا الظل اللامادي الذي يكون عادة لحكومات المهجر.

تحدثنا، رويت له قصة البرقية الرئاسية الغريبة التي جعلتني فعلاً أبدو وكأني دجّال، محتال، ثرثار، مهذار، يقدم لشعب من المنفيين ملجأ لا يوجد. وقلت له إن الحلول الممكنة هي ثلاثة لا رابع لها، الأول مستنكر فظيع كريه وهو أن أعلن ببساطة أني ألغيت موضوع هجرة الإسبان إلى تشيلي، الثاني، مأساوي وهو أن أعلن علنياً عدم موافقتي وإنهاء مهمتي ثم أطلق رصاصة في صدغي، الثالث غير مناسب وهو أن أملأ الباخرة بالمهاجرين وأن أذهب معهم وننطلق من غير إذن أو سماح نحو «بالبارائيسو» لنرى ماذا سيحدث.

ارتمى (نيغرين) نحو الخلف في مقعده وسحب من سيجاره الكبير ما سحب، ثم ابتسم في كآبة وأجابني:

- ألا تستطيع استعمال الهاتف؟

كانت الاتصالات الهاتفية بين أوروبا وأمريكا في تلك الأيام على غاية من الصعوبة والتعقيد إلى درجة لا تطاق، إذ لا بد من انتظار ساعات وساعات ومع ذلك

فقد اتصلت بتشيلي فاستطعت أن أسمع في ضجيج كبير يبعث على صمم الآذان، صوت وزير الخارجية النائي البعيد، من خلال محادثة متقطعة كان يجب أن تعاد عشرين مرة، دون أن نعرف إن كان يفهم بعضنا الآخر، ونحن من حين إلى حين نصرخ صراخاً هائلاً، أو نسمع الجواب يأتينا كأنه صخب محيط هائج، اعتقدت أني جعلت الوزير (اورتيغا) يفهم أني لن أمتثل لتناقض كلام الرئيس، وأعتقد أني فهمت منه أنه يطلب مني أن أنتظر حتى اليوم التالي.

فقضيت، كما هو منطقي، ليلة مزعجة في فندقي الصغير بباريس. في مساء اليوم التالي عرفت أن الوزير قدّم في ذلك الصباح استقالته، فهو كذلك لم يكن ليقبل بتجريدي من الصلاحيات التي خولّها إليّ الرئيس، فارتعدت الحكومة واستعاد رئيسنا الطيِّب الذي كان قد شوّش وبلبل نتيجة ضغوط مارسها بعضهم عليه، فاستلمت برقية جديدة تشير أن أستمر بعملية التهجير.

أخيراً شحنّا المهاجرين في باخرة «وينيبيغ»: على ذلك الرصيف اجتمع الزوج بزوجته، الأب بابنه، بعد أن كانوا مفترقين لزمن طويل، وكان بعضهم يأتي من طرف في أوروبا أو أفريقيا وبعضهم يأتي من الطرف الآخر. حين يصل قطار كان الناس المنتظرون يخفُّون لرؤية ذويهم وأصحابهم، يعرف بعضهم بعضاً بين الدموع والصراخ والركض والازدحام، وكان القادمون يخرجون رؤوسهم من نوافذ القطار ويشرئبون لعلهم يستعجلون رؤية من فقدوه من أهلهم وأقربائهم، كانت هذه الرؤوس تبدو كأنها عناقيد إنسانية، ثم تلاقوا وصعدوا معاً إلى الباخرة فرحين باكين. منهم الصيادون ومنهم الفلاحون ومنهم العمال ومنهم المثقفون، كانوا عينة إسبانية من القوة والبطولة والعمل. إن شعري في نضاله قد استطاع أن يحصل لهم على وطن فكنت بهذا مفتخراً وشعرت بالاعتزاز.

اشتريت صحيفة. كنت أسير عبر شارع Varenes -Sur- Seine, كنت أمر قرب القلعة القديمة التي تعلو فوق أطلالها المحمرة بالنباتات المتسلقة على جدرانها أبراج صغيرة من الصخر الأسود. ها هي القلعة التي كان فيها (رونسارد)[1] وشعراء «لا بلياد» يجتمعون في الزمن القديم. لقد كان لهذه القطعة في نفسي مكانة حجر

(١) رونسارد (بيير دي Pierre de): شاعر فرنسي (١٥٢٤-١٥٨٥).

ومرمر، سحر بيت ذي إحدى عشرة نبرة[١]، مسطر بأحرف ذهبية عريقة. فتحت الصحيفة، ذلك اليوم كانت الحرب العالمية الثانية قد اندلعت، هذا ما كانت تقوله في أحرف كبيرة وبمداد أسود قذر تلك الصحيفة التي سقطت من يدي في تلك القرية القديمة الضائعة.

كان العالم كل العالم يتوقعها، فهتلر كان يبتلع الأراضي والبلدان، وكان السياسيون الإنجليز والفرنسيون يتراكضون مع مظلاتهم لكي يهبوه مدناً وممالك وبشرا.

لقد كان يملأ الضمائر دخان من التشويش والبلبلة. كنت أرى من نافذة غرفتي بباريس مباشرة «لوس انفاليدوس» فأرى أوائل فرق المحاربين وهي تخرج، والفتيان الذين أبدا ما عرفوا للزي العسكري لوناً من قبل، وما عرفوا قط أن يرتدوا هذا الزي العسكري وهم ينطلقون كي يدخلوا في مخطم الموت الكبير.

لقد كان انطلاقهم حزيناً والحزن كان بيِّناً في سيماهم. لقد كانت هذه الحرب حرباً خاسرة من قبل أن تبدأ، وحزنهم كان شيئاً لا يحدد. كانت القوى الشوفينية المتعصبة تجري في الشوارع تطارد المفكرين التقدميين. لم يكن العدو متمثلاً بالنسبة لهم في اتباع (هتلر)، في مجموعة «لافال»، بل في زهرة الفكر الفرنسي. لقد حمينا في السفارة التي كانت قد تغيرت كثيراً الشاعر الكبير (لويس أراغون) فقضى فيها أربعة أيام عاكفاً على الكتابة ليل نهار، فيما الشراذم كانت تنتظره للقضاء عليه. هناك في سفارة تشيلي أنهى روايته «مسافرو لا امبريال» Ios Viajeros de la imperial وفي اليوم الخامس توجه وقد ارتدى الزيّ العسكري إلى الجبهة، كانت حربه الثانية ضد الألمان.

لقد تعودت في تلك الأيام الشفقية على هذا الارتياب الأوروبي الذي لا يعاني ثورات مستمرة أو زلازل، بل يحتفظ بسم الحرب القاتل وهو يملأ الهواء والخبز.

خوفاً من الغارات كانت العاصمة الكبيرة تنطفئ ليلاً، وهذه العتمة، عتمة سبعة ملايين نسمة معاً، هذه الدياجير الكثيفة الثقيلة التي كان لا بد من السير في ظلها بمدينة النور، ظلت ملتصقة في ذاكرتي.

... في نهاية هذه المرحلة، كما لو أن هذا السفر الطويل كان غير مجد، أعود فأجد نفسي وحيداً في هذه الأراضي الحديثة الاكتشاف... مثلما في مخاض

---

(١) هو بحر من بحور الشعر في اللغات اللاتينية.

الولادة ، كما في البدء المنذر للرعب الميتافيزيقي حيث نبعت أوائل أشعاري ، كما في شفق جديد قد هيجته وأثارته قدرتي الإبداعية ، أدخل في احتضار ، أغلغل في حشرجة ، ألج في الوحدة الثانية ، فإلى أين المسير؟ . . . وإلى أين العود؟ . . . إلى أين التوجه؟ . . . أأسكت أم أنبض؟ . . . أنظر إلى ضواحي الوضوح وأطراف العتمة فلا أجد إلا الفراغ نفسه . . . هذا الفراغ الذي صنعته يداي في عناية قدرية وحيطة مشؤومة . . .

بيد أن ما هو أكثر قرباً . . . ما هو أكثر جوهرياً . . . ما هو أكثر حدّة . . . ما هو أكثر سعة وامتداداً وعمقاً . . . ما كان ليتجلى لي حتى هذه اللحظة . . . كنت فكرت في العوالم كلها لكنني أبداً ما فكرت في الإنسان . . . كنت قد استنبطت قلب الإنسان من قساوة واحتضار . . . غير أني ما فكرت في البشر . . . كنت أرى مدناً ولكنها مدن فارغة خاوية . . . كنت أرى معامل ومصانع في مشاهد مأساوية بيد أني ما كنت أرى العذاب والعناء والشقاء تحت أسطحة المنازل ، فوق الشوارع ، في المحطات ، في المدن في الأرياف . . .

حين انطلقت الرصاصات الأولى فاخترقت قيثارة إسبانيا وانبثقت منها بدل الألحان فوّارات دم ، توقف شعري مثل شبح في وسط شوارع الكآبة الإنسانية . . . وأخذ يتسرب إليه تيار من الجذور والدماء . . . منذ ذلك الحين اتحد دربي بدرب الآخرين . . . ورأيت أني قد عبرت من جنوب الوحدة نحو شمالها فكان الشعب . . . الشعب الذي أراد شعري المتواضع أن يكون له سيفاً ومنديلاً . . . كي يجفف العرق عن آلامه الكبيرة ، كي يعطيه سلاحاً في معركة الخبز . . .

إذّاك يتسع المدى ، يغدو كبيراً عميقاً أبدياً سرمدياً . . . ها نحن نقف فوق الأرض . . . نريد أن نحوز على كل ما هو موجود . . . نمتلكه إلى الأبد . . . لا نبحث عن اللغز فنحن اللغز . . . إن شعري يبدأ كي يصبح جزءاً مادياً من جو فضائي أبدي . . . من جو ، هو في الوقت نفسه ما تحت البحري وما تحت الأرضي . . . إن شعري يشرع كي يلج عبر دهاليز ما هو نباتي رائع . . . إن شعري يتهيأ كي يتحادث وأشباحاً شمسية في وضح النهار . . . إن شعري يستعد كيما يسبر ، يستنبط غور المعدن الخبيء في سر الأرض . . . إن شعري يعد العدة كي يحدد العلاقات المنسية بين الخريف والإنسان . . . إن الجو ليعتم أحياناً ولكن وشيكاً ما ينجلي ببريق مشحون بتألق ورعب . . . بناء جديد بعيد عن الكلمات المستعملة المستهلكة يبرز في سطح

الهواء . . . قارة جديدة من أكثر مواد شعري اكتناناً وسرية تشمخ عبر الفضاء . . . لقد قـضـيت في تعـمـيـر هذه الأراضي ، في تصنيف هذا الملكوت ، في لمس ضـفـافـه الطلسم ، في إخماد عواصفه وتهدئة إزباده ، في التجواب عبر حيواناته ، في التسيار عبر جغرافيته الطولانية ، سنين غامضة ، متوحدة ، قصيّة . . .

الفصل السابع
المكسيك المزهر الشائك

لقد أرسلتني حكومتي إلى المكسيك . وصلت في عام ١٩٤٠ وأنا مليء بهذا الكدر القاتل الناتج عن آلام كثيرة وفوضى أليمة كي أستنشق النسيم والحياة في هضبة «أناهواك» التي نعتها (الفونسو رييس Alfonso Reyes)[١] ، بأنها أكثر منطقة ، شفافية في العالم .

لقد غمرني المكسيك المزهر الشائك ، الجاف العاصف ، العنيف الرسم واللون ، العنيف البشرة والخلق ، بتمائمه وبأنواره المباغتة .

لقد جبت المكسيك خلال سنين وسنين من سوق إلى سوق ، لأن المكسيك هو في الأسواق ، ليس هو بالأغاني ذات الحروف الحلقية التي نسمعها في الأفلام السينمائية ، وليس هو بالتفاهة المزيفة لشارب ومسدس ، إن هو إلا أرض المناديل ذات اللون القرمزي وذات اللون الفيروزي البراق . إن هو إلا أرض الأواني والجرار والفاكهة المنفلقة تحت سرب من الحشرات هنا وهناك . إن هو إلا حقل صبار ذو مداد أزرق فولاذي وذو تاج من الأشواك الصفراء .

إن كل هذا لتمنحه أكثر الأسواق جمالاً في العالم ، وتريك ثمة في أسواق المكسيك ، الفواكه والصوف ، البنّ والأنوال ، قدرة أنامل المكسيك الخصبة الخالدة المدهشة .

لقد تجولت عبر المكسيك ، ركضت على مدى شواطئه ، شواطئه العالية الجرف ، المتقدة ببريق سرمدي فوسفوري . لقد انحدرت من «توبولوبامبو» في «سينالوا» . عبر هذه الأسماء نصف الكروية ، أسماء حرّيفة تركها الآلهة هناك تراثاً في يدي المكسيك ومضوا عنها حين بدأ الرجال الذين هم أقل قساوة من الآلهة ، يأمرون فيها ويسودون عليها . لقد مشيت عبر مقاطع هذه الأسماء ، هذه المقاطع المؤلفة من اللغز

---

(١) ألفونسو رييس : كاتب وروائي مكسيكي (١٨٨٩-١٩٥٩) .

والرونق ، عبر هذه الأصوات الفجرية الصبحية . فهذه الناحية باسم «سونورا» وتلك باسم «يوكاتان» ، أما «أناهواك» فهي تشمخ كأنها مجمرة باردة حيث تصل إليها الأشذاء البليلة من «ناياريت» حتى «ميشواكان» حيث يُدرك أريج دخان الجزيرة الصغيرة «خانيتشيو» ، وعطر الذرة الذي يصعد عبر «خاليسكو» وعبير الكبريت لبركان «باريكوتين» الجديد وقد امتزج بعبق رطب من أسماك بحيرة «باتثكوارو» . إن المكسيك لهو آخر الأقطار السحرية ، إنه لسحري في قدمه وتاريخه ، إنه لسحري في موسيقاه وتضاريسه . لقد شعرت وأنا أطرق دربي عبر هذه الصخور المسوّطة(١) بالدم المستديم ، المتصالبة بخيط عريض من الدم والطحلب ، أني هائل وأني عريق وأني لجدير بهذه المسيرة بين هذه الإبداعات الكثيرة العريقة . ثمة وديان وعرة مسدودة بجدران هائلة صخرية ، من حين إلى حين تلال مرتفعة متشققة كما لو بسكين ، غابات استوائية عملاقة ، إطلالات متوهجة من خشب ومن أفاع ، من عصافير ومن أساطير . لقد وجدت في تلك الأراضي الشاسعة المعمورة حتى أطرافها الأخيرة بصراع الإنسان في الزمن ، وجدت في أبعادها ومداها الكبير أننا نحن ، تشيلي والمكسيك ، قطرا أمريكا المتقاطران . أبدا ما حركتني العبارة الديبلوماسية المصطلح عليها والتي تجعل سفير اليابان يجد في أشجار كرز تشيلي ، والإنجليزي يجد في ضباب شواطئنا ، والأرجنتيني أو الألماني يجدان في ثلج بلادنا المحدق الكثيف ، شبهاً بما لهم في بلدانهم ، أو بما في بلدان العالم جميعها .

إنه ليسرني التنوع الأرضي ولتطيب لي الفاكهة الأرضية المتميزة في أصنافها كلها . إني لا أنقص شيئاً من قدر المكسيك ، هذا البلد الحبيب إن قرنته في الأشياء البعيدة ببلدنا المحيطي الغلالي ، بل إني أبين خصائصه وأرفع من ميزاته كي تتباهى قارتنا الأمريكية بكل عباءاتها ، بمرتفعاتها وأعماقها قاطبة . وليس ثمة في أمريكا وربما في الكرة الأرضية بلد أكثر عمقاً إنسانياً كما هو المكسيك وأناس المكسيك . إنك لترى من خلال إرشاداته المضيئة ومن خلال أخطائه الكبيرة ، السلسلة نفسها من الكرم السخي جداً ، من الحيوية العميقة المتدفقة جداً ، من التاريخ الفريد في نوعه جداً ، من الخصوبة المعطاء الدائمة أبداً .

لقد انحرف بنا المسير ذات يوم عبر القرى صيّادة الأسماك ، حيث الشبكة تغدو

---

(١) المسوّطة : مشتقة من الكلمة العربية ، السوط Azote .

جد شفافة صافية فتبدو فراشة كبيرة تعود إلى المياه كي تحوز على الحراشف الفضية التي تنقصها ، عبر مراكز هذه القرى ذات المناجم التي ما إن يستخرج منها المعدن حتى يغدو شبيكة صلبة وسبيكة متينة في هندسة براقة جداً ، عبر الطرق حيث تشاد الأديرة الكاثوليكية الكثيفة الشائكة كشجر الصبار الهائلة ، عبر الأسواق حيث البقول معروضة مثل زهرة ، وحيث غنى الألوان والأذواق يصل إلى درجة الاحتدام والنوبة ، إلى أن اجتزنا مدينة المكسيك لنصل إلى «يوكاتان» ، وهي مهد نشأ من أقدم جنس في العالم أعني شعب «ماياب» Mayab الوثني ، إن الأرض هناك لتهتز بما لها من تاريخ وما بها من بذور . لمّا تزل تنمو هناك إزاء شجر الصبار النشيط الحيوي ، الأطلال المليئة بالذكاء والأضاحي والتضحيات .

حيث تقاطع الطرق الأخيرة ، وصلنا إلى الأرض المديدة الفسيحة ، حيث ترك أولئك المكسيكيون القدماء تاريخهم الموشّى مخبأ تحت أشجار الغابة . هناك نعثر على نوع جديد من الماء ، إنها لأغرب مياه في هذا الكوكب ، ليست كمياه البحر ، ليست كمياه النهر ، ليست كمياه الجدول ، ليست كمياه الغدير ، ليست بالمياه المعروفة ، ليس ثمة في «يوكاتان» من ماء إلا تحت أعماق الأرض تنشق فجأة عن بئر واسعة بكر ثم تعود فتنشق عن بئر أخرى على حين غرة ، انحدارات هذه الآبار مليئة بالنباتات الصغيرة المدارية . إنك لترى من خلال هذه الأعشاب في الأعماق مياهاً عميقة خضراء فلكية . لقد وجدت قبائل «المايا» هذه الشقوق الأرضية المسامة «ثينوته» Cenote[1] فألّهوها وعبدوها بطقوسهم الغريبة . كما في الأديان جميعها قدّس البشر ، في المبدأ ، الحاجة والخصوبة ، كذلك في هذه الأرض . فلقد هزمت المياه الخبيئة الأرض اليباب الجفاف فكانت الأرض تتصدع خشية منها فتنبثق المياه كي يفرح البشر .

عند ذلك ، فوق الآبار المقدسة ، عبر آلاف السنين ضاعفت الأديان البدائية والأديان الغازية الواردة من سر الماء اللغز . لقد ألقت مئات العرائس العذراوات المزينات بالزهر والذهب بعد احتفالات عرائسية على ضفاف الآبار ، بأنفسهن ونفيسهن إلى أعماق هذه المياه الجارية التي لا يسبر غورها . فكانت تطفو على السطح

---

(١) ثينوته : هي بئر عميقة واسعة .

الزهور والتيجان والحلي . لكن العرائس مكثن في حمأة الطين القصيّ مشدودات إلى الماء بسلاسلهن الذهبية[1] .

لقد أنقذ جزء ضئيل جداً من هذه الجواهر بعد آلاف السنين فوضعت في واجهات متاحف المكسيك وأمريكا الشمالية . بيد أني حين تغلغلت في هذه الأنحاء الخالية الوحيدة لم أبحث عن الذهب بل عن صراخ الصبايا الغارقات . لقد خيل إليّ أني كنت أسمع في نعيب الغربان والخفافيش الغريب ، حشرجة العرائس الجشاء وأني ألمح في طيرانها السريع الذي تعبر به العظمة المعتمة للماء السحيق السواعد الصفراء لتلك الصبايا الغريقات .

لقد شاهدت ذات مرة حمامة تجثم فوق التمثال الذي يطيل ذراعه الحجرية البيضاء ويمدها فوق الماء والهواء الخالدين ، لست أدري أي نسر كان يلاحقها ، كانت هي غريبة في تلك الأصقاع حيث لا طير إلا القبَّرة ذات الصوت الأبكم ، واليمامة ذات الريش الرائع والـ«كوليبري»[2] الفيروزجي والطيور الجارحة الكواسر ، كانت هذه الطيور جميعها فوق راحة يد التمثال ، بيضاء مثل قطرة ثلج فوق الأحجار الاستوائية المصنوع منها التمثال . نظرت إليها مستغرباً إذ إنها جاءت من عالم آخر ، من عالم متناسق ودّي ، أتت من سارية «فيثاغورية»[3] أو من نقطة في البحر الأبيض المتوسط . لقد توقفت عند حافة الدياجير ، عند حاشية المنايا . فاحتقرت سكوني وهي لا تدري أنني كذلك أنتمي إلى هذا العالم البدائي ، الأمريكي الدامي ، القديم العريق فطارت أمام عيني إلى أن ضاعت في السماء .

الرسامون المكسيكيون:

كان الرسم مسيطراً على الحياة الفكرية في المكسيك ، الرسامون المكسيكيون يغطون العاصمة بتاريخ وجغرافيا ، بغارات مدنية ، بمجادلات حديدية . على قمة من

---

(١) من المعروف أن حضارة المكسيك هي حضارة قديمة جداً ، وما زال التشابه الموجود بينها وبين الحضارة المصرية موضع بحث الدارسين وعلماء التاريخ القديم .

(٢) كوليبري Colibri : هو عصفور أمريكي صغير ، ذو منقار طويل ضعيف .

(٣) فيثاغورية : نسبة إلى (فيثاغورس Pitagoras) الفيلسوف وعالم الهندسة اليوناني المشهور .

قمم الرسم إذّاك كان يتربع (خوسه كليمينته أوروثكو)[1] ، وهو رجل عملاق أقطع اليد ، نحيل الجسم هزيله ، نوع من (غويا Coya)[2] في وطنه الطيفي . لقد تحدثت معه مرات كثيرة ، كان شخصه يبدو خالياً من العنف الذي يظهر في أعماله الفنية . كانت له نعومة صانع الفخار الذي أضاع يوماً يده في المخرطة وبيده الأخرى يشعر أنه لا بد يخلق عوالم لا تنتهي . إن فلاّحاته المرميات بالرصاص ، وجنوده وصنّاع اللحام وحوذيّيه وكل ناؤوس رسمه بصلبان رهيبة ، إن هذا كله لهو أكثر ما في رسومنا الأمريكية جدارة بالخلود وسيظل يدل على قساوتنا وعنفنا .

كان (دييغو ريبيرا)[3] قد عمل كثيراً في تلكم الأعوام وكان يتخاصم مع الناس جميعهم ، ذاك أن الرسام العملاق هذا كان ينتمي إلى عالم الخرافة ، حين كنت أراه كنت أستغرب من أن ليس له ذيول ذات حراشف أو أقدام بحوافر .

كان دائماً خلاقاً ومبتدعاً ، فلقد نشر قبل الحرب العالمية الأولى في باريس (ايليا ايهرينبورغ)[4] كتاباً حول مآثر (ريبيرا) وتزييفاته[5] عنونه : «حياة (خوليو خورينيتو Julio Jurenito) وسلوكه» .

بعض مضي ثلاثين سنة كان (دييغو ريبيرا) لما يزل معلماً كبيراً في الرسم والخرافة ، فقد كان ينصح بأكل اللحم البشري كحمية صحية نافعة ، وكان يعطي وصفات عن كيفية طهي نماذج بشرية من الأعمار جميعها ، مرات أخرى كان يصرّ على تنظير العلاقات السحاقية وفلسفتها ، وكان يدعم رأيه هذا قائلاً بأن العلاقة السحاقية هي العلاقة الأخلاقية الوحيدة بناء على ما دلت عليه أقدم الآثار التاريخية التي عثر عليها في حفريات أشرف هو بنفسه عليها .

أحايين كان يحدثني خلال ساعات طويلة وهو يحرك عينيه الهنديتين مقطبتي الجبين ويبوح لي بأصله اليهودي . . . أحياناً أخرى وقد نسي الحديث السابق يحلف

---

(١) خوسه كليمينته أوروثكو : رسام مكسيكي (١٨٨٣-١٩٤٩) .

(٢) غويا Francisco de : رسام إسباني مشهور (١٧٤٦-١٨٢٨) .

(٣) دييغو ريفيرا : رسام مكسيكي (١٨٦٦-١٩٥٧) .

(٤) ايليا ايهرينبورغ Crigorievich : كاتب روسي يهودي (١٨٩١-١٩٦٧) .

(٥) تزييفاته : هنا بمعنى لوحاته التي يقلد فيها لوحات آخرين أو ينقلها طبق الأصل .

ويقسم لي أنه هو والد الجنرال (رومل)[1] ، ثعلب الصحراء ، ويطلب مني أن يظل هذا سراً بيننا لأن افتضاحه يمكن أن يؤدي إلى نتائج خطيرة جداً .

لقد كان لحن صوته المقنع الرائع ، أسلوبه الهادىء في إعطاء التفاصيل والوصف البذيء وأكاذيبه المفاجئة تجعل منه مهذاراً ثرثاراً ، رائعاً عذباً ، ولا أحد ممن عرفه واستمع إلى تخريفاته يستطيع أن ينسى عذوبة حديثه وإن كان سفالة .

كان في تلك الفترة (دافيد الفارو سيكيروس) سجيناً ، فقد كان أحد الأشخاص قد أركبه في غزوة مسلحة على دار (تروتسكي)[2] . فعرفته أنا وهو في السجن ، لكن ، في الحقيقة ، خارج السجن إذ إننا كنا نخرج مع رئيس السجن ، العميد (بيريث رولفو) كي نتناول بضعة من كؤوس الخمر في مكان خفي وكنا نعود في ساعة متأخرة من الليل ، فأودع (دافيد) رابتاً على كتفه من خلف الأسلاك حيث يبقى سجيناً إلى اليوم التالي وهكذا . . .

أثناء واحدة من هذه السهرات ، بينما كنا نعود من الشارع إلى السجن ، تعرفت على أخيه ، وهو شخص غريب جداً يدعى (خيسوس سيكيروس) ، قد تكون كلمة «مدار» أقرب في وصفه من كلمة «منافق» ، كان يتسلل من الجدران دون ضجة أو حركة على الإطلاق وإذ به خلفك أو بجانبك ، لا يتكلم إلا قليلاً وإن تكلم فبوشوشة لا تكاد تسمع . كان يحمل في محفظة صغيرة كل ما يمكن أن يحشر فيها ؛ من ذلك أربعون أو خمسون مسدساً ، كذلك في خفوت وسكون وصمت . ذات مرة دون انتباه مني فتحت المحفظة هذه فاكتشفت مندهشاً دار الترسانة هذه بمقابض سوداء ، لؤلؤية وفضية .

لقد كان هذا كله في سبيل لا شيء ، إذ إن (خيسوس) ، كان مسالماً جداً بقدر ما كان أخوه (داود) مشاغباً . وكان لـ(خيسوس) أيضاً مواهب فنية كأخيه ، فقد كان ممثلاً كبيراً يجيد نوعاً من التمثيل الصامت ، دون تحريك الجسد أو اليدين ، دون بث أي صوت ، لا يتحرك فيه إلا وجهه الذي يبدل ملامحه إرادياً فيعبر عما هو حي كأن له براقع متلاحقة متبدلة ، عن الخوف ، عن الكآبة ، عن الفرح ، عن الحنان . كان هذا

---

(١) رومل Rommel, Ervin : هو المارشال الألماني المعروف بثعلب الصحراء ، الذي كان يقود القوات الألمانية في معارك الصحراء الليبية .

(٢) تروتسكي Trotiski Lev : السياسي والمفكر الروسي المعروف (١٨٧٦-١٩٤٠) .

الوجه الشاحب لهذا الشبح يصحبه في متاهاته الحيوية كلما طلع أو برز أو قفز من حين إلى حين وهو محمل بمسدسات ما استعملها ألبتة .

كا هؤلاء الرسامون البركانيون يجذبون إليهم الرأي العام كله ، فقد كانوا أحياناً يقومون بمناقشات حادة عنيفة . ذات مرة بعد أن استنفدت الحجج أخرج كل من (دييغوا ريبيرا) و(سيكيروس) مسدسيه الكبيرين وأطلقا النار تقريباً في الوقت نفسه . لكن ، على أجنحة الملائكة المصنوعة من الجصّ المعلقة في سقف المسرح حين بدأت ريش الجص الكبيرة تتساقط فوق رؤوس المتفرجين ، خرج هؤلاء من المسرح مهرولين فزعين ، وانتهت المناقشة برائحة قوية من البارود وبقاعة فارغة .

لم يكن (روفينو تامايو Rufino Tomayo)[١] يعيش إذّاك في المكسيك بل في نيويورك . ومن هناك تنتشر رسوماته ولوحاته المتأججة المعقدة التي تمثل المكسيك كما تمثلها فواكه أسواقه وأنسجته .

ليس هناك من تشابه بين رسم (دييغو ريبيرا) ورسم (دافيد الغارو سيكيروس) إذ أن (دييغو) هو كلاسيكي ذو خطوط مستقيمة . وهو بهذا الأسلوب المستقيم المنعطف كأنه نوع من علم الخط التاريخي ، راح يربط تاريخ المكسيك بعضه ببعض ويجلو في أعماله برونق وزخرفة ناتئة عادات المكسيك ومآسي تاريخه ، فيما (سيكيروس) هو انفجار مزاج بركاني يؤلف بين فنية مدهشة وأبحاث طويلة .

بين الخروج كل ليلة من السجن وبين أحاديث حول الاحتمالات الممكنة ، دبّرنا ، أنا و(سيكيروس) نفسه موضوع هربه وحريته ، فطبعت له على جواز سفره تأشيرة دخول إلى تشيلي وتوجه نحو وطني تصحبه زوجته (انجيليكا ارينااليس) .

كانت حكومة المكسيك قد بنت مدرسة في مدينة «شيان» بتشيلي ، ثم تهدمت هذه المدرسة بالزلازل ، وفي هذه المدرسة رسم (سيكيروس) جدارية فائقة ممتازة . لقد كافأتني الحكومة التشيلية على هذه الخدمة التي قدمتها للثقافة الوطنية بتوقيفي عن عملي لمدة شهرين .

---

(١) روفينو تامايو : رسام مكسيكي ، ولد عام ١٩٠٠ .

(نبابليون اوبيكو Napole'on Ubico):

لقد قررت زيارة غواتيمالا . فتوجهت إليها بسيارة عبرت بنا برزخ «تيوانتيبيات» ، وهي منطقة ذهبية في المكسيك ، بنسائها المرتديات أزياء فراشات وبرائحة في الهواء كرائحة الشهد . من بعد ولجنا غابة «تشياباس» الكبيرة . كنا نوقف السيارة ليلاً منذهلين بالحفيف والضجيج وبرقيات الغابة التي تبثها في جلبة وصخب . فتجيبها الجداجد بأزيز عنيف ، أزيز كوكبي سيّار لا يصدق .

كان المكسيك الغريب يمد ظله الأخضر فوق أبنية قديمة عتيقة ، فوق رسومات سحيقة ، فوق جواهر وحلي ، فوق نصب تذكارية ، فوق رؤوس هائلة لحيوانات حجرية ، كل هذا كان يجثم في الغابة ، في الوجود المكسيكي الألفي الخرافي . بعد اجتياز الحدود ، هناك في أعلى أمريكا الوسطى ، بهَتني درب «غواتيمالا» الضيق بخطوطه ونباتاته العملاقة وبحيراته الهادئة السطوح كأنها عيون منسيَّة لآلهة معتوهة ، ثم بدت غابات الأرز والأنهار العريضة البدائية التي تطل منها قطعان الحمأة والحجر كأنها بشر أحياء يسبحون هناك .

لقد قضيت أسبوعاً مع (ميغيل انخيل استورياس)[1] الذي ما كان قد عُرف بعد برواياته المنتصرة الرائعة ، فأدركنا منذ أن تعارفنا أننا ولدنا شقيقين متحابين ، فما افترقنا يوماً واحداً طيلة هذا الأسبوع ، إذ إننا كنا نخطط في الليل لزيارات خاطفة نقوم بها إلى مثانٍ نائية من سلاسل الجبال الملفعة بالضباب أو إلى موانئ استوائية لـUnited Fruit .

لم يكن للغواتيماليين الحق في الكلام ؛ إذ لم يكن يجرؤ أحد منهم أن يتكلم في السياسة أمام الآخر ، فلقد كانت الحيطان تسمع وتُبلغ بما تسمع . كنا أحياناً نوقف العربة في أعلى الهضبة ، وهناك ، بعد التأكد الدقيق من أنه ليس ثمة من أحد خلف شجرة أو وراء صخرة كنا نحلل الوضع ونتكلم عن الحالة في حديث يطول جداً .

كان زعيم «غواتيمالا» إذّاك رجلاً يُدعى (أوبيكو) ، يتربع على سدة الزعامة منذ سنين طويلة ، وكان بديناً ثخيناً ، ذا نظرة باردة ، قاسياً جباراً في إخلاص وتفان لجبروته وطغيانه ، هو يملي القانون وهو الآمر الناهي وليس لأحد أن يتحرك أو ينطق

---

(١) ميغيل انخيل استورياس : روائي من «غواتيمالا» فاز بجائزة نوبل للآداب قبل (نيرودا) (١٨٩٩-١٩٧٤) .

في غواتيمالا إلا بإمرته وبإذنه ، على أن يكون هذا في صريح العبارة والإشارة من لدن سيادته . تعرّفت على أحد مساعديه وهو الآن صديق لي . كان هذا ثورياً جداً إذ تجرأ ذاتِ يوم فناقش الزعيم في أمر صغير جداً ، فما كان من الزعيم إلا أن قيده هناك وربطه إلى عامود في مكتبه بالقصر الرئاسي وجلَده بلا رحمة عقاباً له على وقاحته وثوريته .

طلب مني الشعراء الشبان أن أنشد عليهم بعضاً من قصائدي ، فأرسلوا برقية إلى (أوبيكو) طالبين منه السماح بذلك . فامتلأ المكان بأصدقائي جميعهم وبطلبة شبان ، فقرأت متشرفاً بعضاً من قصائدي ، لأنه بدا لي أنها قد تفتح شيئاً من نافذة ذلك السجن الكبير . جلس رئيس الشرطة في مكان بارز في أول صف جلسة تفتيش وتحرّ وإنذار . من بعد عرفت أن أربع بنادق سريعة الطلقات كانت قد ركزت هناك ووُجهت نحوي ونحو الجمهور . كانت ستنطلق فيما إذا غادر رئيس الشرطة مقعده وقاطع قراءة الشعر .

لكن ما جرى شيء يستدعي ذلك ، فقد ظل رئيس الشرطة في مقعده يستمع إلى أشعاري حتى النهاية .

ثم رغبوا بتقديمي إلى الديكتاتور ، كان رجلاً متورّماً بهوس جنون نابليوني ، وكان يدع خصلة من شعره تتدلى فوق جبينه ويقف في تصنع وقفة (بونابرت) . قالوا لي إن رفض هذه اللفتة الكريمة هو أمر خطير جداً ، لكنني آثرت ألا أسلم عليه فعدت مسرعاً إلى المكسيك .

مختارات من المسدسات:

لقد كان المكسيك في ذلك الوقت أكثر مسدسياً منه استعمالاً لهذه المسدسات في القتل . كان فيه نوع من العبادة نحو المسدس ، نوع من الوثنية . وكان حاملو المسدسات يخرجون كي يلمعوا بمسدساتهم مزهوين مفتخرين . وكان المرشحون إلى النيابة والصحف يبدأون حملات «نزع المسدسات» دائماً ، ولكنهم يدركون أنه أسهل على رجل مكسيكي نزع سنه من نزع سلاحه الناري الحبيب إلى قلبه جداً .

أقام لي ذات مرة الشعراء حفلة تكريم في نزهة على ظهر سفينة قد زُينت بالزهور والأضواء ببحيرة «اكسيوشيميلكو» ، اجتمع ما يقرب من عشرين شاعراً متجولاً فأبحرت معهم بين المياه والزهور عبر القنوات والوعور في ذاك المصب المخصص

للتنزهات الزهرية منذ عهد «الاستيكيين»[1] . كان الزورق الكبير يختال في زينة من الزهور على كل جانب وفي أشكال ودمى وألوان زاهية . إن أيادي المكسيكيين لهي مثل أيدي الصينيين غير قادرة على صنع أي شيء قبيح ، سواء أكان من الحجر أم الفضة أم الطين أم القرنفل .

لقد أصرّ عليّ أحد أولئك الشعراء خلال العبور ، بعد تجرّع العديد من أقداح «تيكيلا»[2] كي ينوع في التكريم ويمنح الحفل شيئاً جدياً ، أن أطلق إلى الفضاء بعيارات نارية من مسدسه الجميل الذي كان له في مقبضه ترصيعات من ذهب ومن فضة ، وإذ بالزميل الأقرب إلينا يخرج من جزامه مسدسه وينحي جانباً مسدس المقدم الأول ، وهو في حماسة بالغة ، ثم يدعوني أن أطلق من مسدسه ما شئت من العيارات النارية . في هذا الشغب والهياج هبّ الشعراء الرواة الآخرون ، كل يدافع بإصرار عن مسدسه فتحلّقوا حولي وحوّموا فوق رأسي ، يريد كل منهم أن أختار مسدسه وليس مسدس الآخر ، ذلك السرادق من المسدسات الذي كان يتصالب أمام أنفي أو يمر تحت إبطي كان يصبح أكثر تهديداً وخطراً على حياتي في كل مرة ، إلى أن خطر لي أن آخذ قبعة مكسيكية أصيلة كبيرة فألتقط المسدسات كلها في مستقر هذه القبعة ، فطلبت من طابور الشعراء المتحلق باسم الشعر والسلام أن يدعوا لي مسدساتهم في هذه القبعة ، فأطاعوا جميعاً وبهذا الشكل استطعت أن أصادر لهم مسدساتهم لعدة أيام واحتفظت بها في داري . أعتقد أني الشاعر الوحيد الذي على شرفه قد قدّمت له مختارات من المسدسات .

لماذا نيرودا:

كان قد اجتمع في المكسيك ملح العالم . كتّاب كثيرون من أقطار العالم جميعها التجأوا إلى الحرية المكسيكية ، فيما كانت الحرب في أوروبا تمتد وتطول وقوات هتلر تحقق الانتصارات واحداً إثر آخر ، بعد أن اكتسحت فرنسا وإيطاليا . هناك في المكسيك كان يقيم (أنا سيجيرس) والمهرج التشيكوسلوفاكي (اغون ايروين كيش) الذي توفي في ما بعد ، وآخرون كثيرون . إن (كيش) هذا ترك بعض الكتب الساحرة

---

(١) الاستيكيون : هم سكان المكسيك القدماء .

(٢) تيكيلا : نوع من الخمر يشبه «الجن» .

الأخّاذة وكنت أنا أعجب كثيراً بعبقريته الفذة وبتمارينه الطفولية وبمعرفته بالشعوذة والتهريج . كان ما إن يدخل إلى بيتي حتى يُخرج بيضة من أذنه أو يبتلع على جرعات سبع قطع من النقود ، كان هذا الكاتب الكبير المسكين المنفي في أمس الحاجة إليها . كنا قد تعارفنا في إسبانيا ، وبما أنه كان يعلن دائماً عن حب الاستطلاع الملحّ عليه في معرفة لأي سبب أُسمي نفسي (نيرودا) دون أن أكون قد ولدت وارثاً هذا اللقب ، فكنت أقول له مازحاً :

- يا (كيش) العظيم ، إنك أنت مكتشف سر العقيد (ريدل) -قصة مشهورة في التجسس جرت في النمسا عام ١٩١٤- لكنك أبداً لن تستطيع أن تعرف سر اسمي (نيرودا) .

وهكذا كان ، لقد مات في ما بعد في «براغ» وسط تكريمات منحها إليه وطنه المحرر ، غير أنه ما استطاع ذلك الباحث المحترف أن يعرف لماذا (نيرودا) يُدعى (نيرودا) .

لقد كان الجواب سهلاً جداً وهو لا يتضمن ما يبعث على الروعة أو الدهشة ، ومع ذلك فقد كنت لا أبوح به إليه في حيطة مني وتحفظ . حين كان لي من العمر أربع عشرة سنة كان والدي يضطهد نشاطي الأدبي في إمعان وتعنت ، إذ لم يكن يرضيه أن يكون له ولد شاعر . كي أخفي أوائل أشعاري فقد بحثت لي عن لقب أتبنّاه لأنشر به هذه الأشعار ، وبهذا يعمَه والدي عن تبيان جلية الأمر ، فعثرت في إحدى المجلات على هذا الاسم التشيكي دون أن أدري إنه اسم كاتب كبير يجلّه شعب بكامله ، وأنه مؤلف «بالادا»[1] وكاتب «رومانثيه»[2] جميلة جداً ، وأن له نصباً تذكارياً منتصباً في حي «مالا سترانا» ببراغ . ما إن وصلت ، بعد سنين كثيرة ، إلى تشيكوسلوفاكيا ، حتى هرعت فوضعت زهرة عند أقدام تمثاله الملتحي .

اليوم السابق على «بيرل هاربور»

كان يتردد إلى بيتي ، من الإسبان ، (وينثيلاسو روثيس) و(كونستانثيا دي لا مورا) وهي جمهورية ، قريبة (دوق ماورا) ، وكتابها Inplace of Splendor كان

---

(١) بالادا Paladala : هي قصيدة عاطفية روائية ذات أبيات متوازية متناسقة نشأت في شمال أوروبا .

(٢) رومانثه Romance : هي قصيدة غنائية ذات قافية واحدة تعاد في البيت الثاني .

Bestseller في الولايات المتحدة ، و(ليون فيليبه) ، و(خوان ريخانو)[1] ، ومورينو بيّا و(هيريرا بيتيره)[2] وهؤلاء جميعهم شعراء ، و(ميغيل بربيتو) و(رودريغيث لونا) وهما رسامان . ومن الإيطاليين (فيتوريو فيدالي) ، وهو شهير لأنه كان هو المقدم (كارلوس) في الطابور الخامس ، و(ماريو مونتاغنانا) وهما منفيان إيطاليان ، مليئان بالذكريات والحكايا المدهشة والثقافة الدائمة الحركة . وهناك كان أيضاً (جاك سوستيل) و(جيليبرت ميديوني) ، وكان يتكاثر الملتجئون طوعاً أو على مضض وإكراه من جمهوريات أمريكا الوسطى ؛ غواتيماليون ، سالفادروريون ، هوندوريون . كان هؤلاء جميعاً يملأون المكسيك ويصبغونه بأهمية أممية ، وكانت داري ، وهي عبارة عن منزل قديم في حي «سان انخيل» تخفق كما لو كانت قلب العالم .

مع (سوستيل) هذا الذي كان آنذاك اشتراكياً من اليسار الفرنسي ، والذي بعد سنين أزعج كثيراً الجنرال (ديغول) حين كان هو رئيساً سياسياً للانقلابيين المتمردين في الجزائر ، وقع لي شيء أجدني مضطراً أن أرويه هنا .

كان عام ١٩٤١ قد تقدم ، والنازيون كانوا يحاصرون مدينة «لينينغراد» ويتوغلون في أراض سوفيتية أخرى . كان الثعالب ، العسكريون اليابانيون الملتزمون بمحور برلين روما طوكيو ، يخشون أن يخسروا حصتهم من غنيمة الحرب التي كانت تربحها ألمانيا . كانت تدور عبر العالم شائعات كثيرة تشير إلى أن ساعة الصفر التي فيها تنطلق من الشرق الأقصى القوة الهائلة اليابانية آتية لا ريب . فيما كانت بعثة سلام يابانية تؤدي تحية التملق للحكومة الأمريكية في واشنطون لم يكن ثمة مجال للشك في أن اليابانيين سيشنون هجوماً مفاجئاً عما قريب ؛ إذ إن «الحرب الخاطفة المباغتة» كانت النموذج الدامي لتلك الفترة .

عليّ أن أوضح قبل كل شيء كيما تفهم حكايتي التي سأرويها إثر هذا التوضيح ، أن خطاً يابانياً قديماً من البواخر كان يربط اليابان بتشيلي ، لقد سافرت أنا

---

(١) خوان ريخانو : شاعر إسباني ولد عام ١٩٠٣ ولجأ إلى المكسيك عام ١٩٣٦ ، مثل زميله الشاعر (ليون فيليبه) وآخرين كثيرين . توفي عام ١٩٧٥ .

(٢) هيريرا بيتيره Jose' : شاعر وروائي إسباني ولد عام ١٩١٠ ولجأ إلى فرنسا عام ١٩٣٦ ، ثم إلى المكسيك ، ثم إلى السويد .

أكثر من مرة في هذه السفن وكنت أعرف خط مسيرها ، كانت تتوقف في موانئنا ويهبط منها بحارتها المختصون بشراء الحديد القديم والتقاط الصور ، ثم تُحاذي هذه البواخر الشاطئ التشيلي كله ، فشاطئ «البيرو» ، و«الأكوادور» وتستمر حتى ميناء «مانثانيو» المكسيكي ، كي توجه قيدومها نحو «يوكوهاما» مجتازة المحيط الهادي .

حسناً إذن ، ذات يوم وأنا ما زلت بعد قنصلاً عاماً لتشيلي في المكسيك ، قدم إلى القنصلية سبعة من اليابانيين فطلبوا مني في إلحاح واستعجال أن أعطيهم إشارات دخول إلى تشيلي ، وقد جاء هؤلاء من الشريط الساحلي لأمريكا الشمالية ، من «سان فرانسيسكو» من «لوس أنجليس» ومن موانيء أخرى ، كانت وجوههم تنمّ عن بعض القلق والاضطراب ، وكانوا أنيقي اللباس مزودين بوثائق وجوازات سفر ، وعليهم ملامح مهندسين أو صناعيين منفذين .

لقد سألتهم ، طبعاً ، لماذا يريدون الذهاب إلى تشيلي في أول طائرة تقلع مع أنهم حديثو الوصول إلى المكسيك ، أجابوني بأنهم يرغبون اللحاق بباخرة يابانية راسية في ميناء «توكوبيا» بتشيلي ، وهو ميناء لتصدير ملح البارود الناتج من شمال تشيلي .

أجبتهم على ما قالوه بأنهم ليسوا بحاجة إلى السفر إلى تشيلي ، وهي في الطرف الآخر من القارة الأمريكية ، نظراً لأن هذه البواخر اليابانية نفسها ، عادة ، ترسو في مينتاء «مانثانيو» المكسيكي ، حيث يستطيعون أن يصلوا مشياً على الأقدام وفي وقت قريب جداً .

نظر بعضهم إلى بعض وابتسموا مضطربين ، تكلموا في ما بينهم بلغتهم ثم تشاوروا وسكرتير السفارة الذي كان يرافقهم .

هذا السكرتير كان صريحاً معي فقال :

– انظر ، أيها الزميل ، إن ما جرى هو أن هذه الباخرة قد غيرت طريقها ولن ترسو بعد في ميناء «مانثانيو» . وإذن ، على هؤلاء السادة الاختصاصيين المتميزين أن يذهبوا إلى الميناء التشيلي كي يلحقوا بالباخرة .

لقد مر في ذهني بسرعة أنني أمام شيء مهم جداً ، فطلبت منهم جوازات سفرهم ، ومعلومات عن عملهم في الولايات المتحدة ، وقلت لهم توّاً أن يعودوا في اليوم التالي .

لم يكونوا موافقين فقد كانوا يحتاجون إلى تأشيرات الدخول حالاً وكانوا على استعداد لدفع أي ثمن في سبيل الحصول عليها .

بما أن ما كنت أحاوله أنا هو كسب الوقت، فقد قلت لهم إنه ليس من صلاحياتي إعطاء تأشيرات دخول إلا بعد استشارة، وإننا سنتكلم عن هذا في اليوم التالي.

ظللت وحيداً بعد أن انصرفوا.

شيئاً فشيئاً بدأ يتوضح في ذهني اللغز، لماذا هذا الهرب العاجل من الولايات المتحدة وهذا الاستعجال في الحصول على التأشيرات؟ أفتغير الباخرة اليابانية اتجاهها لأول مرة منذ ثلاثين سنة؟ فماذا يعني كل هذا؟ لا بد أن الأمر يتعلق في أنهم مجموعة من الجواسيس اليابانيين المهمين جداً، وأنهم بعد تأدية مهمة مستعجلة في الولايات المتحدة هربوا منها، وهم الآن على عجل نظراً لأنهم يعرفون أن أمراً خطيراً لا بد واقع في الحال، وأن هذا الأمر ما هو إلا مشاركة اليابان في الحرب.

هذه النتيجة التي توصلت إليها جعلتني في حالة عصبية بالغة، ماذا أستطيع أن أفعل؟

لم أكن أعرف من ممثلي الأمم الحليفة للمكسيك لا إنجليزاً ولا أمريكيين شماليين، ما كنت على اتصال وثيق إلا بأولئك الذين عينوا ممثلين رسميين للجنرال ديغول وهم على علاقة وطيدة بالحكومة المكسيكية.

اتصلت بهم في سرعة، شرحت لهم الوضع، وها هي في حوزتنا أسماء هؤلاء اليابانيين وأوراقهم، فإن قرر الفرنسيون التدخل في هذا الشأن فإننا سنلقي القبض عليهم، هذه حجتي التي أبديتها إليهم متحمساً. ثم إثر ملاحظة الجمود وعدم الاهتمام بما قلته وأبديته قلت يائساً من هؤلاء الممثلين الديغوليين:

- أيها الديبلوماسيون الشبان، اكتشفوا سر هؤلاء العملاء اليابانيين تكسبوا الفخر والمجد، من ناحيتي فإني لن أمنحهم تأشيرات الدخول، لكن على حضراتكم أن تسرعوا في اتخاذ قراركم حول هذا الشأن.

دام هذا الشد والمد[1] أكثر من يومين، لم يهتم (سوستيل) بالموضوع إطلاقاً، لم يشأ أن يعمل شيئاً، وأنا، كقنصل بسيط لتشيلي، ما كنت لأستطيع أن أفعل أكثر مما فعلت. تجاه رفضي إعطاءهم تأشيرات الدخول اضطر اليابانيون أن يحصلوا في سرعة على جوازات سفر ديبلوماسية وتوجهوا إلى السفارة التشيلية فحصلوا منها على هذه

(١) الشد والمد: تعبير إسباني، واضح المعنى.

التأشيرات ، فوصلوا في الوقت المناسب إلى «توكابيا» حيث ركبوا في باخرتهم المقصودة .
بعد أسبوع استيقظ العالم على خبر الإغارة على ميناء «بيرل هاربور» .

أنا «الـ مالاكولوغو»:

لقد نشر في صحيفة بتشيلي ، منذ عدة سنين ، أنه حين وصل صديقي المخلص الأستاذ المشهور (جوليان هوكسلي Julian Huxley)[1] إلى «سانتياغو» ، سأل عني في المطار :

- أفتسأل عن الشاعر (نيرودا)؟ - أجابه الصحفيون .

- كلا ، أنا لا أعرف أي شاعر باسم (نيرودا) ، بل إني أريد التكلم مع «الـ مالاكولوغو» (نيرودا) . إن هذه الكلمة الإغريقية «مالاكولوغو» تعني : «الاختصاص في الرخويات» .

لقد منحتني هذه الحكاية التي كان يستهدف منها إزعاجي ، لذة عارمة . ولم يكن (هوكسلي) ليقصد منها إزعاجي لأننا كنا صديقين منذ سنين كثيرة ، على فكرة هو إنسان ظريف جداً وهو أكثر أصالة وحيوية من أخيه الشهير (الدوس) .

لقد كنت في المكسيك أذهب إلى الشواطئ وأغرق نفسي في مياهها الشفافة الدافئة لألتقط أصدافاً ومحاراً بحرية رائعة جميلة ، من بعد ، في كوبا وفي أماكن أخرى ، كنت أفعل الشيء نفسه ، فراح كنزي البحري يتضخم عن طريق هذا الصيد وعن طريق المقايضة والشراء والهدايا والسرقات (ليس ثمة من جامع شيء ، شريف البتة) إلى أن ملأ غرفاً كثيرة في منزلي .

كنت أملك أكثر الأصناف غرابة من بحار تشيلي ، الفيليبين ، اليابان ، البلطيق ، جعدات من القطب الجنوبي ، حلزونات ملونة من بحر كوبا ، قوقعات رسامات لابسات أحمر وزعفرانياً[2] ، أزرق[3] وبنفسجياً كأنهن راقصات بحر الكريبي ، الحق أقول إن النوع الوحيد الذي كان ينقصني هو حلزونة أرضية من ماتو غروسو Mato Crosso بالبرازيل ، رأيتهما مرة فلم أستطع شراءها وما قدرت على السفر إلى الغابة

---

(١) جوليان هوكسلي : عالم بالأحياء وكاتب إنجليزي ولد عام ١٨٨٧ .

(٢) زعفران : هكذا في الأصل Azaferan ، عن العربية .

(٣) أزرق Azul : الكلمة مأخوذة عن الكلمة العربية ذات الأصل الفارسي لازورد .

كي ألتقطها من هناك ، كانت خضراء كلها في جمال زمردة شابة فتية .

لقد بالغت في هذا المذهب الحلزوني حتى إني قمت بزيارة بحار نائية قصيَّة ، كذلك أصدقائي بدأوا في البحث عن حلزونات في «تحلزة» معدية .

أما بالنسبة للتي كانت تنتمي إليّ فقد جاورت الخمسة عشر ألفاً ، كانت تملأ الرفوف كلها وكانت تتساقط من على الموائد والكراسي . وكتب علم الحلزونات أو «مالاكولوخيا» ، فلتسمّ بما تسمى ، ملأت مكتبتي كذلك . ذات يوم أمسكتها جميعها ووضعتها في صناديق كبيرة ثم حملتها إلى جامعة تشيلي ، فكانت أولى هباتي إلى الروح الأم Alma Mater وكانت مجموعتي هذه ذات شهرة واسعة فاستلمتها جامعتي ، هذه المؤسسة الجيدة ، في تشكرات وخطابات ثم دفنتها في قبو ، أبدا من بعد ما رئيت ولا شوهدت .

«أراوكانيا» (Araucania):

حينما كنت بعيداً ، متميزاً في جزر الأرخبيل البعيد ، كان البحر يوشوش والعالم الصامت كان مفعماً بأشياء تحكي عن وحدتي وعزلتي ، لكن الحروب الباردة والساخنة لوّثت الخدمة القنصلية وجعلت من كل قنصل تمثالاً متحركاً وصنماً من غير شخصية لا يستطيع أن يقرر أي شيء ، وكان عمله يدنو كثيراً بشكل مشبوه من عمل الشرطة .

كانت الوزارة تفرض عليّ أن أتحرى الأصول العرقية للناس : أفريقيين ، آسيويين ، يهودا ، ولا أحد من هذه المجموعات الإنسانية كان يستطيع الدخول إلى وطني .

كانت الحماقة تبلغ مدى بعيداً إلى درجة أني كنت أغدو أنا ضحية لها ، فحين أسّست ، دون أي قرش من خزانة الدولة التشيلية ، مجلة متقنة عنونتها «أراوكانيا» ووضعت على الغلاف صورة امرأة أراوكانية جميلة تضحك بكل أسنانها ، كان هذا كافياً لكي تلفت وزارة الخارجية نظري في لهجة شديدة لأنها اعتبرت المجلة استخفافاً وعصياناً ، علماً بأن رئيس الجمهورية السيد (بيدرو أغيره ثيردا) له وجه نبيل لطيف تبدو في سحناته مواد خلاسيَّتنا وهجنتنا كلها .

إنه ليُعرف أن قبائل «أراوكانو» قد أبيدت عن بكرة أبيها ، ثم في النهاية تنوسيت بعد أن هُزمت لأن التاريخ لا يكتبه إلا الغالبون أو الذين يجنون ثمرة الانتصار . بيد أنه ليس فوق هذه الأرض إلا أجناس قليلة تفوق في جدارتها الجنس «الأراوكاني» .

وسيأتي اليوم الذي نرى فيه جامعات أراوكانية وكتباً مطبوعة باللغة الأراوكانية ، وعند ذلك سنعرف ما فقدناه من صفاء ونقاء وطاقة بركانية .

إن الادعاءات «العرقية» الباطلة عند بعض أمم أمريكا الجنوبية التي هي نفسها نتاج تصالبات واختلاطات خلاسية هجينة لهي طرحة[1] من نوع استعماري . يريدون نصب سقالة حيث بضعة وجهاء بيض موسوسون متشككون أو «مستبيضون» يقدمون أنفسهن في المجتمع وهم يومئون إلى أنفسهم أمام الآريين الأنقياء أو السواح السفسطائيين . لحسن الحظ هذا أصبح من مخلفات الماضي وها هي الأمم المتحدة مليئة بمندوبين سود ومنغوليين (صفر) ، أي أن نبات الأجناس الإنسانية يعرض ، بنسغ الذكاء الذي يصعد ، ألوان أوراقه كلها .

لقد انتهى بي الأمر أن ضقت ذرعاً وذات يوم تخليت إلى الأبد عن منصبي : وظيفة القنصل العام .

سحر وسر

أضف إلى هذا ، أني أدركت أن العالم المكسيكي المقموع المردوع ، العنيف القومي ، الملتف بكياسته التي يرجع عهدها إلى ما قبل (كولومبوس) ، سيمضي كما كان بدون حضوري ولا شهادتي .

حين قررت العودة إلى بلدي كنت أفهم الحياة المكسيكية أقل مما كنت أفهمها حين وصلت إلى المكسيك .

كانت الفنون والآداب تنتج في دوائر متنافسة ، لكن الويل لمن يأتي من الخارج فيميل إلى جانب ضد آخر أو يكون مع فئة ضد أخرى ، فإن هؤلاء وأولئك سينقضّون عليه ويسحقونه .

عندما هيأت نفسي للسفر ، أقاموا لي مظاهرة هائلة ؛ حفلة عشاء حضرها ما يقرب من ثلاثة آلاف مدعو ، دون عد المئات من الذين ما وجدوا مكاناً فارغاً . عدة رؤساء جمهورية أرسلوا يعبرون عن مباركتهم .

بيد أن المكسيك هو حجر المحك لأمريكا كلها ، وليس عبثاً أنه قد نقشت هناك

---

(١) طرحة : هكذا في الأصل Tara ، وهي تعني ما يطرح من الوزن الكامل مثل وزن الوعاء أو السفط أو الشاحنة . عن العربية .

ساعة التوقيت الشمسي لأمريكا القديمة ، الدائرة المركزية للبث ، للمعرفة وللسر .

إن كل ما كان يمكن أن يجري ، جرى . لقد كان الصحيفة الوحيدة للمعارضة تمولها الحكومة ، كانت الديموقراطية الأكثر ديكتاتورية من الديكتاتورية نفسها تحكم هناك .

إني أذكر حادثة مأساوية أثرت في نفسي بشكل رهيب ، كان ثمة إضراب في معمل استغرق زمناً طويلاً دون أن يُعثر على أي حل لإنهائه ، ودون أن يُلمح في الجو ضوء يشير إلى انتهائه ، فاجتمعت نساء المضربين واتفقن على زيارة رئيس الجمهورية كي يشرحن له الموقف ، ربما كنّ يردن أن يعبرن له عن قلقهن وبؤسهن . طبعاً ما كنّ ليحملن أسلحة مطلقاً . اشترين باقة من الورود كي يقدمنها إلى ولي الأمر أو إلى زوجته ، كنّ على وشك الولوج إلى القصر حين أوقفهن الحرس الجمهوري فمنع عليهن الاستمرار لأن السيد الرئيس ما كان ينوي استقبالهن ، وأُمرن بأن يتوجهن إلى الوزارة المعنية وأن عليهن أن يخلين المكان حالاً ، فهذا أمر قاطع عاجل .

النساء بيَّن قصدهن وشرحن موضوعهن وقلن إنهن لن يتسببن في أي إزعاج مهما كان ، وإنهن لا يردن إلا إعطاء هذه الزهور إلى السيد الرئيس أو إلى حرمة المصون ، والطلب منه أن يعمل على حل الاضراب في أسرع وقت ممكن ، إذ إنهن لا يجدن ما يؤوين به أولادهن ولا ما يسد الرمق ، وإنه من الصعب جداً أن يستمر الوضع على هذه الحالة ، فرفض رئيس الحرس أن يحمل أية رسالة أو أي خبر إلى السيد الرئيس ، فأصرت النساء من جانبهن على البقاء هناك إلى أن يُلبّى طلبهن .

آنذاك سمعت طلقات انطلقت من حرس القصر ، وإذ بسبع من النساء يسقطن مضرجات بدمائهن ميتات ، بالإضافة إلى جريحات أخريات .

في اليوم التالي أقيمت الجنائز السبع ، كنت أظن أن موكباً هائلاً سيرافق نعوش تلك النساء الشهيدات ، غير أن أشخاصاً قلائل مشوا في الجنازة الموحدة . بلى ، تكلم الزعيم النقابي الكبير وكان هذا ثورياً معروفاً ، كان خطابه على المقبرة لا يُقدح فيه لما له من أسلوب بلاغي رنّان طنّان ، قرأته بكامله في اليوم التالي وقد نشرته الصحف ، فلم يكن يحتوي على سطر واحد من الاحتجاج ، لم تكن فيه كلمة واحدة من الغضب ولا حرف يطالب بمحاكمة المسؤولين عن هذه الفعلة الشنعاء . بعد مضي أسبوعين على هذه المجزرة ما كان أحد يتكلم عن الحادثة . أبداً ما قرأت من بعد أن أحداً يشير إلى هذه الحادثة أو يذكرها .

كان رئيس الجمهورية إمبراطوراً «اثتيكياً» ، لا يمكن أن يَمس في شيء فهو أكثر رفعة من العائلة البريطانية المالكة بألف مرة . ما من صحيفة ، سواء في مزح أو جد ، كانت تجرؤ على انتقاد هذا الموظف السامي ، وإلا فإنها تتلقى حالاً ضربة مميتة قاضية .

إن ما هو جذّاب خلاّب ،لَيلف مأسي المكسيك إلى درجة أن المرء يعيش مذهولاً أمام التورية ، تورية تبتعد أكثر فأكثر عن النبض الجوهري ، عن الهيكل الدامي . إن الفلاسفة أصبحوا نقّاداً في علم الجمال ، ارتموا على البحوث الفنية الوجودية الزهيدة التي تبدو إزاء البركان مشينة معيبة . إن السلوك المدني لمتقطع وصعب . إن القهر ، الإخضاع ، الإذلال ، يأخذ مجاري عديدة تترسب مياهها حول العرش .

لكن كل ما هو سحري ينشأ ويعاد نشؤوه دوماً في المكسيك . من بركان بدأ يولد من جديد فلاّحاً في حقله الفقير بينما هو يبذر فاصوليا ، إلى البحث المستمر عن رفات (كورتيس Corte's) الذي حسب ما يقال ، يستريح في المكسيك مع الخوذة الذهبية التي تغطي جمجمة الفاتح ، إلى المتابعة الشديدة التي ليست أقل من الأخرى في البحث عن بقايا الإمبراطور الاثتيكي : (كوانثيموك Cuanthemoc) ، التي ضاعت منذ أربعة قرون والتي قد تظهر هنا أو هناك على حين غرة ، إذ إن هنوداً سرّيين لا يَرون يحفظونها ويصونونها ، كي تعود للنسوة مرة أخرى في الليل الطلسم .

إن المكسيك يعيش في حياتي مثل نسر صغير ضال يدور في عروقي . ما من شيء سوى الموت يقدر على أن يطوي أجنحته فوق قلبي : قلب جندي غاف .

الفصل الثامن
الوطن في دياجير

«ماكتشو بيكتشو»:[1]

لقد أسرعت وزارة الخارجية فوافقت على استقالتي من عملي.

إن انتحاري الديبلوماسي منحني الفرح الأكبر: فرح أنني أستطيع العودة إلى تشيلي. إني لأعتقد في أن الإنسان يجب أن يعيش في وطنه وأومن أن اجتثاث المرء من جذوره، واستئصال البشر من تربتها، لهما خيبة تعكر وضوح الروح وإحباطاً يفسد جلاء النفس. أنا لا أستطيع العيش إلا في أرضي نفسها، أنا لا أستطيع الحياة دون أن أضع قدميّ ويديّ وسمعي في تربة وطني، أنا لا أستطيع التنفس دون أن أحس بدوران مياهها وظلالها، أنا لا أستطيع النمو دون أن أشعر بجذوري وهي تبحث في الحمأة عن الذات الأم، عن الجوهر الأصل.

لكن قبل بلوغي تشيلي قمت باكتشاف آخر أضاف تطوراً جديداً إلى تطور شعري.

لقد توقفت في «البيرو» وصعدت حتى أطلال «ماكتشو بيكتشو»، امتطينا أحصنة حتى استطعنا السمو إلى أعالي هذه المرتفعات، إذّاك لم يكن ثمة طريق معبّدة للسيارات. لقد رأيت من على ذراها الأبنية الحجرية القديمة التي تحيط بالقمم العالية جداً لسلسلة جبال «الأنديس» الخضراء. كانت تنحدر من القلعة المتآكلة المنقضمة بفعل الحت على مضي القرون والدهور، سيول ووديان، كانت تصعد من نهر «ويلكامايو» Wilcamayo كتل من ضباب أبيض تعمم هذه الذرى، لقد شعرت

---

(١) ماكتشو بيكتشو: هي بلدة قديمة، ترتفع ثلاثة آلاف متر عن سطح البحر، مبنية من حجر غرانيتي أبيض قرب أخدود Urubamba في سلسلة جبال «الإنديس»، اكتشفها عالم الآثار الإنجليزي Hiran Bingham عام ١٩١١، وفي أعلى قمة من قمم هذه المدينة تسمو الصخرة المقدسة التي توحد الشمس بالمدينة.

بضالّتي في مركز تلك السرّة الحجرية ، سرَة عالم غير مأهول بالسكان ، عالم فخور منيف شاهق ، كنت أنتمي إليه بشكل من الأشكال . لقد شعرت أن يديّ كانتا قد عملتا هناك في إحدى المراحل التاريخية السحيقة ، كانتا تحفران أخاديد ، تملسان الصخور .

أحسست أنني تشيليّ ، بيرويّ ، أمريكي . عثرت في تلك المرتفعات الوعرة ، بين تلك الأطلال المتناثرة المجيدة ، على عقيدة إيمان كي يستمر غنائي ونشيدي .

هناك ولدت قصيدتي «مرتفعات ماكتشو بيكتشو»[١] .

سهوب ملح البارود

لقد وصلت من جديد في نهاية عام ١٩٤٣ إلى «سانتياغو» ، فنزلت في منزلي الذي استطعت تملكه على مدى فترة طويلة بفضل تحسبي لما قد يجيء به المستقبل . في هذا المكان ذي الأشجار الكبيرة السامقة جمعت كتبي وبدأت مرة أخرى الحياة الصعبة .

لقد بحثت من جديد عن جمال وطني ، جمال الطبيعة العنيف ، عن روعة النساء في بلدي ، عن أعمال زملائي ، عن ذكاء بني وطني .

لم يكن البلد قد تغير أو تبدل ، أرياف وضيع غافية ، فقر مريع في المناطق المنجمية ، والناس المتأنقون يملأون ناديهم : نادي .

لقد سبب لي قراري الذي اتخذته اضطهاداً وملاحقة ودقائق نجمية[٢] .

وأي شاعر يندم؟

إن الصحفي (كورثيو مالابارت)[٣] الذي أجرى معي مقابلة بعد سنوات مضت على ما سأرويه الآن ، قال في مقالة ، مصيباً : «لست شيوعياً ، لكنني لو كنت شاعراً تشيلياً لأصبحت شيوعياً ، كما فعل (بابلو نيرودا) ، يجب على المرء هنا في تشيلي أن يتحزب في سبيل الفقراء ، في سبيل من هم بلا مدرسة وبلا حذاء» .

لقد اختارني هؤلاء الناس الذين هم بلا مدرسة وبلا حذاء نائباً في مجلس

---

(١) مرتفعات ماكتشو بيكتشو : لقد ترجمنا هذه القصيدة - الملحمة ولكننا لما ننشرها بعد .

(٢) دقائق نجمية : التعبير هنا يشبه ما نقوله بالعربية ، رؤية نجوم الظهر ، من شدة العذاب والاضطهاد .

(٣) كورثيو مالابارت : صحفي وكاتب إيطالي (١٨٩٨-١٩٥٧) .

الشيوخ في ٤ آذار من عام ١٩٤٥ . إني سأظل أفتخر مدى حياتي بأن الذين صوتوا لي هم آلاف من التشيليين يعيشون في أقصى منطقة بتشيلي : منطقة المناجم الكبيرة ، مناجم للنحاس وملح البارود .

إنه لصعب وعسير جداً المسير عبر هذه السهوب . فالسماء لا تمطر في هذه المناطق خلال نصف قرن أو يزيد ، والصحراء منحت عمال المناجم سيماء صلبة وملامح متجهمة ، فهم رجال ذوو وجوه ملوحة بالشمس محروقة ، إن تعبيرات نفوسهم عن الوحدة والعزلة والهجران تختزن في عيونهم ذات الحدة الغامقة والشدة المعتمة . كان عليّ أن أصعد من الصحراء إلى سلسلة الجبال ، أن أدخل في كل بيت فقير ، أن أعرف الأعمال اللاإنسانية التي يتعرضون لها ، أن أشعر أنني مستأمن على آمال الإنسان المنعزل المضطهد المغمور ، إن كل هذا ليس بمسؤولية سهلة وعادية . غير أن شعري استطاع أن يفتح طريقاً للاتصال فاستطعت أن أمشي وأن أجري وأن أستقبل على أني أخ وفي من لدن مواطني الذين يعيشون في ظروف صعبة وحياة قاسية صلبة .

لست أدري ، إن كان في باريس أو في براغ ، حين راودني شك ضعيف حول موسوعية المعلومات لدى أصدقائي الحاضرين معي هناك ، تقريباً كلهم كانوا كتاباً والطلبة كانوا قلة فيهم .

– نحن نتكلم كثيراً عن تشيلي –قلت لهم– وإني على يقين بأنكم تجاملونني نظراً لأنني تشيلي ، لكن ، أفتعرفون شيئاً عن بلدي البعيد النائي؟ مثلاً ، في أية وسيلة من وسائل النقل نتحرك؟ أعلى فيل ، أفي سيارة ، أبقطار ، أعلى متن طائرة ، أعلى دراجة ، أم على ظهر جمل أم في مزلقة جليد؟

أجاب أكثرهم في جدية وقناعة : على ظهر فيل .

ليس في تشيلي لا فيلة ولا جمال ، لكنني أدرك أنه لأمر مبهم ومحير أن بلداً يولد في القطب الجنوبي الجليدي لينتهي في السهوب السبخة المالحة والصحاري حيث لا مطر منذ نصف قرن على الأقل . كان عليّ أن أجتاز هذه الصحاري وأجوب بها خلال سنين عديدة لأني كنت نائباً اختاره سكان تلك الفيافي العزلاء ، لأني كنت ممثلاً لشغيلة لا حصر لهم يكدّون في ملح البارود والنحاس ، هؤلاء ما استعملوا يوماً ربطة عنق قط .

التوغل في تلك السهوب ومواجهة تلك الرمال هو كالدخول في القمر ، إن هذا

النوع من الكرة الخالية والكوكب الفارغ يختزن الثروة الكبرى في وطني ، لكن لا بد من استنباطها من باطن الأرض الجافة القاسية وهذه الأرض ليست مزودة بما يغري للعيش فيها ، إن نقل الماء إليها يكلف جهوداً جديدة ناهيك عن حفظ نبتة تزهو ولو كانت زهرة متواضعة .

أنا أنتمي إلى الطرف الآخر من الجمهورية التشيلية ، فقد ولدت في أراض خضراء ذات أشجار غابية فكانت لي طفولة ذات مطر وثلج . إن اضطراري لمجابهة تلك الصحراء القمرية كان يعني انقلاباً في وجودي كذلك أن تمثيل أولئك الرجال في مجلس الشيوخ ، وتمثيل أراضيهم الهائلة المنعزلة كان مشروعاً صعباً وعملاً شاقاً . إن الأرض العارية بلا حشيشة واحدة ، ولا قطرة ماء تائهة ، لهي سر شديد ولغز نفور . في ما تحت الغابات ، إزاء الأنهار ، كل شيء يكلم الإنسان ، الصحراء هي على العكس من هذا لا تخاطب أحداً وأنا ما كنت لأفهم لغتها ، أي ، صمتها .

خلال سنين طويلة ركزت مؤسسات ملح البارود سيطرة حقيقية : إقطاعيات أو ممالك في تلك السهوب ولقد أغلق الإنجليز ، الألمان ، وتشكيلة الغزاة المحتلين كلهم على هذه الأراضي المنتجة لملح البارود وأقطَعوها لأنفسهم وأعطوها اسم مكاتب . هناك صكوا عملة خاصة بهم فرضوها على العمال ، ومنعوا أي اجتماع قد يعقدونه وحرموا الأحزاب ومنعوا الصحافة الشعبية . لم يكن من السهل الدخول إلى تلك المناطق إلا بسماح خاص لا يتوصل إليه إلا القلة المختارة .

كنت ذات مساء أتحدث إلى عمال مرآب في مكاتب ملح البارود التابعة لـ(ماريا إلينا) . كانت أرضية هذا المرآب دائماً موحلة بالماء والزيت والسوائل ، فكنت والقادة النقابيين الذين اصطحبوني ندوس على ألواح ثخينة تعزلنا عن الأرض الموحلة .

إن هذه الألواح الثخينة -قالوا لي- كلفتنا خمسة عشر إضراباً متتابعاً وثماني سنوات من الإلحاح وسبع ضحايا .

بالنسبة للضحايا السبع فقد قصوا عليّ أنه في أحد الاضرابات هذه ، أخذت شرطة الشركة سبعة من قادة العمال ، كان الحراس يمتطون الخيل فيما العمال وهم مربوطون إلى الخيول بحبال يتابعونهم على الأقدام عبر الأراضي الرملية النائية ثم أفرغوا فيهم ما شاءوا من العيارات النارية . ظلت أجسادهم ممددة تحت أشعة الشمس المتوهجة اللاهبة وبرد الصحراء القارص إلى أن عثر عليهم رفاقهم فدفنوهم .

من قبل كانت الأشياء أسوأ كثيراً ، مثلاً ، في عام ١٩٠٦ بـ«ايكيكه» نزل

المضربون إلى المدينة من مكاتب ملح البارود جميعها ، كي يقدموا مطاليبهم مباشرة إلى الحكومة ، فاجتمع آلاف الرجال المنهكين بما قاسوه من المسير الطويل للاستراحة في ساحة تجاه مدرسة هناك ، كانوا ينوون أن يتوجهوا في صباح اليوم التالي ليروا حاكم المنطقة فيعرضوا عليه مطاليبهم ، لكنهم ما استطاعوا أن ينفذوا ما عزموا عليه ، فلقد قدمت في فجر ذلك اليوم قوات عسكرية يقودها عقيد فأحاطت بالساحة وبدأت بإطلاق النار والتقتيل دون أي إنذار أو تحذير فسقط صريعاً في تلك المجزرة أكثر من ستة آلاف رجل .

في عام ١٩٤٥ كانت الأمور تجري في صورة أحسن ، لكن ، أحياناً ، كان يبدو لي ، أن زمن الإبادة الجماعية يعود من جديد . ذات مرة مُنعت من التوجه إلى العمال في محل النقابة ، فدعوتهم أنا إلى خارج ذلك السور ، وفي وسط الصحراء بدأت أشرح لهم الوضع وأبين لهم الوسائل الممكنة للخروج من هذه الحالة التي هم عليها ، كنا ما يقرب من مائتي شخص وإذ بي أسمع ضجة آليات تقترب ، على بعد أربعة أمتار أو خمسة مني وقفت دبابة عسكرية ثم فتحت فوهتها وأطلت فوهة رشاش منها قد صوّب نحو رأسي ، ثم أطل قرب الرشاش ضابط متأنق جداً لكنه جادّ جداً ، اقتصر على توجيه نظرة إليّ بينما كنت أتابع خطابي ، وهذا كان كل شيء .

إن الثقة التي وضعها في الشيوعيين أولئك العمال الكثيرون ، وهم أُمِّيون في غالبيتهم ، كانت قد ولدت مع (لويس إيميليو ريكابرين) الذي بدأ نضاله في هذه المنطقة اليباب . من عامل محرض بسيط ، من فوضوي قديم ، تحوّل إلى حضور شبحي هائل في كل مكان ، فلقد ملأ البلد بالنقابات والاتحادات واستطاع أن ينشر أكثر من خمس عشرة صحيفة مهمتها الدفاع عن هذه المنظمات الجديدة التي خلقها ، وكل هذا بلا أي سنتيم . كان المال يخرج من الضمير الجديد الذي كان العمال قد تبنُّوه وتكفَّلوا به .

لقد رأيت في بعض الأماكن مطابع (ريكابرّين) التي خدمت قضية العمال في بطولة وجرأة ، وظلت تعمل في سبيل هذه القضية أكثر من أربعين سنة ، بعض هذه الآلات حطمها رجال الشرطة ثم أصلحت من بعد في دقة واعتناء ، وكانت تلمح فيها الندوب الهائلة تحت اللحام الغرامي الودّي الذي جعلها تتحرك من جديد .

لقد تعودت في تلك الجولات الكثيرة التي كنت أقوم بها عبر السهوب أن أنزل في أكثر البيوت فقراً ، في بيوت صغيرة ، أو أكواخ أو أخصاص يقطنها رجال

الصحراء . كان ينتظرني دوماً عند مداخل المناجم مجموعة من العمال وهم يحملون رايات صغيرة للترحيب بي ، من بعد كانوا يدلونني على المكان الذي سأبيت فيه . ثم يتوافد عليّ في غرفتي خلال اليوم كله نساء ورجال يعرضون عليّ شكاواهم العمالية ونزاعاتهم المحلية أو العائلية . هذه الشكاوى كان لها أحياناً طابع قد يراه من هو غريب ، مضحكاً هزلياً ؛ مثلاً نقص الشاي قد يؤدي بهم إلى شن إضراب ذي نتائج خطيرة . أهو من الضروريات الملحة كما هو الأمر عليه في لندن ، في هذه المنطقة البائسة الفقيرة؟ لكن ، ما هو أكيد أن الشعب التشيلي لا يمكن له أن يعيش دون تناول الشاي عدة مرات في اليوم ، كان العمال الحفاة الذين يسألونني عن سبب فقدان هذا الشيء الغريب ، هذا المشروب الكريه الطعم ،لكنه ضروري لا غنى عنه ، يقدمون لي حجة عذر قائلين :

- إننا ، إن لم نتناوله ، نشعر بوجع شديد في الرأس .

لقد كان لأولئك العمال المسجونين خلف جدران الصمت ، فوق الأرض المتوحدة وتحت السماء المتوحدة ، حب الاستطلاع السياسي الحيوي ، كانوا يريدون أن يعرفوا ماذا يجري في يوغوسلافيا أو في الصين ، كانوا يهتمون بالتغييرات والتحويلات والمصاعب في البلدان الاشتراكية ، وبنتائج الإضرابات العمالية الكبيرة في إيطاليا ، وبشائعات الحروب وبظهور الثوار في أكثر الأماكن بعداً عن تشيلي .

كنت أستمع دوماً خلال الاجتماعات التي تنعقد هنا وهناك إلى مطلب ملحّ متكرر ألا وهو أن أقرأ عليهم بعضاً من قصائدي ، وكثيراً من المرات يطلبون هذه القصائد بأسمائها . طبعاً ما فهمت أبداً أو عرفت في ما إذا كانوا جميعاً يفهمون أو لا يفهمون ، يدركون أو لا يدركون القليل أو الكثير من أبيات قصائدي التي أنشدها ، فلقد كان هذا صعب التحديد في ذلك الجو من الإطراق والسكون المطلق ، من الاحترام المقدس الذي كانوا ينصتون فيه إلى هذا الإنشاد . لكن ما هي أهمية هذا؟ فأنا ، وأنا واحد من أكثر الأغبياء شهرة ، ما استطعت أبداً أن أفهم أبياتاً ليست بالقليلة من شعر (هولديرلين)[1] ومن شعر (مالارميه)[2] . مع العلم أنني قرأت هذه

---

(١) هولديرلين Friedrich : شاعر ألماني (١٧٧٠-١٨٤٣) .

(٢) مالارميه Stephane : شاعر وناقد فرنسي (١٨٤٢-١٨٩٨) .

الأبيات بالاحترام المقدس نفسه .

أما الطعام ، فإنه حين يراد له أن يتخذ ملامح وليمة كبرى ، يغدو قدراً كبيرة من دجاجة أو طير غريب يصطادونه من السهوب . وما كان يوضع في الصحون كان بالنسبة لي صعباً ، لا أستطيع أن أغرز فيه سنّي ، وكثيراً ما كان أرانب يقال بأنها مطهية . كانت الظروف تجبر على صنع طبق مفضل من هذا الحيوان الصغير الذي ولد كي يموت في المخابر .

والأسرّة التي خصصت لي ، دائماً كانت ذات طراز واحد ، ففي البيوت التي لا حصر لها حيث كنت أنام ، كانت هناك أسرّة لها خاصتان اثنتان وميزتان لا تجدهما إلا في الأديرة ، أولاهما شراشف بيضاء مثل الثلج متيبّسة بفعل قوة النشا ، قادرة على أن تقف وحدها قائمة ، والثانية يبوسة في السرير شبيهة بيبوسة أرض الصحراء غير الرملية . هناك لا يعرفون ما يسمى بالفراش بل هو ألواح بقدر ما هي ملساء بقدر ما هي قاسية لا ترحم .

ومع هذا فإن كل شيء هناك كان يغفو قرير العين ، فبلا أي جهد كنت أدخل لأشارك في النوم ذلك الفيلق الغفير من زملائي ورفاقي . كان النهر دائماً جافاً ومتوهجاً كأنه جمرة من نار ، فيما الليل في الصحراء كان يمد رطوبته تحت قبة ذات نجوم متقنة الصنع .

لقد جرى شعري وحياتي جريان نهر أمريكي ، مثل تيار من مياه تشيلي ، فشعري وحياتي ولدا من عمق الجبال السرية بالجنوب وتوجها بلا توقف نحو مخرج بحري في حركة تياراتهما . لم يرفض شعري أي شيء مما استطاع جرفه معه في مجراه ، لقد قبل الهوى ، وحضن السر ففتح له طريقاً بين قلوب الشعب .

لقد كان لي أن أكافح وأن أكابد ، أن أحب وأن أغني ، أن أنتصر وأن أنهزم ، أن أتذوق طعم الخبز وأن أذوق طعم الدم ، فماذا يريد الشعب بعد؟ إن النقيضين من دمع ومن قبل ، من وحدة ومن شعب ، يعيشان في شعري ، يعملان في شعري ، لأني عشت من أجل شعري ، وشعري دعمني في صراعاتي . وإن كنت قد حزت على جوائز كثيرة ، جوائز تفلت هاربة مثل فراشات ذات طلع هارب ، فإني قد نلت الجائزة الكبرى ، جائزة يحتقرها الكثيرون ، ولكنها في واقع الأمر مستعصية على الكثيرين ، لقد غدوت بكد دروس قاسية من جمالية ومن بحث ، عبر متاهات الكلمة المكتوبة ، شاعراً شعبياً ، بلى فهذه هي جائزتي ، ليست الكتب ولا القصائد المترجمة أو

التآليف التي تصف أو تشرح أو تحنط كلماتي ، إن جائزتي لهي هذه اللحظة القصيرة في حياتي حين ، في عمق فحم «لوتا» وسط وهج الشمس بتلك الأرض المحترقة ، من حفرة ملح البارود ، صعد إنسان كما لو كان يصعد من جهنم ، في وجه مشوه بسبب العمل الرهيب ، في عينين محمرتين بسبب الغبار القاتل ، فمد لي يده المتصلبة ، هذه اليد التي تدل عليها خارطة تلك السهول في قساوتها وتقطيبها . فقال لي في عينين تبرقان : «إني لأعرفك منذ زمن طويل ، يا أخي» . إن هذا هو إكليل الغار لشعري ، هذا الثقب في السهوب الرهيبة حيث يخرج عامل قالت له الريح والليل والنجوم بتشيلي مرات عديدة : «إنك لست وحدك ، ثمة شاعر يفكر في آلامك» .

لقد انتسبت إلى الحزب الشيوعي بتشيلي في ١٥ تموز من عام ١٩٤٥ .

(غونثاليث بيديلا Conzalez Videla):

كانت المرارات التي أنا ورفاقي كنا نمثلها ، لا تصل إلى المجلس إلا في صعوبة جمة . تلك القاعة المريحة البرلمانية كانت مثل سرير وثير لا تنعكس عليه جلبة الجماهير غير المرتاحة ولا تجد لها صدى في مجلس الشيوخ . وزملائي في العصبة المضادة كانوا أكاديميين خبراء في فن الخطابة الوطنية الرنانة ، وتحت هذا الستار الحريري المزيف كانوا يبسطون ويسهبون في كلامهم ، فكنت أشعر بالاختناق .

فجأة تجدد الأمل ، إذ إن أحد المرشحين إلى الرئاسة وهو (غونثاليث بيديلا) أقسم أن يعمل في سبيل العدالة ، فجلبت له بلاغته الفعالة سمعة حسنة ، وأنا كنت قد عينت رئيساً للدعاية في حملته الانتخابية ، فحملت إلى أنحاء أرض تشيلي كلها هذه البشرى الجديدة عن مرشحنا هذا .

فاختاره الشعب بأكثرية كاسحة من الأصوات رئيساً للجمهورية .

لكن رؤساء الجمهورية في قارتنا الأمريكية «الكريوية» كانوا يعانون من مسخ وتغير في الخلق والخليقة مرات كثيرة ، في حالة هذا الذي أروي حكايته الآن ، فإنه غير من أصدقائه في سرعة واستبدل بهم آخرين وأقحم أسرته في الطبقة الارستوقراطية ، وشيئاً فشيئاً أصبح دياغوجيا عيناً شهيراً .

الحقيقة هي أن (غونثاليث بيديلا) لا يدخل في إطار الديكتاتوريين النموذجيين

التقليديين في أمريكا الجنوبية ، إذ إن في (ملغاريجو)[١] ديكتاتور بوليفيا ، وفي الجنرال (غوميث) ديكتاتور فينزويلا ، أعراقاً أرضية وطبقات معدنية يمكن معرفتها ، ولهما إشارة تنمي ببعض العظمة ، ويبدو عليهما كأنهما يتحركان بدافع قوى مدمرة ، ولكن هذا لا ينفي عنهما أنهما سفاحان ، غير أنهما كانا قائدين جابها المعارك والنيران .

بينما (غونثاليث بيديلا) كان ، على العكس من ذلك ، نتاج الطبخ السياسي ، تافهاً متمادياً في غيه ضعيفاً يحاول أن تبدو عليه ملامح القوة والجبروت .

في حديقة حيوانات أمريكا ، كان الديكتاتوريون هم العظائيات العملاقة ، بقايا إقطاعية هائلة في أراض ما زالت كما كانت قبل التاريخ . إن يهوذا تشيلي ما كان إلا تلميذاً في الطغيان وفي درجات العظائيات ومراتبها لا يمكن له أن يتعدى كونه ضباً ساماً[٢] ، بيد أنه فعل ما فيه الكفاية من أذى لتشيلي ، فهو على الأقل أعاد تاريخ البلد إلى الوراء . كان التشيليون في عهده المبارك ينظر بعضهم إلى بعض في خجل دون أن يفهموا كيف جرى ذلك وكيف يجري هذا الأمر المخجل .

كان هذا الرجل من دعاة الاعتدالية ، بهلوان مجلس . توصل إلى أن تموضع في يسارية مشهدية . في «ملهاة الأكاذيب» هذه كان بطلاً مكاراً خبيثاً . في هذا لا أحد يجادل ، في بلد حيث السياسيون فيه ، عموماً ، جادّون جداً أو هكذا يبدون ، ارتاح الناس لظهور التفاهة والسخافة والطيش والخفة والبطلان ، ولكن حين ، راقص «الـ كونغا» هذا خرج من الأم[٣] ، كان الوقت متأخراً جداً : كانت السجون مليئة بالمعتقلين السياسيين إلى درجة أنه أنشئت معتقلات مثل معتقل «يساغوا» . وتركزت الدولة البوليسية ، إذّاك ، كتجديد قومي في وضع البلاد . فلم يكن ثمة سبيل غير الجلَد والصبر والصراع بشكل سرّي للعودة إلى الحشمة والجدّية .

إن الكثيرين من أصدقاء (غونثاليث بيديلا) الذين رافقوه حتى النهاية في نشاطاته الانتخابية قد سيقوا إلى السجون في سلسلة الجبال العالية أو في الصحراء

---

(١) مليغاريخو Mariano : عقيد قام بانقلاب عسكري في بوليفيا ، وحكمها ديكتاتورياً (١٨١٨-١٨٧١) .

(٢) ضب سام : هو الضب الأبرص السام الذي يقال له الوزغ .

(٣) خرج من الأم : تعبير إسباني يشبه التعبير العربي ، فاض عن الحد .

بسبب انشقاقهم عن مسخه ومخالفتهم لتغيره وتبدّله .

فالحقيقة هي أن الطبقة العالية المورّطة بقدراتها الاقتصادية ، ابتلعت مرة أخرى حكومة أمتنا كما جرى ذلك عدة مرات من قبل ، لكن في هذه الحالة ، كان الهضم عسيراً غير مريح فمرت تشيلي في حالة مرضية كانت تتراوح بين الغشية والحشرجة .

لقد تحوّل رئيس الجمهورية الذي اخترناه بأصواتنا ، تحت حماية ورعاية الولايات المتحدة ، إلى وطواط مطاط خسيس دنيء حقير سافل لئيم رذيل بخس تافه شرس عنيف دموي . إنه لأكيد أن تأنيب ضميره له لم يكن يدعه ينام وبذلك فقد نصب ، قرب القصر الجمهوري ، مواخير للغلمان وللبغايا خاصة به ، زودها بسجاجيد ومرايا لملذاته . لقد كان لهذا التعيس عقلية تافهة بيد أنها ملتوية ، ففي الليلة نفسها التي بدأ فيها القمع واضطهاد الشيوعية والشيوعيين ، دعا اثنين أو ثلاثة من القادة العمال إلى العشاء معه ، بعد انتهاء الوليمة نزل معهم من على درج القصر الجمهوري ، ثم أخرج من عينيه بعض الدموع فعانقهم وقال لهم : «إني أبكي لأني قد أمرت بسجنكم ، فحين تخرجون من هنا سوف يعتقلونكم ، ولست أدري في ما إذا سيشاهد بعضنا بعضاً بعد هذه اللحظة» .

«الجسد الموزّع»:

لقد كانت خطاباتي عنيفة دوماً وكانت قاعة مجلس الشيوخ مليئة دائماً بالناس الذين يأتون ليسمعوني . لكن ، بعد مضي وقت قليل على انتخابي وعضويتي وخطبي ، طُلب من المجلس طردي فطُردت منه ووجّه الأمر إلى الشرطة باعتقالي .

بيد أننا ، نحن الشعراء ، نملأ بين جواهرنا الأصيلة ، ذاتاً مصنوعة في معظمها من نار ودخان .

كان الدخان قد خُصّص للكتابة . إن العلاقة التاريخية لكل ما كان يجري لي اقتربت بشكل مأساوي من المواضيع الأمريكية القديمة . في ذاك العام من الخطر والاختباء أنهيت أكثر كتبي أهمية ألا وهو «النشيد العام» .

كنت أبدّل داراً بدار في كل يوم تقريباً . في الجهات جميعها كانت الأبواب تنفتح كي تحميني . كان ثمة دائماً أناس لا أعرفهم يعبرون عن رغبتهم في إيوائي لعدة أيام . كانوا يرجون مني أن أبقى عندهم ملتجئاً ولو لبضعة أسابيع ولو لبضعة ساعات . فعبرت قرى ، حقولاً ، موانئ ، مدناً ، مخيمات ، كذلك بيوت فلاحين ،

مهندسين، محامين، عمال مناجم، أطباء، بحّارة .

ثمة موضوع قديم في الشعر الفولكلوري يعاد ويكرر في أقطارنا جميعها وهو موضوع «الجسد الموزع» . يفترض المغني الشعبي أن قدميه في جهة وأن كِليتيه في جهة أخرى فيصف أعضاء جسده كلها التي تركها مبددة مبعثرة عبر الأرياف والمدن . وهذا ما كنت أشعر به أنا في تلكم الأيام .

من بين الأماكن المؤثرة التي حوتني وضمتني، أذكر بيتاً ذا غرفتين، ضائعاً بين التلال الفقيرة في «بالبارياثيسو» .

فلقد خُصّص لي فيه جزء من غرفة وركَينا من نافذة كنت منه أراقب الحياة في الميناء . من هذه المطلة[1] الحقيرة كان نظري يحيط بقسم من الشارع . كنت أرى في الليالي مسير الناس المزدحم . كان ربضاً[2] فقيراً وكان ذاك الشارع، على بعد مائة متر من نافذتي، يحتكر الإضاءة كلها له في ذلك الحي المعتم، وتملأه حوانيت صغيرة وخذاريف ولعب أطفال .

قابعاً في ركني كان لي حب للاستطلاع لا حد له، أحياناً لم أكن أتوصل إلى حل المشاكل، مثلاً، لماذا كان الناس الذين يمرون، سواء منهم المتسكعون أو المستعجلون يتوقفون دائماً في المكان نفسه؟ ما هي هذه السلع السحرية التي كات تعرض في هذه الواجهة؟ أسر بكاملها كانت تتوقف لمدة طويلة وأطفالها على الأكتاف . ما كنت أبلغ أن أرى وجوه التجلي والوجد التي كانت ولا شك تبدو عليهم حين ينظرون إلى تلك الواجهة الساحرة، لكنني كنت أتخيلها وأفترضها .

بعد مضي ستة أشهر عرفت أن ذاك المكان كان واجهة حانوت بسيط لبيع الأحذية . سجّل إذن أن الحذاء هو أكثر ما يهم الإنسان . أقسمت أن أدرس هذا الموضوع، أن أبحث فيه وأن أعبر عنه، لكن ما كان لي الوقت كي أنفذ هذا العزم أو الوعد الذي أملته ظروف غريبة . غير أن الأحذية ليست قليلة في شعري . إنها تمشي

---

(١) المطلة : في الأصل atalaya وهي الكلمة العربية الطلائع، ومن معانيها باللغة الإسبانية ما عرّبناه في النص .

(٢) ربض : هكذا في الأصل arrabal وهو الحي الشعبي خارج المدينة، وثورة الربض التي قام بها أهل قرطبة على الخليفة مشهورة معروفة .

على أكعابها في كثير من مقاطع قصائدي دون أن أكون قد عزمت على أن أغدو شاعراً حذائياً .

كانت تصل إلى هذا البيت زيارات تطول أحاديثها ، جيران يمكثون هناك ساعات وساعات ، زوار ثقلاء ثرثارون لا يدرون أنه على بعد قليل منهم ، مفصولاً عنهم بحاجز من ورق صحف قديمة ، ثمة شاعر مطارد من قبل من لست أدري من محترفي الصيد الإنساني .

السبت مساء وكذلك صبيحة كل يوم أحد كان يأتي إلى البيت خطيب إحدى فتيات العائلة التي تستضيفني ، وكان ممن لا يحب أن يُخبروا بوجودي . كان هذا الشاب عاملاً ، يستودع لديه قلب الفتاة ، لكن ، آه ، ما كان أهل الفتاة يثقون به بعد . كنت أراه من كوّة النافذة وهو ينزل من على درّاجته التي كان عليها يوزع البيض في ذلك الحي الشعبي الواسع المديد كله ، بعد قليل أسمعه وهو يدخل مترنماً إلى البيت . كان عدو هدوئي وطمأنينتي ، أقول إنه عدو لأنه كان يصرّ على أن يبقى هناك يغازل الفتاة على بعد قليل من السانتيمترات من رأسي . هي كانت تدعوه إلى ممارسة الحب الأفلاطوني في إحدى الحدائق أو في السينما ، ولكنه كان يقاوم بشكل بطولي ويصر على ممارسة الحب الطبيعي في البيت ، وأنا كنت ألعن هامساً بين أسناني عناد موزع البيض المنزلي .

كان بقية أفراد الأسرة يعرفون سر اختبائي عندهم : الأم الأرملة ، الفتاتان الرائعتان والابنان البحّاران . كان هذان الشابان يفرغان الموز في رصيف الميناء وأحياناً كانا يعودان إلى البيت غاضبين لأن ما من باخرة كلفتهما بتفريغ شحنتها من الموز . عن طريقهما عرفت أن مركباً قديماً قد تفكك قطعة قطعة في الميناء . فوجهت أنا من ركني السري العمليات فانتزعا من قيدوم المركب التمثال الجميل وتركاه مخبأً في قبو بالميناء . ما استطعت أن أرى هذا التمثال إلا بعد مضي عدة سنين بعد أن انتهى فراري ونفيي . إن المرأة الخبيثة الجميلة ذات الوجه الإغريقي مثل بقية وجوه التماثيل في المراكب القديمة ، تنظر إليّ الآن في جمالها الكئيب الحزين فيما أكتب هذه المذكرات إزاء البحر[(١)] .

---

(١) لقد كتب (نيرودا) عن هذه الفتاة الخشبية قصيدة بعنوان تمثال على قيدوم السفينة ، ترجمناها ونشرناها في صحيفة الجمهورية العراقية عدد ٢٠٤٩ بتاريخ ١٩-٦-١٩٧٤ ، ضمن مجموعة من القصائد تحت عنوان «سبع قصائد لبابلو نيرودا» .

كانت الخطة هي أن أركب خفية الباخرة المشحونة بالموز في غرفة أحد هذين الشابين وأن أهبط منها حين تصل إلى ميناء «غواياكيل» ، طالعاً من بين عناقيد الموز. شرح لي الشاب البحّار أنه يجب عليّ أن أظهر فجأة على ظهر السفينة ، تحت القسم المغطى منها ، حين ترسو في الميناء الإكوادوري ، وأنا ألبس رداء أنيقاً وأدخن سيجاراً نقياً ، أبداً ما استطعت أن أدخن هذا النوع من التبغ . فقررت العائلة بعد أن تبين أن الإقلاع قد اقترب ، أن تفصل لي البدلة المناسبة -أنيقة ومخملية- ، لهذا الغرض أخذت لي المقاييس بشكل جيد دقيق .

في ضرب اثنين بثلاثة[1] كانت بدلتي جاهزة . أبداً ما سررت بمثل سروري حين استلمتها . إن فكرة «المودا» هذه التي كانت عند نساء البيت متأثرة بفيلم شهير في ذلك الوقت وهو فيلم : ذهب مع الريح . الشابان من جهتهما كان يعتبران أن الطراز الذي كانا يريدان أن تكون البدلة عليه هو قدوة في الأناقة التقطاه من رقصات «هارلم» ومن حانات الرقص في البحر الكاريبي . إن السترة ، متصالبة ومحزمة ، كانت تصل حتى ركبتيّ ، والسروال كان يشد على رسغيّ .

احتفظت بهذا الزي الجديد بالرسم والوصف ، المصنوع بأيدي أناس طيِّبي النية جداً ، ولم تسنح لي مناسبة كي ألبس هذه البدلة . أبداً ما خرجت من مخبأي في الباخرة ولا نزلت مطلقاً مع الموز بـ«غواياكيل» ، لابساً مثل (كلارك غيبل)[2] مزيف . لقد اخترت ، على العكس ، طريق البر . انطلقت نحو الجنوب الأقصى لتشيلي الذي هو الجنوب الأقصى لأمريكا وعزمت على اجتياز سلسلة الجبال .

طريق في الغابة:

كان الأمين العام لحزبي في ذلك الوقت هو(ريكاردو فونسيكا) ، وهو رجل حازم جداً ، دائم الابتسامة ، جنوبي مثلي ، من الطقس البارد والمناخ الرطب بـ«كاراهويه» . إن (فونسيكا) اعتنى بحياتي اللاشرعية ، بمخابئي ، بغاراتي السرية ، بطبع منشوراتي وكتبي الهجائية ، لكنه اعتنى أكثر ما اعتنى ، في حيطة وحذر ، بسر عناويني . لقد

(١) في ضرب اثنين بثلاثة : تعبير إسباني يشبه التعبير العربي ، في رفة عين .

(٢) كلارك غيبل Clark Gable : الممثل الأمريكي المعروف (١٩٠١-١٩٦٠) ، «بطل» فيلم ذهب مع الريح .

كان رئيسي هذا الشاب اللامع الأمين العام للحزب الشيوعي (ريكاردو فونسيكا) هو الوحيد الذي كان يعرف على وجهه الدقة خلال سنة ونصف مخابئي وتحركاتي. أين كنت أنام كل ليلة وأين كنت آكل كل يوم. لكن توعك صحته كان يضنني وينضي ذلك اللهيب الأخضر الذي كان يطل من عينيه، ويطفىء ويخمد تلك الابتسامة التي كانت تملأ وجهه، وذات يوم رحل عنا إلى الأبد ذلك الرفيق الطيب.

لقد اختير في أجواء اللاشرعية قائداً أعلى، رجلٍ فظ غليظ القلب، كان حمالاً في «بالبارائيسو» يُدعى (غالو غونثاليث)، كان رجلاً معقّداً في هيئة خادعة وفي حزم قاتل. يجب عليّ هنا أن أقول إنه، في حزبنا، لم توجد عبادة الشخص، لكن الحزب الشيوعي لتشيلي هو منظمة قديمة مرت بمراحل من الضعف العقائدي، بيد أنه دائماً كانت تسود روح الضمير التشيلي، وعي شعب صنع كل شيء بأيديه، ففي حياتنا القومية كان لنا قادة قلائل جداً وهذا انعكس أيضاً على حزبنا.

غير أن هذه السياسة الهرمية للفترة الستالينية، أنتجت كذلك في تشيلي جواً مخلخلاً محمياً باللاشرعية التي فرضت علينا.

لم يكن (غالو غونثاليث) ليستطيع الاتصال بمجموع الحزب. كانت المطاردة تتفاقم وتشتد، وكان لنا في السجون آلاف المعتقلين، وكذلك فقد حشد جمع كبير منا في معتقل خاص بساحل «بيساغوا» Pisagua الخالي الصحراوي.

لقد كان (غالو غونثاليث) يقوم وسط حياة لا شرعية، بفعاليات ثورية كثيفة مهمة، لكن عدم اتصال القيادة بالهكيل العام للحزب كان يبرز في وضوح. لقد كان رجلاً عظيماً حقاً، نوعاً من العالم الشعبي والعارف بكل شيء، مناضلاً جريئاً شجاعاً.

إليه كانت تصل خطط هربي الجديد، وهذه المرة طبقت هذه الخطط بدقة متناهية، وكانت ترى هذه الخطط أن أنتقل إلى مكان يبعد ألف كيلومتر عن العاصمة، وأن أعبر من بعد سلسلة الجبال على ظهر جواد، وسينتظرني الرفاق الأرجنتينيون في جهة محددة عند الحدود.

خرجنا بعد أن حل الليل في سيارة كانت لنا رحمة وحماية. فلقد قادني صديقي الدكتور (راؤول بولنيس) الذي كان في ذلك الوقت طبيباً للشرطة الآلية، بسيارته حتى ضواحي «سانتياغو» وهناك أصبحت في عهدة منظمة الحزب التي

أعدت لي سيارة أخرى صالحة للسفر الشاق الطويل ، وكان في انتظاري بها رفيق قديم في الحزب هو السائق (إيسكوبار) .

مضينا ليل نهار عبر الطرق . كنت أنا خلال النهار ، كي أزيد في دعم اللحية والنظارة اللتين كانتا تخفيان ملامحي ، ألتف بأغطية مخفية ، بخاصة حين نعبر القرى والمدن أو نتوقف في محطات البنزين .

مررت بـ«تيموكو» في الظهيرة . لم أتوقف في أي مكان ، لا أحد رآني فعرفني . للصدفة والزهر[1] البسيط ، كانت مدينتي القديمة «تيموكو» هي سبيلي للخروج والهرب . عبرنا الجسر وضاحية «بادره لاس كاساس» ، توقفنا بعيداً عن المدينة ، لأكل شيء ، جالسين فوق صخرة هناك . عبر المنحدر كان يجري نهر نحو مصبه وكانت مياهه تصطخب . كانت طفولتي تودعني . لقد نموت ونشأت في هذه المدينة ، وشعري ولد هنا بين التلة والنهر ، هنا كنت ألتقط صوت المطر ، هنا كنت أتضمخ بالغابات ، هنا كنت أنتشي بالخشب . وهأنذا ، في طريقي نحو الحرية ، أنزل لحظة قرب «تيموكو» أسمع صوت الماء الذي علمني الغناء .

ثم تابعنا السفر . ما كان لنا من لحظة قلق إلا مرة واحدة فقط . فلقد أمرنا ضابط كان واقفاً وسط الطريق في صوت حاسم أن نقف ، فحبست أنفاسي ولكن تبين أنه ليس بهجوم كاسح بل إن الضابط طلب منا أن نأخذه معنا في السيارة إلى مكان يبعد مائة كيلومتر عن ذاك الموضع ، جلس قرب السائق ، رفيقي (إيساكوبار) ، فتحدث في لطافة معه ، وأنا تصنّعت النوم كي لا يكلمني ، لأن صوتي ، صوت شاعر ، كانت تعرفه حتى حجارة تشيلي .

ثم وصلنا دون أي خطب من خطوب الدهر ، إلى نقطة النهاية . كانت هذه النقطة هي عبارة عن عزبة مليئة بالأخشاب ، ظاهرياً غير مأهولة ، الماء كان يلمسها من الجهات الأربع ، أولاً كان لا بد من عبور البحيرة الواسعة «رانكو» إلى مكان بين الأحراج والأشجار العملاقة السامقة ، من هناك كان لا بد من امتطاء حصان يمر عبر ممر ضيق خلال فترة من الزمن إلى أن نعود فنركب زورقاً لنجتاز مياه بحيرة «مايهويه» . كانت دار صاحب العمل لا تكاد تبين ، وهي مختبئة في سفح سلسلة الجبال الهائلة ، تحت أغصان الأشجار الضخمة ، بين دوي الطبيعة العميق . إنه لقول

---

(١) الزهر : هكذا في الأصل Azar بمعنى الحظ والبخت ، عن العربية .

معروف بأن تشيلي هي آخر ركن في العالم . ذلك المكان المبطن بالغابة البكر ، المحاط بالثلج ، المطوق بمياه البحيرات ، هو في الحقيقة آخر ركن مسكون في المعمورة .

كانت غرف المنزل حيث أنزلوني مجهزة بما يجب في تلك المنطقة ، بمدفأة من صفر وحديد مليئة بحطب بري حديث القطع ، يتأجج ليل نهار . كان مطر الجنوب الرهيب يلطم بلا هوادة ، النوافذ ، كما لو كان يلتمس الدخول إلى البيت ، يسيطر على الغابة الظليلة ، على البحيرات ، على البراكين ، على الليل ، ويثور غاضباً لأن أولئك الحرس من البشر كان لهم دستور آخر ولم يخضعوا لجبروته وانتصاره .

أنا كنت أعرف قليلاً جداً ذلك الصديق الذي كان ينتظرني هناك وهو (خورخه بييت) ، سائق طائرة قديم ، مزيج من رجل عملي ومن رائد ، كان يحتذي جزمة ويلبس سترة سميكة قصيرة ، كان له طبع آمر فطري ولهجة قائد عسكري ، يتناسبان مع ذلك الجو ، مع أن الفرق الوحيدة المصطفة هناك كانت الأشجار .

صاحبة الدار كانت امرأة هشة نواحة ، محاصرة بمرض العصاب ، كانت تعتبر الوحدة الثقيلة في تلك المنطقة ، المطر الخالد ، البرد ، مسبّة لشخصيتها الكريمة ، كانت تتباكى طيلة النهار كله وقسماً كبيراً من الليل ، لكن كل شيء كان يسير لديها سيراً حسناً وكانت تستخرج مواد الغابة والماء .

كان (بييت) يقود هذه المؤسسة الخشبية ، وهذه المؤسسة كانت تقتصر على صنع رواقد للسكك الحديدية ، تصدر لاستعمالها في السويد والدانيمارك . خلال النهار كانت تصرّ صريراً حاداً ، المناشر التي تقطع الجذوع الكبيرة ، أولاً كان يسمع التقوض العميق للشجرة التي كانت تسقط وتهوي ، كل خمس أو عشر دقائق كانت تهتز الأرض مثل زلزال غامض حين يرضها انهيار شجر الأرز والبطم والسرو والعفص والميس ، أعمال جسيمة هائلة للطبيعة ، أشجار مغروسة هناك من قبل الريح منذ ألف سنة ، تشكو الآن من فعل المنشار الذي يلوي جسمها ويطرحه أرضاً ، صوت المنشار المعدني يصرّ عالياً مثل نغم الكمان البري الهمجي الذي يتلو قرع الطبول حين تهوي الأشجار على الأرض . كل هذا كان يشكل جواً من التوتر الأسطوري ، من الشدة السرية ، من الرعب الكوني . الغابة كانت تموت ، وأنا كنت أسمع متألماً أنينها كما لو أن أكثر الأصوات قدماً ترن وهي تترنح ، الرنة الأخيرة ، الآهة التي أبداً لن تعاد .

كان صاحب هذه الغابة كلها هو رجل من «سانتياغو» لا أعرفه ، كان يعلن عن زيارته إلى غابته في أواخر الصيف ، فكان الناس الذين يعملون عنده يخشون هذه

الزيارة ويهابونها ، وهو يدعى (بيبه رودريغيث) . أخبروني أنه أصبح رأسمالياً حديثاً ، وأنه صاحب مناسج ومعامل أخرى ، وأنه رجل صناعي مهم ، وأنه ماهر وكهربائي الحركة . ولزيادة المعلومات أضيف بأنه كان رجعياً من جفن الكرم[١] وهو عضو دائم في أكثر الأحزاب يمينية بتشيلي . بما أني كنت عابراً في مملكته دون علمه ، فإن هذه الميزات التي يتمتع بها كانت عناصر إيجابية بالنسبة لي في هذه الآونة ، فلا أحد كان يستطيع أن يأتي إلى مملكته للبحث عني ، فلقد كان المسؤولون المدنيون ورجال الشرطة دائماً تحت إمرة هذا الرجل العظيم الذي كنت أتمتع بضيافته وحمايته ، دون أن يدري وكان من المستحيل أن يتعرقل بي وأنا بمملكته .

كان انطلاقي من جديد على وشك الابتداء ، إذ إن الثلوج في سلسلة الجبال كانت على وشك الابتداء كذلك ، ولا يمكن اللعب مع جبال «الأنديس» . كان الطريق يتدارسه يومياً أصدقائي . إن كلمة طريق هي من نافل القول ، ففي الحقيقة والواقع كان الأمر هو اكتشاف درب محته منذ زمن الثلوج . لقد أصبح الانتظار مقلقاً بالنسبة لي . فرفاقي من الجانب الأرجنتيني لا بد وأنهم قد انطلقوا للبحث عني .

حين كان كل شيء قد أعدّ ، وكنا على وشك الإقلاع ، جاء القبطان العام والرائد الأعظم للأخشاب ليخبرني بأن شيئاً جديداً قد طرأ ، قال هذا وعلائم التأثر بادية على سيماء وجهه ، فقد أعلن «البطرون» الأعلى عن زيارته وأنه سيصل بعد يومين .

بقيت حائراً ، لم تكن الاستعدادات قد جهزت تماماً في ذلك الوقت ، وما هو أكثر خطورة بالنسبة لوضعي ، بعد ذاك العمل الطويل من الاختفاء والتنقل ، كان أن هذا «البطرون»سيعرف أني كنت ملتجئاً في أراضيه الخاصة ، وهو صديق حميم لملاحقي ومطاردي (غونثاليث بيديلا) ، وهو يعرف أن السيد الرئيس قد وضع ثمناً لرأسي ، ما العمل؟

كان (بييت) منذ اللحظة الأولى يرتئي أن نكلم (رودريغيث) صاحب المكان ، وجهاً لوجه .

إني أعرفه جيداً -قال لي- هو رجل في معنى الكلمة ولن يبوح عنك ولن يفشي بسرك .

كنت غير موافق فإن تعليمات الحزب كانت أن أختفي في سرية كاملة ،

---

(١) من جفن الكرم : تعبير إسباني يشبه التعبير العربي الشعبي ، من أم العنقود ، بمعنى أصيل .

و(بيبيت) كان يحاول نسف هذه التعليمات ، وهذا ما قلته له ، تناقشنا في حدة وصخب وأثناء النقاش السياسي قررنا أن أذهب لأسكن في بيت شيخ قبيلة «مابوتشه» ، كان هذا البيت عبارة عن كوخ مغروز في طرف الغابة نفسها .

انتقلت إلى الكوخ فأصبح وضعي هناك مزعزعاً جداً إلى درجة أني أخيراً ، بعد التفكير والتقدير ، قبلت أن أقابل (بيبه رودريغيث) صاحب المؤسسة والمناشير ، والغابات . عينا نقطة محايدة للقائنا ، بين منزله وكوخ شيخ القبيلة . حين خيم المساء رأيت سيارة «جيب» تقترب ، ثم نزل منها مع صديقي (بيبيت) رجل كهل «شبوبي» ذو شعر أشيب ووجه حازم . أول ما قاله لي إنه منذ هذه اللحظة يتولى هو مسؤولية حراستي وحفظي . في مثل هذه الظروف ، لا أحد يجرؤ على محاولة الاعتداء على أمني .

تكلمنا من غير ود كبير ، لكن الرجل شيئاً فشيئاً راح يكسب ودي فاستلطفته ودعوته إلى بيت الشيخ لأن البرد كان هناك شديداً جداً ، كي نتابع حديثنا ، فقبل وتابعنا الحديث . وبأمر منه ظهرت زجاجة شمبانيا وأخرى من ويسكي ، وثلج يبرد ويرطب ذلك كله .

حين بدأنا بالكأس الرابعة من الويسكي كنا نتناقش بأصوات عالية مرتفعة . لقد كان هذا الرجل استبدادياً في قناعاته واعتقاداته ، يقول أشياء مهمة ، وكان عالماً بكل شيء ، لكن غطرسته كانت تجعلني غضوباً نزقاً . كلانا كان يضرب ضربات شديدة فوق طاولة الشيخ إلى أن أنهينا في سلام تلك الزجاجة .

لقد استمرت صداقتنا لزمن طويل ، من بين مزاياه وفضائله ، صراحة غير منكرة من إنسان متعود على أن تكون له المقلاة في مقبض يده[١] . لكن كذلك كان يتقن قراءة شعري قراءة رائعة حقاً بنبرة صوت رجولية وذكية إلى درجة أن أشعاري هذه كانت تبدو لي وكأنها تولد من جديد .

عاد (رودريغيث) إلى العاصمة ، إلى مؤسساته وأعماله . كانت له لطافة أخيرة ، فقد نادى أتباعه المتحلقين حولي وأمرهم بصوته ذي النبرة الآمرة :

إذا كان للسيد (ليغاريته) من هذا اليوم إلى أسبوع أي مانع يعرقل مسيره إلى الأرجنتين عبر ممر المهربين ، فإنه يجب عليكم أن تشقوا طريقاً آخر يصل إلى الحدود ،

---

(١) المقلاة في مقبض يده : تعبير إسباني يشبه التعبير العربي ، في مقبضه مقاليد الأمور .

أوقفوا أعمال الأخشاب كلها لتعملوا جميعاً في شق هذه الطريق . هذه هي أوامري .
(ليغاريته) كان اسمي في تلك اللحظة .

إن (بيبه رودريغيث) ذاك الرجل الإقطاعي المسيطر ، مات بعد سنتين من لقائنا ، في حالة فقر مدقع ، بعد أن عوقب على تهريب خطير قام به ، فقضى شهوراً كثيرة في السجن ، لا بد أن السجن كان معاناة لا توصف بالنسبة لطبع غطريس وطبيعة آمرة .

أبداً ما عرفت من بعد على وجه الدقة إن كان مذنباً أم بريئاً من التهمة التي وُجِّهت إليه ، لكني عرفت أن طبقة الأقلية الحاكمة في بلادنا ، التي كانت تأرق متمنية دعوة من (رودريغيث) ، هجرته ما إن رأته يُستنطق ويتهدم .

في ما يتعلق بي ، إني ما زلت إلى جانبه ، دون أن يمَّحي من ذاكرتي ، لقد كان (بيبه رودريغيث) بالنسبة لي إمبراطوراً صغيراً أمر بفتح طريق طولها ستون كيلومتراً عبر الغابة البكر كي يبلغ شاعر حريته .

جبال الأنديس:

إن لجبال الأنديس دروباً غير معروفة ، يستعملها منذ زمن قديم المهربون العدّاءون الصعبون إلى درجة أن الدرك لا يشغلون أنفسهم بتعقبهم وملاحقتهم . إن أنهاراً كثيرة ومهاوي سحيقة تتكفل بمنع العابر والسالك أن يسلك .

كان صاحبي (خورخه بييت) هو رئيس تلك الحملة الجبلية ، لقد انضاف إلى حامية ظهورنا المؤلفة من خمسة رجال من الفرسان ورعاة البقر ، صديقي القديم (فيكتور بيانشي) الذي كان جاء إلى هذه المواضع بصفته مسّاحاً للأراضي ، كي يحل النزاعات القائمة هناك حول تقسيم الأرض ، لم يعرفني إذ إنني كنت في لحية نامية جداً بعد سنة ونصف من الحياة المتخفية . ما إن عرف خطتي لاجتياز الغابة حتى أبدى استعداده لمساعدتي وقدم لنا خدمات لا تثمن لكونه مكتشفاً مدرباً خبيراً . ولقد كان من قبلٍ قد صعد قمة «اكوانكاغوا» في حملة مأساوية كان هو الوحيد الذي نجا منها سالماً .

كنا نسير في صف منتظم ، محميين بجلالة الفجر . منذ زمن طويل ، أي منذ طفولتي ، لم أكن قد امتطيت صهوة جواد ، لكن هنا كنا نمشي خطوة خطوة بطيئين متمهلين . إن الغابة الأنديسية الجنوبية لا يسكنها إلا أشجار ضخمة سامقة تتباعد

الواحدة عن الأخرى ، إنها لأشجار عملاقة من الأرز والبطم والعفص والصنوبر . أشجار الميس تدهش بضخامتها ، توقفت لأقيس واحدة فكانت في قطر حصان . من الأعلى لا تُرى السماء ، من تحت الأوراق قد سقطت خلال قرون عديدة فشكلت طبقة من الدبال كانت تغرق بها حوافز المطايا . في مسيرة صامتة كنا نجتاز تلك الكاتدرائية من الطبيعة البرية .

بما أن دربنا كان مخفياً ومحرماً ، فقد كنا نقبل بأقل الصوى إرشاداً وأضعف العلامات توجيهاً . لم يكن ثمة من آثار ولم تكن هناك من دروب ، ومع أصحابي الأربعة على ظهور الخيل كنا نبحث ، مشكلين كتيبة من الفرسان - ونحن نزيل العراقيل ، متجنبين الأشجار القديرة ، متخطين الأنهار المستحيلة ، متسلقين الصخور الهائلة ، غارقين في الثلوج المدمرة ، عن اتجاه لحريتي -بالأحرى كنا نخمن تخميناً- . إن الذين كانوا يصطحبونني كانوا يعرفون التوجه ، الإمكانية بين أوراق الشجر الكبيرة وأغصانها المشتبكة المعقدة ، لكن كي يكونوا على يقين فإنهم كانوا يعلِّمون هنا وهناك فوق لحى الشجر بسكاكين حادة تترك آثاراً تدلهم حين يعودون بعد أن يتركوني وحيداً مع مصيري .

أحياناً كنا نتبع أثراً ضعيفاً جداً صنعه -ربما- مهربون أو مجرمون هاربون ، وكنا نجهل في ما إذا كان الكثير منهم قد قضوا نحبهم على حين غرة حين فاجأتهم أيدي الشتاء الجليدية القارسة وعواصف الثلج الرهيبة التي حين تفرغ شحنتها فوق جبال الأنديس تلف العابر وتغرقه تحت سبعة طوابق من البياض .

على كل جانب من جانبي ذلك الأثر من الدرب رأيت ، في تلك الوحشة البرية ، شيئاً كأنه بناء إنساني . كأن أجزاء من أغصان مكونة تحملت عدة فصول شتائية ، قرباناً نباتياً قدمه مئات العابرين ، جثوات عالية من خشب ، شواهد لتذكر من سقطوا هنا صرعى ، من لم يستطيعوا المضي ، فمكثوا تحت الثلوج إلى الأبد . كذلك قطع أصحابي بالمدى والسكاكين الأغصان التي كانت تلامس رؤوسنا وتهبط إلينا من أشجار البلوط التي كانت أوراقها الأخيرة تخفق قبل اكتساح زوابع الشتاء . وأنا كذلك كنت أترك على كل جثوة ذكرى ، بطاقة بريدية من خشب ، غصناً مقطوعاً من الغابة كي أزين قبور العابرين الهالكين هناك والذين ما عرفتهم أبداً .

كان علينا أن نجتاز نهراً ، إن هذه المنحدرات الصغيرة المولودة في قمم جبال الأنديس كانت تتعجل ، تفرغ شحنة سريعة جداً سرعان ما تصبح شلالات تحطم

الأراضي ، تفتت الصخور بفعل من طاقتها وسرعتها اللتين جلبتهما من تلك المرتفعات الشهيرة : لكن هذه المرة وجدنا غديراً ، مرآة كبيرة من المياه ، مخاضة نهر . الخيول خاضت في المياه إلى أعناقها وسبحت حتى الضفة الأخرى . وجوادي كذلك تابع مسير رفاقه فغرق في المياه كله تقريباً ، فبدأت أنا أترنح وأهتز من غير سند ولا مدعم ، قدماي شدتا على الأنساق بينما الجواد كان يكافح كي يحتفظ برأسه في الهواء الطلق . هكذا عبرنا ، وما إن وصلنا إلى الضفة الأخرى حتى سألني رعاة البقر والفلاحون الذين كانوا يرافقوننا في شيء من الابتسام ولعله استخفاف :

- هل خفت كثيراً؟

- كثيراً جداً ، ظننت أنه قد حانت ساعتي - قلت .

- كنا نسير خلفك والأصرة في اليد - أجابوني .

- في هذا المكان نفسه -أضاف أحدهم- سقط والدي فجرفه التيار . ما كان ليحدث الشيء نفسه لحضرتك ، فقد احتطنا لذلك فوضعنا الأصرة في اليد حتى ننقذك إن سقطت .

تابعنا المسير إلى أن دخلنا في نفق طبيعي ، ربما كان قد شقه هناك في الصخور الصلبة الصلدة نهر ضائع غزير أو هزة أرضية قامت هناك في الأعالي بهذا العمل ، بهذه القناة الكهفية من حجر محفور ، من غرانيت . فما إن تسربنا في هذا النفق بضعة خطوات حتى أخذت المطايا تتزحلق ، تحاول أن تثبت في المنحنيات الحجرية الملساء رجلها ، فتكبو ، تتفجر الشرار حين تصطك حوافرها بالصخر : أكثر من مرة رأيتني ممدداً فوق الصخور بعد أن هويت من على صهوة مطيتي التي كانت تدمي من أنفها وأقدامها ، لكننا مضينا مصرين فوق ذلك الدرب الصعب المديد الرائع .

كان شيء ينتظرنا في وسط تلك الغابة الوحشية ، على حين غرة ، مثل رؤيا فريدة ، وصلنا إلى مرج براق قابع في حضن الجبال . ماء زلال ، مرج مخضوضر ، أزهار غابية ، خرير أنهار ، السماء من فوق ، نور سمح كريم لا يفصله عنا أية ورقة أو أي غصن أو أية شجرة .

هناك نزلنا كأننا ننزل وسط دائرة سحرية ضيوفاً على حياض مقدسة . وأكثر قداسة كان ذلك الاحتفال الذي شاركت فيه . فلقد نزل البقارة من على ظهور مطاياهم . وسط المرج كانت هناك جمجمة ثور وضعت في موضع بارز كما في قداس . اقترب أصحابي في سكون وصمت ، واحداً إثر الآخر ، كي يضعوا بعض

النقود وبعض الأغذية في فجوات الجمجمة العظيمة . شاركتهم في هذا القربان المقدم إلى ألف «أوليس» تائه هارب ، لعل هؤلاء العابرين التائهين يجدون الخبز والملح في مدارات هذا الثور الميت ، حين يمرون به ذات يوم .

لكننا لم نقتصر على تقديم القربان في هذا الاحتفال والقداس ، بل إن أصدقائي الريفيين خلعوا عنهم قبعاتهم وشرعوا في رقصة غريبة ، يقفزون على رجل واحدة فقط حول تلك الجمجمة المهجورة ، وهم يدوسون فوق الأثر الدائري الذي خلفته هناك رقصات كثيرة أداها كل من عبر من قبل . حينذاك أدركت ، وإن كان إدراكاً غير واضح دقيق ، أن ثمة اتصالاً بين مجهول ومجهول ، أن ثمة مطلباً وتلبية ، أن ثمة سؤالاً وجواباً في تلك المناطق الأكثر وحشة ، الأكثر انعزالاً بهذا العالم .

لقد وصلنا ليلاً إلى حلاقيم الجبال الأخيرة ، فأصبحنا على وشك أن نعبر الحدود التي ستبعدني لسنين طويلة عن موطني . رأينا فجأة ضوءاً مشتعلاً كان علامة أكيدة على أن هناك بيتاً إنسانياً ، وحين اقتربنا وجدنا أبنية مقوضة وأقبية غير منسقة ، بدت لنا فارغة خاوية . ولجنا فرأينا ، في ضوء النار ، جذوعاً كبيرة تتأجج في وسط القبو ، أجساد أشجار هائلة كانت هناك تتوهج ليل نهار ، تطلق عبر تشققات السقف دخاناً يتكاسل يطوف وسط الدياجير كأنه حجاب أزرق عميق . شاهدنا كتلاً من الجبن كوّمها هناك الذين خثروه وروّبوه في تلك المرتفعات . وكان قرب النار يرقد بعض الرجال كأنهم أكياس ممددة . ميزنا في السكون نغم أوتار قيثارة ، ولحن كلمات أغنية تولد بين الجمر والعتمة ، فجلت لنا أول صوت إنساني عثرنا عليه في طريقنا الموحشة . كانت أغنية حب وحنين ، أسفاً على الحبيب النائي وحنيناً إلى ذلك الربيع البعيد ، ونداءً أليماً موجهاً إلى تلك المدن التي قدمنا منها ، ولوعة تريد احتضان مدى الحياة اللانهائي ، لم يكونوا ليعرفوا شيئاً عنا ، لم يكونوا ليعلموا شيئاً عن الهارب القادم ، ما كانوا يعرفون شيئاً عن شعري ، ما كانوا قد سمعوا يوماً باسمي ، أو لعلهم يعرفونه ، أفتراهم يعرفونني؟ تحلقنا حول النار وغنينا وأكلنا ، ثم توجهنا وسط العتمة نحو غرف بدائية جداً . كان يمر عبر هذه الغرف تيار من ماء معدني حار فغرقنا فيه وغطسنا ، جدول من الحرارة ينطلق من الجبال ليستقبلنا في كنفه .

كنا نبربط في الماء متمتعين ، نغتسل ونزيل عنا أوضار المسيرة المرهقة ، فشعرنا أننا في غضارة ونضارة وأننا ولدنا من جديد في هذا التعميد . حين بزغت الشمس

في اليوم التالي انطلقنا لنجتاز المسافة الأخيرة التي كانت ستبعد بي عن كسوف وطني وخسوفه ، كنا نتهادى على ظهور مطايانا ، نغني وننشدو ونحن ممتلئون بهواء جديد ، مفعمون بأنفاس تدفعنا نحو درب العالم الفسيح الذي ينتظرنا . عندما أردنا (أذكر هذا جيداً) أن نعطي إلى الرجال الجبليين بضع قطع من نقود مكافأة لهم على ما قدموه لنا من أغان وأغذية ومياه معدنية وسقف وفراش ، أي ، على هذا اللقاء غير المتوقع ، على هذا الكنف الذي آوانا ، على هذا الود الذي شملنا وحضننا ، رفضوا عطاءنا رفضاً باتاً دون أن يقولوا أي شيء ولا أن يبدوا أية حركة جسدية بل اكتفوا بالنظر إلينا عاتبين ، لقد قاموا بواجبهم نحونا ولا شيء أكثر . إن في «لا شيء أكثر» ، في عبارة «لا شيء أكثر» الصامتة كان يكمن كل شيء ، ربما أنهم رأوا أنفسهم فينا ، ربما عثروا على أحلامهم ذاتها متجلية في أحلامنا ، من يدري؟

«سان مارتين» San Martin بجبال الأنديس:

خص مهجور بيّن لنا الحدود بما كتب عليه ، هأنذا أغدو حراً طليقاً . كتبت على حائط الكوخ : «إلى اللقاء ، يا وطني ، أرحل وأنت معي» .

في قرية «سان مارتين» بجبال الأنديس كان يجب أن يكون بانتظارنا صديق تشيليّ . إن هذه القرية الصغيرة جداً في سلسلة الجبال الأرجنتينية لم يكن فيها ما يتيه أو يجعل المرء يضيع ، ولذلك فقد أعطوني علامة وحيدة للاستدلال على صديقي هذا وهي ما يلي :

- اذهب إلى أحسن فندق في القرية وهناك سيأتي للبحث عنك (بيريتو راميريث) .

لكن الأشياء الإنسانية معرضة للخطأ دائماً ففي «سان مارتين» لم يكن هناك فندق واحد فقط بل كان اثنان وكلاهما من النوع الجيد . فأيهما أختار؟ آثرنا أغلاهما وهو يقع في أطراف القرية ورفضنا الفندق الأول الذي رأيناه أمام ساحة القرية الجميلة .

لقد حصل أن الفندق الذي اخترناه كان من درجة رفيعة جداً إلى درجة أنهم ما أرادوا أن يقبلوا بنزولنا فيه . لقد لاحظوا في ازدراء آثار عدة أيام من السفر على ظهور الخيل ، أكياساً على أكتافنا ، وجوهنا الملتحية المغبرة ، كان منظرنا يخيف كل من في الفندق من عمال ونزلاء .

وكان هذا المنظر يخيف أكثر ما يخيف صاحب الفندق الذي كان يضيف فيه إنجليزاً نبلاء قادمين من «اسكوتلانديا» ليصطادوا سمك «السلمون» في الأرجنتين . نحن لم يكن علينا ملامح نبلاء ولا مظاهر سادة . فأعطانا مدير الفندق «الهيهات» متأسفاً ومحتجاً بحركات مسرحية في أن الغرفة الأخيرة قد حجزت منذ عشر دقائق . أثناء ذلك أطل من الباب سيد أنيق عليه سيماء رجل عسكري ، تصطحبه امرأة شقراء كأنها ممثلة سينمائية ، فصرخ بصوت رنّان :

- قف! التشيليون لا يمكن طردهم من أي مكان ، هنا سيبقون .

وبقينا . كان راعينا هذا يشبه كثيراً الجنرال (بيرون)[١] وسيدته التي تصحبه تشبه هي الأخرى (ايفيتا)[٢] إلى درجة أننا ظننا أنهما هما ، لكن من بعد ، بعد أن اغتسلنا ولبسنا وجلسنا على المائدة نحتسي في غير لذة زجاجة شمبانيا كنا نشك في أنها شمبانيا ، عرفنا أن الرجل هذا هو قائد الشرطة المحلية وأن الشقراء هي ممثلة من «بونوس ايريس» جاءت لتزوره .

كنا نزعم أننا تجار أخشاب تشيليون جئنا لنعقد صفقات تجارية مربحة . كان العميد قائد الشرطة يدعوني «الإنسان الجبل» . اكتشف (فيكتور بيانتشي) الذي كان ما يزال يرافقني لما يكنه لي من صداقة ولما يكنه من حب للمغامرة ، قيثارة هناك في الفندق ، وبأغانيه التشيلية السافلة البذيئة كان يخلب ويفتن أرجنتينيين وأرجنتينيات . لكن مضت ثلاثة أيام ولم يكن يأتي (بيدريتو راميريث) للبحث عني . لم يكن يرافقني الحظ في الأمور جميعها ، ما كان على جسدي من قميص نظيف ولم يكن معي ما أشتري به قمصاناً جديدة . إن تاجر أخشاب جيد ، كان يقول (فيكتور بيانتشي) ، يجب أن يكون له على الأقل قمصان جيدة نظيفة .

أثناء ذلك قدم لنا قائد الشرطة غداء في المجلس البلدي . لقد توطدت صداقته بنا فاعترف لنا أنه على الرغم من شبهه الجسدي بالجنرال (بيرون) فإنه هو ضد البيرونية . كنا نقضي ساعات طويلة ونحن نتناقش فيمن عنده رئيس أسوأ من الآخر ، أنا أم هو ، هل هي تشيلي أم هي الأرجنتين .

---

(١) بيرون Juan Domingo : هو الزعيم الأرجنتيني المعروف (١٨٩٥-١٩٧٤) .

(٢) ايفيتا : هو تصغير (ايفا Eva) وكانت زوجة لبيرون ، (١٩١٩-١٩٥٢) .

فجأة بلا سابق إنذار أو أعذار وإذ بـ(بيدريتو راميريث) يلج ذات صباح غرفتي في الفندق .

- يا تعيس ، -صرخت به- لماذا تأخرت كثيراً؟

لقد وقع ما لم يكن في الحسبان ، لقد كان هو ينتظر مطمئناً هادئاً في الفندق الآخر الذي يقع بساحة القرية .

بعد عشر دقائق تدحرجنا عبر السهول اللامتناهية وبقينا نتدحرج ليل نهار . من حين إلى حين كان الأرجنتينيون الذين يصحبونني يوقفون السيارة كي يحتسوا «ماته»[1] Mate ثم نستمر في عبور تلك الرتابة اللامتناهية .

في باريس وبجواز سفر:

كان همي الأكبر ، طبعاً ، في «بونوس أيريس» هو أن أحصل على هوية جديدة ، إن الأوراق المزيفة التي أفادتني كثيراً كي أعبر الحدود الأرجنتينية لن تصلح بعد فيما إذا حاولت السفر عبر القارات والتجول في أوروبا . كيف الحصول على أوراق أخرى؟ كانت أثناء ذلك تبحث عني في جد واجتهاد الشرطة الأرجنتينية التي استنفرتها الحكومة التشيلية لهذا الغرض .

تذكرت في هذه الحالة من اليأس والقنوط والضغط والمطاردة شيئاً كان ينام في ذاكرتي . لا بد أن الروائي (ميجيل انخيل استورياس) وهو صديقي منذ أيام في بلده ، هو الآن في بونوس أيريس يؤدي مهمة ديبلوماسية في سفارة بلدة «غواتيمالا» . لقد كان لنا شبه فيزيولوجي غريب غامض . في اتفاق مشترك بيننا سمينا أنفسنا «شومبيبه» Chompipe وهي كلمة هندية يشار بها إلى الديكة في غواتيمالا وفي جزء من المكسيك . أنفان طويلان ، يسر في الوجه وفي الجسد ، يوحدنا شبه عام بعالم الدجاج المغذى .

جاء ليراني في مخبأي .

- يا صاحبي «شومبيبه» -قلت له- ، أعرني جوازك ، امنحني متعة أن أصل إلى أوروبا وقد غدوت (ميغيل انخيل استورياس) .

---

(١) ماته : هو شاي من «بارغواي» يشربه الأمريكيون الجنوبيون والمغتربون العرب الذين يعودون إلى أوطانهم من أمريكا اللاتينية .

يجب عليّ أن أقول هنا أن (أستورياس) كان دوماً ليبرالياً، بعيداً جداً عن السياسة الحزبية، غير أنه ما تردد لحظة، إذ إنني، بعد أيام قليلة كنت أعبر، بين «يا سيد (أستورياس) تفضل من هنا»، وبين «يا سيد (استورياس) تفضل من هناك» النهر العريض الذي يفصل الأرجنتين عن الأورغواي فدخلت إلى «مونتيفيديو» ثم عبرت المطارات وتجاوزت مخافر شرطة المراقبة إلى أن وصلت أخيراً على باريس تحت ستار «روائي غواتيمالي عظيم».

لكن في فرنسا عادت قضية هويتي لتصبح معضلة. إن جواز سفري القشيب لن يقاوم الفحص الذي لا يرحم حين ينقدونه في La Surete' لقد كان عليّ أن أترك كوني (ميغيل انخيل استورياس) وأن أغدو من جديد (بابلو نيرودا)، لكن كيف يتأتى هذا لي و(بابلو نيرودا) لم يصل إلى فرنسا، بل إن الذي وصل كان (ميغيل انخيل استورياس)...

لقد أخبرني مستشاري بأن عليّ أن آوي إلى نزل «جورج الخامس».

- هناك، بين جبابرة العالم، لن يطلب أحد منك أوراقك - قالوا لي.

فنزلت هناك لبضعة أيام، دون أن أنزعج كثيراً من ملابسي الجبلية التي ما كانت لتتلاءم مع ذاك العالم من الأغنياء والأنيقين. عند ذلك طلع (بيكاسو) الذي بقدر ما هو عبقري كبير بقدر ما هو إنسان طيب جداً. كان سعيداً كما الطفل لأنه كان قد ألقى أول خطاب في حياته، كان موضوع الخطاب يدور حول شعري، حول مطاردتي وملاحقتي، حول غيابي واختفائي. وها هو العبقري اللامع في الرسم الحديث ينشغل الآن في ود أخوي وعطف أبوي بحل معضلتي في جزئياتها الأكثر دناوة وحقارة. كان يتكلم مع السلطات المسؤولة، كان يتصل هاتفياً بنصف الناس كي يعملوا على مساعدتي في الخروج من هذه الورطة. لست أدري كم من اللوحات الرائعة الخالدة ترك رسمها من أجلي، لقد كنت أشعر بالذنب وأتأسف جداً أني جعلته يضيع الكثير من وقته المقدس.

في تلكم الأيام كان ينعقد في باريس مؤتمر للسلام العالمي. ظهرت في قاعة المؤتمر في اللحظة الأخيرة كي ألقي قصيدة من قصائدي، كان المندوبون يصفقون لي ويعانقونني فقد كان الكثير منهم يظنون أني كنت قد مت، وما كانوا يعتقدون بأني قادر على الاستهزاء بمطاردة الشرطة التشيلية الغاضبة.

في اليوم التالي وصل إلى الفندق الذي أقيم فيه السيد (الديريت) وهو صحفي

كبير يعمل في وكالة الأبناء الفرنسية ، فقال لي :

- حين علمت حكومة تشيلي عن طريق الصحافة أنك في باريس ، أعلنت أن الخبر عار من الصحة وأنه كذب وبهتان ، وأن الذي حضر المؤتمر هو شبيه لك وليس إياك ، فأنت توجد في تشيلي وأن رجال الشرطة يتقصُّون أثرك ، وأن مسألة اعتقالك لن تتعدى ساعات قلائل ، فماذا تجيب على هذه المزاعم؟

تذكرت أنه في إحدى المناقشات التي دارت حول موضوع (شيكسبير) إن كان هو من كتب أعماله الخالدة أم لا ، وهي مناقشة أنبيقية[1] وعبثية عقيمة ، اشترك (مارك توين)[2] فأدلى برأيه : «في الحقيقة لم يكن (وليم شيكسبير) هو من كتَب هذه المؤلفات ، بل رجل إنجليزي آخر ولد في اليوم نفسه والساعة ذاتها ومات أيضاً في التاريخ نفسه ، ولكي تزداد المطابقات بينهما كان كذلك يسمى (وليم شيكسبير)» .

أجب أنت -قلت للصحفي- في أني لست (بابلو نيرودا) بل أنا تشيلي آخر ، يكتب شعراً يصارع في سبيل الحرية اسمه كذلك (بابلو نيرودا) .

إن قضية تجهيز أوراقي ما كانت بالأمر السهل ، فلقد كان (أراغون) و(بول الوار) يساعدانني كذلك في الحصول على اسمي . أثناء ذلك عليّ أن أعيش في وضع شبه سري . من بين البيوت التي آوتني فيها ، كانت دار السيدة (فرانكويس جيروكس) . أبداً لن أنسى هذه السيدة الأصيلة الذكية . كانت هذه الدار تقع في «بالس رويال» (القصر الملكي) قرب «كوليت» . تبنت هذه السيدة المحترمة ابناً فيتنامياً ، فلقد كان الجيش الفرنسي قد تكفل في فترة من الفترات بالعمل الذي وقع من بعد على عاتق الأمريكيين الشماليين : قتل الأبرياء في أراضي فيتنام البعيدة ، عند ذلك تبنت هي الطفل .

أذكر أنه في هذه الدار كان هناك لوحة لبيكاسو من أجمل اللوحات التي رأيتها في حياتي ، وهي لوحة ذات أبعاد كبيرة ، سابقة على الفترة التكعيبية ، تمثل ستارتين من قطيفة حمراء تتدليان تنغلقان بين بين كمصراعي نافذة ، تلمسان مائدة ، المائدة عليها أربعة أرغفة من الخبز الفرنسي الطويل تتصالب في تناسق ، بدت لي هذه اللوحة أنها جديرة بالانحناء لها إجلالاً واحتراماً . كانت الأرغفة الكبيرة الطويلة

---

(١) أنبيقية : مأخوذة من الكلمة العربية الأنبيق Alambique ، وهي هنا بمعنى شحيحة المردود .

(٢) مارك توين : روائي من الولايات المتحدة الأمريكية (١٨٣٥-١٩١٠) .

كأنها الطيف المركزي لـ«الأيقونات»[1] أو مثل لوحة القديس (ماوريثيو) تلك اللوحة الرائعة التي رسمها (الـ غريكوEl Greco) والتي توجد في دير «الأسكوريال». لقد سميت لوحة (بيكاسو) هذه باسم علم وهو صعود القديس الخبز.

في أحد هذه الأيام جاء (بيكاسو) نفسه لزيارتي في مخباي، فأخذته ليرى لوحته التي رسمها منذ أعوام كثيرة وكان قد نسيها، فراح يدقق في اللوحة بحدية تامة، غارقاً في هذا الانتباه الفائق والكئيب بعض الكآبة الذي قلّما يبديه، ظل أكثر من عشر دقائق في صمت وسكون، يقترب خطوة ثم يبتعد أخرى عن عمله الرائع هذا.

- كل مرة تعجبني أكثر -قلت له حين أنهى تأمله- سوف أقترح على متحف بلدي تشيلي أن يشتريها فالسيدة (جيروكيس) على استعداد لتبيعها لنا.

أدار (بيكاسو) من جديد رأسه نحو اللوحة، ثم سمّر عينيه في ذاك الخبز الرائع وأجاب بتعليق واحد فقط:

- ليست سيئة.

عثرت على بيت للإيجار بدا لي غريباً. كان يقع في شارع «بيير ميل» في الـArrondissement الثاني، أي، حيث أضاع إبليس عباءته[2]. كان حياً عمالياً ولطبقة متوسطة فقيرة جداً. كان يجب السفر ساعات طويلة تحت الأرض بـ«المترو» كي يصل المرء إلى هذه المحلة. إن الذي أعجبني في هذه الدار هو أنها تبدو مثل قفص. كان لها ثلاثة طوابق، دهاليز، غرف صغيرة، كانت قفص طيور لا يوصف.

لقد خصصت الطابق الأول الذي كان أكثر اتساعاً من أخويه، وكانت فيه مدفأة نشارة، للمكتبة، وجعلت فيه قاعة للحفلات المحتملة والزيارات الطارئة. في الطابقين الأعليين، تمركز أصدقاء لي، جاؤوا جميعاً من تشيلي، فهناك نزل الرسمان: (خوسه بينتوريلّي) و(نيميسيو انتونيث) وآخرون لم أعد أذكرهم الآن.

لقد زارني في تلكم الأيام ثلاثة من كبار الأدباء في الاتحاد السوفييتي: الشاعر (نيكولاي تيخونوف) الكاتب المسرحي (أليكساندر كورنيتشوك) (الذي كان في الوقت نفسه محافظ «أوكرانيا») والكاتب الروائي (كونسطانطين سيمونوف). أبداً ما

---

(١) الأيقونات: هي الرسوم والألواح البيزنطية القديمة الموجودة في الكنائس.

(٢) حيث أضاع إبليس عباءته: تعبير إسباني يشبه التعبير العربي، حيث أضاع القرد ابنه.

كنت قد قابلتهم من قبل، فعانقوني كما لو كانوا إخوة عادوا بعد غياب طويل ليجدوا أخاً لهم، وأعطاني كل واحد منهم بالإضافة للمعانقة قبلاً رنانة، من هذه القبل «السلافية» التي يتبادلها الرجال في ما بينهم والتي تعني صداقة كبيرة واحتراماً، والتي كلفني جهداً جهيداً أن أتعود عليها. بعد مضي السنين، حين فهمت طبيعة هذه القبل الأخوية الرجولية، كانت لي مناسبة بأن أبدأ حكاية من حكاياتي بهذه الكلمات:

- إن أول رجل قبلني كان هو قنصل تشيكوسلوفاكيا.

حكومة تشيلي لم تكن تحبني، لم تكن تحبني لا داخل تشيلي ولا خارجها كذلك. كانت تسبقني إلى كل جهة أمر بها، رسائل ومكالمات هاتفية تحض الحكومات على معاداتي وطردي.

علمت أنه في قصر «فرساي» كان ثمة تقرير عني جاء فيه تقريباً ما يلي: «إن (نيرودا) وزوجته (ديليا ديل كارمن) يقومان برحلات متكررة إلى إسبانيا، حيث يوصلان ويأتيان بتعليمات من السوفييت وإليهم، وإن مرجعهما في هذه التعليمات هو الكاتب الروسي (إيليا ايهرينبورغ) الذي يقوم (نيرودا) معه برحلات سرية أيضاً من حين إلى حين، ولكي تكون هذه الاتصالات بين (نيرودا) و(ايهرينبورغ) أكثر سرية فإن (نيرودا) استأجر شقة في العمارة نفسها حيث يسكن الكاتب السوفييتي».

لقد تبع هذه الأقاويل سلسلة من التحريضات والهراءات. لقد أعطاني (جان ريتشارد بلوش) رسالة إلى صديق له كان رئيساً مهماً في وزارة الخارجية. شرحت لهذا الموظف العالي كيف أنهم يسعون جهدهم كي يعملوا على طردي من فرنسا مختلقين أكاذيب وادعاءات كثيرة. قلت له إني في لهفة للتعرف على (ايهرينبورغ)، لكن، لسوء حظي، حتى هذا اليوم، (ايهرينبورغ) ما خصني بهذا الشرف العظيم. نظر إليّ هذا الموظف الكبير في أسى وأسف ووعدني بأنهم سيقومون بتحر دقيق حول هذه المسألة لكنهم، ما قاموا أبداً بشيء من هذا القبيل، وبقيت الاتهامات الباطلة واقفة على أقدامها.

عند ذلك قررت أن أقدم نفسي إلى (ايهرينبورغ)، كنت أعلم أنه كان يتردد دائماً إلى «لا كوبول» حيث يتغذى على الطريقة الروسية، أي، عند المساء.

- أنا الشاعر (بابلو نيرودا)، من تشيلي -قلت له- بناء على قول الشرطة نحن صديقان حميمان. إن رجال الأمن ومخبريهم يؤكدون في أننا نعيش في بناء واحد،

وبما أنهم سيطردونني بسببك من فرنسا فإني أحببت على الأقل أن أعرفك عن قرب وأن أصافح يدك .

إني لا أظن أن (ايهرينبورغ) كان يعبر عن علامات مفاجأة إزاء أية ظاهرة تحدث في العالم ، غير أنه ، استغرب واندهش لما قلته ، فرأيت نظرة ذهول تشبه الخدر تخرج من بين حاجبيه المزبئرين ، من حيث عقيصة شعره الغاضبة الشائبة .

- أنا كذلك كنت أود التعرف عليك ، يا (نيرودا) -قال لي- إن شعرك يعجبني جداً . والآن ، كل ، كل هذه الـ«شاوكروت»(Choucrote) المصنوعة على طريقة منطقة الـ«ساثيا» .

منذ تلك اللحظة أصبحنا صديقين حميمين . يبدو لي أنه في ذلك اليوم بدأ بترجمة ديواني «إسبانيا في القلب» . يجب عليّ أن أعترف أن الشرطة الفرنسية ، دون أن تقصد ذلك طبعاً ، قد منحتني أكثر الصداقات محبة في حياتي ، وزودتني كذلك بأحسن مترجم لي إلى اللغة الروسية .

جاء ذات يوم ليراني السيد (جوليس سوبيرفييه)[١] ، كنت قد حصلت على جواز سفر تشيلي باسمي وكانت مدة صلاحيته لما تنته بعد . كان هذا الشاعر القديم الكبير النبيل قلّما يخرج إلى الشارع آنذاك فتأثرت وتفاجأت بزيارته .

- أنقل إليك خبراً مهماً . إن صهري ، زوج ابنتي ، (بيرتاوكس) ، يريد أن يراك ، لست أدري بم يتعلق الأمر .

إن (بيرتاوكس) هذا كان مدير الأمن العام . وصلنا إلى دائرته : الشاعر العجوز وأنا ، جلسنا مقابله ، أمام الطاولة ، أبداً ما رأيت طاولة تحتوي على هواتف أكثر من طاولة هذا المدير . كم عددها؟ أعتقد أنه لا يقل عن عشرين هاتفاً . كان وجهه الذكي الخبيث ينظر إليّ من بين تلك الغابة الهاتفية . أنا كنت أفكر في أنه لا بد أن تكون في هذا المكان الرفيع جداً ، خيوط الحياة الباريسية تحت الأرضية كلها . تذكرت (فانتوماس) Fantomas و«الكوميسيير» (مايغريت)[٢] .

كان هذا المدير قد قرأ كتبي وكانت له معرفة غير متوقعة بشعري .

- لقد استلمت طلباً من سفير تشيلي بأن أسحب منك جواز سفرك . إن السيد

---

(١) جوليس سوبيرفييه : كاتب وشاعر من أورغواي ، أخذ الجنسية الفرنسية (١٨٨٤-١٩٦٠) .

(٢) مايغريت : شخصية في الروايات البوليسية التي كتبها (سيمينون Simenon) .

السفير يقول بأن حضرتك تستعمل جوازاً ديبلوماسياً ، وهذا ليس شرعياً . أفصحيح ما يقول؟

- إن جوازي ليس ديبلوماسياً -أجبته- . إنه جواز رسمي بسيط ، أنا عضو في مجلس الشيوخ ببلدي ، وبهذه الصفة فإن لي الحق بامتلاك هذه الوثيقة . على كل حال ، فها هو هنا وتستطيع حضرتك أن تدقق فيه ، شريطة ألا تسحبه مني فهو ملكي ، خاص بي .

- أهو صالح حتى الآن؟ من جدده؟ سألني السيد (بيرتلوكس) آخذا جواز سفري .

- هو صالح طبعاً ، -قلت له- أما بالنسبة لمن جدده لي ، فإن لا أستطيع أن أبوح باسمه ، إن بحت فإن حكومة التشيلي ستعزله من منصبه .

فحص رئيس الشرطة في دقة جوازي ، ثم استعمل واحداً من هواتفه الكثيرة وأمر أن يوصلوه بسفير تشيلي .

المحادثة الهاتفية جرت في حضوري .

- كلا ، أيها السيد السفير ، لا أستطيع أن أفعل هذا فإن جواز سفره شرعي قانوني وما زال صالحاً ، إني لا أعرف من جدده له ، أكرر القول في أنه سيكون غير صحيح أخذنا منه أوراقه . لا أستطيع ، يا سعادة السفير ، إني لآسف جداً .

كان يستشف من هذه المحادثة إصرار السفير وكذلك كان واضحاً غضب خفيف من جهة (بيرتاوكس) . في النهاية وضع الهاتف وقال لي :

- يبدو أنه عدو لدود لك . لكن حضرتك تستطيع البقاء في فرنسا ما شئت من الزمن .

خرجت مع (سوبرفييه) الشاعر العجوز ما كان يستطيع أن يفهم كيف يجري هذا الأمر ، وأنا من جهتي ، كنت أحس بشعور انتحار ممزوج بشعرو آخر من الاشمئزاز والاستنكار . لقد كان ذاك السفير الذي يناكدني ، ذاك المتواطىء مع مطاردي في تشلي هو (جواكين فيرنانديث) ذاته ، من كان يفتخر ويتباهى بأنه صديق لي ولم يكن يضيع فرصة إلا وتملقني ، والذي في صباح ذلك اليوم نفسه أرسل لي تحية مع سفير غواتيمالا .

جذور:

إن (إيهرينبورغ) الذي كان يقرأ ويترجم شعري ، كان يلومني : إنك تكرر كلمة «جذر» كثيراً في شعرك ، لماذا هذه الجذور الكثيرة في شعرك؟

إن هذا لحقيقة ، لقد غلغلت أراضي الحدود جذورها في شعري فلم تستطع أبداً أن تخرج منه بعد . إن حياتي لهي حج طويل المدى يطوف حول العالم دائماً ، ودائماً يعود إلى الغابة الجنوبية لبلادي ، إلى الغابة الضائعة .

هناك الأشجار الكبيرة هوت طريحة الثرى بما لها من سبعمائة سنة من حياة مديدة قديرة ، أحياناً أخرى اقتلع جذورها زلزال أرضي أو حرقها الثلج أو هدمها الحريق . لقد أحسست بالأشجار السامقة وهي تسقط في عمق الغابة : البلوط الذي يخر في نوح مصيبة صماء كما لو أنه قرع بيده الضخمة على أبواب الأرض طالباً جدثاً .

بيد أن الجذور تظل في العراء ، معرضة للدهر العدو ، للرطوبة الطاغية ، لحزازات الصخور وأشنياتها ، للتلف المتتابع الناخر القارض .

لا شيء أجمل من هذه الأيدي المبسوطة الكبيرة ، الجريحة المحروقة التي تحكي لنا حين نعبر درباً في الغابة عن سر الشجرة الدفين ، عن لغز الأوراق ، عن طلسم الأغصان ، عن أحجية العضلات العميقة لهذه الطاقة النباتية ، إنها لترينا وهي في وضع مأساوي وحالة مهلوبة مزبئرة ، جمالاً جديداً : إنها أعمال العمق في فن النحت : إنها مؤلفات أنموذجية سرية للطبيعة الخالقة :

ذات مرة ، فيما كنت أسير مع (رافائيل البرتي) بين الشلالات والأحراج والغابات قرب «اوسورنو» ، لفت (رافائيل) نظري إلى أن كل غصن هو مختلف عن الآخر ، وأن الأوراق تتنافس في تغيير الأسلوب اللانهائي .

- إنها لتبدو وكأنها اختيرت من لدن عالم نبات لتزين حديقة رائعة - كان يقول لي .

بعد سنين في روما ، تذكر (رافائيل) تلك النزهة وحن إلى ثروة غاباتنا الطبيعية .

هكذا كان . . . وهيهات أن يعود . . . إني لأذكر في كآبة ، خطاي في عهد الطفولة وزمن الشباب ، بين «بورروا» و«كاراهويه» أو نحو «تولتين» في تجليات الشاطئ . كم من اكتشاف كان لي! رشاقة أشجار القرفة وشذاها غب المطر ، الأشنة التي تتدلى لحاها الشتوية من وجوه الغابة التي لا حصر لها .

لقد كنت أنبش الأوراق الساقطة محاولاً أن أعثر على بريق بعض مغمدات الأجنحة : القوارب المذهبة التي ارتدت صباغ عباد الشمس الأزرق كي ترقص رقصة «باليت» صغيرة تحت الجذور .

في ما بعد ، حين كنت أعبر على جواد سلسلة الجبال نحو الجانب الأرجنتيني ، تحت عقود الأشجار السامقة الخضراء برز عائق : جذر إحدى هذه الأشجار ، أكثر علواً من مطايانا ، كان يسد علينا الدرب ، فما كان إلا أن أعملنا فيه الفأس وببأس شديد حتى قدرنا على اختراقه . إن تلك الجذور لهي كاتدرائيات مقوضة رأسا على عقب : كانت العظمة الجلية تفرض علينا هيبتها وجبروتها .

الفصل التاسع
بداية منفى ونهايته

في الاتحاد السوفييتي:

في عام ١٩٤٩ ، حدث الخروج من المنفى ، دعيت لأول مرة إلى الاتحاد السوفييتي ، بمناسبة إحياء ذكرى (بوشكين) المئوية . وصلت مع الشفق إلى موعدي ، مع درّة «البلطيق» الباردة إلى لينينغراد القديمة الجديدة ، النبيلة البطلة . إن لمدينة (بطرس) الأكبر و(لينين) «ملاكاً» كما لباريس . لها ملاك رمادي : شوارع بلون الفولاذ ، قصور من حجارة رصاصية ، بحر من فولاذ أخضر . كانت أكثر المتاحف روعة في العالم ، كنوز القياصرة ، أزياؤهم ، جواهرهم الباهرة ، ملابسهم للاحتفالات ، أسلحتهم ، أوانيهم ، كلها أمام ناظري . والذكريات الجديدة الخالدة : الطراد «أورورا»[1] Aurora الذي مدافعه وأفكار لينين هدّت أسوار الماضي وفتحت أبواب التاريخ .

لقد بادرت إلى موعد مع شاعر مات منذ ١٠٠ سنة (أليكساندر بوشكين) مؤلف أساطير خالدة كثيرة ومبدع روايات . إن أمير الشعراء الشعبيين هذا يملأ قلب الاتحاد السوفييتي العظيم . بمناسبة ذكراه المئوية رمّ الروس حجراً حجراً وقطعة قطعة قصر القياصرة . كان كل سور قد رفع كما كان قبل ، ناشئاً من الأنقاض المسحوقة بفعل من المدفعية النازية . لقد استخدمت التصميمات القديمة للقصر ، وثائق تلك الفترة التي بني فيها أول مرة ، كي يشيدوا من جديد النوافذ الزجاجية الملونة البراقة ، الأطناف المطرزة ، تيجان العواميد المزهرة ، على شرف شاعر رائع من عهد آخر ، تكريماً له وتخليداً .

إن أول ما أثر بي في الاتحاد السوفييتي كان شعوره بالامتداد ، انزواؤه الفضائي فهو يمتد عرضاً لا طولاً ، حركة أشجار الـ«بتولا» في المروج ، الغابات النقية الهائلة

---

(١) أورورا : كلمة إسبانية تعني الصبح أو الفجر .

بشكل أعجوبي ، الأنهار الكبيرة ، الأحصنة المختالة فوق حقول القمح .
لقد عشقت في أول نظرة الأرض السوفييتية وأدركت أنها لا تلقي درساً أخلاقياً على أركان الوجود الإنساني كله ، وتعلم الإنسانية كيفية تسوية الإمكانات والتقدم النامي في الإنتاج والتوزيع فحسب ، بل كذلك أدركت أنه من تلك القارة السهوبية ذات النقاوة الطبيعية الغنية ، كان سينتج طيران كبير . إن الإنسانية قاطبة تعرف أنه هناك تصنع الحقيقة العملاقة ، وأن في العالم ثمة توتراً مذهلاً ينتظر ما سيحدث . بعضهم ينتظر في فزع وبعضهم ينتظر أمعة ، وبعضهم يؤمن أنه لا بد أن يقع ما يتوقع وأنا كنت أتوقع أنه سيحدث طيران عظيم عبر المدى والفضاء .
كنت أجدني وسط غابة من الفلاحين ، لابسين أزياء قديمة مهرجانية ، ينصتون إلى قصائد (بوشكين) . كان كل ذلك يخفق : البشر ، أوراق الأشجار ، المدى حيث القمح الجديد يبدأ الحياة . كانت الطبيعة تبدو وكأنها تشكل وحدة منتصرة وإنسانها الجديد . كان لا بد أن يبرز ذات مرة ، من قصائد (بوشكين) في غابة (ميشايسلويسكي) الإنسان الذي سيطير نحو كواكب أخرى .
فيما الفلاحون يشهدون مهرجان التكريم هذا وإذ بديمة سكوب تفرغ شحنتها وإذ بصاعقة تصعق بالقرب منا فتحرق رجلاً وشجرة كانت تؤويه وتظلله . فبدا لي هذا كله أنه داخل إطار الطبيعة العاصفي . أضف إلى هذا أن ذلك الشعر المصاحب بالمطر كان منذ زمن في كتبي وكان ذا علاقة وثيقة بي .
إن البلد السوفييتي يتغير بشكل دائم مستمر ، تبنى مدى وقنوات هائلة ، حتى الجغرافيا تتبدل . لكن في أول زيارة لي انطبعت في نفسي ثابتة راسخة نواحي التشابه التي كانت تلصقني بهم ، كذلك كل ما كان يبدو لي فيهم غريباً عن روحي بعيداً عن نفسي ، كل ما كان يصعب عليّ فهمه أو التقاطه .
إن الكتّاب في موسكو يعيشون دوماً في احتدام جدال مستمر . لقد علمت هناك ، قبل أن يكتشف ذلك الغربيون محبو الفضائح ، بكثير ، أن (باسترناك)[1] كان الشاعر السوفييتي الأول ، في قرن واحد و(ماياكوفيسكي) . إن (ماياكوفيسكي) هو الشاعر الجماهيري ذو الصوت الرعدي والمظهر البرونزي والقلب العظيم النبيل الذي استطاع أن يطوع اللغة ويواجه أكثر القضايا صعوبة في الشعر السياسي وأكثر مشاكله

---

(١) باسترناك (بوريس) : شاعر وكاتب روسي (١٨٩٠-١٩٦٠) .

البيانية تعقيداً ، بينما (باسترناك) هو شاعر شفقي كبير ، شاعر الذاتية الميتافيزيقية ، وهو سياسياً شاعر رجعي متواضع ، ما استطاع أن يرى في تحول وطنه وتغييره أبعد مما كان يرى سادن كنيسة مثقف . على كل حال فإني استمعت إلى أكثر النقاد صرامة في انتقاده بسبب جموده السياسي وهم ينشدون قصائده عن ظهر قلب كثيراً من الأحايين .

إن وجود اعتقادية Dogmatismo سوفييتية في الفنون خلال مراحل طويلة لأمر لا يمكن إنكاره ، بيد أنه يجب أن يقال كذلك إن هذه «الاعتقادية» اعتبرت دائماً عيباً كوفح وجهاً لوجه . إن عبادة الشخصية أدت ، عن طريق المقالات النقدية التي كان يكتبها (زدانوف Zadhanov) ، وهو «اعتقادي» لامع ، إلى تصلب خطير في مجرى الثقافة السوفييتية وتطورها ، لكن كانت هناك إجابات كثيرة من الجهات جميعها على هذه المقالات ، وإنه لأمر معروف أن الحياة هي أقوى وأعند من الفروض والأوامر والقواعد ، إن الثورة لهي الحياة وإن الفروض تبحث دائماً عن نعشها وقبرها .

ما زال (أيهرينبورغ) على كبره في العمر المهيج الأكبر لكل ما هو حقيقي وجوهري وحي في الثقافة السوفييتية . لقد زرت مرات كثيرة صديقي الطيب الودود في شقته بشارع (غوركي) ، شقته المكوكبة بلوحات (بيكاسو) ، أو في عزبته (Dacha) قرب موسكو . لقد كان له هوس بالنباتات فهو دائماً في حديقته ينزع النباتات الطفيلية ويجني ثمار كل ما ينمو حوله .

في ما بعد أنشأت صداقة متينة مع الشاعر (كيرسانوف) الذي ترجم إلى الروسية شعري ترجمة تبعث على الإعجاب حقاً . إن (كيرسانوف) ، مثل السوفييت جميعاً ، وطني متوهج . إن لشعره ومضاً متفجراً ، جرساً تمنحه اللغة الروسية الجميلة التي يقذف بها إلى الهواء بريشته فتنبعث تفجرات وشلالات .

كنت على الدوام أزور في موسكو أو في الريف شاعراً كبيراً آخر ألا وهو الشاعر التركي (ناظم حكمت) ، وهو كاتب خرافي أسطوري ، كانت حكومة بلده الغريبة عن شعبه قد سجنته خلال ١٨ سنة .

لقد اتهم (ناظم) بأنه كان يريد إثارة فتنة وتمرد في صفوف البحرية التركية فأدانوه بكل عقوبات جهنم . جرت المحاكمة على ظهر بارجة عسكرية . كانوا يحكون لي كيف أنهم جعلوه يمشي حتى درجة الانهاك على جسر الباخرة ، ومن بعد أدخلوه إلى المرحاض حيث كان الغائط يعلو أكثر من نصف متر ، فشعر أخي الشاعر

بالإغماء وخارت قواه . كانت الرائحة الكريهة تجعله يتقزز ويرتعد . عند ذلك فكر : لا بد أن الجلادين يرقبونني من نقطة ما ، فهم يريدون أن يروني أتداعى ، يريدون أن يروني تعيساً بائساً . فانبعثت قواه في أنفة وعنجهية وبدأ يغني ، أولاً في صوت خفيض ومن بعد في صوت أكثر علواً ، في النهاية شرع يغني ملء حنجرته ، غنّى الأغاني كلها ، الغزل الذي كان يذكره ، جميع قصائده التي نظمها ، مواويل الفلاحين ، أناشيد شعبه النضالية ، غنّى كل ما كان يعرفه من غناء . وهكذا انتصر على الرجس والنجاسة والعذاب . عندما قص عليّ ذلك ، قلت له : «يا أخي ، إنك بهذا قد أجبت عنا جميعاً ، فلم نعد نحتار فيما نفعله ، فها نحن جميعاً معشر الشعراء نعرف متى يجب علينا أن نبدأ الغناء» .

كان يحكي لي كذلك عن آلام شعبه ، عن الفلاحين الذين يضطهدهم في قساوة سادة تركيا الإقطاعيون . كان (ناظم) يراهم وهم يأتون على السجون جماعات جماعات ، كان يراهم وهم يستبدلون التنباك بقطعة الخبز التي كانوا يعطونهم حصة وحيدة وجراية يتيمة . أخذوا ينظرون إلى مرعى الباحة في السجن بذهول ، من بعد بانتباه وتركيز ، من بعد بشراهة ونهم ، ذات يوم التقطوا أقذاء الحشائش والأعشاب وقربوها من أفواههم ثم راحوا يقتلعونها حزماً حزماً ملء الأيدي فيبتلعونها إلى أن انتهوا إلى أن يرعوا بأربعة أرجل كما الدواب .

لقد عاش (ناظم) ، الذي كان عدواً لدوداً للاعتقادية ، سنين طويلة منفياً في الاتحاد السوفييتي . إن حبه لهذه الأرض التي حضنته لمتمثل في هذه الجملة التي قالها : «أنا أؤمن بمستقبل الشعر ، أؤمن لأنني أحيا في بلد يشكل الشعر فيه أكثر مقتضيات الروح لزوماً وضرورة» . في هذه الكلمات تنوس أسرار كثيرة لا تدرك من على بعد . إن الإنسان السوفييتي ، والأبواب منفتحة على المكتبات كلها والقاعات جميعها والمسارح قاطبة ، لهو مركز اهتمامات الكاتب السوفييتي . ليس من مجال لنسيانه حين يُتناقش حول مصير العمل الأدبي . فمن ناحية ، يجب على الصيغ الجديدة ، أي التجديد الضروري لكل ما يوجد ، أن تتجاوز القوالب الأدبية الجاهزة وأن تعمل على تحطيمها . ومن ناحية أخرى كيف يمكن للأدب أن لا يرافق خطى ثورة عميقة مديدة؟ كيف يمكن له أن يبتعد عن المواضيع الأساسية ، الانتصارات ، المنازعات ، المشاكل الإنسانية ، عن خصب وحركة وتناسل شعب كبير يواجه تغييراً شاملاً للنظام السياسي الاقتصادي الاجتماعي الذي كان سائداً في بلده؟ كيف

يمكن له أن لا يتضامن مع هذا الشعب الذي يهاجمه غزاة شرسون ويحاصره مستعمرون لا يرحمون يعكرون صفو الأجواء الإنسانية كلها؟ أفتستطيع الآداب والفنون أن تتخذ موقفاً مستقلاً استقلالاً هوائياً هشاً إزاء أحداث جوهرية ومجريات أساسية؟

إن السماء لبيضاء ، في الرابعة مساء تغدو سوداء ، منذ هذه الساعة يغلق الليل المدينة .

إن موسكو لهي مدينة شتوية ، هي مدينة الشتاء الجميلة . لقد تمركز الثلج فوق سطوح المنازل المتكررة المترامية بشكل لا نهائي . تلتمع الشوارع النظيفة أبداً . إن الهواء لهو بلور قاس شفاف . لون فولاذي ناعم ، زغب ثلجي يحوم ، ذهاب المارة وإيابهم كما لو أنهم لا يحسون للبرد طعماً ولا لذعاً ، كل هذا يجعلنا نحلم في أن موسكو ما هي إلا قصر للشتاء كبير ذو زخارف شبحية وحية ، خارقة ومدهشة .

ثلاثون درجة تحت الصفر في موسكو هذه التي هي مثل نجمة من نار ومن ثلج ، مثل قلب متوهج مشتعل ، قلب يكمن وسط صدر الأرض .

هأنذا أنظر عبر النافذة ، ثمة حراس في الشوارع ، فماذا يجري؟ لقد توقف حتى الثلج عن الحركة عن الهطول ، إنهم يدفنون (فيسهينسكي Vishinski) العظيم ، تنفتح الشوارع في جلالة ووقار كي يمر موكبه . يسود سكون عميق ، خفوت في قلب الشتاء احتراماً لهذا المحارب الكبير . إن نار (نيسهينسكي) توؤب إلى أس الوطن السوفييتي .

ما زال الجنود الذين حيوا بأسلحتهم الموكب حين مر في أماكنهم ثابتين في تشكيلات ثلاثية ، من حين إلى حين يقوم أحدهم برقصة صغيرة ، رافعاً يديه القفازيتين ومحذياً بجزمته الطويلة لحظة . ثم يرجع متصلباً راسخاً ثابتاً .

لقد روى لي صديق إسباني أنه خلال الحرب العظمى في أشد الأيام برداً وصقيعاً ، إثر غارة جوية داهمة ، كان المسكوويون يُرون وهم يأكلون المثلجات في الشوارع ، «آنذاك أدركت أنهم لا بد رابحو الحرب -كان يقول لي صديقي- ، حين رأيتهم يأكلون المثلجات في هدوء وطمأنينة نفس وسط حرب رهيبة وبرد شديد» .

لقد تزركشت أشجار الحدائق بيضاء من ثلج . لا شيء يقرن بهذه الأوراق المتبلورة في الحدائق بشتاء موسكو ، إن الشمس تجعلها أكثر شفافية ، تقتلع منها لهباً أبيض دون أن تذوّب أية قطرة من قامتها الزهرية من قوامها الثلجي . إنه لكون مشجر

يدعك ترى من خلال ربيعه الثلجي أبراج «الكريملين» العتيقة القديمة ، السهام الرشيقة الهيفاء الألفية ، قباب كنيسة «القديس باسيل» المذهبة .

إني لأرى ، بعد أن عبرت ضواحي موسكو باتجاه مدينة أخرى ، دروباً عريضة بيضاء ، إن هي إلا الأنهار المتجمدة . في مجاري هذه الأنهار الجليدية يطلع من حين إلى حين مما ذبابة في خوان أبيض باهر ، طيف صياد مطرق الرأس . يقف الصياد وسط السماط السبسب المديد الجليد ، يختار نقطة ، يثقب الجليد حتى يدع التيار الدفين مرئياً جلياً ، في هذه اللحظة نفسها لا يمكن له الصيد إذ إن الأسماك المباغتة هربت مذعورة من ضجيج المثاقب الحديدية التي عملت في الجليد ثقباً وتنقيباً ، حينذاك يبعثر الصياد بعضاً من طعم هنا وبعضاً من طعم هناك كي يجذب الأسماك الفارّة ثم يرمي بصنارته ويترقب ، ينتظر ساعات وساعات في ذاك البرد الإبليسي اللعين .

إن عمل الكتّاب ، في رأيي ، له شبه كبير بعمل أولئك الصيادين في القطب الشمالي ، على الكاتب أن يبحث عن النهر فإن وجده متجمداً فإنه يضطر أن يثقب الجليد . عليه أن يجلد ويصبر ، أن يتحمل الطقس المعادي والنقد المضاد . أن يتحدى التفاهة ، أن يبحث عن التيار العميق ، أن يرمي بالصنارة الصالحة الصائبة ، ليُخرج بعد جهد جهيد وصبر شديد سمكة صغيرة . بيد أنه لا بد له من أن يرجع الكرة ويعود للضيج من جديد ، ضد البرد ، ضد الصقيع ، ضد الماء ، ضد النقد ، وهكذا دواليك حتى يُخرج في كل مرة صيداً أكبر وأعظم .

دعيت لحضور مؤتمر للكتاب ، كان يجلس هناك في سدة الرئاسة صيادو الأسماك العظماء ، كتاب الاتحاد السوفييتي الكبار (فاديف) بابتسامته البيضاء وشعره الفضي . (فيدين) بوجهه النحيل الحاد كوجه صياد إنجليزي . (ايهرينبورغ) بنواصي شعره المضطربة وببدلته التي وإن كان قد دشنها حديثاً تعطي انطباعاً بأنه كان ينام وهو يرتديها . و(تيخونوف) .

كان كذلك ممثلين في الرئاسة بوجههم المنغولية ، الناطقون باسم آداب أكثر الجمهوريات السوفيتية بعداً ، ممثلو شعوب ما كنت أدري أنا حتى بأسمائها ، شعوب ما كانت لها الأبجدية من قبل .

الهند المزارة من جديد:

كان عليّ في عام ١٩٥٠ أن أسافر إلى الهند على غير توقع أو انتظار. لقد استدعاني إلى باريس (جوليوت كوري Joliot Curie)[1] كي يكلفني بمهمة ألا وهي السفر إلى «دلهي الجديدة» للاتصال هناك بأناس من مختلف الآراء والاتجاهات السياسية، والبحث هناك عن إمكانيات تدعيم الحركة الهندية من أجل السلام العالمي. كان (جوليوت كوري) هو الرئيس الدولي لأنصار السلام، تحدثنا في إسهاب. كان يقلقه أن السلم في الهند ليس له الوزن الذي يجب أن يكون عليه. غير أنه كان للهند سمعة حسنة في أنها دولة مسالمة من الطراز الأول. وكان لرئيس وزرائها نفسه، (البانديت نهرو)، الشهرة في أنه زعيم السلام، إن قضية السلام لهي قديمة عميقة بالنسبة لتلك الأمة.

أعطاني (جوليوت كوري) رسالتين: واحدة منهما لعالم بحّاثة مسالم في «بومباي» والأخرى لرئيس الوزراء (نهرو) على أن أسلمها له يداً بيد، لقد استغربت أنه اختارني على التعيين للقيام بسفر مرهق طويل وبعمل سهل جداً، كما كان يبدو. ربما أنه اعتمد على حبي الذي ما خمد أبداً نحو ذاك البلد حيث قضيت بضع سنين أثناء شبابي، أو لعله استند إلى أني حزت في هذه السنة نفسها على جائزة السلام بقصيدتي «فليستيقظ الحطّاب» ميزة منحت كذلك إلى (بابلو بيكاسو) و(ناظم حكمت).

ركبت الطائرة متوجهاً إلى «بومباي». بعد ثلاثين سنة كنت أعود إلى الهند من جديد، والهند الآن ليست مستعمرة تكافح في سبيل تحررها وانعتاقها بل هي جمهورية[2] ذات سيادة: حلم (غاندي) الذي حضرت مؤتمراته الأولى عام ١٩٢٨. لم يعد من أصدقائي الطلبة الثوريين إذاك الذين أودعوني في ثقة وأخوة حكاياهم الكفاحية البطولية أي فرد حي، هذا ما كنت أفكر فيه حين وصلت.

ما إن نزلت من الطائرة حتى توجهت إلى الجمارك وفي نيتي أن أتوجه إلى أي فندق مهما كان، كي أسلم الرسالة إلى العالم الفيزيائي (رامان)[3] وأواصل سفري

---

(١) جوليوت كوري Fre'deric : فيزيائي - كيميائي (١٩٠٠-١٩٥٨).

(٢) من المعروف أن الهند هي دولة تابعة للكومنولث البريطاني.

(٣) رامان Chandrasekhara Venkata : عالم فيزيائي هندي ولد عام ١٨٨٨.

من بعد إلى دلهي الجديدة. لم أكن أحسب حساب الضيافة والإقامة عند هذا العالم. لكن حقائبي ما كانت لتخرج من سورها إذ إن مجموعة ممن كنت أحسبهم رجال جمارك، كانوا يفتشون حقائبي تفتيشاً دقيقاً وبحثاً متطايراً وفي عدسة مكبرة: لقد شاهدت في حياتي تحريات وتفتيشات عديدة لكنني أبداً ما شاهدت كما هذه المرة: لم يكن عفشي بالكثير النامي: حقيبة صغيرة تحتوي على ملابس ومحفظة تتضمن لوازمي الشخصية. راحت سراويلي وملابسي الداخلية وأحذيتي تعلو في الهواء ترقبها خمسة أزواج من العيون، كانت الجيوب والغزازات والدروز تنقب تنقيباً دقيقاً مجهرياً. كي لا تتسخ ملابسي بأحذيتي فقد كنت في مطار روما قد طويت هذه الأحذية بصحيفة متجعدة عثرت عليها في غرفة فندقي هناك وأظن أنها «الاوبسيرفاتور رومانو». ففرشوا هذه الصحيفة على طاولة وأخذوا ينظرون إليها بالنور الكاشف ثم طووها في اعتناء كما لو أنها وثيقة سرية ثم وضعوها قرب أوراقي ووثائقي الأخرى. كذلك فإنهم درسوا وفحصوا أحذيتي من الداخل ومن الخارج كأنها نماذج فريدة من الحفريات الهائلة.

لقد دام هذا البحث الخرافي زهاء ساعتين. لقد صنعوا من أوراقي (جواز سفر، مفكرة عناوين، الرسالة التي كان عليّ أن أسلمها إلى رئيس الحكومة، صحيفة «الاوبسيرفاتور رومانو») ربطة مطولة ختموها بشكل احتفالي بالشمع الأحمر أمام ناظري، بعد أن قالوا لي إني أستطيع التوجه إلى الفندق.

بذلت جهداً تشيلياً كي لا أفقد صبري، ثم أنذرتهم بأنهم لن يقبلوني في أي من الفنادق إن لم أكن مزوداً بوثيقة تثبت هويتي، وأن موضوع زيارتي إلى الهند هو إعطاء الوزير الأول الرسالة التي لن أستطيع إعطاءها له لأنهم خطفوها مني وبقيت معهم.

- نحن سنتكلم مع الفندق كي يقبلوك فيه، أما بالنسبة للأوراق فإننا سنعيدها إليك في اللحظة المناسبة.

هذا هو البلد الذي شكل كفاحه من أجل الاستقلال جزءاً من مصيري وشبابي. قلت في نفسي. أغلقت حقيبتي وفي الوقت نفسه أغلقت فمي، كان فكري، في داخلي، يشكل كلمة واحدة لا غير: خرا.

التقيت في الفندق مع الأستاذ (بايرا) فحكيت له محنتي. كان هو رجلاً هندياً ذا مزاج طيب. لم يول الأمر الأهمية اللازمة فلقد كان متسامحاً مع بلده ومتساهلاً؛ إذ إنه اعتبر الهند في مرحلة التشكل والتكون فيما كنت أنا على العكس، فلقد

رأيت في تلك الفوضى شيئاً سيئاً جداً ، شيئاً ما كنت أنتظره من أمة مستقلة جديدة تجري لي هذا الاستقبال الفاضح المخزي .

كان صديق (جوليوت كوري) الذي كنت أحضر له رسالة التقديم ، هو مدير الدراسات الفيزيائية-الذرية في الهند ، فدعاني لزيارة مراكزه النووية هذه وأضاف قائلاً بأننا مدعوان إلى الغداء في اليوم نفسه على مائدة أخت رئيس الوزراء . هكذا كان حظي وهكذا كانت حياتي كلها دوماً : بيد يلطمونني على أضلاعي وبيد أخرى يقدمون لي باقة ورود كي أغفر الحيف .

إن معهد الأبحاث النووية كان واحداً من هذه الأماكن النظيفة الواضحة المشعة التي فيها ترى رجالاً ونساءً وهم يرتدون ملابس بيضاء فضفاضة شفافة ، يحومون ويطوفون كالماء الجاري ، يعبرون دهاليز وممرات ، يتفادون التماس بأدوات وألواح كبيرة وأوان وأوعية كثيرة . مع أني لم أفهم إلا القليل من تلك الشروح العلمية فإن تلك الزيارة أفادتني كأنها حمّام من مطر كان ينظفني ويغسل عني أوضار تلك البقع التي لطخني بها رجال الشرطة وتنكيداتهم وإزعاجاتهم وتفتيشاتهم . أذكر في غير وضوح أني رايت من بين الأشياء الأخرى نوعاً من الزئبق أدهشني . لا شيء أروع من هذا المعدن الذي يعرض طاقته كأنها حياة حية . لقد سرني دائماً بحركته وتحركه : قدرته على التحول السائلي الكروي السحري .

لقد نسيت اسم أخت (نهرو) التي تغدينا معها ذلك اليوم . حين رأيتها زال عني المزاج السيء . كانت امرأة ذات جمال وحسن عظيمين ، متزينة ، متبرجة كأنها ممثلة غريبة النوع ، كان رداؤها Sari يبرق في ألوان زاهية ، وكان الذهب والدر والجوهر تزودها بزخارف تزيد من جمالها ، لقد أعجبتني كثيراً . لقد كان ، فعلاً ، شيئاً مناقضاً أن تراها وهي تأكل بيدها ، أن ترى أناملها الطويلة المحلاة بالزينة وهي تغرز من الأرز ومرق Curry . قلت لها إني سأذهب إلى دلهي الجديدة كي أرى أخاها وأقابل أنصار السلام العالمي . أجابتني أنه ، في رأيها ، سكان الهند جميعاً يجب عليهم أن ينخرطوا في هذه الحركة العالمية .

في المساء سلمني رجال الشرطة السفط وأوراقي . لقد كان أولئك المنافقون من رجال الشرطة قد كسروا الخواتم الشمعية التي هم بأنفسهم وضعوها حين صفّتوا وثائقي في حضوري . بالتأكيد أنهم صوروا كل شيء حتى وصول حسابات محل تنظيف الثياب التي كنت أحملها في جيبي . ومع مضي الوقت عرفت أنهم استجوبوا

جميع الأشخاص التي كانت عناوينهم تبدو في مفكرتي ، ومن بين هؤلاء الأشخاص أرملة (ريكاردو غويرالديس)[1] التي هي أخت زوجتي في ذلك الوقت . كانت هذه السيدة امرأة متصوفة سطحية ليس لها من هوى ولا هوس إلا الفلسفات الآسيوية ، وكانت تعيش في ضيعة نائية جداً في الهند ، ومع ذلك فقد أزعجوها نظراً لأن اسمها كان من جملة الأسماء التي أحملها في مفكرتي .

في دلهي الجديدة رأيت سبعاً من الشخصيات بالعاصمة الهندية ، في يوم وصولي نفسه ، حيث كنت أجلس في حديقة تحت ظلال تحميني من وهج النار السماوية . كانوا كتاباً ، فلاسفة ، كهنة هندوساً أو بوذيين ، من أناس الهند ، هؤلاء البسطاء جداً إلى درجة تبعث على التقدير والتقديس ، غير مزودين بأي تبجح مصطنع ولا زهو مزيف . ارتأوا بالإجماع أن يشكل أنصار السلام حركة واحدة تنصهر مع الروح القديمة لهذا البلد العريق بتقاليده الحية من حب للخير وتفاهم مشترك . أضافوا في حكمة أنهم يرون أنه من الضروري أن تصلح العيوب ، عيوب الميل نحو جانب دون آخر أو سيطرة قسم على آخر : ليس على أحد أو فئة أن يدعي الحركة لنفسه سواء أكان من الشيوعيين أم البوذيين أم البورجوازيين . إن مساهمة الاتجاهات كلها كان هو المحور الرئيسي وعقدة الأمر . كنت على اتفاق معهم .

جاء ليراني سفير تشيلي في دلهي الجديدة وهو صديق قديم كاتب وطبيب يدعى الدكتور (خوان مارين)[2] وحين وصل كنت أنا أتغدى . بعد كثير من اللف والدوران والمواربة في الكلام قال لي إنه كان قد قابل رئيس الشرطة . فأخبره رئيس الشرطة الهندي في هذا الطابع الجدي الذي يتكيفه الرجال المسؤولون حين يتوجهون لمخاطبة الديبلوماسيين ، أن نشاطاتي تزعج حكومة الهند وتقلقها ، وأنه ليتني أهجر الهند عما قريب . فأجبت السفير أن نشاطاتي قد اقتصرت على مقابلة سبعة من الأشخاص الشهيرين المعروفين في حديقة الفندق ، أفكارهم معروفة لدى الجميع ، كنت أفترض أنا . أما بالنسبة لي ، قلت له ، فإني حين أسلم رسالة (جوليوت كوري) إلى رئيس الوزراء ، لن أرغب من بعد أن أستمر في بلد يعاملني ، على الرغم من وقوفي المجرب إلى جانب قضاياه ، بهذه الوقاحة وقلة الكياسة دون أي مبرر أو داع .

---

(١) ريكاردو غويرالديس : روائي أرجنتيني (١٨٨٦-١٩٢٧) .

(٢) خوان مارين : روائي ومؤرخ تشيلي (١٩٠٠-١٩٦٣) .

لقد كان سفيري ، مع أنه كان واحداً من مؤسسي الحزب الاشتراكي بتشيلي ، خامداً هامداً . قد يكون بسبب تراكم السنين عليه وبسبب تراكم الامتيازات الديبلوماسية لم يبد أي احتجاج على الإهانة التي لحقت به وبي من جراء هذا السلوك الغبي من لدن الحكومة الهندية ، وأنا لم أطلب منه أي دعم أو تضامن معي بل ودّعته بالتي هي أحسن ، فمضى هو مرتاحاً من الحمل الثقيل الذي كان يعني بالنسبة له وجودي في الهند ، وانا مضيت يائساً إلى الأبد من حساسيته ومن صداقته .

كان (نهرو) قد حدد لي موعداً في صباح اليوم التالي بمقر الحكومة في مكتبه . وقف ومد يده دون أية ابتسامة من ترحيب وتكريم . إن مقر الحكومة هذا قد وصف كثيراً فلا حاجة بي للكلام عنه . نظرت إليّ عينيان داكنتان باردتان من غير عاطفة ولا شعور . قبل ثلاثين سنة قدموني إليه وإلى أبيه في اجتماع حاشد من أجل استقلال الهند ، فذكّرته بهذا الاجتماع واللقاء فلم تتغير ملامحه أبداً . على كل ما كنت أقوله كان يجيب في مقاطع قصيرة من الكلام ذات حرف أو حرفين وهو يرقبني بنظرته الباردة الجامدة الثابتة .

ناولته من بعد رسالة صديقه (جوليوت كوري) فقال لي بأنه يشعر نحو هذا العالم الفرنسي شعور التقدير والاحترام ، ثم قرأ الرسالة في رصانة . كان حديثه في الرسالة عني ويطلب منه مساعدتي في مهمتي . انتهى من قراءتها وأدخلها من جديد في ظرفها ونظر إليّ دون أن يقول لي شيئاً . فكرت لتوّي أن حضوري يسبب له اشمئزازاً لا يقاوم ، كذلك مر في ذهني أن هذا الرجل ذا اللون الأصفر الشاحب لا بد أنه يمر في لحظة فيسيولوجية سيئة أو سياسية مزعجة أو نفسية مضايقة . كان في سلوكه بعض من الأنفة والتشامخ ، شيء من التكبر والعجرفة ، زهو شخص متعود على أن يكون آمراً ناهياً دون أن يكون له شيء من هيبة القائد . تذكرت أن أباه (البانديت موتيلال زيمندار) ، سليل جنس قديم من السادة ، كان أمين خزانة (غاندي) وأنه ساهم ليس بمعرفته السياسية فحسب بل كذلك بثروته الكبيرة في حزب المؤتمر الهندي . فكرت في أنه ربما يكون هذا الرجل قد عاد ليصير بشكل مهلهل (زيماندارا) وأنه لهذا السبب يرمقني في احتقار ولا مبالاة كما لو كان ينظر إلى فلاح حاف عار .

- ماذا عليّ أن أقول للأستاذ (جوليوت كوري) حين أعود إلى باريس؟

- سأجيب على رسالته - قال في جفاف .

احتفظ بالسكون والصمت خلال بضع دقائق بدت لي دهراً . كان يظهر لي أن (نهرو) ليست عنده أية رغبة في أن يقول لي شيئاً ، لكن ما كنت أبدي أي تململ أو عدم صبر كما لو أني كنت أستطيع البقاء هناك جالساً إلى الأبد بدون أي غرض ولا هدف ، يملؤني شعور بأني أضيع وقت رجل عظيم جداً ومهم جداً .

اعتبرت أنه لا بد لي من أن أقول له بضع كلمات عن مهمتي . إن الحرب الباردة تهدد بأن تصير ساخنة بين لحظة وأخرى . إن هاوية جديدة قد تبتلع الإنسانية كلَّمته عن خطر الأسلحة الذرية الرهيبة وعن أهمية أن يتكتل جميع الذين يريدون تجنب الحرب الذرية أو أكثريتهم على الأقل .

كما لو أنه ما سمع مني شيئاً ، استمر في تأمله وإطراقه الفكري الروحي . بعد انتهاء بضع دقائق تفوّه قائلاً :

إن ما يحصل هو أن كتلة وأخرى تتراشقان بحجج السلام .

- بالنسبة لي -أجبته- إن الذين يتكلمون عن السلام أو يريدون المشاركة في السلم جميعاً يستطيعون أن ينتموا إلى الكتلة نفسها ، إلى الحركة نفسها ، فنحن لا نريد إقصاء أحد عن حركتنا ما عدا أنصار الحرب ودعاة الانتقام .

استغرق الصمت طويلاً فأدركت أن الحديث قد انتهى فوقفت ومددت له يدي مودعاً فصافحني في سكون . حين كنت أتوجه نحو الباب سألني في شيء من الود :

ماذا أستطيع أن أعمل في سبيل حضرتك؟ ألا أستطيع أن أقدم لحضرتك شيئاً؟

أنا عادة بليد الإجابة غير سريع الخاطر ، غير مجهز بالخبث والمكر ، لكن للمرة الوحيدة في حياتي استفدت من تلك الفرصة السانحة :

- بلى ، طبعاً ، لقد نسيت ، على الرغم من أني قد جئت سابقاً إلى الهند فإني لم تسنح لي فرصة زيارة «تاج محل» القريب جداً من دلهي الجديدة . كان من الممكن أن تكون هذه هي الفرصة المناسبة لزيارة هذا المشهد التذكاري الرائع لو لم تخبرني الشرطة أني لا أستطيع مغادرة المدينة ، وأن عليّ أن أعود إلى أوروبا في أسرع وقت ممكن ، ولهذا فإني سأرحل غداً .

كنت فرحاً بأني رشقته بالسهم[١] . حييته في خفة وغادرت مكتبه .

---

(١) رشقته بالسهم : تعبير إسباني يشبه التعبير العربي ، كلت له الصاع صاعين ، وإن كان التعبير العربي في الأصل يعني الخير والمودة .

في قاعة الاستقبال بالفندق كان المدير ينتظرني .

- عندي رسالة لحضرتك ، رسالة شفهية ، لقد اتصلت بي الحكومة هاتفياً لتخبرني أن حضرتك تستطيع زيارة «تاج محل» حين يطيب لحضرتك .

- أعد حسابي -أجبته- إني لأسف لعدم قدرتي على القيام بهذه الزيارة ، فإني سأتوجه الآن حالاً إلى المطار كي آخذ أول طائرة تقلني إلى باريس .

بعد خمس سنين على هذا كلفت أن أكون عضواً في لجنة الجوائز التي كل سنة تمنح جائزة لينين للسلام في موسكو ، وهذه اللجنة هي محكمة أمية أشكل أنا جزءاً منها . حين حانت لحظة تقديم أسماء المرشحين لذلك العام ، قذف مندوب الهند باسم رئيس الوزراء (نهرو) .

أنا ابتسمت ابتسامة لم يفهمها أحد من الأعضاء الآخرين وصوّتّ إيجابياً . بتلك الجائزة الأمية نصِّب (نهرو) واحداً من أبطال السلام في العالم .

زيارتي الأولى للصين:

لقد زرت الصين مرتين بعد الثورة ، الأولى عام ١٩٥١ ، حين شاركت في مهمة حمل جائزة لينين للسلام إلى السيدة (سونغ سين لينغ) أرملة (سون يات سين Sun Yat Sen)[١] .

لقد منحت هي هذه المدالية الذهبية بناء على اقتراح (كوو مو خو)[٢] نائب رئيس الصين وكاتب شهير . كان (كوو موخو) كذلك نائب رئيس لجنة الجوائز مثلما كان كذلك (أراغون) . إلى هذه اللجنة كان ينتمي : (انّا سيغيرس) ، السينمائي (اليكساندروس)[٣] ، و(ايهرينبورغ) وأنا ، وآخرون لا أذكر الآن أسماءهم . كان ثمة حلف سري مؤلف من (أراغون) و(ايهرينبورغ) ومني ، عن طريق هذا الحلف توصلنا إلى أن تمنح اللجنة الجائزة في أعوام أخرى إلى (بيكاسو) ، إلى (بيرتولد بريخت)[٤] إلى (رافائيل البرتي) . لم يكن الأمر سهلاً ، على فكرة .

---

(١) سون يات سين : سياسي صيني (١٨٦٦-١٩٢٥) .

(٢) كوو مو خو : كاتب صيني ولد عام ١٨٩٥ .

(٣) اليكساندروف : مخرج سينمائي روسي ولد عام ١٩٠٣ .

(٤) بريخت : مؤلف مسرحي وشاعر ألماني معروف (١٨٩٨-١٩٥٦) .

خرجنا بالقطار المتجه نحو الصين العابر «سيبيريا» . لقد كان حشر نفسي في هذا القطار الأسطوري مثل الدخول في باخرة تبحر عبر الأرض في المدى السحري الغريب . لقد كان كل شيء أصفر في ما حولي . على كل جانب من كوّتي في القطار ، فرسخاً إثر فرسخ ، كان الخريف السيبيري يسود ويسيطر ولا شيء يُرى غير أشجار «البتولا» الفضية ذات الأوراق الصفراء . ثم بدا المرج المديد ، صحراء جليدية أو غابات الصنوبريات Taiga ومن حين إلى حين نقترب من محطات المدن الجديدة . كنا نهبط ، (إيهرينبورغ) وأنا ، كي نتنشط بعد التخدير القطاري . كان الفلاحون ينتظرون القطار في المحطات ومعهم حزم وطرود وحقائب مكومة في قاعات الانتظار .

لم يكن لدينا من الوقت إلا القليل نستفيد منه كي نقوم ببعض الخطوات عبر هذه القرى . كانت جميعها سواء وفي كل قرية كان ثمة تمثال لستالين ، من إسمنت . أحياناً كان التمثال مدهوناً بالفضة وأحياناً أخرى بالذهب . من عشرات التماثيل التي شاهدناها والتي كانت رتيبة سواء ، لست أدري أيها كان أقبح وأبشع أهي الفضية أم الذهبية . حين نعود إلى القطار الذي أبحر بنا لمدة أسبوع كان (ايهرينبورغ) يسليني بحديثه الظريف المرتاب ولو أنه كان وطنياً وسوفيتياً . كان (ايهرينبورغ) يحدثني في ازدراء وتهكم عن كثير من جوانب الحياة في تلك الفترة .

كان (ايهرينبورغ) قد وصل إلى برلين مع الجيش الأحمر . كان هو ، بلا شك ، ألمع المراسلين الحربيين على الإطلاق . كان الجنود الحمر يحبون هذا الرجل الغريب الأطوار اللامركزي . لقد أراني في موسكو قبل السفر بقليل هديتين كان أولئك الجنود قد أهدوهما إليه بعد أن استخرجوهما من بين الأطلال الألمانية . إن إحدى هاتين الهديتين هي بندقية صنعها صانعو أسلحة بلجيكيون لنابوليون بونابرت ، والأخرى هي عبارة عن مجلدين صغيرين من أعمال (رونسارد) قد طُبعا في فرنسا عام ١٦٥٠ . كان هذان المجلدان الصغيران مشيَّطين وملوثين بالمطر والدم .

تنازل (ايهرينبورغ) عن بندقيته إلى المتاحف الفرنسية ، ماذا أصنع بها؟ كان يقول لي وهو يداعب ماسورة هذه البندقية النابوليونية الجميلة الجيدة الصنع وقندقها المصقول اللامع . أما بالنسبة لمجلَّدي (رونسارد) قد احتفظ بهما لنفسه في غيرة وحيطة .

كان (ايهرينبورغ) متفرنساً متحمساً . أنشدني في القطار قصيدة من قصائده السرية ، كانت قصيدة قصيرة يتغنى فيها بفرنسا كما لو كان يغازل امرأة يهيم بها .

أقول إن القصيدة سرية لأنها كانت الفترة التي فيها بدأت بروسيا تشن الاتهامات ضد «الكونية» Cosmopolitismo . كانت الصحف تنشر وشايات معممة ضد الكونيين . فقد كان الفن الحديث كله يبدو لهذه الصحف أنه كوني . كان هذا الكاتب أو ذاك الرسام يسقط ضحية هذا الاتهام ويمحى اسمه كلياً . وهكذا كان على قصيدة (ايهرينبورغ) المتفرنسة أن تحمي حنانها كما زهرة سرية .

إن الكثير مما كان يطلعني عليه (ايهرينبورغ) كان يختفي من بعد إلى الأبد في ليل (ستالين) المعتم المظلم اختفاءات كنت أنا أرجع أسبابها إلى طبعه المتمرد المتناقض .

كان (ايهرينبورغ) بالنسبة لي بوفرة شعره غير المنتظمة وبتقطيب جبينه العميق وبأسنانه المتسممة بالتبغ ، وبعينيه الرماديتين الباردتين ، هو الارتيابي القديم ، الخائب الكبير . أنا كنت أفتح عيني ، حديثاً ، على الثورة العظيمة ولم يكن فيّ متسع لجزئيات مشؤومة . كنت أخالف قليلاً الذوق العام السائد إذاك والمتمثل في تلك التماثيل المدهونة بالذهب أو الفضة . ولقد أثبت الزمن أني لست على صواب وحق ، لكنني أعتقد أنه لا أحد ولا حتى (ايهرينبورغ) كان يدرك عمق المأساة وفداحة المصيبة إلى أن انعقد المؤتمر العشرون فكشف لنا جميعاً عن ذلك كله .

كان يظهر لي أن القطار يسير في بطء كثير عبر المدى الأصفر ، يوماً بعد يوم ، شجرة «الـ بتولا» إثر سجرة «الـ بتولا» . هكذا كنا نقترب عبر «سيبيريا» من جبال «أورال» .

كنا ذات يومٍ نتغدى في عربة المطعم حين لفت نظري جندي كان يشغل مائدة وحده ، كان ثملاً جداً وهو شاب أشقر كثير الابتسام . كان يطلب في كل لحظة من النادل أن يأتي له ببيض نيء ،ثم يكسر هذا البيض وفي سرور[١] كبير واضح يفرغ كل بيضة في طبق ثم يطلب زوجاً آخر من البيض ، وفي كل مرة كان يحس أنه أكثر سعادة ، يستدل على هذا من ابتسامته الطروب ومن عينيه الزرقاوين الفرحتين فرح طفل صغير . لا بد أنه قد قضى وقتاً كثيراً وهو يكسر ويصب ويطلب ثم يكسر

(١) سرور : في الأصل البروز Alborozo ، وهي كلمة عربية من معانيها في الإسبانية الطرب والفرح والسرور .

ويصب ويطلب لأن زلال البيض أخذ يتدفق ويفيض بشكل خطير من أطباقه ويسقط على أرضية العربة .

- Tovarich - كان ينادي الجندي في حماسة على النادل ليطلب منه بيضات جديدة كي يضاعف من كنزه وثروته البيضية .

وأنا كنت أراقب في حماسة كذلك هذا المشهد السريالي البريء جداً ، المباغت جداً في إطار تلك الوحشة السيبيرية المحيطية .

إلى أن نادى النادل المستنفر على شرطي عسكري . نظر الشرطي المسلح تماماً من علوّه إذ كان طويلاً جداً ، في حزم وجدية إلى الجندي ، فلم يعره هذا أي انتباه بل استمر في عمله يكسر البيض ويهشمه .

افترضت أنا أن السلطة سوف تخرجه في عنف من حلمه المسرف المبذر ، لكنني دهشت حين رأيت الشرطي الهرقلي يجلس قربه ويمر يده في حنان عبر الشعر الأشقر ويكلمه في نصف صوت ، مبتسماً له ومحاولاً إقناعه إلى أن جعله يقوم فجأة في نعومة ورشاقة من مقعده وقاده من ذراعه كأنه أخ كبير له ، إلى مخرج العربة نحو المحطة نحو شوارع القرية .

فكرت في مرارة ماذا كان يقع لو أن سكيراً مسكيناً هندياً جعل يكسر البيض في قطار اكوادوري .

خلال تلك الأيام السيبيرية كان يسمع في الأضاحي والأماسي عزف (ايهرينبورغ) في قوة على معازف آلته الكاتبة . هناك أنهى رواية «الموجة الأولى» وهي الأخيرة قبل روايته الأخرى «ذوبان الجليد» . من جهتي كنت لا أكتب إلا على فترات متقطعة بعض قصائد من ديواني «أشعار القبطان» وهي قصائد غزل بـ(ماتيلده Matilde) سأنشرها من بعد في «نابولي» غفلاً من التوقيع .

وتركنا القطار في «ايركوتز» . قبل أن نأخذ الطائرة إلى «مونغوليا» ، ذهبنا للقيام بنزهة عبر البحيرة ، بحيرة «بايكال» الشهيرة ، في أطراف «سيبيريا» التي كان تعني في العهد القيصري باب الحرية . نحو هذه البحرية كانت تتجه أفكار المسجونين والهاربين وأحلامهم . كانت الطريق الوحيدة الممكنة للفرار والهرب . «بايكال ، بايكال» ما زالت حتى الآن ترددها الأصوات الروسية الفخمة وهي تغني الأناشيد القديمة .

لقد دعانا معهد أبحاث البحيرات إلى الغداء ، فكشف لنا العلماء عن أسرارهم

العلمية . أبداً ما استطعنا تحديد عمق تلك البحيرة التي هي ابنة جبال «اورال» وعينها . من على بعد ألفي متر عمقاً تُستخرج أسماك غريبة عجيبة ، أسماك عمياء ، تستخرج من هاويتها المعتمة الليلية . ما إن سمعت هذا حتى أخذتني الشهية وتمكنت من إقناع العلماء البحاثين من أن يحضروا لي إلى مائدتي زوجاً من تلك الأسماك العجيبة . إني لواحد من الأشخاص القلائل في العالم ، الذين استطاعوا أن يأكلوا أسماكاً قعرية عميقة مروية بـ«فودكا» سيبيرية جيدة .

من هناك طرنا إلى مونغوليا . ما زلت أحتفظ بذكرى ضبابية لتلك الأراضي القمرية حيث يعيش السكان هناك في خيام بدوية ، بينما شرعوا في خلق أوائل مصانعهم وإنشاء أوائل جامعاتهم . حول «اولان باتور» تنفتح أرض باب مدورة لا نهائية شبيهة بصحراء «اتاكاما» في وطني ، لا يمخرها إلا قوافل الجمال التي تجعل وحشتها ووحدتها أكثر قدماً . بالمناسبة تذوقت في طاسات[١] فضية مصنوعة في شكل مذهل ويسكي المنغوليين . إن كل قرية تصنع كحولها[٢] مما تستطيع . إن هذا الذي ذقته كان من حليب ناقة متخثر متخمر . ما زلت حتى الآن كلما ذكرته يقشعر بدني . لكن ، كم هو رائع أني كنت في «أولان باتور» ، أنا من يعيش في الأسماء الجميلة ، أنا أحيا في هذه الأسماء كما لو كنت أحيا في منازل الأحلام ، لقد عشت متمتعاً متلذذاً بكل مقطع من اسم «سينغابور» من اسم «سمرقند» . إني أريد حين أموت أن يدفنوني في اسم ، في اسم رنان جيد الاختيار ، كي تغني مقاطعه فوق عظامي ، قرب البحر .

إن الشعب الصيني هو من أكثر الشعوب ابتساماً في العالم ، عبر الاستعمار الذي لا يرحم ، عبر الثورات ، عبر المجاعات ، عبر المجازر ، يبتسم ، يعرف أن يبتسم في المآسي أكثر من أي شعب آخر . إن ابتسامة الأطفال الصينيين لهي أجمل حصاد أرز تفرطه هذه الجمهرة الغفيرة من الخلق . غير أن ثمة نوعين من الابتسامات الصينية . ثمة نوع من الابتسامة الطبيعية تضيء الوجوه بلون قمحي ، هي ابتسامة الفلاحين وابتسامة الشعب العديد . النوع الثاني هو ابتسامة «انزع وضع»[٣] ، تتثاءب ، تلصق

---

(١) طاسات : هكذا في الأصل Tazas ، عن العربية .

(٢) كحول : هكذا في الأصل Alcohol ، عن العربية .

(٣) انزع وضع : تعبير إسباني بمعنى النفاق والزيف .

ثم تمحق تحت الأنف، إنها ابتسامة الموظفين.

لقد كلفنا جهداً أن نميز بين هذين النوعين حين وصلنا، أنا و(ايهرينبورغ) إلى مطار بكين لأول مرة. لقد رافقتنا الابتسامات الحقيقية خلال الأيام الأولى، كانت ابتسامات زملائنا الكتاب الصينين، روائيين وشعراء، استقبلونا أحسن استقبال في كرم ضيافة وجود نفس. هكذا تعرفنا على (تينغ لينغ) وهو روائي، حائز على جائزة (ستالين)، ورئيس اتحاد الكتاب. على (ماو دونغ)، على (ايمي سياو)، على (أي شينغ) الرائع وهو شيوعي قديم وأمير الشعراء الصينين. ثم كانوا يتكلمون الفرنسية أو الإنجليزية. لقد دفنتهم الثورة الثقافية جميعاً بعد سنوات قلائل. لكن في ذلك الحين، حين وصلنا، كانوا شخصيات الأدب الصيني الأوائل.

في اليوم التالي، بعد منح جائزة (لينين) التي كانت تدعى بجائزة (ستالين)، أكلنا في السفارة السوفييتية. لقد كان حاضراً في هذه الوليمة، بالإضافة إلى السيدة التي منحناها الجائزة، (شو اين لاي) والمارشال العجوز «شو تيه»[1] وآخرون قلائل. كان السفير بطلاً من أبطال «ستالينغراد» وهو عسكري سوفييتي أصيل كان يغني ويشرب الأنخاب بشكل متكرر سريع. لقد جلست أنا قرب (سونغ سين لينغ) كانت امرأة وقورة جداً وما زالت بعد جميلة. لقد كانت الشخصية الأنثوية الأكثر احتراماً في تلك الفترة.

كل واحد منا كان له تحت تصرفه زجاجة صغيرة مليئة بالفودكا. كانت gambe' تتفجر في فيض ووفرة. إن النخب الصيني يجبرك على أن تشرب الكأس كلها حتى السلافة دون أن تدع فيها قطرة واحدة. كان المارشال العجوز (شو تيه)، مقابلي، يملأ قدحه مراراً وتكراراً وبابتسامته الفلاحية الكبيرة كان يحثني على نخب جديد في كل لحظة. في نهاية الأكل انتهزت لحظة شرود فكر هذا الاستراتيجي القديم كي أذوق جرعة من زجاجته الفودكية. لقد تأكدت شكوكي حين عرفت أن المارشال كان يتناول ماء نقياً خلال الأكل فيما أنا كنت أتجرع كميات كبيرة من السائل الناري.

حين حانت ساعة تقديم القهوة، أخرجت جارتي في المائدة (سونغ سين لينغ) أرملة (سن يات سين) المرأة الرائعة التي جئنا كي نقلدها الوسام، من علبة الدخان

(١) شو تيه: سياسي وعسكري صيني ولد عام ١٨٨٦.

سيجارا . من بعد ، في ابتسامة ضئيلة جداً قدمت لي آخر . «لا ، أنا لا أدخن ، شكراً جزيلاً» قلت لها . وحين مدحت لها علبة سجايرها ، أجابتني : «إني أحتفظ بهذه العلبة لأنها ذكرى ثمينة جداً في حياتي» . لقد كانت هذه العلبة شيئاً مذهلاً باهراً ، كانت مصنوعة من ذهب خالص نقي ، مرصعة بالجواهر والألماس واليواقيت والدر . بعد أن أمعنت النظر في العلبة وأضفت مدائح جديدة أعدتها إلى صاحبتها .

لقد نسيت هي في ما بعد إني أرجعت العلبة إليها ، فحين وقفنا لندع المائدة اتجهت نحوي في شيء من التوتر قائلة :

- علبة سجائري Please[١] .

أنا ما كنت أشك قطعاً في أني أعدت العلبة إليها ، لكن ، على كل حال ، بحثت عنها فوق المائدة ثم تحت المائدة دون أن أعثر عليها . لقد تلاشت ابتسامة أرملة (سن يات سين) واضمحلت ، وما كان في وجهها إلا عينان سوداوان تخترقاني كما شعاعان لا يرحمان . لم يكن ليُعثر على تلك الحاجة المقدسة في أية جهة من الجهات وبدأت أنا أشعر أني مسؤول عن ضياع هذا الشي الثمين المقدس ، لقد كانت تلك الأشعة السوداء تقنعني في أنني أنا لص الجواهر المرصعة .

لحسن حظي في الدقيقة الأخيرة من الاحتضار لحت العلبة التي عادت للظهور بين يديها . لقد عثرت عليها في محفظتها ، ببساطة وبشكل طبيعي . فاستعادت هي ابتسامتها ، لكنني لم أعد أبتسم خلال عدة سنين طويلة . إني لأفكر الآن مهموماً في أنه ربما أن الثورة الثقافية قد تركتها بشكل نهائي من غير علبة سجائرها الذهبية الثمينة .

كان الصينيون في ذلك الفصل من السنة يلبسون اللون الأزرق ، بدلة ميكانيكي كانت تغطي كل واحد منهم سواء الرجال والنساء ، وكان هذا اللون يعطيهم مظهراً سماوياً متوحداً جماعياً . لم تكن هذه الأردية أسمالاً كما لم يكن عندهم سيارات . بل إنها لجماهير غفيرة تملأ كل شيء وتطفو في كل ناحية وتبرز في كل زاوية .

لقد كنا هناك في العام الثاني للثورة الصينية . بشكل أكيد كان هناك قلة من المواد ومصاعب في أماكن مختلفة ، لكن هذا كله ما كان يشاهد أثناء التجوال في مدينة بكين . إن ما كان يشغل بالنا بشكل خاص : بال (ايهرينبورغ) وبالي هو هذه

(١) Please : كلمة إنجليزية ، معناها ، من فضلك .

الجزئيات الصغيرة ، بعض تشنجات النظام . حين أردنا أن نشتري زوجاً من الجرابات أو المناديل تحولت المسألة إلى مشكلة دولة . كان الزملاء الصينيون يتناقشون في ما بينهم ، بعد مداولات عصيبة انطلقنا من الفندق في كروان[1] على رأس القافلة كانت تهدر سيارتنا ، من بعد سيارة الحرس ، فسيارة الشرطة ثم سيارة المترجمين . انطلق فوج السيارات في عجلة وسرعة ففتح طريقاً وسط الجمهرة المزدحمة من الناس البسطاء . حين وصلنا إلى المخزن نزل من السيارات أصدقاؤنا الصينيون فطردوا من المحل المشترين جميعهم وأوقفوا حركة السير وشكلوا بأجسادهم حاجزاً وبسواعدهم ساباطا إنسانياً عبرناه : (ايهرينبورغ) وأنا ، مطاطئي الرأسين كي نخرج منه بعد خمس عشرة دقيقة كذلك مطاطئي الرأسين وفي أيدينا صفت صغير وتصميم على ألا نشتري من بعد زوجاً من الجرابات البتة .

كانت هذه الأشياء تجعل (ايهرينبورغ) غاضباً حانقاً . فتصور كيف كان في المطعم الذي سأروي قصته الآن . كانوا يقدمون إلينا في مطعم الفندق أسوأ الطعام الإنجليزي ، أطعمة خلفتها في الصين الأنظمة الاستعمارية . أنا نظراً لأني معجب كبير بالطهي الصيني ، قلت لمترجمي الشاب بأني أحترق رغبة للتمتع بفن الطهي البكيني الشهير . أجابني بأنه سيطلب الاستشارة حول هذا الأمر .

أجهل فيما إذا استشار أم لا لكن ما هو أكيد أننا ظللنا نمضغ ونعلك لحم البقر المشوي التافه في الفندق . عدت فكلمته عن الموضوع ، بصمت مطرقاً مفكراً ثم قال :

إن الزملاء قد اجتمعوا عدة مرات لدراسة هذه الحالة ، والمشكلة على وشك أن تحل .

في اليوم التالي اقترب منا عضو مهم في لجنة الاستقبال . بعد أن علّق في وجهه ابتسامة بشكل صحيح ، سألنا إن كنا فعلاً راغبين ي أن نأكل طعاماً صينياً فقال له (ايهرينبورغ) في حزم أن أجل ، وأنا أضفت إني منذ أيام صباي وأنا أسمع عن أكلهم الشهي الغني ، وإني منذ ذلك الحين وأنا متشوق لتذوق متعة بكين الشهيرة جداً .

-إن الموضوع لصعب- قال الزميل الصيني وهو في حالة انشغال وقلق .

سكون ، حركة رأس ، ثم أوجز قائلاً :

---

(١) كروان : هكذا في الأصل Caravana عن العربية ، من أصل فارسي .

- إنه لشبه مستحيل .

(ايهرينبورغ) ابتسم ابتسامته المعهودة المرة ، ابتسامة مستهزئ متشكك يصر على شكوكه . أنا ، على العكس غضبت - أيها الزميل -قلت له- اعمل المعروف بتجهيز أوراقي كي أعود إلى باريس حالاً . إن لم أستطع أن آكل الطعام الصيني في الصين فإني سآكله في الحي اللاتيني بباريس . فهو هناك ليس بمشكلة .

إن احتجاجي العنيف لاقى نجاحاً ، بعد أربع ساعات وصلنا ونحن مقادان من لدن حاشيتنا العديدة إلى مطعم مشهور يعد منذ خمسمائة سنة طبق البط المصنوع بصمغ اللك ، طبقاً صغيراً لكنه جدير بالذكر والذكرى .

كان المطعم الذي يفتح ليلاً نهاراً لا يبعد أكثر من ثلاثمائة متر عن مطعم فندقنا .

«أشعار القبطان»:

من اتجاه إلى اتجاه في هذه التجوالات ، تجوالات منفي ، وصلت إلى بلد ما كنت أعرفه فتعلمت أن أحبه حباً شديداً : إيطاليا ، لقد بدا لي في هذا البلد كل شيء رائعاً وبخاصة البساطة الإيطالية : الزيت ، الخبز ، الخمر الطبيعي . حتى تلك الشرطة . . . تلك الشرطة التي ما أزعجتني أبداً ولا عاملتني معاملة سيئة قط ، لكنها طاردتني مطاردة لا تتعب ولا تمل ، شرطة وجدتها في الجهات جميعها ، حتى في الأحلام وفي الحساء .

لقد دعاني كُتّاب إيطاليا لقراءة أشعاري فقرأتها في نية حسنة في كل مكان ، في الجامعات ، في المسارح ، في موانئ «جنوا» في فلورنسا ، في قصر «لا لانا» ، في «تورين» ، في البندقية .

كنت أقرأ في متعة لا نهائية أمام قاعات مكتظة بالناس . أحدهم كان يجلس قربي على المنصة ليعيد من بعد ، إنشاد أشعاري مقطعاً مقطعاً ، في لغة إيطالية سامية ، فكان يعجبني سماع أبياتي في هذا البريق الذي تضفيه عليها اللغة الإيطالية الرائعة . لكن ما كان هذا ليعجب الشرطة الايطالية كما هو يعجبني . في القشتالية ، جواز مرور ، بينما في الإيطالية كان ثمة نقاط ومسائل شرف . إن مدائح السلام وهي كلمة محرمة عند «الغربيين» . والأفدح من هذا أن اتجاه شعري نحو تمجيد النضال الشعبي ، كان يؤدي إلى نتائج خطيرة .

كانت مجالس البلديات قد ربحتها في الانتخابات الأحزاب الشعبية ، ولهذا فإنهم استقبلوني في هذه المجالس الفخمة الفاخرة ضيف شرف عليها . كثيراً من المرات كانوا يُعيِّنونني عين المدينة : فأنا مواطن شرفي في ميلان ، في فلورنسيا ، في جانوا . قبل إنشادي أو بعده كان المستشارون يضعون لي أوسمتهم . كان يجتمع في القاعة مواطنون أعيان وأرستوقراطيون وأساقفة . كانوا يشربون نخبي كؤوس شمبانيا ، وكنت أشكرهم على هذا باسم وطني البعيد النائي . كنت أهبط درجات القصور الفخمة لمجالس البلديات بين العناق والتقبيل . في الشارع كانت الشرطة تنتظرني فلا تتركني لحظة لا في الشمس ولا في الظل[1] .

أما ما حدث في البندقية فقد كان سينمائياً . ألقيت قصائدي في القاعة كما هي عادتي في إيطاليا . عينت مرة أخرى مواطن شرف ، لكن الشرطة كانت تريد أن أذهب من المدينة حيث ولد وتعذب (ديسديمونا) ، لقد ربض رجال الشرطة ليلاً نهاراً على أبواب الفندق .

جاء صديقي القديم (فيتوريو فيدالي) «الرائد كارلوس» من «تريستا» ليسمع أشعاري . وصاحبني كذلك في المتعة الخالدة بالتجوال عبر القنوات ، فكنا نرى ونحن في الجندول القصور الرمادية الساحرة . أما بالنسبة للشرطة فإنها حاصرتني أكثر مما تحاصرني من قبل . فلقد كان رجال الشرطة يمشون مباشرة خلفنا ، على بعد مترين . حينذاك قررت أن أهرب كما فعل (كازانوفا) من هذه المدينة التي كانت تريد أن تضيق عليّ الخناق . خرجنا منطلقين جرياً ، أنا و(فيتوريو فيدالي) والكاتب الكوستاريكي (خواكين غوتييريث) الذي كان هناك صدفة ، وعلى أثرنا انطلق الشرطيان . في سرعة توصلنا إلى أن نركب في الجندول الآلي الوحيد بالبندقية ، جندول رئيس البلدية[2] الشيوعي . لقد خدّد جندول السلطات البلدية مياه القناة ومخر مسرعاً فيما السلطات الأخرى كانت تجري كما الأيائل السمر بحثاً عن زورق آخر إلى أن عثرت عليه . كان الزورق الذي ركبناه واحداً من هذه القوارب الرومانطيكية الكثيرة ذات المجذاف المدهونة باللون الأسود ، وذات الزخارف الذهبية

---

(١) لا في الشمس ولا في الظل : تعبير إسباني يشبه التعبير العربي ، لا في الحر ولا في القر .

(٢) رئيس البلدية : في الأصل Alcalde ، وهي الكلمة العربية القاضي ، وكان القاضي في الأندلس يقوم بمهام رئيس البلدية كذلك .

التي يستعملها العشاق في البندقية . كان زورقهم يطاردنا من على بعد وبدون أمل كما بطة تلاحق دخساً بحرياً .

في نابولي هذه المطاردات استعجل بها وكانت على نحو آخر . وصل رجال الشرطة إلى الفندق حيث كنت أبيت في وقت ليس هو بالمبكر إذ إنه في نابولي لا أحد يعمل مبكراً ولا حتى رجال الشرطة . احتجوا بخطأ في جواز السفر ورجوني أن أرافقهم إلى مديرية الشرطة . هناك قدموا لي قهوة «ايكسبريس» وأخبروني بأني يجب أن أغادر الأراضي الإيطالية في اليوم نفسه .

لم يفدني بشيء حبي لإيطاليا .

- إن الأمر لا بد أن يكون خطأ- قلت لهم .

- لا شيء من هذا القبيل ، إنا لنأسف كثيراً ، لكن عليك أن تغادر البلد حالاً .

ثم بشكل غير مباشر وبطريقة زائغة أخبروني أن سفارة تشيلي هي التي طلبت طردي من إيطاليا .

كان القطار سيخرج في المساء . كان أصدقائي قد خفوا قبلي إلى محطة القطار لتوديعي . قبل . زهور . هتافات . (باولو ريكيثي) ، آل (اليكاتا) . آخرون كثيرون . Arivederci : مع السلامة ، مع السلامة .

لقد أسرف رجال الشرطة الذين كانوا يرافقونني في رحلتي القطارية المتجهة إلى روما في اللطف والكياسة . لقد رفعوا لي حقائبي ووضعوها كما يجب واشتروا لي صحيفة 'L'Unite وصحيفة El Paise Sera ولا بأي شكل صحيفة من الصحف اليمينية . كانوا يطلبون مني أن أعطيهم صوراً لهم ولأقربائهم . أبداً ما شاهدت في حياتي شرطة أكثر رقة ولطافة من الشرطة الإيطالية .

- إنا لنتأسف لهذا الأمر كثيراً يا صاحب السعادة فنحن أرباب عائلات فقيرة وعلينا أن نطيع الأوامر ، إنه لشيء مقرف . . .

في محطة روما ، حيث كان عليّ أن أغيِّر القطار لأواصل سفري نحو الحدود ، لمحت من نافذة القطار جمهرة غفيرة من الناس . سمعت هتافات ، لاحظت حركات غامضة وعنيفة . حزم كبيرة من الزهور كانت تسير نحو القطار مرفوعة فوق نهر من الرؤوس .

- بابلو! بابلو!

حين نزلت من القطار وأنا محروس في أناقة ، صرت حالاً وسط وطيس معركة

هائلة . فلقد اختطفني من أيدي رجال الشرطة كتّاب وكاتبات ، صحفيون ، نواب ، حوالي ألف من الأشخاص الهاجمين . رجال الشرطة من جهتهم تقدموا في عملية معاكسة واسترجعوني من أذرع أصدقائي . لقد ميزت في تلك اللحظات المأساوية بعض الوجوه الشهيرة : (ألبرتو مورافيا) وزوجته : (إيلسا مورانتي) روائية مثله ، الرسام المشهور (رينانو غوتوسو) ، شعراء آخرين ، رسامين آخرين . . . كان المؤلف المعروف (كارلو ليفي) مؤلف «المسيح توقف في ايبولي» يناولني باقة من الزهور ، لكن الزهور كانت تتساقط متبعثرة على الأرض ، كانت تطير قبعات ومظلات ، كانت ترن صفعات ولكمات ولكزات كأنها الانفجارات . كان رجال الشرطة ينالون من هذا كله النصيب الأكبر والقسم الأسوأ ، وشن أصدقائي حملة معاكسة واستردوني . أثناء المناوشة والاشتباك استطعت أن أرى وجه الحلوة (ايلسا مورانتي) وهي تضرب بقبعتها الحريرية على رأس أحد رجال الشرطة . ثم أخذت تمر العربات التي تأخذ وتجلب الحقائب في محطة القطار ، وإذ بواحد من هؤلاء الحمّالين ذوي المرسات الغليظة Facchino يهوي بهراوته ضرباً على ظهور القوة البوليسية ، لقد كان هذا تعبيراً عن تضامن الشعب الرومي[1] معي . لقد احتدم النزاع وصارت المعركة عويصة شائكة إلى درجة أن رجال الشرطة قالوا لي على حدة :

- تكلم مع أصدقائك . قل لهم بأن يهدأوا . . .

كانت جمهرة الناس تهتف :

نيرودا يبقى في روما . نيرودا لن يغادر إيطاليا . فليبق الشاعر ، فليبق التشيلي ، فليرحل النمساوي . («النمساوي» هو (دي غاسبري) رئيس وزراء إيطاليا) .

بعد نصف ساعة من الحرب السجال والهجومات المضادة وصل أمر سام من السلطات العليا بالسماح لي في البقاء بإيطاليا ، فعانقني أصدقائي وقبلوني فابتعدت عن تلك المحطة وأنا أدوس في أسى تلك الزهور المتناثرة ضحايا المعركة .

لقد أصبحت أصبوحة اليوم التالي في دار أحد النواب ، المتمتع بالحصانة البرلمانية ، حيث أخذني إليه الرسام (ريناتو غوتوسو) الذي لم يثق بالكلمة الحكومية . هناك وصلتني برقية من جزيرة «كابري» بعثها المؤرخ الشهير العظيم (ايروين ثيريو) الذي لم أكن أعرفه شخصياً . كان يعبر في هذه البرقية عن أنه شعر بالإهانة إزاء هذا

---

(١) الرومي : نسبة إلى روما .

العمل الشائن والاستخفاف بالتقاليد الإيطالية وثقافة إيطاليا ، وانتهى قائلاً بأنه يقدم لي «فيلا» بكابري نفسها كي أقضي فيها ما شئت من الوقت لعله بذلك يزيل شيئاً مما لحقني من حيف في بلده .

لقد كان كل شيء يبدو وكأنه حلم من الأحلام . وحين وصلت إلى كابري في صحبة (ماتيلده أوروتيا) صار الإحساس اللاواقعي بالأحلام أكبر وأعظم .

وصلنا ليلاً وفي فصل الشتاء إلى هذه الجزيرة البديعة . في الظل كان الشاطئ يمتد أبيض عالياً ، غريباً صامتاً ، ماذا سيجري؟ ماذا سيجري لنا؟ كانت تنتظرنا هناك عربة خيل . صعّدت العربة وصعّدت عبر الشوارع الليلية الخلاء ، بيوت بيضاء خرساء ، أزقة ضيقة شاقولية . أخيراً توقف الحوذي ، أنزل حقائبنا ووضعها في تلك «الفيلا» ، كذلك بيضاء وعلى ما يبدو خاوية فارغة .

حين ولجنا الدار رأينا النيران وهي تتوهج في المدفأة الكبيرة . على ضوء الشمعدانات المضاءة رأينا هناك رجلاً طويلاً أبيض الشعر واللحية والبذلة . كان هذا هو السيد (إيروين ثيريو) صاحب نصف جزيرة كابري ، وهو مؤرخ وعالم في التاريخ الطبيعي . كان وسط اللهب شامخاً كأنه طيف (تايتا) إله الحكايا الطفولية .

كان له ما يقرب من تسعين سنة من العمر وكان أكثر الرجال شهرة في الجزيرة .

- إن هذه الدار دارك وتستطيع أن تكون هنا مطمئناً مرتاحاً .

غاب عدة أيام لم يكن يزورنا ذوقاً وأدباً وكياسة ، بل كان يرسل لنا رسائل صغيرة مختزلة جداً فيها نصائح وزهرة أو ورقة من حديقة داره . لقد مثل لنا (إيروين ثيريو) قلب إيطاليا الفسيح العميق الكريم النبيل .

من بعد تعرفت على مؤلفاته ، على كتبه التي هي أكثر صحة من كتب (إليكس مونثي)[1] ولو أنها أقل شهرة . كان العجوز النبيل (ثيريو) يعيد في مزاح ودعابة :

- إن عمل الإله النموذجي هو ساحة جزيرة «كابري» .

لقد كنا : أنا و(ماتيلده) ، ننطوي على حبنا . كنا نقوم بجولات عبر «أناكابري» للجزيرة الصغيرة المجزأة إلى ألف بستان وبستان ، بريق طبيعي كتب عنه الكثير وفعلاً هو بريق طاغ غريب . بين الصخور ، حيث تسوط الشمس والريح ، عبر الأرض

---

(١) إليكس مونثي : كاتب وطبيب سويدي (١٨٥٧-١٩٤٩) .

الجافة، تنفجر نباتات وتنبثق زهور صغيرة، تنمو متناسقة في إطار تأليف موسيقي حدائقي. إن لجزيرة «كابري» العميقة هذه التي يطوف بها المرء بعد حج طويل، وبعد أن تسقط عن ملابسه إشارة سائح، جزيرة «كابري» الشهيرة بصخورها ودواليها الصغيرة، وبأناسها المتواضعين العاملين، لسحراً أخاذاً. ها هو المرء ينصهر في ذات واحدة والأشياء والناس. ها هو المرء يعرفه الحوذيون والصيادون. ها هو المرء يشكل جزءاً من «كابري» الخفية الفقيرة. ها هو المرء يعرف أين النبيذ الجيد الرخيص وأين يشتري الزيتونات التي يأكل مثلها أهالي «كابري».

إنه لمحتمل أن خلف أسوار القصور المليئة بالندماء تدور الشرور والكأس والطاس والخلاعة والقمار، الأشياء الروائية التي تقرأ في الكتب، لكنني شاركت في حياة سعيدة في عزلة كاملة أو بين أكثر الناس بساطة في العالم، إنه لزمن لا ينسى. كنت أنظم في كل صباح وفي المساء كانت (ماتيلده) تنسخ على الآلة الكاتبة ما أكتبه من قصائد. لأول مرة كنا نحيا معاً في دار واحدة. لقد نما حبنا وزاد في ذلك المكان ذي الجمال المدهش المسكر. لم نعد نستطيع أن نفترق أبداً.

هناك أنهيت كتاب حب. كتاباً مفعماً بالعاطفة والألم، طبع في ما بعد بنابولي في شكل مغفل التوقيع: «أشعار القبطان».

والآن سأروي لكم حكاية هذا الكتاب. هو من بين كتبي أكثرها بعثاً للمجادلة والمناقشة فيه وحوله. لقد بقي زمناً طويلاً سراً لا تسبر له أبوّة ولا نسب، ظل زمناً طويلاً وهو لا يحمل اسمي على غلافه كما لو أني كنت أتبرأ منه أو أن الكتاب نفسه ما كان ليعرف من هو أبوه الذي خلّفه. كما أن هناك أبناء غير شرعيين طبيعيين، أبناء الحب الطبيعي، كذلك كان كتابي هذا ابناً طبيعياً لا شرعياً.

إن القصائد التي يتضمنها هذا الكتاب نظمت هنا أو هناك، على مدى منفاي في أوروبا. ثم نشرت بشكل مغفل في نابولي عام ١٩٢٥. إن حبي لـ(ماتيلده)، حنيني إلى تشيلي، عواطفي ومشاعري، تملأ صفحات هذا الكتاب الذي حافظ على نفسه دون اسم صاحبه في طبعات كثيرة.

لطبعته الأولى، حصل الرسام (باولو ريكشي) على ورق جدير بالإعجاب وعلى نماذج حروف قديمة للطباعة، وعلى نقوش أخذها عن كؤوس من «بومباي». لقد أعد (باولو) كذلك في حماسة أخوية قائمة المشتركين، ولم يطل الوقت حتى ظهر المجلد الأول الجميل ولم يطبع منه حينذاك أكثر من خمسين نسخة. فاحتفلنا لهذه المناسبة

احتفالاً استغرق كثيراً من الوقت ، أعددنا مائدة مزهرة عليها Frutti di mare واحتسينا نبيذاً شفافاً كالماء ، الابن الوحيد لدوالي «كابري» . يصحبنا فرح الأصدقاء الذين أحبوا حبنا .

لقد عزا بعض النقاد المرتابين إلى أسباب سياسية ظهور هذا الكتاب بلا توقيع . «الحزب قد عارض ، الحزب لم يقر قصائد هذا الكتاب» قالوا إن حزبي لا يعارض أبداً أي تعبير عن الجمال .

الحقيقة الوحيدة هي أنني ما شئت ، خلال زمن طويل ؛ أن تجرح هذه القصائد شعور (ديليا ديل كارّيل) زوجتي التي كنت أنفصل عنها . لقد كانت (ديليا) ، وهي عابرة ناعمة جداً في حياتي ، خيطاً من فولاذ وحرير ربط يدي خلال الأعوام الرنانة الصاخبة ، وخلال ثماني عشرة سنة كانت لي الرفيقة المثالية . كان هذا الكتاب ذو الهوى الجارف المتأجج سيهوي كما الحجر المقذوف على بنائها الطري الهشّ . لقد كانت هذه وليست أخرى هي الأسباب العميقة ، الشخصية ، المحترمة لإغفالي ذكر اسمي على الكتاب الغفل .

ثم شب الكتاب ولو أنه بلا اسم ولقب وغدا رجلاً ، رجلاً طبيعياً وقيماً . لقد شق له درباً في الحياة فكان عليّ في نهاية الأمر أن أعترف به ابناً . ها هو الآن يمضي عبر الطرقات ، أي ، عبر المكاتب والمكتبات ، ها هو ديواني «أشعار القبطان» يحيا موقعاً عليه بتوقيع القبطان الحقيقي .

نهاية المنفى:

لقد اقترب منفاي من نهايته عام ١٩٥٢ ، وصلنا عبر سويسرا إلى «كان» Cannes كي نركب باخرة إيطالية تقلنا إلى «مونتيبيديو» ، هذه المرة ما كنا نريد أن نرى أحداً في فرنسا . ما أخبرت بمرورنا إلا (أليس غاسكار) ، مترجمتي وصديقتي لزمن طويل ، غير أنه كانت تنتظرنا في «كان» حوادث غير متوقعة .

لقد التقيت في الشارع ، قرب شركة السفريات البحرية ، بـ(بول إلوار) وبزوجته (دومينيك) ، كانا قد علما بوصولي فانتظراني عند باب الشركة كي يدعواني للغداء الذي سيحضره (بيكاسو) . من بعد التقينا بالرسام التشيلي (نيميسيو انتونيث) وزوجته (اينيس فيفيروا) اللذين دُعيا كذلك .

كانت هذه هي المرة الأخيرة التي رأيت فيها (بول إلوار) . إني لأذكره وهو تحت

أشعة شمس «كان» ببذلته الزرقاء التي تبدو وكأنها بيجاما . لن أنسى أبداً وجهه الملوح المتورد ، عينيه الزرقاوين ، ابتسامته الفتية دائماً تحت الضوء الأفريقي في شوارع «كان» المتلألئة . لقد جاء (إلوار) من «سينت-ترويث» كي يودعني ، أحضر (بيكاسو) وأعدّ الغداء ، كانت الحفلة مسلحة .

حادث غبي غير متوقع خرب لي اليوم كله . لم يكن في جواز سفر (ماتيلده) تأشيرة دخول إلى الأورغواي . فكان لا بد من اللجوء إلى قنصلية هذا البلد . اصطحبتها في سيارة تكسي وانتظرت عند باب القنصلية . ابتسمت (ماتيلده) متفائلة حين خرج القنصل لاستقبالها . كان يبدو أنه شاب طيب . كان يدندن بأنغام Madame Butterfly ويرتدي ما هو ليس بقنصلي : قميصاً داخلياً وسروالاً قصيراً Short هي ما كانت لتتصور أنه خلال مجرى الحديث سيتحول هذا النموذج El Tipo إلى مزعج رخيص تافه حقير . لقد أراد بمظهره مظهر Pinkerton أن يقبض أجرة ساعات إضافية فوضع أمامها أنواع العراقيل كلها . فاحتفظ بنا في سباق[(١)] طيلة الصباح كله . كان طعم Bouillabaise خلال الغداء مثل طعم المرارة في فمي . عدة ساعات كلف (ماتيلده) الحصول على التأشيرة . كان Pinkerton هذا يضع لها في كل لحظة قيوداً وعراقيل : أن تتصور ، أن تغير الدولارات فهو لا يقبض إلا فرنكات ، أن تدفع تكاليف المكالمة الهاتفية مع مدينة «بوردو» . ارتفعت التعريفة[(٢)] إلى أكثر من مائة وعشرين دولاراً ثمن تأشيرة عبور كان من المفروض أن تمنح مجاناً . لقد بلغ بي التفكير إلى أني كنت أخشى أن تفقد (ماتيلده) الباخرة وفي هذه الحالة أنا كذلك لن أركب الباخرة . لزمن طويل اعتبرت ذلك اليوم أكثر الأيام مرارة في حياتي .

علم وصف المحيطات المختلفة:

إني لعاشق البحر . منذ سنين عديدة وأنا أجمع معارف لا تفيدني كثيراً لأني أبحر فوق الأرض .

هأنذا أعود إلى تشيلي ، إلى بلدي المحيطي وتقترب سفينتي من سواحل أفريقيا .

---

(١) في سباق : تعبير إسباني يشبه التعبير العربي ، الحبل على الغارب .

(٢) التعريفة : هكذا في الأصل la Tarifa ، عن العربية .

لقد عبرت أعمدة «هرقل» القديمة[١] ، اليوم هي مدرعة هذه الأعمدة ، في خدمة الإمبريالية قبل الأخيرة .

أنظر إلى البحر نظرة مجردة عن المنفعة ، نظرة عالم المحيطات النقي الطاهر الذي يعرف السطح والعمق ، بلا لذة أدبية ، بل بتذوق المكتشف ، بمذاق العالم الدارس .

لقد أعجبتني دوماً القصص البحرية وعندي شبكة منها في رفوف داري . أكثر كتاب أعود إليه للمراجعة هو كتاب لـ(وليم بيبب)[٢] أو بحث يصف الحلازين البحرية في بحر الشمال .

إن ما يهمني هي مجموعة الأحياء البحرية ، هذا الماء الغذائي الهبائي الكهربائي الذي يصبغ البحار بلون برق بنفسجي . هكذا توصلت إلى معرفة أن الحيتان تتغذى من هذا النماء البحري المتكاثر الذي لا حصر له . إن نباتات صغيرة جداً ونقاعيات وهمية تعمر قارتنا الراعشة الراجفة . الحيتان تفتح أشداقها الهائلة فيما تنزاح ، تتزحزح ، رافعة ألسنتها حتى الحلق الأعلى كي تملأها هذه المياه الحية ذات الأحشاء وتغذيتها . هكذا يغتذي الحوت الأخضر الزاهر Bahiametas Claucas الذي يمخر باتجاه جنوب المحيط الهادي نحو الجزر الساخنة الدافئة ، قبالة نوافذ داري في «إيسلا نيغرا» .

من هناك يعبر كذلك الدرب سمك «البربيس» المهاجر ، أو الحوت ذو الأسنان ، وهو أكثر الحيتان المطاردة «تشيلية» . لقد زخرف البحارة التشيليون عالم البحر الفولكلوري بهذا النوع من الحيتان . فقد نقشوا بالسكين في أسنانها قلوباً وسهاماً ، أنصاب حب صغيرة ، صوراً طفولية لزوارقهم الشراعية ولخطيباتهم . لكن حوتنا الأخضر الزاهر الذي يمخر ، باتجاه الجنوب ، يعبر المضيق ورأس «أورنوس» El Cabo de Hornos وبحر الشمال وأوبئته ، ليس في بساطة كي يفرك حنك سمك «البربيس» المهدد بل لكي يسلب منه كنزه الشحمي ، وأكثر من هذا كي يخطف منه كيسه العنبري[٣] الرمادي الذي يخبئه هذا الحيوان الضخم في جبله الجوفي ، وما من حيوان غيره له مثل هذا الكيس الغني .

---

(١) أعمدة هرقل القديمة : هي أعمدة قرب مضيق جبل طارق الذي يحتله الامبرياليون البريطانيون .

(٢) وليم بيبب : هو عالم الطبيعة ، الأمريكي الشمالي (١٨٧٧-١٩٦٢) .

(٣) عنبر : هكذا في الأصل Ambar ، عن العربية .

هأنذا آتي الآن من جهة أخرى . لقد خلفت ورائي آخر معبد أزرق في البحر الأبيض المتوسط ، كهوف جزيرة «كابري» وضواحيها البحرية وتحت البحرية حيث كانت عرائس البحر يخرجن كي يسرحن شعرهن الأزرق فوق الصخور ، لأن حركة البحر كانت قد صبغت وضمخت ضفائر شعرهن المجنونة .

لقد استطعت أن أشاهد في مماهة «نابولي» الذرات الكهربائية للأجهزة العضوية الربيعية ، صعود وهبوط السعلاة المصنوعة من دخان وفضة ، تهتز تتماوج في رقصها العذب الجليل ، مكتنفة من الداخل بالحزام الكهربائي الوحيد الذي ما وضعته حتى الآن أية سيدة من سيدات الأعماق البحرية إلاّها .

منذ سنين كثيرة ، في «ماداس» بالهند المتجهمة لشبابي ، زرت مماهة رائعة . ما زلت حتى الآن أذكر تلك الأسماك الصقيلة البراقة ، الأسماك البنية السامّة ، مجموعات الأسماك المرتدية حرائق وأقواس قزح ، وأكثر من هذا وذاك ، الإخطبوطات الجدية الرزينة جداً ، المعدنية كأنها آلات حاسبة ، بعيون لا حصر لها ، بأطراف وأرجل لا عد لها ، برياح شديدة ، بمعارف كثيرة .

من ذاك الأخطبوط الكبير الذي عرفناه جميعاً لأول مرة في كتاب «عمال البحر» لـ(فيكتور هوغو)[1] أن (فيكتور هوغو هو كذلك أخطبوط الشعر الضخم المتعدد النغمات) ، من ذاك النوع ما استطعت أن أرى غير قطعة ذراع في متحف التاريخ الطبيعي بـ«كوبنهاغين» . هذا ، أجل ، كان «كراكين» القديم ، رعب البحار القديمة ، كان يمسك بشراع فيطويه طياً ويمزقه إرباً يرفعه فوقه ، يخترقه ويشربكه . قطعة الذراع التي رأيتها أنا محفوظة بالكحول في المتحف كانت تشير إلى أن طول ذاك الأخطبوط كان يتعدى ثلاثين متراً .

لكن الحيوان الذي كنت أبحث عنه في إصرار واستمرار هو أثر كركدن البحر أو بالأحرى جسده . نظراً لأن أصدقائي كانوا لا يعرفون هذا الكركدن البحري وحيد القرن الهائل في بحار الشمال ، صرت أشعر أني مخزن وحيد للكركدن ، إني أنا نفسي كركدن بحري .

هل يوجد الكركدن؟

هل من الممكن أن حيواناً بحرياً مسالماً يحمل في جبينه حربة من العاج بطول

---

(١) فيكتور هوغو Victor Hugo : الكاتب الفرنسي المعروف (١٨٠٢-١٨٨٥) .

أربعة أو خمسة أمتار مخددة مثلومة على مدى طولها ، على غط حربة النبي سليمان ، منتهية بثقب ، يمر دون أن ينتبه إليه ملايين البشر ، ولا أن يعرفوا حتى أسطورته ولا حتى اسمه الرائع؟

عن اسمه أستطيع القول - Narval أو Narwhal[1] إنه أبدع اسم من أسماء حيوانات أعماق البحار ، اسم كأس بحرية تتغنى ، اسم صيصة زجاجية .

لماذا إذن لا أحد يعرف اسمه؟

لماذا ليس هناك آل «نارفال» ، دار جميلة باسم «نارفال» وأكثر من هذا ، لماذا ما من أحد يدعى «نارفال راميريث» أو «نارفالا كارفاخال»؟

ليس ثمة من هذا شيء . إن وحيد القرن البحري يظل في سره ، في تياراته ذات الظلال عابرة البحار ، في سيفه العاجي الطويل الغارق في لجة المحيط المجهول .

لقد كان صيد وحيدي القرن في العصر الوسيط رياضة صوفية وجمالية . لقد بقي وحيد القرن الأرضي إلى الأبد باهراً ساحراً ، في السجاجيد ، تحيط به السيدات المرمريات الرخاميات ذوات الأبهة والشعر المسترسل ، وتكلله في جلالته الطيور المزغردة الصداحة كلها .

أما بالنسبة لوحيد القرن البحري فإن السلاطين في العصور الوسيطة كانوا يتهادون قطعة من جسمه الرائع البديع ، من هذه القطعة كانوا يكشطون غباراً وفتاتاً يحلونها في سوائل خاصة يشربونها فتمنحهم حلم الإنسان الخالد ألا وهو الصحة والشباب والقوة .

بينما كنت شارداً ذات مرة في الدانيمارك ، دخلت إلى حانوت قديم يبيع تحف التاريخ الطبيعي ، هذه السلع المجهولة في قارتنا الأمريكية ، والتي هي بالنسبة لي تحتوي على سحر الأرض كله . هناك اكتشفت وهي مهملة في زوايا الحانوت ، ثلاثة أو أربعة قرون من الكركدن البحري ، أكبر هذه القرون كان يقيس تقريباً خمسة أمتار . فتناولتها وبقيت ألمسها وأداعبها خلال فترة من الوقت .

كان صاحب الحانوت العجوز يراني وأنا أشهر هذه الحربة العادية وأقوم بطعنات وهمية ، ضد طواحين البحر غير المرئية . من بعد كنت أتركها ، كل واحد أضعه في زاويته . ما استطعت أن أشتري إلا قرناً صغيراً لكركدن حديث الولادة من هذه التي

---

(١) كلمتان من أصل سويدي .

تخرج أحياناً لتسبر سطح المياه الشمالية الجليدية بمقدمة قرنها البريء .
وضعته في حقيبتي ، لكن في نزل صغير بسويسرا ، أمام بحيرة «ليمان» احتجت أن أرى ذلك الكنز السحري لوحيد القرن البحري وأن ألمسه فأخرجته من حقيبتي .
الآن لا أجده .
هل تركته في نزل «فيسيناث» أو أنه تدحرج في آخر لحظة تحت السرير؟ أم أنه عاد في شكل سحري ليلي إلى الدائرة القطبية؟
هأنذا أنظر إلى الأمواج الصغيرة ليوم جديد في المحيط الأطلسي .
تدع الباخرة على كل ضلع من قيدومها مزقاً بيضاء ، زرقاءن كبريتية من مياه ، من أزباد ، من مهاو مهتزة .
إنها أبواب المحيط ترتجف ، تضطرب .
من فوق القيدوم تطير الأسماك الصغيرة الصاروخية الفضية الشفافة .
هأنذا أعود من منفاي .
أنظر إلى المياه مستغرقاً متأملاً . أبحر فوقها نحو مياه أخرى : أمواج وطني المعصوصفة .
سماء يوم طويل تغطي المحيط كله .
سيحل الليل عما قريب ومع ظله سأخبئ مرة أخرى قصر اللغز الأخضر الكبير .

الفصل العاشر
إبحار مع إياب

خروف في داري:

لقد جاء قريب لي كان نائباً في البرلمان ليقضي بضعة أيام في داري بـ«إيسلا نيجرا» بعد أن فاز في انتخابات برلمانية جديدة. هكذا تبدأ حكاية الخروف.

فما إن درى بذلك أكثر منتخبيه حماسة حتى خفوا للاحتفال به وتكريمه. في أمسية أول يوم من أيام هذه الاحتفالات أتوا بخروف وشووه على طريقة أرياف تشيلي، بصلاء في الهواء الطلق وسفود يسلك في جوف هذا الحيوان من أوله إلى آخره، ولهذا فإن هذه الطريقة من الشيّ تدعى «الشيّ على السفُّود»، ويشربون عادة، فيما همن يسلخون منه فيأكلون، كثيراً من النبيذ ويعزفون على القيثارة النواحة الصداحة.

وكان لديهم خروف آخر ينتظر مصير أخيه، أبقوه إلى أمسية اليوم التالي، فقيدوه قرب نافذتي. طيلة الليل كان يئن ويبكي، يثغو ويشكو من وحدته. كان يمزق قلبي سماع صيحاته وأنّاته فقررت أن أنهض وأن أخطفه وأسرقه.

وضعته في سيارة وأخذته معي إلى داري في «سانتياغو» التي تبعد عن «إيسلا نيغرا» مائة وخمسين كيلومتراً، فهناك لن تطاله السكاكين، ما إن أطلقت سراحه حتى راح يقضم في نهم شديد أفضل أعشاب حديقة داري. استهوته زهور الخزامى فحصدها ولم يبق منها شيئاً حياً. لم يجرؤ على تذوق الورود لأسباب شوكية لكنه انقض على زهور الخيري[1] والزنابق فالتهمها في لذة غريبة. لم يكن بد من أن أربطه مرة أخرى وأقيده، فجعل يثغو محاولاً أن يؤثر بي ويثير شجوني كيما أرقّ له كما فعلت من قبل، فبقيت حائراً لا أدري ما أفعل.

---

(١) الخيري: هكذا في الأصل Aleli، وتكتب كذلك Alheli، وهذه الكلمة يستعملها (فيديريكو غارثيا لوركا) كثيراً، وقد أعددنا كتاباً عن الموضوع العربي والكلمات العربية عند (لوركا).

الآن سوف ترتبط قصة (خوانيتو) بحكاية الخروف. حصل أنه في ذلك الوقت قام الفلاحون في جنوب تشيلي بإضراب عنيف استطاع الإقطاعيون الذين ما كانوا يدفعون أكثر من عشرين «سنتيما» في اليوم لكل فلاح يعمل عندهم، أن ينهوه بواسطة القمع والضرب والحبس والاضطهاد.

شعر شاب فلاح شارك في الإضراب بخوف شديد جعله يقفز إلى قطار كان يسير مسرعاً. هذا الفتى الشاب يدعى (خوانيتو)، وكان كاثوليكياً مؤمناً وما كان يعرف عن أمور العالم شيئاً. حين مر جابي القطار ليفتش تذاكر السفر ووصل إليه أجابه الفتى بأنه ليس لديه أية تذكرة وأنه متجه إلى العاصمة، وأنه كان يظن أن القطارات هي كي يركب فيها من شاء السفر من الناس، مجاناً. حاول الجابي إنزال الفتى من القطار لكن المسافرين بالدرجة الثالثة -أناس من الشعب، كرماء دائماً- قاموا في ما بينهم بحملة جمع للنقود ودفعوا ثمن تذكرة الفتى.

مشى (خوانيتو) عبر شوارع العاصمة وساحاتها وتحت إبطه حزمة من الملابس أتى بها من قريته. بما أنه لم يكن يعرف أحداً من سكان العاصمة، فهو لم يشأ أن يكلم من الناس أحداً. فقد كان يسمع وهو في قريته أن سكان العاصمة هم لصوص في أكثريتهم، فكان يخشى أن ينزعوا عنه قميصه وأن يخطفوا منه نعليه المصنوعين من القنّب، واللذين كان يحملهما تحت إبطه وقد لفهما بجريدة عثر عليها في ناصية أحد الشوارع. كان الفتى يشرد خلال النهار في الشوارع الأليفة المكتظة بالناس الذين هم على عجل، يسيرون دوماً يتعرقلون به أو يدفعونه فلا يدري أين يسير، ويستغربون لهذا Caspar Hauser[1] الذي هوى من كوكب آخر. أما في الليل فإنه كان يبحث أيضاً عن أكثر الأحياء أحياء، شوارع الحانات والكهوف الليلية، فكان حضوره هناك يبعث على الاستغراب والاستهجان. فمن هو هذا الراعي الشاحب الوجه التائه بين السكارى والآثمين. لم يكن له سنتيم واحد يشتري به ما يسد رمقه، صبر وكابد إلى أن هوى ذات يوم فاقد الوعي من جوع ومن حسرة.

أحاط بالفتى الملقى على رصيف الشارع حشد كبير من محبي الاستطلاع ثم حملوه وأدخلوه إلى مطعم صغير قريب من هناك وتركوه كما كان مطروحاً ملقياً. «إنه القلب» قال بعضهم، «بل هو إغماء كبدي» قال آخر، اقترب صاحب المطعم منه

---

(١) غاسبر هاوسير: هو أمير «بادن» Baden الذي سجن منذ أن ولد حتى عام ١٨٢٨ (١٨١٢-١٨٣٣).

ونظر إليه فقال : «إنه الجوع» . ما إن أكل بضع لقمات حتى استعادت تلك الجثة أنفاسها واستردت الحياة . استخدمه صاحب المطعم عنده في غسل الصحون والأواني وكان يودّه ويحبه . وكان لهذا الود أسباب إذ إن الفتى كان يبتسم دائماً وهو يغسل جبالاً من الأطباق والملاعق . كان يشعر أن الأمور تجري على ما يرام فهو الآن يأكل أكثر مما كان وهو في قريته .

لقد شاءت الصدف أن يجتمع في داري الراعي والخروف معاً .

طاب للراعي ذات يوم أن يتعرف على المدينة فقادته خطاه إلى ما هو أبعد من جبال الصحون والأواني تلك ، فاجتاز في لهفة شارعاً ثم عبر في شوق ساحة فشارعاً فساحة ، وكان كل ما يراه يفتنه ويخلب لبه ، وحين أراد العودة إلى مطعمه لم يعد يعرف من أين يتجه ، لم يكن قد سجل عنوانه لأنه لا يعرف الكتابة ، فبحث عبثاً عن ذاك الباب الذي حضنه وأكرمه وأطعمه فما استطاع أن يجد إليه سبيلا .

قال له أحد المارة وقد رق لحاله وحزن لحيرته إن عليه ان يتوجه إلى الشاعر (بابلو نيرودا) . ليست أدري لماذا أوحى إليه بهذه الفكرة . قد يكون لأن الناس في تشيلي عندهم ميل غريب بأن يكلفوني بكل ما يخطر على بالهم من أفكار ، وكذلك أن يحملوني مسؤولية كل ما يقع من مصائب . إنها لعادة قومية عجيبة .

وصل ذات يوم الفتى والحيوان الأسير في داري . لم يكن صعباً عليّ أن أقوم بخطوة أخرى فأتكفل بهذا الراعي بعد أن تحملت مشقة التكفل بالخروف غير الضروري . كلفت الفتى بعمل ألا وهو الاعتناء بالحيوان المجترّ كي لا يقضم أزهاري كلها ، بل أن يرعى من حين إلى حين ليشبع نهمه كلأ الحديقة ويدع لي فيها شيئاً من الزهور والورود .

لقد تفاهم الراعي والخروف تفاهماً كاملاً ، فوضع الفتى لخروفه منذ اليوم الأول للأمان والضمان حبيلاً في عنقه كان يقوده به من مكان إلى آخر ، كان الخروف يأكل بلا هوادة والراعي لا يقصر هو الآخر في هذا الشأن ، وكلاهما يسرح عبر الدار كلها حتى في غرف النوم . لقد كان بينهما تكامل تام توصلا إليه بواسطة رحم الأم الأرض وحبل سرّتها الذي يؤاخيهما ، وهو ما يخول الإنسان أن تكون له سلطة أصيلة حقيقية على الحيوان . هكذا انقضت أشهر كثيرة . كلاهما أثرى كنوزه اللحمية ، بخاصة ، المجترّ الذي لم يكن ليقدر أن يرعى كثيراً ، متنقلاً من مكان إلى آخر ، بسبب ما كان له من الإلية وما أصبح له من السمنة . كان يلج أحياناً في رصانة إلى

غرفتي ، ينظر إليّ في غير اكتراث ثم يخرج بعد أن يترك لي على الأرض مسبحة صغيرة من خرز داكن اللون غامق .

انتهى كل شيء حين شعر الفتى الفلاح بحنين إلى قريته فقال لي إنه سيعود إلى أراضيه النائية . كان قراره هذا قد اتخذه في آخر لحظة لأن عليه أن يفي بنذر إلى مريم العذراء بقريته . ما كان يستطيع أن يأخذ أخاه الخروف معه فتودّعا في حنان . ركب الفتى الراعي القطار ، ولكن هذه المرة بتذكرة كان يحملها في يده متباهياً . لقد كان ذاك الرحيل مثيراً للشجون وللدموع .

لم يدع في حديقتي خروفاً بل مشكلة خطيرة أو بالأحرى سمينة . ما العمل مع هذا المجتر؟ من سيعتني به الآن؟ لقد كانت لي مشاغل سياسية كثيرة . كانت داري مخلتة إثر الملاحقات التي جلبها لي شعري المكافح . أخذ الخروف من جديد يثغو ويرسل أناته الشاكية الأليمة .

أغمضت عينيّ وقلت لأختي أن تأخذه . آه وأواه هذه المرة كنت متأكداً من أنه لن ينجو من السفُّود .

من آب عام ١٩٥٢ إلى نيسان عام ١٩٥٧

إن الأعوام التي انقضت من آب عام ١٩٥٢ ونيسان عام ١٩٥٧ لن ترتسم بشكل مفصل في مذكراتي لأني قضيت معظم هذا الوقت في تشيلي ، ولم تقع لي أشياء غريبة ولم أقم بمغامرات يمكن لها ، إن رويتها ، أن تسلي قرائي . غير أني أجد أنه من الضروري سرد بعض الأحداث المهمة التي جرت في هذه الفترة المذكورة . لقد نشرت كتابي «الأعناب والريح» . اشتغلت في همة وإصرار على تهيئة «أناشيد بدائية» و«أناشيد بدائية جديدة» و«كتاب الأناشيد الثالث» . نظمت مؤتمراً قارياً للثقافة انعقد في «سانتياغو» وحضره أدباء وكتاب مشهورون جاءوا من أمريكا كلها . احتفلت كذلك في «سانتياغو» بعيد ميلادي الخمسين بحضور كتّاب مهمين قدموا من العالم جميعه : من الصين جاء (أي شينغ) و(إيمي سياو) ، من الاتحاد السوفييتي طار قادماً إلي (ايليا ايهرينبورغ) ، ومن تشيكوسلوفاكيا (دريدا) و(كوتفاليك) ، من بين الأمريكيين اللاتينيين جاء (ميغيل انخيل استورياس) و(اوليبيريو خيروندو) و(نوراه لانجه) و(البيو روميرو) و(ماريا روسا اوليبر) و(راوول لارّا) . وآخرون كثيرون . أهديت إلى مكتبة تشيلي مكتبتي الخاصة ومنافع أخرى . قمت برحلة إلى الاتحاد السوفييتي

لأشارك بصفتي عضواً في اللجنة المحلفة التي تمنح جائزة لينين للسلام، التي أنا نفسي كنت قد حصلت عليها في هذه الفترة حين كانت لما تزل تسمى جائزة ستالين. انفصلت نهائياً عن زوجتي (ديليا ديل كاريل). بنيت داراً سميتها «لا تشاسكونا» انتقلت إليها كي أعيش و(ماتيلده اوروتيا) فيها. أسست مجلة «صحيفة تشيلي» وأخرجت منها بضعة أعداد. ساهمت في الحملات الانتخابية وفي نشاطات أخرى قام بها الحزب الشيوعي بتشيلي. نشرت دار النشر «لوسادا»، في بونوس أيريس، أعمالي الكاملة في ورق كورق الكتاب المقدس.

سجين في «بونوس أيريس»

بعد انتهاء هذه الفترة من الزمن دعيت لحضور مؤتمر السلام الذي كان سيعقد في «كولومبو» بجزيرة سيلان، التي عشت فيها منذ زمن بعيد. كان ذلك في نيسان ١٩٥٧.

ليس الالتقاء بالشرطة السرية أمراً خطيراً، لكن إذا كانت هذه الشرطة هي البوليس الأرجنتيني السري فإن اللقاء يأخذ طابعاً آخر، طابعاً لا يخلو من الدعابة ولكنه ذو نتائج مباغتة غير متوقعة. بعد أن وصلت من تشيلي إلى الأرجنتين وفي نيتي مواصلة السفر إلى الأقطار النائية القصية، ذهبت إلى السرير وأنا مرهق جداً وما إن أخذ النوم يسري في أعصابي التعبة حتى اقتحم رجال الشرطة الدار حيث كنت أنام وأخذوا يفتشونها تفتيشاً دقيقاً بطيئاً، نزعوا الكتب والمجلات، خلعوا خزائن الملابس، حشروا أنفسهم في الملابس الداخلية. كانوا قد أخذوا الصديق الأرجنتيني الذي أضافني في بيته، عندما اكتشفوني في الغرفة التي كنت أنام فيها وهي غرفة خافية في عمق الدار.

– من هذا السيد؟ سألوا.

– اسمي (بابلو نيرودا) – أجبت.

– أهو مريض؟ – استقصوا زوجتي.

– أجل، إنه لمريض وتعب جداً من السفر، لقد وصلنا صبيحة هذا اليوم وسنأخذ غداً طائرة تقلنا إلى أوروبا.

– حسناً جداً، حسناً جداً – قالوا ثم خرجوا من الغرفة.

بعد ساعة من الزمن عادوا من جديد ومعهم سيارة إسعاف. احتجت (ماتيلده)

لكن هذا لم يغير شيئاً من الأمور . فقد كانت لديهم تعليمات مشددة بأن يأخذوا جسدي ، تعباً أو طازجاً ، سليماً أو مريضاً ، حياً أو ميتاً .

كانت السماء تمطر تلك الليلة ، قطرات سميكة عنيفة كانت تهطل من سماء «بونوس أيريس» المثقلة بالغيوم الكثيفة . كنت أشعر أني في بلبلة وتشويش وفي هذيان وتخدير . كان الجنرال بيرون قد سقط من الحكم والجنرال (أرامبورو)[1] باسم الديموقراطية أطاح بالاستبداد والطغيان . غير أني غدوت سجيناً دون أن أدري كيف ولِم ومتى وإلى أين ، دون أن أعرف إذا كان السبب لهذا أو لذاك أو لذلك ، الغير سبب أم للأسباب جميعها ، وأنا مريض هالك أو شبه هالك . لقد أصبح سرير سيارة الإسعاف الذي أنزلوني به وأنا محاط بأربعة من رجال الشرطة مشكلة عويصة أثناء نزول الدرج ، صعود الدرج ، العبور بين الممرات ، الصعود بالمصاعد ، الهبوط بالمهابط . كان رجال النقالة يتزحلقون ويعانون كثيراً ، ولكي تزيد (ماتيلده) من معاناتهم فإنها قالت لهم بأني أزن مائة كيلوغرام . وفي الحقيقة كنت أزن هذ الوزن بالمعطف والبطانيات التي كانت تغطيني من أخمص قدمي حتى رأسي . لقد كنت ألتمع مثل جرم ، مثل بركان «أوسورنو» . فوق تلك المحفة التي خصّتني بها الديموقراطية الأرجنتينية . كنت أفكر ، وهذا كان يخفف عني أوجاع التهاب الوريد ، إن من كان يحمل النقالة ليس هم أولئك الفقراء المساكين الذين كانوا يجهدون ويتصببون عرقاً تحت ثقلي ووزني ، بل هو الجنرال (ارامبورو) بذاته .

فاستقبلت من لدن الروتين الحبسي والتصنيف السجني والتفتيش المعتقلي فاستولوا على حاجاتي الشخصية جميعها ، ولم يدعوني أحتفظ بالرواية البوليسية الشيقة التي كنت أحملها معي لأقرأها فلا أملٌ داخل هذا السجن الرهيب . لكن الحقيقة هي أنه ما كان لديّ وقت للملل . كانت تفتح الطاقات الحديدية ثم تغلق . كانت الحمالة تعبر الدهاليز والبوابات الحديدية ، تحفها أكثر فأكثر عمقاً وشدة أنغام الأقفال وأزيز الأغلاق الفولاذية . فجأة وجدتني وسط حشد كبير من السجناء الذين أُتي بهم إلى السجن هذه الليلة نفسها ، كان عددهم يربو على الألفين . لم أستطع الاتصال بأحد منهم وما كان يقدر منهم أحد على الاقتراب مني ، لكن ما نقصتني اليد التي كانت تتسلل من تحت البطانيات كي تصافحني ، ولا الجندي الذي يترك

---

(١) أرامبورو Pedro Eugenio : عسكري وسياسي أرجنتيني (١٩٠٥-١٩٧٠) .

بندقيته جانباً كي أوقع له على ورقة يخفيها في جيب سرواله .

من بعد وضعوني فوق ، في زنزانة بعيدة جداً لها طاقة عالية جداً .كنت أرغب أن أستريح ، أن أنام ، أن أنام أن أنام . لم أستطع ذلك لأن الفجر قد بزغ والسجناء الأرجنتينيون شرعوا بالقيام بضجيج يصم الآذان وبجلبة مدوية صخابة كما لو أنهم كانوا يشاهدون مباراة بين «ريفير» River و«بوكا» Boca .

بعد بضع ساعات تحرك تضامن الكتاب والأصدقاء في الأرجنتين وتشيلي وفي بلدان أخرى عديدة ، مما اضطرهم إلى إخلاء سبيلي من الزنزانة ، فأخذوني إلى المستوصف وأعادوا لي هناك حوائجي الشخصية التي كانوا سلبوها مني وأعتقوني . كنت على وشك مغادرة السجن حين اقترب مني أحد حراسي ووضع في يدي ورقة ، كان عليها قصيدة مكتوبة يهديها إليّ ، أبيات بدائية مليئة بالأخطاء ومفعمة بالبراءة الشعبية . أعتقد أن شعراء قلائل في العالم أُهدي إليهم ما أُهدي إليّ وتلقوا تكريماً شعرياً من قبل الشخص الذي كانت مهمته هي الحراسة القاسية الشديدة كما تلقيت من حارسي الشاعر .

شعر وشرطة:

ذات يوم قالت لنا الخادمة : «أيتها السيدة ، يا سيد (بابلو) ، أنا حامل» . ثم وضعت طفلاً . أبداً ما استطعنا أن نعرف منها من هو والد هذا الطفل . بالنسبة للخادمة ما كان يهمها والده في شيء وكل ماكان يهمها هو أن نقبل ، أنا و(ماتيلده) ، أن نكون عرّابين لهذا الوليد . لكن هذا لم يكن ممكناً .ما استطعنا ذلك ، إن أقرب كنيسة إلينا هي في «الـ تابو» El Tabo ، وهي ضيعة صغيرة سعيدة نقف فيها عادة لنضع للسيارة بنزيناً . تقنفذ القس كالقنفذ قائلاً : «أفعرّاب شيوعي؟ ، أبداً ، (نيرودا) لن يدخل هذا الباب ولو حمل في ذراعيه ابنك الصغير» . عادت الفتاة إلى مكنستها وأشغالها في الدار ، مطأطئة الرأس ، غير قادرة على فهم السبب الذي أدى بهذا القس إلى الرفض.

في وقت آخر رأيت السيد (استيريو) وهو يعاني ويتألم . كان هذا السيد مصلح ساعات قديماً وهو أحسن ضابط للساعات في «بالباراثيسو» كلها ، كان يصلح ساعات البحرية العسكرية في إتقان ودقة . كانت زوجته تنازع ، رفيقة عمره التي صاحبته خمسين سنة في هذه الحياة كانت تموت فتألمت له ولها ، وقلت : يجب عليّ أن أكتب شيئاً عنها ، شيئاً يواسيها قليلاً في محنتها الكبيرة ، شيئاً يقرأه لزوجته المحتضرة لعلها

تسترد بعض أنفاسها . هكذا فكرت ، لست أدري إن كنت على صواب في ذلك أم لم أكن ، فكتبت القصيدة وعبرت فيها عن إعجابي وعاطفتي نحو الفنان وفنه ، ووصفت فيها حياته النقية بين «تيك تاك» الساعات العتيقة . أخذت هذه القصيدة (ساريتا فيال) لنشرها في الصحيفة ، كانت هذه الصحيفة تسمى «لا اونيون» La union[1] يديرها رجل يدعى (باسكال) . السيد (باسكال) هذا هو كاهن . لم يشأ نشر القصيدة ، لن ننشر هذه القصيدة مطلقاً فمؤلفها (نيرودا) هو شيوعي مطرود من الكنيسة ، لم يشأ ، ماتت السيدة ، رفيقة السيد (استيريو) القديمة والكاهن أصر فلم تنشر القصيدة .

إني أريد أن أحيا في عالم بلا محرومين ولا مطرودين . لن أحرم أحدا . لن أقول غداً لهذا الكاهن : «لن تستطيع تعميد أحد لأنك ضد الشيوعية» . إني لأرغب أن أعيش في عالم يكون فيه البشر بشراً ، دون أية ألقاب ولا نعوت إلا كون المرء إنساناً ، من غير أن يلصق في رأسه شيء : لا إعلاناً ولا قاعدة ولا كلمة . أريد ألا يكون في مكنة من يشاء ، الدخول إلى الكنائس كلها ، إلى المطابع جميعها . أريد أن ينتظروا أحداً عند بوابة دار البلدية كي يعتقلوه أو يطردوه بعد اليوم . أريد أن يدخل الجميع إلى دار البلدية أو يخرجوا منها مبتسمين فرحين . لا أريد لأحد أن يهرب في جندول . لا أريد لأحد أن يطارَد بدراجات نارية . أريد للأغلبية القصوى ، للأغلبية الوحيدة ، للناس كلهم أن يستطيعوا الكلام ، القراءة ، الاستماع ، الازدهار . لم أفهم أبداً الصراع إلا على أنه الصراع في سبيل القضاء على الصراع . لم أفهم قط الشدة إلا كي تنتهي الشدة إلى الأبد . لقد اتخذت لي طريقاً لأنني أعتقد أن هذه الطريق ستؤدي بنا جميعاً إلى هذه المحبة الدائمة . إني أناضل في سبيل هذه الطيبة الكلية الشاملة اللامنتهية . من بين هذه اللقاءات بين الشعر والشرطة ، من بين هذه الحوادث العرضية التي جرت لي وحوادث أخرى لن أرويها تجنباً للتكرار وحوادث ما جرت لي ولكن لآخرين ما استطاعوا أن يرووها لنا ، خرجت وأنا أؤمن إيماناً مطلقاً بالمصير الإنساني ، وعندي القناعة التامة بأننا نقترب من عهد الحنان الكبير العظيم . إني لأكتب وأنا أدري أن فوق رؤوسنا جميعاً يحوم خطر القنبلة الذرية الساحقة الماحقة ، التي لن تبقي ولن تذر في الأرض شيئاً ولا أحداً . ولكن هذا لن يبدل من أملي

---

(١) لا اونيون : معناها ، الاتحاد .

ورجائي . إننا لنعرف أنه في هذه اللحظة الحرجة . في هذا الخفق والرعشة من الاحتضار ، لا بد أن يدخل النور إلى العيون الساهمة . سنتفاهم جميعاً . سنتقدم معاً ، وهذا الأمل هو قطعي أكيد .

«سيلان» ألقاها من جديد:

لقد أعادتني من جديد إلى «كولومبو» قضية دولية ألا وهي الصراع ضد الموت الذري . عبرنا الاتحاد السوفييتي باتجاه الهند على متن طائرة Tu 104 كانت هذه الطائرة النفاثة الرائعة قد انطلقت كي تقل وفدنا الكبير . ما توقفنا إلا في «طاشقند» قرب «سمرقند» على مرحلتين طارت بنا كي تضعنا في قلب الهند . كنا نطير على ارتفاع ١٠,٠٠٠ متر . كي نستطيع أن نجتاز جبال «هملايا» فإن هذا الطير الهائل حلّق على ارتفاع ١٥,٠٠٠متر . من الأعلى كنا نلمح منظراً طبيعياً خلاباً كان يبدو وكأنه لا يتحرك مع تحرك طائرتنا السريعة . ها هي الحواجز الأولى تبدو من تحتنا ، تظهر منحدرات سلسلة جبال «الهملايا» الزرقاء والبيضاء . هناك لا بد أنه يمشي إنسان الثلوج المهيب في وحدته الرهيبة . من بعد ، على يسارنا ، تتميز هضبة جبل «إيفيريست» بين أكاليل الثلوج وتيجانها . الشمس تشرق فوق ذاك المنظر الغريب ، نورها يحزّ ويجزّ جوانب الصخور المسنّنة ، قدرة السكون الثلجي المسيطرة السائدة .

أتذكر جبال «الأندلس» الأمريكية التي اجتزتها عدة مرات . هنا لا تسود تلك الفوضى ، ذاك الغضب الهائل ، تلك الصحراء الوبائية الموجودة في سلسلة جبالنا . تبدو لي هذه الجبال الآسيوية أكثر كلاسيكية ، أكثر تنظيماً ، أكثر اتساعاً وامتداداً . قممها الثلجية تنقش أديرة ، تحفر معابد هندية أو صينية في المدى الفسيح اللانهائي . إن وحدتها لهي أكثر عرضاً واتساعاً . ظلالها لا ترتفع أسواراً من حجارة رهيبة بل تمتد حدائق غريبة عجيبة زرقاء في دير كبير هائل .

أقول لنفسي بأنني الآن أستنشق أنقى هواء في العالم ، وإنني أنظر إلى أعلى مرتفعات الأرض من أعلى مرتفع . إنه لإحساس فريد تمتزج فيه السرعة والثلوج والوضوح والافتخار .

نطير نحو سيلان . الآن قد هبطنا إلى ارتفاع قليل ، فوق أراضي الهند الساخنة الحارة . لقد تركنا الطائرة السوفييتية في دلهي الجديدة كي نأخذ طائرة هندية ، أجنحتها تئز وتهتز بين سحب سوداء عنيفة . أفكاري وسط التأرجح هي الآن في

الجزيرة المزدهرة التي كنت أعيش فيها وليس لي من العمر إلا اثنان وعشرون عاماً . لقد عشت في سيلان وجوداً متوحداً منعزلاً ، وكتبت هناك أكثر أشعاري مرارة وأنا محاط بطبيعة الفردوس المتنوعة الخلابة .

أعود بعد انقضاء زمن طويل على تلك الأيام ، أيام صباي وشبابي ، إلى هذا الاجتماع المؤثر من أجل السلام ، الذي دعت إليه حكومة سيلان . لقد لاحظت وجود المئات من الرهبان البوذيين جماعات جماعات ، ببردوهم ذات اللون الزعفراني ، وهم غارقون بالتأمل الذي يميز تلامذة (بوذا) وأتباعه . حين يناضل هؤلاء الكهنة ضد الحرب والدمار والموت فإنهم بهذا يؤكدون من جديد مبادئ السلام ومشاعر الوئام التي دعا إليها قديماً الأمير (سيدراثا غاوتاما) المدعو كذلك (بوذا) . كم هي بعيدة -أفكر- عن الاضطلاع بهذه المهمة وسلوك هذا النهج ، الكنيسة في أقطارنا الأمريكية ، إنها كنيسة من نوع إسباني ، رسمية وداعية إلى الحرب ، كم هو منعش ومشجع أن يرى المسيحيون الحقيقيون كهنتهم الكاثوليك وهم من على منابرهم يحاربون أفدح الجرائم وأكثرها خطورة وأشدها إرهاباً ، ألا وهي جريمة الموت الذري الذي يغتال ملايين من الأبرياء ويترك إلى الأبد لطخاته البيولوجية في سلالات الإنسانية وذرياتها .

لقد مضيت متخبطاً عبر الأزقة باحثاً عن الدار التي كنت أعيش فيها بضاحية «فيلا واثا» . فجهدت كثيراً حتى عثرت عليها . كانت الأشجار قد نمت ووجه الشارع قد تغير .

كانت الغرفة القديمة حيث كتبت أشعاري الأليمة ستهدم نظراً لأن جدرانها كانت متآكلة متداعية ، فقد أذت رطوبة المدار هذه الحيطان التي كانت تنتظرني واقفة كي تودعني في هذه اللحظة الأخيرة من حياتها .

ما التقيت بأحد من أصدقائي القدامى . غير أن الجزيرة عادت لترن في قلبي بلحنها القاطع لأوتار القلب ، بوميضها المديد . البحر ما زال يغني غناءه القديم نفسه تحت سعف النخيل ، ضد أرصفة الميناء . عدت لأجول عبر طريق الغابة ، عدت لأرى الفيلة ذات الخطو الجليل وهي تملأ الدروب ، عدت لأشعر بعبق العطور الفواحة ، بوشوشة النمو وحفيف الحياة في الغابة . لقد وصلت إلى صخرة «سيخيريا» حيث شاد هناك ملك مجنون حصناً له . لقد بجلت كما أكرمت من قبل ، تماثيل بوذا الهائلة العديدة التي يمضي الرجال تحت ظلالها وكأنهم حشرات صغيرة .

ابتعدت من جديد وأنا متأكد أني بعد هذه المرة لن أعود أبداً إلى هذه الجزيرة .

زيارة ثانية للصين:

لقد طرنا من «كولومبو» بعد انتهاء مؤتمر السلام هذا عبر أجواء الهند ، وكان معنا (خورخه امادو)[1] وزوجته (ثيليا) . إن الطائرات الهندية كانت تقلع دوماً وهي غاصة بمسافرين معممين ومليئة بالأسفاط والسلل ومزدحمة بالأشكال والألوان . كان يبدو مستحيلاً حشر هذا العدد الكثير من الناس في مثل هذه الطائرة التي أقلتنا . حشد ينزل في أول مطار وحشد يصعد . كان علينا أن نواصل السفر إلى ما هو أبعد من «مدراس» إلى «كلكوتا» . كانت الطائرة تتمايل تحت العواصف الاستوائية . كان النهار الليلي الذي هو أكثر ظلمة من الليل يطوينا فجأة ثم يهجرنا تاركاً مكانه لسماء باهرة ساطعة . ثم تعود الطائرة تتمايل وترتعد وترتجف ، على حين غرة تنفجر الصواعق والبروق فتضيء السماء وتجلو العتمة لماماً . كنت أنظر إلى وجه (خورخه امادو) وهو يمر من اللون الأبيض إلى الأصفر ، ومن الأصفر إلى الأخضر ، وكان هو يرى في وجهي تحول الألوان ذاته الناتج عن الخوف الذي كان يخنق أنفاسنا ويبدل ألواننا . بدأت الطائرة بالأمطار ، كانت المياه تتسرب ، تترشح من ثقوب في سقفها كثقوب السماء ، تتساقط قطرات ثخينة تذكرني ببيتي في «تيموكو» أثناء فصل الشتاء ، لكن هذه القطرات لم تكن تستهويني على ارتفاع ١٠,٠٠٠متر . لكن ما كان يستهويني هو أن راهباً كان يجلس خلفنا فتح مظلة احتمى تحتها من المطر وأخذ يقرأ في جدية شرقية نصوص كتابه المحتوي على كنوز المعرفة القديمة .

لقد وصلنا بلا حوادث إلى «رانغون» في «بيرمانيا» . لقد اكتملت في هذه الأيام ثلاثون سنة على مقامي في الأرض ، على إقامتي في «بيرمانيا» حيث كتبت هناك أشعاري الأليمة وأنا إذاك غير معروف البتة . في عام ١٩٢٧ حين كان لي من العمر ٢٣ سننة نزلت في «رانغون» هذه نفسها . لقد كانت «برمانيا» حينذاك أرضاً تهذي من الحر ، أرضاً لا تنفذ إليها اللغات ، أرضاً ساخنة ساحرة . لقد كان المستعمرون الإنجليز يستغلونها استغلالاً بشعاً ويخنقون أنفاسها ، غير أن العاصفة كانت نظيفة ومضيئة ، كانت الشوارع تلتمع بالحياة وواجهات المحلات كانت تتباهى بمغرياتها الاستعمارية .

أما الآن فهذه المدينة تبدو نصف فارغة ، واجهات المحلات غير مزودة بأي شيء

---

(٣٣٢) خورخه أمادو : روائي برازيلي ولد عام ١٩١٢ .

مما يغري ويجذب الأنظار ، الشوارع فيها مليئة بالأوساخ والأقذار المتراكمة . إن صراع الشعوب من أجل استقلالها ليس بالأمر السهل ، لا بد ، بعد قعقعة السلاح وتفجر الأرواح وانتصاب الرايات وتحقيق التحرير ، من أن تشق هذه الشعوب طريقها عبر العواصف والمصاعب . أنا لا أعرف حتى الآن تاريخ «بيرمانيا» المستقلة الحبيسة قرب نهرها القدير ، نهر «إيراودهي» وفي سفوح معابدها الذهبية ، لكنني أستطيع أن ألمح - أبعد من القمامة في الشارع ومن الحزن المتموج- المآسي كلها التي تهز الجمهوريات الجديدة . إنه كما لو كان الماضي ما يزال يستمر في اضطهاد هذه الجمهوريات الفتية .

لم أجد أي ظل لـ(خوسيه بليس) ، بطلة قصيدتي «تانغو الأرمل» . لا أحد استطاع أن يدلني شيئاً عنها ، عن حياتها أو موتها . حتى الحي الذي كنا نعيش فيه معاً لم يعد له من وجود .

لقد طرنا الآن من «بيرمانيا» عابرين سلاسل الجبال التي تفصلها عن الصين . إنه لمنظر متجهم عابس ، ذو سكون رعوي . لقد حلقت الطائرة من «ماندالاي» فوق حقول الأرز ، فوق المعابد المفرطة في الزخرفة ، فوق ملايين من أشجار النخيل ، فوق الحرب الأخويةبين البيرمانيين وتغلغلت في الهدوء الصارم المحاذي لمناظر الصين الطبيعية .

كان ينتظرنا في «كون مينغ» وهي أول مدينة صينية بعد الحدود ، صديقي القديم ، الشاعر (أي تشينغ) . لقد كانت تقاسيم وجهه العريض الأسمر ونظرات عينيه الكبيرتين المليئتين بالطيبة والشيطنة المتيقظة ، مرة أخرى ، تقدمه فرح لسفر طويل . إن (أي تشينغ) و(هو تشي مينغ) كانا شاعرين من جفن الكرمة الشرقية القديمة ، متشكلين بين القارة الاستعمارية في الشرق ووجود صعب في باريس . إن هذين الشاعرين ذوي الصوت العذب الطبيعي ، وقد خرجا من السجون ، تحولا خارج بلدهما إلى طالبين فقيرين يعملان في المطاعم . لقد حافظا على ثقتهما بالثورة . وعادا في الوقت المناسب وهما ناعمان جداً في الشعر وصلبان جداً في السياسة ، إلى بلدهما لكي يؤديا مهماتهما المصيرية .

أشجار الحدائق في «كون مينغ» كانت قد أجريت لها عملية جراحية جمالية . كانت جميعها تأخذ أشكالاً غير طبيعية ، وأحياناً كانت تُلمح وتلاحظ ندوب مبتورة قد غطيت بصلصال وطين أو غصون ملتوية لم تزل مضمدة مثل ذراع جريح . أخذونا لنرى البستاني ، العبقري العظيم الذي كان يسيطر على تلك الحديقة الغريبة . رأينا

أشجار التنوب الغليظة العتيقة وهي لما تنم بعد أكثر من ثلاثين سانتيمتراً وكذلك رأينا أشجار برتقال ، أقزاماً تغطيها برتقالات ضئيلة كأنها حبات أرز مذهبة .

كذلك ذهبنا لزيارة غابة أحجار باسلة ، كانت كل صخرة تتطاول كأنها مسلة من حجر واحد أو تستشيط كأنها موجة من بحر جلمود .عرفنا أن هذا الذوق بالأحجار العجيبة هو إرث قديم منذ قرون سحيقة . لقد زينت هذه الصخور الكبيرة العديدة ذات المظهر المبهم اللغز ساحات المدن القديمة ، حين كان الحكام في الزمن القديم يريدون أن يقدموا أحسن هداياهم إلى الامبراطور فإنهم كانوا يرسلون إليه واحدة من هذه الصخورالضخمة ، وكان وصولها يتأخر سنوات عديدة ، كان يدفعها عشرات من العبيد خلال آلاف الكيلومترات حتى تصل إلى بكين .

إن الصين بالنسبة لي ، ليست لغزا ، على العكس إني أراها ، حتى داخل حدة الاندفاع الثوري الرائع ، بلداً قد بني منذ آلاف السنين وما زال يبنى ويشاد على الدوام . إني أراها معبداً هائلاً من بنيانه القديم يدخل ويخرج البشر والأساطير ، المحاربون والفلاحون والآلهة . لا شيء عفوياً يوجد فيها ، ولا حتى الابتسامة .عبثاً يبحث المرء في الجهات كلها عن أشياء الفن الشعبي البدائي الصغير غير المتقن ، عن هذا الفن المصنوع بأخطاء في التصميم الذي يلمس أحياناً حدود المعجزة . إن الدمى الصينية ، والأعمال الفخارية والخزفية والأحجار المرصعة والأخشاب المزخرفة ، جميعها تكرر نماذج ألفية ، إن كل شيء له طابع إتقان معاد .

لقد كانت مفاجأتي الكبرى حين عثرت في سوق ضيعة صغيرة على أقفاص صغيرة للزيزان مصنوعة من خيزران رقيق . كانت رائعة لأنها في دقتها البنائية كانت مبنية غرفة فوق أخرى ، وكل غرفة بزيزها الحبيس الأسير ، تشكل قلاعاً في ارتفاع متر ، تقريباً . لقد بدا لي وأنا أنظر إلى الأعشاش التي كانت تقيد الزيزان وإلى اللون الأخضر الطري في عيدان الخيزران ، أن اليد الشعبية كانت تطل منبعثة من الأقفاص ، البراءة التي تستطيع أن تصنع الأعاجيب . حين رأى الفلاحون دهشتي وإعجابي بهذه الأقفاص لم يشأوا أن يبيعوني واحداً منها بل أهدوا إلي قلعة صداحة ، أكبر قفص وأجمله . بهذا الشكل رافقني غناء الزيزان القداسي خلال عدة أسابيع عبْر أعماق الأراضي الصينية . لا أذكر أني تلقيت هدية مثل هذه الهدية البرية الجديرة بالذكرى إلا في طفولتي .

شرعنا السفر في باخرة تقل ألف مسافر عبر نهر «يونغ تسه» إنهم فلاحون ،

عمال ، صيادون ، جمهرة مليئة بالنشاط والحيوية . لقد جلنا خلال عدة أيام ، باتجاه «نان كينغ» في هذا النهر العريض جداً ، المليء بالقوارب والأشغال ، الذي تعبره وتمخره آلاف الحيوات ذوات الأحلام والهموم . إن هذا النهر لهو الشارع الرئيسي في الصين . لقد كان نهر «يانغ» العريض الهادىء يغدو أحياناً نحيلاً ضيقاً ، فلا تكاد الباخرة تعبر حلاقيمه الجبارة إلا بصعوبات قاسية ، على كل جانب من جانبيه تبدو الجدران الحجرية العالية السامقة وكأنها تتلامس في الأعالي ، حيث تلمح من حين إلى حين غمامة سوداء في السماء ، رسمتها رسماً أنموذجياً أيد شرقية بأقلام رصاص ، أو ترى غرفة إنسانية صغيرة بين ندوب الأحجار .

ليس في الأرض إلا مناظر قليلة لها مثل هذا الجمال الرهيب . ربما نستطيع مقارنتها بفجاج القوقاس العنيفة أو بقنواتنا الجليلة المنعزلة في مضيق «ماغايانيس» .

بعد خمس سنوات على زيارتي الأولى للصين ألاحظ الآن تغييراً ملحوظاً يتأكد كلما توغلت في هذا البلد من جديد .

في البداية ملاحظتي كانت مشوشة . ماذا ألاحظ الآن؟ ما هي التغييرات الطارئة على الشوارع وعلى الناس؟ آه ، إني لأفتقد اللون الأزرق . منذ خمس سنين زرت في هذا الفصل نفسه شوارع الصين ، كانت دائماً غاصة خافقة بالحيوات البشرية . لكن إذّاك كان الناس كلهم يمضون وهم مرتدون ملابس زرقاء بروليتارية ، نوعاً من القماش أو النسيج العمالي الرقيق . كانت هذه هي ملابس الرجال والنساء والأطفال . لقد كان يلذ لي هذه البساطة في البدل ، في تدرجاتها المختلفة من الزرقة ، لقد كان بديعاً أن أرى حينذاك هذه التموجات الزرقاوية العديدة وهي تعبر شوارع وطرقاً .

الآن هذا قد تبدل ، فماذا جرى؟

ببساطة ، الصناعة النسيجية في هذه السنوات الخمس نمت كثيراً إلى درجة أنه أصبح ممكناً أن يلبس الناس ما شاؤوا من ألوان وأنواع ، مخططة أو منقطة ، أصبح ممكناً إلباس الملايين من الصينيين بكل أصناف الحرير ، والسماح لهم أن يستعملوا منها ألواناً عديدة وأقمشة أحسن وأفضل مما كانوا يستعملون من قبل .

إن الشوارع الآن هي أقواس قزح من ذوق الصين الدقيق النقي . إن الجنس الصيني لا يعرف أن يصنع شيئاً قبيحاً . هذا البلد مزهر ومزدهر حتى الصندل الأكثر بدائية يبدو فيه وكأنه زهرة من قش .

لقد انتبهت وأنا أبحر عبر نهر «يانغ تسه» إلى وفاء الرسوم الصينية القديمة . هناك ، في أعلى الفجاج ، شجرة أرز ملتفة مثل معبد صيني صغير ، جلبت إلى ذهني حالاً الصور التخيلية القديمة . ثمة أماكن قليلة في العالم ، حقيقية جداً ، خيالية جداً ، مفاجئة جداً ، مباغتة جداً ، مثل هذه الفجاج التي يخترقها هذا النهر العظيم ، فجاج ترتفع إلى علو غير معقول ، فجاج تريك في كل صدع أو شق في هذه الصخرة أو تلك الأثر النفساني القديم لهذا الشعب المدهش العريق : خمسة أمتار أو ستة من بقول حديثة الغرس ، أو معبد صغير ذو خمسة سطوح أو ستة للتفرج والتأمل . يبدو لنا هناك بعيداً أننا نرى في أعلى الصخور القرعاء الصلعاء ، العباءات البيضاء أو دخان الأساطير ، وإن هي إلا الغيوم وطيران عصافير رسمه عدة مرات أكثر رسامي الصور المصغرة الملونة قدماً ومعرفة على وجه الأرض قاطبة . إن شعراً عميقاً ينطلق من هذه الطبيعة الجليلة العظيمة ، شعراً موجزاً مختزلاً عارياً كطيران طير أو البريق الفضي لماء يطفو شبه ساكن بين الأسوار الحجرية .

بيد أن ما هو فائق بشكل لا نهائي في هذا المنظر الطبيعي هو رؤية الإنسان وهو يعمل في مستقيمات قائمة الزوايا ، صغيرة ، في أشكال قمرية خضراء بين الصخور . على ارتفاع هائل في قمم الأسوار الشاقولية ، حيث يوجد منحنى يحتفظ بقليل من التركة الصالحة للزراعة ، ثمة هناك رجل صيني يزرع ويغرس . إن الأرض الأم الصينية هي واسعة وفسيحة . لكنها قاسية وصعبة . لقد ربت الإنسان وأعطته شكلاً وحولته إلى آلة عمل ، لا تتعب ، آلة ذكية وعنيدة . إن هذا التركيب المؤلف من أرض فسيحة ومن جهد إنساني خارق ومن إلغاء متدرج لكل أنواع الظلم والقهر ، سيجعل الصين الجميلة المديدة العميقة الإنسانية تزدهر وتتقدم .

لقد بدا لي (خورخه أمادو) خلال عبور نهر «يانغ تسه» كله أنه كان عصبياً كئيباً . كانت تزعجه جوانب من الحياة لا حصر لها في الباخرة ، وكذلك كانت تزعج (ثيليا) زوجته . لكن (ثيليا) لها طبع هادئ يسمح لها أن تمر بالنار دون أن تحترق .

واحد من هذه الأسباب التي كانت تزعجه هو أننا أصبحنا على غير إرادتنا ذوي امتياز وتمييز في هذا المركب . لقد كنا نشعر في غرفنا الخاصة ومطعمنا الخاص بنا شعوراً سيئاً وسط مئات الصينين الذين كانوا يتكومون في جهات المركب كله . كان الروائي ينظر إليّ بعينين ساخرتين ولا يترك فرصة إلا وعلّق عليها بتعليقاته اللطيفة القاسية .

الحقيقة هي أن كشف الحقائق المتعلقة بالفترة الستالينية قد عطل أحد النوابض في أعماق (خورخه امادو) . نحن صديقان قديمان ، تقاسمنا أعوام المنفي معاً ، دوماً كنا نمتزج في قناعة وأمل مشتركين . لكنني أعتقد أنني كنت متمذهباً بأقل مقدار من تشيّعه وتمذهبه فلقد كانت طبيعتي الخاصة نفسها وطبعي ذاته يجعلاني أكثر ميلاً للتفاهم مع الآخرين ، فيما (خورخه) كان على العكس من ذلك صارماً دائماً . لقد قضى معلمه (لويس كارلوس بريستيس) خمس عشرة سنة من حياته ، سجيناً . إنها لأشياء لا يمكن أن تنسى ، بل تجعل الروح صلبة صلدة . أنا كنت أبرر أمام نفسي تشيّع (خورخه) دون أن أشاطره هذا التعصب والتحزب .

إن تقرير المؤتمر العشرين كان اضطراب أمواج دفعنا نحن الثوريين كلنا ، نحو مواقع جديدة ونتائج حديثة ، بعضنا شعر وكأنه يولد من جديد إثر تلك الكآبة الناجمة عن كشف الحقائق القاسية ، يولد من جديد نظيفاً من الدياجير والرعب ، مستعداً لمواصلة الدرب والحقيقة تسطع في يده .

(خورخه) ، على العكس ، يبدو أنه بدأ ، هناك على حافة تلك الباخرة ، بين الفجاج الهائلة لنهر «يونغ تسه» ، مرحلة مختلفة في حياته . منذ ذلك الحين صار أكثر هدوءاً ، غدا أكثر اعتدالاً في أفعاله وفي أقواله . أنا لا أعتقد أنه فقد إيمانه الثوري بل إنه غرق أكثر من قبل في مؤلفاته ، ونزع عنه الطابع السياسي المباشر الذي كانت تتميز به بشكل مفرط طاغ . كما لو أنه أطلق الأبيقورية التي فيه فاندفع يكتب أحسن كتبه مبتدئاً برواية «غابرييله ، مسمار وقرنفلة» ، وهي رواية أنموذجية ، تفيض بالحسية والبهجة ، بالشهوانية والفرح .

لقد كان الشاعر (أي تشينغ) هو رئيس الوفد المرافق الذي كان يقودنا ويدلنا . كل ليلة كنا نتعشى : (خورخه امادو) و(ثيليا) و(ماتيلده) و(أي تشينغ) وأنا ، في غرفة منفصلة . كانت المائدة تتغطى ببقول خضراء ومذهبة ، بأسماك حامضة - حلوة ، بأوز ، بديكة ، بفراريج مطبوخة بطريقة غريبة ، دائماً لذيذة . بعد عدة أيام أصبحت تلك الأكلة الرائعة تغص في حلوقنا ولو أنها كانت من قبل تسري فيها بسرعة وكانت تطيب لنا . وجدنا فرصة كي نتحرر ولو لمرة واحدة من تلك الأطعمة الطيبة اللذيذة لكن مبادرتنا وجدت طريقاً صعبة ، راحت تتلوى هذه الطريق أكثر فأكثر مثل غصن من تلك الأشجار المضايقة المعذبة .

حصل أن عيد ميلادي كان يصادف وقوعه في تلك الأيام . (ماتيلده) و(ثيليا)

وضعتا مخططاً كي يكرماني بأكلة غريبة تغير من رتابة طعامنا ، كان الأمر هو القيام بتكريم متواضع : إعداد فروج مشوي على طريقتنا مع سلطة من طماطم وبصل على الطريقة التشيلية . المرأتان صنعتا من هذه المفاجأة سراً كبيراً . توجهتا بكل ثقة إلى أخينا الطبيب الشاعر (أي تشينغ) ، فأجابهما الشاعر وهو قلق قليلاً ، إنه لا بد له من الاجتماع بالأعضاء الآخرين في اللجنة للتداول حول هذا الأمر .

كان الجواب مفاجئاً ، إن البلاد كلها تمر في موجة من التقشف ، و(ماو تسي تونغ) تخلى عن احتفاله بعيد ميلاده حتى يساهم مع شعبه في التقشف والتوفير ، فكيف يمكن أن يحتفل بعيد ميلادي تجاه هذه الإجراءات الصارمة من التقشف؟ (ثيليا) و(ماتيلده) ردتا على هذه الحجة بأن الأمر هو مناقض كلياً ، فنحن نريد أن نستبدل فروجاً واحداً مشوياً على الفرن ولكن بأسلوب تشيلي ، بكل ما في هذه المائدة من أكل لذيذ متنوع (كان على المائدة فراريج وأسماك وديكة لم تلمس بعد) . أجاب (أي تشينغ) بعد اجتماعه إلى اللجنة غير المرئية التي كانت تقود التقشف ، في اليوم التالي ، بأنه ليس ثمة من فرن على ظهر الباخرة التي كنا نبحر بها . (ثيليا) و(ماتيلده) اللتان كانتا قد تكلمتا مع الطاهي ، أجابتا (أي تشينغ) بأنهم مخطئون وإن فرناً رائعاً كان يسخن في انتظار فروجنا المحتمل . أغمض (أي تشينغ) عينيه بين وبين وأضاع نظرته في تيار نهر «يانغ تسه» .

كان لنا في يوم ١٢ تموز ، تاريخ عيد ميلادي ، على المائدة فروجنا المشوي ، جائزة ذهبية من ذلك النزاع والمداولة . زوج من الطماطم مع بصل حار حاد كانت تلتمع في صينيتنا الصغيرة . وهناك من على بعد كانت تمتد المائدة الكبيرة المزخرفة مثل بقية الأيام بأطباق براقة وقصعات لماعة مليئة بأكل صيني طيب .

أنا كنت قد مررت عام ١٩٢٨ بـ«هونغ كونغ» وبـ«شانغهاي» . تلك كانت صيناً مستعمرة بشكل حديدي ، فردوساً للمقامرين ولمدخني الأفيون ، للمترددين على المواخير وبيوت الدعارة ، للصوص الليل للدوقات الروسيات المزيفات ، لقراصنة البحار والأراضي . مقابل المؤسسات المصرفية الكبيرة في تلك المدن الكبيرة كان ثمة ثماني أو تسع مدرعات رمادية تكشف عن عدم الطمأنينة والخوف ، عن اغتصاب الاستعمار وتعبه ، عن احتضار عالم بدأ يفوح برائحة الموت . رايات بلدان كثيرة ، تمثل قناصل لؤماء ، كانت تتلألأ فوق بواخر قرصنة تابعة لجناة مجرمين ، صينيين أو ملايويين . كانت المواخير تابعة لشركات عالمية . أنا قد رويت في مكان آخر من هذه المذكرات

كـيف أغـار عليّ اللصـوص ذات ليلة وتركـوني بلا ثيـاب ، بلا نقـود ، بلا وثائق شخصية ، مهجوراً في أحد الشوارع الصينية .

لقد عادت هذه الذكريات إلى رأسي حين وصلت إلى الصين الثورة . هذه الصين أصبحت بلداً جديداً ، مدهشاً في نظافته الأخلاقية . إن العيوب ، والمشاكل الصغيرة والاختلافات الضئيلة وكثيراً مما أحكيه الآن عن صين الثورة ، ما هي إلا ظروف عابرة ليست بذات أهمية . إن انطباعي العام السائد هو أني لاحظت أن ثمة تغييراً ظافراً وتحويلاً جذرياً في الأرض الفسيحة ذات أقدم ثقافة في العالم . ففي كل جهة كان يشرع بتجارب لا حصر لها وباختبارات مهمة . كان النظام الإقطاعي قد دحر تماماً والزراعة بدأت في نهج ومنهج جديدين . كان الجو النفسي المعنوي شفافاً كما بعد مرور زوبعة عاصفة .

إن مـا أقـصـاني عن سنين التطور الصـيني لم يكن (مـاو تسي تونغ) بل الماوسوتونغية أي الماوستالينية ، تكرار عبادة زعيم اشتراكي . من يستطيع أن ينفي عن (ماو) كونه شخصية سياسية ومنظماً عظيماً ومحرراً كبيراً لشعبه؟ كيف أقدر أنا أن أفلت من سحر هالته الملحمية ، من بساطته الشعرية ، من تواضعه الكئيب ، من أصالته العريقة؟

لكن ، خلال زيارتي ، رأيت كيف أن المئات من الفلاحين الفقراء العائدين من أعمالهم كانوا يخشعون قبل أن يدعوا عدتهم ، وهم يحيون صورة بطل «يونان» Yunan المحارب المتواضع الذي تحول الآن إلى إله . أنا رأيت كيف ان المئات من المخلوقات كانوا يهزون في أيديهم الكتاب الأحمر ، إكسيراً عالمياً للفوز في «البينغ-بونغ» ، لشفاء التهاب الزائدة الدودية ، لحل المشاكل السياسية . لقد كان التملق يطفو على كل فم وفي كل يوم ، يتدفق من كل صحيفة ومن كل مجلة ، من كل دفتر ومن كل كتاب ، من كل تقويم ومن كل مسرح ، من كل تمثال ومن كل رسم .

كنت قد ساهمت بمقداري في عبادتي الشخصية ، في حالة (ستالين) . لكن في تلك الأوقات كان (ستالين) يبدو لنا على أنه المنتصر القاهر لجيوش (هتلر) ، على أنه المنقذ للإنسانية العالمية . لقد كان انتكاس شخصيته مجرى مبهماً ، ما زال حتى الآن لغزاً بالنسبة للكثيرين منا .

والآن هنا ، في وضح النور ، في المدى الأرضي والسـمـاوي الرحب للصين الجديدة ، يراد من جديد أمام ناظري ، أن تستبدل أسطورة تحتكر الضمير الثوري ،

تقتصر على قبضة يد واحدة خلق عالم سيكون للجميع . لم يكن سهلاً بالنسبة لي أن أبتلع للمرة الثانية هذا القرص .

في «تشونغ كينغ» أخذني أصدقائي الصينيون إلى جسر المدينة . لقد عشت الجسور طيلة حياتي كلها . لقد أوحى لي والدي ، وهو عامل في السكك الحديدية ، أن أكنّ لها احتراماً كبيراً . لم يكن يدعوها أبداً بالجسور . كان هذا النعت سيدنسها وينتهك حرمتها . بل كان يدعوها بالأعمال الفنية ، نعتاً ما كان ليطلقه على الرسوم واللوحات وأعمال النحت بله على قصائدي ، طبعاً . كان هذا النعت مقتصراً على الجسور فقط . لقد أخذني معه عدة مرات كي نشاهد جسر «مايبكو» الرائع ، بجنوب تشيلي . حتى الآن كنت أظن أنه أجملِ جسر في العالم ، وهو متمدد بين سندس الجبال وخضرتها الجنوبية ، عالياً ، نحيلاً ، نقياً مثل كمان من فولاذ بأوتاره المشدودة المهيأة لعزف الرياح عليها ، رياح «كويبوبي» Collipulli . إن الجسر الهائل الذي يعبر نهر «يانغ تسه» هو شيء آخر . إنه أعظم عمل قامت به الهندسة الصينية بمشاركة المهندسين السوفييت . وهو ، بالإضافة إلى هذا ، نهاية صراع دام قروناً . لقد كانت مدينة «تشونغ كينغ» يفصلها هذا النهر إلى قسمين منذ قرون وكان عدم الاتصال هذا بين شقيها يعني تأخراً وبطئاً وعزلة .

إن حماسة أصدقائي الصينيين الذين كانوا يرونني الجسر هي أكثر مما كانت تستطيع أن تتحمله ساقاي وقدماي . كان هؤلاء الأصدقاء يجعلونني أصعد أبراجاً ، أهبط مهاوي كي أرى المياه التي تنساب هناك منذ آلاف السنين والتي تقطعها اليوم هذه القضبان الحديدية المؤلفة من كيلومترات عديدة ، عبر هذه السكك الحديدية ستمر القطارات ، هذه الأرصفة ستكون لسائقي الدراجات ، هذا النهج الهائل سيكون مخصصاً للمشاة . أحس باختناق من هذه العظمة الكثيرة .

يأخذنا (أي تشينغ) ، ليلاً ، إلى الأكل في مطعم قديم ، مأوى أكثر الأطعمة تقليدية . مطر من أزهار الكرز ، قوس قزح من سلطة خيزران ، بيض له من العمر مائة سنة ، شفاه فتية شابة من أسماك قرشية . إن هذه الأطعمة الصينية هي مستحيلة أن توصف في تعقيدها وتنوعها الغريب ، في اختراعها الشاذ ، في قوالبها غير المعقولة . زودنا (أي تشينغ) بمعارف عنها ، وقال إن القواعد العليا الثلاث التي يجب أن تتوفر في أية أكلة جيدة هي : أولاً ، الطعم ، ثانياً : الرائحة ، ثالثاً : اللون ، هذه الجوانب الثلاثة يجب أن تحترم دائماً وأن يصر عليها دوماً ، الطعم يجب أن يكون لذيذاً ،

الرائحة يجب أن تكون ممتعة ، اللون يجب أن يكون منعشاً ومتناغماً ومتسقاً . «في هذا المطعم حيث سنأكل -قال (أي تشينغ) ستتوفر ميزة أخرى : النغم» . يضاف إلى الطبق[1] المصنوع من الخزف الصيني المحاط بـ«المنجار» ، في آخر لحظة ، شلال صغير من طوابير «الجمبري» التي تصب في صفيحة معدنية تسخن على الجمر واللهب كي ينتج لحن ناي ، مقطع موسيقي يكرر دائماً ويعاد .

في بكين استقبلنا (تيين لينغ) التي كانت تترأس لجنة الكتاب التي خصصت كي ترافقنا أثناء زيارتنا للصين . كذلك كان موجوداً أثناء هذا الاستقبال صديقنا القديم الشاعر (امي سياو) وزوجته الألمانية المصورة . كل شيء كان لطيفاً وضاحكاً ومبتسماً . تنزهنا في زورق بين عرائس البحرية الاصطناعية الهائلة التي بنيت لتسلية آخر امبراطورة . زرنا مصانع ، دور نشر ، متاحف ، معابد . أكلنا في أصغر مطعم في العالم (صغير جداً إلى درجة أنه لا يحتوي إلا على مائدة واحدة) تتردد إليه سلالة الأسرة الامبراطورية . كنا نحن الأمريكيين الجنوبيين الأربعة نجتمع في مقر الكتاب الصينيين كي نشرب وندخن ونضحك كما لو كنا في أي جزء من قارتنا الأمريكية . أنا كنت كل يوم أعطي الجريدة إلى مترجمنا الشاب المسمى (ليLi) وكنت أشير بإصبعي إلى عواميد الصحيفة المكتوبة بحروف صينية وأقول له :

- ترجم لي .

كان يشرع بعمله في لغة إسبانية تعلمها حديثا ، ويقرأ لي المقال الافتتاحي عن الزراعة ، المآثر السياحية (ماو تسي تونغ) ، الأبحاث الماوماركسية ، الأخبار العسكرية التي كانت تبعث في نفسي الملل ما إن يبدأ بترجمتها .

- Stop- كنت أقول له . اقرأ لي من هذا العمود فهو أفضل .

هكذا فوجئت ذات يوم حين عثرت على دمل في المكان حيث وضعت إصبعي . كانت الصحيفة تتحدث عن دعوى سياسية يتهم فيها أصدقائي الذين كنت أراهم كل يوم ، والذين كانوا يشكلون قسماً من الوفد المرافق لنا . مع أن القضية تبدو أنها مثارة منذ وقت طويل فهم أبداً ما كانوا قالوا لنا أية كلمة حول هذا الشأن

---

(١) الطبق Fuente : ومن معاني هذه الكلمة باللغة الإسبانية كذلك ، النبع ، نشير لهذا لأن (نيرودا) يستغل المعنى الثاني للحديث عن الطبق .

ولا تفوهوا مطلقاً بأنهم تحت الاستجواب والاستنطاق ، وأن خطراً يهددهم وأن تهديداً ينخر في مصائرهم .

لقد تغيرت الفترة ، والزهور انغلقت . حين هذه الزهور انفتحت بأمر من (ماو تسي تونغ) ، ظهرت قصاصات من ورق -في المصانع والمراتب ، في الجامعات والمكاتب ، في المزارع والحقول- كانت تعلن عن ظلم وتشكو من جرم وتفضح أفعالاً يرتكبها الرؤساء البيروقراطيون .

هكذا كما من قبل كانت قد توقفت بأمر سام الحرب ضد الذباب وضد العصافير الدورية ، حين تبين أن تصفيتها سيجلب نتائج غير متوقعة ، كذلك الآن انتهت بشكل حازم مرحلة تفتح البراعم . لقد وصل من أعلى أمر . اكتشاف اليمينيين . وفي الحال بدأ الصينيون في كل منظمة ، في كل معمل ، في كل منزل ، الاعتراف الذاتي عن نزعة يمينية أو جعل الآخرين يعترفون بهذه النزعة اليمينية كي يُقضى عليها نهائياً .

صديقتي الروائية (تينغ لينغ) اتهمت بأنها أقامت علاقات غرامية مع جندي من أتباع (تشاينغ كاي تشيك)[1] . لقد كانت هذه التهمة حقيقة ، ولكن حدثت هذه العلاقات قبل الحركة الثورية العظيمة . وفي سبيل الثورة هي رفضت عشيقها ذاك ، ومن «يينان» Yenan[2] حملت وليدها ومضت لتشارك في المسيرة الكبرى في تلك السنوات البطولية . ولكن هذا لم يُقيّم لها بشيء ، فقد طردت من منصبها كرئيسة لاتحاد الكتاب وحكم عليها أن تقدم الطعام أجيرة في مطعم اتحاد الكتاب نفسه الذي كانت قد ترأسته خلال عدة سنين . لكنها كانت تؤدي عملها في هذا المطعم في أنفة وكرامة ثم أرسلت من بعد للعمل في مطبخ مشاعة فلاحية في مكان ناء . كان هذا آخر ما عرفته عن هذه الكاتبة الشيوعية الكبيرة التي كانت الشخصية الأولى في الأدب الصيني .

لست أدري ماذا حل بـ(أمي سياور) ، أما بالنسبة لـ(أي تشينغ) الشاعر الذي كان يرافقنا في كل ناحية وركن ، فإن مصيره كان حزيناً جداً ، فقد أرسلوه في أول

---

(١) تشاينغ كاي تشيك : هو ديكتاتور فورموزا المعروف ، ولد عام ١٨٨٦ .

(٢) يينان : لسنا ندري إن كانت هذه المدينة هي نفسها التي كان الشاعر (نيرودا) قد أشار إليها من قبل ولكنه كتبها هكذا : Yunan ، وقد يكون الأمر خطأً مطبعياً .

الأمر إلى صحراء «غوبي» ثم سمح له بالكتابة على ألا يوقع ما يكتبه باسمه الحقيقي الشهير داخل وخارج الصين، وهكذا حكم عليه بالانتحار الأدبي.

كان (جورج أمادو) قد انطلق نحو البرازيل، من قبل، أما أنا فإني سأرحل في وقت لاحق وفي فمي طعم من المرارة ما زلت أشعر به حتى الآن.

قرود «سوخومي»:

لقد عدت إلى الاتحاد السوفييتي فدعوني هناك إلى رحلة نحو الجنوب. حين هبطت من الطائرة بعد أن عبرت أراضي شاسعة، كنت قد خلفت ورائي السهوب والقفار، الهضاب والتلال، الطرق والمعابر، القرى السوفييتية والمدن العظيمة. لقد وصلت إلى الجبال القوقازية المهيبة العامرة بأشجار التنُّوب وبالحيوانات الغابية. لقد تزين البحر الأسود ببدلة زرقاء كي يستقبلنا ويجثو تحت أقدامنا، كان عبق عنيف من البرتقال المزهر يأتي إلينا من كل جهة.

نحن الآن في «سوخومي»، عاصمة «أفغاسيا» Afgasia، وهي جمهورية سوفيتية صغيرة، هذه هي «لا كولشيدا» Colchida الأسطورية. إنها منطقة الجلود الذهبية التي جاء إليها (خاسون)(١) ستة قرون قبل ولادة المسيح ليسرق ويسلب. إنها وطن «القلقاس» Los dioseuros الإغريقيين. في وقت لاحق سأرى في المتحف نقشاً من مرمر هلّيني استخرج حديثاً من البحر الأسود. على ضفاف هذا البحر احتفلت الآلهة اليونان بأسرارهم وألغازهم. اليوم قد استبدل بالسر واللغز الحياة البسيطة العاملة، حياة الشعب السوفييتي. ليسوا هم بأناس «لينينغراد». إن لهذه الأرض الشمسية، القمحية، العنبية، لحناً آخر، لها نبرة صوت من البحر الأبيض المتوسط. هؤلاء الرجال لهم طريقة أخرى في المشي والسير، إن لهاته النساء عيوناً وأيدي من إيطاليا أو من اليونان.

أعيش بضعة أيام في بيت الروائي (سيمونوف) في بستان داره بأشجاره الجميلة. أعرفها وأذكرها، فكلما ذكر لي اسم شجرة كنت أجيبه كما فلاح متعصب لأرضه:

– من هذه، يوجد في تشيلي، من هذه الأخرى ثمة في وطننا الكثير، وكذلك من تلك الأخرى. فينظر إليّ (سيمونوف) في ابتسامة مستهزئة، فأقول له:

---

(٢) خاسون: بطل من أبطال الأساطير اليونانية.

- إنه ليحزنني جداً أنك لن تستطيع أن ترى العريشة في داري بـ«سانتياغو» ولا أشجار الحور المذهبة بالخريف التشيلي، فليس هناك من ذهب مثل ذهبه. لو ترى في طريق «ميليبيّا» كيف يضع الفلاحون عرانيس الذرة الذهبية فوق أسطحة المنازل. لو ترى أشجار الكرز المزهرة في فصل الربيع. لو تتنسم شذى «البولدو»[1]. لو تغرق رجليك وساقيك في مياه «ايسلا نيغرا» النقية الباردة. لكن الأقطار والبلدان، يا عزيزي (سيمونوف)، ترفع حواجز في ما بينها، تلعب لعبة الأعداء في ما بينها، تتقاذف النيران في حروب باردة فنصبح نحن معشر البشر منعزلين متباعدين. نقترب من السماء بصواريخ سريعة ولا نقرب أيدينا من أيدينا في أخوّة إنسانية.

- ربما تتغير الأشياء - يقول لي (سيمونوف) مبتسماً ويقذف بحصوة بيضاء إلى الآلهة الغرقى في البحر الأسود.

إن مفخرة «سوموخي» هي في مجموعتها من القرود. لقد ربّى هناك معهد طب تجريبي، مستغلاً الطقس تحت الاستوائي، أصناف القرود الموجودة في العالم جميعها. فلندخل. سنرى في أقفاص واسعة قروداً متحركة كهربائية وقروداً ساكنة استاتيكية، بعضها كبير وبعضها صغير، بعضها أجرد وبعضها أشعر، بعضها ذو عينين انعكاسيتين وبعضها ذو عينين مثيرتين للشرر، أيضاً بعضها مطرق مسكين وبعضها طاغ مستبد. بعضها رمادي اللون وبعضها أبيض، بعضها ذو إست ولية بثلاثة ألوان، وبعضها كبير السن متقشف، وبعضها متعدد الزوجات أناني الطبع لا يسمح لزوجة أن تتغذى دون إذنه، لا يمنحها هذا الإذن إلا بعد أن يبتلع في وقار وسكينة أكله الخاص به.

إن أكثر المخابر تقدماً في علم الأحياء هو في هذا المعهد، وإن أفضل البحوث تجري في هذا المعهد تُدرس بأجهزة القرود الجهاز العصبي، الوراثة، ويقام ببحوث دقيقة حول سر الحياة وإمكانية إطالة الأعمار.

تلفت نظرنا قردة صغيرة لها طفلان. واحد منهما يتبعها باستمرار والآخر تحمله بذراعيها في حنان إنساني. يحكي لنا المدير أن القرد الصغير الذي ترضعه كثيراً ليس بابنها وإنما هو لقيط تبنته. كانت هي على وشك أن نفست بوليدها حين ماتت قردة أخرى بعد أن خلّفت قرداً، فتبنت هذه القردة الأم لتوها اليتيم، منذ ذلك الحين

---

(١) البولدو: نوع من الشجر، ذو أوراق خضراء وزهور دائمة لها عطر فوّاح.

انصرفت بحنانها الأمومي وعطفها الأنثوي نحو هذا الابن المتبنَّى أكثر مما انصرفت نحو ابنها الحقيقي. فكّر العلماء أن هذا الميل الأمومي الشديد سيجعلها تتبنى أبناء آخرين لقطاء لا يمتون إليها بصلة لكنها رفضتهم جميعاً واحداً إثر الآخر، لأن سلوكها لم يكن يخضع ببساطة إلى قوة حيوية بل إلى ضمير قد شعر حين ماتت رفيقتها بتضامن أمومي.

«أرمينا»:

الآن نطير نحو أرض مجد أسطورية. نحن في «أرمينيا». هناك، نحو الجنوب، تترأس تاريخ «أرمينيا» القمة الثلجية لجبال «أرارات» حيث رست سفينة نوح حسب ما جاء في الكتاب المقدس، كي يعاد تعمير الأرض. لقد كان عملاً صعباً لأن «أرمينيا» هي أرض وعرة وبركانية. لقد زرع الأرمن هذه الأرض في تضحية لا يمكن وصفها ورفعوا حضارتها على أعلى قمة في العهود القديمة. لقد أعطى المجتمع الاشتراكي إلى هذه الأمة النبيلة المعذبة تطوراً وازدهاراً فائقين. فلقد ذبح الغزاة الأتراك على مدى قرون عديدة الأرمن واستعبدوهم. كل حجر في الهضاب، كل بلاطة في المنازل، صبغ وصبغت بالدم الأرمني. لقد كان البعث الاشتراكي لهذا البلد أعجوبة، وردّاً عظيماً على أقوال المتخرصين حول إمبريالية سوفييتية. لقد زرت في «أرمينيا» معامل نسيج تشغل ٥,٠٠٠ عامل، مشاريع هائلة في الري وتوليد الطاقة، مصانع أخرى كثيرة وقديرة. لقد تجولت من طرف إلى آخر في المدن في الأرياف في المراعي فلم أر إلا أرمناً، رجالاً ونساءً، أرمناً. وجدت روسياً واحداً، كان مهندساً، فريداً في عينيه الزرقاوين بين آلاف العيون السود لأولئك المواطنين السمر. كان ذاك الروسي يدير مركزاً كهرمائياً في بحيرة «سيفان». إن سطح البحيرة هو كبير جداً ومياهها تتسرب من مجرى واحد للنهر، فالمياه القيِّمة تتبخر دون أن تستطيع أرمينيا العطشى أن تستفيد من هبات هذه المياه. فلكي تُقهر عملية التبخير هذه ويكسب منها الوقت قبل أن تقلِّل من حجم المياه، فلقد وسَّع مجرى النهر وبهذا تتدفق المياه ويقل حجم البحيرة شبه الراكدة، وفي الوقت نفسه ستخلق بمياه النهر الجديدة ثمانية مراكز كهرمائية، صناعات جديدة، مراتب للألومينيوم، طاقة كهربائية للإضاءة، ما يكفي من المياه لإرواء الأرض كلها في هذا البلد. أبداً لن أنسى زيارتي لذاك المصنع الكهرمائي المطل على البحيرة التي تنعكس في مياهها

النقية جداً زرقة سماء «أرمينيا» التي لا تنسى . حين سألني الصحفيون عن انطباعاتي حول كنائس «أرمينيا» وأديرتها القديمة ، أجبتهم مبالغاً :

- إن أكثر كنيسة أعجبتني هي المركز الكهرمائي ، ذاك المعبد المطل على البحيرة .

لقد شاهدت في «أرمينيا» أشياء كثيرة . أعتقد أن مدينة «إيريفان» Erevan هي من أجمل مدن العالم ، إنها لمبنية من جير بركاني ، وهي متناسقة كأنها الوردة الموردة . إن زيارتي للمركز الفلكي بـ«بيناكان» هي زيارة لا تنسى ، هناك رأيت لأول مرة كتابة النجوم . كانت أجهزة دقيقة جداً تلتقط إشعاعات الكواكب المرتعشة وتروح تكتب خفق النجم في الفضاء كأنه برقية كهربائية تأتي من السماء . لقد لاحظت في تلك الخطوط البيانية أن لكل نجم نوعاً من الخط والحرف مختلفاً ، ساحراً ومرتجفاً ، مع أنه غير مفهوم بالنسبة لعينيّ : عيني شاعر أرضي .

توجهت مباشرة ، في حديقة الحيوانات بـ«ايريفان» نحو قفص «الكندور» ، لكن ابن بلدي لم يعرفني . كان هناك في ركن قفصه ، أصلع ، بهاتين العينين غير المباليتين ، عيني «كاندور» بلا آمال ولا رغبات ، عيني عصفور كبير يحن إلى سلسلة جبالنا . نظرت إليه في حزن لأنني سوف أعود أنا إلى وطني وسيبقى هو سجيناً في هذا القفص .

إن مغامرتي مع «الـ تابير» El Tapir كانت مختلفة . كان التابير يملك حديقة الحيوانات في «ايريفان» -قليلة هي حدائق الحيوانات التي لها مثل هذا الحيوان- إن «التابير» من «الأمازون» وهو حيوان بجسد ثور ووجه عظيم الأنف وعينين صغيرتين . يجب الاعتراف في أن «التابير» يشبهني كثيراً ، إن هذا ليس بسر .

كان «تابير» مدينة «ايريفان» يغفو في حظيرته قرب البحيرة الصغيرة . حين رآني رشقني بنظرة ذكاء لعلنا كنا قد تلاقينا ذات يوم في البرازيل فذكرني . سألني المدير إن كنت أرغب في أن أراه وهو يسبح فأجبته بأنني كنت أرحل عبر العالم وليس لي من قصد إلا أن أرى «تابير» يسبح . ففتحوا له بويبا فخرج منه وهو ينظر إليّ بسعادة وغبطة وانقذف إلى الماء ساخراً كالحصان البحري ، مثل خيلان[1] أشقر . كان يعلو رافعاً جسده كله من الماء ثم يغطس مسبباً تموجاً عاصفياً . كان ينهض نشوان من الفرح ، كان

(١) خيلان : حيوان خرافي نصفه رجل ونصفه سمك ، وهو النسناس البحري .

يرنخر ويشخر ومن بعد يواصل في سرعة كبيرة ألعابه البهلوانية غير المعقولة .

- أبداً ما رأيناه فرحاً جزلاً كما هو عليه الآن - قال لي مدير حديقة الحيوانات .

في الظهر ، عند الغداء الذي قدمته لي جمعية الكتاب ، رويت لهم في خطابي لإسداء الشكر على حفاوتهم بي مآثر الـ«تابير» الأمازوني وحدثتهم عن هوسي بالحيوانات وإني لا أدع زيارة أية حديقة من حدائق الحيوانات .

في الخطاب الجوابي ، رئيس الكتاب الأرمن قال :

- لم يكن (نيرودا) بحاجة كي يذهب لزيارة حديقة الحيوانات في بلدنا ، فلقد كان يكفيه المجيء إلى جمعية الكتاب كي يجد الأصناف والأنواع كلها هنا مجتمعة ، فنحن هنا لدينا أسود ، نمور ، ثعالب ، عجول بحرية وكذلك نسور ، أفاع ، جمال ، ببّغاوات .

النبيذ والحرب:

لقد توقفت في موسكو بطريق عودتي . إن هذه المدينة ليست هي العاصمة العظيمة للاشتراكية فحسب ، ليست هي مقر الأحلام المتحققة فقط ، بل هي بالنسبة لي كذلك منزل أكثر أصدقائي محبة إلى نفسي . إن موسكو لهي ، بالنسبة لي ، مهرجان واحتفال . ما إن أصل إليها ، عادة ، حتى أخرج وحيداً عبر الشوارع ، فرحاً بالتنفس فيها ، مصفّراً لحن «كويكا»[1] . أنظر إلى وجوه الروس ، إلى عيون الروسيات وخصلات شعرهن ، إلى المثلجات التي تباع في زوايا الطرقات ، إلى الزهور الورقية الشعبية ، إلى واجهات المحلات بحثاً عن أشياء جديدة ، عن أشياء صغيرة تجعل الحياة كبيرة .

ذات مرة ذهبت ، كعادتي ، لأزور (ايهرينبورغ) . فأراني هذا الصديق الطيب أول ما أراني زجاجة «ماء الحياة»[2] نرويجية Aequavite على سطح هذه الزجاجة رسمت سفينة شراعية كبيرة في مكان آخر كتب تاريخ انطلاق الباخرة وتاريخ عودتها . انطلقت معها كذلك هذه الزجاجة حتى «أستراليا» ثم عادت معها إلى موطنها «إسكاندينافيا» .

---

(١) كويكا : يقال له كذلك «ثاماويكا» ، وهو نوع من الرقص التشيلي .

(٢) ماء الحياة : هو نوع من الخمر يشبه العرق .

جعلنا نتحدث عن النبيذ . تذكرت تلك الفترة من شبابي حين كان نبيذنا الذي ورثناه أباً عن جد ، يسافر إلى الخارج ، بناء على دعوة لكونه ممتازاً فاخراً . لقد كان النبيذ إذّاك غالياً جداً بالنسبة لنا نحن الذين كنا نستعمل ملابس السكك الحديدية ، وكنا نعيش حياة بوهيمية عاصفة .

لقد كنت أهتم دائماً في كل بلد أحل به ، بسنن النبيذ ومسالكه ، منذ أن يولد من «أرجل الشعب» إلى أن يتدورق في بلور أخضر أو زجاج ذي وجوه . لقد طاب لي في «جلّيقيا» تناول نبيذ «ريبيرو»[1] الذي يشرب في طاسات ويدع على الفخار علامات دموية كثيفة متخثّرة . إني لأذكر أني شربت في «هنغاريا» نبيذاً مكثفاً معتقاً يدعى «دم الثور» ، حين ينطح يجعل أوتار الغجر ترتعد وترتجف ألحاناً وأنغاماً .

لقد كان لأجدادي كروم عنب . إن قرية «برّال»[2] ، حيث ولدت ، هي مهد سلافة حريفة . لقد تعلمت من أبي ومن أعمامي : (دون[3] خوسه انخيل) و(دون خويل) ، و(دون اوسياس) ، و(دون أموس) ، أن أميز النبيذ المعتق من المصفى . لقد كلفني جهداً أن أجعلهم يميلون نحو النبيذ غير المكرر الذي يرشح في الزق وينصب من قلب أصيل سخي غير محصن . كما في الأشياء جميعها كلفني جهداً أن أعود إلى ما هو بدائي ، إلى منبع القوة والنشاط ، بعد أن تمرست على مجاوزة حاسة الذوق ، بعد أن تذوقت الطعم الشكلي التقليدي . إن الشيء نفسه يجري للفن : إن المرء يستيقظ على «افروديت» لـ(براكسطليس Praxiteles) ويظل يحيا مع تماثيل «أوثيانيا» البرية الهمجية .

لقد تذوقت بباريس في بيت رفيع نبيذاً رفيعاً . كان النبيذ «موتون-روتشيلد» Mouton-Rothschild ذا جسد معصوم ، ذا شذى لا يمكن التعبير عن روعته ، ذا تماس كامل . البيت كان بيت (أراغون) و(إيلسا تريولي) .

لقد تلقيت هذه الزجاجات لتوّي وسأفتحها لك الآن – قال لي (أراغون) .

وروى لي الحكاية .

---

(١) ريبيرو : هي كلمة من اللغة الجليقية تطلق على هذا النوع من النبيذ الشائع جداً في «جليقيا» وهي منطقة تقع في الشمال الغربي من إسبانيا .

(٢) برّال : معناها عريشة أو دالية ، وقد كنا ذكرنا ذلك .

(٣) دون : إن هذه الكلمة تعني السيد باللغة الإسبانية .

كانت الجيوش الألمانية تتقدم داخل الأراضي الفرنسية . وصل (لويس أراغون) وهو الشاعر الضابط وأكثر جنود فرنسا ذكاء ، إلى موقع متقدم . كان هو آمر فصيل من المرضين . فأعطاهم الأمر بالتقدم إلى ما هو أبعد من هذا الموقع المتقدم ، إلى بناء يقع على بعد ثلاثمائة متر منه . فأوقفه رائد ذلك الموقع الفرنسي . وكان هذا الرائد هو (الكنت الفونس دي روتشيلد) ، أصغر من (أراغون) وهو ذو دماء حارة مثل دماء (أراغون) .

- إنك لن تستطيع أن تمر من هنا -قال له- فالنيران الألمانية ستطلق حالاً .

- إن أوامري هي أن يتقدم فصيلي حتى ذلك البناء - رد (أراغون) في حزم وجزم .

- إن أوامري هي أن لا تتقدم وأن تظل هنا - أجاب الرائد .

إني متأكد ، لأني أعرف (أراغون) جيداً ، إنه في ذلك النقاش خرجت منه شرارة إثر شرارة كما القنابل ، إجابة كأنها السيوف . لكن هذا النزاع لم يدم أكثر من عشر دقائق إذا سقطت ، على حين غرة ، أمام عينيّ (روتشيلد) المفتوحتين وأمام ناظر (أراغون) كذلك ، قنبلة من مدفع هاون ألماني فوق ذاك البناء القريب منهما فأحالته إلى دخان وأنقاض ورماد في هنيهة .

هكذا أنقذ الشاعر الأول لفرنسا بفضل عناد (روتشيلد) وإصراره .

منذ ذلك الحين ، في تاريخ تلك الحادثة ، الحولي نفسه يتلقى (أراغون) كل سنة بضعة Bonnes Bouteilles من «موتون-روتشيلد» ، من كروم «الكونت» الذي كان رائده في الحرب العالمية الأخيرة .

الآن أنا في موسكو ، في دار (إيليا ايهرينبورغ) . لقد كان هذا المحارب الكبير بالأدب ، العدو الخطير للنازية إلى درجة أنه وحده يساوي فرقة بأربعين ألف رجل ، كذلك أبيقورياً صافياً . أبداً ما استطعت أن أعرف إن كان هو يعرف عن (ستندال)[1] أم عن (فواغراس) ، كان يتذوق أشعار (جورج مانريك) في لذة كثيرة بقدر ما كان لا يتذوق (بومّري-غرينو) . إن أكثر حبه حيوية وحياة كانت فرنسا بكاملها ، روح وجسد فرنسا اللذيذة الشذية .

الموضوع هو أنه ، بعد الحرب ، ترددت إشاعة في موسكو بأنه ستعرض للبيع

---

(١) ستاندال : روائي فرنسي (١٧٨٣-١٨٤٢) .

بعض زجاجات النبيذ الفرنسي . كان الجيش الأحمر أثناء زحفه نحو «برلين» قد استولى على معقل-قبو ، مليء بدعاية (غوبلز)[1] غير الصحية وزجاجات نبيذ كان هذا قد سلبها من خوابي فرنسا العذبة . أرسلت أوراق الدعاية وزجاجات النبيذ إلى ثكنات الجيش الغالب ، فلم يجد الجيش الأحمر الذي بحث في الأوراق واحتفظ بالوثائق ما يفعل بالنسبة لهذه الزجاجات .

كانت الزجاجات المصنوعة من بلور مجيد تتباهى في عناوين خاصة بتواريخ ميلادها . تنحدر جميعها من أصول رفيعة ومن مواسم قطاف شهيرة معروفة . كانت زجاجات النبيذ 'Romane وBeaume وchateau-neuf-du Pape تحاذي زجاجات Pouilly الشقراء وزجاجات Vourray العنبرية وزجاجات Chambertin المخملية . كانت المجموعة بأسرها مدعومة بأرقام تسلسلية تبين تواريخ قطاف أعنابها الرفيعة جداً .

لقد وزعت العقلية الاشتراكية النازعة إلى المساواة في كل شيء على الحوانيت أمجاد المعاصر الفرنسية السامية هذه بسعر النبيذ الروسي نفسه . وفرضت على ذلك قيداً وحيداً ألا وهو أن كل مشتر لا يستطيع الحصول إلا على عدد محدد ومختصر من هذه الزجاجات . إنها لعظيمة مقاصد الاشتراكية ، بيد أننا نحن الشعراء على نمط سواء في أنحاء الدنيا كلها . كل واحد من زملائي في الأدب أرسل أقاربه ، جيرانه ، معارفه ، كي يشتروا له بسعر منخفض جداً زجاجات نبيذ ذات محتد سام وصنف عال . فانتهت من السوق في يوم واحد فقط .

لقد وصلت إلى دار (ايهرينبورغ) كمية لن أبوح بها . بهذه المناسبة وجدتني في صحبة عدو النازية اللدود ، نتحدث معاً عن النبيذ ونشرب جزءاً من قبو (غوبلز) ، نخب الشعر وعلى شرف الانتصار .

القصور المستردّة:

لم يدعني الأشراف إلى بيوتاتهم الكبيرة يوماً ، ألبتة ، والحقيقة هي أنني لم يكن لي من حب الاستطلاع إلا القليل النادر ، دائماً . إن الرياضة القومية في تشيلي هي المزايدة . إنك لترى أناساً كثيرين يخفون في زحمة وازدحام إلى المزادات

---

(١) غوبلز Joseph Paul : سياسي ألماني (١٨٩٧-١٩٤٥) .

الأسبوعية التي تميز بلدي . كل مزاد له حظيرته الخاصة به وكل حظيرة دار لها مصيرها . حين تصل اللحظة المناسبة تبدأ بالمزايدة على أحسن مزايد الحواجز الحديدية التي ما تركتني مرة أتخطاها ، لم تتركني ولا تركت العامة التي أشكل جزءاً منها ، ومع هذه الحواجز الحديدية التي تحيط بالحظائر تغير أصحابها ومالكيها المقاعد والكراسي ، تماثيل المسيح المدماة ، صور الفترة الحالية ، الصحون ، الملاعق ، الملاحف التي تحتها تناسلت حيوات كسلى كثيرة . إنه ليعجب الإنسان التشيلي أن يدخل ، أن يلمس ، أن يجس ، أن ينظر ، أن يساوم ويفاصل . قليلون هم الذين يشترون في آخر الأمر . من بعد يهد بناء كل حظيرة فيزايد على كل قطعة من قطع البناء . فيأخذ المشترون معهم العيون ، أي النوافذ ، الأمعاء ، أي السلالم والأقدام هي أرضيات البناء الخشبية ، وأخيراً فإنهم يتقاسمون كل شيء حتى أشجار النخيل المغروسة .

في أوروبا ، على العكس من هذا فإن الدور يحافظ عليها ولا تباع كما في تشيلي . إنك لتستطيع أن ترى ، أحياناً ، صورة لكل «دوق» ولكل «دوقة» ، معلقة هناك على الجدران ، صوراً رسمها رسام محظوظ لأصحاب هذه المنازل وسيداتها وهن عاريات ، فكانت متعة لنا نحن الذين نتمعن الآن في هذه الرسوم وفي هذه الانحناءات التي بها . إننا لنستطيع أن نلمح أيضاً الأسرار ، الجرائم ، الشعر المستعار ، هذه السجلات المحيرة التي هي الجدران ذات الزرابي والسجاجيد التي امتصت أحاديث كثيرة مختصة بمقصورة المستقبل الإليكترونية .

لقد دعيت لزيارة «رومانيا» فلبيت الدعوة مسرعاً وأسرعت إلى الموعد . أخذني الكتاب للاستجمام إلى دارهم الريفية الجماعية وسط الغابات الجميلة . لقد كان منزل الكتّاب الرومانيين من قبل قصراً لـ(كارول Carol) ذاك الطائش الذي أصبحت غرامياته فوق الطبيعية مهيزلة عالمية . إن القصر الآن بأثاثه الجديد وحمّاماته المرمرية قد وضع تحت خدمة الفكر والشعر برومانيا . لقد نمت نوماً مريحاً جيداً في سرير جلالة الملكة ، وفي اليوم التالي ذهبنا لنزور قصوراً أخرى أصبحت متاحف أو منازل استجمام أو مواضع لقضاء الإجازات . كان يصحبني من الشعراء (جيبيليانو) و(بينويك) و(رادو باورللانو) . في الصباح الأخضر ، تحت عمق أشجار التنُّوب بالحدائق الملكية القديمة ، كنا نغني في إفراط ، كنا نضحك في صخب ، كنا ننشد أشعاراً بكل اللغات . إن الشعراء الرومانيين بتاريخهم الطويل من الآلام والأوجاع

خلال الأنظمة الملكية-الفاشية ، هم أكثر الشعراء قيمة وفي الوقت ذاته أكثرنا فرحاً . لقد كان أولئك المنشدون الرواة الرومانيون جداً كما عصافير بلادهم الاحراجية ، الحازمون في قوميتهم الجازمون في ثوريتهم ، المغرمون بالحياة غراماً ثملاً ، اكتشافاً بالنسبة لي . في أماكن قليلة استطعت أن أفوز بأخوة كثر في وقت قصير كما في «رومانيا» .

رويت للشعراء الرومانيين كي أسرهم وأبعث في نفوسهم فرحاً كبيراً أن زيارتي السابقة لقصر نبيل كانت هي زيارتي لقصر «ليريا» بمدريد في عز الحرب الأهلية . فيما كان العدو يمضي منصرفاً إلى عمله المقدس بتقتيل الإسبان ، يشاركه في هذا الطليان والمغاربة والصلبان المعقوفة ، احتل رجال «الميليشيا» ذاك القصر الذي كنت أراه مراراً وتكراراً لدى عبوري بشارع «أرغوايبس» في عامي ١٩٣٤-١٩٣٥ . كنت من حافلة الركاب التي تقلني أوجِّه نظرة الاحترام ، ليست نظرة طاعة لهؤلاء «الدوقيين» الجدد من آل (البا) الذين ما كانوا ليقدروا على إخضاعي وأنا أمريكي أجنبي شبه همجي ، بل كنت مسحوراً مأخوذاً بهذه الجلالة التي لا يملك مثلها إلا الخيول وشواهد القبور ونواويسها الصامتة البيضاء .

حين اندلعت الحرب الأهلية ظل (دوق ، البا) هذا مقيماً في إنجلترا ، لأن لقبه في الحقيقة هو (بيرويك) . بقي هناك مع أحسن لوحاته ومع أكنز كنوزه . متذكراً هذا الهرب «الدوقي» قلت لزملائي الرومانيين إنه في الصين ، بعد التحرير ، هرب آخر سليل من سلالة (كونفوشيوس) الذي اغتنى بمعبد الفيلسوف المرحوم وبعظام قبره ، إلى «فيرموزا» مزوداً بلوحات وشراشف وأوان ، وعظام كثيرة كذلك . لا بد أنه جيد التموضع هناك نظراً لأنه يقبض ثمن بطاقات الدخول ليرى الناس رفات جسده المغفور له .

من إسبانيا كانت تخرج في تلكم الأيام ، نحو بقية أنحاء العالم ، أخبار رهيبة مرعبة : «قصر (دوق البا) التاريخي يسطو عليه الحُمر» . مشاهد آثمة من التخريب والتهديم . «فلننقذ هذه التحفة التاريخية» .

لقد ذهبت لأرى القصر الذي كنت أستطيع أن أدخل إليه بعد أن احتله «الميليشيا» . كان الناهبون المفترضون عند الباب واقفين في ملابسهم العمالية الزرقاء وبنادقهم في أيديهم . كانت تتساقط أوائل القنابل فوق مدريد من طائرات الجيش الألماني . طلبت من رجال «الميليشيا» أن يتركوني أدخل إلى القصر . دققوا في أوراقي

الثبوتية تدقيقياً دقيقاً وفحصاً متمعناً . كنت على وشك أن أبدأ بأوائل خطاي داخل القاعات الثرية الغنية حين منعوني من ذلك لأني ارتكبت خطأً فادحاً : لم أكن قد نظفت حذائي في الممسحة الموجودة عند البوابة . في الواقع إن مداسات القاعات وأرضياتها كانت تلمع كالمرايا . نظفت الحذاء ودخلت . كانت المستطيلات الفارغة في الجدران تعني لوحات غائبة . كان رجال المليشيا يعرفون ذلك كله . لقد قصوا عليّ كيف أن «الدوق» كان قد أخذ هذه اللوحات إلى مصرفه في «لندن» منذ سنين كثيرة ووضعها هناك في صندوق محكم . إن الشيء المهم الوحيد في القاعة الكبيرة كان هو تذكارات صيد ، رؤوس ذات قرون ، لا حصر لها وخراطيم وحوش مختلفة . ما كان يلفت النظر أكثر من غيره هو دب أبيض كبير واقف على قدميه وسط الغرفة ورافع ذراعيه القطبيتين المفتوحتين ، وله وجه ضاحك يفتر عن أسنانه كلها ، وكان هذا الدب هو المفضل لدى رجال «المليشيا» إذ إنهم ينفضونه بفرشاة كل يوم ويسحجونه .

طبعاً لقد اهتممت بغرف النوم حيث كان ينام الكثيرون من آل (البا) مع كوابيس تسببها الأشباح «الفلامنكية» التي تأتي في الليالي لتدغدغ لهم أرجلهم . الأرجل لم تعد هناك موجودة لكن ، أجل ، أكبر مجموعة من الأحذية رأيتها في حياتي . إن هذا الدوق الأخير لم يزد شيئاً في مجموعة لوحات القصر غير أن مجموعة أحذيته كانت شيئاً مفاجئاً ، شيئاً لا يحصى لكثرته . رفوف طويلة ذات زجاج كانت تصل حتى السقف ، فيها تحفظ آلاف الأحذية . كان ثمة ، كما في المكتبات ، سلالم خاصة ، ربما أنها تستعمل كي تأخذ هذه الأحذية من كعابها . نظرت في حيطة وتمعن إليها . كان ثمة مئات الأزواج من الجزم البديعة لركوب الخيل ، بعضها أصفر وبعضها أسود . كذلك كان هناك من هذه الأحذية ذات الكعوب العالية ، ذات الأقمشة المخملية والأزرار الصدفية . كان هناك كميات هائلة من الأحذية الكبيرة ، من النعال ، من الأخفاف ، كل واحد منها وقالبه في داخله ، وهذا ما كان يجعلها تبدو وأن لها سيقاناً وأقداماً ثابتة صلبة تحت تصرفها وطوع أمرها . فإن فتحت الواجهة لهذه الأحذية فإنها ستركض جميعها إلى «لندن» وراء «الدوق»! يمكن للمرء أن يستعرض هذه الأحذية ذات الكعوب العالية المصطفة على طول ثلاث غرف أو أربع ، استعراضاً بنظره ، بنظره فقط لأن رجال «المليشيا» وقد تنكبوا البنادق لن يسمحوا له ولا حتى لذبابة أن تلمس هذه الأحذية . «الثقافة» كان المدّعون يقولون : «التاريخ» كان المتخرصون يزعمون . لقد كنت أنا أفكر بالفتيان

الفقراء المنتعلين نعالاً من قنّب، الموقفين زحف الفاشية في قمم «سوموسيرا»[1] الرهيبة، المدفونة في الثلج والوحل.

كان قرب سرير «الدوق» لوحة ذات أطر ذهبية جذبتني بحروفها القوطية. عجباً، فكرت، لا بد أن شجرة أسرة (البا) قد رسمت هنا وخطت، لقد كنت على خطأ فلقد كانت قصيدة «إيف» لـ(روديارد كيبيلينغ)[2] هذا الشاعر المبتذل المنافق، رائد مجلة «ريدير ديجيست» الذي مستواه الفكري لا يزيد علواً في رأيي على مستوى أحذية (الدوق البا)، مع اذن الامبراطورية البريطانية.

إن حمّام «الدوقة» سيكون مثيراً للغاية ومهيجاً جداً، كنت أفكر أنا، لا بد أنه سيثير بي أشياء كثيرة. بخاصة تلك العذراء المتكئة الموجودة في متحف «الباردو»[3] التي وضع لها (غويا) الحلمتين الواحدة بعيدة جداً عن الأخرى، إلى درجة أن المرء يفكر كيف قاس الرسام الثوري البعد، مضيفاً قبلة على قبلة إلى أن ترك لها عقداً غير مرئي من نهد إلى نهد. لكن الغلط استمر فأخطأت مرة أخرى في توقعاتي. لقد أخطأت في الدب، في موضع الأحذية ذات الكعوب العالية، في «الاوبيريت» الإسبانية، في الـ«إيف»، وأخيراً بدلاً من حمّام إلهة وجدت مرحاضاً مدوراً ذا أبهة مزيفة بنصف برميل تحت مستوى الأرض، ببجع مصنوعة من الهيصم، متأنقة، حاملات قناديل متحذلقة متكلفة متصنعة هزلية، في النهاية، قاعة حمّام للجارية كأنه حمّام في فيلم أمريكي شمالي.

كنت على وشك الانسحاب في عدم رضا كئيب حين خُفِّف عني إذ إن رجال «المليشيا» دعوني إلى الغداء. هبطت معهم إلى المطابخ. كان قد استمر هنا أكثر من أربعين أو خمسين من الطهاة والخدم والبستانيين الذين كانوا يعملون عند «الدوق»، يعيشون ويطبخون لهم ولرجال «المليشيا» الذين كانوا يحرسون القصر. اعتبروا زيارتي مشرفة لهم. بعد بضع همسات وبعد الذهاب والإياب وتوقيع وصول لا بد منها أخرجوا زجاجة مغبرة وإذ بها من نوع Lachrima Christi لها من العمر مائة سنة، فما تركوني أشرب منها إلا بضع جرعات، كان نبيذاً لاعجاً حاراً مركباً من عسل

---

(١) سوموسيرا: هي سلسلة جبال قريبة من مدريد.

(٢) روديارد كيبيلينغ: روائي وشاعر انجليزي (١٨٦٥-١٩٣٦).

(٣) الباردو: هو متحف مدريد الشهير.

ونار، وفي الوقت نفسه عنيفاً شديداً، لا يدرك باللمس. لن أنسى بسهولة دموع «الدوق» التي انسكبت في الأقداح.

بعد أسبوع أغارت طائرتان ألمانيتان وألقتا أربع قنابل محرقة فوق قصر «ليريا». لقد شاهدت وأنا على شرفة بيتي طيران العصفورين العرّافين، تألقا ملوناً جعلني أدرك لتوّي أني أشاهد لحظات القصر الأخيرة.

لقد مررت ذاك المساء نفسه بالأطلال الدخانية -أقول هذا للكتاب الرومانيين منهياً حكايتي-.

هناك علمت بشيء مؤثر جداً -أضفت من بعد- إذ إن رجال «المليشيا» النبلاء انصرفوا تحت النار التي كانت تنزل من السماء، وبين الانفجارات التي كانت تهز الأرض ووسط الحرائق التي كانت تزداد وتنمو، لإنقاذ ما يمكن إنقاذه فما استطاعوا أن ينقذوا إلا الدب الأبيض، وكادوا أن يهلكوا في محاولتهم هذه إذ إن الدعامات كانت تنهدّ وكل شيء كان يشتعل، وكان هذا الحيوان المحنط الهائل يصر ويعاند كي لا يمر من بين النوافذ أو الأبواب. لقد رأيته من جديد ولآخر مرة بذراعيه المنفتحتين وبلونه الأبيض ميتاً من الضحك فوق عشب حديقة القصر.

عهد عابري الفضاء:

موسكو من جديد. في صبيحة يوم ٧ من تشرين الثاني حضرت استعراض الشعب لرياضييه، للفتوة السوفييتية المضيئة. لقد كان الشبان يسيرون ثابتين أكيدين فوق الساحة الحمراء. كانت تتأملهم عينان حادتان لرجل مات منذ سنوات طويلة، إنه لمؤسس هذا الأمن، لمؤسس هذا الفرح وهذه القوة: (فلاديمير إيليش اوليانوف)[(١)] المعروف بشكل خالد بلينين.

لقد عُرضت هذه المرة أسلحة قليلة، ولكن لأول مرة شوهدت الصواريخ عابرة القارات، الهائلة. تقريباً كنت أستطيع أن ألمس باليد تلك السجائر العظيمية النقية ذات المظهر الدمث، القادرة على حمل التدمير النووي إلى أبعد نقطة في الكرة الأرضية.

لقد منحوا في ذاك اليوم نفسه أوسمة للروسيين اللذين عادا من السماء. لقد

---

(١) فلاديمير ايليش اوليانوف: هو (لينين) بطل الثورة البروليتارية في الاتحاد السوفييتي (١٨٧٠-١٩٢٤).

كنت أنا أشعر أني قريب جداً من أجنحتهما . إن مهنة الشاعر هي ، في قسمها الأكبر ، الطيران كما العصافير . لقد جاءتني الرغبة عبر شوارع موسكو ، عند ضفاف البحر الأسود ، بين الفجاج الجبلية بالقوقاس السوفييتي ، في أن أنظم ديواناً عن عصافير تشيلي . لقد كان شاعر «تيموكو» بشكل واع منصرفاً إلى «التعصفر» ، إلى الكتابة عن أرضه النائية القصية ، عن البلبل والعندليب ، عن القبرة والدوري ، عن «الكندور» والكناري ، بينما كان عصفوران بشريان ، عابرا فضاء سوفييتيان ينطلقان ، يحلقان في الفضاء ويدهشان العالم أجمع . لقد حبسنا جميعاً أنفاسنا ونحن نشعر فوق رؤوسنا بهما ، وننظر بعيوننا إلى الطيران الكوني الثنائي .

ذاك اليوم كانوا يمنحونهما أوسمة . وكان بالقرب منهما ، وجميعهم أرضيون بشكل كامل ، عائلاتهما ، أقاربهما ، أصلهما ، جنسهما ، جذرهما الشعبي . كان للرجال الشيب شوارب فلاحين كبيرة غزيرة وكانت النساء العجائز يغطين رؤوسهن بمناديل الأرياف الأصيلة . لقد كان رائدا الفضاء هذان مثلنا سواء بسواء ، فنحن جميعاً أرواح من الحقل ، من الضيعة ، من المصنع ، من المكتب . لقد استقبلهما في الساحة الحمراء ، باسم الأمة السوفييتية (نيكيتا خروتشوف)(١) . من بعد رأيناهما في قاعة القديس (جورجوس) فقدموني إلى (غورمان تيتوف)(٢) رائد الفضاء رقم اثنين ، وهو شاب لطيف له عينان مضيئتان . فسألته ، فجأة :

- قل لي ، أيها الرائد ، حين كنت تبحر عبر الكون وتنظر نحو كوكبنا ، أفكنت تلمح تشيلي؟ كان ذلك كما لو أني قلت له : «إنك لتدرك أن ما هو مهم في رحلتك كان هو رؤية «تشيلي» من عل» .

لم يبتسم كما كنت أتوقع بل فكر بضع ثوان ثم قال :

إني لأذكر أني رأيت سلسلة جبال صفراء بأمريكا الجنوبية وكنت ألاحظ أنها عالية جداً ، ربما أنها كانت تشيلي .

- طبعاً كانت تشيلي ، أيها الرفيق .

لقد تركت موسكو في الوقت الذي اكتملت فيه أربعون سنة على نشوء الثورة الاشتراكية ، وأخذت القطار المتجه إلى «فينلانديا» . حين كنت أعبر المدينة باتجاه

---

(١) نيكيتا خروتشوف Nikita Jruschov : هو الزعيم السياسي السوفييتي (١٨٩٤-١٩٧٣) .

(٢) غورمان تيتوف : رائد الفضاء السوفييتي ، ولد عام ١٩٣٥ .

المحطة كانت تصعد صواريخ نارية كبيرة مضيئة ، فوسفورية ، زرقاء ، حمراء ، بنفسجية ، خضراء ، صفراء ، برتقالية ، وتحلّق عالياً جداً كأنها شحنات فرح تفرغ ، علامات صداقة تنطلق نحو الشعوب قاطبة من تلك الليلة الجيدة .

اشتريت في «فينلاانديا» ناب كركدن بحري ومضينا في سفرنا . أخذنا الباخرة التي ستعيدنا إلى أمريكا . كذلك أمريكا ووطني يمضيان مع الحياة ومع الزمن . عندما مررنا بـ«فينزويلا» في طريقنا إلى «بالبارائيسو» أرسل الطاغية (بيريث خيمينيث)[1] ، الطفل المدلل لدائرة الدولة بالولايات المتحدة ، نغل (تروجيللو)[2] و(سوموثا)[3] بضعة جنود كما لو كانوا يركبون إلى الحرب ، في مهمة منعنا من النزول إلى «فنزويلا» ، ليس منع الركاب جميعهم بل منع رفيقة حياتي ومنعي من النزول من الباخرة . لكن ، ما إن وصلنا إلى «بالبارائيسو» حتى كانت الحرية قد طردت الطاغية الفينزويلي ، فهرول المرزبان العظيم نحو «ميامي» مثل أرنب مروبص . إن العالم يسير بسرعة منذ طيران «سبوتنيك» . من كان يقول إن أول شخص سيقرع باب غرفتي في الباخرة بميناء «بالبارائيسو» كي يرحب بمجيئنا ، هو الروائي (سيمونوف) الذي كنت تركته يسبح في البحر الأسود؟

---

(١) بيريث خيمينيث Marcos : جنرال فينزويلي ، ولد عام ١٩١٤.

(٢) تروخيللو Rafael Le'onidas : جنرال دومينيكاني (١٨٩١-١٩٦١) .

(٣) سوموثا "Anatasio "Tachi : جنرال نيكراغويّ (١٨٩٦-١٩٥٦) .

الفصل الحادي عشر
الشعر حرفة

قدرة الشعر:

لقد كان ميزة من ميزات فترتنا -بين الحروب والثورات والحركات الاجتماعية الكبرى- إنماء خصوبة الشعر حتى حدود ليست بمشتبهة. لقد كان على الإنسان الاجتماعي أن يواجه الشعر بشكل جارح أو مجروح، سواء أكان في وحدته منعزلاً وسواء أكان مشاركاً في جماهير الاجتماعات العامة المحتشدة.

أبداً ما فكرت من قبل، حين كتبت أوائل كتبي المفعمة بالحزن والوحدة، أني مع مضي السنين سأجدني أنشد شعري في ساحات وشوارع ومعامل وقاعات ومسارح وحدائق عامة. لقد جبت وجلت في أنحاء تشيلي كلها أنثر شعري بين أناس شعبي.

سأروي الآن ما جرى لي في «الغوطة المركزية» التي هي أكبر سوق وأكثرها شعبية وشهرة في تشيلي. مع شروق الشمس تصل إليها الشاحنات والعربات والسيارات التي تجلب البقول والفواكه والأطعمة على اختلاف أنواعها وأصنافها من المزارع التي تحيط بالعاصمة اللاعقة الملتهمة الشرهة. يتكاثر الحمّالة -وهم حشد كبير، حفاة عراة، ذوو أجور قليلة زهيدة- في المقاهي الصغيرة والمخابئ الليلية المجاورة لأحياء «الغوطة».

ذات يوم جاء بضعة رجال في سيارة يبحثون عني فدخلت إلى السيارة دون أن أعرف إلى أين ولماذا أنا أمضي معهم في هذه السيارة. كنت أحمل معي في جيبي نسخة من ديواني «إسبانيا في القلب». ثم شرحوا لي في السيارة أني مدعو لكي ألقي محاضرة في نقابة حمّالي «الغوطة».

حين دخلت إلى تلك القاعة غير المرتبة شعرت ببرد «ليل» (خوسيه اسونثيون سيلفا)[1]، ليس بسبب فصل الشتاء المتقدم في زمهريره وأمطاره فحسب، بل كذلك

---

(١) خوسه اسونثيون سيلفا: شاعر كولومبي (١٨٦٥-١٨٩٦).

بسبب ذلك الجو في تلك القاعة ، الذي جعلني مندهشاً مرتعداً . كان يجلس على صناديق خشبية أو مقاعد ليست بمقاعد ، أكثر من خمسين رجلاً ، بعضهم يضع على خاصرته كيساً مربوطاً على شكل مريول ، وبعضهم يغطي جسده بقميص مرقع عتيق ، وبعضهم الآخر يتحدى برد شهر تموز[1] ببدنه العاري . أنا جلست خلف طاولة صغيرة تفصلني عن ذاك الجمهور الغريب العجيب ، كانوا جميعاً ينظرون إليّ بعيون فحمية ساكنة ، عيون شعب بلدي .

تذكرت (لافيرت) العجوز . كان (لافيرت) ينعت هؤلاء المتفرجين الثابتي الجنان الذين لا يحركون أية عضلة من عضلات وجوههم ، وينظرون نظرات ثابتة جريئة ، بنعت كان يجعلني أضحك كثيراً . ذات مرة قال لي حينما كنا في سهول ملح البارود . «انظر إلى هذين المسلمين المستندين إلى عامود هناك في آخر القاعة ، اللذين ينظران إلينا ، لا ينقصهما إلا البرنس[2] كي يبدوا وكأنهما من مؤمني الصحراء الرابطي الجأش والجنان» .

ما العمل مع هذا الجمهور؟ عم يمكن لي أن أحدثهم؟ ما هي أشياء حياتي التي في مكنتها أن تثير اهتمامهم؟ دون أن أستطيع أن أقرر شيئاً ، وقد أخفيت رغباتي بالخروج من هناك مهرولاً ، أخذت الكتاب الذي كنت أحمله معي وقلت لهم :

لقد كنت في إسبانيا منذ زمن قريب . هناك كان ثمة صراع كبير وطلقات رصاص كثيرة ، اسمعوا ما قلته حول ذلك الموضوع .

يجب عليّ هنا أن أشرح أن كتابي «إسبانيا في القلب» لم يبد لي قط على أنه كتاب سهل الفهم . له طموح إلى الوضوح لكنه مغموس في زحمة تلك الآلام الكبيرة المتعددة .

ما هو أكيد أني فكرت أن أقرأ بضعة أبيات ثم أودعهم . لكن الأشياء لم تجر هكذا . عندما شرعت أقرأ قصيدة إثر قصيدة ، مدفوعاً بإحساسي أن هناك سكوناً عميقاً يسود وأن كلماتي تتساقط فيه كما لو كان ماء عميقاً ، وأن عيوناً تعلوها حواجب داكنة كثيفة الشعر تتابع في اهتمام بالغ شِعري ، أدركت أن كتابي قد بلغ

---

(١) تموز : هو شهر بارد من أشهر الشتاء في أمريكا الجنوبية ، حيث الفصول هناك مغايرة لفصولنا المعهودة .

(٢) البرنس : هكذا في الأصل Albornoz ، عن العربية .

غايته وحقق غرضه فمضيت أقرأ واقرأ ، متأثراً أنا نفسي بنغم شعري ، مهتزاً بالعلاقة المغناطيسية بين أشعاري وبين تلك الأرواح المهجورة .

لقد استغرقت قراءتي أكثر من ساعة . حين كنت على وشك الانسحاب نهض واحد من أولئك الرجال ممن يحملون الكيس المعقود حول الخصر وقال :

- أريد أن أقدم لك الشكر باسم الجميع -قال ذلك في صوت عال- وكذلك أريد أن أقول لك إننا لم ننفعل من قبل كما انفعلنا ونحن نصغي إلى أشعارك .

حين انتهى من كلمته هذه انفجر في نحيب وطفق آخرون عديدون يبكون . خرجت إلى الشارع بين نظرات بليلة ومصافحات بأيد خشنة غليظة .

هل يستطيع شاعر أن يكون هو نفسه بعد أن يمر بهذه التجارب من الورد والنار؟

عندما أريد أن أتذكر (تينا مودوتّي) فإني أبذل جهداً كبيراً لو أني ألتقط قبضة ضباب . كانت هشة ذكراها ، غير مرئية . أفعرفتها أم لم أعرفها؟ .

كانت لما تزل جميلة : وجه بيضوي شاحب متأطر بجناحين سوداوين من شعر ملموم ، وعينان مخمليتان واسعتان تنظران من خلال السنين . لقد طبع (دييغو ريبيرا) صورتها ، قوامها ووجهها ، على جدارية من لوحاته ، مكللة بتويجات نباتية ومزارق من ذرة .

لقد كانت هذه المرأة مناضلة ثورية إيطالية ، فنانة كبيرة في فن التصوير ، وصلت إلى الاتحاد السوفييتي منذ زمن بغرض تصوير الجماهير والنصب التذكارية . لكنها ، هناك وقد أحيطت بأنغام الخلق الاشتراكي المبهرة ، رمت بآلة التصوير إلى نهر «موسكوفا» وأقسمت أن تكرس حياتها كلها لتأدية أكثر مهام الحزب الشيوعي تواضعاً . حين كانت تؤدي هذه المهام أو قسماً منها عرفتها أنا في المكسيك وشعرت أنها تموت تلك الليلة .

وقع هذا عام ١٩٤١ . كان زوجها هو (فيتوريو فيدالي) الرائد المشهور باسم (كارلوس) في الطابور الخامس . ماتت (تينا مودوتي) بسكتة قلبية في التاكسي الذي كان يقلها إلى بيتها . هي كانت تعرف أن قلبها ما كان يسير سيراً حسناً لكنها لم تبح بهذا الأمر إلى أحد حتى لا يضنوا عليها بالعمل الثوري الذي كانت تؤديه ، فقد كانت مستعدة لتنفيذ ما لا ينفذه أحد غيرها : مسح المكاتب وتنظيفها ، الذهاب مشياً على الأقدام إلى أبعد المناطق وأكثرها شعبية ، قضاء الليالي في سهر وهي تكتب على الآلة الكاتبة ، الرسائل والتقارير أو وهي تترجم مقالات . وفي الحرب

الأهلية الإسبانية كانت ممرضة لجرحى مناضلي الجمهورية الإسبانية .

لقد وقعت لها حادثة مأساوية في حياتها حين كانت رفيقة الزعيم الكبير الشاب (خوليو أنطونيو ميبا) الذي كان لاجئاً حينذاك في المكسيك . لقد أرسل الطاغية (جيراردو ماتشادو)[1] من «لا هافانا» عصبة من حاملي المسدسات المجرمين كي يقتلوا هذا الزعيم الثوري . كانا يخرجان ذات مساء من السينما ، «تينا» واضعة ذراعها بذراع «ميبا» ، حين أطلقت عليهما عيارات نارية ، فسقط هو صريعاً وتدحرجت هي معه على الأرض ملطخة بدماء صاحبها فيما كان المغتالون المجرمون يهربون وهم محميون بشكل جيد . والطامة الكبرى هي أن رجال الأمن هؤلاء الذين حموا المجرمين حاولوا اتهام (تينا مودوتّي) زاعمين أنها هي القاتلة .

بعد مضي اثنتي عشرة سنة على ذلك الحادث استنفرت في صمت قوي (تينا مودوتي) . حاولت السلطات المكسيكية أن تكرر تلك الفضيحة التي ارتكبتها حين أرادت هذه السلطات اتهام (تينا) بموت (ميبا) ، مدّعية أن موتها يتعلق بفضيحة . أثناء ذلك (كارلوس) وأنا كنا نكشف عن تلك الجثة الصغيرة . إن رؤية معاناة رجل قوي جداً وشجاع جداً ليست بالمنظر اللطيف . لقد كان ذاك الأسد يدمى حين يتلقى في جراحة سم الفضيحة القارض التي كان يراد بها تلطيخ (تيان مودوتي) مرة أخرى وهي ميتة . كان الرائد (كارلوس) يزمجر ويزأر بعينيه المحمرتين ، (تينا) أصبحت من شمع في تابوتها الصغير ، تابوت لاجئة وأنا كنت ساكتاً غير قادر على عمل شيء تجاه ذاك الكرب الإنساني المجتمع في تلك الغرفة .

كان الصحفيون يملأون صفحات كاملة من سلسلة قصص قذرة . كانوا يسمونها «امرأة موسكو الغامضة» . بعضهم كان يضيف «ماتت لأنها كانت تعرف أكثر مما يجب» . متأثراً بآلام (كارلوس) الغاضب ، اتخذت قراراً . كتبت قصيدة متحدية ، ضد أولئك الذين كانوا يهينون ميتتنا النبيلة . أرسلتها إلى الصحف كافة دون أدنى أمل بأن ينشروها . ها لقد حدثت الأعجوبة . فلقد ظهرت في اليوم التالي على الصفحات الأولى بدلاً من الفضائح المزورة المزيفة ، قصيدتي الساخطة الغاضبة .

كانت القصيدة معنونة على الشكل التالي «(تينا مودوتي) قد ماتت» قرأتها

---

(١) جيراردو ماتشادو : كان رئيساً للدولة الكوبية (١٨٧١-١٩٣٩) .

ذلك الصباح ، في مقبرة «المكسيك»[1] حين أودعنا التراب جسدها حيث ترقد هناك إلى الأبد تحت حجر غرانيتي مكسيكي . فوق شاهد هذا الحجر نقشت قصيدتي .

أبداً لم تعد تلك الصحافة تكتب سطراً واحداً ضد (تينا مودوتي) .

كان ذلك في «لوتا» منذ سنوات عديدة . لقد خف إلى اجتماع سياسي أكثر من عشرة آلاف عامل من عمال المناجم . إن منطقة الفحم هي منطقة متزعزعة مهتزة لما فهيا من فقر دام أكثر من قرن . فجاء منها إلى ساحة «لوتا» عمال كثيرون غصت بهم الساحة . تكلم الخطباء السياسيون كثيراً . كانت تطفو في الهواء الحار لمنتصف النهار رائحة كرائحة الفحم وملح البحر . قريباً من هناك كان المحيط ، تمتد تحت مياهه على مدى أكثر من عشرة كيلومترات الأنفاق المعتمة التي كان أولئك الرجال يستخرجون منها الفحم .

ها هم الآن يصغون في عز الشمس . المنصة عالية جداً ومنها ألحظ ذاك البحر من خلال قبعات العمال السوداء وخوذهم . كان دوري في الكلام هو الأخير . حين أعلن عن اسمي وعن عنوان قصيدتي «نشيد حب جديد إلى «ستالينغراد»» ، حدث شيء خارق ، مهرجان لن أستطيع أن أنساه أبداً .

إن الجماهير الغفيرة ، حين سمعت اسمي وعنوان قصيدتي انكشفت في هدوء . انكشفت لأنه ، بعد تلك اللهجة الحاسمة والجمل السياسية الحازمة سيتكلم شعري : الشعر . أنا رأيت من على تلك المنصة العالية حركة القبعات الهائلة : عشرة آلاف يد كانت تنزل في إيقاع واحد ، في تموج لا يوصف ، في حركة بحر ساكن ، في زبد أسود ذي وقار صامت واحترام خاشع .

إذّاك قصيدتي نمت واكتسبت نبرتها النضالية التحريرية المطلقة .

هذا الشيء الآخر جرى لي في أعوامي الفتية . حينذاك كنت شاعراً طلابياً أرتدي بردة غامقة اللون ، شاعراً لا يتغذى بما فيه الكفاية كشعراء تلك الفترة جميعهم . كنت قد انتهيت من نشر ديواني «شفقيات» ، وكنت أزن أقل من ريشة سوداء .

دخلت مع أصدقائي إلى ملهى ذي ميتة سيئة[2] . كان زمن «التانغو» وعهد

---

(١) المكسيك : هو اسم عامة المكسيك كذلك .

(٢) ميتة سيئة : تعبير إسباني بمعنى ، سيء أو بمعنى ، سمعة سيئة .

العربدة الدنيئة . فجأة توقف الرقص وتهشم «التانغو» كما كأس انفجرت على حائط .

كان في مركز الحف حيث كان الناس يرقصون ، وغدان شهيران يتشاتمان ويتهامزان ويتلامزان . حين يتقدم أحدهم كي يصفع الآخر ، يتقهقر الثاني وترتد مع تقهقره جمهرة محبي الموسيقى الذين كانوا يتمترسون خلف الطاولات . كان هذا كله يبدو وكأنه رقصة بدائية وحشية في ساحة وسط الغابة البكر .

دون أن أفكر ملياً اقتربت منهما وانتهرتهما وأنا ما أنا عليه من ضعف جسدي وهزال عضلي :

أيها العربيدان الرعديدان ، أيها الحقيران التافهان ، أيها الخسيسان البخسان ، أيها الفرخان المشاغبان ، اتركا الناس وشأنهم في راحة وهدوء فهم ما جاؤوا إلى هنا لمشاهدة هذه المهزلة بل للرقص والمتعة .

نظر أحدهم إلى الآخر مندهشين متفاجئين كما لو لم يكن أكيداً ما كانا إليه ينصتان . توجه أقصرهما الذي كان ، قبل أن يغدو وغدا ، ملاكماً معروفاً ، نحوي يريد أن يقضي عليّ ويغتالني ، وكان على وشك أن يزيلني من الوجود لو لم تظهر على حين غرة قبضة أصابت هدفها فدحرجت «الغوريلا» على الأرض ، لقد كانت قبضة خصمه الذي قرر أخيراً ضربه والخلاص منه .

حين أخرجوا البطل المهزوم كما لو كان كيساً ، بدأت الأيدي من الطاولات المنتشرة هناك تمد لنا الزجاجات والراقصات أخذن يبتسمن لنا متحمسات فرحات ، والعملاق الذي جاءت منه ضربة أراد المشاركة ظاناً أنه يستحق التكريم بعد أن برّأ نفسه بضرب خصمه ، لكنني شتمته وردعته بشكل صارم :

– انسحب من هنا فلأنت من العينة السافلة ذاتها .

انتهت لحظاتي من المجد بعد قليل ، إذ إننا لمحنا حين كنا نمر عبر مخرج ضيق نوعاً من جبل له حزام من نمر يسد باب المخرج . لقد كان الملاكم الآخر من طغمة الأوباش والأوغاد ، كان الغالب الذي ضربته بكلماتي وطردته يقطع علينا الممر في حراسة انتقامية .

كنت أنتظرك – قال لي .

بضربة خفيفة نحاني نحو باب هناك فيما كان أصدقائي يعدون هاربين على غير هدى . بقيت مهجوراً مخذولاً وحيداً أمام جلادي . نظرت نظرة سريعة علني أعثر على ما يمكن أن ألتقطه فأدافع عن نفسي به فلم يكن هناك من شيء . قطع المرمر

الثقيلة التي تغطي الطاولات، الكراسي الحديدية مستحيلة الرفع فلا أصيص زهر ولا زجاجة ولا عكاز بائسة منسية .

فلنتكلم - قال الرجل .

أدركت أن أي جهد أبذله في الحوار سيكون عديم الجدوى، وفكرت في أن هذا الوحش يريد روزي قبل التهامي كما النمر مع الأيل الوليد، وفهمت أن دفاعي الوحيد هو ألا أنمّ عن الخوف الذي كنت أشعر به . أعدت إليه الضربة التي أعطانيها لكنني لم أستطع زحزحته ولا ميليمتراً واحداً فقد كان جداراً صخرياً صلداً .

فجأة حنى رأسه نحو الخلف وغيرت عيناه : عينا سبع، من تعابيرهما .

- هل حضرتك الشاعر (بابلو نيرودا)؟

- أجل أنا (بابلو نيرودا) .

أخفض رأسه واستمر قائلاً :

- يا لي من حقير! أنا أمام الشاعر الذي أعجب به جداً وهو من قال لي في وجهي إني حقير دنيء .

ومضى يتأسف ورأسه بين يديه كلتيهما :

- إني قواد سافل والآخر الذي ضربته هو مهرب كوكائين، نحن أسفل السفلاء لكن ثمة في حياتي شيء نقي طاهر ألا وهو خطيبتي، حبي لخطيبتي . انظر إليها يا سيد (بابليتو)[1]، انظر إلى صورتها، سأقول لها إن صورتها لمستها يداك وهذا سيسرها ويبهجها .

ناولني صورة فتاة مبتسمة .

- هي تحبني بسببك، يا سيد (نابليتو)، بسبب أشعارك التي حفظناها عن ظهر قلب .

ثم انطلق ينشد :

- «في أحشائك، جاثياً جنين حزين مثلي ينظر إليّ» . . .

في هذه اللحظة فتح الباب بدفعة واحدة وإذ بأصدقائي يعودون وقد جاؤوا بمعدات وأسلحة . رأيت الرؤوس تتزاحم عند الباب مندهشة ذاهلة .

---

(١) بابليتو : هو تصغير تحبب لمن يسمى (بابلو) .

خرجت في بطء، ظل الرجل هناك وحيداً، دون أن يغير من موضعه وحالته، واستمر يقول منشداً:

«فدى لهذه الحياة التي تضطرم في شرايينه سأفني يديّ».

لقد هزمه الشعر.

لقد هوت طائرة الطيار (بويرس) التي أرسلت في مهمة تجسسية فوق الأراضي السوفييتية، من علو لا يصدق. صاروخان رائعان أدركاها فأسقطاها من غيومها. أسرع الصحفيون إلى المكان الجبلي الذي انطلقت منه القذيفتان.

كان المدفعيان شابين صغيرين، منعزلين في ذاك العالم الهائل المليء بشجر التنّوب والثلوج والأنهار. كانا يأكلان تفاحاً أو يلعبان الشطرنج أو يعزفان على «الأكورديون» أو يقرآن كتباً ويحرسان. هما كانا قد صوبا نحو السماء دفاعاً عن السماء الفسيحة، سماء الوطن الروسي.

فانهال الصحفيون عليهما بالأسئلة العديدة.

- ماذا تأكلان؟ من هم آباؤكما؟ هل يعجبكما الرقص؟ ما هي الكتب التي تقرآنها؟

أجاب واحد من هذين الشابين المدفعيين على السؤال الأخير بأنهما كانا يقرآن أشعاراً وأنه من بين شعرائهما المفضلين الشاعر الكلاسيكي (بوشكين) والشاعر التشيلي (نيرودا).

أحسست بفرح غامر حين عرفت ذلك. لقد كان ذاك الصاروخ الذي صعد وحلق وأسقط، من عل إلى أسفل سافلين، يحمل ذرة من شعري المتوقد.

(الشعر)

... كم من عمل فني ... لم يعد العالم ليسع هذه الأعمال لكثرتها ... لا بد من تعليقها خارج الغرف ... كم من كتاب ... كم من كتيب ... من يستطيع أن يقرأها جميعها؟ ... لو أنها صالحة للأكل ... لو أننا نقدر في موجة شهية عارمة أن نجعلها سلطة فنفرمها ونتبلها ... لم نعد نستطيع أن نطيق منها أكثر ... لقد ضقنا ذرعاً بها ... لقد اختنق العالم في دوامة الكتب ... (ريفيردي)[1] قال لي: «لقد

---

(١) ريفيردي: شاعر فرنسي، ولد عام ١٨٨٩.

أعلمت دائرة البريد بأن لا ترسل لي ما يصلها باسمي من كتب . لم أعد أستطيع فضها . لم يعد عندي مكان لها . لقد تسلقت الجدران فخشيت من كارثة أن تنهال فوق رأسي» . . . إنكم جميعاً تعرفون (إليوت)[1] . . . قبل أن يكون رساماً ، قبل أن يصبح مخرجاً مسرحياً ، قبل أن يغدو كاتب مقالات في النقد ، كان يقرأ أشعاري . . . فكنت أشعر بالغبطة . . . لا أحد كان يفهم شعري كما يفهمه (إليوت) . . . إلى أن بدأ ذات يوم ينشدني أشعاره وأنا ، بشكل أناني انطلقت مستنكراً : «لا تقرأ لي أشعارك ، لا تقرأ لي أشعارك» . . . ثم حبست نفسي في الحمّام ، لكن (إليوت) ، من خلف الباب ، طفق ينشد أشعاره على مسمع مني . . . فشعرت بحزن شديد . . . الشاعر الاسكوتلاندي (فريزر) الذي كان حاضراً آنذاك نهرني : «لماذا تعامل (إليوت) هذه المعاملة السيئة»؟ . . . فأجبته : إني لا أريد أن أخسر أحسن قرائي فلقد ربيته حتى عرف كل شيء عن شعري حتى تغضناته وتجاعيده . . . إن له لنبوغاً كثيراً . . . يستطيع أن يرسم اللوحات . . . يقدر أن يكتب المقالات . . . بيد أني أريد أن أحافظ على هذا القارئ ، أن أحتفظ به ، أن أرويه كما أروي نبتة نادرة . إنك لتفهمني وتتفهمني يا (فريزر) . . . لأن الحقيقة ، إن استمر هذا الوضع كما هو عليه ، هي أن الشعراء سينشرون شعرهم كي يقرأه الشعراء الآخرون ، ليس إلا . . . كل واحد منا سيخرج معدنه ، قصيدته ويدسها في جيب الآخر أو يضعها في طبقة . . . (كيبيدو) ترك قصيدة من قصائده تحت منشفة الملك فوق مائدته . . . هذا ، نعم ، كان يستحق الهم والمغامرة . . . فإما أن نضع الشعر في ساحة تحت أوج الشمس . . . أو أن الكتب تستهلك وتتفتت وتتلف في أصابع الجماهير الإنسانية . . . لكن هذا النشر من شاعر إلى شاعر لا يغريني ، لا يستهويني ، لا يشوقني بل يحدوني إلى أن أنتبذ مكاناً قصياً وسط الطبيعة ، قرب الصخر والموج ، نائياً بنفسي عن دور النشر وعن الورق المطبوع . . . لقد قد الشعر صلته بالقارئ البعيد . . . فعليه أن يستردها . . . عليه أن يجوس الدياجير حتى يلتقي بقلب الرجل ، بعيني المرأة ، بهؤلاء المجهولين الذين يعبرون الشوارع ، الذين فقد يحتاجون في ساعة شفقية أو في ليلة ذات نجوم إلى بيت شعر واحد على الأقل . . . إن هذه الزيارة المباغتة تعادل كل ما مشيناه ، كل ما قرأناه ، كلما تعلمناه . . . لا بد لنا من أن نضيع بين من لا نعرفهم كي يقطفوا عما

---

(١) اليوت : شاعر وناقد أمريكي شمالي (١٨٨٨-١٩٦٥) .

قريب ثمار أشعارنا من الشارع ، من الرمال ، من الأوراق المتساقطة منذ ألف سنة وحتى الآن في الغابة ذاتها . . . فيتناولوا في حنان هذا الشيء الذي صنعناه نحن . . . حينذاك سنكون شعراء حقيقيين . . . وفي هذا الشيء الذي نصنعه ليقطفه الآخرون سيحيا الشعر . . .

أنا أحيا مع اللغة:

أنا ولدت عام ١٩٠٤ . في عام ١٩٢١ نشرت لي قصيدة في كتيِّب . في عام ١٩٢٣ طبع لي أول ديوان وهو «شفقيات» . وهأنذا أكتب هذه المذكرات في عام ١٩٧٣ . لقد مضت خمسون سنة على تلك اللحظة المثيرة التي يشعر فيها الشاعر بأوائل ابتهالات المخلوق الوليد المطبوع ، حياً ، مهتزاً ، راغباً في أن يلفت الأنظار إليه كأي وليد آخر .

ليس في مكنة المرء أن يعيش طيلة حياته كلها بلغة واحدة وهو يمطها طولانياً ، يسبرها عمقاً ، ينبش شعرها ، يقلب أمعاءها ، دون أن تشكل هذه المعايشة وهذه الألفة جزءاً من تركيبها العضوي . وهذا ما حصل لي مع اللغة الإسبانية . إن للغة الكلام أبعاداً أخرى بينما لغة الكتابة تتخذ طولاً غير متوقع . إن استعمال اللغة كرداء ، أو كبشرة في الجسم ، بأكمامه ، برقعه ، بترشحاته ، بلطخاته من الدم أو من العرق يكشف عن الكاتب . هذا هو الأسلوب . أنا وجدت فترتي التي عشت فيها ، مشوشة مضطربة بثورات الثقافة الفرنسية . لقد جذبتني هذه الثورات دوماً لكنها ما كانت لتتلاءم مع جسدي كرداء له . لقد تكفل (هويدوبرو) وهو شاعر تشيليّ ، بالنماذج الفرنسية الرائجة التي طوّعها لتتلاءم وطريقته في الوجود والتعبير ، بشكل يستحق التقدير والإعجاب . أحياناً بدا لي وكأنه يتجاوز نماذجه ويتفوق عليها . شيء مثل هذا جرى ، في درجة أعلى ، لـ(روبين داريو) حين اقتحم الشعر «الهيسباني»[1] . بيد أن (روبين داريو) كان فيلاً عظيماً صخاباً هشم زجاج نوافذ فترة كاملة من فترات اللغة الإسبانية كي يتسرب إلى محيطها هواء العالم كله . فدخل وتسرّب .

---

(١) الهيسباني : تقترح هذه الكلمة للدلالة على ما هو مكتوب باللغة الإسبانية مقابل «إسباني»(Espouno) الذي يقتصر على ما هو من إسبانيا دون أن يشمل أمريكا اللاتينية .

إن اللغة تفصل ، أحياناً ، بين الإسبان والأمريكان وبخاصة عقيدة اللغة ، فهي تنقسم إلى قسمين . إن جمال (غورنغورا) الجماد لا يناسب أدمادنا وآمادنا ، وليس ثمة من شعر إسباني وإن كان آخر ما كتب إلا وله هذه العادة السيئة بالاقتباس عن الثروة «الغونغولية» . إن شريحتنا الأمريكية لهي من حجر مغبر ، من حمم مطحونة ، من صلصال ودم . إننا لا نعرف أن نثمن الزجاج بقرعه على الحجر ، فنحن نروز الشيء بقرعه في الفراغ حتى يرن فنعرف قيمته . إن قطرة واحدة من نبيذ (مارتين فييرو) أو من شهد (غابرييلا ميسترال) تجعل المثمنين يقفون في مكانهم مندهشين كأنهم ينظرون إلى أصص زهور نادرة .

لقد أصبحت اللغة الإسبانية مذهبة بعد (ثيرفانتيس)[١] . أناقة وتهذيباً ، فقدت القوة الهمجية التي جلبتها من (غونثالو دي بيرثيو)[٢] ومن (ارثيبريسته)[٣] ، فقدت نزعة الإخصاب التي كانت ما تزال تتوهج في (كيبيدو) . لقد جرى الشيء نفسه في إنجلترا ، في فرنسا ، في إيطاليا . إن إفراط (تشوسر)[٤] و(رابيلايس)[٥] قد خُصي وشظف . إن «البيتراركية»[٦] التثمينية جعلت الزمردّ والماس والجوهر تلتمع لكن نبع العظمة بدأ ينضب .

لقد كان لهذا الينبوع السالف علاقة بالإنسان في كليته ، مداه ، غزارته ، فيضه . على الأقل هذه كانت مشكلتي مع أني لم أطرحها على نفسي بهذه الحدود . إن كان لشعري من معنى ، فهو هذا النزوع الفضائي اللامحدود الذي لا يقنع داخل غرفة مسدودة . لقد كان عليّ أن أتجاوز حدودي غير أني ما صممت حدوداً داخل إطار ثقافة بعيدة . لقد كان عليّ أن أكون أنا إياي ، مجتهداً أن أمتد[٧] مثل أراضي

---

(١) ثيرفانتس : الكاتب الإسباني المعروف مؤلف دون كيخوته (١٥٤٧-١٦١٦) .

(٢) غونثالو دي بيرثيو : شاعر إسباني (١١٨٥-١٢٦٤) .

(٣) ارثيبريسته : شاعر إسباني مات عام ١٣٥٠ .

(٤) تشوسر : شاعر إنجليزي (١٣٤٠-١٤٠٠) .

(٥) رابيلايس : كاتب فرنسي (١٤٩٤-١٥٥٣) .

(٦) البيتراركية : نسبة إلى الشاعر (بترارك ، فرانثيسكو Pe'trarca, Francisco) ايطالي (١٣٠٦-١٣٧٤) .

(٧) من المعروف أن تشيلي هي أرض طويلة رفيعة ممتدة ، عرضها قليل جداً كما يبدو من الخريطة .

موطني ، مسقط رأسي ، لقد ساعدني في هذا السبيل شاعر آخر من القارة نفسها ألا وهو (والت وايتمان)(١) ، زميلي ، من «مانهاتان» .

يجب على النقاد أن يتعذبوا:

إن «أغاني مالدورور» تشكل في العمق قصة متسلسلة كبيرة . لكن يجب ألا ينسى أن (ايسيدور دوكاس) أخذ اسمه المنتحل عن رواية لكاتب القصص المتسلسلة (أوجين سو)(٢) وهي رواية لوتريامون المكتوبة في «شاتيناي» عام ١٨٧٣ . لكن (لوتريامونت) ، نعرف ذلك ، مضى أبعد من (لوتريامونت) ، راح إلى ما هو أعمق فقد أراد أن يكون جهنمياً . وراح إلى ما هو أعلى فقد أراد أن يكون ملاكاً لعيناً . إن (مالدورور) ، في عظمة التعاسة ، يحتفل بـ«زواج الجنة بجهنم» . إن الغضب والقصائد الحماسية الغنائية والاحتضار تشكل الأمواج الجارفة في البلاغة «الدوكاسية» . (مالدورور) : مالدولور(٣) .

لقد خطط (لوتريامونت) لمرحلة جديدة ، أنكر وجهه المكفهر فكتب مقدمة لشعر متفائل لم يستطع إنجازه وخلقه فقد أخذت المنية هذا الشاعر الأورغوايي في باريس . غير أن هذا التغيير الموعود في شعره ، هذه الحركة نحو الطيبة والصلاح ، اللذين ما أمهلته المنية كي يقوم بهما ، قد أثارا من النقد الكثير . . فهو يمجِّد في آلامه لكنه يُدان في عبوره إلى الفرح . يجب على الشاعر أن يتعذب ويعاني ، عليه أن يحيا بائساً ، لا بد له من أن يظل يكتب الأغنية اليائسة(٤) . هذا كان رأي شريحة اجتماعية ، رأي طبقة . لقد أطاع وخضع لهذه الصيغة «الشاهدية»(٥) الكثيرون ممن

---

(١) والت وايتمان : شاعر أمريكي شمالي (١٨١٩-١٨٩٢) .

(٢) أوجين سو : شاعر فرنسي (١٨٠٤-١٨٥٧) .

(٣) مالدولور : كلمة تعني الألم السيء . لاحظ التشابه اللفظي بين اسم بطل الرواية Maldoror وبين هذه الكلمة Maldolor .

(٤) الأغنية اليائسة : إشارة إلى قصيدة لنيرودا نفسه ، ترجمناها في كتابنا ، نيرودا ، مختارات شعرية ص٥٤-٥٨ .

(٥) الشاهدية : نسبة إلى شاهد القبر الحجري ، ومن معاني هذه الكلمة في الإسبانية La pidaril : الناقد أو المثمن أو حكاك الأحجار الثمينة ، ويستغل (نيرودا) هنا هذه المعاني كلها .

رزحوا تحت العذاب الذي فرضته قوانين ليست مكتوبة لكنها ليست أقل من المكتوبة شاهدية . إن هذه المراسيم غير المرئية تعاقب الشاعر بالكوخ ، بالحذاء المفتوق ، بالمستشفى ، بالتسول . وهكذا الناس كلهم يصبحون فرحين ويمضون في حفلاتهم بقليل من الدموع .

لقد تغيرت الأشياء لأن العالم قد تغير . ونحن الشعراء ترأسنا ، فجأة ، تمرد الفرح . إن الكاتب التعيس والكاتب المصلوب يشكلان جزءاً من طقوس السعادة في غروب الرأسمالية . لقد صُرف اتجاه الذوق العام ، في مهارة ، إلى تضخيم المصيبة وجعلها خميرة في الخلق الفني العظيم . لقد اعتبر السلوك السيء والوجع وصفتين جيدتين في العمل الشعري . لم يُعط في نهاية القرن ، (هولديرلين) المجنون بالقمر والبائس ، و(رامبو)(١) التائه المتمرمر ، و(جيرارد دي نيرفال)(٢) الذي شنق نفسه في عامود كهرباء عند زقاق بائس ، حدة الجمال واحتدامه فحسب بل كذلك درب الآلام ، فصار المذهب هو أن هذا الدرب من الأشواك يجب أن يكون الشرط اللازم لكل نتاج روحي .

لقد كان (ديلان توماس) هو الأخير في السنكسار(٣) الموجَّه .

إن ما هو غريب عجيب أن هذه الأفكار البورجوازية العتيقة الفظة ما زالت سارية المفعول في بعض الأنفس ، أنفس لا تجس نبض العالم في أنفه حيث يجب أن يُجس لأن أنف العالم يشتم المستقبل .

ثمة نقاد يشبهون القرع ، أغصانهم الدالة وتطعيماتهم ، تبحث عن آخر نفَس لآخر تقليعة خوفاً من أن تضيع منها لكنما جذورهم وشروشهم ما تزال مطمورة بالماضي .

نحن الشعراء لنا الحق في أن نكون سعداء ، على أساس أن نكون متحدين بشكل حديدي مع شعوبنا وأن نصارع من أجل سعادتها .

«إن (بابلو) هو واحد من بضعة رجال قلائل سعداء ، ممن عرفتهم في حياتي»

---

(١) رامبو : الشاعر الفرنسي المشهور (١٨٥٤-١٨٩١) .

(٢) جيرارد دي نيرفال : كاتب فرنسي (١٨٠٨-١٨٥٥) .

(٣) السنكسار : أخبار الشهداء والقديسين .

يقول (إيليا ايهرينبورغ) في أحد كتبه . و(بابلو) هذا هو أنا و(ايهرينبورغ) لا يخطىء البتة .

لهذا لا أستغرب أن ينشغل كاتبو مقالات أسبوعية مشهورون أمجاد بوضعي المادي مع أن «الشخصوية» يجب ألا تكون موضوع النقد . إني لأفهم أن رفاهيتي المفروضة تغيظ الكثيرين لكن الأمر هو أني سعيد من الداخل . لديّ ضمير مطمئن وعقل غير مطمئن .

إني لأهيب بالنقاد الذين يحسدون الشعراء ، إن كان لهم مستوى من الحياة أفضل ، أن يفتخروا بأن الدواوين الشعرية تطبع وتباع وتؤدي مهمتها بإيجاد عمل للنقاد ، أن يبتهجوا في أن حقوق المؤلف تدفع له وأن بعض المؤلفين ، على الأقل ، يستطيع أن يعيش من عمله المقدس . يجب على الناقد أن يفتخر بهذا كله لا أن يطلق الشَعر على الحساء[١] .

لهذا ، حين قرأت منذ وقت قريب العبارات التي خصني بها ناقد شاب ، لامع «واكليروسي» كنائسي ، بدا لي ما كتبه سخفاً ، وليس لأن هذا الناقد فذ لامع بدا لي ما كتبه أقل سخفاً وخطأً مما لو كان غير فذ لامع .

بناء على ما يزعمه أن شعري يشعر بالسعادة ولذلك فهو يصف لي العذاب . وفق هذه النظرية فإن التهاب الزائدة الدودية سينتج نثراً ممتازاً وإن التهاب الصفاق سينتج أناشيد رفيعة .

أنا أمضي أعمل بالمواد التي أملك والتي هي أنا . إني ألتهم كل شيء : المشاعر ، المخلوقات ، الكتب ، الأحداث ، المعارك . لو أستطيع لأكلت الأرض كلها ولشربت البحر جميعه .

أبيات قصيرة وطويلة:

لأني شاعر فعال نشيط فقد حاربت تأملاتي الذاتية . لذلك فإن العراك بين ما هو واقعي وبين ما هو ذاتي ، قد انحسم أمره داخل وجودي نفسه . دون أن أزعم أني بهذا أنصح أحداً من الناس ، أقول إن تجاربي تستطيع أن تساعد وتفيد . لنر النتائج لأول وهلة .

---

(١) إطلاق الشَعر الحساء ، تعبير إسباني بمعنى تدنيس النقاوة وتعكير الجو الصافي .

إنه لمن الطبيعي أن يخضع شعري لحكم النقد الرفيع وأن يتعرض لهوى الانتقاد الحقير ، سواء بسواء . إن هذا يدخل في اللعبة . ليس لي حول هذه الناحية من النقاش صوت ، لكن لي رأي لأجل النقد الجوهري ، ان رأيي هو شعري بأسره المتمثل في كتبي ، لأجل الانتقاد المعادي لي أيضاً حق إبداء الرأي وهذا الرأي كذلك مكوّن من إبداعي الذاتي الدائم .

إن ظهر ما أقوله على أنه زهو وغرور فأنتم على حق وهو كذلك فعلاً . إن غروري هو زهو الصانع الذي مارس حرفته خلال سنوات كثيرة في حب لا يمحى .

لكنني راض من شيء واحد ألا وهو أنني بشكل أو بآخر ، جعلت الناس ، على الأقل في وطنين يحترمون حرفة الشعر ، مهنة الشعر .

حين بدأت بنظم الشعر ، كان الشعراء على نوعين اثنين ، شعراء سادة كبار يكسبون احترام الناس بأموالهم التي تساعدهم على اقتناء أهميتهم الشرعية أو اللاشرعية ، والأسرة الثانية من الشعراء هي أسرة المحترفين المتشردين وهم مجانين سحرة ، ساهرون متروبصون ، عمالقة لكنهم معذبون . يبقى كذلك ، حتى لا أنساهم ، وضع أولئك المربوطين إلى طاولات الدوائر العامة كما يربط المحكوم عليه بالليمان إلى السفينة بسلاسله . لقد كانت أحلامهم ، دوماً ، تخنقها جبال من الأوراق المختومة ومخاوف رهيبة تجاه السلطة والعار .

لقد قذفت بنفسي إلى الحياة وأنا أكثر عرياً من آدم لكنني كنت مصمماً على المحافظة على طهارة شعري . لم يكن هذا الموقف غير المزحزح نافعاً لي فقط بل كذلك أهدف منه أن يدع التافهون الاستهزاء من الشاعر . فكان هؤلاء التافهون ، إن كان لهم قلب وضمير ، يستسلمون أمام شعري القيِّم وما يوقظه فيهم من معان إنسانية ، وأما الذين هم أشرار فإنهم بدأوا يتخوفون مني .

وهكذا احترم الناس الشعر المكتوب بالحرف الكبير ، ليس الشعر فحسب بل كذلك الشعراء كل الشعراء .

إني لواع بهذه الخدمة التي قدمتها إلى المجتمع ولن أدع أن يسلبني هذا الفضل أحد من الناس ؛ لأنه يطيب لي أن أحمل هذا الفضل وساماً على صدري دائماً . إن غير ذلك من الأمور قابل للنقاش أما هذا الذي أرويه الآن فإنه تاريخ حاسم وحقيقة مسلمة .

إن أعداء الشاعر العنيدين سيشهرون حججاً لم تعد تفيد في شيء ، لقد

سمُّوني في صباي : الميت جوعاً ، والآن ها هم يعادونني ويحاولون تنكيد عيشي بجعل الناس يظنون أني مثر ، أملك ثروة هائلة ، إنه ليعجبني أن أملك هذه الثروة إن كنت لا أملكها كي أنكد عيشهم وأزيدهم غيظاً بالإضافة إلى الأشياء الأخرى التي أملكها وتبعث في نفوسهم الغيظ والحسد .

آخرون يقيسون سطور أشعاري ليثبتوا أني أقسم هذه الأبيات إلى أقسام صغيرة أو أطيلها كثيراً . ليس لهذا من قيمة أو أهمية . من هو الذي ينظم الأشعار ويجعلها قصيرة أو طويلة ، نحيلة أو ثخينة ، صفراء أو حمراء؟ إنه الشاعر الذي يقرر ذلك ، يحدد ذلك بنفسه ودمه ، بمعرفته وجهله لأن هذا كله يدخل في خبز الشعر .

إن كان الشاعر غير واقعي فإنه لميت ، لكن ، إن كان الشاعر واقعياً فقط فإنه كذلك لميت . إن كان الشاعر وهمياً فقط فإنه لن يُفهم إلا من لدن حبيبته ومن نفسه ، وهذا محزن للغاية ، وإن كان الشاعر عقلانياً فقط فإنه سيفهم من قبل الجميع وحتى من قبل الحمير وهذا كذلك محزن جداً . ليس ثمة من أرقام وصيغ مكتوبة على الألواح بالنسبة لهذه المعادلات ، وليس ثمة من عناصر ومواد قدرها الله أو قررها الشيطان ، بل إن هاتين الشخصيتين المهمتين تتصارعان داخل الشعر ، وفي هذه المعركة قد يغلب هذا أو قد يغلب ذاك لكن الشعر لن يهزم البتة .

إنه لمن الواضح أن حرفة الشاعر أصبحت مغشوشة نوعاً ما . يخرج شعراء مبتدئون كثيرون وشواعر مبتدئات كثيرات إلى درجة أننا سنبدو عما قريب جميعاً شعراء وسيختفي القراء . سيكون علينا أن نذهب للبحث عن القراء في رحلات تجتاز الرمال على ظهور الجمال أو تحلق في السماء بسفن فضائية .

إن الشعر لهو النزعة العميقة في الإنسان ، فمن الشعر خرجت الطقوس الدينية ، والمزامير وكذلك محتوى الأديان . لقد فسر الشاعر مظاهر الطبيعة وتجرأ عليها وتقلب في العهود الأولى كاهناً كي يصون دعوته ، ومن هنا فإن الشاعر ، في العصر الحديث ، كي يدافع عن شعره ، يرتدي الزي الذي تخلعه عليه الجماهير والشوارع . إن الشاعر المدني اليوم لا يزال هو أقدم كاهن وريث الكهنوتية السحيقة في القدم . لقد تحالف من قبل مع الدياجير وعليه الآن أن يشرح النور .

الأصالة:

أنا لا أعتقد بالأصالة . إنها لصنم آخر ، مخلوق في عصرنا ذي الانهيار السريع

المسبب للدوار . إني لأعتقد بالشخصية من خلال أية لغة ، أي شكل ، أي معنى للخلق الفني . لكن الأصالة الهاذية الهتراء هي اختراع حديث وغش انتخابي . ثمة من يريد أن يختار الشاعر الأول في بلده ، في لغته ، في العالم بأسره . عند ذلك يجري بحثاً عن ناخبين ، يلعن كل من يظن أن لديه احتمالاً في أن ينافسه على الفوز بهذا الصولجان ، وبهذا الشكل يتحول الشعر إلى مهزلة .

غير أنه من الضروري الاحتفاظ بالاتجاه الداخلي . المحافظة على النمو الذي تساهم به الطبيعة والثقافة والحياة الاجتماعية لتطوير ميزات الشاعر ومميزاته .

لقد كتب ، في الأزمنة القديمة ، أكثر الشعراء نبلاً وأكثرهم صرامة ، مثل (أوفيديو) Ovidio ، مثلاً ، قصائدهم مع هذا التنبيه : «تقليد لـ(هوراثيو Horacio)[1]» ، «تقليد لـ(أوفيديو)[2]» ، «تقليد لـ(لوكرايثو Lucrecio)[3]» .

من جهتي ، إني لأحافظ على لحني الخاص بي الذي راح يتوطد بفضل طبيعته الذاتية مثلما تنمو الأشياء الحية كلها . لا مندوحة من أن العواطف تشكل جزءاً أساسياً في أوائل دواويني ، فأه للشاعر الذي لا يجيب بغنائه على نداءات قلبه الناعمة أو الغاضبة! بيد أنني ، بعد أربعين سنة من التجربة ، أعتقد أن التأليف الشعري يستطيع التوصل إلى سيطرة على العواطف أكثر جذرية وأساسية . إني لأؤمن بالارتجالية الموجهة أو العفوية المسيرة أو التلقائية المقننة . لأجل هذا فلا بد من أن تكون ثمة أرصدة يجب أن توضع تحت تصرف الشاعر دوماً ، فلنقل إنه يجب أن يحملها معه في جيبه ، لأية طارئة قد تحدث . أول ما يجب أن يزود به الشاعر هو رصيده من الأشكال والمضامين ، من الكلمات ، من الأوزان ، من الألحان ، من الصور ، ومن هذه الأشياء التي تمر إزاء المرء كما النحل . يجب أن تصاد تواً وأن توضع في الجيب . أنا جد كسول في هذا المعنى ، لكنني أدري أنني بهذا أعطي نصيحة طيبة للشعراء الآخرين . لقد كان لدى (ماياكوفيسكي) كرّاس صغير يلجأ إليه بلا هوادة أو تريث . ثمة أيضاً مخزون العواطف . فكيف تحفظ هذه؟ تحفظ بنوعيها حين

---

(١) هوراثيو : شاعر لاتيني من القرن الأول قبل المسيح .

(٢) أوفيديو : شاعر لاتيني من القرن الأول قبل المسيح .

(٣) لوكريثيو : شاعر لاتيني من القرن الأول قبل المسيح .

تحدث . من بعد ، أمام القرطاس ، سنتذكر هذا الوعي في حيوية أكثر من حيوية العاطفة نفسها .

في قسم كبير من تآليفي أردت أن أبرهن على أن الشاعر يستطيع أن يكتب حول ما يشار له به ، حول كل ما هو ضرورة للمجموعة الإنسانية . إن أكثر المؤلفات العظيمة في القدم قد كتبت بناء على مطالب ضيقة خاصة . إن كتاب «جورجيكاس» هو دعاية للزراعة الرومانية يستطيع الشاعر أن يكتب للجامعة أو النقابة ، للمنظمات وجمعيات الحرف . أبداً لم يفقد الحرية بهذا . إن الوحي السحري وإن اتصال الشاعر بالله إن هما إلا اختلاقين مغرضين وابتكارين ذوي مصلحة . في أكثر لحظات الإبداع غيبوبة قد يكون النتاج ، جزئياً ، بعيداً عن صاحبه ، متأثراً بقراءاته وبضغوط خارجية عنه .

هأنذا أقطع هذه الاعتبارات والأحكام التي هي نظرية لا تذكر الحياة الأدبية التي خضتها في أعوامي الفتية . كان ثمة ، إذّاك ، رسامون وكتّاب يتهيجون هياجاً أصم . كان ثمة ، حينذاك ، غنائية خريفية في الرسم وفي الشعر . كل واحد كان يحاول أن يكون أكثر فوضوياً ، أكثر انفلاشاً . كانت الحياة الاجتماعية التشيلية تتحرك بشكل عميق . (اليساندري) كان يلقي خطباً تستهدف قلب النظام . في سهول ملح البارود أخذ العمال ينظمون أنفسهم فخلقوا أكثر الحركات الشعبية أهمية في القارة الأمريكية . لقد كانت تلك الفترة أيام صراع مقدس . أيام (جان غاندولفو) و(كارلوس بيكونيا) . لقد التحقت أنا بحركة العقيدة الفوضوية الطلابية . كان كتابي المفضل هو «سانشا يغوليف» Sancha Yegulev لـ(أندريف) . كان الآخرون يقرأون الروايات الإباحية لـ(ارزيبفاشيف Arzivachev) وكانوا ينسبون إليه استنتاجات عقائدية كما يقع اليوم بالنسبة للإباحية الوجودية . كان المثقفون يلتجئون إلى النوادي الليلية فكان النبيذ المعتق يجعل البؤس يلتمع التماع الذهب حتى مطلع الفجر في اليوم التالي . (جان إيغانيا Juan Egana) ، شاعر موهوب جداً ، كان قد أفلس حتى القبر[1] فيحكى عنه أنه ورث أموالاً كثيرة أنفقها على الكأس والطاس فوق طاولة في حانة مهجورة . كان السمّار ينامون نهاراً ويخرجون ليلاً للبحث عن نبيذ فيحتسون دناناً

---

(١) أفلس حتى القبر : تعبير إسباني ، حتى الضنك .

بأسرها . غير أن هذا الشعاع القمري لشعر (خوان ايغانيا) هو ارتعاش غير معروف في «غابتنا الغنائية» ، وهذا هو العنوان الرومانطيكي لكتاب المختارات الكبير الذي ألفه (مولينا نونييث) و(و . سيغورا كاسترو O. Segura Castro) ، وهو كتاب واسع محيط مليء بالعظمة والجود ، وهو الحصيلة الشعرية لفترة مضطربة مرتبكة ، متميزة بفراغات هائلة وببريق نقي جداً . إن أكثر شخصية بهرتني هي شخصية ديكتاتور الأدب الفني الحديث ، لم يعد يذكره أحد ، كان يسمى (اليبرو اويارتون) ، لقد كان (بودليريا) ضامراً ، كأنه في عصر الانحطاط لكنه مليء بالمزايا الفريدة ، كأنه (باربا-جاكوب) بالنسبة لتشيلي . كان يتكلم بصوت أجش في قامته الطويلة . لقد اخترع هذه الطريقة الهيروغليفية الغامضة فعرض القضايا والمشاكل الفنية الجمالية ، وهو عرض فريد من نوعه في عالمنا الأدبي . كان يرفع صوته ويبدو جبينه كأنه قبة صفراء في معبد الذكاء . كان يقول مثلاً : «ما هو دائر في الدائرة» ، «ما هو «ديونيسي» في (ديونيسوس Dionysos)» ، «ما هو معمه في المعمهات» . لكن (أليرو اورياثون) لم يكن غبياً ، بل كان يلخص في ذاته ما هو فردوسي وما هو جهنمي في الثقافة . لقد كان كونياً : فبسبب حبه للتنظير ، قتل جوهره الأصيل . يقولون إنه كي يكسب في مراهنة كتب قصيدته الوحيدة ، وأنا لا أفهم لماذا لا ترد هذه القصيدة الرائعة في كتب المختارات الشعرية التشيلية كلها .

زجاجات وتماثيل:

هو ذا عيد ميلاد يقترب . كل عيد ميلاد يمر ، يقربنا من عام ٢٠٠٠ . من أجل هذه البهجة المقبلة من أجل سلام الغد ، من أجل العدالة الكونية العالمية صارعنا وأنشدنا نحن شعراء هذا الزمن .

لقد طلب مني ، في ٢٤ كانون الأول من عام ١٩٣٠ ، (سوقراط اغييره) ، ذاك الرجل الناعم الفاخر الممتاز الذي كان رئيسي في قنصلية تشيلي بـ«بونوس ايبرس» ، أن أجعل من نفسي القديس (نيقولا) أو رجل الفصح العجوز بداره . لقد صنعت أشياء كثيرة سيئة في حياتي ، لكن ما من شيء صنعته كان أسوأ من هذا «رجل الفصح العجوز» . لقد كانت تتساقط مني شواربي القطنية وأخطأت كثيراً في توزيع الألعاب . وكيف يمكن لي أن أخفي صوتي وقد جعلته طبيعة الجنوب التشيلي اغن أخن ، أنفيا ، خاطبت الأطفال باللغة الإنجليزية ، لكن الأطفال كانوا يغرزون بي عدة

أزواج من عيون سوداء وزرقاء ويبدون ارتياباً وشكاً وعدم ثقة لا تليق بهم فهم على خلق عظيم وتربية صالحة .

من كان سيقول إن ثمة من بين أولئك الأطفال ، طفلة ستصبح من أحسن صديقاتي المفضلات ومن أحسن من كتبوا سيرتي وترجموا لي ، أعني بها الكاتبة الشهيرة (مارغاريتا أغيره) .

لقد جمعت في بيتي ألعاباً صغيرة ودمى كبيرة ، لن أستطيع العيش بدونها . إن الطفل الذي لا يلعب ليس بطفل ، لكن الرجل الذي لا يلعب فإنه سيفقد للأبد الطفل الذي كان يعيش في داخله والذي سيحتاج إليه دوماً . لقد شيدت بيتي كذلك مثل لعبة ألعب بها من الصباح إلى الليل .

إنها لعبي الخاصة بي ، لقد جمعتها طيلة حياتي كلها بهدف علمي ألا وهو أن أتسلى بها وحدي . سأصفها من أجل الأطفال : الأطفال الصغار وأطفال الأعمار كلها .

عندي سفينة شراعية داخل زجاجة . لكي أقول الحقيقة إن عندي أكثر من واحدة . إنها لأسطول حقيقي لها أسماؤها المكتوبة ، قضبانها ، قلاعها ، قياديها ، مراسيها ، مخاطيفها ، بعضها جاء من بعيد ، من بحار أخرى صغيرة . واحدة منها ، وهي من أجمل السفن ، أرسلوها لي من إسبانيا كدفع لحقوق المؤلف عن كتاب من كتب أناشيدي . في الأعلى ، على السارية الكبيرة ترفرف رايتنا التشيلية بنجمتها الوحيدة الصغيرة . لكن ، البواخر الأخرى ، تقريباً كلها ، هي من صنع السيد (كارلوس هويّاندير) والسيد (هوياندير) هو بحّار عجوز ، أعاد إنتاج الكثير من السفن الجليلة الشهيرة التي كانت تجيء من «هامبورغ» أو من «سالم» أو من الشاطئ البريتاني لشحن ملح البارود أو لصيد الحيتان من بحار الجنوب .

حين أهبط الطريق الطويل لتشيلي كي أجد في «كورونيل» البحّار العجوز بين رائحة الفحم والمطر الغزير بهذه المدينة الجنوبية ، فإني في الحقيقة ألج إلى الترسانة حيث يوجد أصغر مرآب لبناء السفن في العالم . في القاعة ، في غرفة الطعام ، في المطبخ ، في الحديقة كانت تتراكم وتنتظم المواد التي ستحشر داخل الزجاجات الشفافة الواضحة التي قد أفرغ منها «البيسكو»[1] . يلمس السيد (كارلوس) بصفيره

---

(١) البيسكو : نوع من الخمر يشبه العرق .

السحري قياديم ، أشرعة ، صواري ، فيستحيل كل ما يمر بين يديه حتى أصغر دخان في المرفأ إلى خلق وإبداع ، إلى سفينة زجاجية جديدة ، نضرة مشعة ، مهيأة للبحر الوهمي . تبرز في مجموعتي في كبرياء وغطرسة ، من بين السفن الأخرى التي اشتريتها في «امبيرس» أو «مارسيليا» ، السفن التي خرجت من يدَي ملاّح «كورونيل» المتواضعتين . فهو لم يمنح هذه السفن الحياة فحسب بل أضاءها بمعرفته ، ملصقاً عليها إعلاناً يحكي الاسم والرقم ومآثر كل نموذج يقلده ، الأسفار التي قامت بها كل سفينة ، الأهوال التي لاقتها ، الحمولات التي وزعتها حين كانت تمخر ضد الريح مرتعشة عبر المحيط الهادي بأشرعتها التي لن نراها من بعد أبداً .

أنا عندي سفن زجاجية قديرة وعظيمة وشهيرة جداً مثل سفيننة «بوتوسي» الرائعة وسفينة «بروسيا» الهائلة التي انطلقت من «هامبورغ» وغرقت في قناة «المانش» عام ١٩١٠ . إن المعلم (هوياندير) قد خصني فصنع لي كذلك نموذجين من سفيننة «ماريا ثيليسته»[1] التي منذ عام ١٨٨٢ تحولت إلى نجمة ، في سر من الأسرار .

لست مستعداً لكشف السر الملاّحي الذي يحيا في شفوف هذه السفن الزجاجية . وهو يتعلق بمعرفة كيف دخلت هذه السفن الصغيرة في زجاجاتها الهشّة جداً . أنا ، بصفتي خادعاً محترفاً ، بغرض التزوير ، وصفت بشكل دقيق في نشيد ، العمل المسهب الضئيل في هذه البنى الغريبة العجيبة ، ورويت كيف تدخل وتخرج من الزجاجات البحرية . لكن السر ظل قائماً .

إن أفضل لعبي لهي تماثيل القياديم المقنّعة . كبقية أشيائي الكثيرة فإن هذه التماثيل المقنَّعة قد عولجت في الصحف وفي المجلات ، قد نوقشت في رفق أو في حقد في رضا أو في سخط ، الذين يحكمون لها في رفق ورضا يضحكون ويقولون :

يا له من مخبول معتوه ، ما الذي أدى به إلى هوس جمع هذه الأشياء!

والذين يحكمون عليها في حقد وسخط يرون الأشياء بشكل آخر . واحد منهم ، متمرمر بسبب مجموعاتي وبسبب الراية الزرقاء ذات السمكة البيضاء التي أنا أرفعها فوق داري بـ«ايسلا نيغرا» قال :

- إني لا أنصب راية خاصة وليس عندي تماثيل قياديم .

---

(١) ماريا ثيليسته : معناها ، مريم السماوية .

كان المسكين يبكي بكاء صبي يحسد الصبيان الآخرين على الخذروف الذي يلعبون به ، فيما كانت تماثيلي البحرية تبتسم مفتونة زاهية ، تضحك من الحسد الذي تبعثه فيهم جميعاً .

في الحقيقة كان يجب أن يقال دوماً ، دفعاً للالتباس ، تماثيل قيادیم ، إنها لأشكال نصفية ، إنها لنصب بحرية ، إنها لصور للمحيط الضائع . حين بنى الإنسان أشرعته أحب أن يسمو بقياديم سفنه في معنى أجلّ وأرفع . فوضع منذ القدم في أشرعته أشكال طيور ، عصافير طوطمية ، حيوانات خرافية ، نقوشاً في الخشب . من بعد ، في القرن التاسع عشر نحتت البواخر الحيتانية الضخمة أشكالاً ذات صفات رمزية : إلاهات نصف عاريات أو سيدات يمثلن العهد الجمهوري بقبعات قشيبة جمهورية .

أنا عندي تماثيلِ قياديم مذكرة ومؤنثة . أصغر واحدة من المؤنثات وأبدعها تسمى «ماريا ثيليسته» وقد حاول (سالفادور اييندە Salvador Allende)(١) أن يخطفها مني عدة مرات ، وهي كانت تنتمي إلى سفينة فرنسية ذات حجم صغير ولعلها لم تبحر إلا في مياه نهر «السين» ، وهي منحوتة من شجر بلوط ، ذات لون غامق إذ إنها بعد مضي السنين ، وبعد العديد من الإبحار أصبحت سمراء إلى الأبد . إنها لصبية صغيرة تبدو وكأنها تطير لدى إشارة من الريح في ملابسها الجميلة من أزياء الإمبراطورية الثانية . تنظر عيناها ، من فوق غمازات خديها ، إلى الأفق البعيد ، وهاتان العينان ، وإن بدا هذا غريباً ، تبكيان خلال فصل الشتاء في كل سنة . لا أحد يستطيع أن يفسر هذه الدموع الفصلية . ربما أن الخشب المصنوعة منه له صمغ يتضمخ بالرطوبة . لكن ما هو أكيد أن هاتين العينين الفرنسيتين تبكيان في الشتاء ، أنا أرى كل سنة في هذا الفصل الدموع الرائعة وهي تتصبب من وجه «ماريا ثيليسته» الصغير .

قد يستيقظ شعور ديني في الإنسان تجاه الصور والتماثيل ، أكانت هذه مسيحية أم وثنية فالأمر سواء . واحدة أخرى من تماثيلي الأنثوية مكثت خلال بضعة أعوام في المكان الذي يناسبها ألا وهو مقابل البحر ، في وضعية مائلة منحدرة كما لو أنها كانت تمخر في الباخرة . غير أن (ماتيلده) وأنا اكتشفنا ذات مساء بعض السيدات

---

(١) سالفادور (اييندە) هو رئيس جمهورية تشيلي ، انتخب رئيساً عام ١٩٧٠ ، وقتل عام ١٩٧٣ على إثر الانقلاب العسكري اليميني .

المتدينات التقيات في «ايسلا نيغرا» وقد قفزن من على حاجز الدار كما يعتاد أن يفعل الصحفيون الذين يريدون إجراء مقابلة معي ، رأيناهن وهن راكعات أمام تمثال القيدوم المضاء بكثير من الشموع التي كنا قد أشعلناها لهذا التمثال الأنثوي . لعل ديناً جديداً قد ولد . لكن مع أن التمثال كان في موضع عال ويبدو طويلاً جليلاً مثل (غاربيلا ميسترال) فقد كان علينا أن نبعث اليأس في نفوس المؤمنات كي لا يمكثن هناك عابدات في براءة ووقار ، صورة امرأة بحرية كانت قد أبحرت عبر أكثر البحار خطيئة في كوكبنا المذنب مقترف الخطايا دائماً .

منذ ذلك الحين ، نحيتها من الحديقة وها هي الآن قربي عند المدخنة .

كتب وقواقع :

إن هاوي الكتب الفقير له مناسبات لا نهاية لها للمعاناة والعذاب ، فالكتب لا تفر من بين يديه ، بل تعبر أمامه عبر الهواء في طيران عصفور ، في طيران أسعار غالية .

غير أنه بعد تنقيب كثير وبحث عسير تبرز الدرّة .

أذكر دهشة بائع الكتب (غارثيا ريكوGarcia Rico) بمدريد في عام ١٩٣٤ حين اقترحت عليه أن أشتري منه طبعة قديمة من ديوان (غونغورا) الذي كان ثمنه ١٠٠ «بيسيته» فقط ، بأقساط شهرية قدرها ٢٠ «بيسيته» كل شهر . لقد كان ثمن هذا الديوان مبلغاً زهيداً غير أني ما كنت أمتلكه فدفعت له في الموعد المحدد على مدى ستة أشهر[١] . لقد كانت هذه الطبعة هي طبعة (فوبينيس) . هذا الناشر الفلامنكي طبع بحروف رائعة لا يمكن مقارنتها بغيرها نظراً لجودتها وجمالها ، في القرن الثامن عشر ، أعمال المعلمين الأسبان الفطاحل من العصر الذهبي[٢] .

لا يعجبني أن أقرأ لـ(كيبيدو) إلا في تلك الطبعات حيث الـ«سونينوس»[٣] تبرز في خط دفاعي مثل بوارج حديدية . من بعد ألفت غابة دكاكين الوراقين في ضواحي المدينة الوعرة حيث تباع كتب «اليد الثانية»[٤] وتمرنت على أروقة المكتبات

---

(١) يبدو أنه حين اشترى الديوان لم يدفع شيئاً ولذلك يقول على مدى ستة أشهر وليس خمسة أشهر .

(٢) هو القرن السادس عشر الميلادي .

(٣) السونينوس : هي قصائد تشبه الأرجاز العربية .

(٤) اليد الثانية : تعبير إسباني بمعنى للمرة الثانية .

الضخمة التي تشبه أروقة الكاتدرائيات في فرنسا وإنجلترا . لقد كانت يداي تخرجان بعد اللمس والبحث مغبرتين ، لكن من حين إلى حين كنت أحصل على كنز ، أو على الأقل ، على الفرح بافتخاري في أنه كنز .

لقد ساعدتني الجوائز الأدبية التي دفعت لي عداً ونقداً على اقتناء بعض النسخ بأثمان شاذة فأصبحت مكتبتي معتبرة ، كانت كتب الشعر القديمة تبرز فيها وضاحة براقة ، وكذلك فإن شغفي بالتاريخ الطبيعي ملأها بكتب ضخمة من علم النبات في كل صنف ولون ، ومن علم الطيور ومن علم الحشرات ومن علم الأسماك . لقد وجدت كتب رحلات وأسفار ساحرة ، طبعات لكتاب «جون كيخوته» لا تصدق ، مطبوعة من قبل (ايبارّا Ibarra) كتيبات لـ(دانتي Dante)[1] في طباعة رائعة ، حتى إني عثرت على كتاب لـ(موليير Moliere)[2] كان قد طبع في نسخ قليلة جداً (Adusnm Delphine) لابن ملك فرنسا .

لكن ، في الواقع ، إن أحسن ما جمعت في حياتي كانت هي قواقعي . لقد منحتني متعة بنيتها المدهشة : لنقاوة القمرية : نقاوة «بورسلان» غريب ساحر بالإضافة إلى العديد من الأشكال الملساء ، الغوطية ، الفخمة .

إن آلاف الأبواب الصغيرة البحرية قد انفتحت أمام معرفتي منذ ذلك اليوم الذي أهدى إليّ فيه عالم الرخويات الكوبي السيد (كارلوس دي لا توريه) أحسن نماذج مجموعته . منذ ذلك الوقت وأنا ، حيث أسافر ، أجوب البحار السبعة بحثاً عنها . لكن عليّ أن أعترف أن بحر باريس ، بين موجة وموجة ، هو من كشف لي قواقع أكثر . كانت باريس قد نقلت أصداف المحيطات كلها إلى دكاكينها لبيع تحف التاريخ الطبيعي ، إلى «أسواقها البراغيثية» .

لقد كان أسهل من إدخال الأيدي في صخور «بيراكروث»(Veracruz) أو «كاليفورنيا» السفلى ، العثور ، تحت غلاف المدينة ، بين زجاج مكسر وأحذية قديمة ، على الطيف الشائق لحلزونة «الزيتونة الحاكة» أو مفاجئة حلزونة الرمح المصنوع من المرو الذي يتطاول ويتطاول ، كبيت شعر من الماء ، في (La Rosellaria Fusus) لا أحد يستطيع أن ينزع مني الانبهار والزهو بأني قد استخرجت من البحر (el

---

(١) دانتي Alishieri : الأديب الإيطالي المعروف مؤلف الكوميديا الإلهية ، (١٢٦٥-١٣٢١) .

(٢) موليير : الأديب الفرنسي الشهير (١٦٢٢-١٦٧٣) .

(Espondylus الوردي وهو محارة مرصعة بأشواك مرجانية . وقدرت أن أشاهد (el Espondylus) الأبيض وهو مفتوح بين بين ، وهو مصنوع من قضبان وأشواك ثلجية بيضاء تبدو كالنوازل الكليسة المترسبة في مغارة «غونغورية» .

بعض هذه الانتصارات كانت تاريخية . أذكر أنه في متحف بكين فتحوا الصندوق الأكثر تقديساً ، المليء برخويات البحر الصيني وأهدوا إليَّ نموذجاً من النموذجين الاثنين الوحيدين من صنف (Thatcheria Mirabilis) استطعت أن أكنز هذا العمل الفني الخارق الذي به أهدى المحيط إلى الصين أسلوب المعابد والهياكل الذي عم وشاع إلى الآن في تلك الأصقاع .

لقد استغرقت ثلاثين سنة وأنا أجمع كتباً كثيرة . كانت رفوفي تحتوي على كتب طبعت قبل زمن بعيد ومجلدات كانت تهزني ، كتب لـ(كيبيدو) و(ثيرفانتس) و(غونغورا) في طبعاتها الأصلية الأولية ، كذلك على كتب لـ(لافورغه Luforque) لـ(رامبو) لـ(لوتريامون) . كانت هذه الصفحات تبدو لي وكأنها ما زالت تحتفظ بلمس هؤلاء الشعراء الأحياء . لقد أهدى إليَّ (بول أيلوار) بمناسبة عيد ميلادي في باريس الرسالتين اللتين كتبهما (ايسابيل رامبو) إلى أمه في المستشفى بمرسيليا ، حيث بُترت لهذا المتشرد التائه ساقه . لقد كانت هاتان الرسالتان كنزين يطمع بهما : المكتبة الوطنية في باريس وجامعو الكتب الشرهون في «شيكاغو» .

لقد جبت العوالم كلها إلى درجة أن مكتبتي نمت في إفراط وجاوزت شروط المكتبة الخاصة . ذات يوم أهديت مجموعة القواقع التي قضيت عشرين سنة وأنا أجمعها وتلك المجلدات التي بلغ عددها الخمسة آلاف التي اخترتها في حب عظيم في أقطار العالم كله ، إلى جامعة تشيلي فاستقبل مدير الجامعة هذه الهبة بالجمل الطنانة والكلمات الجميلة .

أي إنسان متبلور شفاف سيفكر في البهجة التي عمت تشيلي إثر هديتي هذه ، لكن ثمة أناس ضد المتبلورين وغير متبلورين . لقد كتب ناقد رسمي مقالات غاضبة يحتج فيها بحدة وشدة على سلوكي هذا . متى سيقطع دابر الشيوعية الدولية؟ كان يصرخ ، سيد آخر ألقى في البرلمان خطاباً ملتهباً ضد الجامعة لأنها قبلت هداياي الرائعة ، القابلة للمهد منها وغير القابلة[1] وهدد بقطع الإعانات التي تتلقاها الجامعة

---

(١) تعبير إسباني ، بمعنى الصالح والطالح .

الوطنية . بين كاتب المقالات ونائب البرلمانات شن آخرون موجة من الصقيع فوق عالم تشيلي الصغير ، فكان مدير الجامعة يروح ويغدو عبر كواليس البرلمان شاحب الوجه مرتعداً ، ثم فصل وعزل .

لقد انقضت عشرون سنة على ذلك التاريخ وما من أحد عاد فرأى كتبي أو قواقعي ، يبدو أنها رجعت إلى دكاكين الوراقين وإلى المحطات .

زجاج مهشم:

منذ ثلاثة أيام عدت لأدخل بعد غياب طويل إلى داري في «بالبارائيسو» فرأيت شقوقاً تجرح الحيطان والزجاج قد أصبح شظايا مهشمة تشكل سجادة أليمة فوق الأرض في الغرف جميعها . كانت الساعات التي هوت على الأرض تشير إلى ساعة حدوث الزلزال . كم من الأشياء الجميلة تكنسها الآن (ماتيلده) بمكنسة! كم من الأغراض الغريبة التي حولتها الهزة الأرضية إلى قمامة ونفاية!

يجب علينا تنظيف الدار وترتيب الحاجات والبدء من جديد . إنه ليكلف جهداً العثور على الورق في وسط الفوضى ، وإنه لصعب من بعد ، إيجاد الأفكار .

كانت آخر أعمالي هي ترجمة «روميو وجولييت» وقصيدة غزل طويلة في أوزان قديمة ، لكنها ظلت غير منتهية .

هيا ، أيتها القصيدة الغزلية انهضي من بين الزجاج المهشم فلقد حانت ساعة الغناء .

ساعديني ، أيتها القصيدة الغزلية ، على إعادة الصفاء ، على الغناء فوق الألم .

إنها لحقيقة أن العالم لا يتطهر من الحرب ، لا يغسل من الدم ، لا يلم من الكراهية ، إنها لحقيقة .

بيد أنها كذلك ، في حد سواء ، لحقيقة أننا نقترب من الجلاء : إن العنيفين ينعكسون في مرآة العالم ، ووجههم ليس جميلاً حتى في نظرهم أنفسهم .

وما زلت أعتقد في إمكانية الحب . لديّ يقين بأن التفاهم بين البشر سيتم على الرغم من الآلام ومن الدم ومن الزجاج المهشم .

(ماتيلده اوروتيا)، زوجتي:

إن زوجتي لهي قروية مثلي أنا . ولدت في بلدة بالجنوب تدعى «تسييان» ، وهذه

البلدة شهيرة ، من الناحية السعيدة ، بأوانيها الفخارية الريفية ، ومن الناحية التعيسة ، بزلازلها الرهيبة .

قد قلت كل ما أريد أن أقوله لها في ديواني «مائة أرجوزة حب» (Cien sone'tos de amor)[١] .

ربما تستطيع هذه الأشعار أن تدل عما تعينه هي بالنسبة لي . لقد جمعتنا الحياة والأرض .

مع أن هذا لا يهم أحداً غيرنا فإني أقول ، نحن سعيدان جداً . نقسم وقتنا المشترك إلى جلسات طويلة في شاطئ تشيلي المنعزل الوحيد . ليس في الصيف لأن الشريط الساحلي الذي تعيد تجفيفه الشمس طيلة الصيف يعلن عن نفسه أصفر أجرد صحراوياً . بلى في الشتاء حين يرتدي هذا الشريط في تزهير غريب مع الأمطار والبرد ، الأخضر والأصفر ، الأزرق والأرجواني . بعض الأحيان نصعد من المحيط البري الوحيد إلى المدينة العصبية ، إلى العاصمة «سانتياغو» التي فيها نعاني معاً من وجود الآخرين المعقد .

(ماتيلده) تغنّي في صوت قدير أغانيّ وقصائدي .

إني لأهدي إليها كل ما أكتب وكل ما أملك ، ليس بالكثير لكنها سعيدة راضية .

الآن ألمحها وهي تدفن حذاءها في طين الحديقة ومن بعد تدفن يديها الصغيرتين في عمق النبتة .

لقد جلبت لي من الأرض برجليها ويديها وعينيها وصوتها الجذور كلها ، الزهور جميعها ، ثمار السعادة الشذية جمعاء .

مخترع نجوم:

رجل كان ينام في غرفته بفندق بباريس ، ربما أنه كان سهيراً كبيراً فلا تندهشوا إن قلت لكم إنه كان يظل نائماً إلى ما بعد منتصف النهار .

لقد اضطر أن يستيقظ ذات يوم وكانت الساعة قد جاوزت الثانية عشرة فقد انهار الجدار الشمالي على حين غرة ثم انهار الحائط المواجه ، لم يكن الأمر بغارة جوية .

---

(١) لقد ترجمنا الكثير من هذه «الأراجيز» في كتابنا «بابلو نيرودا : مختارات شعرية» .

كان يدخل عبر الفجوات الحديثة الحفر عمال ذوو شوارب كبيرة والحمالة بأيديهم فينتهرون النؤوم :

(Eh, le've, bourgeois) تناول كأساً معنا .

انفتحت زجاجات الشمبانيا ، دخل رئيس البلدية بشريط ذي ثلاثة ألوان على صدره . صدح بوق بنغمات «المارسيليز» . ما هو السبب الذي أدى إلى هذه الأعمال الغريبة؟ حصل أنه هناك تحت أرض غرفة ذلك الحالم وقعت نقطة الاتصال بين طرفي السكة الحديدية التي تحت الأرضية في باريس ، التي كانت في تلك الفترة برحلة الإنشاء .

منذ تلك اللحظة التي روى لي ذلك الرجل هذه الحكاية قررت أن أكون صديقه أو بالأحرى مريده أو تليمذه ، بما أنه كانت تقع له أشياء غريبة جداً فما كنت أريد أن تفوتني واحدة منها ولذلك فقد رافقته في التجول عبر بلدان كثيرة . (فيديريكو غارثيا لوركا) اتخذ موقفاً شبيهاً بموقفي ، فقد كان أسير وهم واعتقاد بمثل هذه الظواهر والغرائب . (فيديريكو) وأنا كنا جالسين ذات يوم في «مبيرة» (محل بيرة) «كورّيوس»[1] مقابل «ثيبيليس»[2] المدريدية فاقتحم مجلسنا نؤوم باريس ، مع أنه في مظهره كان متباهياً وخرائطياً فقد وصل متفككاً متخلعاً . لقد وقع له مرة أخرى ما هو فائق الوصف ، فقد كان في مخبئه المتواضع جداً ، وأحب أن ينظم أوراقه الموسيقية ، لقد نسيت أن أقول إن صاحبنا هذا كان مؤلفاً موسيقياً ساحراً . فماذا جرى؟

- توقفت سيارة عند باب فندقي . سمعت كيف كانت الأقدام تصعد الدرجات ، كيف كانت الخطوات تدخل إلى الحجرة المجاورة لحجرتي . من بعد بدأ المستأجر الجديد بالشخير ، في البداية كان شخيره وشوشة ثم ارتجّ الجو وبدأت الحيطان والخزائن تهتز وتتحرك تحت الدفع المتناغم لذاك المشخِّر العظيم .

لا بد أنه ، بلا شك ، حيوان متوحش . حين انطلقت الشخيرات في شلال عارم لم يكن عند صاحبنا أدنى شك في أنه الجبلي[3] الأقرن . لقد كانت قعقعته في بلدان أخرى قد هزت كنائس كبيرة ، سدت الطرق وأهاجت البحار . فما الذي

---

(١) كوريوس : هو مبنى البريد والبرق في مدريد .

(٢) ثيبيليس : هي ساحة بمدريد مقابل مبنى البريد ، في وسطها تمثال لهذه الآلهة .

(٣) الجبلي : هكذا في الأصل el jabali ، وهو الخنزير البري ، عن العربية .

سيجري مع هذا الخطر الفلكي، مع هذا الحيوان الضخم الكريه الذي يهدد سلام أوروبا؟

كل يوم كان يروي لنا صروفاً وخطوباً رهيبة عن هذا الخنزير البري الأقرن، وكنا نحن جميعاً، أنا و(فيديريكو) و(رافائيل البرتي) والنحّات (البرتو) و(فولخينثو ديّات باستور) و(ميغيل ايرنانديث) ننصت إله متشوقين ونودعه ونحن نرغب في المزيد.

إلى أن جاء ذات يوم بضحكته الكروية العتيدة وقال لنا :

- لقد انلحت المشكلة الرهيبة. لقد قبل(el Graaf Zeppelin) الألماني أن يشحن الجبلي الأقرن وسيسقطه في الغابة البرازيلية، وهناك الأشجار الكبيرة ستغذيه ولن يكون ثمة خطر في أن يشرب «الأمازون» في وردة واحدة. وهو هناك سيظل يرج الأرض بشخيره الرهيب.

كان (فيديريكو) يصغي إليه منفجراً من الضحك بعينيه المطبقتين من حدّة التأثير. ثم أخذ صاحبنا يروي علينا أنه ذهب ذات مرة ليرسل برقية فأقنعه عامل البرق بألا يرسل أبداً أية برقية بل رسالة؛ لأن الناس تخاف كثيراً حين تستلم البرقيات المجنحة السريعة، وحتى إن بعضهم مات بالسكتة القلبية قبل أن يفضّ البرقية التي استلمها. وحكى لنا كذلك أنه حضر ذات يوم كمتفرج محب للاستطلاع مزاداً على الخيول «ذات الدماء النقية» في لندن، فرفع يده كي يحيي صديقاً له شاهده هناك، فما كان من الضارب بالمطرقة إلا أن هوى بمطرقته معلناً وقوف المزاد عند صاحبنا، وباعه بعشرة آلاف ليرة استرلينية فرساً كان (آغا خان) قد نافسه عليها فوصل بمزايدته حتى تسعة آلاف وخمسمائة.

- كان عليّ أن أحمل الفرس إلى فندق وأن أعيدها في اليوم التالي - أنهى كلامه.

الآن الراوية لا يستطيع أن يروي لنا حكاية الجبلي الأقرن ولا أية قصة أخرى فلقد توفي هنا في تشيلي. هذا التشيلي المداري، الموسيقي من مصراع إلى مصراع[1]، المسرف في حكايا لا مثيل لها، كان اسمه في حياته (اكاريو كوتابوس Acario Cotapas). لقد كان عليّ أن أتكلم عند دفن هذا الإنسان غير القابل للدفن، فقلت فقط: «اليوم نهب إلى الظلال كائناً مشرقاً كان يهبنا نجمة كل يوم».

---

(١) من مصراع إلى مصراع: تعبير إسباني يشبه التعبير العربي، من أعلى رأسه حتى أخمص قدميه.

(إيلوار) الرائع:

لقد مات رفيقي (بول إيلوار) منذ زمن قريب. لقد كان جد كامل، جد محكم، جد رائع فكلفني ألماً وجهداً أن أعتاد على فقدانه وأن أتعود على اختفائه. كان نورماندياً أزرق وردياً، ذا بنية قوية ونسيج رقيق، إن الحرب العالمية الأولى تركته بيدين مرتجفتين دائماً. لكن (إيلوار) أعطاني في كل لحظة فكرة اللون السماوي، فكرة الماء العميق الهادئ، فكرة عذوبة تعرف قوتها. من شعره النقي جداً، الشفاف جداً مثل قطرات مطر ربيعي على الزجاج، كان يمكن أن يبدو (بول إيلوار) إنساناً لا سياسياً، شاعراً ضد السياسة ولكنه لم يكن هكذا فقد كان يشعر بأنه ملتصق التصاقاً قوياً بالشعب الفرنسي، بآراء شعبه وبنضاله.

كان (بول إيلوار) حازماً، نوعاً من برج فرنسي بهذا الجلاء العاطفي الذي ليس هو سواء والغباء العاطفي، السائد العام.

لأول مرة، في المكسيك، حيث سافرنا معاً، رأيته على حافة هاوية مظلمة، هو الذي دوماً كان يترك مكاناً مريحاً للحزن، مكاناً يواظب عليه بقدر ما كان يواظب على اكتساب المعرفة.

لقد كان مرهقاً متضايقاً. أنا كنت قد أقنعت وجرجرت هذا الفرنسي القطب إلى هذه الأراضي النائية، وهناك في اليوم نفسه الذي دفنا (خوسه كليمينته اوروثكو) هويت أنا أيضاً بالتهاب الوريد، وهو مرض خطير احتفظ بي مربوطاً إلى سريري خلال أربعة أشهر بكاملها. فشعر (بول إيلوار) أنه وحيد كئيب، مهجور كما لو كان رائداً مكتشفاً أعمى قد تُرك وحده. لم يكن يعرف أحداً، لم تكن تفتح له الأبواب. شعر كأنه أرمل بلا حب ولا رفيق كان يقول لي: «إننا نحتاج إلى رفقة كي نرى الحياة، نحتاج إلى أحد يشاركنا جوانب الحياة كلها. إن وحدتي لأمر محال وجريمة».

ناديت أصدقائي فأجبرناه على الخروج، غصباً عنه أخذوه كي يتجول في دروب المكسيك، وفي منعطف درب عثر على حبه الأخير: (دومينيكه).

إنه لمن الصعوبة أن أكتب حول (بول إيلوار). فسأظل أراه يحيا بجانبي، تشتعل في عينيه أعماق الزرقة الكهربائية التي تنظر نظرة واسعة عريضة بعيدة.

لقد خرج من الأرض الفرنسية وأكاليل الغار والجذور تحوك مواريثه الشذية. لقد كانت قامته الطويلة مصنوعة من ماء وحجر، وعلى هذه القامة كانت تتسلق نباتات قديمة تحمل زهراً وبريقاً، أعشاشاً وأغاني شفافة.

شفافية ، هذه هي الكلمة ، شعره زجاج من حجر ، ماء توقف في مجراه المغني .

لقد وضع شاعر الحب الفلكي ، شعلة الظهر النقية ، في أيام فرنسا العصيبة ، وسط وطنه ، قلبه ومنه خرجت النار الحاسمة للمعارك .

هكذا وصل بشكل طبيعي إلى صفوف الحزب الشيوعي . إن كونه شيوعياً كان يعني بالنسبة له التأكيد بشعره وبحياته على قيم الإنسان والإنسانية .

يجب ألا يعتقد بأن (إيلوار) كان أقل سياسياً منه شاعراً . لقد أدهشتني دائماً بصيرته الواضحة وتنبؤه العلمي وحجته الجدلية الرائعة . لقد حللنا معاً أشياء كثيرة ، بشراً وقضايا في عصرنا ، فأفادني جلاؤه دوماً .

لم يضع في السريالية اللاعقلية المحالة لأنه لم يكن مقلداً بل كان خالقاً مبدعاً . وبما أنه كان هكذا فقد أفرغ فوق جثة السريالية طلقات من جلاء وذكاء .

لقد كان لي صديق كل يوم ، كفاف يومي وإني أفتقد حنانه الذي كان جزءاً من خبزي ، كفاف يومي . لا أحد يستطيع أن يعطيني ما حمله معه لأن أخوّته الفعالة كانت قيمة فاخرة من قيم حياتي .

يا برج فرنسا ، يا أخي ، إني لأنحني فوق عينيك المطبقتين اللتين ما زالتا تعطياني النور والعظمة ، البساطة والاستقامة ، الطيبة والتواضع ، كل ما غرسته أنت في هذه الأرض .

(بيير ريفيردي):

ابداً لن أدعو شعر (بيير ريفيردي) بالساحر ، لأن هذه الكلمة ، شائعة عامة في فترة ، هي كقبعة مهرّج في مهرجان : ولا أية حمامة برية تخرج من جوفه كي تشرع بالطيران .

لقد كان (ريفيردي) شاعراً حسياً مادياً يذكر الأشياء بأسمائها ويلمس أشياء لا عد لها من الأرض والسماء . كان يعدد كل ما هو جلي وبراق في العالم .

لقد كان شعره مثل عرق من معدن المرو ، عميقاً ، براقاً ، ليس ينفد . أحياناً يضيء في قساوة بلمعان معدن أسود وقد اقتلع في صعوبة من باطن الأرض الكثيف وأحياناً يطير فجأة في شرارته الفوسفورية المتألقة أو يختفي في نفق منجمه ، بعيداً عن الوضوح ولكنه يظل مشدوداً إلى حقيقته الذاتية مرتبطاً بها . ربما أن هذه الحقيقة ، هذا التلاحم بين جسد شعره وبين الطبيعة ، هذه الطمأنينة «الريفيردية» ، هذه

الأصالة الثابتة الراسخة غير المتزعزعة أو المتذبذبة قد عجلت له النسيان فقد راح الآخرون شيئاً فشيئاً يعتبرونه مثل حقيقة مسلمة ، ظاهرة طبيعية : داراً ، نهراً ، شارعاً معروفاً ، شيئاً لن يغير أبداً من مظهره ولا من موضعه .

الآن قد غيّر من موضعه ، الآن سكون عظيم أكبر من سكونه الفخور الشريف قد أخذه إليه ، فنرى أنه لم يعد موجوداً وأن هذا البريق الذي لا يعوض قد اختفى ، قد دفن في أرض وفي سماء .

أقول أنا إن اسمه مثل ملاك منبعث ، سيحطم ذات يوم أبواب النسيان غير العادلة .

سنراه ، بلا أبواق ، وهو مكلل بهالة النور المنبعث من سكون شعره العظيم الحي الرنان ، في يوم الحكم النهائي ، في يوم الميعاد الجوهري فيبهرنا بخلود أثره البسيط .

(جيرزي بوريزجا Jerzy Borezjha):

لم يعد ينتظرني في بولونيا (جيرزي بوريزجا) . لقد احتفظ القدر لهذا المهاجر القديم بحقه في أن يرى وطنه وقد استرجع واسترد . حين دخل إليه جندياً مقاتلاً ، بعد سنوات كثيرة من الغياب عنه كانت «فرصوفيا» عبارة عن كومة من الأنقاض المطحونة ، لم يكن فيها شوارع ولا أشجار . لم يكن من أحد فيها ينتظره . لقد عمل (بوريزجا) وهو ظاهرة ديناميكية حيوية ، مع شعبه . من رأسه خرجت خطط هائلة ، فبادرة رائعة : دار الكلمة المطبوعة . لقد بنيت الدار طابقاً فوق طابق على مراحل ، وصلت المطابع الرحوية من أحسن المطابع في العالم . وهناك تطبع الآن آلاف وآلاف من الكتب والمجلات . لقد كان (بوريزجا) محولاً دنيوياً للرغبات إلى أعمال ، لا يتعب ولا يهدأ . لقد نُفِّذت مشاريعه الجريئة في بولوني الجديدة ذات الحيوية الخارقة ، بكاملها كما تبنى القلاع في الأحلام .

لم أكن أعرفه . ذهبت لأتعرف عليه في الحقل حيث كان يقضي العطلة ، بشمال بولونيا في المنطقة ذات البحيرات «الماشورية» حيث كان ينتظرني .

حين هبطت من السيارة رأيت رجلاً أرفل عديم الرشاقة ، سيء الهندام ، لم يحلق ذقنه منذ أيام كثيرة ، يرتدي سروالاً قصيراً (شورت) ذا لون صعب التحديد . ناداني حالاً في طاقة محتدمة بلغة إسبانية تعلمها من الكتب : «يا (بابلو) ،

اخلولقت مرهقاً لا مندوحة في أن تأخذ قسطك من الاستجمام»[١] . لم يدعني في حقيقة الأمر أن آخذ «ولا أرى أي قسط من الاستجمام» . كان حديثه مسهباً مطنباً ، متنوعاً متنقلاً ، مفاجئاً مباغتاً ، في نداءات وتساؤلات وتعجبات متداخلات . كان يحكي لي في الوقت نفسه عن سبع خطط مختلفة مختلطة مع تحليلات لكتب تضيف تفسيرات جديدة لوقائع تاريخية أو لأمور الحياة . «كان البطل الحقيقي هو (سانشو بانثا Sancho Panza[٢] وليس (دون كيخوته) ، يا (بابلو)» . بالنسبة له كان (سانشو) هو صوت الواقعية الشعبية ، القطب الحقيقي لعالمه ولزمنه» «حين يحكم (سانشو) فإن حكمه سيكون جيداً لأن الشعب هو من يحكم عند ذلك» .

كان يسحبني من السرير في وقت مبكر ويصيح بي دوماً : «لا بد لك من أن تأخذ قسطك من الراحة والاستجمام» فيأخذني عبر غابات شجر التنُّوب والأرز كي يريني هناك معبداً لطائفة دينية هاجرت إلى هذا المكان من روسيا منذ قرن من الزمن ، وظلت تحافظ على طقوسها كلها فكانت الراهبات يستقبلنه كأنه بركة تحل عليهن ، فقد كان (بوريزجا) كله لياقة وكياسة واحتراماً تجاه الراهبات المتدينات .

لقد كان رقيق العواطف فعالاً نشيطاً . تلك السنون كانت رهيبة ، زمن الاحتلال النازي . ذات مرة أراني المسدس الذي أعدم به مجرم حرب ، بعد محاكمة تحقيقية عامة .

كانوا قد عثروا مع هذا المجرم النازي على مفكرة سجل فيها بشكل دقيق جرائمه كلها . عجّز وأطفال خنقهم بيديه ، صبايا هتك أعراضهن . ففاجأوه في الضيعة نفسها حيث كان يقوم بهذه الأعمال الوحشية وألقوا القبض عليه . ثم اصطف الشهود يدلون بشهاداتهم حول هذه الأعمال ، وقرئت مفكرته التي تدينه إدانة واضحة فاضحة . لم يجب هذا المجرم المتحدي إلا بجملة واحدة : «سأعيد فعل ذلك إن استطعت أن أبدا من جديد» . لقد أمسكت أنا بهذه المفكرة بيدي وكذلك بالمسدس الذي أنهى حياة ذلك المجرم القاسي العنيد .

---

(١) نحاول أن ننقل إلى العربية أسلوبه الفصيح الذي تعلمه من الكتب القديمة .

(٢) سانشوبانثا : هو مرافق (دون كيخوته) في رائعة (ثيرفانتيس) الخالدة ، وهو يشبه شيبوب في قصة عنتر بن شداد الشعبية ، وقد كان (دون كيخوته) قد وعد مرافقه بإعطائه حكم مقاطعة إن انتصر على الأعداء ، انظر كتابنا ، دون كيخوته في القرن العشرين .

في البحيرات الموشورية ، المتزايدة حتى اللانهاية ، تصطاد ثعابين المياه . كنا ننطلق في ساعة مبكرة من الصباح إلى الصيد فنرى هذه الثعابين خفّاقة بليلة كأحزمة سوداء .

لقد ألفت تلك المياه بصياديها ومناظرها الطبيعية الخلابة . كان صديقي من الصباح حتى الليل ، يجعلني أصعد وأهبط ، أجري وأجدف ، أتعرف على الناس والأشجار . كل ذلك على صيحة أن : هنا لا بد لك من أن تتناول قسطاً من الراحة والاستجمام ، ليس من مكان مثل هذا من أجل الاستجمام» .

حين انطلقت من البحيرات الموشورية ، أهدى إليَّ ثعباناً بحرياً نفاثاً ، أطول ثعبان بحري رأيته في حياتي .

هذا العكاز الغريب العجيب عقَّد حياتي ، أنا كنت أريد أن ألتهمه لأني لست من أنصار الثعابين النفاثة ، وهذا الثعبان يجيء من بحيرته مسقط رأسه بشكل مباشر من غير مخازن ولا وسطاء ولا باعة فهو طيب بلا شك . لكن في هذه الأيام لم تكن الثعابين البحرية لتنقصني في كل وجبة أتناولها بفندقي ، ولم تسنح لي الفرصة بأن أحضر ثعباني وأقليه لآكله ، لا في الليل ولا في النهار . فبدأ الثعبان يشكل لي وسوسة مزعجة متسلطة على عقلي .

في الليل كنت أخرجه إلى شرفة الغرفة كي يتناول الهواء الطازج . أحياناً وأنا في مجرى أحاديث مهمة كنت أتذكر بأن ثعباني لم يزل في الخلاء تحت السماء وبعز الشمس وقد جاوز النهار الظهيرة ، عند ذلك أفقد كل اهتمام بموضوع الحديث وأركض كي أضعه في مكان بارد من غرفتي ، داخل الخزانة ، مثلاً .

في النهاية عثرت على هاو مغرم فأهديت هذا الثعبان المائي النفاث ، بل أطول ثعبان وأطرى ثعبان وأحسن الثعابين النفاثة التي شاهدتها في حياتي ، طبعاً ندمت على ذلك وأنبني ضميري كثيراً .

الآن ، (بوريزجا) العظيم ، الـ(كيخوته) النحيل الديناميكي النشيط ، المعجب بـ(سانشو) على أنه (كيخوته) آخر ، الحساس العالم العارف ، يستجم لأول مرة ، يستجم في الدياجير التي أحبها كثيراً . في مستقره المريح يبدع عالماً أعطاه هو تفجره الحيوي ، ناره التي لا تتعب ولا تخمد .

(سومليو جورجي Somlyo Georgy):

إني لأحب في هنغاريا تشابك الحياة والشعر، التاريخ والشعر، الزمن والشعر. في أماكن أخرى يناقش هذا الموضوع في براءة أكثر أو أقل. في هنغاريا كل شاعر هو ملتزم قبل أن يولد. إن (اتيلا جوزيف) و(أدي اندريه) و(غيولا الّيس) لهم نتاج طبيعي لذبذبة كبيرة متراوحة بين الواجب والموسيقى، بين الوطن والظل، بين الحب والألم.

إن (سومليو جورجي) لهو شاعر رأيته ينمو في ثقة وقدرة منذ عشرين سنة. إنه لشاعر ذو لحن ناعم متصاعد كما الكمان، شاعر يهتم بحياته وبالحيوات الأخرى، شاعر هنغاري حتى العظم، هنغاري في استعداده السخي للمشاركة في واقع شعبه وأحلامه. إنه لشاعر الحب الأكثر تصميماً والعمل الأكثر توهجاً واشتعالاً، يحفظ في عالميته الطابع المتميز للشعر العظيم في وطنه.

إنه لشاعر شاب ناضج، جدير بانتباه عصرنا. إن شعره لشعر هادئ، شفاف، مسكر مثل نبيذ الرمال الذهبية.

(كواسيمودو Quasimodo)[1]:

إن أرض إيطاليا تحفظ أصوات شعرائها القدماء في أحشائها النقية جداً. حين أطأ رحاب الأرياف، حين أجتاز الحدائق حيث تترقرق المياه وتتلألأ، حين أعبر رمال محيطها الأزرق الصغير، يبدو لي وكأني أطأ جواهر جوهرية، مضامين الماسية، أكواباً زجاجية خافية سرية، البريق كل البريق الذي حفظته القرون. لقد أعطت إيطاليا إلى شعر أوروبا، شكلاً، صوتاً، نغماً، رشاقة، ظرافة، احتداماً فأخرجته من شكله الأولي العديم الشكل، من بدائيته غير المهذبة المرتدية برذعة ودرعاً. لقد حول نور ايطاليا أسمال الرواة وصلابة الأناشيد البطولية الحماسية إلى نهر غزير وافر من الألماس المصقول المثقف المرصع.

لقد كان مدهشاً لعيوننا، عيون شعراء حديثي الوصول إلى المعرفة، قادمين من أقطار حيث المختارات الشعرية تبدأ بشعراء عام ١٨٨٠، أن ترى في المختارات الشعرية الإيطالية تاريخ ١٢٣٠ ونيف أو ١٣١٠ أو ١٤٥٠ وبين هذه التواريخ قصائد

---

(١) كواسيمودوSalvatore : شاعر إيطالي (١٩١٠-١٩٦٧).

«الترثيتو»[1] الباهرة : الزينة المثيرة ، العمق والترصيع في أعمال (اليجيري Alishieri) ، (كافالكانتي)[2] (بيتراركا) ، (بوليزيانو)[3] .

إن هذه الأسماء وهؤلاء الرجال قد أعاروا نوراً «فلورنسيا» إلى كاتبنا العذب القدير (غارثيلاسو دي لا بيبغا) ، إلى الحلم اللطيف (بوسكان Bosca'n)[4] ، وأضاءوا لـ(غونغورا) وصبغوا بنشابتهم الظليلة كآبة (كيبيدو) وصاغوا «سونيتوس» (وليم شكسبير» في إنجلترا وأشعلوا مضامين فرنسا وبذلك أزهرت ورود (رونسارد) و(دو بيلاّي) .

هكذا إذن : الولادة في أراضي إيطاليا هي مهمة صعبة ، بالنسبة لشاعر ، مشروع ذو نجوم يتضمن أن يأخذ الشاعر على عاتقه القبة الزرقاء ذات المواريث المشرقة المتألقة .

إني لأعرف منذ سنوات (سالفاتوري كواسيمودو) وأستطيع القول بأن شعره يمثل ضميراً قد يبدو لنا طيفاً شبحياً بسبب شحنته الثقيلة المتوهجة . إن (كواسيمودو) هو أوروبي مزود بعلم أكيد في المعرفة ، في التوازن ، في أسلحة الذكاء كلها . غير أن موقعه كإيطالي مركزي كممثل حالي لكلاسيكية غير متواصلة لم يجعله محارباً سجيناً داخل حصنه . إن (كواسيمودو) هو رجل عالمي بامتياز لا يقسم العالم تقسيماً حربياً إلى شرق وغرب ، بل يعتبر أن الواجب المعاصر المطلق هو محو الحدود بين الثقافة وإقرار الشعر والحقيقة والحرية والسلم والفرح ، على أن هذه الأشياء كلها هي هبات لا تقبل القسمة والتقسيم .

في (كواسيمودو) تتحد الألوان والألحان لعالم هادئ بشكل كئيب . لكن حزنه لا يعني ريبة (ليوباردي)[5] المهزومة بل انزواء الأرض الخصبي في المساء ، هذا الورع الذي يتخذه المساء حين تحمي العطور والألحان والألوان والأجراس عمل أكثر البذور عمقاً في الأرض . إني لأعشق اللغة القطاف في هذا الشاعر العظيم ، وكلاسيكيته

---

(١) الترثيتو el terceto : وزن من أوزان الشعر يشبه بحر المديد العربي .

(٢) كافالكانتي Guido : شاعر وفيلسوف إيطالي (١٢٦٩-١٣٠٠) .

(٣) بوليزيانو Angelo : شاعر إيطالي (١٤٥٤-١٤٩٤) .

(٤) بوسكانJuan : شاعر إسباني (١٤٩٢-١٥٤٢) .

(٥) ليوبارديGiacomo : شاعر إيطالي (١٧٩٨-١٨٣٧) .

ورومانطيكيته وأعجب خاصة بما فيه من تضميخ خاص لاستمرارية الجمال ، كذلك بقدرته على تحويل ذلك كله في لغة ذات شعر حقيقي مهزّ مؤثر .

إني لأرفع عبر المدى وفوق البحر والبعد تاجاً شذياً مصنوعاً من أوراق «أراوكانيا» وأدعه يطير في الهواء كي تحمله الرياح والحياة لتضعه فوق جبين (سالفاتوري كواسيمودو) . ليس هو بتاج الغار «الأيولوني» الذي رأيناه مرات كثيرة في صور (فرانثيسكو بيترراركا) بل هو تاج من غاباتنا غير المرتادة ، من أوراق ليس لها حتى الآن من أسماء ، مضمخة بالندى في أسحار جنوبية .

(باييخو Vallejoz)[١] يحيا من جديد:

رجلاً آخر كان (باييخو) . أبداً لن أنسى رأسه الكبير الأصفر ، الشبيه بالرؤوس التي نراها في الشبابيك القديمة بـ«بيرو» . لقد كان (باييخو) جدياً ونقياً . مات في باريس . مات في هواء باريس القذر ، من النهر القذر حيث أخرجوا أمواتاً كثيرين . لقد مات (باييخو) من جوع ومن اختناق . لو كنا أحضرناه إلى موطنه «بيرو» ، لو كنا جعلناه يتنشق هواء وأرضاً بيروية فلربما كان لا يزال حياً حتى الآن يغني وينشد . لقد كتبت في فترتين مختلفتين قصيدتين عن صديقي الحميم ، عن رفيقي المخلص . أعتقد أني وصفت فيهما سيرة صداقتنا الموزعة . القصيدة الأولى هي «نشيد إلى (ثيسر باييخو) وهي تظهر في الجزء الأول من «أناشيد بدائية» .

في الأوقات الأخيرة ، في هذه الحرب الصغيرة حرب الأدب ، الحرب القائمة بين جنود صغار ذوي أسنان مفترسة أخذوا يقذفون بـ(باييخو) بظل (ثيسر باييخو) بغياب (ثيسر باييخو) بشعر (ثيسر باييخو) ضدي وضد شعري . هذا يمكن أن يقع في الجهات كلها . إن الأمر هو جرح من عملوا كثيراً وإهانتهم . يقولون : «هذا ليس بجيد ، (باييخو) بلى كان جيداً ، لو أن (نيرودا) كان ميتاً لقذفوا به ضد (باييخو) الحي» .

القصيدة الثانية عنوانها هو حرف واحد فقط ألا وهو حرف (V)[٢] وهي تظهر في ديوان «شاذ» (Estravagario) .

---

(١) باييخو Cesar : شاعر مشهور من البيرو (١٨٩٣-١٩٣٨) .

(٢) (V) هو أول حرف من اسم (باييخو) ، ونحب هنا أن نلفت أنظار القارئ العربي إلى أن هذا الحرف ينطق باللغة الإسبانية كما ينطق حرف (B) .

للبحث عما هو غير محدد، عن الدليل أو الخيط الذي يربط الإنسان بأثره، أتكلم عمن كان لهم علاقة ما أو كثير من العلاقة بي. لقد عشنا الحياة معاً وهأنذا الآن أحياهم من جديد. ليس لي بد من أن أسبر غور ما يسمى بالسر الشعري وأنا سأسميه بالوضوح الشعري. لا بد أن كون ثمة علاقة بين الأيدي والأثر، بين عيون الإنسان، أحشائه، دمائه وبين عمله. لكن ليست لي نظرية. أنا لست أسير ومذهبي تحت ذراعي كي أتركه يسقط فوق رأس أحد من الناس. مثل البشر كلهم أنا أرى كل شيء واضحاً يوم الاثنين، وأرى كل شيء غامضاً يوم الثلاثاء وأعتقد أن هذا العام هو واضح-غامض. الأعوام القادمة ستكون بلون أزرق.

(غابرييلا ميسترال):

لقد قلت سابقاً إني عرفت (غابرييلا ميسترال) في قريتي، في «تيموكو». لقد نزحت هي عن هذه القرية إلى الأبد من بعد. (غابرييلا) كانت إذاك في منتصف حياتها الشاقة المجتهدة وكانت، خارجياً، ديرية، كأنها رئيسة على راهبات مستقيمات.

في تلكم الأيام كتبت هي قصائد «الابن» مصنوعة في نثر نقي مطرز مكوكب لأن نثرها كان في معظم الأحيان أكثر شعرها تأثيراً. بما أنها في قصائد «الابن» تصف الوهن والطلق والمخاض والنمو فإن شيئاً مشوشاً قد وشوش به في «تيموكو»، شيئاً مبهماً غير محدد، شيئاً بذيئاً بشكل بريء، ربما كان تعليقاً فظاً جرح كونها عزباء، تلفظ به هؤلاء الناس العاملون بالسكة الحديدية أو بالأخشاب الذين أعرفهم جيداً، فهم أناس أجلاف عاصفيون ولكن صريحون يسمون الخبز خبزاً والنبيذ نبيذاً.

شعرت (غابرييلا) أنها مهانة وماتت وهي تشعر أنها مهانة.

بعد سنوات، في الطبعة الأولى لكتابها العظيم، وضعت ملاحظة بلا فائدة ضد ما كان قد قيل وهمس به حول شخصها في تلك الجبال بآخر العالم.

في مناسبة انتصارها التاريخي بجائزة «نوبل» التي توجت بها، كان عليها أن تمر أثناء سفرها بمحطة «تيموكو». كانت المدارس تنتظرها كل يوم، والطالبات كنّ يصلن إلى المحطة مضخمات بالمطر مختلجات بزهور «كوبيهويه». إن «الـ كوبيهويه» (el copihue) هي الزهرة الكوكبية، التويج الجميل البري من «لا اراوكانيا». لقد كان انتظارهن عديم الجدوى إذ إن (غابرييلا ميسترال) رتبت الأمر كي تمر من هناك ليلاً

فقد بحثت عن قطار ليلي معقد كي لا تستلم زهور «كوبيهويه» من «تيموكو».

حسناً هل هذا يسيء إلى (غابرييلا)؟ هذا يعني ببساطة أن الجراح كانت تدوم في مشاعر نفسها وأنها لم ترقأ في سهولة. إن هذا يكشف أن في روح هذه المؤلفة ذات الشعر العظيم جداً ثمة صراعاً كما في روح أي إنسان، صراعاً بين الحب والحقد، بين المحبة والكراهية.

لقد كانت دوماً تبتسم لي ابتسامة مفتوحة، ابتسامة رفيقة طيبة، ابتسامة طحينية في وجهها ذي الخبز الأسمر.

لكن، ما هي أحسن المضامين في فرن أعمالها؟ ما هو السر المقوم لشعرها الأليم دوماً؟

أنا لن أروح أستقصي عن ذلك، وبالتأكيد لن أتوصل إلى معرفته، وإن عرفته لن أبوح به.

في شهر أيلول[1] هذا يزهر اللفت البري فالحقل سجادة صفراء مرتعشة. هنا في الساحل تعصف الريح الجنوبية في غضب رائع منذ أربعة أيام. الليل مليء بحركتها الصاخبة الرنانة. المحيط هو في الوقت نفسه زجاج أخضر مفتوح وبياض هائل.

فتصلين أنت يا (غابرييلا) أيتها الابنة الحبيبة لزهور اللفت البري هذه، لهذه الحجارة، لهذه الريح الهائلة فنستقبلك جميعنا في فرح. لن ينسى أحد أغانيك للأشواك، للثلوج في تشيلي. إنك لتشيلية. تنتمين إلى الشعب. لن ينسى أحد أبياتك عن أقدام أطفالنا الحفاة. لم ينس أحد «كلمتك اللعينة»[2]. إنك لنصيرة للسلم مؤثرة. لهذه الأسباب ولغيرها أحببناك ونحبك.

تصلين أنت يا (غابرييلا) إلى زهور اللفت البري وإلى أشواك تشيلي. إنك لتستحقين أن أرحب بك الترحاب الحقيقي، المزهر المخشوشن بما يناسب عظمتك ويتلاءم وصداقتنا التي لا تنهار. إن أبواب أيلول الحجرية الربيعية تنفتح لك. لا شيء أحب إلى قلبي من رؤية ابتسامتك العريضة وهي تدخل إلى الأرض المقدسة التي يجعلها شعب تشيلي تزهر وتزدهر وتغني.

إنه ليخجصني أن أشاركك الجوهر، والحقيقة التي بفضل صوتنا وأفعالنا ستصبح

---

(١) أيلول: هو بداية فصل الربيع في أمريكا اللاتينية.

(٢) كلمتك اللعينة: هي قصيدة لهذه الشاعرة العظيمة بعنوان «كلمة لعينة».

محترمة . فليطمئن قلبك الرائع وليكافح وليغن وليبدع في وحدانية الوطن المحيطية «الأنديسية» .

إني لأقبل جبينك النبيل وأجلّ شِعرك الرحب .

(بيثينته هويدوبرو):

لقد لاحقني الشاعر الكبير (بيثينته هويدوبرو) الذي تبنى دائماً الدسيسة الخبيثة تجاه الأشياء كله بدسائسه العديدة ، فكان يرسل رسائل بلا توقيع يتهمني فيها بالانتحال والاقتباس . إن (هويدوبرو) لممثل صف طويل من المتمادين في غيِّهم ، المصرّين على ضلالهم . إن هذا الشكل من الدفاع عن النفس في حياة تلك الفترة المضطربة التي لا تمنح الكاتب أي دور ، كان صفة عامة صبغت الأعوام السابقة على الحرب العالمية الأولى ، إن الوضعية المركزة على الذات انعكست في أمريكا كصدى لتبجُّحات (دانونثيو)[١] في أوروبا . هذا الكاتب الإيطالي ، المسرف الكبير ، المنتهك لسنن البورجوازية الصغيرة ترك في أمريكا صوى بركانية من «المهدية»[٢] . وكان أكثر أتباعه فخفخة وثورية هو (بارغاس بيلا)[٣] .

إنه لمن الصعوبة جداً أن أذم (هويدوبرو) فقد شرفني طيلة حياته كلها بحرب مدادية تستحق المشاهدة . لقد تقلد لقب «إله الشعر» ولم يجد عدلاً أني ، وأنا شاب أصغر منه بكثير ، أشكل جزءاً من «وادي عبقر»[٤] الذي هو إلهه . أبداً ما استطعت أن أعرف على وجه الدقة ماذا كان يدور في «وادي عبقر» هذا . كان أناس (هويدوبرو) يبتدعون ، «يتسريلون»[٥] ، يلتهمون آخر ورقة طبعت في باريس . أنا كنت أقل شأناً منهم ، قروياً لا يمكن صياغته من جديد ، أرضياً ، شبه متوحش .

لم يكن (هويدوبرو) ليقنع بأنه شاعر موهوب جداً كما كان فعلاً بل كان يريد كذلك أن يكون «سوبرمان» ، كان ثمة شيء جميل طفولي في شيطنته . لو أنه ظل

---

(١) دانونثيو Gabriel : كاتب وسياسي إيطالي (١٨٦٣-١٩٣٨) .

(٢) المهدية : في الأصل (Mesianismo) الاعتقاد بمجيء مخلِّص من السماء .

(٣) بارغاس بيلا : كاتب وديبلوماسي من كولومبيا (١٨٦٠-١٩٣٣) .

(٤) وادي عبقر : في الأصل (Olimpo) ، وهو جبل الشعر وموضع الجنة في ديانة اليونان القديمة .

(٥) يتسريلون : يتمذهبون بالسريالية .

حياً حتى هذه الأيام لكان تطوع في أول رحلة إلى القمر . أتخيله وهو يبرهن للعلماء أن جمجمته هي الوحيدة فوق هذه الأرض المؤهلة طبيعياً بسبب ما لها من شكل ومن مرونة للتلاؤم مع الصواريخ الكونية والمراكب الفضائية .

بعض النوادر قد تحدده . مثلاً ، حين عاد إلى تشيلي بعد الحرب العالمية الأخيرة وقد غدا عجوزاً يقترب من نهايته أخذ يرى الناس كلهم هاتفاً صدئاً ، وكان يقول :

- لقد اختطفته شخصياً من (هتلر) فقد كان هذا الهاتف هو المفضل لدى «الفوهرر» .

ذات مرة أروه عملاً نحتياً أكاديمياً سيئاً فقال :

- يا للفظاعة! إنه لأسوأ من أعمال (ميغيل انجيل) .

يستحق الذكر أيضاً الكلام عن مغامرة رائعة كان هو بطلها بباريس في عام ١٩١٩ . فقد نشر (هويدوبرو) كتيباً معنوناً بـ(Finis Britanniu) فيه كان يتوقع انهيار الامبراطورية البريطانية العاجل . بما أنه لا أحد علم بتنبؤه هذا فقد اختار الشاعر أن يختفي عن الأنظار ، فاهتمت الصحافة بأمر اختفائه : «ديبلوماسي تشيلي بشكل غامض مختطف» بعد بضعة أيام ظهر مسطحاً عند باب داره .

(Boy-Scouts) انجليز اختطفوني -صرح إلى الشرطة- وربطوني إلى عامود في مكان تحت الأرض وأجبروني على أن أهتف ألف مرة : «تحيا الامبراطورية البريطانية» .

ثم عاد إلى الإغماء . لكن رجال الشرطة فحصوا سُفيطاً كان يحمله تحت إبطه فوجدوا فيه بيجاما جديدة كان (هويدوبرو) نفسه قد اشتراها قبل ثلاثة أيام من محل جيد في باريس . فكشف كل شيء . لكن (هويدوبرو) خسر صديقاً وهو الرسام (جان غريس Juan Gris)[(١)] الذي كان قد اعتقد بدون ريب في أمر الاختطاف ، وعانى عذابات أليمة بسبب المداهمة الامبريالية واعتدائها على الشاعر التشيلي . فلم يغفر له أبداً تلك الأكذوبة .

إن (هويدوبرو) لشاعر من زجاج ، يلمع أثره الشعري من كل الجهات ، ولأثره بهجة باهرة ، إن في شعره كله بريقاً أوروبياً يبلوره هو ويصوغه في صنعة لطيفة ذكية .

إن أكثر ما يفاجؤني في أثره عدة مرات هو شفافيته . إن هذا الشاعر الأديب

---

(١) خوان غريس : رسام إسباني (١٨٨٧-١٩٢٧) .

الذي تابع واتبع النماذج التي كانت سائدة في فترة معقدة متشابكة ، والذي صمم على ألا يصغي لجلال الطبيعة ووقارها ، يجعل الغناء المائي الدافق أبداً ينساب من خلال شعره وحفيف الهواء والأوراق والإنسانية العظيمة تسيطر تماماً على قصائده الأخيرة وما قبل الأخيرة .

إن في (هويدوبرو) ، انطلاقاً من زخارف شعره المتفرنس الرائعة حتى قوى أبياته الأساسية المتينة ، صراعاً بين الصنعة والنار ، بين التملُّص والمعاناة . هذا الصراع يشكل مشهداً ، يجري في نور مطلق وفي وعي مطلق ، تقريباً ، بوضوح باهر .

ليس من شك في أننا عشنا بعيدين عن أثره الشعري متوهمين أننا في غنى عنه وفي اكتفاء . إننا لنتفق على أن ألد أعداء (بيثينته هويدوبرو) كان هو (بيثينته هويدوبرو) نفسه . لقد أسدل الموت ستاراً على حياته الفانية ولكنه رفع ستاراً آخر فكشف إلى الأبد عن نوعيته الباهرة . لقد اقترحت أن يقام له نصب تذكاري قرب نصب (روبين داريو) . لكن حكوماتنا مقترة في إقامة تماثيل للمبدعين الخلاقين بقدر ما هي مبذرة في إقامة تماثيل بلا معنى ولا مغزى .

إننا لا نستطيع أن نفكر في (هويدوبرو) كبطل سياسي على الرغم من غاراته السريعة على الساحة الثورية . لقد كانت له تجاه الأفكار والمبادئ متناقضات طفل مدلل . غير أن هذا عفى عليه الزمن وصار أمراً قديماً حمله العجاج وسنكون نحن متناقضين إن نصبنا أنفسنا لنغرز فيه الخلال[1] في مخاطرة إتلاف أجنحته والفتّ من عضده . إنه لأحرى بنا أن نقول إن قصائده في ثورة تشرين وفي موت (لينين) لهي مساهمة أساسية جوهرية قدمها (هويدوبرو) إلى اليقظة الإنسانية .

لقد مات (هويدوبرو) في عام ١٩٤٨ بـ«قرطاجنة»[2] قرب «ايسلا نيغرا» ولكنه قبل أن يموت كتب قصائد من أكثر القصائد التي قرأتها في حياتي جدية وتأثيراً في النفس . قبيل موته زارني في داري بـ«ايسلا نيغرا» في رفقة (غونثالو لوسادا) وهو ناشر وصديق حميم لي . (هويدوبرو) وأنا تكلمنا في مودة شاعرين ، تشيليين ، صديقين .

---

(١) الخلال : هكذا في الأصل Alfleres ، وهي الإبر والدبابيس ، عن العربية .

(٢) قرطاجنة : هي بلدة في تشيلي وليست قرطاجنة الإسبانية ولا قرطاج التونسية .

أعداء أدباء:

إني لأفترض أن النزاعات بين الكتاب في قدر كبير أو صغير قد وجدت وستظل توجد في مناطق العالم كلها .

يكثر بين أدباء القارة الأمريكية المنتحرون العظام . في روسيا الثورية أحدق الحاسدون بـ(ماياكوفيسكي) إلى أن أطلق على نفسه النار .

إن الأحقاد الصغيرة تستشري وتستشيط في أمريكا اللاتينية . يصل الحسد أحياناً إلى أن يكون حرفة . يقال بأن شعور الحسد هذا ورثناه عن إسبانيا الاستعمارية المنقرضة . الحقيقة هي أننا نجد في (كيبدو) وفي (لوبه)[١] وفي (غونغورا) بشكل مألوف ، الجراح التي سببها بعض لبعض . إن القرن الذهبي على الرغم من بريقه الفكري الأدبي الرائع كان فترة تعيسة بالجوع الذي يطوف حول القصور ويغني وينشد .

في السنوات الأخيرة أخذت الرواية مساحة جديدة في أقطارنا . إن أسماء (غارثيا ماركث Garcia Marquez)[٢] ، (جان رولف Juan Rulf)[٣] ، (بارغاس يوسا Vergas Llosa) ، (ساباتو Sabato)[٤] ، (كورتاثار Cortazar) ، كارلوس فوينتيس)[٥] ، التشيلي (دونوسو Donaso) ، أخذت تسمع وتقرأ في كل جهة . لقد عمَّدوا أنفسهم باسم (Boom) . وإنه لأليف أن تسمع من يقول بأنهم يؤلفون مجموعة مطنطنة متبجحة .

لقد عرفتهم كلهم تقريباً فوجدتهم بشكل ملحوظ أصحاء كرماء . إني لأتفهم - كل يوم في وضوح أكثر- أن بعضهم اضطر إلى مغادرة وطنه بحثاً عن طمأنينة أكبر تساعده في عمله ، بعيداً عن سياسة الضغينة والأحنة والحسد المتكاثر المستشري . إن أسباب هجرتهم الاختيارية لا تدحض ولا تنقض : لقد راحت كتبهم تصير جوهرية ، أكثر فأكثر ، في حقيقة بلداننا وأحلامها .

---

(١) لوبه(de Vega) : كاتب إسباني معروف (١٥٦٥-١٦٣٦) .

(٢) غارثيا ماركث (Gabriel) : روائي من كولومبيا ولد عام ١٩٢٨ .

(٣) جوان رولف : روائي مكسيكي ولد عام ١٩١٨ .

(٤) ساباتو (Ernasto) : روائي أرجنتيني ولد عام ١٩١١ .

(٥) كارلوس فوينتيس : روائي مكسيكي ولد عام ١٩٢٨ .

كنت أتردد في أن أتكلم عن تجاربي الشخصية مع هذا الحسد المتطرف . لم أكن أرغب في أن أبدو على أني أناني لا هم لي إلا الحديث عن نفسي دوماً والانشغال بذاتي دائماً . لكن لحسن حظي كان من نصيبي حساد ملحون مصرون طريفون جداً إلى درجة أني وجدت مفيداً الشروع بالقول .

إنه لمن المحتمل أن هذه الأشباح المطاردة المزعجة أغضبتني ذات مرة ، بيد أن الحقيقة هي أنهم كانوا يؤدون بشكل غير إرادي واجباً دعائياً غريباً كما لو أنهم ألَّفوا مؤسسة تعمل على أن يصبح اسمي يرن في كل مكان .

لقد ترك موت أحد هؤلاء الخصوم الأشباح ، موتاً مأساوياً ، نوعاً من الفراغ في حياتي . كان يشن الحرب خلال سنين عديدة على كل ما كنت أفعله وأقوله ، إلى حد أني أفتقدها بعد أن فقدتها .

إن أربعين سنة من المطاردة الأدبية لهو أمر رائع حقاً . إني لأشعر بشيء من الابتهاج حين أبعث هذه المعركة الوحيدة الطرف التي كانت معركة إنسان ضد ظله ذاته ، من رقادها ، هي وحيدة الطرف لأني لم أشارك فيها البتة .

لقد نشر خمساً وعشرين مجلة مدير غير قابل للتغيير (كان هو نفسه مديراً لهذه المجلات دوماً) واختصت هذه المجلات بمحاولة تهديمي أدبياً فكانت تنسب لي كل نوع من أنواع الجرائم ، الخيانات ، الذبول الشعري ، الشح الإبداعي ، الشذوذ الجنسي ، الانحراف الخطير . كذلك كانت تظهر منشورات ضدي توزع في مثابرة وإلحاح ، وريبورتاجات لا تخلو من الفكاهة ، وأخيراً ظهر مجلد ضخم معنون «أنا ونيردوا»[1] وهو كتاب سمين بدين ينطوي على شتائم مقذعة .

كان خصمي هذا شاعراً تشيلياً أكبر مني عمراً ، متعصباً ، متطرفاً ، استبدادياً ، أكثر إيماء في حركاته منه فعالاً وأصيلاً . إن هذا النوع من الكتّاب الموهوبين أنانية شرسة يكاثر عددهم في بلدان أمريكا ، وهم يتبنون أشكالاً كثيرة من الفظاظة والاكتفاء الذاتي والتركيز على الذات ، لكن نسبهم «الدانونزيا» هو ، بشكل مأساوي ، حقيقي .

كنا نحن الشعراء الجياع المرتدين أسمالاً رثة نطوّف عبر مجالاتنا الفقيرة في

---

(١) أنا ونيردوا : العنوان هو تقليد وتلميح لكتاب «أنا وحماري» للأديب الشاعر الإسباني (خوان رامون خيمينيث) .

الأسحار غير الرحيمة بين تقيؤ السكارى . كان الأدب في هذه الأجواء البائسة ينتج بشكل غريب شاذ نماذج معربدة ، أشباحاً من الصعلوكية الباقية على قيد الحياة . إن العدمية ، استهتاراً «نيتشوياً» مزيفاً ، كانت تدفع بالكثير من جماعتنا إلى التخفي تحت أقنعة إجرامية . ليس بالقليل من عوج سبيل حياته نحو الجريمة أو التدمير الذاتي .

إن خصمي الخرافي الأسطوري نشأ من هذا المشهد . أول الأمر حاول أن يغريني ويغويني ، أن يدخلني في لعبته وقواعدها . فلم يكن هذا لتقبله ريفيتي البورجوازية الصغيرة . لم أكن أجرؤ وما كان يعجبني أن أحيا في الاحتيال والغش . بطلنا هذا على العكس كان خبيراً في استخراج العصير من الفرص السانحة[1] . كان يعيش في عالم مهزلة مستمرة حيث يحتال على نفسه ويغش ذاته مخترعاً له شخصية مهدِّدة كانت تفيده كحرفة وكحماية .

لقد حان الوقت كي نسمي هذه الشخصية المسرحية ، إنه (بيريكو دي بالوديس Perico de Palothes) . كان رجلاً قوياً أشعر يحاول أن يؤثر ببلاغته وبمظهره . في إحدى المناسبات ، حين لم يكن لي من العمر سوى ثماني عشرة سنة أو تسع عشرة ، اقترح عليّ أن نصدر مجلة أدبية . كانت المجلة ستحتوي فقط على قسمين ، في قسم سيؤكد هو نثراً وشعراً وبحثاً ولحناً على أني شاعر عبقري قدير ، وفي القسم الآخر أثبت أنه على مدى الجهات الأربع أنه هو ذو الذكاء المطلق والموهبة غير المحدودة وبهذا كل شيء يسلك وينتظم .

مع أني كنت فتياً صغيراً فقد بدا لي ذلك المشروع مفرطاً مبالغاً . غير أني بذلت جهداً كبيراً ضد نفسي كي أنصرف عنه نظراً لإغرائه . هو كان ناشراً للمجلات عجيباً غريباً . لقد كانت مدهشة حقاً قدرته على نبش أرصدة كي يحافظ على إصدار منشوراته الهجائية الخالدة .

في المحافظات المنعزلة ذات الأمطار والعواصف كان يضع خطة عمل دقيقة . كان يصنع قائمة طويلة بأسماء الأطباء والمحامين وأطباء الأسنان والمهندسين الزراعيين والأساتذة والمهندسين والمديرين والموظفين الكبار الخ . كان بطلنا هذا يأتي إليهم وهو مكلل بهالة كبيرة من منشوراته الضخمة ومجلاته الكثيرة وأعماله الكاملة وكتبه

---

(١) استخراج العصير من الفرص السانحة : تعبير إسباني وهو واضح المعنى .

الملحمية والغنائية ، على أنه رسول الثقافة الكونية . كل ذلك كان يقدمه بشكل جاد صارم إلى هؤلاء الرجال المغمورين الذين يزورهم في بيوتهم ومن بعد يتفضل فيتنازل بقبول بضعة «اسكودو»[1] منهم . أمام كلامه الفصيح البليغ الضحية تتضاءل إلى حجم ذبابة . بشكل عام كان (دي بالوذيس) يخرج من بيت ضحيته وفي جيبه مبلغ من «الـ سكودو» تاركاً الذبابة منصرفة للتحويم فوق عظمة الثقافة العالمية .

أحياناً أخرى كان (بيريثيو دي بالوذيس) يقدم نفسه على أنه خبير في الدعاية الزراعية ويقترح على الفلاحين الجنوبيين البريثين أن يقوموا بنشر أبحاث فاخرة جداً عن أملاكهم مع صورهم وصور أبقارهم . لقد كان منظراً يستحق المشاهدة حين يصل وهو يرتدي سروال ممتطي الخيول وينتعل جزمة مثل جزم رجال الإطفاء ويلتف بسترة رائعة كان أتى بها من مصدر غريب . بين إغراءات وتهديدات زائغة بكتابات مضادة كان زلمتنا يخرج ببعض الشيكات من أراضي هؤلاء الملاّك الذين هم بخلاء ولكنهم واقعيون إذ إنهم كانوا يناولونه بعض الأوراق النقدية كي يتخلصوا منه .

إن الميزة السامية العليا في (بيريثيو دي بالوذيس) : وهو فيلسوف «نيتشوي» وحاك «فوتوغرافي» لا شفاء له ، لهي عربدته الفكرية ومشاغبته الفيزيولوجية . لقد كان يمارس «المنفخة» في الحياة الأدبية بتشيلي . كان له خلال سنين كثيرة شرذمة من الفقراء المساكين يطبلون ويزمرون . لكن الحياة معتادة على أن «تنفس» بلا رحمة هؤلاء المنتفخين العرضيين من المخلوقات البشرية .

إن النهاية المأساوية لخصمي النزق هذا -انتحر وهو عجوز- جعلتني أتردد كثيراً قبل أن أكتب عنه هذه الذكريات . لقد فعلت هذا أخيراً ، خاضعاً لأمر أملته عليّ الفترة وأجبرني عليه المكان . إن سلسلة كبيرة من الكراهية تكتسح الأقطار الناطقة باللغة الإسبانية ، تنخر آثار الكاتب في جسد لجوج . إن الوسيلة الوحيدة للقضاء على هذه الشراسة المهدّمة هي عرض حوادث هذا الحسد الخطير على الناس والتشهير به .

لقد كانت المطاردة الأدبية - السياسية المتسلسلة التي أطلقها ضدي وضد أعمالي الشعرية رجل من «أوروغواي» مشبوه ذو لقب جليقي ، شيء هكذا مثل (ريبيرو Ribero) ، معتوهة جداً وملحاحة جداً على حد سواء . إن هذا الزلمة ينشر منذ عدة سنين بالإسبانية وبالفرنسية كتباً هجائية ينهشني فيها ويقطعني إرباً إرباً . إن ما

---

(١) اسكودو : اسم العملة المتداولة .

يدهش هو أن مآثره ضد «النيرودية» لا تغطي على ورق الطباعة التي ينفق عليها هو بنفسه ، فحسب بل كذلك يقوم بتمويل سفريات باهظة تهدف إلى تدميري بلا رحمة .

لقد رحل هذا البطل متحملاً مشقة السفر حتى وصل إلى مقر جامعة «أوكسفورد» إذ إنه علم أنهم هناك سيمنحونني لقب دكتور فخري . وصل هذا الشعرور الشويعر المتشاعر إلى ذاك المكان وهو مزود بمجموعة من سهام الاتهامات الخيالية ومستعد لتقويضي أدبياً . لقد قص عليّ السادة أساتذة الجامعة في فكاهة ، الاتهامات التي وجهها ضدي حين كنت لما أزل أرتدي الجبة القرمزية اللون الرسمية بعد أن استلمت الامتياز الفخري ، أثناء ما كنا نحتسي النبيذ الطقوسي .

كان أكثر محالاً وأشد تطاولاً سفر هذا الأوروغواني إلى «استوكهولم» عام ١٩٦٣ . فقد كان يشاع بأني سأحصل في تلك المناسبة على جائزة «نوبل» . حسناً إذن هذا الزلة أجرى مؤتمرات صحفية ، تكلم بالإذاعة كي يؤكد أني كنت واحداً ممن اغتالوا (تروتسكي) . وكان يحاول بهذه المناورة أن يحرمني من جائزة نوبل .

لقد ثبت بعد مضي الزمن أن الرجل كان سيء الحظ دوماً فقد فقَد سواء في «أوكسفورد» وسواء في «استوكهولم» بشكل حزين ، ماله وجهده .

نقد ونقد ذاتي:

لا يمكن إنكار أني حظيت بنقاد جيدين . لا أقصد الولائم والمآدب الأدبية التي أقيمت لي ولا أعني الشتائم التي أثرتها بشكل غير إرادي .

أعني أناساً آخرين ، من بين الكتب التي أُلِّفت عن شعري ، بعد أن استثني ما كتبه شبان هواة متحمسون ، أخص بالذكر وأضع في المكان الأول الأفضل ما ألَّفه الكاتب السوفييتي (ليف اوسبوفات Lev Ospovat) فلقد توصل هذا الشاب إلى إتقان اللغة الإسبانية ، فرأى شعري بشيء أكثر من الاقتصار على فحص للمعنى والمبنى : فقد سلط عليه منظوراً مطابقاً من نور عالمه الشمالي .

لقد نشر (أمير رودريغيث مونيغال Emir Rodriguez Monegal)(١) وهو ناقد من الطراز الأول ، كتاباً حول أعمالي الشعرية وعنوانه «الرحالة المستقر» . يلاحظ من النظرة

---

(١) أمير رودريغيث مونيغال : كاتب معاصر من الأورغواي .

البسيطة أن هذا الدكتور ليس بغبي فقد انتبه في سرعة إلى أني أحب أن أسافر دون أن أتحرك من بيتي ، دون أن أخرج من بلدي ، دون أن أبتعد عن نفسي . (في نسخة عندي من ذاك الكتاب الرائع عن الأدب البوليسي المعنون بـ«الحجر القمري» ثمة صورة تعجبني جداً تمثل فارساً إنجليزياً متشحاً بحلته أو بـ(Macfrla'n) أو بزيّه الرسمي أو ، مهما كان ، جالساً قرب المدفأة ، وكتاب في يده ، وغليون في اليد الأخرى ، وكلبان نائمان عند قدميه . هكذا يطيب لي أن أمكث دوماً ، أمام النار ، إزاء البحر ، بين كلبين ، قارئاً الكتب التي كلفني جمعها جهداً جهيداً ، مدخناً غلاييني) .

إن كتاب (أمادو الونسو)[1] - «شعر (بابلو نيرودا) وأسلوبه»- هو صالح للكثيرين . مهم جداً تنقيبه الشغوف الكلف في الظلال بحثاً عن المستويات بين الكلمات والواقع المنزلق اللزج . أضف إلى هذا ، أن دراسة (ألونسو) تكشف عن أول اهتمام جدي في لغتنا بأثر شاعر معاصر . وهذا يشرفني كثيراً جداً .

لقد استعان بي لدراسة شعري وتوضيحه وتحليله نقاد كثيرون من بينهم (أمادو ألونسو) نفسه الذي كان يحدق بي بأسئلته الكثيرة ويمضي بي إلى جدار الوضوح ، حيث كنت إذّاك لا أستطيع مجاراته .

يظن بعضهم أني شاعر سريالي وبعضهم الآخر أني شاعر واقعي وهناك من لا يؤمن في أني شاعر . وأنا أرى أن لديهم جميعاً قليلاً من الحق وقليلاً من الباطل .

إن ديوان «مقام الأرض» نظم أو على الأقل شرع بنظمه قبل ازدهار السريالية ، كما أن ديوان «محاولة الإنسان اللامحدود» كتب كذلك قبل السريالية ، بيد أنه يجب ألا يوثق في أمر التأريخ هذا . إن هواء العالم ينقل ذرات الشعر سواء أكان هذا الشعر خفيفاً مثل الطلع أو ثقيلاً مثل الرصاص ، فتسقط هذه البذور في الأثلام أو فوق الرؤوس وتمنح الأشياء جو ربيع أو جو معركة ، وتنتج أزهاراً أو قذائف على حد سواء .

أما بالنسبة للواقعية فيجب عليّ أن أقول ، أقول : «يجب» لأنه لا يناسبني أن أقول أنا ما سأقوله ، إني أمقت الواقعية حين يتعلق الأمر بالشعر . وأكثر من هذا ليس هناك ما يفرض على الشعر أن يكون فوق الواقعية أو تحت الواقعية ، لكن يمكن له أن يكون ضد الواقعية : وهذا الأمر الأخير ، بالمعقول كله وباللامعقول جميعه ، أي بالشعر .

---

(١) أمادو الونسو : هو باحث لغوي إسباني ، هاجر إلى الأرجنتين (١٨٩٦-١٩٥١) .

يروقني الكتاب، مادة العمل الشعري الكثيفة، غابة الأدب، يروقني كل شيء، حتى كعاب الكتاب تروقني، لكن لا تستهويني عناوين المدارس. أريد كتباً بلا مدارس وبدون وضع علامات مثل الحياة.

يعجبني «البطل الإيجابي» في (والت ويتمان)(١) وفي (ماياكوفيسكي)، أي في من وجدوه بدون وصفة طبية فتمثّلوه ليس بلا معاناة، وجسّدوه في ألفة حياتنا الجسدية وجعلوه يشاركنا الخبز والحلم.

إن على المجتمع الاشتراكي أن يقضي على ميثيولوجيا فترة مستعجلة كانت فيها اللافتات تساوي أكثر من السلع وفيها أهملت المضامين. لكن الحاجة الماسة، هي أن يكتب الكتّاب كتباً جيدة. كما يعجبني «البطل الإيجابي» الذي عثر عليه في متاريس الحروب الأهلية المضطربة كل من الأمريكي الشمالي (وايتمان) والسوفييتي (ماياكوفيسكي)، فإن قلبي يسع كذلك البطل المتشح بثياب الحدود عند (لوتريامونت) والفارس المتحسر لدى (لافورجيه) والجندي السلبي في (شارل بودلير)(٢). حذار من فصل نصفي تفاحة الخلق بعضاً عن بعض لأنه إن فعلنا ذلك، ربما نقسم القلب فلقتين وندع الوجود. حذار، يجب أن نطلب من الشاعر أن يتخذ له مكاناً في الشارع وفي المعركة كما في النور وفي الظل.

ربما أن واجبات الشاعر كانت هي نفسها على مدى التاريخ كله. إن شرف الشعر كان يخرج إلى الشارع كان المشاركة في هذا العراك وفي ذاك. لم يرتعد الشاعر حين قالوا له إنك لعاص فالشعر هو العصيان. لم يشعر الشاعر بالإهانة حين دعوه بالتمرد فالحياة تتخطى البنى والصيغ وإذ بسنن جديدة للروح. إن البذرة تقفز من كل جهة، كل الأفكار هي غريبة، نحن ننتظر في كل يوم تغييرات هائلة، نحيا في حماسة تحوّل النظام الإنساني: إن الربيع لهو ثائر.

أعطيت أنا كل ما ملكت، لقد قذفت بشعري إلى الرمل، ونزفت مع شعري دوماً، معانياً الاحتضارات وممجداً المآثر التي كان من حظي أني شاهدتها وعشتها. بسبب أو آخر لم يفهمني الآخرون وليس هذا بسيء من النواحي جميعها.

لقد قال ناقد إكوادوري إنه ليس في كتابي «الأعناب والريح» أكثر من ست

---

(١) والت ويتمان: شاعر مشهور من الولايات المتحدة الأمريكية (١٨١٩-١٨٩٢).

(٢) شارل بودلير: الشاعر والناقد الفرنسي المعروف (١٨٢١-١٨٦٧).

صفحات من الشعر الحقيقي . لقد قرأ هذا الناقد الأكوادوري بلا محبة ديواني هذا لأنه كتاب سياسي ، كما أن نقاداً آخرين سياسيين أكثر من اللازم مقتوا ديواني «مقام في الأرض» لأنهم اعتبروه كتاباً باطنياً قاتماً داجياً . إن (جان مارينيو)[1] الفذ الشهير جداً أدانه في زمن آخر باسم المبادئ . إني أرى أن كلاً من الطرفين يرتكب خطأً فادحاً ناشئاً عن المنطلقات نفسها .

أنا كذلك تكلمت ذات مرة ضد «مقام الأرض» لكنني فعلت ذلك وأنا أفكر ، ليس في الشعر ، بل في الجو المتشائم الذي يخلقه كتابي هذا ويتنفس فيه . لا أستطيع أن أنسى مطلقاً أنه منذ سنوات قليلة انتحر شاب من «سانتياغو» على جذع شجرة وترك كتابي مفتوحاً على القصيدة المعنونة «يعني ظلالاً» .

أعتقد أن لكتاب «مقام في الأرض» وهو كتاب أساسي وظليل معتم في أثري الشعري ، ولكتاب «الأعناب والريح» وهو كتاب ذو رحاب فسيحة ونور كثير ، حقاً في أن يوجدا في ناحية ما من أعمالي الشعرية وأنا في هذا القول لا أتناقض .

الحقيقة هي أن في نفسي بعضاً من الميل إلى كتاب «الأعناب والريح» ربما لأنه أكثر كتبي عدم تفهم من لدن الآخرين ، أو لأنه عبر صفحاته شرعت أنا بالمسير في العالم . إن له لغبار دروب وماء أنهار ، فيه أحياء ومخلوقات ، إن فيه مجالات ومحيطات ، أماكن أخرى ما كنت أعرفها فراحت تنكشف لي لكثرة ما جبت وجلت . إنه لواحد من أحب الكتب إلى نفسي ، أكرر وأعيد .

من بين كتبي كلها ديوان «شاذ» ليس هو أكثرها غناء بل هو أكثرها وأحسنها وثباً . إن أبياته الوثابة تقفز متجاوزة الوجاهة والوقار والاحترام ، والحماية المشتركة ، والسنن والواجبات ، كي ترعى الاستهتار المكرم . بسبب وقاحته هو أكثر كتبي ألفة في نفسي . بسبب بلوغه يتوصل إلى نباهة وأهمية داخل شعري . على طريقتي الخاصة في الذوق والتذوق هو كتاب خطير عسير له طعم ملحي كطعم الحقيقة .

في «أناشيد بدائية» افترضت لنفسي ركيزة أصيلة ، مولدة . أحببت إعادة وصف أشياء كثيرة غُنيت وقيلت وأعيدت مراراً وتكراراً . كانت نقطة انطلاقتي المعتمدة يجب أن تكون نقطة انطلاق الطفل الذي يبدأ ، وهو يمص القلم ، إنشاء وظيفة مدرسية إجبارية عن الشمس ، أو عن السبُّورة ، أو عن الساعة ، أو عن الأسرة

---

(١) خون مارينيو : شاعر وكاتب كوبي ولد عام ١٨٩٨ .

الإنسانية . ولا موضوع كان يمكن أن يبقى خارج دائرتي ، كان عليّ أن ألمس كل شيء وأنا سائر أو وأنا طائر ، مخضعاً تعبيري للشفافية القصوى والبتولة الكبرى .

لأني شبّهت بعض الحجارة ببضع بطّات صغيرات ، استهجن ذلك ناقد أورغوايي فقد كان هو قد أصدر مرسوماً ينص على أن البطات وكذلك بقية الحيوانات الصغيرة ليست بمادة شعرية . حتى هذا الحد من الهزل وعدم الجدية وصل الهراء الأدبي . يريدون إجبار المبدعين على عدم معالجة شيء إلا المواضيع السامية الرفيعة . لكنهم يخطئون ، إننا نحن معشر الشعراء سنصنع شعراً حتى من أكثر الأشياء احتقاراً من لدن معلمي الذوق الجيد .

البورجوازية تطلب شعراً يبتعد أكثر فأكثر عن الواقع . إن الشاعر الذي يعرف أن يسمي الخبز خبزاً والنبيذ نبيذاً لهو خطير بالنسبة للرأسمالية المحتضرة المحشرجة . إن ما يناسب الرأسمالية هو أن يعتقد الشاعر في أنه «إله صغير» ، كما لو أن (بيثينته هويدوبرو) كان قد قال ذلك . إن هذا الاعتقاد أو هذا السلوك لا يزعج الطبقات الحاكمة . فهكذا يمكث الشاعر في برجه العاجي متاثراً بعزلته الربانية فلا يحتاج إلى أن يرتشي أو أن يسحق . هو نفسه قد رشا نفسه حين حكم على نفسه بالنفي إلى السماء فيما الأرض تمضي وترتجّ في طريقها وفي بريقها .

إن بين شعوبنا الأمريكية لملايين من الأميين ، يحافظ على اللاثقافة كظرف موروث وكامتياز من الإقطاعية . نستطيع القول ، أمام عطالة سبعين مليون من الأميين في بلادنا ، إن قراءنا لما يولدوا بعد . يجب علينا أن نعجل بهذا المخاض حتى يولد من يقرأ لنا ويقرأ للشعراء جميعاً . لا بد من شق رحم أمريكا كي نخرج منه النور المجيد .

إن نقاد الكتب بشكل مألوف يعملون على إرضاء أفكار الرؤساء الإقطاعيين . مثلاً ، في عام ١٩٦١ ، ظهرت لي ثلاثة دواوين : «أغنية مفخرة» ، و«أحجار تشيلي» ، و«أناشيد شعائرية» ، فلم يذكر نقاد بلدي ولا حتى عناوينها في مجرى العالم كله .

حين نشرت لأول مرة قصيدتي «مرتفعات ماكتشو بيكتشو» كذلك لم يجرؤ أحد من النقاد على ذكر هذه القصيدة في تشيلي . ذهب ناشر هذه القصيدة إلى مكاتب أضخم صحيفة في الصحف التشيلية وهي صحيفة «الـ ماركوريو»[1] ، تصدر منذ حوالي قرن ونصف من الزمن ، وكان معه وصل مدفوع للإعلان عن ظهور هذا

(١) ماركوريو : هو عطارد وهو إله التجارة عند اليونان .

الكتاب فقبلوا أن ينشروا هذا الإعلان شريطة أن يحذف اسمي .
- لكن ، إذا كان (نيرودا) هو المؤلف . . . - احتج الناشر (نبيرا) .
- لا يهم .

فكان على كتاب «مرتفعات ماكتشو بيكتشو» أن يظهر في الإعلان كما لو كان مؤلفه غفلاً مجهولاً . فماذا تفيد هذه الصحيفة مائة وخمسون سنة من العمر؟ فهي في هذا الزمن كله لم تتعلم احترام الحقيقة ولا الوقائع ولا الشعر .

أحياناً لا تخضع الأهواء السلبية ضدي ببساطة إلى انعكاس صراع الطبقات الملتهب بل إلى أسباب أخرى . على الرغم من أني أعمل منذ أربعين سنة متواصلة وأني منحت عدة جوائز أدبية ، وأن كتبي نشرت في أغرب اللغات فإنه لا يمر بي يوم دونأن أتلقى صفيعة أو صفعة من الحسد المحدق بي ، هذه هي حال داري . لقد اشتريت منذ عدة سنوات هذه الدار في «إيسلا نيغرا» بمكانٍ خال قفر حين لم يكن هناك ماء صالح للشرب ولا كهرباء . ثم حسنتها ورفعتها على دفعات كتب . أحضرت تماثيل خشبية حبيبة إلى نفسي ، تماثيل قياديم لسفن عتيقة فوجدت في داري هذه مراحاً ومستراحاً بعد أسفار مرهقة طويلة .

لكن ثمة كثيرين من الناس لا يبيحون لشاعر أن يتوصل كثمرة لأثره الأدبي المنشور في كل جهة من العالم إلى حيازة الكرامة المادية التي يستحقها الكتاب كلهم والموسيقيون جميعهم والرسامون قاطبة . إن الكتبة الرجعيين المنبوذين لقدمهم ، الذين يطلبون في كل لحظة تكريمات إلى (غوته Goethe)[١] يأبون أن يكون لشعراء اليوم حق في الحياة . إن امتلاكي سيارة يخرجهم من مفصلة الباب[٢] . ففي رأيهم السيارة يجب أن تكون مقتصرة على التجار ، على المضاربين ، على القيمين ، على المواخير ، على المرابين ، على الغشاشين .

كي أزيد من حنقهم وغضبهم أهديت داري في «إيسلا نيغرا» إلى الشعب ، وهناك ذات مرة ستعقد اجتماعات نقابية وستقضى إجازات استراحة واستجمام لعمال المناجم والفلاحين .

حينذاك سيُثأر لشعري .

---

(١) غوته : الكاتب الألماني المشهور (١٧٤٩-١٨٣٢) .

(٢) الخروج من مفصلة الباب : تعبير إسباني بمعنى الخروج عن الطور وفقدان الاتزان .

عام آخر يبدأ،

يسألني صحفي :

- كيف ترى حضرتك العالم في هذا العام الذي يبدأ؟

أجبته :

- في هذه اللحظة بالضبط ، في الساعة التاسعة وعشرين دقيقة من صباح يوم الخميس من شهر كانون الثاني أرى العالم بأسره وردياً وأزرق .

ليس في هذا القول أية مقتضيات أدبية أو سياسية أو ذاتية . هذا يعني أن دوحاً كبيرة من أزهار وردية أراها من نافذتي ، وأن هناك على المدى المحيط الهادي والسماء ينصهران في عناق أزرق .

لكنني أدرك ، ونحن جميعاً نعرف ذلك ، أن ألواناً أخرى توجد في مرأى العالم . من يستطيع أن ينسى لون الدماء الكثيرة المهراقة بلا جدوى كل يوم في الفيتنام؟ من يستطيع أن ينسى لون القرى المحروقة بالنابالم؟

أجيب عن سؤال آخر وجّهه إليّ الصحفي . كما فعلت في السنوات الأخرى فإني سأنشر كتاباً جديداً في هذه الثلاثمائة وخمسة وستين يوماً . أنا متأكد من ذلك . إني أداعب الكتاب ، أزعجه ، أكتبه كل يوم .

- ماذا تعالج فيه؟

ماذا أستطيع أن أجيب؟ يُعالج دوماً في كتبي الموضوع نفسه ، دائماً أكتب الكتاب ذاته . فليغفر لي أصدقائي أن ليس ما أقدمه لهم في هذه المرة الجديدة في هذه السنة الجديدة إلا أشعاري ، الأشعار الجديدة ، الأشعار نفسها .

لقد أتى لنا العام المنصرم بانتصارات إلى الأرضيين جميعنا : انتصارات في الفضاء ومداراته . لقد أحببنا نحن البشر جميعاً أن نطير في ذاك العام المنصرم . لقد سافرنا جميعاً في أحلام فضائية . إن ارتياد العلاء العظيم يخصنا جميعاً سواء أكان أمريكيين شماليين أم سوفييتيين من تمنطقوا بأول هالة قمرية وأكلوا أولى الأعناب القمرية .

يجب أن يكون من نصيبنا نحن الشعراء الحصة الكبرى من الهبات المكتشفة . إن الكوكب الشاحب ، من (خوليو فيرنه)[1] الذي «مكنك» الحلم الفضائي القديم

---

(١) خوليو فيرنه : روائي فرنسي (١٨٢٨-١٩٠٥) .

في كتاب ، إلى (جولسي لافورغويه) و(هاينريش هايني) و(خوسه اسونثيون سيلفا) ، دون نسيان (بودلير) الذي اكتشف رقيته المؤذية ، قد بحثنا فيه نحن الشعراء وغنيناه وشهرناه قبل أي إنسان .

تمر السنون . المرء يُستهلك ، يزدهر ، يعاني ويتمتع . السنون تجلب للمرء الحياة وتأخذ منه الحياة . تصير التوديعات أكثر مألوفة ، يدخل الأصدقاء السجون أو يخرجون منها ، يروحون إلى أوروبا أو يعودون منها ، أو ببساطة يموتون .

إن الذين يمضون حين يكون المرء بعيداً جداً عن المكان حيث يموتون ، يبدو أنهم يموتون أقل ، يستمرون يحيون داخل المرء نفسه كما كانوا . إن شاعراً يُحيي أصدقاءه ليميل إلى القيام بمختارات شعرية حدادية في عمله الشعري . أنا توقفت عن إتمام هذه المختارات خوفاً من رتوب الألم الإنساني تجاه الموت . إذ إن المرء لا يحب أن يصبح فهرساً للمتوفين ، ولو أن هؤلاء كانوا أكثر الناس حباً إلى قلبه . حين كتبت في «سيلان» عام ١٩٣١ «غياب (خواكين)» إثر موت صديقي وزميلي الشاعر (خواكين ثيفوينتيس سيبولفيدا) وحين في وقت لاحق نظمت (البرتو روخاس خيمينيث) يأتي وهو يطير» في «برشلونة» عام ١٩٣١ ظننت أن لا أحد سيموت لي من بعد . مات لي كثيرون . هنا ، قريباً ، في التلال الأرجنتينية عند «قرطبة»[1] يرقد مدفوناً أحسن أصدقائي الأرجنتينيين وهو (رودولفو اراوس الفارو) الذي ترك أرملة ابنة بلدنا (مارغاريتا اغيره) .

في هذا العام المنصرم ، حملت الريح قامة (إيليا ايهرينبورغ) الهشة ، وهو صديق حبيب جداً ، ومدافع صنديد عن الحقيقة وماحق جبار للكذب . في موسكو نفسها وفي هذا العام المنصرم نفسه دفنوا الشاعر (اوفادي سافيش) الذي كان قد ترجم شعر (غابرييلا ميسترال) وشعري إلى الروسية ليس بدقة وجمال فحسب بل بحب مشع كذلك . ريح المنية أخذت مني أخويّ الشاعرين (ناظم حكمت) و(سيمون كيرسانوف) وآخرين كثيرين .

لقد كان فجيعة مرة اغتيال (تشي غيفارا)[2] رسمياً في «بوليفيا» الحزينة جداً .

---

(١) قرطبة : نلفت أنظار القارئ العربي إلى أن أسماء المدن الأندلسية قد انتشرت في أمريكا اللاتينية وأطلقت على مدن وقرى هناك كما يظهر الآن من اسم قرطبة وكما ظهرمن قبل من اسم قرطاجنة .

(٢) تشي غيفارا : هو طبيب أرجنتيني ساهم في الثورة الكوبية ثم ساهم في الثورات بأمريكا اللاتينية ، ويعتبر بطلاً من أبطال التحرر والتقدم في عصرنا هذا (١٩٢٨-١٩٦٩) .

إن نعيه طاف في العالم مثل قشعريرة مقدسة : ملايين المراثي حاولت أن تصنع «جوقة» كي تمجد وجوده البطولي المأساوي . لقد انهدرت عبر الدنيا أشعار ما كانت دوماً على مستوى هذا الألم . تلقيت برقية من «كوبا» من عقيد أديب يطلب مني مرثيتي التي لم أكتبها حتى الآن . أفكر أن مثل هذا الرثاء يجب أن يحتوي ليس على الاحتجاج الفوري فحسب بل على الصدى العميق لهذه القصة الأليمة . سأتروى في هذه القصيدة حتى تنضج في رأسي وفي دمي .

إنه ليهزني أن أكون أنا الشاعر الوحيد الذي ذكره (تشي غيفارا) ، هذا القائد العظيم في حرب العصابات ، في يومياته . أذكر أن (الـ تشي) حكى لي ذات مرة ، أمام الرقيب (ريتامار) كيف كان يقرأ مرات كثيرة كتابي «النشيد العام» على أوائل ملتحي «سيرًا مايسترا»[1] المتواضعين الأمجاد . ينقل في يومياته ، بجلاء هاجس ، بيت شعر من قصيدتي «نشيد (بوليفار)»[2] «جثته الصغيرة ، جثة قائد مقدام . . .» .

جائزة «نوبل»

إن الجائزة «نوبل» التي حزت عليها لقصة طويلة . خلال سنوات كثيرة رن اسمي كمرشح لهذه الجائزة دون أن يتبلور هذا الرنين في شيء .

في عام ١٩٦٣ كانت المسألة جدية جداً . أذاعت محطات البث مراراً وتكراراً أن اسمي يناقش فيه بشكل حاسم في «استوكهولم» وأني أكثر المرشحين احتمالاً في الفوز بهذه الجائزة . عند ذلك أنا و(ماتيلدا) وضعنا قيد التنفيذ الخطة رقم ٣ في الدفاع المنزلي . علقنا قفلاً كبيراً في البوابة الكبيرة لدارنا بـ«ايسلا نيغرا» وتموّنا بمواد غذائية وبنبيذ أحمر قان . أضفت بضع روايات بوليسية لـ(سيمنون)[3] على هذه الاحتياطات الاعتزالية الانزوائية .

وصل الصحفيون مبكرين فأبقيناهم على بعد يكظمون الغيظ ؛ إذ أنهم لم يستطيعوا النفوذ عبر البوابة المزودة بقفل برونزي بقدر ما هو جميل هو قدير متين . كانوا يدورون من وراء الجدار الخارجي ويطوفون كنمور غاضبة . ماذا كانوا يحسبون

---

(١) سيرا مايسترا : هي سلسلة جبال في كوبا منها انطلقت الثورة الكوبية .

(٢) بوليفار : هو زعيم التحرر والاستقلال في أمريكا اللاتينية (١٧٨٣-١٨٣٠) .

(٣) سيمنون : روائي بلجيكي ولد عام ١٩٠٣ .

ويظنون؟ ماذا كنت أستطيع أن أقول عن مناقشة لا يشارك فيها إلا أكاديميون سويديون في الطرف الآخر من العالم؟ بيد أن الصحفيين ما كانوا يخفون نياتهم على استنباط الماء من عود يابس(١) .

كان الربيع قد تأخر مجيئه إلى شاطئ المحيط الهادي الجنوبي . لقد أفادتني تلك الأيام المنعزلة في أن أتآلف والربيع البحري الذي وإن كان جاء متأخراً ، قد تزين لأجل الاحتفال بمهرجانه الموحش المتفرد . لا تسقط خلال الصيف أية قطرة من المطر فالأرض طينية جافة صخرية مسننة ، لا يلحظ أي قذى أخضر . خلال الشتاء تطلق ريح البحر غضباً ، ملحاً ، زبد أمواج هائلة ، وإذّاك الطبيعة تبرز مكفهرة فريسة لتلك القوى الرهيبة .

يبدأ الربيع بعمل أصفر كبير ، كل شيء يتغطى بأزهار مذهبة صغيرة لا عد لها ولا حصر . إن هذا التناسل الصغير القدير يكسو السفوح ، يحدق بالصخور ، يزحف نحو البحر ويطلع وسط دروبنا اليومية كما لو أنه يريد أن يتحدانا ، أن يبرهن لنا على أنه موجود حي . لقد تحملت هذه الأزهار حياة لا مرئية خلال زمن كثير جداً ، لقد أفحمها رفض الأرض اليباب المكدر المدمر إلى حد أنها الآن لا تقنع بشيء ويبدو لها كل شيء قليلاً لأجل خصوبتها الصفراء .

من بعد تذبل وتخمد الأزهار الشاحبة الصغيرة فكل شيء يتغطى بتزهير بنفسجي فاقع . لقد عبر قلب الربيع من الأصفر إلى الأزرق ومن بعد إلى الأحمر . فكيف استعاضت بعضها ببعض ؛ تويجات الأنوار الصغيرة غير المحدودة وغير المعروفة؟ كانت الريح تهز لوناً وفي اليوم التالي لوناً آخر ، كما لو أن الربيع كان يبدل فسطاطه بين التلال والروابي المتوحدة ، وكما لو أن الجمهوريات المختلفة كانت تتباهى براياتها الغازية .

في هذه الفترة تزهو أشجار الـ«كاكتو»(٢) في الساحل . بعيداً عن هذه المنطقة ، في سفوح سلسلة الجبال «الأنديسية» تشمخ أشجار الـ«كاكتو» عملاقة ، ذات أخاديد وأشواك ، مثل طوابير معادية . بينما ، أشجار الـ«كاكتو» في الساحل ، على العكس ، هي صغيرة ومدورة . رأيتها وهي تتوج ، كل واحدة منها ، بعشرين برعماً

---

(١) استنباط الماء من عود يابس : تعبير إسباني بمعنى محاولة المستحيل .

(٢) الـ كاكتو : نوع من نبات الصبار .

قرمزياً كما لو أن يداً كانت قد تركت هناك دية متوهجة من قطرات دماء . من بعد تفتقت البراعم . إن المرء ليلمح مواجه الأزباد البيضاء العظيمة المنبعثة من المحيط آلافاً من أشجار الـ«كاكتو» المتقدة بأزهارها المنطلقة السائدة .

إن السيزال العتيق في داري أخرج من عمق أحشائه ومن حشاشة قلبه نوره الجريء المنتحر . هذه الشتلة الزرقاء الصفراء ، الغليظة العملاقة استغرقت في نموها أكثر من عشر سنين عند باب داري إلى أن صارت أطول مني . والآن تزهر كي تموت . لقد نما نبُوت أخضر قدير ، سما إلى ارتفاع سبعة أمتار ثم أوقفت نموّه تشكيلة أزهار جافة لا يكسوها إلا القليل من الهباء الذهبي . من بعد أوراق السيزال الأمريكي تخرّ فتموت .

وإذ ، مقابل الزهرة الكبيرة التي تموت ، زهرة ضخمة تولد . لا أحد سيعرف هذه الزهرة خارج وطني ، لا توجد هذه الزهرة إلا في هذه الأصقاع «الانطارطية»[1] «تشاتشوال»[2] إن هذه الشتلة السلفية قد عبدها «الـ أراوكانوس» . لم يعد «الـ أراوكانو» القديم يوجد الآن . إن الدم والموت والدهر ومن ثم أناشيد (ألونسو دي إيرثيا)[3] الملحمية ختمت التاريخ التليد القديم لقبيلة من صلصال[4] اسيتقظت على حين غرة من نومها الجيولوجي كي تدافع عن وطنها المكتسح المغزو . حين أرى طلوع أزهار هذه القبيلة مرة أخرى ، فوق قرون من أموات داكنين ، فوق طبقات من فناء دام ، أعتقد أن ماضي الأرض يزهر ضد وجودنا ، ضد ما نحن عليه الآن . إن الأرض وليس إلا الأرض ، تستمر كائنة حية أبدية محتفظة بالماهية والذات .

لكن نسيت أن أصفها .

إنها «بروميلاثيا»[5] ذات أوراق منشارية . تقتحم الدروب مثل حريق أخضر ،

---

(١) الانطارطية Antartica : نسبة إلى القطب الجنوبي .

(٢) معناها : منخس تشيليّ .

(٣) ألونسو دي ايرثيا : شاعر إسباني (١٥٣٣-١٥٩٤) ، كنا قد عرّفنا به من قبل .

(٤) لاحظ التشابه الصوتي بين لقب المؤلف (Ercilla) وكلمة صلصال (Arcilla) فالجناس من خصائص (نيرودا) .

(٥) بروميلاثيا : هي نوع من النبات ، والاسم مأخوذ من اسم عالم نبات سويدي من القرن الثامن عشر وهو (Bromel) .

تكوّم في خزانة الأسلحة سيوفها الزمرجدية الغريبة . لكن ، فجأة ، زهرة هائلة واحدة وحيدة ، عنقود يولد لها من خصرها ، وردة خضراء هائلة بارتفاع قامة الإنسان الكهل . إن هذه الزهرة المنقطعة النظير المؤلفة من جمهرة براعم ، المتجمعة في كاتدرائية خضراء واحدة ، المتوجة بالطلع الذهبي تلتمع على نور البحر . إنها الزهرة الخضراء الهائلة الوحيدة التي رأيتها تغدو نصباً تذكارياً للموجة .

إن الفلاحين والصيادين في بلدي قد نسوا منذ زمن بعيد أسماء النباتات الصغيرة ، الأزهار الصغيرة ، فلم يعد لها الآن من اسم . لقد راحوا ينسون هذه الأسماء شيئاً فشيئاً وراحت الأزهار تفقد كرامتها بشكل بطيء . غدت الأزهار غامضة مهملة كما الأحجار التي تجرفها الأنهار من أعالي الثلوج «الأنديسية» حتى السواحل غير المعروفة . لقد ظل الفلاحون والصيادون وعمال المناجم والمهربون ، عاكفين على وعورة حياتهم ، على ديمومة الموت والانبعاث في واجباتهم وهزائمهم . إنه لغامض أن يكون المرء بطلاً في أراض لما تكتشف بعد . الحقيقة هي أنه ليس يلتمع في ذواتهم ، في غنائهم ، إلا الدماء المجهولة الأصول ، والأزهار التي لا أحد يعرف أسماءها .

من بين هذه الأزهار ثمة واحدة اكتسحت داري كل داري . إنها زهرة زرقاء ذات قد طويل صقيل مزهو صامد . في كئيسها تتبختر الزهيرات المتكاثرة المتعددة الألوان من نيلوفر فاتح إلى كحلي غامق . لست أدري إن كان في مكنة البشر كلهم أن يحظوا بتأمل هذه الزرقة السامية الرفيعة . أم أن هذه المتعة ستقتصر على بعضهم؟ أفستمكث هذه الزرقة محجوبة غير مرئية ، عن عيون أناس آخرين حرمهم إله أزرق من هذا التأمل المزرورق؟ أم أن الأمر لا يعدو أن يكون غير فرحي الذاتي المتغذي في الوحدة ، المتحول إلى زهو ، المفتخر في أنه عثر على هذه الزرقة ، هذه الموجة الزرقاء ، هذه النجمة الزرقاء ، في هذا الربيع المهجور؟

أخيراً سأتكلم عن نباتات الـ«دوكاس» . لست أدري إن كانت توجد في جهات أخرى هذه النباتات المتكاثرة ملايين وملايين ، التي تغرز في الرمال أصابعها المثلثية الشكل . لقد ملأ الربيع هذه الأيادي الخضراء بخواتم غير مألوفة ذات لون غريب . إن الـ«دوكاس» تحمل اسماً اغريقياً :

إن روعة «ايسلا نيغرا» في هذه الأيام المتأخرة من الربيع لهي هذه الـ(aizoaceae) التي تنسكب مثل اجتياح بحري ، مثل فوحان مغارة البحر الخضراء ، مثل عصير

العناقيد الأرجوانية الذي خزنه في حانته ، «نبتون» Neptuno[1] النائي البعيد .

في هذه اللحظة بالضبط تعلن لنا الإذاعة أن شاعراً يونانياً جيداً قد حصل على جائزة نوبل الشهيرة . فهاجر الصحفيون ، أخيراً استطعنا ، أنا و(ماتيلدا) ، أن نظل هادئين بعد أن تخلصنا من الصحفيين . سحبنا في وقار قفل البوابة الكبيرة كي يدخل الناس كل الناس كما كانوا يدخلون من قبل ، دون أن يقرعوا على باب داري ودون أن يعلنوا عن أنفسهم كما الربيع .

في المساء جاء ليراني السفير السويدي وزوجته . كانا يحضران معهما سلة زجاجات (delicatessen) كي نحتفل بجائزة نوبل التي كانا يعتقدان اعتقاداً أكيداً أنها ستكون من نصيبي . لم نقعد حزانى بل تناولنا جرعة نخب «سيفيريس» الشاعر اليوناني الذي فاز بالجائزة . لدى التوديع أخذني السفير جانباً وقال لي :

- بالتأكيد رجال الصحافة سيأتون ليقابلوني ولست أدري شيئاً في هذا الشأن . أتستطيع حضرتك أن تقول لي من هو (سيفيريس)؟

أجبته في صراحة وصدق : أنا كذلك لست أدري شيئاً عنه .

الحقيقة هي أن كل كاتب على سطح هذا الكوكب المدعو «الأرض» يريد أن يحصل ذات مرة على جائزة نوبل حتى أولئك الذين لا يفصحون بذلك وحتى هؤلاء الذين يرفضون الجائزة .

في أمريكا اللاتينية ، بشكل خاص ، للأقطار مرشحوها ، يخططون لحملاتهم ويرسمون استراتيجيتهم . أمريكا اللاتينية هذه خسرت الجائزة لبعض هؤلاء الكتاب الذين كانوا يستحقونها . هذا هو حال (رومولو غاييغوس)[2] ، أثره الأدبي عظيم ولائق . لكن «فينزويلا» هي بلد النفط ، أي ، بلد المال ولهذا السبب وفي هذا السبيل قد صُمِّم على أن تربح الجائزة «فنزويلا» في اسم (رومولو غاييغوس) . ولذلك عينت «فينزويلا» سفيراً لها في «السويد» ، هدفه الأعلى حدّد بالحصول على الجائزة . فكان هذا السفير يسرف في الولائم والدعوات ، ينشر مؤلفات الأكاديميين السويديين في اللغة الإسبانية بمطابع خاصة تابعة لسفارته في «استوكهولم» ذاتها . لا بد أن هذا كله

---

(١) نبتون : هو إله الماء عند اليونان ، وهو كذلك الكوكب نبتون الذي اكتشف في منتصف القرن التاسع عشر .

(٢) راmولو غاييغوس : روائي فزويلي (١٨٨٤-١٩٥٩) .

بدا للأكاديميين المتحفظين الحساسين مفرطاً زائداً عن حده . أبداً ما كان يعرف (رومولو غاييغس) بفعالية سفير بلده الطافحة الزائدة عن اللزوم ، وقد يكون هذا هو السبب الذي أدى إلى حرمانه من استلام هذا اللقب الأدبي الذي يستحقه فعلاً .

في باريس حكوا لي في مناسبة ما قصة حزينة ، محاطة بمزاح قاس . كان الأمر يتعلق هذه المرة بـ(بول فاليري)(١) كان يشاع اسمه على أنه المرشح الأكثر احتمالاً في الفوز بجائزة «نوبل» لذاك العام ، وكانت تردد ذلك الإذاعات والصحافة في فرنسا كلها . في صباح اليوم نفسه الذي كانت فيه هيئة المحلفين تتداول بـ«استوكهولم» خرج (فاليري) مبكراً جداً من داره الريفية مصاحباً بعكازه وبكلبه ، بحثاً عن إخماد الحالة العصبية التي سببها له هذا الخبر المثير .

عاد من جولته في منتصف النهار ، في ساعة الغداء . فما إن فتح الباب حتى بادر إلى سؤال السكرتيرة :

- هل من مكالمة هاتفية؟

- أجل ، أيها السيد ، لقد اتصلوا بك من «استوكهولم» منذ عشر دقائق .

- أية بشرى زفوها إليك؟ قال وقد أفصح عن تأثره .

- لقد كان صوت صحفية سويدية تريد أن تعرف رأيك في حركة التحرير النسوية .

كان (فاليري) نفسه يشير إلى هذه الفكاهة في شيء من التهكم ، والحقيقة هي أنه شاعر جد كبير وجد عظيم وكاتب متقن جداً ومع ذلك فهو أبداً ما فاز بهذه الجائزة الشهيرة .

لكن ، في ما يخصني فيجب على الآخرين أن يعترفوا لي بأني كنت دوماً محترساً محتاطاً جداً . كنت قد قرأت في كتاب لعلامة تشيلي أراد إطراء (غابيريلا ميسترال) ، الرسائل العديدة التي وجهتها مواطنتي المتقشفة إلى أماكن كثيرة دون أن يفقدها ذلك تقشفها وزهدها ، ولكنها كانت تدفعها رغباتها في التقرب من الجائزة . هذا جعلني أصبح كتوماً أكثر . منذ أن علمت بأن اسمي يتردد (لست أدري كم من مرة تردد ذكر اسمي من قبل) على أني مرشح ، قررت ألا أعود إلى السويد ، وهو بلد طالما جذبني منذ أن كنت صبياً حين جعلنا من أنفسنا ، أنا و(توماس لاغو) ،

---

(١) بول فاليري : شاعر وأديب وناقد فرنسي معروف (١٨٧١-١٩٤٥) .

تلميذين حقيقيين لراع بروتستانتي سكير مطرود من الكنيسة اسمه (غوستا بيرلينغ) .

زد على ذلك أني كنت قد سئمت من أن أذكر كل سنة دون أن تذهب الأمور إلى أبعد من الذكر ، وكان يبدو لي مغيظاً أن أرى اسمي في المباريات السنوية كما لو أني جواد سباق . من جهة أخرى كان التشيليون ، أدباء أو جماهير ، يشعرون بالإهانة بسبب لا مبالاة الأكاديمية السويدية بي . كان هذا وضعاً يتاخم ما يضحك بشكل خطير .

أخيراً ، الناس كلهم يعرفون ذلك ، منحوني جائزة «نوبل» . كنت أنا في باريس ، عام ١٩٧١ . حديث الوصول لتأدية مهامي سفيراً لتشيلي ، حين بدأ اسمي بالظهور في الصحف مرة أخرى . أنا و(ماتيلدا) قطبنا الجبين لقد فقدت بشرتنا الإحساس بعد أن تعودنا على الفشل . ذات ليلة من تشرين الأول من تلك السنة دخل (خورخه ايدواردس) وهو كاتب كان مستشاراً في السفارة بباريس ، إلى غرفة الطعام في منزلي . اقترح ، على الرغم من تقتيره الذي يميزه ، عليّ قبول رهان بسيط جداً . إن منحوني جائزة «نوبل» هذا العام فإن عليّ أن أدفع ثمن وجبة في أحسن مطعم بباريس له ولزوجته ، وإن لم يمنحوني فسيدفع هو ثمن وجبة لي ولزوجتي .

قلت له : موافق . سنأكل بشكل رائع على حسابك .

جزء من سر (خورخه ادواردس) ومن رهانه المغامر بدأ ينكشف في اليوم التالي . عرفت أن صديقة له كانت قد اتصلت به هاتفياً من «استوكهولم» وكانت هذه الصديقة كاتبة وصحفية . قالت له إن الاحتمالات كلها تشير إلى أن (بابلو نيرودا) سيفوز بجائزة «نوبل» هذه المرة .

بدأ الصحفيون يتصلون من على بعد كبير . من «بونوس أيريس» ، من «المكسيك» وبخاصة من «إسبانيا» . في هذا البلد الأخير كانوا يعتبرون الأمر مقضياً . طبعاً رفضت أن أدلي بتصريحات لكن شكوكي بدأت تطل من جديد .

تلك الليلة جاء ليراني (أرتور لونديكيفيست) وهو صديقي الوحيد من الكتاب السويديين . كان (لونديكيفيست) أكاديمياً منذ ثلاث سنوات أو أربع . وصل من بلده إلى باريس في طريقه إلى جنوب فرنسا . بعد الأكل قصصت عليه ما لديّ من صعوبات كي أرد على المخابرات الدولية التي يقوم بها الصحفيون الذين ينسبون لي الجائزة .

قلت له : أريد أن أطلب منك شيئاً ، يا (أرتور) . في حالة إن كان هذا حقيقة ، فإنه يهمني جداً أن أعرف ذلك قبل أن ينشر في الصحافة . أريد أن أخبر به ، أول ما أخبر ، (سلفادور أيينده) الذي شاركت معه في صراعات كثيرة ، فإنه سيفرح كثيراً إن كان هو أول من يتلقى هذه البشرى .

الأكاديمي الشاعر (لونديكيفيست) نظر إليّ بعينين سويديتين وقال في جدية قصوى :

- إني لا أستطيع أن أقول لك شيئاً . إن كان ثمة شيء من هذا القبيل فإنه سيعلمك به برقياً ملك السويد أو سفير السويد في باريس .

هذا كان يجري يوم ١٩ أو٢٠ من تشرين الأول . في صباح يوم ٢١ بدأت قاعات السفارة تمتلىء بالصحفيين . كان العاملون في التلفزيون السويدي ، الألماني ، الفرنسي ، وتلفزة أقطار أمريكا اللاتينية يبدون تململاً وعدم صبر يهدد بأن يستحيل إلى تمرد ضد صمتي الذي لم يكن إلا لافتقادي أية معلومات أمدهم بها . في الساعة الحادية عشرة والنصف اتصل به هاتفياً السفير السويدي يطلب مني أن أستقبله في السفارة ، دون أن يخبرني عما يتعلق الأمر ، وهذا لم يعمل على إخماد الحالات المتهيجة لأن المقابلة كانت ستجري بعد ساعتين . كانت الهواتف تواصل رنينها بشكل هيستيري .

في هذه اللحظة أطلقت إذاعة في باريس إشعاعاً (فلاش) ، خبر آخر دقيقة ، معلنة أن جائزة «نوبل» لعام ١٩٧١ قد منحت إليّ . نزلت تواً لمجابهة تجمهر الأوساط الإعلامية الصخّاب . لحسن الحظ ظهر في هذه اللحظة صديقان قديمان لي وهما (جان مارثيناك) و(أراغون) (مارثيناك) ، شاعر كبير وأخ لي في فرنسا ، كان يطلق هتافات فرح . (أراغون) من جهته كان يبدو أكثر فرحاً مني بالخبر . كلاهما ساعدني في هذه اللحظة الحرجة على مصارعة الصحفيين .

أنا كنت إذّاك وقد أجريت لي عملية جراحية ، هزيلاً ، فقير الدم ، أمشي الهوينا ، قليل الرغبة بالتحرك . وكان قد وصل ليتعشى معي تلك الليلة كثير من الأصدقاء (ماتا) من إيطاليا ، (غارثيا ماركيث) من برشلونة ، (سيكيروس) من المكسيك ، (ميغيل أوتيرو سيلفا) من «كراكاس» ، (اورتورو كاماتشو راميرث) من باريس نفسها ، (كورتاثار) من مخبئه ، (كارلوس فاسايو) وهو تشيليّ ، سافر من روما إلى باريس كي يصحبني إلى «استوكهولم» .

البرقيات (التي حتى الآن ما استطعت قراءتها كلها ولا الإجابة عنها) تكومت في جبال صغيرة. من بين الرسائل العديدة وصلت رسالة غريبة عجيبة وبشكل ما مهددة. أرسلها من هولاندا رجل بدين ومن الجنس الأسود، حسب ما كان يتبين من قصاصة جريدة جريدة أرفقتها مع الرسالة. «أمثل - كان يقول، تقريباً، في الرسالة- الحركة المعادية للاستعمار في «جيورجيتون»، «غوايانا الهولاندية». لقد طلبت الحصول على بطاقة كي أتمكن من حضور الاحتفال الذي سيجري في «استوكهولم» بمناسبة تسليمك جائزة «نوبل». فأخبروني في السفارة السويدية أنه لا بد لي من لبس بدلة رسمية Frac وأنا أبداً لن أضع بدلة مستعملة مستأجرة لما في هذا من إهانة لأمريكي حر مثلي. ولهذا فإني أعلمك بأني بالمال الزهيد الذي يمكن لي أن أجمعه سأسافر إلى «استوكهولم» كي أعقد مؤتمرات صحفية لأفضح فيها الطبيعة الامبريالية وغير الشعبية لمثل هذه الاحتفالات. فليحتفل هكذا بتكريم أكثر الشعراء العالميين عداء للامبريالية وأكثرهم شعبية».

في شهر تشرين الثاني سافرت و(ماتيلده) إلى «استوكهولم». لقد صاحبني في سفرنا بعض الأصدقاء القدماء. فأنزلونا في «الفندق الكبير» الباهر. كنا نرى من هنالك المدينة الجميلة الباردة والقصر الملكي مقابل نوافذنا. في الفندق نفسه حل كذلك المتوجون الآخرين لذاك العام، في الفيزياء والكيمياء والطب الخ. شخصيات مختلفة، بعضهم مهذارون شكليون سطحيون. وآخرون بسطاء أجلاف كأنهم عمال ميكانيكيون حديثو الخروج من مراتبهم بالصدفة. لم يكن الألماني (ويلي براندت)(١) ينزل في الفندق نفسه بل كان يستلم جائزة «نوبل» للسلام في «النرويج». تأسفت لذلك كثيراً لأنه كان من بين أولئك الفائزين بالجائزة جميعهم أكثر واحد يهمني معرفته والتحدث إليه. لم أستطع أن ألمحه من بعد إلا وسط الاستقبالات بعيداً أحدنا عن الآخر كثيراً يفرق بيننا ثلاثة أو أربعة أشخاص على الأقل.

كان ضرورياً لأجل الاحتفال إجراء تجربة سابقة. لقد جعلتنا المراسم السويدية نخرج للتمثيل في المكان نفسه حيث سيجري الاحتفال. كان مضحكاً حقاً رؤية أناس جديين جداً وهم يقفزون من أسرّتهم ويخرجون من الفندق مهرولين في ساعة مبكرة ليصلوا في الوقت المحدد بالضبط إلى مبنى فارغ، ثم يصعدون الدرج دون أن

---

(١) ويلي براندت: السياسي الألماني المعروف الذي كان رئيساً للحكومة في ألمانيا الغربية.

يخطئوا ثم يمضون على اليسار وعلى اليمين في ترتيب صارم ، ثم كان علينا أن نجلس في المنصة كل على مقعده المخصص له ليستلم جائزته في اليوم التالي . كل هذا ونحن نواجه أجهزة التلفزة في قاعات فارغة هائلة تبرز فيها كراسي الملك والعائلة المالكة الفارغة الخاوية في شكل كئيب كذلك . أبداً ما استطعت أن أعرف ولا أن أفسر لأي هوس كان التلفزيون السويدي يصور ذلك التمرين المسرحي الذي يقوم به ممثلون ثقيلون جداً ، بليدون جداً .

لقد توافق يوم تسليم جائزة «نوبل» مع عيد القديسة «لوثيّا» . أيقظتني بعض الأصوات التي كانت تغني بشكل عذب في ممرات الفندق . من بعد ، الصبايا الشقراوات الاسكندينافيات ، المتوجات بزهور ، المضاءات بشموع مشتعلة ، اقتحمن غرفتي وكنّ يحضرن لي الفطور وكذلك يحضرن ، كهدية ، لوحة طويلة جميلة تمثل البحر .

في وقت لاحق حصل حادث حرّك شرطة «استوكهولم» وأثارها . في مكتب الاستقبال بالفندق أعطوني رسالة . فتحتها وإذ هي موقعة من ذاك الرجل نفسه عدو الاستعمار ، الراكب رأسه ، المطلق زمامه ، العضو الفعال في حركة «جيورجيتون» ، «غوايانا الهولاندية» . لقد وصلت حديثاً إلى «استوكهولم» ، كان يقول في رسالته . كان قد فشل في تصميمه على عقد مؤتمر صحفي ، لكنه بما أنه رجل قضية ثورية وفعل ثوري فإنه قد اتخذ إجراءاته . إنه لمحال أن يستلم (بابلو نيرودا) شاعر المسحوقين والمتواضعين جائزة «نوبل» وهو يرتدي بدلة رسمية . وبالتالي فقد اشترى مقصاً أخضر سيقطع لي به علانية وأمام الناس «خرق البدلة الرسمية المتدلية وأية خرق متدلية أخرى» . «لهذا فإني أؤدي واجبي بأن أحذّرك من مغبة هذا . حين ترى رجلاً ملوناً ينهض من آخر القاعة فإنه عليك أن تفترض ما سيجري بعد هنيهة» .

ناولت الرسالة الغريبة إلى الشاب الديبلوماسي ، ممثل المراسم السويدية الذي كان يصحبني في تحركاتي جميعها . قلت له مبتسماً إني كنت قد تلقيت في باريس رسالة أخرى من هذا المجنون نفسه ، وإنه في رأيي يجب ألا نهتم بهذا الأمر كثيراً ولكن الشاب السويدي لم يكن على اتفاق معي في هذا الشأن .

– في هذه الفترة من المماحكات يمكن أن تحدث أكثر الأشياء غرابة . إن واجبي هو أن أعلم شرطة «استوكهولم» بهذا الأمر – قال لي وانطلق بسرعة لأداء ما كان يعتبره واجباً عليه .

يجب أن أشير إلى أن من بين مرافقيّ إلى «استوكهولم» كان الفينزويلي (ميغيل

ارتيرو سيلفا) وهو كاتب كبير وشاعر ظريف، وهو بالنسبة لي ليس ضميراً أمريكياً فحسب بل زميل لا يقارن. كان الاحتفال على وشك الابتداء حين رويت خلال الأكل الجدية التي كان السويديون قد أبدوها تجاه مسألة الرسالة المحتجة. (اوتيرو سيلفا) الذي كان يتغدى معنا ضرب كفاً على جبينه وصرخ:

- لكن، هذه الرسالة كتبتها أنا بيدي وفي خطي لكي أتناول شَعر[1] (بابلو). ماذا سنفعل الآن مع رجال الشرطة الذين يبحثون عن فاعل لا يوجد؟

- ستقاد إلى السجن جزاء لك على نكتتك الثقيلة الهمجية نكتة «البحر الكاريبي»، ستلقى العقاب الذي يستحقه رجل «جيورجيتون» - قلت له.

في هذه اللحظة جلس معنا حول المائدة الشاب السويدي، مرافقي الذي كان يعود بعد أن أعلم الجهات المختصة. قلنا له ما جرى:

- إن الأمر لا يعدو أن يكون غير مزاح سيء المزاج، والفاعل ها هو يتغدى معنا، الآن.

عاد للخروج مستعجلاً عجولاً. لكن رجال الشرطة كانوا قد زاروا فنادق «استوكهولم» كلها بحثاً عن أسود «جيورجيتون» أو أسود أية أرض أخرى شبيهة.

واتخذوا احتياطاتهم إذ إنني و(ماتيلده) كذلك، حين دخلنا إلى الحفلة وحين خرجنا من رقص الاحتفال، لاحظنا أنه كان يبادر إلى الاهتمام بنا بدلاً من الحجاب العاديين أربعة أو خمسة من الشبان الأقوياء الأشداء، حراس ظهر، شقر، متهيئون لأية محاولة من ضربة بالمقص.

كان للاحتفال المراسيمي بتسليم جائزة «نوبل» جمهور حافل. هادئ ومتدرب على النظام؛ إذ إنه ما كان يصفق إلا في الوقت المناسب وفي كياسة وأدب. كان العاهل العجوز يصافح كل واحد منا، يعطي كل واحد منا الديبلوم، الوسام، التشيك. كنّا نعود إلى أماكننا في المنصة واحداً إثر آخر، وكنت هذه المنصة مليئة بالزهور والمقاعد المشغولة، وليس كما كانت من قبل هزيلة قذرة، حين كنا نجري التمرين والمناورة. يقال (أو هذا ما قالوه لـ(ماتيلده) كي يجعلوها تتأثر كثيراً) إن الملك بقي معي وقتاً أكثر مما بقي مع المكللين الآخرين الحائزين على الجائزة، وأنه شد على يدي خلال وقت أطول، وأنه عاملني بلطافة ظاهرة بادية على محياه. ربما كانت هذه

---

(١) تناول الشَعر: تعبير إسباني بمعنى المزاح وهو يشبه التعبير العربي الضحك على الذقون.

اللطافة تذكار تلك التي كان الملوك في العهد القديم يبدونها للرواة . على كل حال ولا أي ملك آخر مد لي يده لوقت قصير أو طويل .

لقد كان لذاك الاحتفال البروتوكولي الصارم الوقار المناسب . قد يحيا هذا الوقار الجاري في المناسبات المهمة إلى الأبد في العالم . يبدو أن الإنسان بحاجة إليه . غير أني وجدت شبهاً لطيفاً بين ذاك الاستعراض الذي قام به الفائزون الشهيرون وبين توزيع الجوائز المدرسية في مدينة صغيرة بمحافظة نائية .

تشيلي الصغيرة:

كنت أجيء أنا من «بورتو أبانيث» ، مندهشاً بالبحيرة الكبيرة «جينرال كاريرا» مندهشاً من هذه المياه المعدنية التي هي ذي اللون الفيروزجي ، في «كوبا» أو ببحيرتنا «بيتروهويه» . ثم قفزة نهر «إيبانيث» الهمجية ، وهو نهر عظيم رهيب . كنت أجيء أيضاً كئيباً مكروباً بسبب فقر شعوب المنطقة وعدم الاتصال في ما بينها ، مع أنهم يجاورون الطاقات الكهربائية فهم غير مزودين بالكهرباء . مع أنهم يعيشون بين قطعان الأغنام الصوفة التي لا حصر لها فهم لا يرتدون إلا أسمالاً ممزقة . إلى أن وصلت إلى «تشيلي الصغيرة» .

هناك كان الشفق الكبير ينتظرني وهو يغلق النهار . كانت الريح المؤبدة تمزق الغيوم «الكوارتزية»[1] . أنهار من نور أزرق كانت تحجز ديمة كبيرة كانت الريح تحافظ عليها في عطالة بين الأرض والسماء .

مرابع مواش ، مزارع كانت تصارع تحت ضغط الريح اللولبية . كانت ترتفع الأرض حول هذه المرابع والمزارع بأبراج «لا روكا كاستيو»[2] الصلبة ، برؤوس حادة مسننة ، بفوهات قوطية ، باستحكامات وشرفات طبيعية من غرانيت . كانت جبال «ايسين» التعسفية المكورة مثل الخذروف ، المرتفعة الملساء مثل الطاولات ، تُري مستطيلات ومثلثات من ثلج .

وكانت السماء تصنع شفقها من خيوط الحرير ومن فلزات المعادن : يتلألأ اللون الأصفر في الأعالي محوماً كما الطير الهائل عبر الفضاء النقي ، كان كل شيء يتغير

---

(١) الكوارتزية : نسبة إلى «كوارتز» وهو المرو .

(٢) لا روكا كاستيو : معناها ، الصخرة القلعة .

فجأة ، يتحول إلى فم حوت ، إلى نمر أرقط متوهج ، إلى مشاعل تجريدية .

شعرت أن السعة كانت تنتشر فوق رأسي وقد رسمتني فأسمتني شاهد الـ«ايسين»الباهر بأطواده ، بشلالاته ، بملايينه من الأشجار الميتة المحروقة التي تتهم قاتليها القدماء ، مع سكون عالم يولد فيه كل شيء معد : مهرجانات الأرض والسماء . لكن ينقصه الكنف ، النظام الجماعي ، التشييد ، الإنسان . إن من يعيش في مثل هذه الأرض الخلاء يحتاج إلى تضامن إنساني جد فسيح مثل هذه المساحات الواسعة الكبيرة .

ابتعدت حين كان ينطفىء الشفق ، والليل كان يخيم أزرق مفزعاً .

رايات أيلول:

إن شهر أيلول في جنوب القارة الأمريكية اللاتينية لهو شهر عريض مزهر . كذلك إن هذا الشهر مليء بالمرارات .

في بداية القرن الماضي في عام ١٨١٠ وفي شهر أيلول هذا انبثقت أو توطدت الانتفاضات ضد السيطرة الإسبانية في أراض عديدة بأمريكا الجنوبية .

في شهر أيلول هذا نحن أمريكان الجنوب نذكر التحرر والانعتاق ، نحتفل بالأبطال ، نستقبل الربيع الرحب الفسيح جداً إلى حد أنه يتجاوز مضيق «ماغايانيس» ليزهر حتى في «باتاغونيا اوسترال» حتى في «كابو دي اورنوس» .

لقد كانت مهمة جداً للعالم سلسلة الثورات الدورية التي كانت تنفجر من المكسيك حتى الأرجنتين وتشيلي .

لم يكن القواد يتشابهون في ما بينهم . فـ(بوليفار) كان محارباً ودمثاً ، موهوباً بإشراق نبوي . (سان مارتين)[1] كان منظماً عبقرياً لجيش عبر سلسلة الجبال الأكثر ارتفاعاً وصعوبة على وجه الأرض كي يشن في تشيلي المعارك الحاسمة في سبيل تحريرها . (خوسيه ميغيل كاريرا)[2] ، (برناردو اوهيغينس)[3] كانا مبدعي أوائل الجيوش التشيلية ، كما كانا كذلك السبّاقين في جلب المطابع إلى تشيلي وسن

---

(١) سان مارتين : بطل من أبطال التحرر في أمريكا اللاتينية (١٧٧٨-١٨٥٠) .

(٢) خوسيه ميغيل كاريرا : بطل من أبطال التحرر في تشيلي ، كان عسكرياً وسياسياً (١٧٨٥-١٨٢١) .

(٣) برناردو اوهيغينس : بطل من أبطال التحرر في تشيلي (١٧٧٨-١٨٤٢) .

القوانين المحرمة للرق الذي ألغي قبل سنوات كثيرة من إلغائه في الولايات المتحدة .

إن (خوسيه ميغيل كاريرا) و(بوليفار) وبعض المحررين الآخرين كانوا يخرجون من الارستوقراطية الـ«كريوييا» . كانت مصالح هذه الطبقة تصطدم بشكل عنيف مع المصالح الإسبانية في أمريكا . لم يكن الشعب يوجد بعد كتنظيم بل كان في شكل جمهرة غفيرة من عبيد تحت أوامر السيطرة الإسبانية . كان على الرجال ، من أمثال (بوليفار) و(كاريرا) ، الذين كانوا قد قرؤوا الموسوعات وتخرجوا من الكليات العسكرية الإسبانية أن يحطموا جدار العزلة والصمت والجهل كي يتوصلوا إلى تحريك الروح القومية في نفوس الشعب .

إن حياة (كاريرا) كانت قصيرة ولكنها ملتهبة مثل برق . «العسس التعيس» عنونت أنا كتاباً قديماً يحتوي على ذكريات ، نشرته أنا بنفسي منذ عدة سنين . إن شخصيته الجذابة جلبت النزاعات حول رأسه كما مانعة الصواعق تجذب وتجبذ شرارات العواصف . آخر الأمر أعدم رمياً بالرصاص في «ميندوثا» بأمر من حكام الجمهورية الأرجنتينية الحديثة الإعلان إذّاك . كانت رغباته الجامحة بتحطيم السيطرة الإسبانية قد وضعته على رأس الهنود المتوحشين في السهول الأرجنتينية . حاصر «بونوس إيريس» وكان على وشك أن يأخذها عنوة . بيد أن رغباته الحقيقية كانت تميل إلى تحرير تشيلي ، وفي هذا الإصرار استعجل فقام بحروب وحروب عصابات أدت به إلى خشبة الإعدام . لقد التهمت الثورة في تلك السنين المضطربة أحد أبنائها الأذكياء الشجعان . يُدين التاريخ بهذا الفعل الدامي (أوهيغينيس) و(سان مارتين) . لكن التاريخ في شهر أيلول هذا ، الشهر الربيعي المليء بالرايات يغطي بأجنحته ذكرى الأبطال الثلاثة في هذه المعارك التحريرية التي دارت رحاها على مسرح واسع من سهول هائلة ومن ثلوج خالدة .

إن (أوهيغينيس) وهو بطل آخر من محرري تشيلي ، كان رجلاً متواضعاً بسيطاً . كانت حياته ستكون غامضة هادئة ، لو لم يكن قد تلاقى في لندن ، حين لم يكن له من العمر إلا سبع عشرة سنة ، مع تأثر قديم كان يجوب بلاطات ملوك أوروبا كلها بحثاً عن مساعدة لقضية الانعتاق الأمريكي . كان يسمى السيد (فرانثيسكو دي ميراندا)[1] . ومن بين أصدقائه الكثر اعتمد على ود إمبراطورة روسيا

---

(١) فرانثيسكو دي ميراندا : بطل من أبطال التحرر في أمريكا الجنوبية (١٧٥٠-١٨١٦) .

(كاتالينا)[1] ودعمها القدير . بجواز سفر روسي وصل إلى باريس وكان يدخل ويخرج في إمارات أوروبا ودويلاتها .

إنها لرواية رومانطيكية ذات نفس يمثل «فترة» مما يجعلها تبدو مغناة (Opera) .
(أوهيغينيس) كان ابناً غير شرعي لنائب الملك الإسباني وكان هذا جندياً جمع ثروة كبيرة فأصبح حاكماً باسم الملك على تشيلي وهو من أصل إيرلاندي . رتب الأمور (ميراندا) لإثبات أصل (أوهيغينيس) حين أدرك فائدة الشاب وما يمكن أن يكون لأصله من نفع في تحريض شعوب المستعمرات الإسبانية في أمريكا . في كتب التاريخ تروي اللحظة التي كشف فيها (ميراندا) للشاب (أوهيغينيس) سر أصله ودفعه إلى العصيان والتمرد . خر الشاب الثائر راكعاً وعانق (ميراندا) ، وبين النحيب والبكاء وعده بالانطلاق من لندن إلى تشيلي حالاً ليقود هناك حركة التمرد ضد النفوذ الإسباني . كان (أوهيغينيس) هو من حقق الانتصارات النهائية في القضاء على النظام الاستعماري بتشيلي وهو يعتبر مؤسس جمهوريتنا .

أما (ميراندا) فقد قضى نحبه حين كان سجيناً من قبل الإسبان في سجن «لا كارّاكا» بـ«قادش» . إن جسد هذا الجنرال في الثورة الفرنسية ومعلم ثوريين كثيرين قد لُفَّ في كيس وألقي به إلى البحر من أعلى السجن .

(سان مارتين) مات بعد أن نفاه أبناء قومه ، في «بولونيا» بفرنسا عجوزاً وحيداً .

(أو هيغينيس) محرر تشيلي مات في «البيرو» بعيداً عن كل ما يحب ، مطروداً ، بعد أن استولت الطبقة الإقطاعية «الـ كريويا» على الثورة .

منذ وقت قريب ، حين مررت بـ«ليما» Lima وجدت في متحف «البيرو» التاريخي بعض اللوحات التي رسمها الجنرال (أو هيغينيس) في أعوامه الأخيرة . موضوع هذه اللوحات كلها هو تشيلي . كان يرسم ربيع تشيلي ، أوراق وأزهار شهر أيلول في تشيلي .

في شهر أيلول هذا جعلت أذكر تلك الفترة من الانعتاق والتحرر ، أسماء أبطالها ، حوادثها ، رغباتها وآلامها ، بعد مضي قرن على تلك الفترة ها هي الشعوب تهتز من جديد ، وها هو تيار مضطرب من ريح وغضب يحرك الرايات . إن كل شيء قد تغير منذ تلك السنين القصية السحيقة ، لكن التاريخ يتابع مسيره وها هو ربيع جديد يملأ أصقاع أمريكا وأجواءها .

---

(١) كاتالينا : هي إمبراطورة روسيا (١٧٢٩-١٧٩٦) .

(بريستيس Prestes):

ولا أي زعيم شيوعي في أمريكا كانت حياته معرضة للخطر دوماً كما كانت عليه حياة (لويس كارلوس بريستيس) . لقد كان بطلاً عسكرياً وسياسياً للبرازيل . لقد تجاوزت حقيقته وأسطورته منذ زمن كثير التقييدات العقائدية فاستحال هو إلى تجسيد حي للأبطال القدماء الأشاوس .

لهذا ، حين تلقيت دعوة وأنا بـ«إيسلا نيغرا» لزيارة البرازيل والتعرف على (بريستيس) قبلت الدعوة حالاً . عرفت كذلك أنه لن يكون هناك مدعو أجنبي آخر غيري ، وهذا ملأني فخراً فشعرت أني أشارك بشكل ما في حركة انبعاث .

كان (بريستيس) حديث الخروج إلى الحرية بعد أن قضى أكثر من عشر سنوات في عبودية السجن . إن هذه الاعتقالات الطويلة الأمد ليست استثنائية شاذة في بلدان «العالم الحر» . فزميلي وصاحبي الشاعر (ناظم حكمت) قضى ثلاث عشرة أو أربع عشرة سنة في سجون تركيا . الآن وأنا أكتب هذه الذكريات أذكر أن ستة أو سبعة من شيوعيي «الأورغواي» قد دفنوا في السجون دون أي اتصال بالعالم منذ اثنتي عشرة سنة . لقد سلّمت الديكتاتورية البرازيلية زوجة (بريستيس) وهي ألمانية الأصل ، إلى الـ«غيستابو» . قيّدها النازيون بالسلاسل إلى الباخرة التي كانت تقلها إلى عذاب الموت . وضعت طفلة تعيش الآن مع أبيها ، أنقذتها من بين أنياب الـ«غيستابو» السيدة المحترمة التي لا تملّ ، السيدة (ليوكاديا بريستيس) والدة هذا الزعيم . بعد أن وضعت زوجة (لويس كارلوس بريستيس) طفلتها في فناء سجن ، دق النازيون عنقها . إن هذه الحيوات المستشهدة كلها جعلت الناس لا ينسون (بريستيس) أبداً طيلة السنوات الطويلة التي قضاها في السجن .

أنا كنت في المكسيك حين ماتت والدته السيدة (ليوكاديا بريستيس) . كانت هي قد دارت العالم كله وهي تطالب بتحرير ابنها . أبرق الجنرال (لاثارو كارديناس)[1] وهو رئيس سابق للجمهورية المكسيكية ، إلى الديكتاتور البرازيلي طالباً منه أن يعطي (بريستيس) بضعة أيام من حرية تسمح له أن يحضر جنازة والدته . كان الرئيس (كارديناس) في رسالته يقول بأنه يضمن شخصياً عودة (بريستيس) إلى

---

(١) لاثارو كارديناس : زعيم سياسي مكسيكي ، كان جنرالاً في الجيش ثم أصبح رئيساً للجمهورية (١٨٩٥-١٩٧٠) .

حبسه فكان جواب (غيتوليو بارغاس)[١] سلبياً .

لقد ساهمت في سخط العالم كله فكتبت قصيدة على شرف السيدة (ليوكاديا) وفي ذكرى ابنها الغائب وفي لعنة الطاغية .

أنشدتها على ضريح السيدة النبيلة التي قرعت أبواب العالم عبثاً في سبيل تحرير ابنها . كانت قصيدتي تبدأ في وقار واعتدال :

سيدتي ، لقد جعلت من قارتنا الأمريكية أكبر وأعظم .
لقد منحتها نهراً نقياً من مياه جمة ،
لقد منحتها شجرة كبيرة ذات جذور لا نهائية :
ابناً لك جديراً بوطنه العميق .

لكن ، بمقدار ما كانت القصيدة تستمر كانت تغدو أكثر عنفاً ضد المستبد البرازيلي .

لقد أنشدتها في جهات كثيرة ثم راحت تنسخ وتطبع في منشورات وعلى البطاقات البريدية فجابت القارة بأسرها .

ذات مرة ، حين كنت أمر بـ«بناما» أرفقتها بمجموعة من القصائد في إحدى قراءاتي الشعرية بعد أن أنشدت قصائدي الغزلية . كانت القاعة مليئة وكان حر البرزخ يجعلني أعرق وأرشح . كنت قد وصلت في إنشادي إلى الأبيات التي تلعن الرئيس (بارغاس) حين شعرت أن حنجرتي قد جفت . توقفت عن الإنشاد ومددت يدي نحو كأس كانت قريبة مني . في هذه اللحظة رأيت شخصاً يلبس بدلة بيضاء يقترب مني مستعجلاً نحو المنبر . أنا ، معتقداً أنه مستخدم تابع للقاعة ، مددت له الكأس كي يملأها لي بالماء . لكن الرجل هذا المرتدي البذلة البيضاء رفض ذلك وقد شعر بالإهانة والتفت إلى الحضور ثم صرخ بشكل عصبي Soyo Embaxaidor do Brasil[٢] . احتج لأن (بريستيس) ما هو إلا مجرم عام . . .» .

فقاطع الجمهور هذه الكلمات بتصفير حاد مدو . طالب شاب ملون ، عريض كخزانة ، نهض من وسط القاعة وشق له درباً نحو المنبر ومد يديه إلى عنق السفير . أنا أسرعت كي أحمي الديبلوماسي ولحسن الحظ استطعت أن أخرجه من ذاك المكان

---

(١) غيتوليو بارغاس : زعيم سياسي برازيلي (١٨٨٣-١٩٥٤) .

(٢) العبارة بالبرتغالية ، معناها ، أنا سفير البرازيل .

دون أي ضرر كان يمكن أن يلحق بمنصبه وسمعته .

بهذه السوابق بدا سفري من «ايسلا نيغرا» إلى البرازيل للمشاركة في الابتهاج الشعبي ، طبيعياً بالنسبة للبرازيليين . لقد اندهشت حين رأيت الجمهرة الغفيرة التي كانت تملأ ملعب «باكايمبو» Pecaimbu في «سان باولو» . يقولون إنه كان هناك أكثر من مائة ألف نسمة . كانت الرؤوس ترى صغيرة جداً داخل تلك الدائرة الواسعة جداً . لقد بدا لي (بريستيس) ذو القامة الضئيلة وهو بجانبي وكأنه (العازر) وقد خرج من القبر ، نظيفاً ومتزيناً للمناسبة . كان ضامراً أبيض حتى الشفافية ، بهذا الشحوب الغريب الذي يبدو على ملامح السجناء . نظرته الحادة الشديدة ، دوائره المزرقة حول عينيه ، أساريره الرقيقة جداً ، رصانته الخطيرة ، كل شيء كان يذكر بالتضحية الطويلة خلال حياته كلها . غير أنه تكلم في هدوء جنرال منتصر .

أنا أنشدت قصيدة على شرفه كتبتها ساعات قليلة من قبل . غير فيها (خورخه أمادو) كلمة واحدة وهي كلمة البنّائين[١] واستبدل بها كلمة Pedreiras[٢] البرتغالية . على الرغم من تخوفاتي فقد فهم الحشد الغفير كله قصيدتي المكتوبة والمقروءة باللغة الإسبانية . بعد كل سطر من قراءتي المتمهلة البطيئة كان ينفجر تصفيق البرازيليين . كان لتلك التصفيقات رجع عميق في شعري . إن شاعراً ينشد أشعاره أمام مائة وثلاثين ألف نسمة ليس في مكنته أن يظل هو نفسه كما كان من قبل ، ولا يستطيع أن يكتب بالطريقة نفسها بعد هذه التجربة .

في النهاية أجد نفسي وجهاً لوجه أمام البطل الأسطوري (لويس كارلوس بريستيس) كان ينتظرني في منزل أحد أصدقائه . إن كل ملامح (بريستيس) - قامته الصغيرة ، نحولته بياضه كبياض الورق الشفاف ، تتطلب إمعاناً كإمعان التصوير الدقيق . كذلك كلماته ، ولربما تفكيره ، تبدو في تناسق مع هذا المظهر الخارجي .

إنه ودي معي ولطيف داخل إطار تحفظه المعروف به . أعتقد أنه يخصني بهذه المعاملة الودودة التي نحن الشعراء نجدها دوماً لدى الآخرين في معاملتهم لنا وهي معاملة تلطف بين الطراوة والمراوغة ، شبيهة جداً بمعاملة الكبار حين يتحدثون إلى الصغار .

دعاني (بريستيس) إلى الغداء في يوم من أيام الأسبوع التالي . عند ذلك الوقت

---

(١) البنائين : هكذا في الأصل Albaniles ، عن العربية .

(٢) معناها : الحجّارة .

وقعت لي واحدة من هذه المصائب التي لا يمكن عزوها إلا إلى القدر أو إلى فوضويتي وعدم مسؤوليتي . إن اللغة البرتغالية ، مع أنها تملك سبتها وأحدها لا تشير إلى الأيام الأخرى مثل الاثنين والثلاثاء والأربعاء إلا بتسميات شيطانية على النحو التالي Segonda Feira, Tersa Feira, Guarta Feire قافزة عن Feira الأول باعتباره تحصيل حاصل . أنا أتخربط بهذه الأيام البرتغالية دون أن أدري في أي يوم يكون يومها .

رحت لأقضي بضع ساعات على الشاطىء مع صديقة برتغالية جميلة ، مذكراً نفسي في كل لحظة أنه في اليوم التالي ينتظرني (بريستيس) على الغداء . فيLa quarta Feira علمت أن (بريستيس) انتظرني في Tersa Feira بلا جدوى والمائدة جاهزة بينما كنت أنا أقضي تلك الساعات في شاطئ «ايبانيما» Ibanima . بحث عني في كل جهة دون أن يعرف أحد أين موضعي . القائد الزاهد كان قد أحضر تكريماً لي زجاجات نبيذ فاخرة ممتازة من الصعب الحصول عليها في البرازيل . كنا سنتغدى نحن الاثنين وحدنا .

كلما ذكرت هذه الحكاية ، أريد أن أموت خجلاً . لقد استطعت أن أتعلم كل شيء في حياتي غير أسماء أيام الأسبوع بالبرتغالية .

(كودوفيا Codvila):

لدى خروجي من «سانتياغو» عرفت أن (فيتوريو كودوفيا) كان يريد التحدث معي فذهبت لأراه . كنت أحافظ دوماً على صداقة طيبة معه حتى موته .

كان (كودوفيا) ممثلاً للأممية الثالثة وكانت تجتمع فيه عيوب تلك الفترة كلها . كان شخصانياً استبدادياً ، وكان يظن أنه يملك الحق دوماً ، كان يفرض رأيه ويعتقد أنه الفيصل ، كان يتدخل في آراء الآخرين كما السكين في الزبدة . يدخل إلى الاجتماعات في عجلة واستعجال ليعطي الانطباع بأن كل شيء عنده قد أنجز وأنه فكر في كل أمر ووجد له حلاً . يبدو عليه حين ينصت إلى آراء الآخرين وكأنه يفعل ذلك في كياسة وذوق ، وفي تململ وعدم صبر . من بعد كان يعطي أوامره الباتة وتعليماته القاطعة . قدرته كانت هائلة وسيطرته على الإنشاء والتركيب كانت باهظة تبعث الأخرين على الإرهاق . كان يعمل بلا كلل وكان يفرض هذا النسق السريع المتواصل على رفاقه . لقد تكونت لي فكرة دائمة عنه ألا وهي أنه آلة كبيرة للفكر السياسي في تلك الأوقات .

لقد كان له نحوي دوماً شعور خاص جداً بالتفهم والمراعاة . لقد كان هذا الإيطالي المهاجر النفعي فيما هو مدني ، إنسانياً بشكل فائض ، ذا شعور عميق وحس فني يجعلانه يتفهم نقاط الضعف في رجال الثقافة ، ولكن هذا ما كان ليمنعه من أن يكون عديم الشفقة -وأحياناً نحساً- في الحياة السياسية .

كان منزعجاً منشغلاً ، قال لي ، بسبب عدم تفهم (بريستيس) لموقفه المعادي للديكتاتورية «البيرونية» . فقد كان (كودوفيا) يعتقد أن (بيرون) وحركته كانا امتداداً للفاشية الأوروبية . ولا أي إنسان معادٍ للفاشية يمكن له أن يقبل بتضخم «بيرون» وبنشاطاته المتكررة في القمع والاستبداد . كان (كودوفيا) والحزب الشيوعي الأرجنتيني ويساريون آخرون يفكرون في تلك الفترة أن الجواب الوحيد على (بيرون) هو العصيان .

(كودوفيا) كان يريد أن أتكلم أنا في هذا الموضوع مع (بريستيس) . ليس هذا بمهمة يجب عليك تأديتها ، قال لي . لكنني شعرت بأنه كان منشغلاً في إطار هذه الثقة بالنفس التي كانت تميزه .

بعد المهرجان السياسي الذي جرى في «باكيامبو» تحدثت مطولاً مع (بريستيس) . لم يكن ممكناً العثور على رجلين مختلفين متناقضين أكثر منهما . الإيطالي-الأرجنتيني الضخم الطافح كان دائماً يشغل الغرفة كلها ، الطاولة بأسرها ، الجو بكامله . (بريستيس) الضامر الزاهد كان جد هش إلى حد أن هبّة ريح كانت تستطيع أن تحمله عبر النافذة .

غير أني وجدت من وراء المظاهر رجلين صلبين جداً لا يختلف أحدهما عن الآخر في صلابته وعناده .

«ليس ثمة من فاشية في الأرجنتين ، إن (بيرون) هو قائد وليس زعيماً فاشيستياً» قال لي (بريستيس) مجيباً عن أسئلتي . «أين هي القمصان البنية؟ القمصان السوداء؟ المليشيا الفاشيستية؟» .

«زد على هذا ، أن (كودوفيا) يخطىء . يقول (لينين) إنه لا يمكن اللعب بالعصيان . ولا يمكن أن تعلن حرب بدون جنود ، إذا كان لا يعتمد فيها إلا على المرتجلين العفويين» .

كان الرجلان المختلفان جداً في أعماقهما متشابهين في أنهما لا يمكن إقناعهما . أحدهما ، بشكل محتمل (بريستيس) ، كان له الحق في هذه الأشياء لكن اعتقادية

كليهما ، اعتقادية هذين الثوريين المستحقين للإعجاب ، كانت تثير حولهما بشكل دائم جواً أنا كنت أجده خانقاً .

يجب عليّ أن أضيف هنا أن (كودوفيلا) كان رجلاً حيوياً . بالنسبة لي فقد كانت تعجبني جداً محاربته للحشمة وتصنع الحياء و«البوريتانية»[1] لفترة شيوعية . كان (لافيرته) رجلنا التشيلي العظيم جداً في تلك الأوقات القديمة المتعصبة المتحزبة ، ضد «الكحولية» حتى الهوس . كان (لا فيرته) العجوز يقبع[2] كذلك في كل لحظة ضد الحب والعلاقات الغرامية التي كانت تنشأ خارج «حكم الشرع»[3] بين رفاق الحزب ورفيقاتهم . كان (كودوفيلا) يهزم معلمنا المحدود بما له من سعة حيوية .

(ستالين):

إن كثيراً من الناس قد اعتقدوا في أني سياسي مهم ، أو أني كنت ذلك السياسي . لست أدري من أين خرجت هذه الأسطورة الشهيرة جداً . ذات مرة رأيت ، صدفة ، صورة لي صغيرة مثل صور الطوابع ، في صحفة من صفحات مجلة Life . كانت هذه المجلة تعرض على قرائها صور قادة الشيوعية العالمية . لقد بدت لي صورتي المحشورة بين صورة (بريستيس) وصورة (ماو تسي تونغ) فكاهة مسلية ، غير أني ما أوضحت أنا لقراء المجلة شيئاً لأني دائماً كنت أكره رسائل الاستدراك أو الاحتجاج التي تبعث عادة إلى الصحف لتوضيح أمر أو آخر . كذلك كان شيئاً لطيفاً أن أترك C.I.A[4] على خطئها مع أن لها في العالم أكثر من خمسة ملايين من العملاء والمخبرين .

إن أطول اتصال قمت به مع زعيم قطب في العالم الاشتراكي جرى خلال زيارتي للصين حين تبادلت مع (ماوتسي تونغ) في مجرى احتفال ، شرب الأنخاب . عندما تلامست كأسانا نظر إليّ بعينين مبتسمتين وبابتسامة عريضة واسعة بين

---

(١) البوريتانية : هي مذهب التمحيص والتمسك المتشدد بالدين ، يمكن ترجمتها بـ الحنبلة .

(٢) يقبع : قبع الخنزير ، أي دمدم وهمهم .

(٣) حكم الشرع : في الأصل Registro Civil ، أي السجل المدني .

(٤) إدارة الاستخبارات الأمريكية .

لطيفة ومستهزئة ، احتفظ بيدي في يده حين سلم عليّ ، ضاغطاً عليها خلال بضع ثوان أكثر مما هو معتاد عليه . من بعد عدت إلى المائدة لأجلس في مكاني .

أبداً ما شاهدت أثناء زياراتي الكثيرة للاتحاد السوفييتي لا (مولوتوف)[1] ولا (فيسهينسكي) ولا (بيريا)[2] ولا حتى (ميكويان) ، ولا (ليتفيتوف) وهذان الأخيران هما شخصيتان اجتماعيتان أكثر من غيرهما وأقل غموضاً من الآخرين .

أما (ستالين) فقد لمحته أكثر من مرة ، ودوماً في النقطة نفسها : المنصة التي تعلو فوق الساحة الحمراء وتغص بالقادة السوفييت ذوي المناصب العالية ، سواء في الأول من أيار أو في السابع من تشرين الثاني كل عام . لقد قضيت ساعات طويلة في «الكريملين» بصفتي عضواً في اللجنة المحكمة لمنح الجائزة التي كانت تحمل اسم (ستالين) دون أن نتواجه البتة ، في ممر ، ودون أن يأتي هو ليزورنا خلال مداولاتنا أو ولائمنا أو أن يدعونا ليحيينا . لقد منحت الجوائز دوماً بإجماع الأصوات لكن كان يسبق الاقتراع نقاش مغلق لاختيار المرشح . لقد كان لديّ الانطباع بأن شخصاً ما من أمانة سر اللجنة المحكمة كان يعدو بما كنا نتفق عليه ، قبل اتخاذ القرارات النهائية ، ليرى فيما إذا كان الرجل الكبير يصادق عليها أم لا . لكن لا أذكر مطلقاً أنه كان ثمة اعتراض أو أية ممانعة من قبله ، ولا أذكر كذلك أنه ، على الرغم من قربه المحسوس منا ، كان يشعر بأنه يعلم بوجودنا . لقد كان (ستالين) بشكل مقرر يزرع الغموض كمنهاج يتخذه ، أو أنه كان هيّاباً كبيراً ، رجلاً سجين نفسه . ربما يمكن إرجاع هذه الميزة إلى التأثير المسيطر الذي كان (بيريا) عليه . لقد كان (بيريا) هو الوحيد الذي يدخل ويخرج ، دون إعلام مسبق ، إلى غرف (ستالين) .

بيد أنه كان لي في مناسبة ما علاقة غير متوقعة ، ما زالت تبدو لي حتى الآن غريبة ، مع رجل «الكريملين» الغامض . كنا نروح في صحبة آل (أراغون) -(لويس) و(أيلسا)- في طريقنا إلى موسكو لنشارك في اجتماع اللجنة المحكمة التي كان عليها أن تتداول في منح جائزة (ستالين) لذاك العام . فأوقفتنا في «فرصوفيا» عواصف ثلجية هائجة هائلة . فعرفنا أننا لن نصل إلى «موسكو» في الوقت المحدد . أحد مرافقينا السوفييت تكلف بإرسال أسماء المرشحين الذين أنا و(أراغون) كنا قد

---

(١) مولوتوف : سياسي سوفييتي ولد عام ١٨٩٠ .

(٢) بيريا : سياسي سوفييتي مشهور (١٨٩٩-١٩٥٣) .

اخترناهم ، برقياً باللغة الروسية إلى «موسكو» . على فكرة ، هذه الأسماء قد ووفق عليها في الاجتماع . لكن ما هو غريب حقاً في هذا الأمر أن السوفييتي الذي تلقى الإجابة على ذلك هاتفياً ، أخذني جانباً وقال لي على حين غرة :

- أهنئك ، أيها الرفيق (نيرودا) . إن الرفيق (ستالين) حين قدمت إليه قائمة المرشحين للفوز بالجائزة صرح متسائلاً : «ولماذا اسم (نيرودا) ليس بين هذه الأسماء» .

في العام التالي استلمت أنا جائزة (ستالين) للسلم والصداقة بين الشعوب . ربما أني كنت أستحقها عن جدارة لكنني أتساءل كيف علم ذلك الرجل النائي بوجودي؟

عرفت في تلكم الأوقات بتدخلات مشابهة لستالين . حين كانت تتفاقم الحملة ضد «الكونية» El Cosmopolitismo ، حين كان المتحزبون ذوو «العنق القاسي» يطالبون برأس (إيهرينبورغ) رن جرس الهاتف ذات صباح في منزل مؤلف «خوليو خورنيتو» فردت على النداء (لوبا) . صوت غير معروف بشكل غامض ، سأل :

- أموجود (إليا غريغوريفيتش)؟

- من حضرتك؟ أجابت (لوبا) .

- هنا (ستالين) - قال الصوت .

- يا (إليا) ، ثمة رجل يمزح يريد التكلم معك - قالت (لوبا) (ايهرينبورغ) .

لكن حين أخذ الهاتف عرف الكاتب أنه صوت (ستالين) المسموع جداً من لدن الناس جميعهم :

- لقد قضيت الليلة وأنا أقرأ كتابك «سقوط باريس» . فأحببت أن أتصل بك كي أقول لك أن تظل مستمراً على كتابة مثل هذه الكتب المهمة جداً ، أيها العزيز (إليا غريغوريفيتش) .

قد تكون هذه المكالمة الهاتفية غير المتوقعة قد جعلت حياة (إيهرينبورغ) العظيم تطول .

مثال آخر . كان (ماياكوفيسكي) قد مات ، لكن أعداءه الرجعيين العنيدين كانوا يهاجمون ذكرى الشاعر بأنياب وبسكاكين ، مصممين مصرين على محوه من خارطة الأدب السوفييتي . حينذاك حدث أمر غيَّر كل ما بيتوه وافترضوه . كتبت حبيبته (ليلي بريك) رسالة إلى (ستالين) تشير له فيها إلى ما هو مخجل وعار في تلك

التهجمات وتدافع بشكل مؤثر عن شعر (ماياكوفيسكي) . كان المعتدون يظنون أنهم لن يعاقبوا على فعلتهم محميين بتآلبهم الجماعي . فأصيبوا بخيبة أمل . لقد كتب «ستالين» على هامش رسالة (بريك) : «إن (ماياكوفيسكي) لهو أحسن شاعر في العهد السوفييتي» .

منذ تلك اللحظة أخذت تبنى المتاحف وتقام النصب التذكارية تكريماً لـ(ماياكوفيسكي) وتكاثرت طبعات دواوين شعره الفاخر جداً . فصعق المخرصون وخمدوا أمام نفخة (يهوه) في الصور .

علمت كذلك أنه حين مات (ستالين) عثروا بين أوراقه على قائمة أسماء كتب عليها «ممنوع اللمس» ، بخط يده . في رأس هذه القائمة كان اسم الموسيقي (شيوكاكوفيتش)[1] ثم تتلو أسماء شهيرة أخرى . (ايسنتستين)[2] ، (باسترناك) ، (إيهرينبورغ) ، الخ .

إن الكثيرين ظنوا أني ستاليني مقتنع . لقد صورني الفاشيون والرجعيون على أني مفسر غنائي لستالين . لا شيء من هذا يغضبني ويزعجني . إن الاستنتاجات كلها ممكنة في عهد مشوش بشكل شيطاني .

إن المأساة الذاتية بالنسبة لنا نحن الشيوعيين كانت هي أننا أدركنا أنه ، في نواح عديدة من مشكلة ستالين ، كان للعدو الحق . لقد تلت هذا الكشف الذي هز النفس حالة وعي أليمة . بعض الشيوعيين شعر أنه كان مخدوعاً فقبل في عنف ، منطق العدو وعبر إلى صفوفه . آخرون اعتقدوا أن الأحداث الرهيبة المفزعة التي كشف عنها المؤتمر العشرون بشكل غير رحيم تفيد في أن تبرهن على نزاهة حزب شيوعي أنقذ نفسه وهو يُري العالم الحقيقة التاريخية وهو يقبل مسؤوليته الذاتية .

إن كان فعلاً أن هذه المسؤولية تقع علينا جميعاً ، فإن فضح تلك الجرائم كان يعيدنا إلى النقد الذاتي والتحليل وهما مادتان جوهريتان في مذهبنا . كان هذا يعطينا الأسلحة كي نمنع أن تتكرر مثل هذه الأشياء الرهيبة جداً .

هذا كان موقفي : على الرغم من دياجير عهد (ستالين) ، التي لم أكن أعرفها

---

(١) شيوكاكوفيتش : مؤلف موسيقي سوفييتي ، ولد عام ١٩٠٦.

(٢) ايسنتستين : مخرج سينمائي سوفييتي (١٨٩٨-١٩٤٨) .

كان يبرز أمام عيني (ستالين) الأول ، رجل مبدئي ، طيب ، دمث ، قانع مثل زاهد ، مدافع جبار عن الثورة الروسية . بالإضافة إلى هذا كان ذاك الرجل القصير ذو الشاربين الكبيرين قد أصبح عملاقاً في الحرب ، فقد اقتحم الجيش الأحمر واسم (ستالين) على كل شفة ، حصن الأبالسة الهتلريين فجعله غباراً .

بيد أني ، كتبت قصيدة واحدة أهديتها إلى هذه الشخصية القديرة وكان ذلك في موته . يستطيع من يشاء أن يعثر عليها في أعمالي الكاملة . إن موت مارد «الكريملين» كان له وقع دولي . فلقد اهتزت الغابة الإنسانية له . قصيدتي هذه التقطت مشاعر ذاك الهلع الأرضي .

درس في التواضع:

لقد باح لي (غابرييل غارثيا ماركيث) ، وهو يشعر بإهانة كبيرة ، كيف أنهم حذفوا في موسكو بعض العبارات الغرامية من كتابه الرائع «مائة سنة في الوحدة» .

- إن هذا لسيء جداً - قلت أنا للناشرين .

- لكن الكتاب لا يفقد شيئاً - أجابوني ، وأنا أدركت بأنهم كانوا قد شذبوه من غير نية سيئة . لكنهم شذبوه .

كيف يتم إصلاح هذه الأشياء؟ إنني في كل مرة أصبح أقل علماً في المجتمع . خارج مبادئ الماركسية العامة ، خارج كراهيتي للرأسمالية وثقتي في الاشتراكية ، كل مرة أغدو أقل فهماً لتناقض الإنسانية العنيد .

كان علينا نحن شعراء هذه الفترة أن نختار . لم يكن الاختيار سريراً من ورود . لقد أصبحت الحروب الرهيبة الظالمة ، الاضطهاد المستمر ، ظلم المال واعتداؤه ، المظالم كلها ، أكثر إمعاناً ووضوحاً . لقد كانت صنّارات النظام الهرم هي «الحرية» المشروطة ، الناحية الجنسية ، العنف والملذات المدفوعة على أقساط شهرية مريحة .

لقد بحث شاعر الحاضر عن مخرج من قلقه . بعضهم التجأ إلى الصوفية أو نحو حلم العقل . بعضهم الآخر يشعر أنه مفتون بالعنف العفوي المهدم للشباب ، فعبر ليصير «تلقائياً» immediatista دون الأخذ بعين الاعتبار أن هذه التجربة ، في العام الحالي الحربي ، قد أدت دوماً إلى القمع والتعذيب الجسدي العقيم .

لقد وجدت في حزبي ، الحزب الشيوعي التشيلي ، مجموعة كبيرة من أناس متواضعين كانوا قد نحوا جانبا الغرور الشخصي ، حب الزعامة ، المصالح المادية .

شعرت بأني سعيد في معرفة أناس متواضعين يناضلون في سبيل التواضع العام أي في سبيل العدالة .

قط لم تكن لي من مصاعب مع حزبي الذي بتواضعه توصل إلى تحقيق انتصارات عظيمة لشعب تشيلي ، شعبي . ماذا أستطيع أن أقول أكثر من هذا؟ إني لا أطمح إلا إلى أن أكون جد متواضع مثل رفاقي ، جد مثابر وغير قابل للهزيمة كما هم عليه . أبداً لا يتعلم المرء ما فيه الكفاية من التواضع . قد ما علمني شيئاً الافتخار الشخصي الذي يتحصن في «المذهب الارتيابي» el escepticismo كي لا يتضامن مع العذاب الإنساني .

(فيديل كاسترو Fidel Castro)[1].

بعد أسبوعين من دخوله المنتصر إلى «لا هافانا» وصل (فيديل كاسترو) إلى «كاراكاس» في زيارة قصيرة . لقد جاء ليشكر علناً الحكومة والشعب الفنزويليين على المساعدة التي كانت «فينزويلا» قد قدمتها له . هذه المساعدة كانت عبارة عن أسلحة لقواته ولم يكن ، طبعاً ، (بيتانكورث)[2] (المنتخب حديثاً رئيساً للجمهورية) من أمده بهذه المساعدة بل كان أمير البحر (وولفغانغ لارازابال) . لقد كان (لارازابال) صديق الحركات اليسارية الفينزويلية بما فيها الحزب الشيوعي فلبى مطلب التضامن مع كوبا ، الذي وجهه إليه هؤلاء اليساريون .

لقد رأيت في حياتي قليلاً من الاستقبالات السياسية الحماسية جداً مثل الاستقبال الذي خص به الفينزويليون هذا الشاب المنتصر في الثورة الكوبية . لقد تكلم (فيديل كاسترو) خلال أربع ساعات مستمرة في الساحة الكبرى المسماة «الـ سيلنثيو»[3] وهي قلب «كاراكاس» . أنا كنت واحداً من المائتي ألف شخص الذين استمعوا وهم واقفون على أرجلهم بدون نبس إلى ذلك الخطاب الطويل . بالنسبة لي كما بالنسبة لآخرين كثيرين كانت خطب (فيديل) وحياً وتنزيلاً . حين كنت أسمعه يتكلم أمام ذاك الحشد الغفير ، أدركت أن عهداً جديداً قد بدأ بالنسبة لأمريكا

(١) فيديل كاسترو : الزعيم الكوبي المعروف ، ولد عام ١٩٢٦ .

(٢) بيتانكورث : سياسي فينزويلي ، ولد عام ١٩٠٨ .

(٣) الـ سيلنثيو : معناها السكون .

اللاتينية . لقد أعجبت بجدة لغته . لقد اعتاد أحسن القادة النقابيين والسياسيين على هرس صيغ قد يكون محتواها ذا قيمة لكنها كلمات مستهلكة وهنة من كثرة التكرار . لقد كان (فيديل) يتجاهل مثل هذه الصيغ . لغته كانت طبيعية تعليمية ، كان يبدو وكأنه هو نفسه يتعلم فيما كان يتكلم ويعلم .

لم يكن الرئيس (بيتانكورث) يحاضر في الاحتفال ، كانت ترهبه فكرة أن يتواجه وشعب «كاراكاس» إذ لم يكن فيها شعيباً أبداً . كل مرة كان (فيديل كاسترو) يذكر فيها اسمه في خطابه كانت تسمع تواً تصفيرات واستنكارات التي كانت يدا (فيديل) تحاولان تهدئتها . أنا أظن أن ذاك اليوم قد وضع ختماً نهائياً لعداوة استفحلت شيئاً فشيئاً بين (بيتانكورث) والثوري الكوبي . لم يكن (فيديل) ماركسياً ولا شيوعياً في ذاك الوقت ، كلماته نفسها كانت تنأى كثيراً عن هذا الموقف السياسي . إن رأيي الشخصي هو أن ذاك الخطاب ، شخصية (فيديل) اللامعة والحماسة الجماهيرية التي كانت تنبعث ، الشغف الذي أبداه شعب «كاراكاس» حين كان ينصت إليه ، أحزنت كل هذه الأشياء قلب (بيتانكورث) وهو سياسي ذو أسلوب عتيق ، ذو بلاغة ، رجل محافل واجتماعات سرية . منذ ذلك الحين و(بيتانكورث) يمقت في حنق لا يرحم كل حكاية تجعله يشتمّ من قريب أو بعيد رائحة (فيديل كاسترو) أو الثورة الكوبية .

في اليوم التالي لذلك المهرجان السياسي ، حين كنت أنا في الريف أقوم بنزهة يوم الأحد ، وصلت إلينا بعض الدراجات النارية كانت تحضر لي دعوة إلى السفارة الكوبية . كانوا قد بحثوا عني طيلة النهار كله دون أن يعثروا عليّ وفي النهاية اكتشفوا موضعي . كان الاستقبال سيجري في مساء ذات اليوم نفسه . (ماتيلده) وأنا اتجهنا مباشرة إلى مقر السفارة . كان المدعوون جد كثيرين إلى درجة أنهم كانوا يتجاوزون سعة القاعات والحدائق ، في الخارج كان الشعب يتزاحم وكان صعباً جداً اجتياز الشوارع التي تؤدي إلى مقر السفارة .

تخطينا قاعات مزدحمة بالناس ، متراساً من أذرع تحمل كؤوس «كوكتيل» كانت ترتفع فتعبر . أخذنا شخص ما عبر دهاليز وسلالم إلى طابق آخر . في مكان مفاجئ كانت تنتظرنا (ثيليا Celia) صديقة (فيديل) وسكرتيرته وأقرب الناس إليه . (ماتيلده) بقيت معها ، أما أنا فقد أدخلوني إلى الغرفة المجاورة . وجدت نفسي في غرفة نوم إضافية كأنها غرفة نوم بستاني أو سائق . لم يكن ثمة غير سرير واحد يبدو

أن أحد الأشخاص كان نائماً عليه فنهض منه في استعجال تاركاً الشراشف في فوضى والمخدة[١] على الأرض. ثمة طاولة سرير صغيرة ولا شيء آخر. ظننت أنهم من هناك سيأخذوني إلى قويعة لائقة كي أقابل القائد. لكن هذا لم يكن هكذا إذ فتح على حين غرة وإذ (فيديل كاسترو) يملأ الفراغ بقامته.

كان أطول مني برأس. اتجه نحوي بخطى سريعة.

- مرحبا، (بابلو) - قال لي وغمرني بذراع شادّة ضاغطة.

لقد فاجأني صوته النحيل الرقيق، الطفولي تقريباً. كذلك شيء في منظره كان يتطابق مع لحن صوته. لم يكن (فيديل) يعطي الانطباع بأنه رجل كبير، بل طفل صغير كانت قد تطاولت فجأة ساقاه دون أن يفقد وجهه وجه فتى، ولحيته الضئيلة، ذقن مراهق.

ترك ذارعه عني في فظاظة وخشونة. ثم ظل كمن لذعته الكهرباء. دار نصف دورة واتجه عازماً حازماً نحو ركن في الغرفة. دون أن أنتبه أنا كان قد دخل في خفوت مصور صحفي، ومن هذا الركن أخذ يوجه آلته التصويرية نحونا. (فيديل) انقضّ عليه دفعة واحدة. رأيته وهو يمسك به من خناقه ويهزه فسقطت آلة التصوير على الأرض. اقتربت من (فيديل) وأخذته من ذراعه وقد فزعت حين رأيت المصور الضئيل يكافح بلا جدوى ويحاول أن يتملص منه ويتخلص. غير أن (فيديل) قذف به نحو الباب وأجبره على الاختفاء. من بعد التفت إليّ مبتسماً، التقط آلة التصوير من الأرض ورماها فوق السرير.

لم نتكلم عن الحادثة بل عن إمكانات إنشاء وكالة أنباء لأمريكا بأسرها. يظهر لي أنه من جراء تلك المحادثة الثنائية ولدت وكالة «الصحافة اللاتينية». من بعد كل واحد منا خرج من باب ليعود إلى الاستقبال.

بعد ساعة على ذلك، حين كنت أعود من السفارة في صحبة (ماتيلده) رجع إلى مخيلتي وجه ذاك الصحفي المروع والسرعة الغريزية لرئيس حرب العصابات الذي انتبه إلى وصول الدخيل الخفوت من وراء ظهرينا.

هذا كان أول لقاء لي مع (فيديل كاسترو). لماذا رفض بشكل قاطع تلك التصويرة؟ أكان رفضه يتضمن سراً سياسياً صغيراً؟ إلى الآن لم أستطع أن أتوصل

---

(١) المخدة: هكذا في الأصل Almohada، عن العربية.

إلى فهم ، لأي سبب كانت مقابلتنا يجب أن تتسم في جو ذي طابع سري جداً .

كان أول لقاء لي مع (تشي غيفارا) مختلفاً جداً . جرى اللقاء في «لا هافانا» . وصلت لأراه في الساعة الواحدة بعد منتصف الليل ، تقريباً ، وقد دعاني لزيارته في مكتبه بوزارة المالية أو الاقتصاد ، لا أذكر الآن على وجه الدقة . مع أنه كان قد حدد لي منتصف الليل ، أنا وصلت متأخراً . كنت أحضر اجتماعاً رسمياً وأجلسوني في المنصة فلم أستطع المغادرة .

كان «تشي» ينتعل جزمة ، ويرتدي زياً عسكرياً للميدان ويتمنطق بحزام فيه مسدسان . كان نمط لباسه هذا لا يتسق وجو المكتب المصرفي .

كان (تشي) أسمر ، متمهلاً في الكلام ، ذا نبرة أرجنتينية واضحة . كان رجلاً يصلح الحديث معه في تروٍّ ، بسهول «بامبا» Pampa بين «ماته»[1] و«ماته» . جمله كانت قصيرة موجزة تقضب في ابتسامة كما لو أنه يترك التعليق معلقاً في الهواء .

لقد لذ لي ما قاله لي عن كتابي «النشيد العام» . كان يعتاد قراءته ليلاً على رجاله المحاربين في «لا سييرا مايسترا» . الآن ، بعد أن مرت السنون ، أقشعرّ حين أفكر أن أشعاري رافقته كذلك في موته . عن طريق (ريجيس دوبري)[2] عرفت أنه في جبال «بوليفيا» احتفظ حتى آخر لحظة في زوادته بكتابين لا غير وهما : كتاب في علم الرياضيات وكتابي «النشيد العام» .

لقد قال لي (تشي) تلك الليلة شيئاً بلبلني كثيراً ولكنه من ناحية يفسر مصيره الذي آل إليه . كان نظره يشرد عني نحو النافذة المعتمة لذاك البناء المصرفي . كنا نتكلم عن احتمال غزو أمريكي شمالي لكوبا . أنا كنت قد شاهدت في شوارع «لا هافانا» أكياس رمل منتشرة في نقاط استراتيجية . هو قال لي بشكل مفاجيء :

- الحرب . . . الحرب نحن دوماً ضد الحرب ، أما وقد قمنا بها فنحن لا نستطيع الحياة بدون الحرب في كل لحظة نريد أن نعود إليها .

كان يفكر في صوت عال ويخاطبني . أنا استمعت إليه في ذهول صريح واضح . بالنسبة لي الحرب هي تهديد وليست بمصير .

---

(١) ماته : كنا قد أشرنا إلى أنه نوع من الشاي يشربه الأمريكيون اللاتينيون والمغتربون العرب العائدون إلى وطنهم العربي من أمريكا اللاتينة .

(٢) ريجيس دو بريه : هو الصحفي الفرنسي الذي رافق (تشي غيفارا) في «بوليفيا» ثم سجن هناك .

ودّعته وما عدت فرأيته من بعد قط . من بعد جرت معركته التي خاضها في الغابة البوليفية وانتهت بموته المأساوي . لكنني ما زلت أرى في (تشي غيفارا) ذاك الرجل المتأمل المفكر الذي خصص دوماً في معاركه البطولية ، إزاء الأسلحة ، مكاناً للشعر .

إن كلمة «أمل» تعجب كثيراً أمريكا اللاتينية . يطيب لي أن تسمى قارتنا «قارة الأمل» . لو أن المرشحين للنيابة ، لعضوية مجالس الشيوخ ، للرئاسة ، يسمون أنفسهم «مرشحي الأمل» .

في الواقع إن هذا الأمل هو شيء هكذا مثل الفردوس الموعود ، وعد بالدفع ، أداؤه يتأجل دوماً . يؤجل إلى المرحلة التشريعية القادمة ، إلى السنة القادمة أو القرن القادم .

حين نشبت الثورة الكوبية حدثت لملايين الأمريكيين الجنوبيين يقظة فجائية . ما كانوا أول الأمر يصدقون ما كانوا يسمعون . لم يكن هذا مكتوباً في أسفار قارة قد عاشت وهي تفكر بيأس في الأمل .

وإذ ، على حين غرة ، (فيديل كاسترو) وهو كوبي لم يكن أحد قبل يعرفه ، يمسك بالأمل من شعره أو من قدميه ولا يسمح له أن يفلت من بين يديه بل يجلسه في مائدة أو دارة شعوب أمريكا .

منذ ذلك الحين إلى الآن تقدمنا كثيراً في طريق الأمل هذا الذي غدا واقعاً حياً . لكننا نحيا والروح في خيط[١] . بلد مجاور ، جسد قدير وجد إمبريالي ، يريد سحق كوبا مع الأمل ومع كل شيء . تقرأ جماهير أمريكا الصحف كل يوم ، تنصت إلى الإذاعات كل ليلة ، تتنفس هذه الجماهير الصعداء . كوبا توجد ، يوماً آخر ، سنة أخرى ، نصف عقد آخر[٢] . لم يقطع رأس أملنا ، لن يقطع .

رسالة الكوبيين:

منذ زمن والكتاب البيروبيون ، الذين لي بينهم أصدقاء كثر أعتمد عليهم دوماً ،

---

(١) الروح في خيط : تعبير إسباني بمعنى الجزع والهلع .

(٢) في الأصل كلمة واحدة وهي lustro تعني مدة خمس سنين ، نقترح أن تترجم إلى العربية بكلمة خاموس .

كانوا يضغطون كي يمنحني بلدهم وساماً رسمياً . أعترف أن الأوسمة بدت لي دائماً إلى حد ما مضحكة . إن الأوسمة القليلة التي أملكها هي أوسمة علقت على صدري بدون أية محبة ، على مهام أديتها ، بسبب أعمال قنصلية قمت بها أي بسبب لياقة أو عادة مألوفة . مررت ذات يوم بـ«ليما» فأصر (ثيرو إليغريا)[1] الروائي الكبير صاحب رواية «الكلاب الجياع» الذي كان إذّاك رئيس الكتاب البيرويين ، على أن يمنحني بلده وساماً آنذاك . كانت قصيدتي «مرتفعات «ماكتشو بيكتشو» قد صارت جزءاً من الحياة البيروية ، ربما أني استطعت أن أعبر في أبياتها عن بعض المشاعر التي كانت ترقد نائمة مثل حجارة لبناء عظيم . أضف إلى هذا أن الرئيس البيروي لذات الوقت وهو المهندس المعماري (بيلاونده)[2] كان صديقي وقارئي . مع أن الثورة التي طردته من بلده في ما بعد ، وهبت البيرو حكومة ، بشكل غير متوقع منفتحة في طرق التاريخ الجديدة ، فإني ما زلت أعتقد أن المهندس المعماري (بيلاونده) كان رجلاً ذا عفة نفس ليس تمحى ، انهمك في أعمال باطلة نوعاً ما قادت في النهاية به إلى أن يصبح معزولاً عن الواقع الرهيب ، وأن يغدو مفصولاً عن شعبه الذي كان هو يحبه بشكل عميق .

قبلت أن أمنح وساماً ، هذه المرة ليس بسبب خدماتي القنصلية بل بسبب قصيدة واحدة من قصائدي . بالإضافة إلى هذا وليس هو بالأمر الأقل شأناً ، كانت لما تزل بين شعب «تشيلي» وشعب «بيرو» جراح لم ترقأ . ليس الرياضيون والديبلوماسيون والسياسيون هم وحدهم من يجب عليهم أن يعملوا على إيقاف نزيف دماء الماضي بل كذلك ، وفي حق أكثر ، الشعراء الذين حدود أرواحهم أقل من حدود أرواح الآخرين .

في تلك الفترة نفسها قمت بسفر إلى الولايات المتحدة . كان الأمر يتعلق بمؤتمر عالمي «نادي القلم»[3] . من بين المدعوين إليه كان أصدقائي : (آرثر ميلر)[4] الأرجنتينيان (ايرنستو ساباتو) و(فيكتوريا أوكامبو) ، الناقد الأورغوايي (أمير

---

(١) ثيرو اليغريا : روائي وشاعر من البيرو (١٩٠٩-١٩٦٧) .

(٢) بيلاونده : سياسي من البيرو . كان رئيساً للأمم المتحدة ، الجمعية العامة (١٨٨٣-١٩٦٦) .

(٣) نادي القلم : كنا قد أشرنا إلى أنه ناد يجمع الأدباء الامبرياليين والصهيونيين .

(٤) آرثر ميلر : كاتب مسرحي أمريكي شمالي ، ولد عام ١٩١٥ .

رودريغيث مونيغال) ، الروائي المكسيكي (كارلوس فوينتيس) . كذلك شارك كتاب من بلدان أوروبا الاشتراكية كلها تقريباً .

بلغت كذلك حين وصولي أن الكتاب الكوبيين كانوا مدعوين أيضاً . كان أعضاء «نادي القلم» مندهشين لأن (كاربينتيير)[١] لم يكن قد وصل ، فطلبوا مني أن أستعلم عن الأمر ، فتوجهت إلى ممثل وكالة «الصحافة اللاتينية» في نيويورك الذي تفضل فسمح لي أن أرسل برقية من وكالته إلى (كاربينتيير) .

كان الجواب الذي جاء عن طريق وكالة «الصحافة اللاتينية» هو أن (كاربينتيير) لم يستطع المجيء لأن الدعوة وصلته متأخرة جداً ، وأن تأشيرة الدخول الأمريكية لم تكن جاهزة . أحد ما كان يكذب في هذه المناسبة : كانت التأشيرات قد منحت منذ ثلاثة أشهر ، ومنذ ثلاثة أشهر كذلك كانوا يعرفون بالدعوة وقد قبلوها . يفهم من هذا أن أمراً بالتغيب صدر من جهة عليا في آخر ساعة .

أنا أديت أشغالي الدائمة . ألقيت قراءتي الشعرية الأولى في نيويورك بمكان فسيح جداً امتلأ إلى درجة أنهم اضطروا إلى وضع شاشات تلفزة خارج المسرح كي يرى ويسمع آلاف الناس الذين ما استطاعوا الدخول . لقد أثّر بي الوقع الذي أحدثته قصائدي المعادية للامبريالية في عنف ، في هذا الحشد من الأمريكيين الشماليين . لقد أدركت أشياء كثيرة هناك في «واشنطون» وفي «كاليفورنيا» حين أخذ الطلبة والعوام يعبرون عن استحسانهم لكلماتي التي تدين الإمبريالية . تأكدت عن كثب أن الأعداء الأمريكيين الشماليين لشعوبنا هم كذلك على حد سواء أعداء الشعب الأمريكي الشمالي .

أجروا معي بعض المقابلات الصحفية . إن مجلة Life التي تصدر بالقشتالية[٢] والتي يشرف عليها أمريكيون لاتينيون ودخلاء قد تعسفت في آرائي وبترتها . لم يستدركوا حين طلبت منهم ذلك . لكن الأمر لم يكن شيئاً خطيراً . إن ما حذفوه كان فقرة أدين بها الحرب في الفيتنام وفقرة أخرى حول زعيم أسود اغتيل في تلك الأيام .

---

(١) كاربينتيير : روائي كوبي ، ولد عام ١٩٠٤ .

(٢) القشتالية : تسمى اللغة الإسبانية كذلك القشتالية Castellano ، وهي تسمية أكثر دقة نظراً لوجود عدة لغات أخرى في إسبانيا .

فقط بعد سنوات شهدت الصحيفة التي أجرت المقابلة أن المقابلة قد خضعت للمراقبة .

عرفت خلال زيارتي -وهذا يشرف زملائي الكتاب الأمريكيين الشماليين- أنهم مارسوا ضغطاً قوياً كي أمنح تأشيرة دخول إلى الولايات المتحدة . يبدو لي أنهم وصلوا إلى حد أنهم هددوا «مكتب الدولة» بإصدار استنكار علني يتخذه أعضاء «نادي القلم» إن استمروا على رفضهم بإعطائي تأشيرة الدخول . في اجتماع عام كانت فيه تستلم وسام الشخصية الأكثر احتراماً واعتباراً في الشعر الأمريكي الشمالي ألا وهي الشاعرة العجوز (ماريانه مور) التي ماتت بعد شهور من ذلك التاريخ ، تناولت هي الكلمة لتعلن عن بهجتها بأن دخولي الشرعي إلى البلد قد تحقق بفضل وحدة الشعراء . لقد حكوا لي بأن كلماتها المرتجة المؤثرة قد قوبلت بتصفيق حاد وهتاف عال .

وما هو أكيد وما لم يسبق إليه هو أني ، بعد هذه الجولة المتميزة بفعاليتي السياسية ونشاطي الشعري المكافح ، وبعد أن قمت في الدفاع عن الثورة الكوبية ودعمها أثناء القسم الأكبر من جولتي هذه ومن نشاطي هذا ، تلقيت ما إن عدت إلى تشيلي رسالة الكتاب الكوبيين الشهيرة الوبيلة ، التي تهدف إلى اتهامي بالانصياع بله بالخيانة . لم أعد أذكر العبارات التي استعملها المدّعون العامون في شأني . لكنني أستطيع القول بأنهم كانوا ينصبون أنفسهم معلمين للثورات ، مؤدبين في السنن التي يجب أن تطبق على كتّاب اليسار . بغطرسة وبسلاطة لسان وبمداهنة كانوا يحاولون أن يقوِّموا من فعالياتي الشعرية والاجتماعية والثورية . إن منحي الوسام على قصيدة «ماكتشو بيكتشو» وحضوري مؤتمر «نادي القلم» وتصريحاتي وقراءاتي الشعرية ، كلماتي وأعمالي المعادية للنظام الأمريكي الشمالي التي عبرت عنها في الذئب[1] ، كل هذا كان يوضع موضع الشك ، مزيفاً أو مفترى من لدن الكتّاب السابق ذكرهم ، إن كثيراً منهم حديثو الوصول إلى الميدان الثوري ، وكثيراً منهم يتقاضون مكافآت عن حق واستحقاق أو عن ظلم وإجحاف من الدولة الكوبية الجديدة .

إن هذا العدل من الشتائم قد تضخم بتواقيع أكثر فأكثر طولب بها في عفوية

---

(١) في فم الذئب : تعبير إسباني يشبه التعبير العربي بين شدقي الأسد أو في عرينه أو في جفن الردى .

مشكوك بها من منابر جمعيات كتاب وفنانين . وكلاء مفوضون كانوا يتراكضون من هنا إلى هناك في «لا هافانا» بحثاً عن تواقيع نقابات مهنية بكامل أعضائها ، لموسيقيين وراقصين وفنانين تشكيليين . كان ينادى للتوقيع على الفنانين والكتاب العديدين العابرين الذين دَعوا إلى كوبا في سخاء عظيم فلبوا الدعوة وامتلأت بهم الفنادق الفخمة ذات الفخفخة والأبهة . بعض الكتاب الذي ظهرت أسماؤهم مختومة[1] على هامش الوثيقة المجحفة أوصل إليّ أخباراً ملفقة : «لم أوقع تلك الرسالة قط ، علمت بمضمونها بعد أن رأيت عليها توقيعي الذي أبداً ما وضعته» . صديق لـ(خوان مارينيو) قد زعم بأن هذا هو ما جرى له كذلك ، مع أني لم أستطع التأكد من ذلك كله . لكني تأكدت من ذلك بالنسبة لآخرين .

لقد كان الموضوع كبة خيوط ، خذروف ثلج أو تلفيقات عقائدية كان من الضروري جعل الآخرين يعتقدون بها مهما كلف الأمر . تمركزت وكالات مختصة في مدريد وباريس وعواصم أخرى ، عكفت على إرسال أعداد من الرسالة الكذوب أو طبعها من جديد فخرجت الآلاف من هذه الرسالة ، وبخاصة في مدريد ، في إرساليات بعشرين أو ثلاثين نسخة إلى كل عنوان وكل شخص . لقد كان مسلياً بشكل نحس[2] استلام هذه الظروف المزخرفة بصور (فرانكو) على الطوابع البريدية وفي ضمنها كان يتهم (بابلو نيرودا) بأنه ضد - ثوري .

لا يخصني التحري عن أسباب تلك النوبة[3] : الزيف السياسي ، الخور العقائدي ، الأحقاد والأحساد الأدبية ، ماذا أدري أنا كم من أشياء دفعت بهؤلاء الكثر لشن معركة ضد رجل واحد . لقد رووا لي من بعد أن المحررين المتحمسين ، المحرضين والمتصيدين لتواقيع تلك الرسالة الشهيرة ، كانوا هم الكتّاب (روبيرتو

---

(١) نحب أن نلفت أنظار القارئ العربي إلى أن (نيرودا) يستعمل هنا كلمات لها معان كثيرة بعضها لطيف والآخر عنيف ، فهنا كلمة مختومة قد تعني كذلك مداسة ، أو مركولة .

(٢) بشكل نحس : هذه الكلمة بالنص الإسباني قد تعني كذلك : يساوي ، كما في العربية ، أيسر = أعسر .

(٣) النوبة : هي في الأصل Arrebato ، وهي الكلمة العربية الرباط ، ومن معانيها بالأندلس العربية ، الهجوم المفاجئ ، ومن معانيها بالإسبانية اليوم ، ما قيدناه .

فيرنانديث ريتامار) و(أدموند ديسنويس) و(ليساندرو أوتيرو) . بالنسبة لـ(ديسنويس) ولـ(أوتيروه) لا أذكر أني قد قرأت لهما شيئاً أبداً ولا عرفتهما شخصياً . أما بالنسبة لـ(ريتامار) فبلى . في «لاهافانا» وفي «باريس» كان يلاحقني بإطرائه وتملقه بشكل مثابر مواظب . كان يقول لي بأنه كان قد نشر مقدمات متوالية ومقالات تقريظية حول مؤلفاتي . الحقيقة هي أنني ما اعتبرته أبداً بذي قيمة بل اعتبرته واحداً من هؤلاء الذين يطفون فجأة من السياسيين والأدباء في عصرنا .

ربما أنهم تصوروا أنهم بهذا يستطيعون أن يؤذوني أو يدمروني كحزبي ثوري . لكن حين وصلت إلى شارع تياتينوس في «سنتياغو» بتشيلي لمعالجة الموضوع لأول مرة مع اللجنة المركزية للحزب ، وجدت أن لهم رأيهم ، على الأقل من الناحية السياسية .

يتعلق الأمر بأول هجوم ضد حزبنا التشيلي ، قالوا لي .

كانت تعاش في تلك الأوقات نزعات جدية . كان الشيوعيون الفنزويليون والمكسيكيون يتنازعون عقائدياً مع الكوبيين . من بعد ، في ظروف مأساوية لكن بشكل ساكن اختلف كذلك البوليفيون .

الحزب الشيوعي التشيلي قرر منحي في احتفال عام مدالية (ريكابرّين) التي أحدثت حينذاك وخصصت لتمنح إلى أحسن أعضائه . لقد كان ذلك جواباً مقنعاً . لقد تحمل الحزب الشيوعي التشيلي في ذكاء تلك الفترة من الاختلافات وأصر على عزمه بتحليل اختلافاتنا داخلياً . مع الزمن امحى كل ظل لهذا النزاع ويوجد الآن بين الحزبين الشيوعيين ، وهما أكثر الأحزاب الشيوعية أهمية في أمريكا اللاتينية ، تفاهم واضح وعلاقة أخوية .

أما بالنسبة لي فما زلت أنا من كتب كتاب «أغنية مفخرة» . إنه لكتاب ما يزال يعجبني . ولا أستطيع أن أنسى أني كنت أول شاعر خصص كتاباً بكامله لتمجيد الكوبية .

إني لأدرك ، طبعاً ، أن الثورات وبخاصة رجالها ، تقع من حين إلى حين في الخطأ وفي الظلم . إن القوانين التي ما كتبت أبداً في الإنسانية تلفّ على حد سواء الثوريين وغير الثوريين . لا أحد يستطيع أن ينجو من الأخطاء ، نقطة صغيرة عمياء داخل مسيرة كبرى ليس لها من أهمية في سياق قضية كبيرة . لقد ظللت أغني ، أحب ، أحترم الثورة الكوبية ، شعبها ، أبطالها النبلاء .

لكن كل واحد وله نقطة ضعفه . أنا لديَّ نقاط ضعف كثيرة . مثلاً ، لا يعجبني

أن أتخلى عن الافتخار الذي أشعر به بسبب سلوكي الصلب ، سلوك مناضل ثوري .
ربما أنه لهذا أو لثلمة أخرى في ترهاتي رفضت حتى الآن وسأظل أرفض أن أصافح أي واحد من الذين وقّعوا بوعي أو بغير وعي تلك الرسالة التي ستظل تبدو لي وصمة عار .

الفصل الثاني عشر
وطن عذب وقاس

تطرف وجواسيس:

إن الفوضويين القدماء -والشيء نفسه ينطبق على فوضوي اليوم هذا- يميلون إلى موقف مريح جداً ، بشكل أليف جداً ، وهو موقف الفوضرأسمالية[1] ، وهو وكر ينحشر فيه كذلك السياسيون الهدافون[2] ومدّعو اليسارية والمستقلون المزيفون . إن العدو الرئيسي للرأسمالية القامعة ، هم الشيوعيون ، وهي لا تخطئ في تصويب سلاحها نحوهم . إن هؤلاء الفرديين المتمردين جميعهم يمكن تطويعهم بشكل أو بآخر بواسطة الحكمة أو الدهاء الرجعي الذي يعتبرهم مدافعين بطوليين عن مبادئ مقدسة . إن الرجعيين يعرفون أن خطر التغييرات في مجتمع ما لا يكمن في التمردات الفردية بل في تنظيم الجماهير وفي وعي طبقي شامل .

لقد شاهدت هذا كله بوضوح في إسبانيا خلال الحرب . كانت بعض المجموعات المعادية للفاشية تلهو في عيد المرافع تجاه قوات (هتلر) و(فرانكو) الزاحفة نحو مدريد . أستثني منهم طبعاً أولئك الفوضويين الأشاوس الذين لا يُقهرون ولا يستسلمون من أمثال (دوربوتي Durputi) ورفاقه الكتلان[3] الذين قاتلوا في «برشلونة» قتال الأسود .

إن الجواسيس لهم أسوأ من المتطرفين بألف مرة . يتسلل إلى صفوف مناضلي الأحزاب الثورية من حين لآخر العملاء المعادون ، المخبرون ، المندسون الذين يعملون لصالح الشرطة أو الأحزاب الرجعية أو الحكومات الأجنبية . يؤدي بعض منهم مهمات خاصة من تحريض وزج وتوريط ، وبعضهم الآخر يكتفي بمراقبة طويلة الأناة .

---

(١) الفوضرأسمالية : الفوضوية - الرأسمالية .

(٢) الهدافون : رجال المطاوعة ، وهم رجال من المقاومة غير منظمين ، يحسنون إصابة الهدف .

(٣) الكتلان : هم سكان المنطقة الشمالية الغربية من إسبانيا .

إنها لحكاية قديمة قصة (أزيف) . فلقد شارك قبل سقوط القيصرية الروسية بعدة عمليات إرهابية وسجن مرات عديدة . إن مذكرات مدير الأمن العام في العهد القيصري التي ظلت سرية إلى أن نشرت بعد الثورة تروي في تفصيل كيف أن (أزيف) كان في كل لحظة عميلاً لـ«أوتشرانا» . لقد اتسق في رأس هذه الشخصية الغريبة ، الإرهابي والمخبر معاً ، في إحدى العمليات التي قام بها قتل أحد «الدوقات» .

تجربة أخرى من هذه التجارب المدهشة وقعت في «لوس أنجليس» «سان فرانسيسكو» أو بمدينة أخرى من ولاية «كاليفورنيا» . خلال الفترة «المكارثية» الجنونية اعتقل أعضاء الحزب الشيوعي في تلك المحلة كلهم . كانوا خمسة وسبعين شخصاً ، معدودين ، محصيين ، مؤرخين حتى في أقل جزئيات حياتهم حسناً جداً ، تبين أن هؤلاء جميعاً بلا استثناء كانوا عملاء للشرطة . لقد سمحت لنفسها مؤسسة F.B.T[1] أن تنشىء حزبها الشيوعي الصغير الخاص بها من عناصر ما كان يعرف بعضهم بعضاً ، لكي تلاحقهم من بعد وتنسب لنفسها انتصارات عظيمة على أعداء غير موجودين . لقد توصلت هذه المؤسسة إلى اختلاق حوادث مضحكة مثل فصل رأس الكرنب ، حيث كان يحفظ فيه الأسرار الدولية المتفرقعة رجل يدعى (تشالميرس Chalmers) وهو شيوعي قديم باع نفسه مقابل دولارات إلى الشرطة . كذلك نسجت هذه المؤسسة حكايات فظيعة من بينها الحكاية التي نسبت إلى الزوجين (روسينبورغ Rosenberg)[2] اللذين أعدما فأثار هذا سخط الإنسانية .

لقد كان تسرب العملاء إلى صفوف الحزب الشيوعي التشيلي صعباً جداً دوماً ؛ لأن هذا الحزب هو منظمة ذات تاريخ طويل وذات أصل بروليتاري بشكل مغلق . إن نظريات حرب العصابات في أمريكا اللاتينية ، على العكس ، فتحت الأبواب لكل صنف من الوشاة والنافخين . إن العفوية والارتجالية و«الشيوعية» الحديثة العهد بالنضال في هذه المنظمات جعلت من الصعب فضح هؤلاء الجواسيس المندسين واعتقالهم . لهذا فإن الشكوك رافقت دوماً قادة رجال العصابات المقاتلة إذ كان عليهم أن يحتاطوا حتى من ظلهم . لقد غذى روح المغامرة بشكل ما الحماس الرومانطيكي

---

(١) F.B.T : هي مؤسسة الشرطة السرية في الولايات المتحدة الأمريكية .

(٢) روسينبيرغ Alfred : سياسي ألماني (١٨٩٣-١٩٤٦) .

والتنظير الخاص بحرب العصابات الجامحة التي غمرت أمريكا اللاتينية كلها . ربما أن هذا العهد قد انتهى باغتيال (أرنيستو غيفارا) وموته البطولي . لكن خلال زمن طويل أتخم داعمو هذا التكتيك النظريون القارة كلها بنظريات وفرضيات التي تعهد الحكومة الثورية الشعبية في المستقبل ، ضمنياً ، إلى المجموعات المسلحة في «الفلاّقة»[1] وليس إلى الطبقات التي تستغلها الرأسمالية . إن عيب هذا التعليل والتبرير يكمن في ضعفه السياسي . قد يحدث في بعض الظروف أن قائد حرب العصابات يكون مزوداً بعقلية سياسية قديرة كما في حالة (تشي غيفارا) ، لكن هذا قليل الحديث ويخضع للصدفة . إن من يبقى سالماً بعد انتصار حرب العصابات ليس في مكنته توجيه دولة بروليتارية لكونه فقط كان أكثر شجاعة من غيره ولكونه حظي بحظ أكبر تجاه الموت أو لأنه أحسن التصويب تجاه الأعداء أو أنه أقدر على إطلاق النار من غيره من الأحياء .

الآن سأروي تجربة شخصية . أنا كنت إذّاك في تشيلي حديث الوصول من المكسيك . في إحدى الاجتماعات السياسية التي كنت أنا أتردد عليها اقترب مني رجل ليحييني . كان سيداً ذا عمر متوسط ، مثالاً للنبيل العصري ، يرتدي هنداماً لائقاً جداً ويضع نظارة من هذه النظارات التي تمنح المرء وقاراً أمام أعين الناس وهي عبارة عن عدستين بلا أطر أو حامل ، من هذه التي تعلق فوق الأنف . وإذ به شخصية لطيفة مهذبة جداً .

يا سيد (بابلو) ، لم أتجرأ أبداً على الاقتراب من حضرتك مع أني أدين لك بحياتي . إني واحد من اللاجئين الذين أنقذتهم حضرتك من معسكرات الاعتقال ومن أفران الغاز ، حين شحنتنا في باخرة «وينيبينغ» باتجاه تشيلي . أنا كتلاني وماسوني . وضعي هنا جيد إذ إنني أعمل خبيراً في بيع الأدوات الصحية بشركة كذا وهي أحسن شركة في تشيلي الخ .

---

(١) الفلاّقة : كلمة كان يطلقها المستعمرون الفرنسيون على الثوار في المغرب العربي ، وجدناها صالحة لترجمة كلمة la mintonera أي مجموعة من الثوار يمتطون الخيل ويحاربون قوات الحكومة . وواضح اننا لا نتبنى مفهوم «الفلاقة» الذي يعني عند المستعمرين الفرنسيين ، قطاع الطرق بل مفهوم الأغنية الجزائرية : «قالوا . فلاقة ، يا فرنسا ، ما أحناش ، فلاقة ، لكن رفاقة ، خيوه (أخوة) في جيش التحرير ، الله ينصر» .

حكى لي أنه يسكن في شقة محترمة بمركز «سانتياغو» وأن جاره هو بطل في «التنس» مشهور يدعى (أغليسياس) كان زميلي في المدرسة . كانا يتكلمان عني دائماً وأخيراً ، قررا أن يدعواني لكي يكرماني . لهذا جاء ليراني ويبلغني الدعوة .

إن شقة هذا الكتلاني كانت تدل على الرفاهية التي كانت تتمتع بها بورجوازيتنا الصغيرة . أثاث كامل ، «بهية»[1] Paelal مذهبة ووافرة . كان (أيغليسياس) معنا خلال فترة الغداء كلها . كنا نضحك متذكرين المدرسة القديمة في «تيموكو» التي في سراديبها كانت أجنحة الخفافيش تلامس وجوهنا . في نهاية الغداء قال المضيف الكريم الكتلاني بضع كلمات قليلة وأهدى إلي تكريماً لي نسختين تصويريتين رائعتين : واحدة لـ(بودلير) والثانية لـ(ادغار بو Edgar Poe)[2] . وهما عبارة عن رأسي شاعرين رائعين ما زلت أحتفظ بهما في مكتبتي .

ذات يوم من الأيام سقط هذا الكتلاني صاحبنا صريع الشلل ، هامداً في سريره دون أن يستطيع التكلم أو الحراك أو التعبير بالإشارات والحركات . لا يتحرك فيه غير عينيه اللتين كانتا تريدان في ألم أن تبوحا بشيء إلى زوجته وهي إسبانية جمهورية ممتازة ذات تاريخ مجيد لا تشوبه شائبة أو إلى صديقه وجاره (ايغليسياس) بطل «التنس» صديق طفولتي . لكن الرجل مات بدون كلام أو حراك أو بوح .

حين امتلأت الدار بالدموع وبالأصدقاء وبالأكاليل تلقى الجار لاعب «التنس» مكالمة غريبة غامضة «نحن نعرف مدى الصداقة المتينة التي كانت بين حضرتك وبين المرحوم الكتلاني . هو لم يتعب من إطراء حضرتك والثناء على فضائلك ومزاياك . إن أردت حضرتك أن تقوم بمعروف كبير وخدمة جليلة لذكرى صديقك فافتح الصندوق الكبير واستخرج منه عليبة حديدية مستودعة هناك . سأعود للاتصال بحضرتك بعد ثلاثة أيام» .

لم تشأ الأرملة أن تسمع شيئاً من هذا القبيل لقد كان حزنها محتداً محتدماً فلم ترد أن تعرف شيئاً حول هذا الموضوع ، تركت الدار وانتقلت لتسكن في غرفة بـ«بنسيون» يقع في شارع «سانتو دومينغو» . صاحب «البنسيون» كان يوغوسلافياً من

---

(١) بهية : هي صنف من الطعام يصنع من الرز والخضروات واللحوم والأسماك تشتهر به مدينة «بلنسية» بإسبانيا .

(٢) ادغار بوAllan : كاتب من الولايات المتحدة الأمريكية (١٨٠٩-١٨٤٩) .

رجال المقاومة في يوغوسلافيا إبّان الاحتلال النازي ، رجلاً متمرساً في السياسة . عثر هذا اليوغوسلافي على العليبة الحديدية ففتحها في صعوبة ومشقة . اذّاك قفز أكثر الأرانب البرية مفاجأة[١] . كشفت الوثائق المحفوظة عن أن المرحوم كان دوماً عميلاً فاشياً . كانت نسخ رسائله تبين أسماء العشرات من المهاجرين الذين حين عادوا إلى إسبانيا بشكل سري وغير شرعي سجنوا أو أعدموا . ومن بين هذه الرسائل كان ثمة رسالة يشكره النازيون فيها على خدماته . توجيهات أخرى أرسلها الكتلاني هذا أفادت البحرية النازية لكي تغرق بواخر حمولة كانت تخرج من الساحل التشيلي محملة بأعتدة حربية . إحدى هذه الضحايا كانت بارجتنا الجميلة ، فخر البحرية التشيلية ، «لاوتارو» Lautaro المحنكة المجربة . فأغرقت خلال الحرب بحمولتها من ملح البارود حين خرجت من ميناءنا : ميناء «توكوبيا» . فقد الحياة في غرق هذه البارجة سبعة عشر تلميذاً من المدرسة البحرية العسكرية ماتوا جميعاً غرقى أو متفحمين .

هذه هي مآثر الكتلاني الإجرامية الذي ابتسم لي ذات يوم ودعاني إلى الغداء .

الشيوعيون

. . . لقد انقضت بضع سنين على انتسابي إلى الحزب . . . أنا راض . . . الشيوعيون يؤلفون أسرة طيبة . . . بشرتهم مدبوغة ولكن قلبهم مشدود الأوتار . . . من كل جهة يتلقون ضربات الهراوات . . . هراوات مقتصرة عليهم . . . فليحيي الروحانيون ، الملكيون ، الشاذون ، المجرمون على اختلاف أصنافهم . . . فتلعش الفلسفة ذات الدخان لكن بلا هياكل . . . فليحيَ الكلب الذي ينبح ويعض[٢] . . . فليعش المنجمون اللوطيون . . . فلتعش صور الدعارة . . . فليحي مذهب الاستهتار والخلاعة . . . فليحيَ القريدس . . . فليحي العالم كل العالم إلا الشيوعيين . . . فلتعش أحزمة العفة[٣] . . . فليحي المحافظون الذين لم يغسلوا أقدامهم العقائدية منذ خمسمائة سنة . . . فليحي القمل في الأحياء البائسة . . . فليعش الرمس الجماعي

---

(١) تضمين للمثل الإسباني : «من حيث لا يتوقع المرء ، يقفز الأرنب البري» .

(٢) تضمين للمثل الإسباني : «كلب ينبح لا يعض أبداً» ، وقد جعله هنا ، يعض .

(٣) أحزمة العفة : كانت الراهبات في العصور الوسطى يضعن أحزمة لا يخلعنها أبداً ، حول فروجهن . . . .

المجاني . . . فليحيَ الفوضرأسمالية . . . فليحي (ريلكه Rilke)[١] . . . فليحي (اندريه جيد)[٢] مع غلامه . . . فليعش التصوف والاتصالات الروحية على جميع أنواعها . . . فكل شيء جيد حسن . . . وكلهم أبطال . . . الصحف جميعها يجب أن تصدر . . . كلهم يستطيعون أن ينشروا ما شاؤوا ما عدا الشيوعيين . . . السياسيون جميعاً يجب أن يدخلوا في «سانتو دومينغو» بلا أصفاد . . . يجب عليهم جميعاً أن يحتفلوا بموت السفاح ، موت (الـ تروخيو) إلا الذين قاتلوه بصلابة أكثر . . . فليحي «الكرنفال»[٣] ، آخر أيام «الكرنفال» . . . ثمة أقنعة للجميع . . . أقنعة مسيحي مثالي ، أقنعة يساري متطرف ، أقنعة سيدات محسنات وفاضلات مشفقات . . . لكن ، حذار ، امنعوا الشيوعيين من الدخول . . . أوصدوا الباب جيداً . . . لا تخطئوا . . . فليس للشيوعيين الحق في شيء . . . فلنهتم بما هو ذاتي ، بماهية الإنسان ، بماهية الماهية . . . هكذا سنصبح جميعاً قانعين راضين . . .لدينا حرية . . . ما أعظم الحرية! . . . هم لا يحترمونها ، لا يعرفونها . . . الحرية للاهتمام بالماهية . . . بما هو جوهري في الماهية . . .

. . . هكذا انقضت السنوات الأخيرة . . . انقضى «الجاز» ، أتى «الـ سوول» el Soul ، غرقنا في بديهيات الرسم التجريدي ، زعزعتنا الحرب وقتلتنا . . . في هذا الجانب من العالم كل شيء ظل على حاله . . . أم لم يبق على حاله؟ . . . بعد عدة خطب عن الروح وبعد عدة عصي على الرأس ، شيء كان يسير على غير ما يرام . . . يسير سيئاً جداً . . . أخطأت التقديرات . . . فالشعوب تنظمت . . . أخذت تتوالى حروب العصابات والإضرابات . . . كوبا وتشيلي استقلتا . . . شرع رجال كثيرون ونساء كثيرات بترديد النشيد الأممي (الانترناشيونال) . . . يا للغرابة . . . يا للإحباط . . . ها هم يغنون هذا النشيد باللغة الصينية ، باللغة البلغارية ، باللغة الإسبانية في أمريكا . . . يجب اتخاذ إجراءات عاجلة . . . يجب منع هذا النشيد . . . يجب أن نزيد في الكلام عن الروح . . . يجب أن نزيد في إطراء العالم الحر . . . يجب أن نزيد في ضربات الهراوات . . . يجب أن نزيد في دفعات

---

(١) ريلكه (Rainer Maria) : شاعر ألماني مشهور (١٨٦٩-١٩٥١) .

(٢) أندريه جيد : كاتب فرنسي معروف (١٨٦٩-١٩٥١) .

(٣) الكرنفال : هو عيد المراقع .

الدولارات . . . هذا يجب ألا يستمر . . . بين حرية العصي والخوف من (خيرمان ارثينيغاس)[1] . . . والآن كوبا . . . في نصف كرتنا الخاصة بنا ، في منتصف تفاحتنا ، هؤلاء الملتحون يغنون النشيد نفسه . . . فبماذا ينفعنا المسيح؟ . . . وبأي شكل قد خدمنا القساوسة؟ . . . لم نعد نثق بأحد . . . ولا حتى بالقساوسة أنفسهم . . . فهم لا يرون وجهات نظرنا . . . لا يرون كيف هبطت أسهمنا في السوق المالية (البورصة) . . .

. . . أثناء ذلك يتسلق البشر عبر النظام الشمسي . . . تبقى آثار أحذية في القمر . . . كل شيء يصارع من أجل التغيير ، إلا الأنظمة القديمة . . . إن حياة الأنظمة العتيقة ولدت من أنسجة العناكب في العصر الوسيط . . . أنسجة أكثر قساوة من حدائد المعدات الآلية . . . بيد أنه ، ثمة أناس يؤمنون بالتغيير وقد مارسوا التغيير ، وقد جعلوا التغيير ينتصر وجعلوه يزدهر . . . عجباً . . . إن الربيع حتمي . . .

شاعرية وسياسية Poe'tica Politica[2]:

لقد قضيت عام ١٩٦٩ كله تقريباً في «إيسلا نيغرا» . يقتني البحر في الصباغ شكلاً خيالياً من النمو يبدو وأنه يعجن رغيف خبز هائلاً . إنه لأبيض مثل الطحين الزبد المسفوح الذي تدفعه خميرة العمل الباردة .

إن فصل الشتاء لساكن وذو ضباب . نضيف كل يوم على روعته الأرضية حطب الدفء في المدفأة . يهبنا بياض الرمال في الشاطئ عالماً خالياً وحيداً كما كان قبل أن يوجد السكان أو المصطافون على سطح هذه الأرض . لكن أرجو ألا يظن أني أمقت الحشود الصيفية من الناس . ما إن يقترب الصيف حتى تقترب الصبايا من البحر . رجال ونساء يلجون في الأمواج على حذر ثم يخرجون قافزين من خطر . هكذا يؤدون رقصة الإنسان الألفية تجاه البحر ، ولربما أن هذه الرقصة هي أول رقصات البشر .

في فصل الشتاء تحيا منازل «إيسلا نيغرا» ملتحفة ظلام الليل . ما من دار تشتعل غير داري . أحياناً أظن أن ثمة أحداً في الدار المواجهة . أرى نافذة مضاءة . وما هو إلا سراب . ما من أحد في دار القبطان . إنه نور داري ينكس على نافذته .

---

(١) خيرمان ارثينييغاس : مؤرخ وعالم اجتماعي معاصر ، من كولومبيا .

(٢) لاحظ التشابه الصوتي بين الكلمتين .

خلال أيام هذه السنة كلها كنت أمضي لأكتب في ركن مكتبي . ليس الوصول إليه بالأمر السهل ولا المكوث فيه . ثمة شيء يجذب كلبيّ (باندا Panda) و(تشو تو Chou tu) وهو جلد نمر من «بنغالا» Bengala فرشناه في الحجرة الصغيرة ، كنت قد أحضرته معي من الصين منذ سنوات كثيرة ، فتساقطت منه مع مضي السنين مخالب وشعر بالإضافة إلى العثّ الذي انتشر فيه وكنا أنا و(ماتيلده) نحذر منه .

كان يروق لكلبيّ التمدد فوق جلد عدوّهما القديم . كما لو كانا قد خرجا منتصرين من عراك معه ، كانا يرقدان وتأخذهما سنة النوم سريعاً وقد أنهكهما العراك معه . كانا يتمددان متصالبين عند باب الحجرة كأنهما يريدان إجباري على عدم الخروج ، على البقاء لأواصل عملي .

في كل لحظة كان يقع شيء في البيت . كان يرن جرس الهاتف البعيد عني فماذا يقولون للهاتف الداعي؟ لست هنا . ثم يعود فيرن مرة أخرى ، فبماذا يجيبون؟ أنا هنا .

لست هنا . أنا هنا . أنا هنا . لست هنا . هذه هي حياة شاعر لم يعد ركنه النائي في «إيسلا نيغرا» بناء .

دوماً يسألونني وبخاصة ، يسألني الصحفيون . في أي كتاب أشتغل ، ما هو الشيء الذي أكتبه . دائماً أندهش من مثل هذا السؤال بسبب سطحيته . لأن الحقيقة هي أنني دائماً أشتغل بالشيء نفسه . أبداً لم أدع أن أعمل الشيء ذاته . أهو شعر؟

لقد علمت بعد مدة طويلة بأن ما كنت أفعله وأكتبه يسمى شعراً . ما اهتممت قط بالتحديدات والعناوين . تبعث في نفسي السأم حتى درجة الموت النقاشات الأدبية الجمالية . لا أستصغر من يجرون هذه المناقشات بل إني بقدر ما أشعر أني لا أمت بصلة إلى شهادة الميلاد أشعر كذلك أني غريبel Post Mortem في الخلق الأدبي . «أن لا يتوصل أي شيء خارجي إلى أن يسيطر عليّ» قال (والت وايتمان) . ويجب ألا تحل الزينة مهما كانت قيمتها محل الخلق العاري .

لقد بدلت الكثير من الدفاتر خلال السنة كلها . ها هي هناك هذه الدفاتر المربوطة بخيط خطي الأخضر . لقد حبرت الكثير من هذه الدفاتر التي راحت تصير كتباً كما لو أنها كانت تمر من حالة تحوّل إلى أخرى ، من الجمود إلى الحركة ، من اليرقانات إلى الحباحب .

لقد أتت الحياة اسياسية كما يجيء الرعد لتخرجني من أعمالي فعدت مرة أخرى إلى جمهرة الناس .

إن الجمهرة الإنسانية كانت بالنسبة إليّ درس حياتي . أستطيع أن أصل إلى هذه الجمهرة بخجل الشاعر المتأصل فيه ، بفزع الخائف ، لكن ، ما إن أصبح في حضن هذه الجمهرة ، حتى أحس بالتقمص وإذ بي جزء من الأغلبية الجوهرية وإذ بي ورقة من أوراق شجرة الإنسانية الكبيرة العظيمة .

وحدة وجمهرة ستظلان واجبات الشاعر الأساسية في زمننا هذا . لقد اغتنت حياتي بمعركة تلاطم الأمواج في الساحل التشيلي . غمرتني واستهوتني المياه المقاتلة والصخور المقاتلة والتكاثر في الحياة المحيطية ، والتشكيلة المتقنة من «العصافير التائهة» وورنق الزبد البحري .

لكنني تعلمت أكثر من تموج الحيوات العظيم ، من نظرة الحنان في آلاف العيون التي نظرت إليّ معاً . قد لا يلتقط الشعراء جميعهم رسالة العيون هذه ، لكن من أحس بها مرة سيحفظها في قلبه ، سيجريها في أعماله الأدبية .

إنه لجدير بالذكرى وممزق للقلب بالنسبة للشاعر أن يجسد لأناس كثيرين ، خلال دقيقة ، الأمل .

مرشح لرئاسة الجمهورية:

صباح ذات يوم من عام ١٩٧٠ وصل إلى مخبأي البحري ، إلى داري في «ايسلا نيغرا» الأمين العام لحزبي ورفاق آخرون . جاؤوا ليعرضوا عليّ الترشيح المبدئي لرئاسة الجمهورية وهو ترشيح سيقترحونه في ما بعد على ستة أو سبعة أحزاب في الوحدة الشعبية la unidad Popular كانوا قد هيأوا كل شيء : برنامج ، طبيعة الحكومة ، إجراءات عاجلة في المستقبل القريب الخ . حتى تلك اللحظة كانت تلك الأحزاب قد تقدمت بمرشحيها وكل حزب كان يريد إبقاء مرشحه باستثناء الشيوعيين فلم نكن قد تقدمنا بمرشحنا بعد . كان موقفنا هو دعم المرشح الوحيد الذي تختاره أحزاب اليسار وسيكون هو مرشح الوحدة الشعبية . لكن لم يكن هناك حينذاك إجماع وقرار حاسم ؛ وما كان من الممكن أن نترك الأمور تستمر على هذا النحو . كان مرشحو اليمين قد انطلقوا وبدأوا بحملات الدعاية . إن لم نتحد في مرشح عام واحد بهذه الانتخابات فإننا سنصاب بهزيمة نكراء .

كانت الطريقة الوحيدة لاستعجال تحقيق هذه الوحدة هي أننا نحن الشيوعيين نعين مرشحنا الخاص . حين قبلت بالترشيح بناء على رغبة حزبي أصبح الموقف الشيوعي واضحاً جلياً . سندعم المرشح الذي يضمن موافقة الآخرين على ترشيحه ممثلاً وحيداً للوحدة الشعبية . إن لم يتوصل إلى هذا الإجماع فإن ترشيحي سيحافظ عليه حتى النهاية .

كانت وسيلة مشرفة لإجبار الآخرين على الاتفاق . عندما قلت للرفيق (كورفالان) بأني موافق على الترشيح كنت أدرك أنهم سيوافقون من بعد على انسحابي في المستقبل لاعتقادي أن تنازلي في ما بعد هو أمر لا مناص منه . فلم يكن ثمة احتمال قوي بأن يتفقوا على ترشيح مرشح شيوعي يلتفون حوله . بتعبير أفضل كانوا جميعاً يحتاجون إلينا كي ندعمهم (بمن فيهم بعض مرشحي الديموقراطية المسيحية) ولكن ولا واحد منهم كان يحتاجنا كي يدعمنا .

لكن ترشيحي الذي خرج في ذاك الصباح البحري «ايسلا نيغرا» قبض على النار . لم يبق مكان في تشيلي إلا وطلب حضوري إليه . لقد تأثرت جداً أمام المئات بل الآلاف من الرجال والنساء الذين كانوا يعصرونني ، يقبلونني ويبكون . سكان ضواحي «سانتياغو» ، عمال المناجم في «كوكيمبو» ، رجال النحاس والصحراء ، فلاحون ينتظرونني خلال ساعات وساعات وصغارهم على أكتافهم أو بأذرعهم ، أناس تعيش الإهمال وعدم الاعتناء من نهر «بيو بيو» Bio Bio إلى أبعد من مضيق «ماغايانيس» ، كنت أحدثهم جميعهم أو أقرأ لهم قصائدي في عز المطر ، في وحل الشوارع والطرقات ، تحت الريح الجنوبية التي تجعل الناس يرتعدون برداً .

كنت أتحمس ، ففي كل مرة كان يأتي إلى مهرجاني أناس أكثر ، كل مرة يجيء نساء أكثر . في افتنان وفزع بدأت أفكر في ما عليّ عمله إن فزت برئاسة جمهورية بلد من أكثر البلدان شراسة بشكل مأساوي تعنتاً وأكثرها استدانة وقد يكون أكثرها نكراناً للجميل . كان يهتف للرؤساء خلال الشهر الأول فقط ومن بعد خلال الخمس سنوات والأحد عشر شهراً المتبقية كانوا يعذبون بعدل أو بدون عدل .

حملة ايينده (Allende):

في لحظة مناسبة وصلت البشرى : ظهر (اليندي) على أنه المرشح المحتمل للوحدة الشعبية بأسرها . بعد موافقة حزبي قدمت على جناح السرعة انسحابي من

الترشيح . أمام حشد هائل جذل فرح تكلمت أنا لأعلن انسحابي وتكلم (الِيندي) ليعلن ترشيحه ويطلب المبايعة له . لقد عقد هذا المهرجان السياسي في حديقة عامة فكان الجمهور المكتظ يملأ المدى كله وكذلك الأشجار . من غصون الأشجار كانت تبرز سيقان ورؤوس . ليس من شيء مثل هؤلاء التشيليين المدربين على التسلق .

أنا كنت أعرف المرشح . كنت قد رافقته ثلاث مرات سابقة ، وأنا أقذف الأشعار والخطب عبر أراضي تشيلي الوعرة اللامتناهية كلها . ثلاث مرات متعاقبة ، كل ست سنوات ، كان صاحبي الملحاح جداً يرشح نفسه لرئاسة الجمهورية . هذه ستكون الرابعة والرابحة[1] .

يروي (أرنولد بينيت)[2] أو (سومرست ماوغهام)[3] (لا أذكر جيداً أي الاثنين) إنه ذات مرة كان عليه أن ينام (من يروي هذه القصة) في غرفة (ونستون تشرشل)[4] نفسها . أول شيء عمله ذاك السياسي المهيب حين فتح عينيه هو أنه مد يده وتناول سيجاراً كوبياً كبيراً من على الطاولة الصغيرة التي كانت قرب السرير وبدأ بتدخين هذا السيجار . هذا لا يستطيع عمله إلا رجل المغاوير القوي الصحيح ذو الصحة المعدنية في العصر الحجري .

إن صمود (ايينده) واحتماله وجلده كانت تدع مرافقيه جميعاً وراءه . كان له فن جدير (تشرشل) بأم عينه . كان ينام حين يعنّ له النوم . أحياناً كنا نمضي عبر الأراضي القاحلة اللامنتهية في شمال تشيلي . (إليندي) كان ينام نوماً عميقاً في ركن من أركان السيارة . على حين غرة تبدو نقطة حمراء صغيرة في الطريق : حين نقترب تستحيل هذه النقطة إلى مجموعة مؤلفة من خمسة عشر رجلاً أو عشرين مع نسائهم وأطفالهم وراياتهم . تتوقف السيارة ، (ايينده) يفرك جفنيه كي يواجه الشمس الشاقولية والمجموعة الصغيرة التي كانت تنشد ، يتحد معهم ينشدون معاً النشيد الوطني ، ثم يحدثهم حديث النشيط السريع الفصيح البليغ ثم يعود إلى السيارة فنتابع

---

(١) الرابعة الرابحة : التعبير الإسباني المعروف هو مثل التعبير العربي : الثالثة الغالبة .

(٢) أرنولد بينيت : كاتب إنجليزي (١٨٦٧-١٩٣١) .

(٣) سومرست ماوغهام : كاتب انجليزي (١٨٧٤-١٩٦٥) .

(٤) وينستون تشرشل : هو السياسي الإنجليزي المعروف (١٨٧٤-١٩٦٥) .

متجولين عبر طرق تشيلي الطويلة جداً ، يعود (ألّيندي) فيغرق في نومه بدون أي جهد . كل خمس وعشرين دقيقة كان المشهد يُعاد : مجموعة ، رايات ، نشيد ، خطاب ، عودة إلى النوم وهكذا دواليك .

كان يقابل التظاهرات الهائلة المؤلفة من آلاف من التشيليين ، يبدل بالسيارة القطار وبالقطار الطائرة وبالطائرة الباخرة وبالباخرة الحصان ، فأتم (ايينده) بلا تردد أشغال تلك الأشهر المضنية المنهكة . ومن خلفه كان أعضاء موكبه منهكين مرهقين . من بعد ، حين أصبح رئيساً فعلياً وشرعياً لتشيلي سببت فعاليته غير الرحيمة أربع أو خمس سكتات قلبية بين مساعديه ومعاونيه .

سفارة في باريس:

حين وصلت لأقوم بأعباء سفارتنا في باريس أدركت أن عليّ أن أدفع ضريبة ثقيلة إلى بطلاني . لقد وافقت على هذا المنصب دون أن أفكر في الأمر ملياً ، تاركاً نفسي لذبذبة الحياة . كان يطيب لي أن أمثل حكومة شعبية منتصرة توصلنا إليها بعد سنين طويلة من الصبر على حكومات غبية وكذابة . ربما أن الدافع الأكبر في أعماقي كان هو أن أدخل إلى دار السفارة التشيلية بباريس في كرامة جديدة ، فلطالما ذللت فيها حين كنت أنظم ترحيل الجمهوريين الأسبان باتجاه بلدي . كان كل واحد من السفراء السابقين قد ساهم في اضطهادي وتعذيبي ، كان كل واحد منهم قد شارك في إيذائي وجرح كرامتي . سيجلس المضطهَد على كرسي المضطهِد ، سيأكل على مائدته ، سينام على سريره ، سيفتح النوافذ كي يدخل الهواء الجديد إلى بناء السفارة العتيق .

كان أصعب شيء هو جعل الهواء يدخل . لقد تسرب الأسلوب الصالوني الخانق إلى خياشمي وعينيّ حين وصلت و(ماتيلده) في تلك الليلة من آذار عام ١٩٧١ إلى غرفة النوم واضطجعنا على الفراش الفاخر ، حيث مات بعض السفراء وبعض السفيرات في هدوء أو في فزع .

إنها غرفة نوم صالحة لإيواء فارس وفرسه ، ثمة سعة كافية لكي يتغذى الفرس وينام الفارس . إن السقف عال جداً ومزين بشكل ناعم . أما الأثاث فهو عبارة عن أشياء مخملية ذات لون غامق مثل لون ورقة جافة ، مزخرفة بهدابات مرعبة ، ينمّ هذا الأثاث عن ثروة وانحطاط في الوقت نفسه . ربما أن الزرابي قبل ستين سنة كانت

جميلة لكنها الآن اتخذت لوناً لا يقهر من حف ودعس ، ورائحة عث كرائحة أحاديث مجاملة ميتة .

كي يزيد الطين بلة فإن موظفي السفارة العصبيين كانوا قد فكروا في كل شيء إلا في تدفئة غرفة النوم العملاقة . قضينا ، أنا و(ماتيلده) ، أول ليلة ديبلوماسية في باريس ونحن متشنجان متجمدان .

في الليلة التالية سرت التدفئة في الغرفة ، كان لهذه المدفأة المركزية ستون سنة من العمر ، وهي تستعمل وتستخدم فتعطلت فيها المصافي والمسامّ . لم يكن الهواء الساخن في هذا الجهاز العتيق يترك شيئاً يمر إلا اللامائي من حامض الكربون .لم يكن عندنا الحق في أن نشكو من البرد كما في الليلة السابقة لكننا كنا نشعر بالاختلاج والغم من جراء التسمم . كان علينا أن نفتح النوافذ كي يدخل البرد الشتائي . ربما أن السفراء القدماء كانوا بهذا ينتقمون من متسلق جاء ليحل محلهم دون أن تكون له مميزات بيروقراطية ولا مآثر سلالية وعائلية .

فكرنا : يجب علينا أن نبحث لنا عن منزل حيث نستطيع التنفس مع الأوراق ، مع الماء ، مع العصافير ، مع الهواء . هذا التفكير كان يتحول مع الزمن إلى هوس . مثل سجينين مورقين ينتظران إطلاق حريتهما كنا نبحث ونبحث عن الهواء النقي خارج باريس .

كوني أصبحت سفيراً كان شيئاً جديداً وغير مريح بالنسبة لي . لكن هذا المنصب كان يتضمن تحدياً . كانت قد نشأت في تشيلي ثورة ، ثورة على الطريقة التشيلية ، محللة جداً ومناقش فيها كثيراً . كان أعداء الداخل والخارج يسنون أسنانهم كي يقوضوها . لقد تعاقب خلال مائة وثمانين سنة على حكم بلدي الحكام أنفسهم ولو كانوا بعناوين مختلفة . فعل هؤلاء الحكام جميعهم الشيء نفسه . استمرت الأسمال ، المنازل غير اللائقة بالبشر ، الأطفال بدون مدارس ولا أحذية ، السجون وضربات الهراوي على رؤوس شعبي المسكين .

الآن نستطيع أن نتنفس وأن نغني . هذا هو ما كان يعجبني في وضعي الجديد .

إن التعيينات الديبلوماسية في تشيلي تتطلب موافقة مجلس الشيوخ . كان اليمين التشيلي قد تملقني بشكل مستمر كوني شاعراً حتى إنه ألقى خطباً على شرفي . إنه لواضح أنهم كانوا سيلقون هذه الخطب بسرور أكثر على لحدي وفي مأتمي . في تصويت مجلس الشيوخ لإبرام تعييني سفيراً أنقذت بأكثرية ثلاثة أصوات

لا غير . صوت شيوخ اليمين وبعض الشيوخ من المنافقين-المسيحيين[١] ضدي تحت سر الكريات البيضاء والسوداء .

كان السفير السابق قد غطى الحيطان بصور أسلافه في المنصب دون تمييز بالإضافة إلى صورته الشخصية . كانوا مجموعة هائلة من شخصيات فارغة ما عدا اثنين أو ثلاثة منهم ، من بين هؤلاء الشهير المجيد (بليست غانا)[٢] وهو يعتبر «بلزاكنا» التشيلي الصغير . أمرت بإنزال الصور الطيفية واستبدلت بها أشكالاً أكثر صلابة : خمسة تماثيل منقوشة لأبطال منحوا تشيلي راية ، قومية ، استقلالاً ، وثلاث صور معاصرة : صورة (اغيره ثيردا) وكان رئيساً للجمهورية تقدمياً ، صورة (لويس ايميليو ريكابيرين) وهو مؤسس الحزب الشيوعي التشيلي ، وصورة (سالفادور أليندي) . أصبحت الحيطان أحسن وأفضل .

لست أدري ماذا كان يفكر به موظفو السفارة الديبلوماسيون وهم في مجموعهم يمينيون . كانت الأحزاب الرجعية قد طوقت واحتوت إدارة البلاد خلال مائة سنة . لم يكن يعين أحد ولا حتى حاجب إن لم يكن محافظاً أو ملكياً . برهن الديموقراطيون المسيحيون الذين يطلقون على حزبهم اسم «ثورة في حرية» من جهتهم على شره وحب في التسلط مثل الرجعيين العتاق . من بعد ستتحد المتوازيات إلى أن تصبح خطاً واحداً تقريباً .

البيروقراطية ، أرخبيلات الأبنية العامة ، كل شيء ظل مليئاً بموظفين ، بمفتشين ، بمستشارين من اليمين . كما لو أنه ما انتصر (اليندي) والوحدة الشعبية أبداً في تشيلي ، كما لو أن وزراء الحكومة الآن ليسوا اشتراكيين وشيوعيين .

في مثل هذه الظروف طلبت أن يملأ منصب المستشار في سفارتنا بباريس بأحد أصدقائي ، وهو ديبلوماسي خريج المدرسة الديبلوماسية وكاتب ذو أهمية كبيرة ، ألا وهو (خورخه ادوارس)[٣] مع أنه ينتمي إلى أسرة من أكثر الأسر رجعية في بلدي ، فقد كان رجلاً يسارياً دون انتماء حزبي معين . إن ما كنت أحتاج إليه هو موظف ذكي يعرف مهنته ويكون أهلاً لثقتي . كان (ادواردس) حتى تلك اللحظة القائم

---

(١) المنافقون-المسيحيون (Hipocrita-Cristiano) : لاحظ التلاعب اللفظي مع (Democrata-Cristianos) ، أي ، الديموقراطيون-المسيحيون .

(٢) بليست غاناCuillermo : روائي وديبلوماسي تشيلي (١٨٣٠-١٩٢٢) .

(٣) خورخه ادوارس : كتب كتاباً هاجم فيه حكومة كوبا الثورية .

بأعمال سفارتنا في «لا هافانا» . كانت قد وصلت إليّ بعض الأخبار الغامضة عن بعض الصعوبات التي كان يلاقيها في كوبا . بما أني كنت أعرفه على أنه رجل يساري خلال سنوات عديدة فلم أعط أهمية كبيرة لهذا الموضوع .

وصل مستشاري الفذ من كوبا عصبياً جداً وباح لي بحكايته . تكوّن لديّ الانطباع بأن الحق كان عند كلا الجانبين ولم يكن عند أي منهما ، كما يحدث أحياناً في الحياة . استعاد (خورخه ادواردس) شيئاً فشيئاً أعصابه الممزقة . فلم يعد يأكل أظافره وعمل معي بقدرة جلية وبذكاء ووفاء وإخلاص وجدارة . كان مستشاري هذا خلال تلك السنتين من العمل الصعب المرهق في السفارة ، أحسن زملائي ، وكان الموظف الوحيد في هذا المكتب الكبير الذي لم يكن فيه عيب من الناحية السياسية .

حين حاولت الشركة الأمريكية الشمالية فرض الحظر على النحاس التشيلي اجتاحت أوروبا بأسرها موجة من الغضب ، لم تكن الصحف والتلفزات والإذاعات هي وحدها من اهتم بهذا الموضوع بل دوفع عنا مرة أخرى بضمير شعبي كاسح .

عمال الموانئ في فرنسا وفي هولاندا رفضوا تفريغ شحنات النحاس في موانئهم لكي يعلنوا عن سخطهم تجاه هذا العدوان . لقد هز هذا السلوك الرائع العالم كله . إن مثل هذه الحكايا التضامنية تعلم تاريخ زمننا هذا أكثر مما يمكن أن يعلمه أساتذة الجامعات .

أذكر أيضاً حالات أكثر تواضعاً مع أنها أكثر تأثيراً في القلوب . في اليوم التالي على الحظر أرسلت لنا سيدة فرنسية متواضعة من مدينة صغيرة في محافظة من محافظات فرنسا مائة فرنك ، ثمرة توفيراتها كي تساعد في الدفاع عن النحاس التشيلي . وكذلك رسالة تضامن حارة وقعها السكان جميعاً ورئيس البلدية وراهب الكنيسة والعمال والرياضيون والطلبة .

من تشيلي كانت تصلني رسائل من مئات الأصدقاء المعروفين وغير المعروفين تهنئني على مجابهتي للقراصنة الدوليين دفاعاً عن نحاسنا . لقد تلقيت وساماً أرسلته امرأة فلاحة يحتوي على قرعة وأربع من الكمثرى ونصف «دزينة» من فليفلة خضراء حادة .

في الوقت نفسه أصبح اسم تشيلي عظيماً رائعاً . لقد تحولنا إلى بلد يوجد ويفرض وجوده . قبل كنا نمر فلا نُرى في مجموعة البلدان المتأخرة . الآن لأول مرة كانت لنا سيماء خاصة بنا ولم يكن في العالم من يجرؤ على إنكار عظمة صراعنا في تشييد مصير قومي لنا .

إن كل ما كان يحدث في وطننا كان يثير عاطفة فرنسا بله أوروبا قاطبة . اجتماعات شعبية ، مؤتمرات طلابية ، كتب تنشر في اللغات كلها ، كانوا يتدارسوننا ، كانوا يفحصوننا ، كانوا يصفوننا . أنا كان عليّ أن أكبح الصحفيين الذين كانوا في كل يوم يريدون أن يعرفوا كل شيء وأكثر من كل شيء . أصبح الرئيس (الينذي) رجلاً عالمياً . إن ثبات طبقتنا العمالية كان مثاراً للإعجاب والثناء .

إن المودة المتقدة نحو تشيلي قد تضاعفت بسبب المنازعات المتفرعة عن تأميم طبقات نحاسنا . لقد فهم الناس في أنحاء العالم كله أن هذا التأميم هو خطوة جبارة في سبيل استقلال تشيلي الجديد . لقد جعلت الحكومة الشعبية ، بدون أية مواربة من أي صنف ، سيادتنا على نحاسنا من أجل وطننا نهائية حاسمة .

الإياب إلى تشيلي:

حين عدت إلى تشيلي استقبلني سندس جديد في الطرقات وفي الحدائق . كان ربيعنا الرائع قد جعل يرسم باللون الأخضر على أوراق الغابات . تحتاج عاصمتنا القديمة الرمادية إلى الأوراق الخضراء كما يحتاج قلب الإنسان إلى الحب . فتنشقت النسيم النديّ من هذا الربيع الفتي . حين نكون بعيدين عن الوطن لا نذكر البتة فصول شتائه . إن البعاد يمحو أسى الشتاء وذكرى القرى المهملة ومنظر الأطفال الحفاة في البرد . لا يأتي لنا فن التذكر إلا بالأرياف الخضراء والأزهار الصفراء والحمراء والسماء المزرورقة التي يتغنى بها النشيد الوطني . هذه المرة شاهدت الفصل الجميل الذي كان من قبل رؤيا بعاد .

خضرة أخرى كانت تلطخ جدران المدينة . كان طحلب الكراهية يغطيها . لافتات ضد كوبا ، لافتات ضد السوفييت ، لافتات ضد السلام والإنسانية ، لافتات ضد الشيوعية تقطر سفاهة وكذباً وبهتاناً ، لافتات سفاحة سفاكة أفاكة تتكهن بمذابح ومجازر و«جاكارتاس»[1] . هذه هي الخضرة الجديدة التي كانت توسخ جدران المدينة .

---

(١) جاكارتاس Yakartas : ج جاكارتا وهي عاصمة اندونيسيا ، وهو بهذا يشير إلى المذابح التي اقترفت ضد الثوريين الأندونيسيين على أثر الانقلاب العسكري اليميني العميل للامبريالية الأمريكية الذي أطاح بحكم (سوكارنو) .

أنا كنت أعرف بالتجربة لحن هذه الدعاية ومعناها . فلقد عشت في أوروبا السابقة على عهد (هتلر) . كان هذا هو روح الدعاية الهتلرية ، الإفراط في الكذب ، حرب صليبية من تهديد وذعر ، انتشار أسلحة الكراهية كلها ضد المستقبل . شعرت بأنهم يريدون تغيير جوهر حياتنا نفسه . ما كنت أقدر أن أفسر لنفسي كيف يمكن أن يوجد تشيليون يهينون بهذا الشكل روحنا القومية .

حين غدا الإرهاب ضرورياً بالنسبة لليمين الرجعي استخدم اليمين الإرهاب بلا تردد وبلا تأنيب ضمير . إن الجنرال (شنيدير) الذي كان القائد الأعلى للجيش ، وهو رجل محترم ومحترِم عارض قيام انقلاب عسكري كان يهدف إلى منع تسلم (ايينده) سدة رئاسة الجمهورية فاغتالوه . مجموعة متنوعة من الأشرار الآثمين رشّته بالرصاص في ظهره فهوى قتيلاً قرب داره . كان يقود العملية جنرال سابق طرد من صفوف الجيش . كانت هذه الحفنة مؤلفة من شراذم صغار ومن مجرمين محترفين .

بعد أن ثبتت الجريمة على هذا الجنرال الذي خطط للجريمة سجن وحكمت عليه المحكمة العسكرية بثلاثين سنة في الحبس ، ولكن الحكم خفض إلى سنتين من لدن محكمة العدل العليا . إن رجلاً فقيراً يسرق عن جوع دجاجة يلقى ضعف العقوبة التي أنزلت بمن اغتال القائد الأعلى للجيش . إنه التطبيق الطبقي للقوانين التي سنتها وشرعتها الطبقة المسيطرة .

إن انتصار (ايينده) قد سبب لهذه الطبقة المسيطرة ذعراً مميتاً . لأول مرة فكروا في أن القوانين التي فبركوها في حيطة وحذر قد تضربهم على رؤوسهم . هرولوا بأسهمهم المالية وبجواهرهم وحليهم وعملاتهم الصعبة إلى الالتجاء في جهة من الجهات . ذهبوا مع ذهبهم إلى الأرجنتين ، إلى إسبانيا حتى إنهم وصلوا إلى أستراليا . إن خوفهم من الشعب قد جعلهم يصلون في سهولة إلى القطب الشمالي .

من بعد سيعودون .

(فريي Frei)[١] :

إن الطريق التشيلي المحدد من كل جهة بعراقيل جهنمية شرعية كان في كل

---

(١) فريي Eduardo : كان رئيساً للجمهورية التشيلية منع عام ١٩٦٠ إلى عام ١٩٦٥ ، ومن هذا العام إلى عام ١٩٧٠ ، أي إلى أن تولى (أليندي) مقاليد الأمور في تشيلي .

لحظة دستورياً ضيقاً . أثناء ذلك أصلحت طبقة الأقلية الحاكمة من ثوبها المهلهل الممزق وتحولت إلى عصبةٍ فاشية . إن الحصار الذي فرضته الولايات المتحدة على تشيلي إثر تأميم النحاس أمسى أكثر تعنتاً وظلماً . لقد رمت L.T.T بالاتفاق مع الرئيس السابق (فريي) الديموقراطية المسيحية في أحضان اليمين الفاشي الجديد .

لقد شغلت شخصيتا (اليندي) و(فريي) المتناقضان المتنافرتان شعب تشيلي على الدوام . ربما يعود ذلك إلى هذا التباين في ما بينهما فهما رجلان جد مختلفين ، زعيمان على طريقتهما الخاصة بكل منهما في بلد بدون زعامة ، كل واحد منهما له أهدافه وطريقه المحدد جداً .

أعتقد أني أعرف معرفة جيدة الرئيس (ايينده) ، لم يكن فيه أي شيء مبهم معمى . أما بالنسبة لـ(فريي) فقد كنت زميله في مجلس الشيوخ . هو رجل غريب الأطوار ، متبصر جداً ، بعيد جداً عن العفوية الأليندية . مع ذلك ينفجر بشكل مألوف في ضحكات عنيفة في قهقهات تصرّ الآذان . بالنسبة لي فإنه يعجبني الناس الذين يضحكون مقهقهين (أنا ليست لي هذه الموهبة) . لكن ثمة قهقهات وقهقهات . قهقهات (فريي) تخرج من وجه مهموم ، جاد ، يراقب خرم الإبرة التي يخيط بها خيطه السياسي الحيوي . إنها لضحكة مفاجئة تذهل شيئاً ما كما نعيب بعض الطيور الليلية . أما من جهة أخرى فإن سلوكه يكون عادة رصيناً وودوداً بشكل بارد .

إن تعرجاته السياسية كانت تحبط عزائمي إلى أن أياستني منه تماماً . أذكر أنه جاء ذات مرة ليراني في داري بـ«سانتياغو» . كانت تطفو في ذاك الحين فكرة تفاهم بين الشيوعيين والديموقراطيين المسيحيين . هؤلاء ما كانوا آنذاك يُسمَّون هكذا بل كانوا ما يزالون يحتفظون باسم «فلانخه ناثيونال» Falange Nacional [1] وهو اسم فظيع تبنوه تحت التأثير الذي أحدثه فيهم الشاب الفاشي (بريمو دي ريبيرا) ، من بعد ، حين انقضت الحرب الإسبانية ، أثّر فيهم (ماريتاين)[2] وأصبحوا معادين للفاشية وغيَّروا الاسم .

كان حديثي معه غامضاً ولكنه كان ودياً . بالنسبة لنا نحن الشيوعيين كان يهمنا التفاهم مع جميع الناس والجهات ذات النية الطيبة ، إن كنا منعزلين لن نصل إلى

---

(١) فلانخة ناثيونال : معناها ، الكتائب الوطنية .

(٢) ماريتاين Jacques : فيلسوف فرنسي ، ولد عام ١٨٨٢ .

أية جهة . أكد لي (فيريي) داخل مراوغته الطبيعية يساريته الظاهرية لذاك الوقت . ودّعني وهو يهدي إليّ واحدة من هذه القهقهات التي تتساقط من فمه كالأحجار . «سنواصل الحديث» ، قال ، لكن بعد يومين أدركت أن حديثنا قد انتهى إلى الأبد .

بعد انتصار (ايينده) خلق (فريي) وهو السياسي الطموح البارد حلفاً رجعياً له لكي يعود إلى السلطة . لقد كان مجرد حلم العنكبوت السياسي المجمد . نسيجه لن يدوم ، لن يفيده في شيء الانقلاب العسكري الذي استهواه . إن الفاشية لا تسمح بالتعاقدات بل تطلب امتثالاً وخضوعاً . إن شخص (فريي) سيصبح في كل عام أكثر عتمة وسيكون عليه أن يجابه ذات يوم مسؤولية الجريمة .

(توميك Tomic):

لقد اهتممت بالحزب الديموقراطي-المسيحي منذ ولادته ، منذ أن هجر اسمه المنكر اسم «فلانخه» . لقد نشا هذا الحزب حين شكلت مجموعة قليلة من المفكرين الكاثوليك حلقة «ماريتانية» و«تومية»(١) . لم أهتم بهذا التفكير الفلسفي إذ إن لي لا مبالاة طبيعية تجاه منظّري الشعر والسياسة والجنس . لقد تجلت النتائج العملية لهذه الحركة الصغيرة بشكل فريد غير متوقع . توصلت إلى أن أجعل بعض القادة الشبان في هذه الحركة يتكلمون لصالح الجمهورية الإسبانية في مهرجانات سياسية كبيرة نظمتها بعد عودتي من مدريد المناضلة . لقد كانت هذه المشاركة غير عادية إلى درجة أن الزعامة الدينية الإكليروسية العتيقة كانت على وشك أن تحل الحزب الجديد يدفعها إلى ذلك الحزب المحافظ . لن ينقذهم من الانتحار السياسي سوى تدخل أسقف رائد . إن بيان أسقف «تالكا» Talca أنقذ حياة هذه المجموعة التي أصبحت مع الزمن أكثر الأحزاب السياسية عدداً في تشيلي . تغيرت عقيدته مع مضي السنين بشكل كامل .

لقد كان الرجل الأهم بين المسيحيين الديموقراطيين بعد (فريي) هو (رادوميرو توميك) . عرفته أثناء فترتي البرلمانية ، وسط الإضرابات والجولات الانتخابية في شمال تشيلي . لقد كان الديموقراطيون المسيحيون اذّاك يطاردوننا (أقصد الشيوعيين) ليشاركوا في مهرجاناتنا السياسية . نحن كنا (وما زلنا) أكثر الناس شعبية في

---

(١) تومية : نسبة إلى مذهب (توما الأكويني) في الفلسفة .

صحراء ملح البارود والنحاس ، أي ، بين أكثر الكادحين تضحية في القارة الأمريكية . من هناك كان قد خرج (ريكابارّين) ، هناك كانت قد ولدت الصحافة العمالية وأوائل النقابات ، لولا الشيوعيون ما كان وجد شيء من هذا كله .

لم يكن (توميك) في تلك الفترة أمل الديموقراطيين المسيحيين فحسب ، بل كان كذلك شخصيتهم الجذابة جداً وكلمتهم الفصيحة جداً .

كانت الأشياء قد تغيرت كثيراً في عام ١٩٦٤ حين ربحت الديموقراطية المسيحية الانتخابات التي رفعت (فريي) إلى سدة رئاسة الجمهورية . إن حملة المرشح الذي فاز على (ايينده) قد قامت فوق قاعدة من العنف ضد الشيوعية لم يسبق لها نظير ، منظمة بألحان صحفية وإذاعية كانت تهدف إلى إرهاب السكان . كانت تلك الدعاية توقف شعر الرأس : الراهبات سيعدمن! الأطفال سيمثل فيهم بالحراب الملتحون الشبيهون بكاسترو! الطفلات الصغيرات سيؤخذن عنوة عن آبائهم وأمهاتهم ليرسلن إلى سيبيريا! عُرف في ما بعد من تصريحات أدلت بها لجنة التحقيق التابعة لمجلس الشيوخ في الولايات المتحدة أن إدارة C.I.A أنفقت عشرين مليون دولار في تلك الحملة الإرهابية .

بعد أن نُصّب (فريي) رئيساً للجمهورية ، صنع حاضراً يونانياً لمنافسة الكبير الوحيد في الحزب : عين (رادوميرو توميك) سفيراً لتشيلي في الولايات المتحدة . كان (فريي) يعرف أن حكومته ستعيد النظر في الاتفاقيات المعقودة مع شركات النحاس الأمريكية الشمالية . ففي تلك اللحظة كان البلد كله يطالب بتأميم النحاس . استبدل (فريي) بصفته خبيراً مشعوذاً ، بعبارة التأميم كلمة «تشييل النحاس»[١] فأبرم باتفاقيات جديدة موضوع تسليم ثروتنا الوطنية الرئيسية إلى الشركتين الطائلتين «كينوكوت» و«أناكوندا كوبير كومباني» كانت النتيجة الاقتصادية لتشيلي مريعة جداً . النتيجة السياسية بالنسبة لـ(توميك) . كانت حزينة جداً : فلقد محاه (فريي) من الخرايطة . إن سفيراً لتشيلي في الولايات المتحدة يساهم في تسليم النحاس للشركات الأجنبية لن يدعمه الشعب التشيلي مطلقاً . لذلك جاء (توميك) في الانتخابات الرئاسية الثالثة من بين ثلاثة مرشحين .

بعد قليل من تخليه عن منصبه سفيراً لتشيلي في الولايات المتحدة جاء

---

(١) تشييل النحاس : أي جعله تشيلياً .

(توميك) في مطلع عام ١٩٧١ ليراني في «إيسلا نيغرا» . كان حديث الوصول من الشمال وفي ذلك الوقت لما يكن بعد قد رشح نفسه رسمياً للرئاسة ، لقد حافظنا على صداقتنا وسط الاضطرابات السياسية وما زلنا نحافظ عليها حتى الآن . لكننا في صعوبة تفاهمنا هذه المرة ، هو كان يريد إجراء تحالف أوسع بين القوى التقدمية بدلاً من حركتنا حركة الوحدة الشعبية تحت اسم اتحاد الشعب . إن مثل هذا الاقتراح كان مستحيل التحقيق ، فمشاركته في المفاوضات النحاسية لا تؤهل ترشيحه أمام اليسار السياسي ، أضف إلى هذا أن الحزبين الأساسيين الكبيرين في الحركة الشعبية : الشيوعي والاشتراكي كانا قد بلغا سن الرشد وعلى قدرة كافية لكي يوصلا إلى سدة الرئاسة واحداً من صفوفهما .

قبل أن يذهب من داري ، وقد كان يائساً ، باح لي (تويك) بأمر مهم . وزير المالية الديموقراطي المسيحي (اندريس ثالديبار) أطلعه بالوثائق على إفلاس الواقع الاقتصادي في البلد آنذاك .

- نحن نمضي على الهاوية -قال لي (توميك)- . إن الوضع لا يسمح بأكثر من أربعة أشهر . إنها لمصيبة . لقد زودني (ثالديبار) بكل التفاصيل عن إفلاسنا الذي لا مفر منه .

بعد شهر من انتخاب (ايينده) وقبل أن يتولى رئاسة الجمهورية رسمياً أعلن (ثالديبار) على الملأ أن مصيبة البلد الاقتصادية مشرفة على الوقوع ، لكنه عزاها هذه المرة إلى ردود الفعل الدولية التي أثارها انتخاب (أليندي) هكذا يُكتب التاريخ . على الأقل هكذا يكتبه السياسيون الملتوون الانتهازيون من أمثال (ثالديبار) .

(ايينده Allende):

كان شعبي أكثر شعب غُدر به في هذا الزمن . لقد نشأت من صحاري ملح البارود ، من مناجم الفحم تحت البحرية ، من المرتفعات الرهيبة حيث يرقد النحاس وتستخرجه أيدي شعبي بأعمال غير إنسانية ، نشأت حركة تحريرية ذات أهمية كبيرة . هذه الحركة حملت إلى رئاسة الجمهورية في تشيلي رجلاً يدعى (سالفادور ايينده) لكي يقوم بإجراء إصلاحات وتأدية مهام عادلة لا يمكن تأجيلها ، حتى ينقذ ثروتنا القومية من المخالب الأجنبية . حيث حل ونزل ، في أكثر الأقطار بعداً عن بلدنا ، أعجبت الشعوب بالرئيس (ايينده) وأثنت على جبهة حكومتنا الائتلافية

الرائعة . أبدا في تاريخ مقر هيئة الأمم المتحدة بنيويورك ما سمع تصفيق حاد كالذي قابل به مندوبو العالم كله رئيسنا . هنا ، في تشيلي ، كان يشاد ، بين صعوبات جمة ، مجتمع عادل بشكل حقيقي ، يقام على قاعدة سيادتنا ، على أس كرامتنا القومية ، على دعامة بطولة أحسن سكان تشيلي . كان إلى جانبنا ، إلى جانب الثورة التشيلية ، الدستور والقانون ، الديموقراطية والأمل .

لم يكن ينقص الجانب الآخر شيء من الأشياء . كان لهم مهرجون ومشعوذون ، سحرة مدربون ، إرهابيون ، حملة مسدسات وسلاسل حديدية ، رهبان مزيفون وعساكر مخلوعون حقيرون . هؤلاء وأولئك كانوا يدورون ويلفون في «كاروسيل»[1] المكتب . كانوا يروحون يداً بيد مع الفاشي (خاربا Jarpa) وبنيه «وطن وحرية»[2] مستعدين لكسر رأس كل ما يوجد وإزهاق روح كل من يوجد بغرض استرداد الحانوت الكبير الذي كانوا يسمونه : «تشيلي» . بجانبهم لكي يحيي سهرة هذه الفرقة المتجولة ، كان يرقص راقص مصرفي كبير ، شيء ملوث بالدماء ، وبطل رقصة «الرومبا» هذا هو (غونثاليث بيديلا) الذي سلم وهو «يرومبي ، حزبه منذ زمن طويل إلى أعداء الشعب . الآن كان (فريي) هو من يعرض حزبه الديموقراطي المسيحي على أعداء الشعب أنفسهم ، فكان يرقص على الوقع الذي يعزفه هؤلاء له ، وكان يرقص كذلك مع العقيد السابق (بياوكس) الذي شاركه في فعلته . هؤلاء كانوا الفنانين الرئيسيين في المهزلة . كانوا قد أعدّوا وهيأوا مؤن الاحتكار : «المجيليين»[3] ، أدوات السحل ، الرصاصات التي بالأمس أماتت شعبنا في «اكيكه» ، في «رانكين» ، في «سالفادور» ، في «بورتو مونت» ، في «لا خوسه ماريا كارو» ، في «فروتيار» ، في «بوينته التو» ، وفي عدة أماكن أخرى . إن مغتالي (هرنان ميري) كانوا يرقصون مع الذين كان من المفروض أن يدافعوا عن ذكراه على الأقل . كانوا يرقصون رقصاً طبيعياً بشكل منافق . كانوا يشعرون بالإهانة أن عوتبوا على هذه «الأشياء الصغيرة» .

إن لتشيلي تاريخاً مدنياً طويلاً بقليل من الثورات وكثير من الحكومات الثابتة

---

(١) كاروسيل Carrousel : هي كلمة فرنسية معناها ، أرجوحة الخيل ، حيث عدة فرسان يؤدون حركات تبهر الأنظار ، وهي بمعنى التهريج .

(٢) وطن وحرية : شعار الحزب .

(٣) المجيليون Miguelitos : كل من يسمى بـ(ميجيل) وهو هنا بالتصغير للتحقير .

وهي حكومات محافظة وقليلة الشأن . رؤساء صغار كثيرون ما عدا اثنين كانا رئيسين كبيرين وهما (بالماثيدا)[1] و(ايينده) .

وما هو غريب حقاً أن كليهما ينحدر من الوسط نفسه ، من البورجوازية المثرية التي تسمي نفسها هنا بالأرستوقراطية . بما أنهما كانا رجلي مبادئ وهبا نفسيهما في سبيل إعلاء شأن بلد جعلته الطبقة الحاكمة الغبية قليل الشأن ، فقد قيدا إلى الموت بالطريقة نفسها . أجبر (بالماثيدا) على الانتحار لأنه قاوم ضد منح ثروتنا من ملح البارود إلى الشركات الأجنبية .

(ايينده) اغتيل لأنه أمّم الثروة الأخرى المختزنة في جوف أرض تشيلي وهي النحاس . وفي كلتا الحالتين قامت الأقلية التشيلية بثورات دامية ، وفي كلتا الحالتين تحول العساكر إلى كلاب صيد لهذه الطبقة المستغلة . الشركات الإنجليزية في عهد (بالماثيدا) والشركات الأمريكية في عهد (ايينده) حرضت على هذه الانتفاضات العسكرية وأنفقت عليها الأموال .

وفي كلتا الحالتين نُهب منزل الرئيس بأمر من «أرستوقراطيتنا» المبجلة . قاعات منزل (بالماثيدا) قوضت بضربات الفؤوس . أما منزل (ايينده) ، فبفضل تقدم العالم ، قصفه من الجو طيارونا البواسل .

غير أن هذين الرجلين كان يختلف أحدهما عن الآخر اختلافاً كبيراً . كان (بالماثيدا) خطيباً آسراً . كانت له طبيعة تحب السيطرة أخذت تقربه أكثر فأكثر من الحكم الفردي . كان أكيداً من سموّ مقاصده . في كل لحظة كان يرى أنه محاط بالأعداء . لقد كان تفوقه على الوسط الذي كان يعيش فيه كبيراً جداً وكذلك غدت وحدته كبيرة جداً فأدت به إلى الانطواء على نفسه . أما الشعب الذي كان من المفروض أن يدعمه فلم يكن حينذاك يوجد كقوة ، أي ، لم يكن منظماً . لقد كان مصير ذاك الرئيس أن يصبح إشعاعاً ، أن يظل حالماً : إن حلمه بالعظمة بقي حلماً . بعد اغتياله تملّك التجار الأجانب الجشعون والبرلمانيون «الكريوبيون» ملح البارود . للأجانب الملكية والامتياز و«للكريوبيين»ا لموسسات . بعد أن تقاضوا أجرهم عادت الأمور إلى مجاريها وجفت دماء آلاف الرجال من أبناء الشعب الذين سقطوا في ميادين المعركة . فلم يتوقف عمال شمال تشيلي وهم أكثر طبقة مستغَلة في العالم ، منذ ذلك الحين عن

---

(١) بالماثيدا Jose' Manuel : هو محام وسياسي تشيلي (١٨٣٨-١٨٩١) .

إنتاج كميات هائلة من الليرات الإسترلينية في سبيل «لندن سيتي» .

لم يكن (ايينده) خطيباً بارزاً أبداً . أما بصفته سياسياً فقد كان حاكماً يستشير قبل اتخاذ أي إجراء ، لقد كان عدواً للديكتاتورية وكان ديموقراطياً مبدئياً حتى في الجزئيات الضئيلة ، فلقد حالفه الحظ إذ وجد بدل شعب (بالماثيدا) الغر طبقة عمالية قوية كانت تعرف كل شيء . لقد كان هذا الرجل ، مع أنه لم يخرج من بين صفوف الطبقة العاملة ، نتاج نضال هذه الطبقات ضد الجمود وفساد الطبقة المستغلة . لهذه العوامل والأسباب كان ما حققه (ايينده) خلال هذه الفترة القصيرة أكثر بكثير مما حققه (بالماثيدا) بل هو أعظم ما حُقِّق على مدى تاريخ تشيلي كله . إن تأميم النحاس وحده كان عملاً جباراً بالإضافة إلى مشاريع أخرى تمت في عهد حكومته ذات الطبيعة الجماعية .

إن أعمال (ايينده) وآثاره ذات القيمة القومية التي لا تمحى أغضبت أعداء حريتنا ، والرمز المأساوي لهذه الأزمة ينمّ عنه قصف القصر الرئاسي . إن المرء ليتذكر la Blitz Krieg للطيران النازي في قصف مدن آمنة عزلاء ، مدن إسبانية وإنجليزية وروسية ، الآن كانت الجريمة نفسها تحدث في تشيلي إذ أن طيارين تشيليين نهشوا وانقضوا على القصر الذي كان خلال قرنين من الزمن مركز الحياة المدنية في البلاد .

إني أكتب هذه السطور العاجلة في مذاكراتي بعد انقضاء ثلاثة أيام فقط على تلك الأحداث التي لا يمكن نعتها ، والتي أدت إلى موت صاحبي ورفيقي العظيم الرئيس (ايينده) . لقد أحاطوا اغتياله بجدار من الصمت ودفنوه سراً ولم يسمحوا إلا لأرملته بأن ترافق ذاك الجثمان الذي لا يموت . إن رواية المعتدين هي أنهم وجدوه جثة هامدة بأدلة بيِّنة على أنه انتحر . أما الرواية التي انتشرت في الخارج فهي مختلفة إذ إنه بعد القصف الجوي اقتحمت الدبابات ، الدبابات الكثيرة ، لتقاتل في بسالة رجلاً وحيداً فرداً : ألا وهو رئيس جمهورية تشيلي (سلفادور أليندي) الذي كان ينتظرهم في مكتبه دون أن يكون له من رفيق غير قلبه العظيم ، وقد أحيط بالدخان والنيران .

لقد كان لهم أن ينتهزوا هذه الفرصة النادرة ، كان لا بد من إفراغ الرصاص من الرشاشات في جسده فهو لن يتخلى أبداً عن منصبه . فدفن ذاك الجسد سراً في مكان ما . لقد مضى ذاك الجثمان إلى اللحد لا يصاحبه إلا امرأة واحدة وحيدة تحمل في نفسها ألم العالم كله ، إن تلك الشخصية المجيدة الميتة كانت تمضي وهي مخرقة برصاص رشاشات عساكر تشيلي الذين خانوا تشيلي مرة أخرى .

نيرودا - حياته وأعماله

١٩٠٤ - ١٢ تموز : يولد نيفتالي ريس باسوالتو (بابلو نيرودا) في قرية «العريشة» بتشيلي .

آب : تموت أمه ، وقد ترك موتها في نفسه أثراً يظهر في شعره وفي حياته .

١٩٠٦ - ينتقل والده إلى بلدة «تيموكو» ليعمل سائق قطار في السكك الحديدية . فيأخذ الطفل معه إلى هذه البلدة ، حيث يعود الأب ليتزوج من جديد .

١٩١٠ - ينتسب إلى معهد هذه البلدة إلى أن ينهي دراسته الثانوية - قسم الآداب .

١٩١٧ - ١٨ تموز : ينشر في إحدى صحف هذه البلدة أول محاولة أدبية له ، وهي مقالة بعنوان «حماسة ومثابرة» موقعة باسمه الحقيقي .

١٩١٨ - ٣٠ تشرين الثاني : ينشر في مجلة كانت تصدر في العاصمة «سانتياغو» أول قصيدة له عنوانها «عيناي» .

تظهر له في هذه السنة ثلاث قصائد منشورة في المجلة نفسها بالإضافة إلى قصائد أخرى نشرت في مجلات طلابية أدبية .

١٩١٩ - يبدأ بنشر قصائده تحت عدة أسماء مستعارة .

يشترك في مسابقة شعرية فيحصل على الجائزة الثالثة عن قصيدة له بعنوان «ليليّ مثاليّ» .

١٩٢٠ - تشرين الأول : يتخذ له نهائياً اسماً مستعاراً ، وهو الاسم الذي عرف به حتى إنه طغى على اسمه الحقيقي ومحاه كلياً ، وسبب اتخاذه هذا الاسم (بابلو نيرودا) يعود إلى إعجابه الفائق بالشاعر والكاتب القصصي التشيكوسلوفاكي (جان نيرودا) الذي عاش في براغ ما بين عام ١٨٣٤ وعام ١٨٩١ .

٢٨ تشرين الثاني : يحصل على الجائزة الأولى من لجنة مهرجان الربيع ببلدة تيموكو .

يعين رئيساً للنادي الأدبي في هذه البلدة وينتخب نائب الأمين العام لجمعية الطلبة في هذه المنطقة .

يعد ديوانين للنشر ولكنه لا ينشرهما بل يختار بضع قصائد منهما لينشرها في أول ديوان له «شفقيات» .

١٩٢١ - ينتقل إلى العاصمة سانتياغو لينتسب إلى معهد يعدّه ليصبح مدرساً للغة الفرنسية .

١٤ تشرين الأول : يحصل على الجائزة الأولى في مسابقة أعدها اتحاد الطلبة بتشيلي عن قصيدته «أغنية المهرجان» .

١٩٢٢ - تشرين الأول : تنشر مجلة «الأزمان» عدداً خاصاً عن شعر تشيلي الجديد ، وتعتبر (بابلو نيرودا) شاعر المستقبل وأحسن من يمثل هذا الشعر الجديد .

١٩٢٣ - آب : يظهر أول ديوان له تحت عنوان «الشفقيات» .

١٩٢٤ - حزيران : ينشر ديوانه الثاني «عشرون قصيدة حب وأغنية (بالرفع) يائسة» . .

١٩٢٥ - ينشر قصيدة طويلة في كتاب مستقل بعنوان «محاولة الإنسان اللانهائي» .

يترأس تحرير إحدى المجلات الأدبية ويساهم في مجلات عديدة .

١٩٢٦ - ينشر كتاب «خواتم» وهو نثر فني ، اشترك معه في هذا الكتاب الأديب الكاتب ، مواطنه ، (توماس لاغو) . ينشر رواية له بعنوان «القاطن وأمله» . يبدأ بترجمة العديد من الكتاب والشعراء الفرنسيين كان قد ترجم - من قبل عن الفرنسية - ولكن هذه الترجمات لم تلق النجاح الذي أخذت تلقاه ترجماته الجديدة .

١٩٢٧ - يعين قنصلاً فخرياً في «رانغون» (بيرمانيا) .

في طريقه إلى رانغون يزور ليشبونه ومدريد وباريس ومارسيليا .

١٩٢٨ - يعين قنصلاً في «كولومبو» (سيلان) .

١٩٢٩ - يحضر في كالكوتا بالهند مؤتمراً من أجل استقلال الهند .

١٩٣٠ - يعين قنصلاً في باتابيا (جوه ، اندونيسيا) .

٦ تشرين الثاني : يتزوج من (ماريا Maria) التي التقى بها في «جاوه» .

١٩٣١ - يعين قنصلاً في سينغابور .

١٩٣٢ - يعود إلى تشيلي بحراً .

١٩٣٣ - ٢٤ كانون الثاني : ينشر ديوانه «حامل المقلاع المتحمس»

نيسان : ينشر الجزء الأول من ديوانه الرائع «إقامة في الأرض» ، يضمنه مجموعة من القصائد كتبها ما بين عام ١٩٢٥ وعام ١٩٣١ .

٢٨ آب : يصل إلى «بونوس ايرس» عاصمة الأرجنتين ليستلم منصبه قنصلاً عاماً فيها .

١٣ تشرين الأول : يتعرف على الشاعر الإسباني الخالد (فيديريكو غارثيا لوركا) الذي كان يزور الأرجنتين .

١٩٣٤ - ٥ أيار : يسافر إلى برشلونة بإسبانيا لاستلام منصبه قنصلاً فيها .

٤ تشرين الأول : تولد في مدريد ابنته (مالبا ماريا) .

٦ كانون الأول : يقدمه (لوركا) لطلبة جامعة مدريد في مهرجان تكريمي له حيث ينشد مختارات من شعره .

١٩٣٥ - ٣ شباط : ينتقل من برشلونة إلى مدريد قنصلاً عاماً في العاصمة الإسبانية .

١٥ أيلول : يظهر الجزء الأول والثاني من ديوانه «إقامة في الأرض» (١٩٢٥-١٩٣٥) .

تشرين الأول : يظهر العدد الأول من مجلة «حصان أخضر من أجل الشعر» برئاسة تحرير (بابلو نيرودا) .

١٩٣٦ - ١٨ تموز: تنشب الحرب الأهلية في إسبانيا ويقتل صديقه (لوركا).

يعزل من منصبه.

يسافر إلى باريس.

يصدر مجلة «شعراء العالم يدافعون عن الشعب الإسباني».

ينفصل عن زوجته التي عاش معها تعيساً غير سعيد.

١٩٣٧ - شباط: يلقي في باريس محاضرة عن (لوركا).

١٠ تشرين الأول: يعود إلى تشيلي.

٧ تشرين الثاني: يؤسس ويرأس «حلف مثقفي تشيلي من أجل الدفاع عن الثقافة».

١٣ تشرين الثاني: ينشر ديوانه «إسبانيا في القلب».

١٩٣٨ - ٧ أيار: يموت والده في تيموكو. ولم يكن (نيرودا) يشعر نحوه بأية محبة.

آب: يرأس تحرير مجلة «فجر تشيلي».

١٩٣٩ - يسافر إلى فرنسا.

١٩٤٠ - ٢ كانون الثاني: يعود إلى تشيلي.

١٦ آب: يصل إلى المكسيك حيث عين قنصلاً عاماً.

١٩٤١ - يسافر إلى غواتيمالا.

١٩٤٢ - نيسان: يسافر إلى كوبا.

٣٠ أيلول: ينشر قصيدته «نشيد حب إلى ستالينغراد».

تموت ابنته في أوروبا وهي مريضة بشلل الأطفال منذ ولادتها، ولم يرزق بغيرها.

١٩٤٣ - يسافر إلى الولايات المتحدة.

١ أيلول: يشرع بالعودة إلى تشيلي ماراً بالعديد من الأقطار الأمريكية اللاتينية حيث يلقى الترحيب وحسن الاستقبال إلى أن يبلغ سانتياغو في ٣ تشرين الثاني.

يتروج للمرة الثانية في المكسيك بامرأة تكبره بخمس عشر سنة: كان قد التقى بها في مدريد وتدعى (ديليا Delia) وهي رسامة أرجنتينية أثّرت فيه عقائدياً وجعلته ينحو منحى جديداً في حياته.

١٩٤٤ - يحصل على جائزة المجلس البلدي لمدينة سانتياغو.

١٩٤٥ - ٤ آذار: ينتخب نائباً في البرلمان.

يحصل على الجائزة القومية للآداب.

٨ تموز: ينتسب إلى الحزب الشيوعي التشيلي.

١ آب: يشرع السفر ليتجول في بعض أقطار أمريكا الجنوبية حيث ينشد قصائده ويلقي محاضرات عديدة.

أيلول : يكتب ملحمته الرائعة عن جبال «البيرو» تحت عنوان «مرتفعات ماكتشو-بيكتشو» .

١٩٤٦ - ٢٨ أيلول : يصدر حكم قضائي يعلن أن اسمه الرسمي قد أصبح (بابلو نيرودا) .

١٩٤٧ - يصدر ديوانه الكبير «إقامة ثالثة» ، ويضمنه كتباً صغيرة كان قد نشرها من قبل مثل «إسبانيا في القلب» .

١٩٤٨ - يصدر الأمر باعتقاله بعد عزله من مجلس النواب فيختفي عن أنظار رجال الأمن .

١٩٤٩ - ٢٤ شباط : يخرج هارباً من تشيلي عبر الجبال .

٢٥ نيسان : يحضر المؤتمر العالمي الأول لأنصار السلام وبذلك يظهر لأول مرة بعد طول اختفاء ، ويعين عضواً في المجلس العالمي للسلام .

يسافر إلى الاتحاد السوفييتي لأول مرة حيث يحضر الذكرى المائة والخمسين لبوشكين .

٢٧ حزيران : يجري له أدباء الاتحاد السوفييتي حفلة تكريم يحضرها أدباء من جميع أنحاء العالم .

تموز : يزور بولونيا وهنغاريا .

آب : يسافر إلى المكسيك حيث يمرض فيبقى فيها إلى نهاية العام تحت المعالجة .

١٩٥٠ - ينشر في المكسيك ديوانه الضخم «النشيد العام» . يسافر إلى غواتيمالا .

حزيران : يسافر إلى براغ ثم إلى باريس .

يسافر إلى روما ثم إلى نيودلهي حيث يلتقي بنهرو .

تشرين الثاني : يحضر في فارصوفيا المؤتمر الثاني لأنصار السلام .

٢٢ تشرين الثاني : يمنح جائزة السلام العالمي .

يدعى لزيارة تشيكوسلوفاكيا فيلبي الدعوة ويقضي في أحد قصورها فترة من الزمن .

١٩٥١ - يذهب إلى إيطاليا فيتنقل في أنحائها منشداً شعره أو مشرفاً على ترجمات كتبه .

آب : يحضر في برلين مهرجان الشباب العالمي الثالث .

يذهب بالقطار إلى جمهورية منغوليا الشعبية .

يزور الصين الشعبية .

١٩٥٢ - يقيم في إيطاليا .

ينشر ديوان «أشعار القبطان» .

١٢ آب : يعود إلى تشيلي فتجري له حفلات استقبال كثيرة .

كانون الأول : يسافر إلى الاتحاد السوفييتي بصفته عضواً في لجنة جائزة السلام العالمية .

١٩٥٣ - ٢٢ كانون الثاني : يعود إلى تشيلي .

٢٠ كانون الأول : يستلم جائزة ستالين للسلام .

١٩٥٤ - تموز : ينشر ديوانه «أناشيد بدائية» .

تموز : ينشر ديواناً آخر بعنوان «الأعناب والريح» .

١٩٥٥ - ينفصل عن زوجته الثانية التي لم يكن يحبها بل كان يعجب بها وبثقافتها الواسعة .

يتزوج للمرة الثالثة والأخيرة بماتيلده Matilde التي أحبها كثيراً وتغنى بها في كثير من قصائده .

ينشر كتابه «أسفار» Viajes وهو كتاب نثر يحكي فيه عن مشاهداته في رحلاته .

١٩٥٦ - كانون الثاني : ينشر ديوانه الجديد «أناشيد بدائية جديدة» .

١٩٥٧ - يختار رئيساً لجمعية الكتّاب في تشيلي .

١٨ كانون الأول : ينشر ديوانه «كتاب ثالث للأناشيد» .

١٩٥٨ - ١٨ آب : ينشر ديوانه الجديد «شاذّ» .

١٩٥٩ - يتجول في فنزويلا لمدة خمسة أشهر .

٥ تشرين الثاني : ينشر ديواناً جديداً بعنوان «ابحارات وعودات» .

٥ كانون الأول : ينشر ديوانه الغزلي «مائة أرجوزة غزلية» .

١٩٦٠ - يسرح في رحلة طويلة يزور فيها العديد من الأقطار الأوروبية والأمريكية .

ينشر في كوبا ديوان «أغنية مفخرة» .

١٩٦١ - شباط : يعود إلى تشيلي .

٢٦ تموز : ينشر ديوانه «أحجار تشيلي» .

٣١ تشرين الأول : ينشر في تشيلي ديوانه «أناشيد شعائرية» .

١٩٦٢ - ينشر في كتاب (بالاشتراك مع (ينكانور بارا) Nicanor Parra مجموعة خطب تحت عنوان «خطب» .

يسافر من جديد ليزور كثيراً من البلدان .

٦ أيلول : ينشر ديواناً جديداً بعنوان «صلاحيات كاملة» .

١٩٦٣ - تنشر له أعماله الكاملة - طبعة ثانية - .

١٩٦٤ - ١٢ تموز : ينشر له كتابه الجميل الكبير «مذكرة الجزيرة السوداء» في خمسة أجزاء بعناوين مختلفة .

٩ أيلول : ينشر ترجمته لرائعة شكسبير «روميو وجولييت» .

١٩٦٥ - شباط : يعود فيسافر إلى أوروبا .

حزيران : يمنح لقب دكتور شرف من جامعة أوكسفورد .

في هنغاريا يكتب (بالاشتراك مع الكاتب الروائي المعروف ، جائزة نوبل ، (ميغيل انخيل أستورياس) مجموعة مقالات نشرت في كتاب تحت عنوان «ونحن نأكل في هنغاريا» . وقد ترجم هذا الكتاب إلى أربع لغات أخرى ونشر الكتاب في أصله الإسباني وترجماته في وقت واحد .

يسافر إلى موسكو فيمنح الشاعر الإسباني (رافائيل البارتي) جائزة لينين بصفته عضواً في اللجنة المحكمة .

يعود إلى تشيلي عن طريق الأرجنتين .

١٩٦٦ - يعود للسفر فيذهب إلى الولايات المتحدة والمكسيك والبيرو .

ينشر ديوانه عن والطيور «فن العصافير» .

يكتب مسرحية بعنوان «بريق وموت» (خواكين موريتا) .

ينشر في برشلونه بإسبانيا ديوانه «الدار في الرمال» .

١٩٦٧ - نيسان : يعود فيسافر من تشيلي .

٢٢ أيار : يشارك في مؤتمر الأدباء السوفييت المنعقد في موسكو .

يزور إيطاليا وفرنسا وبريطانيا .

آب : يعود إلى تشيلي .

تطبع له مسرحيته وتمثل في تشيلي .

ينشر ديواناً جديداً بعنوان «أغنية للبحارة» .

تنشر له أعماله الكاملة (طبعة ثالثة مزيدة) في بونوس أيريس بالأرجنتين عن دار النشر «لوسادا» .

١٩٦٨ - ينشر ديوانه الجديد «أيادي النهار» وكان هذا الديوان قد نشر في أعماله الكاملة (الطبعة الثالثة) .

١٩٦٩ - ينشر ديواناً جديداً «نهاية العالم» .

١٩٧٠ - ينشر ديواناً آخر «أحجار السماء» . وآخر «السيف المتوقد» .

يعين سفيراً لبلاده في باريس .

١٩٧١ - ٢١ تشرين الأول : يفوز بجائزة نوبل للآداب .

ينشر ديواناً جديداً «ما زال» .

١٩٧٢ - ينشر آخر ديوان له «جغرافيا باطلة» .

يعود إلى بلاده ماراً بإسبانيا .

١٩٧٣ - ٢٣ أيلول : يموت بالسرطان في سنتياغو عاصمة تشيلي حيث دفن . بعد أن شهد الانقلاب العسكري الذي أطاح بالحكم الديموقراطي الذي كان هو أحد دعائمه ، ولذلك فإنه يقال بأنه قتل كما قتل الرئيس (سالفادور ايينده) بأيدي أعداء الحرية والنور والعدالة .

CONFIESO QUE HE VIVIDO: MEMORIAS

سيرة سيرة
AUTOBIOGRAPHY



إنّ هذه المذكّرات أو الذكريات متقطّعة تتناوب على فترات كثيرة السهو ،النسيان، لأنّه هكذا سنّة الحياة. إنّ تعاقب الحلم يجعلنا نقوى على تحمّل مشقّات العمل. حين أستحضر الذكريات أجد أنّ كثيرًا منها قد امّحى وعفا وغدا غبارًا ليس يهدأ كمثل زجاج جريح ليس يبرأ.

إنّ مذكّرات كاتب المذكّرات ليست مذكّرات الشاعر، ذاك ربّما عاش أقلّ من الشاعر. لكنّه التقط صورًا أكثر منه، فهو لذلك يمتعنا بالجزئيّات المتقنة المهذّبة، بينما الشاعر يمنحنا معرضًا من الأشباح المهتزّة المتراوحة بين النار والظلّ كانعكاس لعصر الشاعر.

ربّما أنّي لم أعش في ذاتي. ربّما عشت حيوات الآخرين.

بقدر ما استودعت هذه الصفحات من كتابة ستجود دائمًا - كما في غيل الخريف وكما في موسم الكرمة - الأوراق الصفراء الّتي تروح تموت والأعناب الّتي ستنبعث في النبيذ المقدّس.

حياتي هي حياة صيغت من كلّ الحيوات: حيوات الشاعر.



بابلو نيرودا

ISBN 978-614-419-504-8



